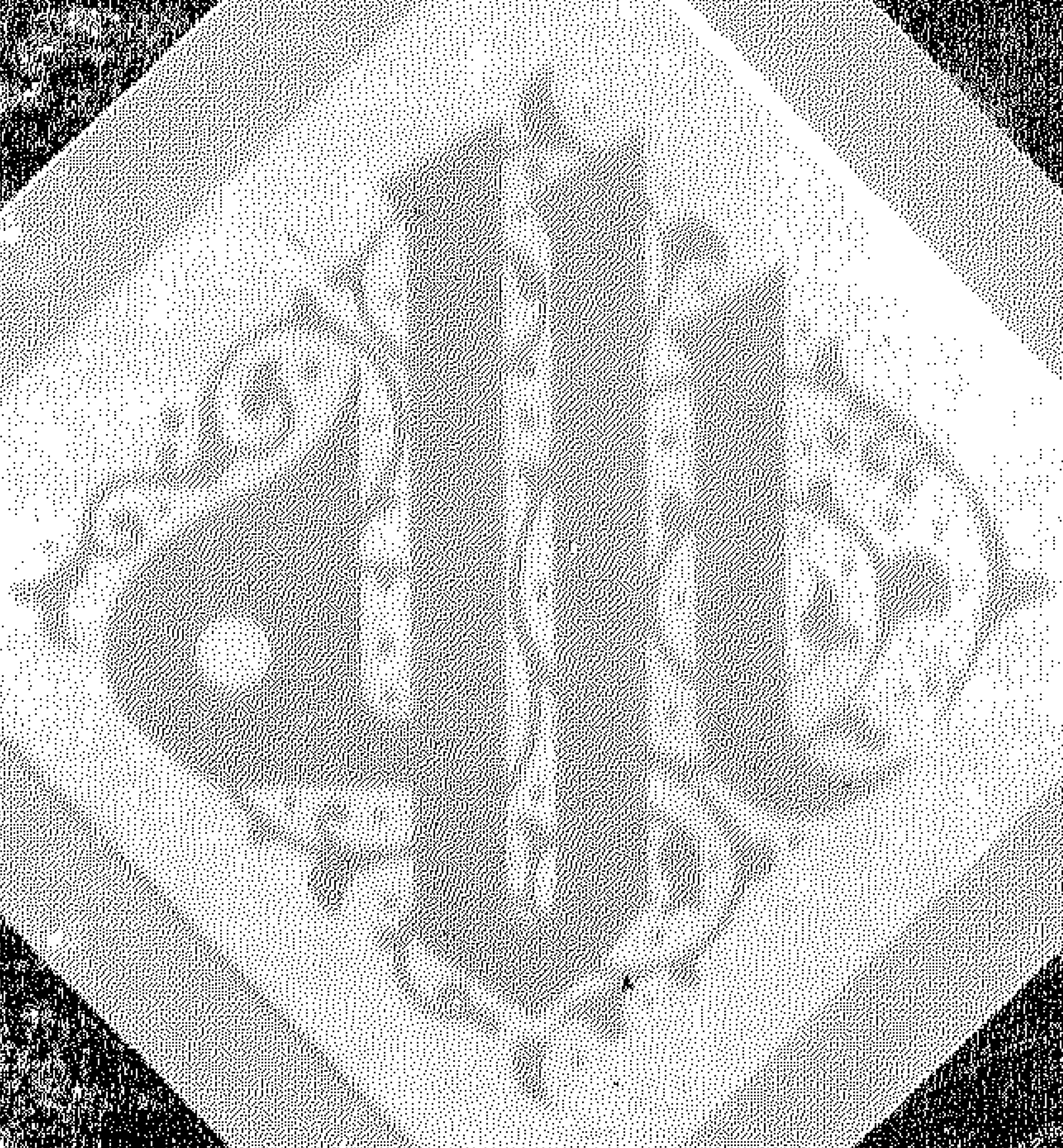


رؤوف أبو سعدة

العلم الأعجمى فى القرآن مفسرا بالقرآن

من إعجاز القرآن

(الجزء الثانى)

فى أعجمى القرآن

وجه فى إعجاز القرآن جديد

دار الهلال

اهداءات ٢٠٠٣
الدكتور/ حافظ يوسف
الإسكندرية

مــن إعجــاز القــرآن

العلم الاعجمى فى القرآن
مفسراً بالقرآن

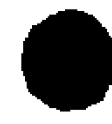
اهداء من دكتور
حافظ يوسف

فى أعجمى القرآن

وجه فى إعجــاز القــرآن جديـــــد

بقلم

رؤوف أبو سعدة



دار الهلال

(الجزء الثانى)

الغـــلاف للفنـــــان :

محمد العيسوى

مقدمة الجزء الثانى

بقلم : المؤلف

فى ١٨ يناير سنة ١٩٩٤ أصدرت «دار الهلال» الجزء الأول من كتابى «من إعجاز القرآن فى أعجمى القرآن» ، وها هى اليوم تصدر الجزء الثانى المتمم لهذا الكتاب .

ورغم الجهد الضخم الذى بذلته «دار الهلال» فى إخراج هذا الكتاب فى الثوب اللائق بموضوعه، فقد وقعت فى طباعة الجزء الأول هنات لايخلو من مثلها اليوم كتاب. وترد فى نهاية هذا الجزء الثانى قائمة بأهم تلك الأخطاء مع تصويباتها .

ولا يفوتنى التنويه بأننى كنت قد فرغت من كتابة هذا البحث منذ نحو ثلاث سنوات ، وبالتحديد فى ١٢ أبريل سنة ١٩٩١ ، على أساس أن يصدر كله فى مجلد واحد ، ولكن كبر حجم الكتاب الذى تجاوز سبعمائة صفحة ، وموضوعه المتخصص ، كانا وراء تأخرى فى نشره بسبب تخوف الناشرين الذين عرضته عليهم من نشر كتاب كهذا لمؤلف غير معروف . ولكن «دار الهلال» ، الرائدة فى هذا المجال ، قبلت مشكورة بركوب المخاطرة عندما عرضت عليها مسودة الكتاب فى ديسمبر سنة ١٩٩٣، إلا أنها اشترطت إصداره فى جزأين تيسيرا على القارىء .

وقد ترتب على قسمة الكتاب جزأين أن فات قراء الجزء الأول الاطلاع على قائمة المراجع فى ذيل الكتاب ، كما فاتهم أيضا الاطلاع على الفصل الأخير «فى ختام البحث» الذى يشرح قصة هذا البحث ، وكيفية إعداده ، ونتائجه ، كما يشرح الأساس الذى استندت إليه فى انتقاء مراجعه . ولو أتيح الكتاب كله دفعة واحدة للقارىء لرد جزؤه الثانى - الذى بين يديك - على كثير من النقدات التى تفضل بها الدكتور الطناحى فى تقديمه للجزء الأول ، وشاطره إياها الدكتور محمد رجب البيومى فى مقاله بعدد المصور ٣٦١٨ بتاريخ ١١ فبراير سنة ١٩٩٤ .

والذى ينبغى التنبيه إليه أن موضوع هذا الكتاب هو تفسير العلم الأعجمى فى القرآن بالقرآن نفسه ، ومن ثم فهو يدور على محورين اثنين فقط : (١) تأصيل معنى العلم الأعجمى فى لغة صاحبه ، وهذا يحتاج فحسب إلى مباحث لغوية متخصصة فى مصادرها «الأعجمية» ، لا شأن لها بالمصادر العربية القديمة والحديثة التى تناولت تفسير هذا الاسم الأعجمى أو ذاك ولم توفق لسبب بسيط هو عدم معرفة أصحابها بتلك اللغات الأعجمية التى أشتق منها العلمى الأعجمى فى القرآن ، ومن ثم فلا فائدة من استئناس المؤلف بها . (٢) استخلاص اللفظ القرآنى أو العبارة القرآنية المُفَسِّرَيْنَ لمعنى الاسم الأعجمى العلم على منهج المؤلف فى هذا الكتاب ، لا حاجة بالمؤلف إلى كتب التفسير وكتب الحديث ، وإنما كان استصحاب المؤلف لتفسير «القرطبى» على سبيل التمثيل فحسب لما قاله علماء التفسير فى معانى الأعلام الأعجمية فى القرآن وكلها حين تتصدى لتفسير الأسماء الأعجمية تفسر الأعجمى بالعربى . وتفسير القرطبى أكثر من كاف لأغراض هذا التمثيل .

قال الدكتور الطناحى أيضا أننى لم أستأنس بالمؤرخين العرب الذين كتبوا فى الترتيب التاريخى للأنبياء والمدد التى بينهم . والواقع أن هؤلاء المؤرخين حين كتبوا فيما لم ينص عليه القرآن والحديث الصحيح انما كانوا يستمدون رأساً من مرويات أهل الكتاب ، لا مصدر لهم غيرهم . والذى فعله المؤلف أوثق وأحصف ، لأنه فيما لم ينص عليه القرآن والحديث الصحيح يرجع رأساً إلى «العهد القديم» ، مصدر كل مرويات أهل الكتاب ، لا إلى مستنسخات من أقاصيص أهل الكتاب ، ومنهم الذين وصفهم الحق سبحانه بأنهم «لايعلمون الكتاب إلا أمانى» . على أن المؤلف لم يأخذ كل نصوص العهد القديم بالتسليم بل رد كثيرا منها من مثل المدة التى بين آدم ونوح عليهما السلام ، والتى بين نوح وإبراهيم عليهما السلام ، على نحو ما أورده فى التقديم لمبحث نوح .

أما أن المؤلف عم القول بأن «المصادر الأولى» - أى العربية - تهيبت تكذيب التوراة فيما نصت عليه من أن الذبيح هو اسحق لا اسماعيل ، وأن الحافظ بن كثير على سبيل المثال انتصر للرأى القائل بأن الذبيح هو اسماعيل لا اسحق ، فليس هذا بصحيح ، لأن المؤلف قال بالنص (صفحة ٢٨٦ سطر ١ من الجزء الأول) : «ان جمهرة

من المفسرين قالوا أن الذبيح هو اسحق .. ولم يقل كل المفسرين . وبعد أن ذكر المؤلف أسانيده فى تأييد القول بأن الذبيح هو اسماعيل لا اسحق ، عقب فى آخر الصفحة ٢٨٧ من الجزء الأول بقوله : وقد نبه على هذا كله أو معظمه اجلاء المفسرين الذين قطعوا بأن الذبيح هو اسماعيل . أما استشهاد ابن قيم الجوزية بنص القرآن على اجتماع يعقوب فى البشارة باسحق تنبيها على استحالة تصديق إبراهيم الرؤيا بذبح اسحق صبيا لم يولد له بعد يعقوب ، فهذا يصلح فى جدال خصومه من المفسرين القائلين بأن الذبيح هو اسحق ، ولا يصلح فى مواجهة أصحاب التوراة . أما المؤلف فقد استشهد من التوراة على التوراة التى جاء فيها أن الله بشر إبراهيم قبل سنة من مولد اسحق بابن يولد له منجاب كثير النسل ، اثباتا لتناقض الكاتب مع نفسه . حيث لا ذكر فى التوراة لاجتماع يعقوب مع اسحق فى البشرى باسحق .

أما القول فى استدلالى بحديث الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم من قوله للنسوة اللاتى تبعن الجنازة : ارجعن مأزورات غير مأزورات ، لأن «مأزورات» فى هذه العبارة جاءت على الازدواج الصوتى فحسب ، وليست من المطرد المنقاس ، ومن ثم فهو لا يصلح للتنظير بأن «ازر» و«وزر» سيان فى مبحث «آزر» ، فالحق أننى لم أستدل بهذا الحديث ولم أنَظّر به ، وإنما أوردته على سبيل الاستئناس فحسب . أما الذى استدللت به فهو أن «الأزر» من معانيه «الظهر» ، وأن «الآزر» - اسم أبى إبراهيم - يصلح بمعنى المأزور المحمول على أزره أى على ظهره ، وقلت بالنص «وإن لم يسمع من العرب» .

قال الدكتور الطناحى أيضا أن المؤلف يعمم القول بخطأ المفسرين واللغويين فى فهم عبارة القرآن «إن إبراهيم كان أمة» (النحل ، ١٢٠) بمعنى الرجل الجامع لخصال الخير «لا بمعنى القدوة أو الإمام كما فسرها المؤلف». والحق أننى بعضت ولم أعمم ، بل قلت بالنص فى حاشية الصفحة ٢٧٤ : قالت بعض التفاسير كما قالت بعض المعاجم. إلخ .

أما أنى خالفت قواعد النحو بقولى أن الاسم العلم لايوصف إلا على البدل أو الخبر ولا يوصف على النعت لأن النعت يخصص والاسم العلم متخصص بذات علميته ، فهذا بالفعل جديد لم يقل من قبل ، وكان حقه أن يقال : الفيصل الحاسم بين البدل والنعت أنك فى البدل تستطيع تقديم البدل على المبدل منه فى مثل «زيد التاجر»

و«التاجر زيد» دون إخلال بالمعنى من أى وجه ، ولكنك لا تستطيع تقديم النعت على المنعوت فى مثل «النجار الأمين» و «الأمين النجار» ، وإنما يصح ذلك فقط فى الاسم العلم .

وأما استيحاش الدكتور الطناحى لعبارة «موسيقى القرآن» التى استخدمها المؤلف ضمن «أوشاب» أى «شوائب» شابت أسلوبه «العذب المصفى» فعزائى هو قول الدكتور الطناحى أن هذه الأوشاب باتت كالعدوى المهلكة التى تتسلل إلى «الأساليب الشريفة» . مصداق ذلك أن الدكتور البيومى الذى أيد الدكتور الطناحى فى «نقداته الصائبة» استخدم هو نفسه عبارة «موسيقى القرآن» فى مقاله عن الكتاب بمجلة المصور غير مبال ، على أن الموسيقى التى أعنيها ليست هى الطبل والزمر والضرب بالدف وعزف القيان ، وإنما هى النغم والجرس والنظم والاتساق جميعا ، لا يصلح فى موضعها «النظم والاتساق» فقط كما اقترح الدكتور الطناحى : موسيقى القرآن تتحرى الحرف قبل اللفظ ، تلفظ الحوشى وتتحرى الجمال ، وما ذكره المؤلف فى الفصل الأول من الكتاب عن خصائص لغة القرآن كاف فى تبيان معنى «الموسيقى» الذى أراده المؤلف ، ففى الموسيقى ما يقرع السمع عنيفا ، وفيها أيضا الدمث اللين ، وما بين بين، ولكل مقام فى القرآن مقال . وأما أن الموسيقى لفظ أعجمى ، فقد أفاض المؤلف فى كتابه فى قواعد الاستعارة من اللغات الأعجمية وأنها مقبولة مشكورة حين الحاجة إليها وتعذر الاتيان بلفظ من العربية مساو تماما للفظ الأعجمى المستعار فى معناه ، بل لم يتحرج القرآن نفسه من هذه الاستعارة على نحو ما ضربناه من أمثلة من القرآن .

أما الدكتور البيومى فى مقاله بمجلة المصور ، فقد زاد من عنده ثلاث «نقدات» أولها أننى حين عرضت فى الجزء الأول لفتنة داود بامرأة ضابطه كنت أنقل عن إسرائيليات فندها الزمخشرى فى تفسيره ، وأننى لو اطلعت على هذا التفسير لنزهت داود عليه السلام عن ذلك . والواقع أننى اطلعت على ما قاله الزمخشرى ، ولا أوافق عليه لأنه مفتعل مصنوع لا سند له ، وإنما تعلق الزمخشرى بمقولة عصمة الأنبياء فأجهد نفسه فى تأويل الآيات ٢١ - ٢٦ من سورة ص على نحو يتصادم مع منطوق الآيات ، فقال إنما عوتب داود لأنه انشغل بالعبادة عن مجلس القضاء لا من أجل

افتتانه بامرأة ، وهذا يدفعه قول الحق سبحانه : « **وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب** » (ص : ٢٤) . ولست من القائلين بأن عصمة الأنبياء مطلقة ، وإنما هي فحسب في البلاغ عن الله عز وجل . ولم يستمد المؤلف مقولته من اسرائيليات دون تمحيص كما قال الدكتور البيومي في مقاله ، وإنما يستمد من النص القرآني ذاته . ولو صبر الدكتور البيومي لقرأ في الجزء الثاني في مبحث «سليمان» ما يثلج صدره في هذه القضية ، التي محصناها تمحيصا .

تابع الدكتور بيومي أيضا الدكتور الطناحي في قوله أنني لم أستفد من المصادر العربية ، فقال على سبيل المثال أنني لم أستفد من « مفردات » الراغب الأصفهاني ، لأنه في حديثه عن الأعلام الأعجمية يصلح أن يكون عمادا للمؤلف في كثير من اتجاهاته ولو رجع إليه لوجد فيه العضد والمعين . وقد سبق أن ذكرت أن تلك المصادر جميعا لا فائدة منها في تأصيل مباحث هذا الكتاب القائم ابتداء على تأصيل معاني الأعلام الأعجمية في القرآن استنادا إلى لغة صاحب الاسم العلم ، لا إلى أقوال المفسرين وعلماء العربية الذين لا يملكون أدوات هذا التأصيل لعدم معرفتهم بتلك اللغات الأعجمية . أما ما قاله الراغب الأصفهاني بشأن الاسم «آدم» - وهو اسم عربي يخرج عن مقاصد الكتاب كما ذكرت - فلا فائدة فيما زاده على ما جاء في القرطبي ، أعني تفسيره الاسم على معنى الخلق من عناصر وقوى متفرقة ، أو لما طُيِّب به من الروح المنفوخ فيه ، لأن الاسم «آدم» مفسر في القرآن في منهجنا في هذا الكتاب بأنه من التراب والأديم ، على نحو ما ذكره القرطبي وغيره ، وهذا كاف .

قال الدكتور البيومي في ثالثة «نقداته» أنه لا يتفق مع المؤلف في قوله أن أهل مدين أهم صحاب الأيكة ورتب الدكتور البيومي اعتراضه في الاحتجاج لمن قالوا أن مدين غير أصحاب الأيكة على أن القرآن قال **(وإلى مدين أخاهم شعيبا)** بينما قال في أصحاب الأيكة **(كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب ألا تتقون)** ولم يقل **(أخوهم شعيب)** ، فهو إذن ليس أخاهم ، وإنما غريب عنهم . وليس بلازم . ليس بالدليل المرجح إن لم يكن ملزما كما قال الدكتور البيومي . على أن المؤلف لم يبن مقولته في التوحيد بين مدين وأصحاب الأيكة إلا على نقطتين اثنتين : وحدة الرسول ، أي شعيب ، وثانيا وهو الأهم ، أن شعيبا يأخذ على هؤلاء ما يأخذ على أولئك ،

خسرانهم الكيل والميزان ويبخسهم الناس أشياءهم وعثوهم فى الأرض مفسدين (الآيات ١٧٧ ــ ١٨٩ من سورة الشعراء) . ومع وضوح حجة المؤلف فقد قال بالنص فى ختام كلامه : نقول هذا ولا تخوض فى غيب الله ، فالله عز وجل بغيبه أعلم (الصفحة ٢٥١ من الجزء الأول) .

على أننى مهما قلت لا أستطيع أن أفى الأستاذين الدكتور الطناحى والدكتور البيومى حقهما من الشكر على اشادتهما الكريمة بالكتاب وكاتبه ، فلا يسعنى إلا أن أقول : الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

وكل أملى أن يقابل الجزء الثانى من الكتاب - وهو بين يديك - بما قوبل به الجزء الأول من حفاوة وتكريم .

والحمد لله رب العالمين .

المؤلف

محمود رؤوف عبدالحميد أبو سعدة

الفصل السابع

موسى وهرون

يتناول هذا الفصل تفسير عشرة أعلام : موسى، هرون، فرعون، هامان، قارون، مصر، سيناء، التوراة، يأجوج ومأجوج، اليهود .

والأعلامُ الخمسةُ الأولى (موسى ـ هرون ـ فرعون ـ هامان ـ قارون) أصحابُها متعاصرون، فقدَّمنا أولياءَ اللهِ على أعدائه ورتَّبنا أعداءَ اللهِ على حسب أهميتهم . أما (مصر)، (سيناء)، فهما مسرحُ الأحداث . وفى سيناء نُودِىَ موسى وأُنزلت (التوراة) . وجاءت بعدَ التوراة (يأجوج ومأجوج)، التى ارتبطت فى القرآن بقصة "ذى القرنَيْنِ"، لأننا نُرَجح، كما رَجَّحَ مفسرون ـ والله عز وجل بغيبه أعلم ـ أن "ذا القرنين" هو نفسه الذى فى سورة الكهف، العبدُ الصالح الذى صاحَبَهُ موسى فخرقَ السفينةَ وقتلَ الغُلام، وَرمَّ الجِدارَ الذى كان يريدُ أن ينقضَّ فأقامه . وجاءت (اليهود) بأَخْرَةٍ ، لأنهم عَصَوا اللهَ عز وجل ثم هادوا ، ثم عَصَوا من بعد. والتسميةُ الآن (وهى على المدح كما سترى) . لا تنطبقُ عليهم . عسى ربُّهُم أن يرحَمَهُم، أو يتوبَ عليهم ليتوبوا .

(٣٠) موسى

" موسى" فى القرآن ليست هى، كما يظن كثيرون، تعريبَ "موشيه" التى فى التوراة، اسم نبى الله موسى الكليم صلوات الله عليه، عند اليهود . وإنما "موسى" فى القرآن هى تعريبٌ قرآنىٌّ مباشر لهذا الاسم فى لغة " آل فرعون " الذين التقطوا موسى من اليم مجهولا غيرَ ذى إسم، فكانوا أصحابَ الحقِّ فى تسميته بلغتهم هم، أى بالمصرية القديمة .

والمصرية القديمة كما تعلم لغةٌ منقرضة ظلّت قرونا حبيسةَ البَرديات والنقوشِ والمعابد ، فلم تَبُح بأسرارها إلا ابتداءً من أواسط القرن الميلاديِّ التاسع عشر، بعد نحو ثلاثة عشر قرناً من نزول القرآن .

ولكنك تعلم أيضا أن القائلَ فى القرآن هو الله عز وجل، القائلُ بكل اللغات، الذى علّمَ آدمَ الأسماءَ كُلّها، الذى اختلافُ ألسنةِ الناسِ من آياته، الذى أنطق بها خلقه : إنه واضعُها ومُلهِمُها .

نعم . يسَلّمُ اللغويون الآن بأن اسم "موسى" عليه السلام من المصرية القديمة، لا من العبرية، لغة أمّه وأبيه . ولكن متى قالوها ؟ قالوها بعد أن قالها القرآن بنحو ثلاثة عشر قرنا، ولم يفطن إليها أحد .

فى تفسير القرآن اسم "موسى" بلغة " آل فرعون "، آيةٌ أىُّ آية .



أما علماءُ التوراة فقد ألزمتهم عبارةٌ فى " سفر الخروج " بتفسير " موسى" على اللفظ العبرانى، التى ينطقونها "موشيه" كدأب العبرية فى " تَشْيين " السينات وإمالة الألف، فقالوا إن "موسى" عبرانية، على زنة الفاعل من الجذر العبرى "مَشَا" (ومكافئهُ

العربى مَسا / يمسُو بمعنى سَلّهُ أو أخرجه بلطف ومنه مسا الناقة أى أخرجَ الولدَ منها ميتا)، فهو " موشيه" أى " الماسى"، ويفسرونها بأنها تعنى " نَشيلُ الماء "، أى الذى التقطه آلُ فرعونَ من اليم، لقول كاتب سفر الخروج : " ودَعَت اسمَهُ موسى (موشيه فى الأصل العبرانى) وقالت إنى انتشلتُهُ من الماء" (خروج ٢/ ١٠) .

ولا يصحّ هذا عبريا، لأن موشيه على زنة الفاعل تعنى أن موسى كان الماسى لا المَمْسُوُّ، أى كان هو الناشل لا المنشول، فلا يجوز فى العبرية استعمال زنة الفاعل على قصد المفعول، وإن جاز هذا فى العربية . ولكن علماءَ التوراة ـ لا علماء العبرية ـ افترضوا جوازَه ليستقيم لهم المعنى . وفاتهم أن من أعلام التوراة " نِمْشِى" من نفس الجذر " مَشا " ومعناه المَمْسُوُّ على المفعولية ، ولو أريدت تسمية موسى على هذا المعنى لكان الاسم " نِمْشِى"، ولما كان "موشيه" . أو لكان " ماشُوىْ " على المفعولية المباشرة من " مشا " العبرى . ومنهم من قال أيضا بأن "موشيه " على الفاعلية من "مشا " تفيد معنى " المُخَلِّص"، أى الذى انتشل بنى إسرائيل من مصر، تسميةً على النبوءة كدأبهم . فلا تدرى كيف يطرأ هذا المعنى على ذهن التى انتشلته من الماء (ابنةُ فرعون فى التوراة): يُخَلِّصُ مَنْ، وكيف، ومتى ؟

أما الذى لا يصحُّ البتة فهو افتراضُ عبرانية اسم "موسى"، وعلى لسان من ؟ على لسان "ابنة فرعون" فى قصر فرعون، تلتقطه من اليم فتفهم أنه من " أولاد العبرانيين " كما يقول الكاتب، فتتعمد تسميته تسميةً عبرانية، وهى لا تفهمُ حرفا من تلك اللغة، لغةِ عبيدِ فرعون كما تقرأ فى التوراة، والأصح أن يتعلّمَ العبيدُ لغةَ السادة لا العكس . وإنما المنطقى المتوقع من "ابنة فرعون" أن تسمى الذى انتشلتْهُ من الماء بلغتها هى، أى بالمصرية القديمة، فتقول مثلا حالَ التقاطها إياه : هذا ابنٌ لى ! أنا التى انتشلتُهُ من الماء ! أو شيئا قريبا من هذا . والذى قالهُ كاتبُ سفر الخروج على لسانها يتفق مع هذا ولا يتعارض معه " ودَعَت اسمه موسى وقالت إنى انتشلتُهُ من الماء " . لأن " انتشلتُهُ من الماء " ليست بالضرورة ترجمةً للاسم الذى اختارته، فهى عبارة تفيد الاختصاص، أىْ لأنى أنا التى انتشلته من الماء فهو لى، يصلح فى موضعها " فهو ابنٌ لى "، أتّخذُهُ ولدا (وهو معنى اسم موسى بالمصرية القديمة كما سترى)، فلا تَدرى لماذا أَلْزَم علماءُ التوراةِ أنفسَهُم بما لا يَلْزَم من عبارة الكاتب. فأصروا ـ ولا يزالون يصرون رغم ما تكشف من أسرار اللغة المصرية القديمة منذ أواسط القرن

الماضى ـ على أن "موسى" (أى موشيه) اسم عبرانى وإن تصادمَ الاشتقاقُ مع نحوِ تلك اللغة .

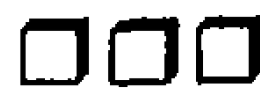
والذى يجب أن تَعلَمَه هو أن العبرانيين ـ الذين آواهم المصريون منذ عصر يوسف إلى عصر موسى وهرون ـ كانوا بحكم وجودهم بين ظهرانَى المصريين نحو أربعمائة وثلاثين سنة كما تقول التوراة، يُجيدون اللغة المصرية القديمة، فيحسنون فهمَها كما يحسنون الحديثَ بها، وأنهم ما كان ليفوتَهم أو يفوتَ موسى نفسَه معنى "الابن " الذى فى اسم "موسى" بهذه اللغة المصرية القديمة، بل تَجدُ هذا واضحا على قلم الكاتب وإن لم يفطِن هو إليه ولم يفطِن قارئوه :" فأخذت المرأةُ الولد وأرضعته . ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون، فصار لها ابنا" (خروج ٩/٢ ـ١٠) أى صار موسى ابنا لابنة فرعون، يعنى صار يُدعى كذلك . ولو كانت أسفار التوراة الخمسة الأولى قد كُتبت على عصر موسى وهرون، أو قريباً منه، لما أعضلَ معنى "موسى" فى المصرية القديمة على كتبة التوراة، فالتمسوا تفسيرَهُ من العبرانية . وهذا دليلٌ لُغَوِىٌّ لا يُنقَض على كتابة أسفار التوراة الخمسة الأولى بعدَ قرونٍ من وفاة موسى، أى من الذاكرة، لا من الوحى : كان العبرانيون على عصر داود وسليمان قد أُنْسُوا تماماً هذه اللغة المصرية القديمة التى كانوا يتكلمونها على عصر موسى وهرون مع سادتهم المصريين . دليلُكَ فى هذا ـ لا من خَطَئِهم فى فهم معنى "موسى" من المصرية القديمة فحسب ـ وإنما أيضا من خطئهم فى فهم معنى" فِرعون "، وهو من المصرية القديمة بلا خلاف، فقالوا ان " پَرْعُو" (أى فرعون) تعنى عند المصريين " الملك "، وليس بشىء، لأن علماء اللغة المصرية القديمة يقولون لك أن "پر + عا" تعنى "البيت + الكبير"، أو البيت العظيم، على نَسَقِ " الباب العالى " عند الخلفاء العثمانيين، يُكَنَّى بها عن شخص الملك مهابةً وتفخيما .

هذا " التفسير بالتخمين "، أعنى تفسير علماء التوراة اسم " موسى" من العبرية تَمَحُّلاً واعتسافا، لا لسبب إلا لأن المصرية القديمة أعضلت عليهم، تفسيرٌ لا يُعْتَدُّ به، لأنه تفسيرٌ لاسم من المصرية القديمة بغيرِ لغة الذى سمّى، شأنُهُ شأنُ تفسيرِ من تَوَرَّطَ من مفسرى القرآن فَفَسَّرَ العبرىَّ بالعربى، فلا تلتفتُ إليه .



على أن من مفسرى القرآن (راجع تفسير القرطبى للآية ٥١ من سورة البقرة) من فَطَنَ إلى ما لمْ يَفطِن إليه علماءُ التوراة، فافترضَ على ما يقتضيه المنطقُ الصّرف أن اسم "موسى" اسمٌ بلغة " آل فرعون " وراح يلتمسُ معناه عند معاصريه من القبْط (وهم مصريو زمانه) يَظُنُّ لغتَهم هى نفسَ اللغة، ولكنها كانت قد تحَوَّرَت وشاهت منذ قرونٍ سبقت مولد المسيح، بل امحّت على الألسنة تلك القبطيةُ نفسُها منذ أواخر القرن الثالث الهجرى حتى اضُطرت الكنيسةُ القبطية إلى ترجمة كُتُبِ الصلوات إلى العربية التى غَلَبت على ألسنة القبط أنفسهم، لا يفهمون غيرَها، فلا تنتظرُ منهم إلا تفسيرا "بالتخمين" لأسماء من مثل "موسى" و" فرعون". : قالوا لَهُ إن "مو" بالقبطية يعنى "ماء"، وإن "شا " (أو "سا" بالسين) يعنى " شجر" ورتّب الرواةُ على هذا أن آل فرعون عثروا على التابوت الذى فيه موسى بين ماءٍ وشجر، فَسُمّى باسم المكان الذى وجد فيه وليس هذا بشىءٍ كما ترى، فلا تَعْتَدُّ بهِ ولا تلتفتُ إليه .

ولكنك تُسَجِّلُ لهؤلاء الجهابذةِ الأعلام جُهدَ المحاولةِ وفَضْلَ السَّبْق إلى تَحَرّى تفسير معنى "موسى" فى لغة " آل فرعون" لا فى لغة " بنى إسرائيل "، فما كان للإبن الذى التقطه آل فرعون فتبنُّوهُ أن يَتسمَّى بغير لغة أبيه بالتبنى . ليس العيبُ فيهم أن أخْطَؤوا معنى "موسى" فى لغة آل فرعون، بل يكفيهم شرفا أن حاولوا، يومَ كانت لغةُ آل فرعون طلاسمَ مُطلسَمة فلم يجدوا الذى يستوثقون منه : كان العيبُ فى الذى استفْتَوهُ، فأفتاهم عَدْوًا بغير علم .



آفة اللغات البائدة عند دارسيها وعلمائها أنها لغات تُقرأ ولا تُسمَع . أعنى أنك لا تجد من يحدّثُكَ بها فَيُلْزِمُك بتقويم لسانك . كل ما لديك كتاباتٌ ونقوش، رُسمت بخطٍ مهما وُفّقْتَ فى حلِّ رموزه، فلن تستطيع الجزم آمنا مطمئنا بأنك تنطقُ أَحْرُفَها على نحو ما كان ينطق أهلُها . أما إن كان الخط ـ كالشأن فى الخط المصرى ـ خَطًّا لا يعبأُ بحركات المد فالآفةُ عندئذ أفدحُ وأعتى، لا سبيلَ لك إلى تداركها مهما بذلت من جهد .

أدى هذا بعلماء اللغة المصرية القديمة ـ الأثباتِ منهم على وجه التحديد ـ إلى التحرُّز من إثبات حركة المد الواجبة بين ساكنين لإمكان الانتقال من أحدهما الى الآخر،

كما تجد مثلا فى لفظة "دحرج" العربية : لاتستطيع الانتقال من الدال إلى الحاء، أو من الراء إلى الجيم، إلا بحركة مد (وهى الفتح فى " دَحْرَجَ " العربية) . ومن هذا فى المصرية القديمة لفظة " پر" (ومعناها " بَيْت ") : لا تستبين من الخط المصرى حركة مد بين الباء والراء، أو بعد الراء على الأقل، فلا تستطيع نطق هذه اللفظة المصرية القديمة إلا بحركة مد تفترضها افتراضا، فتختارها حسبما يتفق لك من بين حركات المد الثلاث (الكسر والفتح والضم)، لا تدرى أيها الصحيح، فلا تملك القطع بيقين . هنا اصطلح بعض علماء تلك اللغة ـ أعنى الأثباتَ منهم [1] ـ على الاكتفاء برسم الحروف الثابتة فى الخط المصرى، وافتراض المد، حين يتعذر النطق، مدا بالكسر (وهو أخف الحركات)، يصطلحون على هذا ولا يجزمون بصحته .

على أنه قُدِّرَ لهذه اللغة المصرية القديمة ـ دونَ غيرها من اللغات البائدة ـ أن تحظى على مدى قرنٍ ونصفِ قرن بجهدٍ جماعيٍ دءوبٍ جَبَّار، بذله ومازال يبذله علماءُ أفذاذ، اقتربوا فى استجلاء غوامضها من حد الكمال . ساعد على هذا وفرة " المادة " التى تتحدث عن نفسها بلسان تلك الحضارةِ العظمى فيما خَلَّفَتْهُ من آثار ونقوش لا نظيرَ لها قط فى الحضارات السابقة واللاحقة . وساعد عليه أيضا ما بقى من تلك اللغة القبطية التى ورثت عن أمها المصرية القديمة الكثيرَ من مفرداتها، وإن كنت لا تجزم ـ بل أنت إلى الشك أقرب ـ بتطابق النطق القبطى مع النطق المصرى القديم، ناهيك بمطابقة اللفظ للمعنى، على نحو ما تقطع الآن بالتفاوت فى هذا وذاك بين عربية القرآن وبين العربية الدارجة الى يَلْغُو بها العربُ اليوم فى أقطارهم .

والذى يعنينا هنا ـ ونحن لا نخوض فى المباحث اللغوية إلا بالقدر اللازم لأغراض هذا الكتاب ـ أن القرآن المعجز أتى بلفظ " موسى" أقرب ما يكون إلى نطقه فى لغة آل فرعون على ما استقر عليه علماء تلك اللغة فى نطق الأسماء الأعلام المختومة بالشق " مس" كما تجد فى " تْحُوت + مُس" (تْحُتْمُس) التى انتهوا إلى أن أصلها " ضْحُوتى + مُوسِى " تُنطق موسى فيها على الإمالة، تماما كما تسمعها فى بعض " قراءات " القرآن ، والمعنى هو " وِلْد تحوت " أو " وليد تحوت "، لا " ابن تحوت " وإن تقارب المعنى، لأن " ابن " فى المصرية القديمة هى " سا " لا " موسى" .

(1) A. Gardiner, EGYPTIAN GRAMMAR, Oxford University Press, London, Third Edition (Revised), 1966, pp. 26 - 28.

"موسى" لفظة فى المصرية القديمة منحوتة من جذر فى تلك اللغة، هو (م/ س/ ى)، فعل بمعنى ولد/ يلد/ ولادة . ولفظة " مُوسِى" اسمٌ على المفعولية من هذا، فهي "ولد" أو "وليد " وبهما فسر القرآن هذا الاسم على الترادف كما سترى .

لم تفعل العبرية فى "موسى" إلا أن " شَيَّنْت " السينَ كدأبها، فقالت "موشيه" على الإمالة . وربما اختلط الأمر على كاتب سفر الخروج الذى تصدى لتفسيره فظنه من "مشا" العبرى (وهو "مسا" العربى) بمعنى سَلّهُ واستخرجه، وتابعه علماءُ التوراة على هذا فقالوا :" نشيل الماء " . ولو بقيت لدى الكاتب أثارةٌ من علم بتلك اللغة المصرية القديمة التى تكلم بها مع فرعون موسى وهرون لما وقع فى هذا الخلط . بل قل لو كان الكاتب هو موسى عليه السلام الذى ينسبون إليه هذا السفر لما أخطأ فهم معنى اسمه ("ولد" أو "وليد ") الذى سماه به آل فرعون .

وربما قلت إن الجذر (م/ س/ ى) فى المصرية القديمة، الذى يعنى ولد/ يلد/ ولادة، قريبٌ فى معناه من " مسا " العربى، أو " مشا " العبرى، بمعنى سَلّهُ واستخرجه، لأن فى الولادة شيئاً من هذا . ولكن علماء المصرية القديمة لا يقطعون برأى حاسم فى مدى العلاقة اللغوية بين المصرية القديمة وجاراتها الساميّات، وإن رجحوا ـ ونرجح معهم ـ أصلها السامى . ولكننا لا نخوض فى هذا، لا لشيء إلا لأنه يخرج عن مقاصد هذا الكتاب الذى نكتب .



قال العليم الخبير، فى كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يُفَسّرُ بها اسم "موسى" بلغة آل فرعون، لا بلغة أمه وأبيه : { **وقالت امرأة فرعون قُرَّةُ عينٍ لى ولك، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا** } (القصص : ٩) فَسُمِّيَ بها موسى المحذوف لدلالة السياق عليه . وقال أيضا على لسان فرعون الذى أنكر على موسى أن يكون شفيعا لديه فى بنى إسرائيل وقد استلّه فرعون من بينهم فاحتضنه ورباه : { **قال ألم نُرَبِّكَ فينا وليدا، ولبثت فينا من عمرك سنين**} (الشعراء : ١٨)، يُدلُّ على موسى بدالّة الإباوة والرِّباية ويفطنُ موسى إلى أن فرعون يستميلُهُ إليه ليقطعَ ما بينه وبين قومه، فيستدرك على فرعون بما يفحمه : {**وتلك نعمةٌ تَمُنُّها علىَّ أن عَّبدت بنى إسرائيل**} (الشعراء :٢٢) :

أكرمتنى وأهنت قومى، وهل أنا إلا بعضُ قومى؟ وهل صِرْتُ إليك فتبنيتنى إلاً لأنك استعبدت بنى إسرائيل وأذلَلْتهم، تُذَبِّحُ أبناءهم وتستحيى نساءهم، حتى نبذتنى فى اليمِّ أمّى؟



هذه الصدِّيقةُ التى قذفت برضيعها فى اليم عن أمر الله، اسمُها فى التوراة العبرانية " يُوكِبِد" بكسر الكاف والباء (وتنطق عبرانيا " يُوخِڤِد " على ما مر بك من قواعد نطق الكاف والباء والدال إذا تحرك أو اعتل ما قبلها)، ولكن القرآن لم يُسَمِّ أم موسى، وإنما كَنَّاها بأحب كُنْيَةٍ تَمَنَّت أن تستعلن بها : أم موسى . ويروى سفر الخروج أنها عمة عمران أبى موسى، يعنى تزوج عمران عمته يوكبد فاستولدها هرون وموسى ومريام (راجع سفر الخروج ٦/٢) . وأيا ما قلت فى صحة الزواج من العمة فى دين إبراهيم، فالذى نُعْنَى به فى مقاصد هذا الكتاب هو معنى هذا الاسم " يُوكَبِد " عند علماء التوراة : قالوا إنه اسم مزجى مركب من شقين (يُو + كبِد)، الأول " يُو " مختصر يهوا، اسم الله فى العبرية منذ موسى عليه السلام (يهوا كما مر بك يعنى "الذى هو هو")، والثانى " كبِد " اسم من مادة الجذر العبرانى " كبد " بمعنى ثَقُلَ ، وأيضا بمعنى تَمَجَّدَ وشَرُفَ وعَظُم ، ومنه أيضا " كَبُود" التى تعنى المجد والشرف، وتعنى أيضا فى مجازها، اللب والفؤاد . وقد اختار علماء التوراة هؤلاء أن يكون معنى " كبِد " التى فى " يوكبد " هو المجد والشرف، واختاروا أيضا أن تكون بنية هذا الاسم المزجى على المبتدأ والخبر ، فقالوا ان معناه هو " اللهُ مجدٌ "، مُراداً منه " اللهُ مَجْدُها" (١) .

ولا يصح هذا عبريا ، مع الاعتذار الواجب للذين قالوه ، لأن معنى المجد والشرف فى مادة " كبد " العبرانية يجىء على " كَبُود" بالواو كما مر بك، ولايجىء قط فى بنيته الإسمية على " كبِد" بكسر الكاف والباء كما يُنْطَقُ اسم أم موسى فى التوراة .

أما الذى يصح عبريا فهو أن يُفْهَم الشقُّ الثانى من هذا الاسم " كبِد " على أنه

(١) المعجم التحليلى العبرى الآرامى لألفاظ التوراة ، المرجع المذكور ، مادة يهوا ص١٧٢ ، ومادة كبد ص ٣٦٨ .

فعلْ ماضٍ مُسْنَدٌ إلى المفرد الغائب (الذى هو "يو" اسم الله فى العبرية) جاء على زنة "فعِلْ" العبرية (التى هى " فَعَّل " فى العربية) فيكون أصل الاسم " يُوكبِّد" بتشديد الباء المكسورة، ثم خُفِّفَ تشديدُ الباء للمزجية، فآلت إلى نطقها الذى فى التوراة، أعنى " يُوكبِد " . ولأن " كبد" العبرية كما مر بك تفيد معنيين هما (١) الوقر والثِّقَل، و (٢) المجد والشرف، فلك أن تختار فى تفسير هذا الاسم أما " الله مَجَّدَ" بتشديد الجيم المفتوحة، يعنى "التى مَجَّدَها الله"، وأما " اللهُ وقَّر" بتشديد القاف المفتوحة، أي " التىَ وقَّرَها الله " ، يعنى رَزَّنَها وثَبَّتَها وسَكَّنَها، أو كما قال القرآن على منهجنا فى تفسير أعلام القرآن بالقرآن، " لولا أن رَبَطْنا على قلبها "، فهى " التى رَبَطَ اللهُ على قلبها " .

والذى يصح بلا مُشاحَّة هو تفسير القرآن، لا تفسير علماء التوراة، لأن "يهوا" (التى اختصرت إلى "يو" فى الاسم "يوكبد ") لم تَصِر عند بنى إسرائيل عَلَما على الله عز وجل إلا فى ديانة موسى عليه السلام كما تستظهر من التوراة : " ثم كلم الله موسى وقال له أنا الرب . وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب بأنى الإله القادر على كل شىء . وأما باسمى يهوا فلم أُعْرَف عندهم" (خروج ٦/ ١ ـ٣)، فلا يصح دخولُه فى اسم أم موسى يوم وُلِدَت . وإنما الصحيح أن يقال انها كنية كَنَّاها بها بنو إسرائيل من بعد مبعث موسى عليه السلام بعد تحقق الصفة والحال، كما سترى فى الاسم "أيوب"، فهى كنية تشير إلى منقبة فى أم موسى . وقد أراد علماء التوراة الذين فسروا هذا الاسم على معنى " الله مَجْدُها " ـ أى التى مجَّدَها الله ـ تعظيمَ موسى بالتفخيم فى معنى اسم والدته. ولكن الكنية على هذا المعنى الذى أراده علماء التوراة هؤلاء لا تصدق فى وصف منقبة أم موسى التى انفردت بها من دون نساء العالمين : تنبذ ابنها فى اليم رضيعا قد ربط الله على قلبها، ويُردُّونَهُ إليها لا لتكون له أُماً، بل لتكون له مُرْضِعا ، جاءوها به وقد أسْمَوْهُ بلغتهم " الوَلَد" (موسى المصرية الهيروغليفية) لا أُمٌّ له، وهى أُمُّه، لا تَمْلكُ أن تستعلنَ بها، فَيُكَنِّيها القرآنُ بأحب اسم تَمَنَّت أن تسمعه : أم موسى . ويَمْرأ فيه لَبَنُها، ويدنو يومُ فِطامه، فَتَشْقَى بما تسعد به كُلُ أم، لولا رباطُ الله على قلبها : إنه اليوم فى حجرها " ابنؤم" (١) ،

(١) ابنؤم أصلها " ابن أم" ، بنى شطراها على الفتح على غرار الأعداد المركبة من ثلاثة عشر إلى تسعة عشر ، وقد وردت بكلا الرسمين فى المصحف . قالها هارون فى فتنة العجل يرفق بها قلب أخيه : { **قال يا ابنؤم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى** } [طه :٩٤] ، وكأنه يناجيه بما كانت تناجيه به أمه أيام كان موسى فى حجرها.

تُهَدْهِدُهُ بها لا بـ "موسى"، وهو غدا "ابن فرعون" تُسْلِمُهُ لهم ، فيا لفؤاد أم موسى مما حُمِّلَ، لولا رباطُ الله على قلبها . هذه هى منقبة أم موسى الوحيدة التى يصح أن تَكَنَّى بها . والرباط على القلب يعنى تقسيته كى يحتمل ، وهذا هو نفسه معنى "كَبّد" العبرى كما تنص عليه معاجمهم . فلا تستطيعُ هذا وحدَها أمٌ . ولكن علماء التوراة لم يفطنوا إليه ، إذ لا نص فى التوراة على بلاءات أم موسى بل يقال لك انها ألقته فى اليم فحسب ثم قالت لأخته قصّيه ، وإلى هنا ينتهى ذِكْرُ أم موسى فى التوراة . فاكتفوا فى تفسير اسمها بالمجد الذى نالته بإنجابها موسى . وليس بشىءٍ كما ترى .

قال عز وجل فى تفسير اسم تلك الصّديقة [1] التى ربط الله على قلبها : {**وأصبح فؤاد أم موسى فارغا، إنْ كادت لَتُبْدِى به، لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين** } (القصص : ١٠) .وقد مر بك فى تضاعيف هذا الكتاب أن القرآن حين لا ينص على اسم بطل الحَدَث، يُلمُّ بمعناه أحيانا فى ثنايا الآيات فيصوره بما تكاد تسميه به . واسم " أم موسى" من هذا كما رأيت، ولكنك لا تفطن إليه فى سياق هذه الصياغة المعجزة لوصف حال أم موسى وقد ألقت برضيعها فى اليم عن أمر الله : فرغ فؤاد أم موسى يعنى صار فؤادها هواء جَزَعاً على موسى فى تابوتٍ تتقاذفه أمواجُ اليم، لا تدرى أيَغرقُ أم يطفو، بل كادت تستغيثُ من ينتشله لها (إن كادت لتبدى به) فيعيده إليها، وليكن ما يكون . ولكن الله ربط على قلبها، وثبت فؤادها، كى تظل على إيمانها بصدق وعده إياها :{ **وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم، ولا تخافى ولا تحزنى، إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين** } (القصص : ٧) . إعجازٌ فوقَ إعجاز .

ولعلك التفت أيضا إلى عبارة القرآن " فؤاد أم موسى" فى (الآية ١٠ من سورة القصص) التى تلوتَ تَوا، التى تُشير إلى إلمام القرآن بمعنى الفؤاد الذى فى شطر

---

(١) الصديق فى القرآن هو كل من خاطبه الله على ملائكته فصدق وأذعن ، نبيا وغير نبى . وقد ورد اللفظ فى القرآن كله ست مرات ، ثلاث على المفرد المذكر وصفا ليوسف {يوسف : ٤٦} وإبراهيم {مريم:٤١} وإدريس {مريم :٥٦} عليهم السلام ، ومرة رابعة وصفت بها مريم أم عيسى على المفرد المؤنث {المائدة:٧٥} ، والخامسة والسادسة على جمع المذكر ، إحداهما {النساء:٦٩} تضع الصديق بين النبى والشهيد ، والأخرى {الحديد : ٢٩} تُقَدّم الصديق على الشهيد فى الترتيب .

اسم أم موسى "يُوكبِد"، وهو " كبُود " كما مر بك: لو قلت " فؤاد أم موسى " عبرياً ، لقلت " كِبود يوكبِد" !

فيم إذن دعاوى النقل والاقتباس، والقرآن كما رأيت أعلم بالعبرية من أهلها ؟



لموسى عليه السلام أخ أسَنُّ منه (هرون)، وَزرَ لموسى وشَرَكَهُ النبوة . سأل موسى ربه أن يعينه بهرون لسبب محدد . كان موسى يضيق صدره ولا ينطلق لسانه: { **ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هرون** } (الشعراء : ١٣) . وكان هرون فصيحا لسنا : { **وأخى هرون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردْءاً يُصدِّقُنى، إنى أخافُ أن يكذبون** } (القصص : ٣٤) . فاستجاب له عز وجل وامتن بها عليه : { **قال قد أوتيت سؤلك يا موسى . ولقد مَنَنَّا عليك مرةً أخرى** } (طه ٣٦،٣٧) . وسيأتى تفسير اسم هرون إن شاء الله فى موضعه .

ولموسى عليه السلام أيضا أخت تكبره، هى أخته التى قَصَّتْه : { **وقالت لأخته قُصِّيه، فَبَصُرَت به عن جُنُب وهم لا يشعرون** } (القصص: ١١)، ولم يُسَمِّها القرآن . أما اسمها فى التوراة التى بين يديك ـ أعنى فى ترجمتها العربية المتأثرة فى رسم أعلامها العبرانية برسمها المعرب من قبل فى القرآن ـ فهو "مرْيَم" (مفتوحة الميم ساكنة الراء كاسم مريم أم عيسى فى القرآن)، خلافا لأصلها العبرانى المرسوم فى التوراة "مِرْيام " (بكسر الميم وإشباع المد بالألف بعد الياء) وهو خطأ بَيِّن وقع فيه المترجمُ العربى يُتابع فيه أدعياء الاستشراق الذين اتهموا القرآن بالخلط بين "مريام" أخت موسى وهرون وبين "مَرْيَم" أم عيسى ولا صلةَ بين الاسمين كما سترى.

ففى الإصحاح الثانى عشر من سفر العدد يقص عليك الكاتب قصةً ملخصها أن موسى اتخذ امرأة كوشية (أى حبشية)، فلم تَحْمَد له هذا أختُهُ مريام، ولم يَحْمَدْهُ أيضا أخوه هرون، فتمردا عليه، أو " تَمَرْيا " عليه، فحَمِى غضبُ الرب عليهما كما يقول الكاتب . وإذا مريام برصاء كالثلج (فَتَعْجَبُ لماذا أَفْلَتَ الربُ هرون) . واسترحم هرون أخاه موسى أن يدعو لها، فصرخ موسى إلى الرب قائلا : اللهم اشفها ! فقال الرب لموسى : لو بصق أبوها فى وجهها أما كانت تخجل سبعة أيام ؟ فاعتزلت مريام سبعة أيام حتى شفيت .

يلتقط علماء التوراة هذه الأقصوصة ليفسروا بها الاسم "مريام" وكأنه كُنْيةٌ تكَنَّت بها، فقالوا إن معناه هو "المراء"، "التمرّى"، من الجذر العبرى "مرا"، فهو "فعلان"، أى "مَرْيان" ، أبدلت نونُه ميماً على ما مر بك فصار إلى "مِرْيام" . وهو اسم على الذم كما ترى، فتعجب كيف استجازوا أن تتسمى به من بعد مريم أم عيسى عليهما السلام . نقول هذا ولا نتوقف عنده : كل ما أردناه هو أن ندلك على معنى "مريام" عند علماء التوراة: المراء والتمرى والعصيان، كيلا تخلط أنت بينها وبين "مريم" أم عيسى عليهما السلام، لاختلاف الاسمين لُغَةً، الأول عبرانى والثانى آرامى، واختلافهما مَبْنًى ومعنى . وسيأتى .

وأما ما عرجنا عليه من ذكر " هرون "، الذى يأتى فى موضعه، فلم يكن تمهيدا لتفسيره بقدر ما كان عروجا على لفظة " إبْنَؤُمُ " (ابن + أم) التى ناجىَ بها هرونُ أخاه مرتين فى القرآن يوم أخذ موسى برأس أخيه يجره إليه فى فتنة العجل : { **قال ابنَ أمَّ ! إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى، فلا تُشمت بى الأعداء، ولا تَجعلنى مع القوم الظالمين !**} (الأعراف : ١٥٠) . وجاءت بصورة أخرى فى سورة " طه "، تُبَرىءُ هرونَ عليه السلام من اصطناع العجل : {**ولقد قال لهم هرونُ من قبل، يا قومِ إنما فُتِنتُم به، وإنَّ ربَّكُم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى . قال يا هرون ! ما منعك إذ رأيتهم ضَلُّوا. ألا تتبعن أفعصيت أمرى. قال يا ابْنَؤُمَّ لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيتُ أن تقول فَرَّقْتَ بين بنى إسرائيل ولم تَرقُبْ قَولى !** } (طه : ٩٠ـــ ٩٤) .

لعلك لاحظت أن معنى : " الابن " الذى فى " ابنؤم " موجودٌ أيضا فى "موسى" المصرية القديمة ومعناها "وَلَدٌ"، "وليدٌ"، وكأن القرآن فى هذين الموضعين يفسر هذه بتلك، وسبحانَ العليمِ الخبير .



كان هذا هو التفسير القرآنى من المصرية القديمة لمعنى اسم "موسى " عليه السلام : فسره بلغة آل فرعون، ولم يفسره بلغة بنى إسرائيل . فهو "وَلَدٌ " أو "وليد" . والمعنى فيهما واحد . ونحن نُؤْثر " وليد " فى ترجمة اسم " موسى "، لأن " الوليد " من أعلام العرب، فَتَسْهل المقابلةُ بين "وليد" العربية، وبين " موسى" المصرية القديمة .

وسبحان الذى علَّمَ بالقلم ، عَلَّمَ الإنسانَ ما لم يَعْلَم !

(٣١) هــرون

"هارون" فى القرآن (التى شاع رسمُها على غِرار المصحف بغير ألف)، هى تعريب " أهارون " فى التوراة، اسم أخي موسى عليهما السلام .

والألفُ البادئة فى "أهارون" العبرية ـ كما مر بك فى تضاعيف هذا الكتاب ـ هى " ألفُ التحلية " Prosthetic Aleph والأصل " هارون " كما عَرَّبها القرآن .

وقد تجنب علماء التوراة (راجع "المعجم العبرى الآرامى لألفاظ التوراة") تفسير اسم "أهارون" : ربما لم يَسْتَبِنْ لهم وجهُ الصواب فى معناه، وربما أيضا لأن الكاتب فى سفر الخروج خالف " مألوفَه "، فلم يتصدَّ لتفسيره .

ولم يُؤْثَر أيضا عن مفسرى القرآن تفسير لاسم "هرون" : أجمعوا على عُجْمَته، ولم يتصدوا لتفسيره . وربما التمسوه عند بعضِ أحبارِ يهودَ ولم يظفروا بشىء . وهذا يُرجَح لديك، كما تَرَجَّحَ لَدَىَّ، أن هؤلاء الأحبار لم يكن لديهم مأثورٌ يستندون إليه فى تفسير اسم "هرون" ويرْأبُون به الثُغرة التى تركها كتبةُ التوراة بسكوتهم عن تفسيره. وربما تعلَّلتَ لكتبة التوراة فى ذلك بأن شخصية البطل ـ موسى عليه السلام ـ شخصيةٌ طاغية تملأ مسرح الأحداث، أذهلت الكاتب عن تقديم الشخصيات " الثانوية " للقارىء، وكأنه لا يفطِنُ لها، فلا يسميها، رغم ولوعه كغيره من كتبة التوراة بتحليل الأنساب وتفسير التسميات، بإيراد مناسبة التسميةِ وسببِها .



يبدأ الكاتب سفر الخروج بإصحاحٍ مقتضَب، يُمَهِّد لظهور موسى على المسرح، تقرأ فيه أن ملكا جديدا اعتلى عرش مصر، لا هم له إلا استئصال شأفة العبرانيين باستصفاء نسلهم، فيأمر قابلَتَىْ العبرانيات " شِفْرة "، " فُوعة "، بأن تنظرا المولود : إن كان ذكرا قَتَلتاه، وإن كان بنتا فتحيا . ولكن القابلتين خافتا الله كما يقول الكاتب فاحتالتا على فرعون بأن النساء العبرانيات لَسْنَ كالمصريات، فَهُنَ قويَّات يلدْنَ قبل أن

تأتيهُنَ القابلة . عندئذ أمر فرعون جميع شعبه بأن كل ابن يولد للعبرانيين يطرحونه في النهر، وكل بنت يستحيونها . وكأنما ألقت أم موسى ابنها فى اليم عن أمر فرعون، لا عن أمر الله كما تقرأ فى القرآن .

ثم ينتقل الكاتب سريعا إلى الإصحاح الثانى، يتعجل تعليل إفلات موسى من هذا المصير، لا يعنيه ما كان من أمر إخوةٍ سبقوه، بل لا يعنيه شخصُ أمه وأبيه اللذين منهما وُلد، فيذهب بك مباشرة إلى " النهر " حيث ألقى موسى فتستحييه "ابنةُ " فرعون [(١)]، ويبدأ الإصحاح هكذا : " وذهب رجلٌ من بيت لاوى وأخذ بنت لاوى . فحبلت المرأة وولدت ابنا . ولما رأت أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر . ولما لم يمكنها أن تخبئه بعد، أخذت له سَفَطًا من البردى وطلته بالحُمَر والزفت ووضعت الولد فيه، ووضعته بين الحَلْفاء على حافة النهر [(٢)]. ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يُفْعَلُ به" (خروج ٢/٤ ـ ٤) .

هذا الكاتب الذى لم يَفُتْهُ وصفُ " التابوت " بأنه سَفَطٌ من البَرديّ مَطليٌّ بالحُمَرِ والزفت، لا علم له بما كان من وحى الله على أم موسى . وهو أيضا ـ كأخيه الذى فى سفر التكوين ـ لا يعرف قيمة "المادة" التى بين يديه، فلا يهتم لبلاءات أم موسى وهى تُلقى بفلذة كبدها فى اليم عن أمر الله . ولكنه فى سرده المتعجل ينزلق إلى التهافت المخل : إنه يضع "التابوت" عند مُغْتَسَل ابنة فرعون (ومغتسل الملوك كما تعلم يكون قُبالةَ قصرهم)، كما يوضع اللقطاءُ عند أبواب الأديرة والمساجد . وهو لا يترك التابوت هائما بين الأمواج، وإنما يثبته بين الحلفاء التى على حافة النهر قبالة قصر آل فرعون كما مر بك، وكأنه يقتحم به عليهم، كى لايفوت ابنة فرعون العثور عليه، أو يطوح به التيار بعيدا عن أعين جواريها . إنه يدس التابوت فى أيديهم دسا، لا يترك مجالا للصدفة أن يلتقطه غيرهم . وكان أيسر عليه أن يحمل موسى إليهم حملا، يذبحونه

---

(١) قالت التوراة " ابنة فرعون " وقال القرآن " امرأة فرعون " ولم يُعْنَ بحل هذا الخلاف أحد . وسيأتى بيان هذا إن شاء الله فى سياق تفسير معنى " فرعون " .

(٢) الحُمَر هو القار بلغة أهل الشام ، ورثته عن العبرية ـ الآرامية ، وفق المترجم العربى إلى اختيارها مقابلا لذات أصلها العبرى ـ ولكنه لم يوفق فى " سفط" لأنها فى الأصل العبرى "تيبت" (أى تابوت) كما فى القرآن ، بنفس المعنى ، وكأنه أراد مخالفة القرآن ليس إلا . وترجم "سوف" العبرية إلى " الحلفاء " يريد " البوص" ، ولا بأس به .

أو يستحيونه، كمن يمشي إلى طالبي دَمه يَحْملُ على يديه كَفَنَه . وليس في هذا كرامة. ولكن الذي تَعْجَبُ له عند الكاتب، ولم يلتفت هو إليه، أن "مَغْتَسَل" ابنة فرعون كان على مقتضى روايته "حِمَىً" مستباحا ، تغتسل فيه ابنة فرعون مع جواريها على أعين الناس، لا يستترن إلا بتلك الحلفاء التي على حافة النهر، لا حَرَسَ موضوعاً عليه ليلَ نهار، ولا رُقباءَ يذودون تطفلَ المارة . وإلا فكيف تفسر نفاذ من تسلل بالتابوت إلى تلك الحلفاء نفسها ، وهو يقول لك إن أخت موسى ما كان لها أن تقترب، وإنما وقفت تنظر من بعيد لتعرف ماذا يفعل به ؟ كان على الكاتب أن يرجع إلى القرآن ليعلم منه حقيقةَ الذي كان، ولكن القرآن لم يكن قد نزل بعد : ألقت أم موسى بالتابوت في اليم أقربَ ما يكون إلى بيتها ، وتكفلت أمواجُ اليم بالباقي، عن وحي الله وأمره : { **إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى . أن اقذفيه في التابوت، فاقذفيه في اليم، فليلقه اليمُّ بالساحل، يأخذْهُ عدوٌّ لي وعدوٌّ له، وألقيتُ عليك محبةً مني، ولتصنَعَ على عيني . إذ تمشي أختُكَ فتقول هل أدلُّكم على من يَكْفُلُه ؟ فَرَجَعْناك إلى أمك كي تَقَرَّ عينُها ولا تحزن** } (طه : ٣٨ ـــ ٤٠) . فانظر إلى هذا الإيجاز المعجز الذي لا يَندُّ عنه تفصيل فلا تملك أن تُعَقِّبَ عليه بشيء، وتأمل ! هل يستطيعه إلا علام الغيوب ؟

والذي يعنينا في هذا السياق أن الكاتب شَغَلَه موسى عن هرون فلم يذكر ما كان من أمره : لم يحضر ولادته، ولم يُسَمِّه، فلا يُفَسِّرَه . وهو لا يُعنَى أيضا بأن يفسر لك كيف أفلت هرونُ من الذبح وقد ولد قبل موسى بنحو ثلاث سنوات وبضعة أشهر، على ما تستخلصه من سفر العدد الذي يقول لك أن هرون مات وهو ابن مائة وثلاث وعشرين سنة، في السنة الأربعين لخروج بني إسرائيل من مصر (عدد٣٣/٣٨ ـ ٣٩)، ومات موسى بعده في نفس السنة وعمره مائة وعشرون سنة (تثنية ٣٤/٧). ولا شك أن تذبيحَ الذكور واستحياءَ الإناثِ بدأ قبل موسى بسنوات، بل وقبل زواج عمران من أم موسى ، كما تستظهر من الإصحاح الأول من سفر الخروج . فكيف أفلت من الذَّبْحِ هرون ؟

لم يُعْنَ بهذا كاتبُ سفر الخروج . ولكن كان من مفسري القرآن من توقف عنده . ومن طريف ما يُروى في هذا ـ نقلا عن أقاصيصَ لأهل الكتاب بالطبع ـ أن فرعون

حين أراد استئصال شأفة العبرانيين فى مصر باستصفاء نسلهم، بدأ بتذبيح أبنائهم سنة واستحيائهم سنة، وأن هرون الذى يكبُرُ موسى كان حقُهُ أن يولد سنةَ الذبح، ولكن اللهَ أطال حَمْلَ أمّه به كى تضعَه سنة الاستحياء فينجو . وإذا علمت أن الجذر العبرى "هرا" معناه حَبِلت (المرأة)، فربما قُلْتَ ـ ولم أقرأ هذا لأحد ـ أن اسم هرون مشتق من "هَرا " العبرية هذه، وكأنه "حَبلان " من " الحَبَل " الذى طال به .



أدّى أيضا طغيانُ شخصية البطل ـ موسى عليه السلام ـ إلى شُحوب شخصية هرون وتضاؤلِ دوره فى رسالة موسى عند كتبة التوراة، الذين أُعْضَلَ عليهم إيجادُ دورٍ لهرون إلى جوار موسى، فنحلوا هرون دَوْرَ " الصَبّى" : صبى " النبى" ، أو صبى " الحاوى" . تجد دورَ "صبى النبى " فى قول الكاتب على لسان الله عز وجل مخاطبا موسى : " أنا جعلتك إلها لفرعون، وهرونُ أخوك يكونُ نبيك" (خروج٧/١) . وتجد "صبى الحاوى" فى قول الكاتب على لسان الله عز وجل أيضا، يأمر موسى بما يفعله حين تُطلَبُ منه الآية على صدق دعواه : "تقول لهرون خذ عصاك واطرحها أمام فرعون فتصير ثعبانا" (خروج٧/٩)، فلا تندهش ـ إن كنت مسلما ـ حين تقرأ فى السفر أيضا أن " عصا هرون " ـ لا " عصا موسى" ـ هى التى لقفت حبالَ السحرةِ وعِصيِّهِمُ (خروج ٧/١٢) . كل هذا بالوساطة عن موسى بالطبع ، فلا دور على الحقيقة عند الكاتب لهرون .

ولكن الكاتب ـ وكأنه يثأر لهرون ـ يقول لك ان هرون " كَهَنَ " لموسى، فألبسه موسى عن أمر الله رداء الكهنوت الأعظم : لا كهانة إلا بهرون وأبناء هرون دون غيرهم من أسباط بنى إسرائيل فريضةً أبدية (خروج ٢٨) ، فاحتاز هرون وبنوه من بعده سلطانا فى بنى إسرائيل أعظم من سلطان موسى : سلطان الرأى والفكر والفُتيا بالشريعة . وهذا كله دخيلٌ على التوراة التى أنزل الله على موسى، فلا كهنوتَ ولا كهانة فى دين الواحد الأحد، ولا وساطةَ بين العبد وربه . ونحن لا نشك لحظة فى أن اليهود صنعوا هذا الكهنوت من بعد موسى ليحاكوا به كهنوتا سحَر ألبابَهم سلطانُهُ

العاتى فى ديانة " آمون " : حُرَّاسُ العقيدةِ وَسَدَنَةُ المعبد . ولا يَفْسَد الدينُ، وتَفْسَدُ العقيدة، إلا على أيدى هؤلاء الحُرَّاسِ والسَدَنَة . وقد حارب المسيحُ عليه السلام هذا الكهنوت من قبل، فـفـضـحـه وَعَرَّاه . ولكن الكهنوتَ انتصر من بعد، فاصطنعت المسيحيةُ لنفسها فى أوربا كهنوتاً مثله، وربَّما أعتى . وهَبَّت رياحُ الإصلاح تُريدُ اقتلاعَ هذا الكهنوت من جذوره، فلم تُفَرِّقْ بين الديانةِ والكهانة، وكان ما كان .

والذى نتوقف عنده هنا فى أغراض هذا الكتاب الذى نكتب ، أن كهنوت هرون وبنيه أَوْرَثَ اللغةَ العبرية بعد عصر موسى وهرون، مصطلحا جديدا : كان موسى وهرون كما تعلم من سبط لاوى بن يعقوب، أى كان هرون وبنوه لاويِّين، فأصبحت لفظة " لاوى" (وتُنْطَقُ " ليفى" فى العبرية المعاصرة شائعةً فى أعلامها) علَما على الكاهن خادِم المعبد، وأيضا " أهارونى"، أى المنسوب إلى "هرون" رأسِ هذا الكهنوت . ولا تدرى كيف فات هذا المعنى (اللاوى أو الهارونى = الكاهن خادمَ المعبد) على أدعياء الاستشراق وأذنابهم ممن تسقطوا للقرآن قولَهُ فى مريم أم عيسى عليهما السلام : { **يا أُخْتَ هرون !** } (مريم : ٢٨) فتهكموا رعونةً وجهلا بأن القرآن يخلط بين "مريم" أم عيسى وبين "مريام" أخت موسى وهرون ، وقد خَلَت الأنبياءُ والرسل بين موسى وعيسى عليهما السلام ، ونص القرآن على أن عيسى هو آخرُ رسل الله إلى بنى إسرائيل : { **وَقَفَّيْنا على آثارهم بعيسى بن مريم** } (المائدة : ٤٦)، فكيف تكون أُمُّهُ أختا لموسى وهرون ؟

لم يُدرك هؤلاءِ الأدعياءُ وأذنابُهم ـ وأنَّى لهم وقد أعماهم الحقدُ وأصَمَّهُم ـ أن القرآن ينضَحُ هاهنا بعلمه النافذ إلى صميم ديانة اليهود ومصطلحاتِ كهنوتهم : " أخت هرون" يعنى" خادِم المعبد " الذى كانَتْهُ أَمَة الرب مريمُ البتولُ عليها السلام : { **ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا** } (التحريم : ١٢). إنها "هارونية" (أخت هرون)، راهبةٌ خادِمُ معبد ، يُستعظَمُ منها أن تفعل فى وهمهم الذى فَعَلَتْ : { **فأتت به قومها تحملُهُ، قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فَرِيًا. يا أخت هرون ! ما كان أبوك امرأ سوءٍ، وما كانت أمك بغيا** } (مريم : ٣٧ ـــ ٣٨)، فَأىُّ علمٍ هنا وأىُّ جهلٍ هناك . لم يفطن إلى هذا مفسرو القرآن،

وعذرهم واضح، إذ لا علم لهم ببطائن كهنوت بنى إسرائيل [١]، ولكن ماعذر أولئك الأدعياء المتعالمين على القرآن وفيهم اليهودى القُح، وربما كان منهم الهارونى الحَبْر، "أخو هرون" ؟

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . وسيأتى لهذا مزيد بيان إن شاء الله عند تحليل الاسم "مريم" فى موضعه من هذا الكتاب .



ولا ينقضى الكلام فى هرون قبل الحديث عن دوره فى فتنة العجل الذى صنعه "السامرى" لبنى إسرائيل فى التيه : { **فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهُكُم وإلهُ موسى فَنَسِى**} (طه :٨٨)، لأن التوراة كماتعلم تنسب صناعة العجل إلى هرون، لا إلى ذلك السامرى الذى هو من أفانين القرآن كما يرى أدعياء الاستشراق [٢]، فتعجب لهم ـ وهم يهود أو نصارى آخر الأمر ـ كيف لا يخجلون من نسبة هذا الكفر إلى نبى من أنبياء التوراة الكبار، ويأخذون على القرآن تنزيه هرون عنه، فيصدقون كاتب سفر الخروج على هزله ويكذبون القرآن، قول الحق الذى فيه يمترون . قال كاتب سفر الخروج : " وقال موسى لهرون ماذا صنع بك هذا الشعب حتى جلبت عليه خطية عظيمة . فقال هرون لا يَحْمَ غضب سيدى . أنت تعرف هذا الشعب أنه فى شر . فقالوا لى اصنع لنا آلهةً تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذى أصعدنا من مصر لا نعلم ماذا أصابه . فقلت لهم من له ذهب فلينزعه ويعطنى . فطرحته فى النار فخرج هذا العجل" (خروج٣٣/٢١ـ٢٤). الذى صنع العجل لبنى اسرائيل فعبدوه فى التيه هو إذن هرون فى قول التوراة، لا السامرى الذى اخترعه القرآن، فما كان لسامرى من السامرة أن يندس فى جماعة بنى إسرائيل فيصنع لهم العجل، والسامرة

(١) قال مفسرو القرآن الأوائل فى أخت هرون : يعنى صنوه فى الصلاح، وليس بشىء ، لأن هرون ـ على صلاحه ـ ليس وحده مضرب المثل فى الصلاح . ومازلتَ إلى اليوم تسمع نفس هذا التفسير الساذج فى الإذاعة والتلفزة من أعلام المفسرين فى هذا العصر الذين يتابعون ما قاله القدماء وإن كان اجتهادا لا سند له من قرآن أو حديث ، يكتفون بهذا دون تمحيص ، ولا يأتون بجديد . كان عليهم التماس معنى " أخت هرون" فى مصطلح الذين قالوها لمريم عليها السلام : الهارونية ، خادم المعبد .

(٢) Joseph Horovitz, op. cit., p. 33.

بعـد فى أرض فلسطين لم يدخلهـا بنو إسـرائيل إلا مـن بعـد وفـاة مـوسى وهرون . واستكثر هؤلاء الأدعياء على القرآن أن يستأثر بعلم الذى جهله آباء كتبة التوراة أو أنسوه أو تكتموه، فقالوا لم يُسْمع فى تاريخ بنى إسرائيل وأساطيرهم شىء عن هذا الذى كُتبَ عليـه أن يقـول " لامسـاس " ! أبَدَ الدهر : { **قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس، وإن لك موعدا لن تُخْلَفَه، وانظر إلى إلهك الذى ظَلْت عليه عاكفا، لنُحَرِّقَنَّه، ثم لننْسِفَنَّهُ فى اليم نسفا** } (طه:٩٧)، وزعمـوا أن قصـة السـامـرى الذى فى القرآن كـانت هى الأسـاس الذى بنى عليـه أهل الكتاب من بعد أسطورة "اليهودى التائه"، إلى آخر ما قالوه، ولم يتوقفوا ليتساءلوا : ولم لا تكون أسطورة اليهودى التـائه من أهابيش ذاكـرة أهل الكتـاب التى سقطت من أسفار التوراة أو تكتمتها أسفار التوراة ؟ ولماذا يهتم القرآن ـ وهو من عند غير الله بزعمهم ـ لمخالفة أساتذته من أحبار أهل الكتـاب لمجرد تنزيه هرون عن ضلالة صنع العجل لبنى إسرائيل فى قول التوراة، مثلما اهتم من بعد لتبرئة مريم عليها السلام "أخت هرون!" من البهتان الذى قُذفَت به فى عيسى عليه السلام يوم جاءت به قومَها تَحملُه ؟ ما للقرآن لهذا أو ذاك وهو يختصم أهلَ الملتين معا ؟ أليس لأنه وحده هو العليم بكل ما كان ؟ الحريصُ على الصدق فى كل ما قال ؟

هؤلاء الأدعياء يهرفون بما لا يعرفون، فيقطعون ولا يتثبتون، بل ربما دَلّسُوا عليك آمنين ألا تكشف زيفهم، ظانّين أنك لستَ أهلا لتجشم مؤونة الرجوع الى مصادرهم : ليست "السامرى" فى القرآن صفة على النسب إلى السامرة التى فى فلسطين (وهى " شُمْرون" عبريا بضم الشين والنسبة إليها " شُمْرُونى " أى "السامرى" الذى من السامرة)، وإنما هى صفـةٌ على النسب إلى "شِمْرُون" بكسر الشين، وهو شِمْرُون بن يسَّاكَر بن يعقوب ، الذى ينسب إليه " الشِمْرُونِيُّون "، عشيرة شِمْرُون، من سبط يساكر بن يعقوب، أحد أسباط بنى إسرائيل الإثنى عشر . وكلا اللفظين (شُمْرُون بضم الشين يعنى السامرة وشِمْرُون بكسر الشين ابن يساكر بن يعقوب رأس عشيرة الشّمْرونيين والنسبة إليها شِمْرُونى بكسر الشين يعنى واحد الشِمْرُونيين أى "السامريين" كالذى فى القرآن) مشتق من الجذر العبرى " شَمَرْ "، الأولى "شُمْرُون" بضم الشين على اسم المكان، أى السامرة، والثانية بكسر الشين على اسم الفاعل من "شَمْر"،

ومعناه حَفَظَ وصانَ وحَرَزَ، و" شَمَرْ منْ " يعنى احترزَ منه وتحاماه وتَوَقاه (راجع الترجمة العربية على الأصل العبرانى لسفر يشوع ١٨/٦) . وعلى هذا يكون معنى السامرة عبريا هو الحرز أى الحصن المنيع، ويكون معنى اسم شِمْرُون بن يساكر بن يعقوب المنسوب إليه ذلك"الشِّمرونى" (أى السامرى الذى فى القرآن)، هو الحارز المُحْتَرِز .

السامرى الذى فى القرآن هو من صميم أسباط بنى إسرائيل فى التيه، لا شأن له بالسامريين الساكنين السامرة فى فلسطين . لم يُسَمِّه القرآن بالاسم وإنما نَسَبَهُ إلى بنى أبيه . ولم يفطن إلى هذا المفسرون .

ولكن القرآن المعجز الذى لم يَسَمِّ هذا الرجل بالاسم، لا يفوتُهُ على منهجنا فى هذا الكتاب أن يفسر لك معنى " شِمْرُونى " (أى السامرى) فى أصلِها العبرى بتلك العبارة المعجزة " لامساس ! " التى سيقولها السامرى ليتَجَنَّبُه الناس، أى تَوَقونى وتَحامُونى، فأنا شمْرُونى ! وتندهش إذ تعلم أن صيغة أمر الجماعة من الجذر العبرى "شَمَرْ" ـ إن أضفتَ إليها ضمير المفعول للمتكلم فى العبرية "نِى" (كما فى العربية تماما) ـ تصبح " شمْرُونى !" أى تَوَقونى وتَحامُونى ! (لا مساس التى فى القرآنِ) بنفس الرسم والنطق الذى فى " شمْرُونى" على النسب، أى السامرى الذى فى القرآن . ألا فَسَبِّحْ معى العليمَ الخبيرَ، القائلَ بكل اللغات، ودَعْكَ من بُغاثِ الطير الذين يريدون التحليق إلى قِمةٍ ليس إليها من سبيل .



أما تفسير الاسم "هارون" ـ مقصدنا الأول فى هذا المبحث ـ فقد مر بك أنه فى العبرانية "أهارون" بزيادة الألف فى أوله، وأن هذه الألف البادئة هى "ألف التحلية" Prosthetic Aleph، التى تَزيد فى المبنى ولا تَزيد فى المعنى، فالأصل "هارون" بنفس صورته المعربة فى القرآن . ومر بك أيضا أن علماء التوراة وكتبة أسفارها لم يتصدوا لتفسير معنى هذا الاسم فى العبرية، شأنهم شأن مفسرى القرآن الذين اكتفوا بالنص على عجمة هذا الاسم ولم يتصدَّوْا لتفسيره . إلا أنه قد كان من أصحاب المعاجم، مثل معجم وبستر وغيره، من تصدَّوْا لتفسير معنى "هارون"، استنادا إلى علماء العبرية بالطبع، فتفاوتت تفسيراتهم على ثلاثة أقوال :

١- إنه الخفيف النَّزِق nimble or light، وهم هنا يشتقونه من الجذر العبرى "أرَنْ" بفتح الراء مكافىء " أرِنَ " العربى بكسرها ، أى خَفَّ ونَشِط ومَرِحَ وبَطِر، فهو "أرُون" عربيا . وعلى هذا القول تكون الألف الزائدة البادئة فى " أهارون" أصلية، والزائدة هى الهاء . ولا يصح هذا فى نحو اللغة العبرية، فضلا عن أنه من أعلام العبرانيين على معنى الخفة والنَّزَق " أورين"، "أرنان" بضم الهمزة وفتحها ، على الاشتقاق الصريح من الجذر العبرى " أرَن"، دون حاجة إلى إقحام الهاء بعد الألف البادئة فى " هارون " .

٢- إنه الفكِّير المكير thoughtful , deviser، يشتقونه من "هرا" العبرى الذى معناه - إن أسندته إلى فاعل مؤنث - حَبِلَت (المرأةُ)، وإن أسندته إلى فاعل مذكر كان معناه : فَكَرَ وقَدَّرَ devise، to conceive وهذا يصح فى العبرية من حيث الاشتقاق، ولكن المعجم العبرى لألفاظ التوراة " هَمِّلُون هِحَداش لَتَناخ" عبرى/ عبرى، وهو من مراجع هذا الكتاب، يقول لك إن " هَرَا " العبرى المسند إلى الفاعل المذكر ليس من التفكير والتقدير وإنما هو يجىء على الذم بمعنى أضْمَرَ لَهُ سوءا، أو كادَ لَهُ أمرا . ولا تصح التسمية بهذا فى هارون من قبل أبيه وهارونُ بِكْرُه . ولا تصح به الكنيةُ أيضا من قِبل بنى إسرائيل وهارونُ أَحَبُّ إليهم من موسى، حتى إنهم حين مات هرون اتهموا موسى بقتله غيرةً منه .

٣- إنه عَلِيٌّ أو مُتعال exulted، elated (وربما ذَكَّرَكَ هذا بقوله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب : " أنت منى بمنزلة هرون من موسى، إلا أنه لا نَبِّى بعدى ! " الذى اغتنمه أصحابُ الأهواء فَحَمَّلُوه فوقَ ما يحتمل) . والاشتقاقُ هنا يجىء من " يَهَرْ " وهو جذر ممات فى عبرية التوراة لم يَبْقَ منه إلا "يهَير" بمعنى الصليف ذى الصَلَف ، فيفترضون أن "يَهَر" بمعنى "علا" . وعلى هذا القول تجىء "أهارون" من "يهَر" مزيدا بالواو والنون على الفاعلية، كما جاءت "يَشَرون": (أى "شَارون" من " يَشَر " وقد مَر بك) فتصبح " يَهَرُون " ثم تؤول بحذف الياء البادئة إلى " هارون "، ثم تضاف ألف التحلية فيؤول إلى " أهارون " يرسمها فى التوراة. ولا غبار على هذا التفسير من حيث الاشتقاق فى العبرية، ولكن الذى يُضعف منه هو انعدام الجذر " يَهَرْ " فى عبرية التوراة .

ولئن كان أرْجَحُ التفسيرات الثلاثة هو التفسير الأخير (عَلى أو مُتعالٍ)، فثلاثتها جميعا موضع اختلاف بين علماء العبرية كما رأيت، أى ليس على أى منها إجماع . وهذا يدلك على أن علماء العبرية ليس لديهم مأثورٌ يفسرون به هذا الاسم، وإنما هى اجتهاداتٌ لغويةٌ ليس إلا .

ولكن القرآن لا يفسر على منهجنا فى هذا الكتاب الاسم "هارون" بأىٍّ من هذه المعانى الثلاثة : الخفّة أو المكيدة أو العُلُو . وإنما هو يجانسه على معنى القوة والشدة فى مثل قوله عز وجل على لسان موسى : {**واجعل لى وزيرا من أهلى. هرون أخى. اشْدُدْ به أزرى**} (طه:٢٩ـــ٣١)، { **وأخى هرون هو أفصحُ منى لسانا فأرسله معى ردْءاً يُصَدِّقُنى إنى أخاف أن يكذِّبون . قال سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بأخيك ونجعل لكما سلطانا، فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون** } (القصص ٣٤: ـــ ٣٥)، { **ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيرا** } (الفرقان ٣٥:) . هذه المجانسات القرآنية على الاسم "هارون"، والتى تُحَدِّدُ علة استنصار موسى بأخيه ، لا تخرج عن معنيين : الفصاحة واللّسَن، وأيضا القوة والشدة، فَشَدٌّ أزره وشدّ عَضُدَه، يعنى قَوّاه، والرِّدْءُ من معانيه فى العربية القوة والعماد، والوزارة أيضا من هذا، فالوزير يعنى حامل الثِّقل، والوَزَرَ عربيا بفتحتين يعنى الجبل المنيع يعتصم به .

أما تفسير "هارون" على معنى الفصاحة واللّسَن، فهو مردودٌ بامتناع تأصيله على أحرف "هارون" فى العبرية . وأما تفسيره على معانى القوة والشدة والوَزَر، فهو سَلْسٌ قريب . لا يحتاج إلى افتعال ذلك الجهد الذى بذله علماء العبرية فى تفسيراتهم للاسم " هارون"، ولو فطنوا لما سنقوله الآن لما ارتَضْوا به بديلا : إنه من "هار" العبرية بمعنى "جَبَل"، زيدَ بالواو والنون، إما على الصفة المُشَبَّهَة (كما قالت العبرية "إشْتُون" من "إشِت" أى شبيهُ المرأة، وقد مَرَّ بك)، وإما على التصغير تَوَدُداً وتَحَبُّبا، فهو "جُبَيْل". وأما الألف الملصقة بهذا الرسم فى العبرية "أهارون" فهى زائدة : إما هى ألف التحلية كالتى فى "أدُون" يعنى "سيد" (وأصلها "دُون")، وإما هى أداة التعريف العربية "أل" حُذِفَت لامُهَا، ولهذا نظائر فى العبرية يعرفُها المتخصصون، لا نُثْقِلُ بها عليك .

والذى ينبغى التنبيه إليه أن " هار" العبرية بمعنى "جَبَل"، يُكَنّى بها عبريا عن القوة والثبات والصمود، تماما كما يفعل أهل العربية فى لفظة " جَبَل"، بل لا تخلو أعلام العرب من "جبل"، "جبيل"، "جبلة". بل من مجاز العبرية أن تُكَنى عن رؤساء الشعب" بلفظة " هاريم " (جمع جَبَل) وهو مجازٌ يفسره المعجمُ العبرى بعبارة "جِدُولِي هاعام " أى " أكابر الشعب"، وبلفظة " مَعَصَامـوت" أى القوة، ومنها فى العبرية المعاصرة " مَعَصَامُوت جدُولُوت" يعنى" القوى الكبرى" (١) .

"هارون" إذن يعنى "الجبل" أو "جُبَيْل" ، وقد فسره القرآن كما رأيت على معنى الوَزَر والقُوَة، وفسره أيضا بالتقابل فى قول هرون يعتذر لأخيه فى فتنة العجل: {**قال ابنَ أُمَّ إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تُشمِت بى الأعداء**} (الأعراف :١٥٠) . وسبحان العليم الخبير .

---

(١) راجع مادة "هار" فى " هَمَلُون هِحَداش لَتَناخ " ، المرجع المذكور ، ص ١٢٣ .

(٣٢) فرعـــون

" فرعون" فى القرآن هى تعريب " پِرْعا " المصرية القديمة، تصطَلحُ على نطقها مكسورةَ الپاء ساكنةَ الراء، اتباعا لمنهج علماء تلك اللغة الذين يفترضون " الكسر" حين يمتنع القطع بحركة المد الواجبة بين ساكنين، فى خط لا يعبأ بإثبات حركات المد. وهى فى التوراة " پَرْعُو " بفتح الپاء وسكون الراء، وتَحَوُّلِ الألف إلى الواو .

أما " پرعا " المصرية القديمة هذه فهى اسم مزجى مركب من شقين " پر+ عا "، الشق الأولِ "پر" يعنى البيت أو الدار، والشق الثانى " عا " صفة بمعنى الكِبَرِ أو العِظَم، فهو "البيت الكبير" أو " البيت العظيم " . وتدخل "پر" فى تراكيب مزجية عديدة، من مثل " پر+ عَنْخ " أى بيت الحياة أو بيت الروح، يعنون " دار الكتبة "، " پر+ حِضْ" أى البيت الأبيض، يعنون " دار الخزانة " أو " بيت المال "، " پر + نِسُو " أى بيت الملك، يعنون " القصر" . وحين تأتى " پرعا " المصرية القديمة على المزجية فهى تفقد معناها الأصلى كبيت كبير أو بيت عظيم، وتصبح كُنْيَةً يُكَنَّى بها عن شخص الملك مهَابةً وتفخيما، كما قال العثمانيون فى خليفتهم " الباب العالى" ، وقالوا فى رئيس وزرائه "الصدر الأعظم" .

والثابت لدى علماء المصريات أن " پرعا " لم تصبح اسما دالاً بذاته على شخص الملك بحيث تستطيع أن تقول جاء " پرعا " وذهب " پرعا " وقال " پرعا "، إلا منذ عصر الأسرة التاسعة عشرة. عصر الرعامسة الذين كان منهم " فرعون موسى" على ما نرجح نحن ويرجح معنا اليوم كثيرون .

ومن إعجاز القرآن أنه ـ مطلع القرن السابع للميلاد ـ يوم كانت اللغة المصرية القديمة، وكان التاريخ المصرى القديم، طلاسمَ مُطَلْسَمة عند العالم أجمع، بل وعند المصريين أنفسهم، لم يعلم فقط معنى "پرعا" فى اللغة المصرية القديمة، وإنما علم أيضا منذ متى بدأ إطلاق هذه الكنية على ملوك مصر، فخص بها فرعون موسى وحده . أما

حين يذكر ملوك مصر الذين سبقوا " فرعون موسى" ـ كما ترى فى حديثه عن الملك الذى استخلص يوسف لنفسه وجعله على خزائن الأرض ـ فهو يقول "الملك"، لا يخطىء مرة واحدة فيقول " فرعون " .

أما كتبة التوراة ـ شأنهم شأن الخلق جميعا عصرَ نزول القرآن وحتى أواسط القرن الماضى وأوائل هذا القرن العشرين ـ فقد جهلوا هذا وذاك : فَسَّروا "پرعا" (وهى عندهم "پَرعْوُ" كما مر بك) على التخمين بأنها لفظة فى المصرية القديمة تعنى " الملك"، وأطلقوها بلا قيد فى سفرى التكوين والخروج، لا فرق بين " فرعون موسى"، و" فرعون يوسف "، و"فرعون إبراهيم" . وهذا يدلك بالنقد اللغوى وحده ـ كما مر بك ـ على أن أسفار التوراة المنسوبة إلى موسى عليه السلام لم تكتب على عصر موسى وهرون ـ أو قريبا منه ـ يوم كان العبرانيون يحسنون فهم تلك اللغة المصرية القديمة بحكم وجودهم بين ظهرانَى المصريين نحو أربعة قرون تفصل بين عصر يوسف وعصر موسى وهرون، وإنما هى كُتبت من الذاكرة ـ لا من الوحى المباشر ـ بعد خروجهم من مصر بقرون أنستهم ما كانوا يحفظون من تلك اللغة .

وأول ما يَدُلُّكَ على علم القرآن القاطع بمعنى البيت الذى فى " پرعا " هو تلك المُفاضَلَةُ المُعجزة بين " بيتٍ " عند الله فى الجنة وبين " فرعون " البيت الكبير ، على لسان امرأة فرعون إذ قالت : { **رَبِّ ابنِ لى عندك بيتا فى الجنة ونَجِّنى من فرعونَ وعملِه** } (التحريم : ١١) . أما الترجمةُ الدقيقة فى لغتك العربية لمعنى "پرعا" هذه (البيت الكبير) ، فهى " الصرْح " ، وبهذه الترجمة الدقيقة فَسَّرَ القرآنُ كما سترى معنى " فرعون" ـ أى "پرعا" ـ من المصرية القديمة التى كان يجهلها الخلقُ جميعا عصرَ نزول القرآن فى مطلع القرن السابع الميلادى وحتى أواسط القرن الماضى وأوائل هذا القرن العشرين ، وسبحان العليم الخبير .

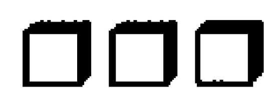
فى تفسير القرآن أعلامَهُ المصرية القديمة من مثل موسى وفرعون ومصر بلغة أهلها مطلع القرن السابع للميلاد إعجازٌ يخشعُ لَهُ العقلُ والقلبُ . فهل آن للمطنطنين بدعوى النقل والاستنساخ أن يخسَؤُوا ؟ بل ما أحراهم وقد افتضح الجهل أن يَجْلِسوا إلى هذا القرآن مجلسَ التلميذِ من الأستاذ ، يتعلمونَ منهُ ولا يتعالمونَ عليه .

وردت لفظة " الصَّرْح " فى كل القرآن أربع مرات ، مرتين فى (الآيـة ٤٤ من سورة النمل) وصفا لذلك القصر البِلَّوْرى الذى بَنَتْـهُ الجنُّ لسليمـانَ عليه السلام ودخلتـه ملكـةُ سبأ فحسبَت وهى تَطَؤُه ـ لملاسته وصفائه وشفافيته ـ إنها تخوض فى ماءٍ رَقْراق : { **قيل لها ادخلى الصرح ، فلما رأته حسبته لُجَّة وكشفت عن ساقيها ، قال إنه صَرْحٌ مُمَرَّدٌ من قوارير** } (النمل : ٤٤) . وأما المرتان الأُخْرَيان فكانتا فى تفسير معنى فرعون من المصرية القديمة بأنه " الصرح " .

قـال عـز وجل : {**وقـال فرعـون يـا أيهـا الملأ مـا علمـت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطَّلع إلى إله موسى وإنى لأظُنُّهُ من الكاذبين**} (القصص : ٣٨). وقـال عز وجل أيضـا: {**وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب** } (غافر : ٣٦).

وهو فى المرتين يفسر معنى "فرعون" ("پرعـا " المصرية القديمة) على الترادف الصريح ، لا كناية ولا تصـوير : پرعـا = الصرح . إن أُرْجِعْتَ " فـرعـون " إلى أصلها المصرى القديم " پرعـا " لقلت فى مثل الآية ٣٦ من سورة غافر : " وقال پرعـا ياهامان إبن لى پرعا "!

ألا فسبح معى العليم الخبيـر ، القائل بكـل اللغـات ، الذى علـم بـالقلـم ، علم الإنسـان ما لم يعلم .



أما علماء المصريات ـ يهودَ ومسيحيين ـ فقد أعياهم العثور على أثر أو نحت أو نَقْش يُصَدِّقُ التوراة فيما ترويه من أخبار فرعون مع موسى وهرون ، بَلْهَ على أثرٍ أو نحتٍ أو نقش يُسْتَدَلُّ منه على مجرد وجودٍ قد كان لبنى إسـرائيل فى مصـر ، ناهيك بذلك الحَدَثِ الجَلَل الذى أغرق فـرعـونَ فى اليمِّ وهو يُطارِدُ بنى إسـرائيل الذين جـاوزوا البحر إلى سيناء .

قـال الملحـدون من أهل الملتين : ومـاذا فى ذلك ؟ القَصَصُ الدينىُ كُلُّه حـديثُ خُرافة ، لا حقيقةَ له خارج الذهن ، لا نحوتَ ولا نقوشَ إلا فى أَدْمِغَةِ الذين آمنوا .

أما العلماءُ الأثبات ـ لا شأنَ لك بإيمانهم أو إلحادهم ـ فقد استدركوا على هؤلاء: وهل تتوقع من فراعنة مصر غير ذلك إن صَحَّت تاريخيا قصةُ التوراة ؟ ليست النُّصُبُ والنُّحوت والنقوش فى مصر القديمة صُنْعَ أفرقةٍ من المؤرخين أو الهواة ، وإنما هى تُصَنعُ وتقام بأمر الدولة وبتمويل من السلطة الحاكمة ، ملوكا أو كهنة ، لاسيما النُّصُبُ والنحوت والنقوش التى تُسَجِّلُ أخبارالملوك . والملوكُ يسجلون انتصاراتهم وأمجادهم ، ويطمسون ما كان من هزائمهم ومخازيهم ، بل ربما صوروا الهزيمة نصرا ، والفضيحةَ مجدا . وكذلك يفعلون .

والذى يعنينا من هذا أن فقدان التاريخ دليلَهُ العلمى الذى يُوَثِّقُ به أحداث ما كان من أمر فرعون مع موسى وهرون، أدى أيضا إلى انعدام الدليل العلمى الذى يحدد بيقينٍ لا شك فيه شخصَ هذا الملك واسمه بين الفراعنة الذين حكموا مصر .

ولكن للغويين كَلِمَتهم فى هذا : قد مَرَّ بك أن لقب "فرعون" ـ حين يدل بذاته على شخص الملك ـ بحيث تستطيع أن تقول ذهب فرعون وجاء فرعون وقال فرعون تعنى بها الملك بالإسم ، كُنْيَةً يتكنَّى بها ، لم تُسمع فى مصر القديمة على هذا الوجه الصريح قبل عصر الأسرة التاسعة عشرة [1] . أى دولة الرعامسة (الأولى) التى حكمت مصر أواخر القرن الرابع عشر قبل الميلاد ودام حكمها حوالى مائة سنة. وقد كان نصيب رمسيس الثانى من مدة حكم هذه الدولة سبعا وستين سنة .

ولأن القرآن يخص بلفظ " فرعون " ملكا بعينه من ملوك مصر، اسماً علماً، مُغايرا بين "الملك" الذى جعل يوسف على خزائن الأرض، وبين الطاغية الذى علا فى الأرض أى فى مصر (على مامر بك من أن "مصر" بلغة أهلها يومئذ تسمى الأرض) وجعل أهلها شيعا ، لا يريد به أى "فرعون" سبقه أوتلاه، فهو يعنى بالتأكيد "أول" فرعون تَلَقبَ به لا يُنادى بغيره ، أى أول فرعون استقر له هذا اللقب فَعُرِفَ به . فهو أول الرعامسة إن شئت ، أو أشهرهم بهذا اللقب . لا شأن لك بمن اصطنعوا اللقب من بعده ، " أشباحَ فراعين " ليس لهم من الاسم إلا رسمه .

ولكنك تستبعد رمسيس الأول مؤسس الأسرة التاسعة عشرة ، لأن حكمه لم يدم إلا سنة واحدة أو سنة وبعض سنة ، وتستبعد أيضا خليفته سيتى الأول الذى دام

(١) انظر : A. Gardiner , EGYPTIAN GRAMMAR ، المرجع السابق ، ص ٧٥ .

حكمه ثلاث عشرة سنة . تستبعد هذين لأن مُدّتى حكمهما (نحو ١٤ سنة) لا يستوعب أيّهما أحداث ما كان بين فرعون وموسى . ولكنك تتوقف عند رمسيس الثانى خليفة سيتى الأول لا تعدوه إلى غيره ، لا لطول مدة حكمه التى دامت سبعا وستين سنة فقط ، وإنما أيضا وبالأخص لأنه أحق فراعين مصر بهذا اللقب ، بل هو على الراجح أول من تَلَقّبَ به .

وأنت تستبعد بالطبع " مرنْپتاح " (منفتاح) خليفة رمسيس الثانى ، وإن حلا لمؤرخين التوقفُ عنده. تستبعد هذا بالدليل التاريخى : "لوحة إسرائيل" (الأثر المصرى الوحيد الذى جاء فيه ذكر " إسرائيل " بالاسم) وفيها يقول ذلك الملك إنه فى السنة الثالثة أو الخامسة من حكمه حارب فى آسيا فصال وجال : "ينْعِمْ أصبحت كأن لم تكن، وإسرائيل أبيدت ولن يكون لها بذرة ، وأصبحت حورو (أى فلسطين وما حولها) أرملةً لمصر " . (١)

والذى حارب إسرائيل فى فلسطين فانتصر عليهم وأباد بذرتهم ، ثم عاد إلى مصر سليما معافى يكتب هذا النقش ، لا يمكن بداهة أن يكون هو نفسه "فرعون" الذى هلك فى اليم غريقا وهو يطارد بنى إسرائيل فى عبورهم البحر إلى سيناء ، كما تقول التوراة وكما يقول القرآن . بل فى هذه اللوحة ـ "لوحة بنى إسرائيل" ـ مهما قلت فى طنطنة هذا الملك ـــ الدليل التاريخى الكافى على وجودٍ قد كان لبنى إسرائيل على عصر مرنپتاح فى فلسطين أو فى الطريق إلى فلسطين ـ أعنى فى تيه سيناء . وهذا يدلك على أن بنى إسرائيل خرجوا من مصر إلى فلسطين قبل أن يَخْلُفَ مرنپتاحُ أباهُ رمسيسَ الثانى على عرش مصر، أى كان خروجهم إلى تيه سيناء قبل مرنپتاح ، لا فى عهده ولا فى عهد من جاءوا بعده رعامسة وغيرَ رعامسة. فلم يكن لإسرائيل كيانٌ فى فلسطين قبل خروجهم من مصر ، لأن إسرائيل الذى يُنْسَبون إليه رجلٌ فرد ، دخل مصر قبل أن يتحقق لبنيه هذا الكيان لا فى فلسطين ولا فى غيرها . إذن فقول مرنپتاح ـ مهما تشككت فى طنطنته ـــ إنه حارب إسرائيل فى فلسطين يُفيدُ ثبوتَ عِلْمِهِ بوجودِ شعبٍ أو قبيلة بهذا الاسم خارج مصر ، وهذا العلمُ وحده قاطعُ الدلالة على خروجهم من مصر قبل مرنپتاح لا بعده . فتعجب كيف يتورط مؤرخون فى توقيت

---

(١) ما بين علامتى الاقتباس منقول عن : أحمد فخرى ، " مصر الفرعونية " ، مكتبة الأنجلو المصرية ، طبعة ١٩٨٩ ، صفحة ٣٧٦ ، الحاشية (١) .

خروج بنى إسرائيل من مصر بعهد مرنپتاح وفى أيديهم وتحت بصرهم هذا الشاهدُ التاريخى القاطع ؟ عليك إذن ـ شأنَ المؤرخِ الجديرِ بهذا الاسم ـ التماسَ فرعون موسى فى رمسيس الثانى ومن سبقوه ، لاشأن لك قط بمَن خلفوه .

على أنك تكتفى من "لوحة إسرائيل" بهذا الدليل التاريخى القاطع على ارتحال بنى إسرائيل من مصر قبل عهد مرنپتاح ، لا تعدوه إلى طنطنة هذا الملك بانتصاراته فى آسيا فالراجح أن هذا الملك ــ طوال حكمه الذى دام إحدى عشرة سنة ـ لم تطأ قدماه أرض سيناء ، ناهيك بأرض فلسطين ، لانشغاله عن بوابة مصر الشرقية بحروبه مع ليبيين شَنُّوا على مصر من الغرب حملات استيطانية كان لهذا الملك ـ وهذا هو الإنجاز الوحيد الذى يسجله التاريخ لمرنپتاح ــ فضلُ حمايةِ مصر منها .

هذا وحده هو الذى يفسر لك ـ إن سَلَّمت بأن فرعون موسى نفسه هو رمسيس الثانى والد مرنپتاح ـ سببَ سكوتِ مصرَ عن ثاراتها لدى بنى إسرائيل أربعينَ سنة فى تيه سيناء ، وتطوافَهم بين جبالها ووهدانها وكأنه لا وجودَ لمصر عسكرياً فى سيناء ، ولم يُعْنَ بالتساؤل عن سر هذا السكوت والاغضاء أحد : لا تنامُ مصرُ عن سيناء إلا فى عصور الفوضى . كان هذا هو دَيْدَنَ مصر منذ فُجر التاريخ وإلى اليوم. نامت مصرُ عن ثاراتها لدى بنى إسرائيل فى سيناء لانشغالها بمصيبتها فى داخلها: سقوطُ الدولة. لم يَمُت فرعونُ موسى على سَريره حَتْفَ أنفه ، وإنما هَلَك فى كارثةٍ كبرى ، أوْدَت بين ليلةٍ وضُحاها لا بملك مصرَ وحده ، بل وبالملأ من وزرائه وأمرائه وقادة جنده . وكان على مرنپتاح الذى آل إليه العرش وهو فى الستين من عمره أن يواجه هذا كله ، بالإضافة إلى أطماع من تَحَيَّنُوا الفرصة للوثوب على مصر واستيطانها ، كما ترى فى تلك الحملات الليبية التى تصدى لها هذا الملك وانشغلَ بها عما عداها. على أن الاضطرابات والقلاقل داخلَ مصر بدأت مع أواخر عصر رمسيس الثانى، وهى اضطراباتٌ وقلاقل لا تفسرها فقط بشيخوخته كما يقول المؤرخون ، وإنما تفسرها أيضا بكوارث طبيعية ، وقلاقل سياسية ، الأولى تأديبٌ من الله عز وجل : [**ولقد أخذنا آل فرعون بالسنينَ ونقصٍ من الثمرات لعلهم يَذَّكرون**] (الأعراف : ١٣٠)، وجاءت الثانيةُ نتيجةَ افتضاح فرعونَ وسقوطِ هيبته عند شعبه وعند الملأ من بلاطه بتوالى هزائمه أمام موسى وهرون .

ويقول المؤرخون [١] ان أحوال مصر ازدادت سوءا وخطورة على عهد مرنپتاح ، وتفاقمت بالصراع على السلطة فى بلاط من خَلَفوه ، فتمزقت البلادُ شَرَّ مُمَزَّق ، وأعلن كثيرون من كبار حكام الأقاليم استقلالهم ، و غُزِيت مصرُ من الخارج ، وظل الناسُ سنواتٍ دونَ حاكمٍ عليهم ، حتى كان الرجل يذبحُ جاره، واستطاع رجلٌ من أصلٍ سورى تنصيبَ نفسه ملكا على مصر ، يَنهَبُ ممتلكاتِ الناس ويُهمِلُ المعابد ، فَخُتِمَت به شَرَّ ختام الأسرةُ التاسعة عشرة بعد نحو ربع قرنٍ من مَهلك رمسيس الثانى .

أفتجد فى تاريخ مصر أنسبَ من هذا المُناخ لسكوت مصرَ عن ثاراتها فى سيناء؟

أما طنطنة هذا الملك بخروجه إلى سيناء وحربه مع بنى إسرائيل يستأصل شأفتهم ويبيد بذرتهم ، فهى أمانىُّ العاجزَ عن الثأر لمهلك أبيه ، يُعَلِّلُ بها النفس ، كالذى تقرؤه فى ديوان امرىء القيس من شعرٍ حماسى يُدَبِّجُهُ فى مَصارِعِ الذين قتلوا حِجْراً أباه .



على أن من المؤرخين من يرتفع بتاريخ خروج بنى إسرائيل من مصر أربعة قرون سبقت عصر مرنپتاح ، فيرد هذا الخروج إلى عصر الملوك الرعاة ـ الهكسوس ـ الذين حكموا مصر نحو قرنين من حوالى منتصف القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن السادس عشر قبل الميلاد . وربما نزل بعضهم بتاريخ هذا الخروج إلى عصر الأسرة الثامنة عشرة ، وتَدَرَّجَ به من تحوتمس الثالث إلى أمنحوتب الثانى فأمنحوتب الثالث ، ثم إلى أمنحوتب الرابع ، أى اخناتون ، فى محاولة للربط بين خروج بنى إسرائيل من مصر وبين ما يسمونه " ثورة اخناتون " الدينية [٢]، تمسحا بهذا الملك فى تأصيل زعمهم بأن اخناتون هذا هو أولُ قائلٍ بعقيدة التوحيد ، وأن التوراة نقلت عنه فكرة عبادة الواحد الأحد ، كما استنسخ داودُ مزموره (١٠٤) من نشيد اخناتون الإلهى، متناسين أن بنى إسرائيل هم الذين جاءوا إلى مصر بهذه العقيدة مع يوسف ويعقوب

(١) أحمد فخرى ـ " مصر الفرعونية " ـ المرجع المذكور ، الصفحتين ٣٧٨ . ٣٨٧ (ما بين الصفحتين لوحات مصورة) .

(٢) المرجع نفسه ، صفحة ٣٧٧ .

عن جدهما إبراهيم صلوات الله عليهم أجمعين . والحق أن عقائد المصريين جميعا ، ومنها العقيدة التى جاء بها اخناتون ، ليست إلا تنويعات على لحن واحد ، وإنما هم يتبدلون أسماء بأسماء . وليس "أتون" (يعنى شعاع الخلق والحياة المنبثق عن قرص الشمس) بأفضل من " آمون" إن أردت التجريد ، لأن "آمون" فى اللغة المصرية القديمة معناها "الخفى المحتجب" ، أى الذى هو وراء كُلِّ معبودٍ مشهود ، أما "آمون ـ رع" فهو الإلهُ الأكبر الذى وراءَ قرصِ الشمس الإله . والذى فعله إخناتون كان فى حقيقته صراعا على السلطة مع كهنة " آمون " . وما كان إقصاؤه الآلهة الأخرى فلا يُعْبَدُ مع "آتون" غيره ، إلا إقصاءً لسَدَنَتِها وكهنتها ، كى ينفرد إخناتونُ وحده بالكهانة : لا تَوَسُّلَ إلى " آتون" إلا به ، ولا وساطة بين "أتون" وبين الناس إلا من خلاله . وما هكذا يكون التوحيد أيما نَصَّبْتَ منْ إله .

على أن التوحيد ـ فطرةَ الله التى فَطَرَ الناسَ عليها ـ بَدَأَ بآدم ، ثم ضَلَّ من ضل فانتهى إلى الشرك . ولا يخلو شركٌ من أصلٍ للتوحيد يُرَدُّ إليه : { **ما تعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** } (الزمر : ٣) ، أى أن الشرك هو اصطناعُ الوسائط بين الخَلْقِ والخالق ، فهو " الكهانة" . وليس الإلحادُ ثورةً على التوحيد، وإنما هو فى أصله إن تمعنت ثورةٌ على الشرك ، أى ثورةٌ على الكهنة الذين يُعَدِّدُون الأربابَ والوسائط تكثيرا للأرزاقِ والجراية ، ثم يقفون على أبواب المعابد يقبضون منكَ الصَّدَقةَ أتاوة ، كالمتسوِّلِ ، الجَبَّارِ ذى العاهة ، يُريكَ من عُكازِهِ هِراوةً غليظة يَدُقُ بها عُنُقَكَ إن تَأَبَّيْتَ عليه .

متى رمزتَ إلى الله عز وجل برمزٍ ، فقد فَسَدَ الدين ، وانصرفَ الناسُ عن الأصلِ إلى الرمز ، حتى عبدوا الحجرَ والشجر . والكهَّانُ ـ وإخناتونُ منهم ـ هم الذين يبتدعونَ لك هذه الرموز ليحكموك بها .

على أن إخناتون لم يعرف اللهَ عز وجل حقَ معرفته ، لأنه يُوَحِّدُ "أتون" ليستأثر به لنفسه . ونشيدُهُ الإلهى تهاويمُ شاعر ، أكثرُهُ مسبوقٌ مأثور، تَقرؤه فى تسابيح المصريين من قبله لآمون وغيره. وإنما طنطن الملحدون من أهل الملتين بإخناتون تدليلاً على أن وحى الله عز وجل على رسله مسبوقٌ بما قاله هذا الشاعرُ الملكُ المُتَحَنِث، بل الملك النبى فى قول البعض . وما كان لنبيٍ يدعو الناس إلى الواحد الأحد أن يَدَّعى ـ كما قال إخناتونُ فى نشيده ـ أنه وُلِدَ من صُلْبِ إلهِه .

وقد انزلق إلى هذا الوهم أيضا مؤرخون معاصرون مصريون مسلمون ، فرحوا بإخناتون الملكِ النبيِّ الذى سبق موسى وهرون ! قد أصابهم الزهوُ العِرْقِيُّ المميت ، فَعَمَوا عن الحق ، ربما تعلَّلتَ لهم بأنهم لا يقــرءون القــرآن ـ وهذا أقــبحُ الذنب ـ ولكنك لا تُعفيهم من إثم إشاعة هذاالضلال " العلميّ " بين الناس ، وأهلِ الأدبِ بوجه خاص .

أما المقارنة التى يعقدونها بين نشيد إخناتون وبين مزمور داود (١٠٤) فلك أن توازن بين النصين [١] ، ولن تجد فى القليل الذى اتفقا فيه إلا أفكارا شائعة لا تحتاج إلى أخذ اللاحق عن السابق . على أن المزمور (١٠٤) ليس محقق النسبة إلى داود عليه السلام ، دليلك فى هذا من " الكتاب المقدس " نفسه ، الذى سكت عن نسبة مزامير بعينها ، منها هذا المزمور ، لداود : قال فى بعضها " المزمور (..) لداود" ، وسكت عن الباقى .



دام حكم رمسيس الثانى سبعا وستين سنة ، فهو أطولُ ملوكِ مصرَ القديمة حكماً بإطلاق ، لا الرعامسةِ فحسب ، فلا تجدُ بين ملوكِ مصرَ القديمة فرعونَ غيرَه يستوعب حُكْمُهُ أحداثَ ما كان منذ التقاط آل فرعون موسى من اليم وتنشئته فى قصر فرعون حتى يبلغ مبلغَ الرجال ، ويقتلُ موسى ذلك المصرىَّ فَيَفِرُّ من آل فرعونِ إلى مَدين حيث يُصهِرُ إلى كاهنها "يثرو" ويمكث عنده عشر سنوات ، يعود بعدها إلى فرعون هذا نفسه ، ويحاوره فرعونُ ويداوره ، وتمضى بهما السنون حتى يخرج موسى ببنى إسرائيل إلى تيه سيناء وقد ناهز موسى الثمانين كما تقول التوراة أو حسابات التوراة ، فقد امتد الأجلُ بموسى فى تيه سيناء أربعين سنة ومات فى التيه وعمره مائة وعشرون سنة ، كما مر بك من قول الكاتب فى سفر الخروج . ومهما عجبت لمبالغات التوراة فى أعمار أبطالها ، فلا شك أن الحوار بين موسى وفرعون قد طال سنوات ، لقوله عز وجل: { ولقد أخذنا آل فرعون بالسنينَ ونقصٍ من الثمرات لعلهم يذَّكَّرون } (الأعراف : ١٣٠) . وأنت تعلم أن الرسل باستثناء عيسى عليه السلام يُبعثون فى تمام الأربعين . فَرَّ موسى إذن إلى مدين وقد ناهز الثلاثين ، وعاد إلى مصر بعد عشر

(١) اقرأ المزمور (١٠٤) فى موضعه من مزامير داود بالكتاب المقدس . واقرأ نشيد إخناتون فى : أحمد فخرى ، مصر الفرعونية ، المرجع المذكور ، الصفحات ٣٢٣ ـ ٣٢٨ .

سنوات حيث نودى من جانب الطور الأيمن فى سيناء ، ثم ناجز فرعونَ سنين ، ليخرج ببنى إسرائيل إلى تيه سيناء وقد ناهز العقد السادس من عمره ، إن لم يزد .

لا يتسع لهذه العقود الخمسة أو الستة حكمُ أى ملكٍ من ملوك مصر القديمة منذ "نعرمر" مُوَحِّد القطرين إلى رمسيس الثانى . وقد مر بك القول فى الشاهد التاريخى ـ لوحة إسرائيل ـ المانع من أن يكون " مرنپتاح " ـ ابن رمسيس الثانى ـ هو فرعون موسى ـ لا مرنپتاح ولا جميع من خلفوه . لا يتسع لهذا إلا حكم رمسيس الثانى وحده (٦٧ سنة) إذا كان الفرعونان واحدا : الذى احتضن وربّى ، ثم جحد وعصى . والقرآن على هذا لأنه يخص بلفظة " فرعون" مَلِكاً بعينه ، اسما عَلَما ، لا يعدوهُ إلى غيره .

ولكن التوراةَ تقول لك فى سفر الخروج ان فرعون الذى التقط موسى من اليم فاحتضنه ورباه ، وفر منه موسى إلى مدين بعد قتله ذلك المصرى ، ليس هو نفسه فرعون الذى هلك فى اليم غريقا . بل مات وموسى لايزال بعد فى مدين (خروج٢/٢٣) ، فلم يعد موسى إلى مصر إلا بعد أن "مات جميع الذين يطلبونه" (خروج٤/١٩) ليقتلوه بذلك الرجل المصرى . فهما إذن فرعونان : فرعونُ الذى ربّى، وفرعونُ الذى بُعثَ موسى عليه السلام إليه رسولا. وقد رَتَّب بعض المؤرخين على هذا أن "فرعون الخروج" هو مرنپتاح ، خليفة رمسيس الثانى. وهذا مردود بما مر بك من الشاهد التاريخى على امتناع دورِ "فرعون الخروج" على مرنپتاح وكل من خلفوه. وهو مردودٌ ثانيا بأن موت ملك مصر لا يُسقِطُ الجرم الذى اجترحه موسى بقتله ذلك المصرى، كما وَهِمَ كاتبُ سفر الخروج ، الذى أراد تعليل إقدام موسى على العودة إلى مصر وهو فيها مُهْدَرُ الدَّم. وليس بلازم ، لأن الله عز وجل يعصم أنبياءه، بل قد تَوجس منها موسى: { **ولهم علىَّ ذنبٌ فأخاف أن يقتلون. قال كلا، فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون** } (الشعراء : ١٤ ــ١٥) : الذى خرج من مصر فِرارا من بطشِ فرعون قد عاد إلى فرعونَ هذا نفسه بسلطان الله { .... **ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما** } (القصص : ٣٥) .

على أنك لا تأخذ كل مايُسَطرُهُ هذا الكاتب مَأْخَذَ الجدّ ، فهو لا يَني يُتْحِفُكَ بِمُحالاته . من ذلك قولُهُ فى نفس الإصحاح (خروج ٤/٣٤ ـ ٣٦) وقد فرغ من

تسجيل نزول الرسالة على موسى : "وحدث فى الطريق إلى المنزل أن الرب التقاه ليقتله (يعنى أراد الله أن يقتل موسى) فأخذت صفُّورة (زوجُ موسى) - وأصلها العبرانى «صِپُّورة» يعنى «عصفورة» - صَوَّانة وقطعت غُرلَة ابنها ومَسَّت رجليه وقالت إنك عريسُ دمٍ لى ، فانْفَكَّت عنه (أى انصرف الربُ عن موسى وعَدَلَ عن قتله) حين قالت عريسُ دمٍ ، من أجلِ الختان" . وقد أحرج هذا النصُ شُرَّاحَ التوراة : بأى ذنبٍ يقتلُ اللهُ موسى وقد اصطفاه نبيا رسولا ؟ قالوا إن موسى أهمل ختانَ ابنه فكاد أن يهلكَهُ بهذا الذنب، لولا قَطْعُ صفّورة غُرلَةَ ابنها (يعنى خَتَنَتْه) فعفا الربُ عن موسى، فلا تدرى كيف علمت صفُّورة بغضب الله على موسى واعتزامه قتله وموسى فى الطريق إلى المنزل . أما قولُها إنك "عريسُ دمٍ" لى (وهى بالعبرية "حَتَنْ دَميم") فهم يفسرونها بأن الزوجية انقطعت بينهما بغضب الله على موسى لإهماله ختانَ ابنه ، وعاد لها موسى عريساً بمقتضى دَمِ الختان الذى مسَّت به رجليه [1]. هُراء يُفَسَّر بهُراءٍ مثله . لم يتوقف الكاتب لحظة ليسائل نفسه : كيف يقتل الله النبى الذى اصطفاه برسالاته وبكلامه ؟ ولِمَ ؟ ألأنه أهملَ ختانَ ابنه كما قال الشراح من بعد هذا الكاتب؟ أفكان موسى يتوقف لحظة عن ختان ابنه لو ذَكَّرَهُ اللهُ به قبل أن يقرر قتله؟ أم أراد الله أن يُبَيِّتَ لَهُ كى يأخذَهُ على غرة؟ وَهَبْهُ أراد قتلَه ، فهل يمشى اللهُ إليه ليقتلَه أم يبعثُ إليه بَملَكٍ يقبضُ روحَه ؟ وَهَبْهُ مشى إليه ليقتله ، فهل تَحولُ دونَهُ حيلةُ صفُّورة ؟

لا عليك . هذا الكاتبُ كأخيه الذى فى سفر التكوين يَهزِلُ أحيانا . ومُحالاتُهُ حَشْوٌ لا يلزمك ، فليس هذا من التوراة التى أنزلَ اللهُ على موسى .



على أن فى التوراة دليلين " جادَّيْنِ " يُشيران إلى أن "فرعون الخروج" هو نفسه رمسيس الثانى ، ولم يحظيا من المؤرخين بالعنايةِ الواجبة والتدقيقِ الكافى .

الدليلُ الأول تجده فى سفر الملوك الأول : "وفى السنة الخامسة للملك رَحَبْعام صعد شِيشَق ملك مصر (يريد " شِيشَنْق") إلى أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن

(١) راجع هذا تحت مادة " حتن " فى المعجم العبرى الآرامى لألفاظ التوراة ، وهو من مراجع هذا الكتاب .

بيت الملك .." (ملوك أول ١٤/ ٢٥ ـ ٢٦). ورحبعام هذا هو ابن سليمان بن داود. وتقرأ فيه أيضا أن سليمان الذى حكم أربعين سنة بدأ حكمه فى السنة الأربعمائة وست وسبعين لخروج بنى إسرائيل من مصر (ملوك أول ٦/ ١) . إن أضَفْتَ هذا إلى ذاك كان صعودُ " شيشق " هذا إلى أورشليم فى السنة الخمسمائة وعشرين لخروج بنى إسرائيل من مصر. ما عليك إذن إلا أن تُعَيِّنَ مدةَ حكم "شيشق" على مصر، وتُضيف إلى بدايتها ـ أو نهايتها إن شئت ـ ٥٢١ سنة حتى تصل بالتقريب إلى عصر "فرعون الخروج" . ولكن تاريخ الأسر الحاكمة فى مصر يُسمى خمسةَ ملوكٍ باسم "شيشنق" ، شيشنق الأول إلى شيشنق الخامس ، وليس لدينا ، ولا لدى المؤرخين أيضا ، الدليلُ الحاسم على أى الملوكِ الخمسةِ هؤلاء كان شيشنقُ المَعنى . ولكن الذى نتوقف عنده هو أنك إن اخترت شيشنق الخامس (منتصف القرن الثامن) وأضفت خمسة قرون منذ خروج بنى إسرائيل من مصر إلى عصر رَحَبْعام ، لوجدت نفسك فى قلب القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، قرن رمسيس الثانى ! أما إن أصررت على شيشنق الأول (منتصف القرن العاشر) كما يُصِرُ المؤرخون بلا دليلٍ لديهم ، ثم أضفت القرون الخمسة ، فقد وصلت إلى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، أى عصر تحوتمس الثالث ، الذى يرشحه بعض المؤرخين كما مَرَّ بك لدور "فرعون الخروج". ولا يَصلُح تحوتمسُ الثالثُ بالذات لهذا الدور بدليل لا يَصحُ فيه جدل غَفَلَ عنه أولئك المؤرخون: خَلَفَ تحوتمسَ الثالثَ ابنهُ أمنحوتب الثانى الذى حارب بضراوة فى آسيا ، ماراً بسيناء بالطبع. أفلم تقع عيناه على شراذم بنى إسرائيل فى التيه فيمزقهم شَرَّ مُمَزَّق انتقاما لمهلكِ أبيه على أيديهم ؟ كيف سَلِمَ بنو إسرائيل من ثارات مصر أربعين سنة ؟ لم يُعْنَ ببحث هذه النقطة من المؤرخين أحد . وقد تقدم .

أما الدليلُ الثانى من التوراة على أن فرعون موسى هو رمسيس الثانى بالذات، وهو دليلٌ حاسم هذه المرة ، فأنت تعلم من التاريخ أن هذا الملك ابتنى لنفسه عاصمة فى شمال شرقى الدلتا أسماها باسمه : "پر ـ رعمسيس" ، يعنى "بيت رمسيس" . وتعلم من التوراة (خروج١/ ١١) أن فرعون موسى سَخَّر بنى إسرائيل فى بناء مدينتين : مخازن فيثوم ، ثم رعمسيس. ولا يمكن أن تكون " رعمسيس" التى يعنيها الكاتب سوى " پر ـ رعمسيس " التى ابتناها رمسيس الثانى ، فليس فى مصر القديمة شمالى شرق الدلتا قُرْبَ منازل بنى إسرائيل فى مصر مدينةٌ بهذا الإسم غيرُها . والذى

يبنى لرمسيس الثانى مدينته هذه لا يمكن أن يكون خروجُهُ من مصر سابقاً على عصر هذا الملك . ربما قلت إن هذه من أفانين الكاتب ، يَنْحِلُ قومَه شرفَ بناء مدينةٍ لفرعون ، ولكن الكاتب لا يقولها فى مَعْرِض التفاخر ، وإنما يقولها للتدليل على التسخير والذلّة والمهَانة . لو أراد المفاخَرة لما أعضَلَ عليه انتحالُ أثرٍ مصرى أعظَمَ وأخلد ، كما ادعى متبجحون من يهودِ هذا العصر أنهم المهندسُ الذى كان وراء بناء الأهرام . قد عاصر بنو إسرائيل إذن رمسيسَ الثانى فى مصر ، لم يخرجوا منها قبلَه . وهم كما مر بك لم يخرجوا على عصر خليفته مرنپتاح ومن جاءوا بعده . فلم يبقَ إلا أن يكونَ رمسيسَ الثانى هذا نفسهُ هو " فرعون الخروج " .



ومن المؤرخين من يشفقُ من هذا ، لا يريدُ أن يكون رمسيسُ الثانى ، ذلك الفرعونُ العظيم ، سَيِّدُ العالمِ فى زمنه ، هو نفسه " الفرعونَ الملعونَ " فى القرآن ، بينما القرائنُ كلها تشير إليه ، وينعدم الدليلُ العلمى على من يحلُّ محلّه من ملوكِ مصر فى البَوْءِ بإثمه . والسبب أنهم مبهورون بشخصية هذا الملك ، أشهرِ فراعنةِ مصر وأعظمِهم على الإطلاق ، متى قستَ العظمة بالعلو والاستعلاء ، والزهوِ والفخرِ والتجبر ، والبناءِ والنحتِ والنقش، وإن كَذَبَ وزَيَّفَ ، كما ترى من نقشه الذى يُحَوِلُ هزيمته فى قادش إلى بطولةٍ ونصرٍ مُؤَزَّر، وكما ترى من سرِقَتِه آثار غيرِه ينسبُها لنفسه، مثلَ بَهْوَيْ الأعمدة فى الأقصُرِ والكرنك . كلُّ هذا عند هؤلاء المؤرخين "هناتٌ" لا تقلل من عظمةِ هذا الملك ، الذى يشْفقون من مهلكه ذليلا خاسئا بعصا موسى على أيدى شِرْذِمَةٍ من بنى إسرائيل .

ولو أن هؤلاء المؤرخين آمنوا واتقوا ، وقرءوا طويلا فى هذا القرآن ، لأدركوا أن الله عز وجل إنما يرسل الرُّسُلَ إلى هذا الصِّنف بالذات من الملوك الجبابرة الطُّغاة : {**وإن فرعونَ لعالٍ فى الأرض ، وإنه لمن المسرفين**} (يونس : ٨٣) ، الذين آتاهم الله من كل شىء فجحدوا واستكبروا ، وتألَّهوا : {**فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إن فى ذلك لعبرةً لمن يَخشى**} (النازعات : ٢٣ ـــ ٢٦) . وما كانت العبرةُ لتحدث لو كان فرعون هذا مَلِكا

هَمْلا . على أنه لم يقل أحد بأن بنى إسرائيل ناجزوا فرعون فغلبوه، وإنما هم فَرُّوا منهُ بليلٍ ، يتوجَسون . بل كان مَهلكُ فرعونَ بآيةٍ كونيةٍ كبرى ، تُناسب "جبروت" هذا الملك ، الذى علا واستكبر ، فَقَصَمهُ جبّارُ السمواتِ والأرض، لا كبيرَ غيرهُ .

يؤيد هذا أن مهلك رمسيس الثانى كان آخر عهد مصر بالعظمة ، فلم تقم لها من بعدُ قائمة ، إلا هبَّاتٌ هنا وهناك ، وجذوةٌ تحت الرماد تريد أن تتوهج وسرعان ما تنطفىء . وكأنما حَلّت بمصرَ اللعنة (وهى لعنةُ الفراعنة إن تمعّنت) . وإنما كانت سقطةُ مصر الفرعونية إلى أبد الدهر تأديباً لها على سكوتها عن هذا الطاغية ، ولو كان فرعونُ موسى أسبقَ من رمسيس الثانى ، لما كان لعصرِ رمسيسَ الثانى فى تاريخِ مصرَ محلٌ . تلك هى عاقبةُ السكوت على كل طاغيةٍ مُتألّه : { **يا أيها الملأ ما عَلِمْتُ لكم من إلهٍ غيرى** } (القصص : ٣٨) ، { **فاستخف قومه فأطاعوه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين** } (الزخرف : ٥٤) ، { **فلما آسفونا انتقمنا منهم، فأغرقناهم أجمعين** } (الزخرف : ٥٥) ، { **وأتبِعُوا فى هذهِ لعنةً ويومَ القيامة**} (هود : ٩٩)، { **كم تركوا من جناتٍ وعيون. وزروعٍ ومَقامٍ كريم. ونَعمةٍ كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين . فما بَكَتْ عليهمُ السماءُ والأرضُ وما كانوا مُنظَرين** } (الدخان : ٢٥ ــ ٢٩) .

لو أن رمسيسَ الثانى آمن لموسى لتغير وجهُ التاريخ البشريِّ كُله ، وتاريخُ مصر بوجهٍ خاص . ولكن لا مجالَ فى التاريخ لكلمة " لو" التى تَفتحُ عملَ الشيطان كما قال الصادقُ المصدوقُ صلى الله عليه وسلم : إنه قضاءُ اللهِ عز وجل لا رادَّ لحكمِه ، يهدى من يشاء ويُضِلُّ من يشاء ، وهو أعلمُ بالمهتدين .



وقد كان من آل فرعون من آمن لموسى وهرون . تجد هذا فى القرآن ولا تجده فى التوراة ، ولكنهم كتموا إيمانهم خشية بطش هذا الطاغية . من هؤلاء ذلك الرجل من آل فرعون فى سورة غافر الذى لم يطق صبرا فاستعلن لهم بإيمانه : { **فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب** } (غافر : ٤٥) . بل من هؤلاء أيضا امرأة فرعون نفسه : { **وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت**

رب ابْن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين } (التحريم :١١) .

أفقد كانت هذه هى أم موسى بالتبنى، التى التقطته من اليم فاتخذته ولدا ؟ التى قالت لزوجها ترقق قلبه: {**قرة عين لى ولك، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً**} (القصص : ٩) ؟ القرآن على هذا ، فلم تَرِد "امرأة فرعون" فى كل القرآن إلا فى هذين الموضعين فحسب (القصص : ٩ ــ التحريم :١١) ، اسماً علما على تلك التى كانت سببا فى استحياء موسى فكان جزاؤها من الله عز وجل أن تُؤمِنَ به ليكون لها حسْنُ ثوابِ الآخرة .

فما بالُ التوراةِ تقول ان التى التقطت موسى من اليم فتبنَّته هى "ابنةُ فرعون" ، ليست هى "إمرأة فرعون" ؟ أفتكونُ الابنةُ والزوجة شخصاً واحدا ؟ أفقد تزوج رمسيسُ الثانى ابنتَه ؟

نعم . فقد كان من مخازى هذا الفرعون "العظيم" أنه تزوج ثلاثاً من بناته![1]

ربما استفظعتَ هذا . لا عليك . فقد سبقَهُ بها المُلْك "القديس" إخناتون ، الذى تزوج ابنته " عنخس إنْ پا أتون " وهى فى الثانية عشرة من عمرها بعد أن فارقتْهُ أمُّها "نفرتيتى" فاستولد ابنتهُ " حفيدتَهُ " منها " عنخس إن پا أتون " (الصغرى) ولما رأى أن ابنته لم تنجب له وريثا للعرش وقد حُرِمَ من ذريته الذكور ، زَوَّجَها من أميرٍ صغيرٍ فى التاسعة من عمره استخلفه على العرش ، وهو " توت عنخ آمون " ![2]

هذا قد يفسر لك قولَ التوراة " ابنة فرعون " على معنى " امرأة فرعون " الذى فى القرآن ، أى" الإبنة ـ الزوجة " التى كانت لرمسيس الثانى .

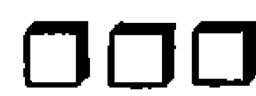


(١) انظر : أحمد فخرى ، مصر الفرعونية ، المرجع المذكور ، صفحة ٣٧٤ .

(٢) المرجع نفسه ، صفحة ٣٣٣ . وأنت تعلم من التاريخ أن زواج المحارم ، وبالذات من الأخت ، كاد يكون سنة متبعة فى فراعنة مصر ، حفاظا على الدم الملكى ، أو استعلاء على الرعية أن يطأ السوقة بنات الملوك ، وكأنهم جيل من بقايا جيل آدم الأول ، لا تجد المرأة من ينكحها إلا أخاها ، فيخالف آدم وحواء بينهم بالبطون : يتزوج بنات البطن الواحد من ذكور بطن سبق . ولكنك لا تسمع بمن ينكح ابنته إلا فاسقٌ أو متألهٌ مجنون . لم يكتف رمسيس الثانى بزوجاته ومحظياته وإمائه وقد أسرف فيهن (المرجع نفسه ، صفحة ٣٧٤) بل احتجن ثلاثا من بناته .

قال فرعون بعد ما عاين الآية الكبرى وهو يغرق ، يومَ لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبلُ أو كَسبَت فى إيمانها خيراً : [1] { قال آمنتُ أنَّهُ لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ! } ، فقال عز وجل : { **ألآن ! وقد عَصَيْتَ قبلُ وكنتَ من المفسدين. فاليوم نُنجِّيكَ ببدنك ، لتكون لمن خَلْفَكَ آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون** } (يونس : ٩١ــ٩٢) .

وهاتان الآيتان من إعجاز القرآن إن تَمعَّنْت : لم يترك اللهُ جثمانَ رمسيس الثانى فى قاع اليم طعاماً لوحوش البحر ، بل أصعده إلى نَجْوَةٍ منه ، ليتحقق من مهلكه الذين تَألَّهَ لهم . ورغم ظروف مهلكه التى تُرَجِّحُ معها أنه ما حُنِّطَ حتى رَمَّ ، فقد حُفِظَ جثمانُه على أحسنِ ما يكونُ تحنيطُ المصريين موميا ءاتِ ملوكِهم . ويكادُ الفُطْرُ يتسلل إلى مومياءه فى المُتْحَف المصرى فَتَفْسَد وتتحلل ، ولكن اللهَ يُقَيِّضُ لها خبراءَ أجانب يَعْكُفون على تطبيبها فَتَصِح . وكم ذُعِرُوا يومَ فكُّوا لفائفها وذراعُ رمسيسَ الثانى تنتفضُ مُشْرَعَةً إلى أعلى ، وكأنها تيبَّست على حالها يومَ هلك ، يستغيثُ ولا مُغيث ، أو يُوَحِّدُ بها الواحدَ الأحد . ويَظَلُّ تمثالٌ لَهُ مُجَندلاً فى صعيد مصر قرونا ، يمر عليه الرائحُ والغادى ، حتى جاءوا به ليُنَصِّبُوهُ فى ميدان بوسط القاهرة ، فيعبث به الصبية : يتخذون من نافورةٍ فى قاعدةِ التِّمثال " مَبالة " ! وتختنق القاهرةُ بسكانها ، فتقام الكبارى والمعابرُ على أعناق ميادينها ، ويَغرقُ التمثالُ فى طوفان البشر ، ويُطاطىء الرأسَ التى عَلَتْهَا أقدامُ المارة ، يُطِلُّون عليه ـ إن أطَلُّوا ـ من عَلٍ ! أهذا هو فرعونُ موسى ؟ ربما .



ولكن القرآنَ المعجز لا يتركك هائما بين الشك واليقين ، تبحثُ عن " فرعون موسى" بين فراعنة مصر ، ولكنه يسمِّيه لَك بالإسم : إنه ليس " أيَّ " فرعون ، يتجادلُ الباحثون فيه ، أيُّ الفراعينِ كان ، ولكنه " فرعونُ ذو الأوتاد " .

قال عز وجل ، يسمى فرعون المَعْنى : { **كَذَّبَت قبلَهم قومُ نوح وعادٌ وفرعونُ ذو الأوتاد** } (ص : ١٢) . وقال فيه أيضا : { **وثمودَ الذين جابوا**

(١) يعنى إذا جاء مَلَكُ الموت فقد رُفِعت الأقلامُ وجَفَّت الصُّحُف (راجع الآية ١٥٨ من سورة الأنعام) .

الصخر بالواد . وفرعونَ ذى الأوتاد . الذين طَغَوْا فى البلاد . فأكثروا فيها الفساد . فَصَبَّ عليهم ربُّك سَوْطَ عذاب . إن ربَّكَ لبالمرصاد } (الفجر : ٩ ـ ١٤) .

أما مفسرو القرآن (راجع تفسير القرطبى لهذه الآيات من سورتى ص والفجر) فقد فسروا هذه الأوتاد على معنى الوزراء والأنصار والأعوان . وليس بشىء ، فلكل مَلِكٍ ـ وإن ذَلْ ـ وزراءُ وأنصارٌ وأعوان ، وما كان لفرعونِ موسى أن يَخُصَّهُ اللهُ بلقبٍ شائعٍ فى الملوك جميعا .

وأما أنت ـ وقد عَلَّمكَ الله من هذه اللغة المصريةِ القديمة ومن تاريخ الفراعنة وآثارِهم ما لم تكن تعلم ـ فقد عَلِمتَ أن رمسيس الثانى انتحل لنفسه بناء بهو "الأعمدة" الذى فى معبد الكرنك ، وهو أعظمُ آثارِه المنسوبةِ إليه ، وإن كان التاريخ يَرُدُّ الشروعَ فى بنائه إلى جَدِّه رمسيسَ الأول ، ويقول إن أبا رمسيسَ الثانى ، "سيتى الأول" ، ربما أَتَمَّ بناءه أو كاد ، وجاء رمسيسُ الثانى يضع " اللمسات الأخيرة " فملأ أعمدة هذا البهو بنقوشٍ تحمل اسمه ، غلبت على كل ما كان باسم جده وأبيه ، ينتحل كعادته هذا الأثرَ المعمارىَّ الفنىَّ العظيمَ لنفسه ، فَنُسِبَ إليه ، لا يُعْرَفُ به غيرُه .

ربما قلت وما شأن " ذى الأوتاد " بصاحب هذه " الأعمدة " ؟

الجدير بالذكر أن علماء المصريات العرب لا يستحدثون الأسماء للأثر الفرعونى المُكْتَشَف ، ولا يترجمون اسمه من المصرية القديمة إلى العربية ، وإنما هم يترجمون اللفظة الإنجليزية الموضوعة له وفق المصطلح الذى يضعه علماء المصريات الأجانب . قال هؤلاء فى ترجمة " يونيت " المصرية القديمة Hall of Columns فقال علماء المصريات العرب " بهو الأعمدة " . ولكن هذه " الأعمدة " ليست للزينة والزخرفة ، وإنما هى دعائم وأوتاد جبارة ، يرتكز عليها ـ أو كان يرتكز ـ سقفٌ هائل . إنها أشبه شىءٍ بكتلٍ خرسانيةٍ ضخمة تحمل فوق رأسها منشآتٍ جبارة تَزِنُ مئاتِ الأطنان . " الأوتاد " هنا إن تمعَّنْت ، بعد مشاهدة هذا الأثر بالطبع ، ترجمةٌ أدَقُّ وأولى .

وسبحانَ علامِ الغيوب .

(٣٢) هـــامـــان

لم يُرسَل موسى عليه السلام إلى فرعونَ وحده ، وإنما كانت رسالةُ موسى أيضا إلى " هامانَ " و " قارون" . تستظهر هذا من قوله عز وجل : { **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعونَ وهامانَ وقارون فقالوا ساحرٌ كذاب**} (غافر : ٢٣ ــ٢٤} . ثلاثتُهم مُخاطَبٌ بالآيات التى أنزل اللهُ على موسى ، وثلاثتُهم ظَلَموا بها : { **فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين . فَكُلاًّ أخذنا بذنبه** } (العنكبوت : ٣٩ ــ ٤٠) .



ورد اسمُ " هامان " فى القرآن ستَّ مراتٍ ، وورد اسمُ " قارون" أربعَ مراتٍ فحسب ، بينما ورد اسمُ " فرعون" فى سياق قصة موسى عليه السلام فى كل القرآن أربعا وسبعين مرة ، فتفهم أن فرعونَ هو الرأس ، والذَّنَبُ قارونُ وهامان .

ولايجىء " هامان " فى القرآن إلا مجموعا إلى فرعون، على التبعية والإلحاق، لا يتقدمه قط . وتفهم من سياق الآيات التى تجمع بين فرعون وهامان ، أن "هامان" رجلٌ ذو شأن فى بلاط فرعون ، ولكنه يعمل بين يديه ويأتمر بأمره ، وكأنه وزيره أو قائد جنده .

أما " قارون " ـ حين يُجْمَعُ فى القرآن إلى " فرعونَ وهامان " ـ فهو لا يتوسطهما البتة ، وإنما يجىء قارونُ بعدَ " هامان " . كما رأيت فى قوله عز وجل : {**إلى فرعونَ وهامانَ وقارون** } (غافر : ٢٤)، أو يجىء "قارون" قبلَ "فرعونَ وهامان "، كما ترى فى قوله عز وجل: { **وقارونَ وفرعونَ وهامان، وقد جاءهم موسى بالبينات**} (العنكبوت :٣٨} ، فتفهم أن ثمَّةَ فارقاً يحولُ دونَ إدماج " قارون" فى " فرعونَ وهامان " .

وقد نص القرآنُ على هذا الفارق بقوله عز وجل : { **إن قارونَ كان من قوم موسى فبغى عليهم** } (القصص : ٧٦) ، أى كان قارونُ رجلا من بنى إسرائيل ، وكان هامانُ مصريا من قوم فرعون .

والذى يستوقف النظر ـ ولم يلتفت إليه أحد ـ أن القرآن لا يخص هذين الرجلين هامانَ وقارون بالذكر إلى جوار فرعونَ فحسب ، وإنما هو أيضا يجمعهما مع فرعون فى تَوَجُّهِ رسالة موسى إلى ثلاثتهم كلٌّ على حدة كما رأيت من قبل فى تلك الآيات من سورتى غافر والعنكبوت ، وكأنه قد كانت فى مصر على عصر موسى قُوى سياسيةٌ ثلاث ، يتعينُ إفرادُها بالرسالةِ والخطاب ، وإلا لأغنَتَ الرسالة إلى الرأس ، أى إلى فرعون ، عن الرسالةِ إلى الأذناب .



والأكثر استيقافا للنظر ـ ولم يتساءل عنه أحد ـ هو توجه موسى بالرسالة إلى رجل من قومه هو قارون ، وكأنه قد كان من بنى إسرائيل فى مصر من بعد عصر يوسف عليه السلام من ضلوا السبيل ، فانخلعوا من دين أبيهم إبراهيم ، وانغمسوا فى عبادات سادتهم المصريين . ربما فعلوه أول الأمر اجتلاباً للحُظوةِ والمنفعة، ثم رِينَ على قلوبهم بذنبهم، فارتدوا عن عبادة الواحد الأحد إلى شِرْكِ المصريين . وهو ما كان يخشاهُ عليهم فى مصر أبوهم يعقوب : { **أم كنتم شهداءَ إذ حضرَ يعقوبَ الموتُ ، إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهَك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق ، إلها واحدا ، ونحن له مسلمون** } (البقرة : ١٣٣) .

هذا يفسر لك عدلَ الله عز وجل فى بنى إسرائيل حين استحبوا الضلالة على الهدى وقضاءه فيهم بفتنة فرعون ، يُذَبِّحُ أبناءهم ويستحيى نساءهم ، يستذلهم فى الأرض ويُسَخِّرُهم تسخيرا ، مستعينا عليهم ببعض قومهم من مثل " قارون " ، كم تجد فى قوله عز وجل : { **إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إنَّ مفاتحَهُ لتنوءُ بالعصبة أولى القوة** } (القصص : ٧٦) . وإنما بَغَى قارونُ على قومه لا بسلطانه ، وإنما بسلطان فرعون ، لأنه كان عميلا

لفرعون عليهم ، فلم يستنكف أن يكون رئيسَ سُخْرَتِهم ، يرتشي من فرعون بيُمناه ، ويعتصر عَرَق بنى إسرائيل بيُسراه .

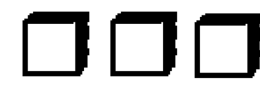
وهذا يفسر لك أيضا كثرة اعتلال بنى إسرائيل على موسى سواء فى مصر أو بعد خروجهم إلى تيه سيناء ، حتى إذا مروا على أصنام قوم فى التيه طلبوا من موسى أن يجعل لهم فى التيه أصناما آلهة ، بل ما ذهب موسى لموعدة ربه يتلقى ألواح التوراة ، حتى صنعوا لأنفسهم ذلك العجل من ذهب ، يتعبدونه ، تَحْنانا إلى ما كانوا عليه فى مصر ، فكان قضاءُ الله فيمن عبدوا العجل منهم أن يقتل بعضُهم بعضا بحد السيف ، تكفيرا وتطهيرا ، عسى أن يغفر لهم ربهم .

كان موسى إذن رسولا إلى فرعون وهامان ، كما كان رسولا أيضا إلى من طَغَوا وبَغَوا من بنى إسرائيل ، الذين انحرفوا فزاغت قلوبهم . لم يستجب لموسى من قوم فرعون إلا ذلك الرجل المؤمن الذى فى سورة غافر ، وإلا امرأة فرعون التى سألت الله عز وجل أن ينقذها من فرعون (البيت الكبير!) ويجعل لها بدلا منه "بيتا" فى الجنة : {**وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين**} (التحريم ، ١١) . أما بنو إسرائيل فلم تؤمن كثرتُهم بموسى نبيا رسولا ، وإنما آمنت كثرتهم به على الراجح زعيما وقائدا يستخلصهم من براثن فرعون، يصفقون لموسى حين يُجرى الله على يديه الآيات التى تُعجزُ فرعون ، وينقمون على موسى حين تشتد قبضةُ فرعونَ عليهم : { **قالوا أُوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعدِ ما جئتَنا** } (الأعراف ، ١٢٩) .

كان هذا حالَ الملأ من قوم موسى ، أى أشياخِ بنى إسرائيل ، حَجَر عثرةٍ فى طريق من آمن لموسى من قومه ، وما آمن لموسى من قومه إلا قليل : { **فما آمن لموسى إلا ذُرِّيَّةٌ من قومه ، على خوفٍ من فرعون ومَلَئهم أن يفتنهم ، وإن فرعونَ لعالٍ فى الأرض وإنه لمن المسرفين** } (يونس ، ٨٣) ، أى آمن لموسى شبيبةٌ من قومه ، على خوفٍ لا من فرعونَ فحسبِ ، بل ومن أشياخ بنى إسرائيل ، المعنيين فى الآية السابقة بقوله عز وجل " ومَلَئهم " أى الملأُ من بنى إسرائيل أنفسهم ، أن يفتنهم فرعون بسلطانه ، أو يفتنهم بمن سلطهم عليهم من بنى قومهم ،

وكان شيخُ هؤلاء الأشياخ قارون ، الذى توجهت إليه الرسالة كما توجهت إلى فرعون وهامان . كان قارونُ أحدَ جَناحى السلطة الغاشمة فى مصر على عصر موسى ورمزا من رموزها. إنه زعيمُ حزب الخَونة العُملاء ، الذين مَرَقوا من دين الواحد الأحد ، وخانوا قومهم ونافقوا السلطة ، وجمعوا من هذا أكداسا من المال الحرام يكتنزونه ، حتى إذا قيل له اتق الله ، وابتغ فيما آتاك اللهُ الدارَ الآخرة ، وأحْسِنْ كما أحْسَنَ اللهُ إليك، تبجح بقوله : { **إنما أوتيته على علم عندى !** } (راجع الآيات ٧٦ ـــ ٧٨ من سورة القصص) .

على هذا الوجه يُفْهَمُ تَوَجهُ موسى بالرسالة إلى قارون . فما بالُ هامان ؟

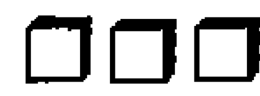


لا يصح تَوَجُهُ موسى بالرسالة إلى " هامان " بالإسم إلى جوار فرعون ، إلا إذا كان "هامان" يمثل قوةً سياسيةً ما فى نظام الحكم ، أعنى زعيمَ حزبٍ مستقل عن سلطان فرعون ، لا يملك له فرعونُ من أمره شيئا : إنه السلطة الدينية التى اتكأ عليها ملوك مصر الأقدمين فى تأصيل نظرية " التفويض الإلهى " ، أى استمداد السلطة الزمنية الحاكمة سلطانَها من الآلهة رأسا ، إما بإرجاع نسب الملك إلى تلك الآلهة نفسها ، وإما بوحىٍ " هَبَطَ " على الكهنة ينص على اختيار هذا الشخص أو ذاك ملكا على مصر عَيَّنته الآلهةُ بالإسم . يتضح لك هذا من تلك الألقاب التى تسمى بها أولئك الملوك ، من مثل "مرى آمون" (لقب رمسيس الثانى) يعنى "حبيب آمون" ، أو "مى آمون" (لقب رمسيس الثانى أيضا) يعنى " الذى هو كآمون " . بل "رعمسس" نفسها أى رمسيس ، ومعناها كما علمت " ولدُ رع " أو " المولود من رع " ، أى المولود من الإله رع ، الشمس ـ الإله . وليس عملُ الكهنوت فى هذا النظام الملكى إفساداً سياسياً فحسب ، بل هو قبلَ كل شىء تأصيلُ أخرق لعبادة آلهة من دون الله عز وجل ، منها ما يمشى على الأرض مثل تلك الملوك ، ومنها الكسيحُ حبيسُ الصخرِ والحجر . والرُسْلُ لا تُبعَثُ فى الأساس إلا لتصحيح عقيدة الناس فى الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، المتفرِّدِ بالخَلْقِ والأمر ، فتَصِحُّ العقيدة ، ومن ثم يصحُّ العمل .

ما كانت رسالة موسى لتتجه إلى " هامان " بجوار فرعون لو كان " هامان " فحسب وزيرا لفرعون ، أو كبيرا فى بلاطه ، أو قائد جنده ، يعمل بين يديه ويأتمر

بأمره، فما كانت الرسالاتُ لتتخطى الرأس إلى الذَّنب . وإنما اتجهت الرسالة إلى "هامان" لأنه أحد قطبى السلطة فى هذا النظام الملكى : إنه قضيب الكهانة ، فى مقابلة صولجان الملك .

لا يصح توجه موسى بالرسالة إلى "هامان" بالاسم إلى جوار فرعون، إلا إذا كان "هامان" على عصر موسى هو نفسه "كبير كهنة آمون" .



كان عصر "إخناتون" كما رأيت من قبل انقلابا على " كهنة آمون " ، فجمع هذا المَلِكُ بين يديه لأول مرة فى تاريخ مصر القديمة ، السلطتين الزمنية والدينية معا ، أى بين المُلك والكهانة . كاهنا أوحد لآتونَ إلهِ الكون .

لم يكن هذا المَلِكُ الكاهن مُفَجِّرَ ثورةٍ شعبية أطاحت بنفوذ الكهنة ، وإنما كان سندُهُ الأوحد فى الانتقاض على آمون هو الجيش ، الذى يدين فى مصرَ أبدَ الدهر بالولاء والطاعة للجالس فى دسْت الحكم ، ابنَ إلهٍ نَصَّبَتْهُ الآلهة من قبل ، وربما رفيقَ سلاحٍ أو سليلَ رُفقاء سلاح ، فما كان الملوكُ فى العالم القديم ، و فى مصر بالذات ، إلا قوادَ جيوش ، لا حين يغتصبون السلطةَ فقط ، بل وبعد ما يتوطد المُلكُ لهم ، ويستقرُّ فى سلالتهم . بل كثيرا ما كان المَلِكُ على رأسِ جيشه فى الحَملات الكبرى والمعارك الفاصلة ، مثلما رأيتَ فى خروج فرعونَ على رأس جيشه يتعقَّبُ بنى إسرائيلَ فى فِرارِهم من مصر .

ولكن إخناتون كان يُحسِنُ الكهانةَ ولا يُحسِنُ المُلك : اكتفى بمعبوده آتون عما سواه ، وأدار ظهره لشؤون الدولة وشؤون الجيش ، فانفكت قبضةُ الدولة ، وتشرذَمَ الجيش . وفى هذا المُناخ التعس أطلَّت الفتنةُ برؤوسها : فُلولُ كهنةِ آمون ! لا يتربصون بإخناتون الدوائر فحسب، بل ويحيكون المؤامرات والدسائس للقضاء عليه وعلى فتنته، كى يستردوا سلطان الكهانة ـ وذهبَها أيضا ـ الذى سلبهم إياه إخناتون . ويموتُ إخناتون على الراجح صريعَ تلك المؤامرات والدسائس .

كان المنتصر فى هذا الصراع على السلطة هم "آمون" وكهنة آمون . فلاتعجب أن أعقبت " فتنة " إخناتون ومعبوده "آتون" ، رِدَّةٌ عاتية إلى " آمو ن" وكهنة آمون،

الذين اتعظوا بهذا الدرس كما اتعظ به الملوك من بعد إخناتون . فقد أدرك طرفا المعادلة ـ القصر والكهنوت ـ أنه لا بقاء لأحدهما إلا بالآخر : ما كاد "توت عنخ آتون" وريثُ إخناتون المباشر، يعتلى العرش ، حتى بَدَّلَ اسمه إلى "توت عنخ آمون" ، (١) معلنا ولاءه لآمون وانخلاعه من آتون . وصنع لآمون تمثالا فخما من الذهب الجيد ، يسترضى كهنة آمون ويعيدهم فى مناصبهم ، وضوعفت ثروات المعابد ـ أى جرايات الكهنوت ـ إلى ثلاثة أو أربعة أمثال ما كان لهم من فضة وذهب ولازورد وفيروز ، وعاد الملوك رغم أنوفهم إلى حظيرة آمون ، وانتصر الكهنة انتصارا كاملا ، "وكان يوم تسليم توت عنخ آمون للكهنة بجميع مطالبهم هو بدء تسلط الكهنة على الدولة ، ولم يسترجع الفراعنة سلطانهم القديم بعد ذلك اليوم" (٢) . لم يفلت من هذا " الشرك فى السلطة " حور محب الذى خلف توت عنخ آمون على العرش وكان همزة الوصل بين الأسرة الثامنة عشرة والأسرة التاسعة عشرة ، أسرة الرعامسة الأولى التى يعنينا منها فرعون موسى (رمسيس الثانى كما نقول نحن) . وما كان فرعون موسى بِدْعاً فى هذا رغم عظيم سلطانه .

كان الكهنوت فى مصر سلطةً فاعلةً داعمة ، يزيد من قوتها وخطرها أنها سلطةٌ غيرُ مباشرة تستتر وراء فرعون ، استند إليها هذا الطاغية فى قولته : أنا ربكم الأعلى ! . وربما وَزَرَ هذا الكهنوت لفرعون فشاركه السلطة خفية بالرأى والكيد والمشورة . بل قد كان لهذا الكهنوت جند وحرس . وكان لَهُ الإشراف على بناء النصب والمعابد ، وعلى نحت النحوت ورسم النقوش ، بل كان منهم المهندسون والكتبة . وكانت المعابدُ معاهدَ للعلومِ مغلقةً على أصحابها ، يستأثرون بأسرارها وأصولها ودقائقها . فكانوا هم العُلَماءَ والسَّحَرة. كان الكهنوتُ مؤسسةً كاملة تصنع عقلَ الأمة ، وخرافاتها أيضا .

هذا " الشِّرك فى السلطة " يفسر لك قوله عز وجل : { **ونريد أن نَمُنَّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونُمكِّنَ لهم فى الأرض ، ونُرِىَ فرعونَ وهامانَ وجنودَهُما منهم ما كانوا**

(١) فى المصرية الهيروغليفية : توت = صورة أو مثال ، عنخ = روح ، فمعنى الاسم "توت عنخ آمون" أنه " مثالُ روح آمون" ، كما كان من قبل "مثال روح آتون" .

(٢) راجع هذه الفقرةَ وما قبلها على : أحمد فخرى ، مصر الفرعونية ، ص ٣٤٠ .

يَحْذَرُون } (القصص : ٥ ـــ ٦) ، حين جَمَعَ القرآنُ بين فرعونَ وهامانَ وأعوانَهُما وجنودَهُما في الحَذَرِ من موسى وقومه : خَشِيَ فرعونُ على صولجان المُلك ، وخَشِيَ هامانُ على سُلطان الشِرْكِ وذَهَبه .

وهو يفسر لك أيضا قوله عز وجل : { **فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا** } (القصص : ٣٨) ، فما كان بناءُ " الصرحِ " لِيَصِحَّ إلا بأمر تلك الكهنة وصُنع أيديهم .

وقد جمع القرآن حلف الشيطان ، الكهنوت وفرعون ، فى سلة واحدة ، تحت اسم آل فرعون ، كما تجد فى قوله عز وجل : {**فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحَزَنا ، إن فرعونَ وهامانَ وجنودَهُما كانوا خاطئين** } (القصص : ٨) .



لا تجد فى التاريخ المصرى القديم ، ولا فى أعلام هؤلاء المصريين أيضا ، شخصا باسم " هامانَ " استُوزِرَ لفراعنة مصر ، أو كان قائدَ جُندِهم ، أو كبيرا فى بلاطهم ، أو عظيما من عظماء كهنوتهم : ليس البَتَّةَ فيما عُرِفَ من التاريخ المصرىِّ القديم " هامان " .

ولا تجد بالمثل فيما تقصه عليك أسفار التوراة التى بين يديك من حديث موسى وفرعون ذكرا لشخص " هامان" لا بالاسم ولا بالمنصب : كل ما فى تلك التوراة هو فرعون فحسب فى مواجهة موسى وهرون .

ولكنك تكتشف فى سفر " استير" الذى يقص عليك ما كان من أمر اليهود فى القرن الخامس قبل الميلاد ، عصر السبى تحت حكم الملك "إحْشَوْرَوش" Xerxes ملك فارس (٤٨٦ ـ ٤٦٥ ق . م) ، أى بعد عصر موسى وهرون بسبعة قرون على الأقل، عَلَما يشبه " هامان" ، يُرسَمُ فى النص العبرانى " هِيمان " (مداً بالكسر بعد الهاء) ويُرسَمُ فى الترجمة العربية لهذا السفر "هامان" تماما كهامان الذى فى القرآن، خلطا بينه وبين " هامان" قرين فرعون فى القرآن ، على مامر بك من خلطهم بين رسم "مريم" أم عيسى عليهما السلام فى القرآن وبين "مريام" أخت موسى وهرون . وقد حار علماء التوراة فى "هيمان" الذى فى بلاط فارس ، إذ لا يصح له اشتقاق فى العبرية، فخمنوا

أن أصلها "مهيمان" حذفت الميم في أولها ، لا تدرى لماذا ، واشتقوها من الجذر العبرى "أمَنْ" على معنى الصدق والأمانة الذى في قرينه العربى "أمن" . وليس بشيء . وإنما الصواب أن يقال ان "هامان" المصرى خرج شبحا من ضباب ذاكرة كتبة التوراة ، فخلعوا اسمه على قرين له في بلاط فارس ، لاتحاد الشخصين في الكيد لبنى إسرائيل ، على ما يقول هذا السفر من أن " هيمان " الذى في بلاط فارس كاد لليهود عند "احشوروش" ملك الفرس ، يريد مَهْلَكَهُم واستئصال شأفتهم ، ولكن مُرْدخاى العبرانى كان قد دفع من قبل بابنة أخيه " استير " إلى أحضان الملك ، فَحَظِيَت عنده ، واستنقذت بنى قومها ، فصارت إلى اليوم قديسة عند اليهود ، وبطلةً من أبطال تاريخهم، يُضْرَبُ بها المثل . وليس لهذا كله بالطبع علاقة بـ " هامان " قرين فرعون في القرآن ، لبعد ما بين فارس ومصر ، وما بين " احشوروش" ملك فارس وبين فرعون موسى وهرون .

قد انفرد القرآن إذن بذكر " هامان" قرينا لفرعون على غير سابقة في التوراة ، ودون سند في التاريخ المصرى القديم ، أو بالأحرى فيما تكشَّف من تاريخ مصر القديم منذ أواسط القرن الماضى وحتى أواخر هذا القرن العشرين .

وهذا في ذاته من إعجاز القرآن ، لأن انفراده بذكر "هامان" قرينا لفرعون دون سابقة في التوراة وأقاصيص أهل الكتاب، ودون نظير فيما عُرِفَ من تاريخ مصر القديم ، يَدُلُّك على انفراد القرآن بالعلم المحيط ، ويدلك على سفاهة القائلين بدعوى النقل والاستنساخ والتلقين ، لأنه عَلِمَ ما لم يعلمه الخلقُ أجمع عصرَ نزوله وإلى هذا العصر .

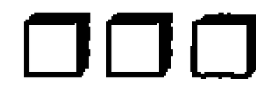
ربما قال الجاحدُ المكابر : ولم لا تكون "هامان" من أفانين القرآن اخترعه اختراعا ، أو التقط "هيمان" الذى في بلاط فارس عصر السبى وَرَدَّهُ إلى عصر موسى في مصر قرينا لفرعون ، على بَوْنِ ما بينهما في الزمان والمكان [١] ؟

ولكنك تقول لهذا الجاحد المكابر وأمثاله من أدعياء الاستشراق المنكرين الوحيَ على القرآن ـ متسلحا بما هدانا الله إليه في هذا الكتاب الذى نكتب ـ إن الذى انفرد وحده بعلم معنى "موسى" ، " فرعون" ، "مصر" ، بلغة أهلها على عصر موسى

(١) انظر على سبيل المثال : J. HOROVITZ ، المرجع المذكور ، ص ٨ .

وهرون ، مطلعَ القرن السابع لميلاد المسيح ، وعَلِمَ من دقائق التاريخ السياسى فى مصر القديمة ما يتيح له معرفة دور الكهنوت المصرى فى السلطة ، فيتجه برسالة موسى إلى كبير هذا الكهنوت قرينا لفرعون ـ الذى عَلِمَ هذا كُلَّه وقت أن كانت اللغةُ المصريةُ القديمة ـ وكان التاريخُ المصريُّ القديم ـ طلاسمَ مُطَلْسَمة ، لا تستكثرُ عليه أن يسمى كبيرَ هذا الكهنوت بالاسم ، بل هذا هو الذى تتوقعه منه ، فلا تملك إلا أن تُؤَمِّنَ عليه : كان القرآن شاهدا ، وكانوا هم الغائبين : { **فَلَنَقُصَّنَّ عليهم بعلم وما كنا غائبين** } (الأعراف : ٧) .

ولعله يتكشفُ من تاريخ مصر القديم فى مُقبلِ الأيام ما يُثبت وجودَ "هامان" كبيرِ كهنة آمون قرينا لفرعون موسى. نرجو هذا لا لأنفسنا ولا للقرآن ـ فقد كفى القرآنَ ما فيه من دلائلِ إعجازه فى تفسير أعلامه المصرية القديمة التى يتناولها هذا الكتاب الذى نكتب ـ ولكننا نرجوه لهؤلاء الأدعياء المنكرين الوحى على القرآن .



ليس شرطا أن تكون " هامان " من أعلام الأشخاص فى المصرية القديمة ، بل قد تكون "هامان" لقبا دالاً على المنصب ، كما تلقَّبَ كبيرُ كهنة "أون" (هليوبوليس) باسم "ورَ ـ مَاءُو" يعنى "الرائى الأعظم" .

وقد تَفكَّه بعضُ المستشرقين فقال إنه ليس بمستبعد أن يكون اسم "آمون" معبود المصريين قد وقع فى سمع محمد (صلى الله عليه وسلم) وتحَرَّفَ عليه إلى "هامان"، وظنه اسم رجل، فنحت منه اسما علما على شخص فى بلاط فرعون . تفكهَ الرجل وهو لايدرى أنه بمقولته هذه يخدم القرآن فى وجهٍ من وجوه تفسير اسم "هامان" .

ذلك أن اسم هذا الإله "آمون" الذى يُنطَق بالواو بعد الميم فى اصطلاحنا اليوم ليس هو كذلك فى المصرية القديمة ، التى يُرسَمُ فيها بأحرف هيروغليفية ثلاثة هى الهمزة والميم والنون ، على ما مر بك من أن الخط الهيروغليفى لا يعبأ بإثبات حركات المد . وإنما اصطلح علماء تلك اللغة أول الأمر على نطقه "آمون" بالواو لا بالألف بعد الميم استئناسا برسمه اليونانى والقبطى المطابق لرسمه فى التوراة "آمون".وهذا دليل آخر على أن أسفار موسى الخمسة لم تكتب على عصر موسى وهرون ، وإنما كتبت بعد

عصر داود وسليمان ، بعدَ قرون من عصر موسى وهرون ، فتأثرت عبرية التوراة التى بين يديك، كما تأثر الرسم اليونانى، بالنطق القبطى عصر كتابة التوراة (١). والقبطية كما مر بك ليست حجة على صحة النطق المصرى القديم فى كل الأحوال ، وإنما الحجة على صحة النطق المصرى القديم هم معاصرو "فرعون موسى" فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، الذين خَلَّفوا لنا فى النص البابلى لمعاهدة أبرمت حوالى عام ١٢٨٠ ق . م. بين خاتوسيلاس ملك خاتى (الحيثيين) وبين رمسيس الثانى ملك مصر (٢) ، النطق الصحيح للفظة آمون التى فى لقب رمسيس الثانى "مى ـ آمون" (أى الذى هو كآمون) فلم يكتبوها "مى ـ آمون" وإنما كتبوها "مى ـ آمان" مدا بالألف ، لا بالواو، على ما سمعوه بآذانهم من سفراء رمسيس الثانى إلى بلاط خاتى، فقالوا فى "رمسيس مى ـ آمون" (أى رمسيس الذى هو كآمون): رعمشيشا مى آمانا (شَيَّنوا كدأبهم السين التى فى رعمسيس وختموا الاسمين بالألف أداة التعريف الآرامية كما مر بك).

وهذا دليل لغوى لا ينقض على أن صحة النطق المصرى القديم لاسم هذا الإله "آمون" على عصر رمسيس الثانى هى "آمان" تماما كما فى "هامان" المبدوءة بالهاء فى القرآن . فكيف " تَحَرَّفَت" آمون على القرآن الذى مدها على أصلها الهيروغليفى بالألف لا بالواو ، فأصاب هو ، وأخطأ كتبة التوراة ، وعلماء المصريات الذين نطقوها مدا بالواو ؟

لماذا لم يقل "آمون" فيجانس بالواو بين القرناء الثلاثة: فرعون وهامان وقارون؟

---

(١) نظير هذا فى عبرية التوراة " پرعو" (أى فرعون) وأصلها فى الحرف الهيروغليفى" پرعا " بالألف لا بالواو ، التى تحرفت فى النطق القبطى إلى پرعو وأخذ عن القبط اليونان وكتبةُ التوراة . وربما وددنا فى هذا الكتاب استبقاء الرسم القبطى ـ العبرى ـ اليونانى ، لأنه الذى شاع ، تدليلا على منهج القرآن فى التعريب على النطق الشائع عصر نزوله ، ويلاحظ أن السريان يرسمون هذا الاسم " پرعون " بإضافة النون التى فى التعريب القرآنى ، مرسومة فى الخط بالفاء البادئة التى تنطق پاء ثقيلة كما مر بك . وقد حرص اليونان على رسم كل پاءات الخط العبرى ـ الآرامى " فاء " لتردد الخط العبرى ـ الآرامى فى نطق هذا الحرف بين هذا وذاك، كما حرصوا على كتابة كل تاءات الخط العبرى ـ الآرامى " ثاء " لنفس السبب ، كما تجد فى " ثارا " أى "تارا" يعنى "تارح" أبى إبراهيم ، وكما تجد فى "ثامار" كنة يهوذا التى Thara فَجَرَ بها ، وأصلها " تامار" ، الخ .

(٢) انظر تفاصيل هذه المعاهدة على سبيل المثال فى : د. نبيلة محمد عبد الحليم ، "معالم التاريخ الحضارى والسياسى فى مصر الفرعونية " ، ص ٦٩ ـ ٨٧ .

وما حاجته إلى إضافة الهاء فى أول الاسم وقد سمعه كما يقولون مهموزا ؟

أليس الأقرب إلى الصواب أن تكون " هامان " التى فى القرآن اسما مزجيا من المصرية القديمة، يدل على منصب كبير كهنة آمون : " ها + آمان " ؟

أما " آمان " فهى " آمون " الذى عَلِمْت ، منطوقةً على الوجه الصحيح فى المصرية القديمة على عصر رمسيس الثانى كما وضح لك من نطقها فى النص البابلى لتلك المعاهدة المبرمة بينه وبين ملك الحيثيين حوالى ١٢٨٠ ق . م . ، وأما " ها " التى ترسم فى الخط الهيروغليفى □ (وهى الهاء) مزيدة بمَميزٍ معنوىْ غير منطوق هو (١) □ (رمز البيت أو الدار "پر") فقد توقف علماء المصريات فى معناها ، لا يجزمون، وإن كانوا يفترضون أن معناها " الحجرة " room ، (٢) ربما استنادا إلى شكل الحرف الذى يمثلها : □ (الهاء الهيروغليفية كما مر بك) . وليس بقوى ، أولا لأن " الحجرة" فى الهيروغليفية لها لفظها الأصيل وهو " عت " ، لا " ها " ، وثانيا لأن الأقرب فى الاستنباط من رسم الهاء الهيروغليفية □ أن تَستنبط منه لا معنى الحجرة ، وإنما معنى المَدْخَلِ والمَدْلَف ، أى الباب ، وهو " عا " فى الهيروغليفية ، والمبادلة بين العين والهاء فى الساميات جميعا ـ وليست الهيروغليفية عن هذا ببعيد ـ أمرٌ مُسلَّمٌ به بين اللغويين ، وثالثا لأن الهاء فى الساميات جميعا ـ وليست المصرية القديمة عن هذا ببعيد ـ أصلُها رسما ونطقا ومعنى " الكَوَّة " . أى الفتحة النافذة فى الجدار يدخل منها الهواء والضوء ، وقد بقى منها فى العربية " الهَوُّ " ، " الهَوَّة " ، بنفس المعنى .

على هذا يكون معنى " ها + آمان " المصرية القديمة (هامان فى القرآن) هو : النافذُ إلى آمون ، أو المَدْلَفُ إلى آمون ، أو كَوَّةُ آمون " هَوَّ ـ آمون " .

وليس أليقُ من هذا لقباً يتسمى به " كبيرُ الكهنة " .



(١) فى الخط الهيروغليفى ، حين يتحد لفظان فى النطق ويختلفان فى المعنى ، يضاف إلى أحدهما ، فى الرسم لا فى النطق ، رمز يميزه يدل على المعنى الآخر المراد منه . وإضافة رمز البيت إلى "ها" المعنية هنا ، يعنى "ها" التى فى البيت ، لا " ها " الأخرى التى هى ــ فى المصرية القديمة وفى الساميات جميعا ، أداة تنبيه وتلبية ونداء (كما فى ها أنذا العربية) .

(٢) انظر A. GARDINER ، المرجع المذكور ، تحت حرف الهاء فى مسرده بآخر الكتاب .

أما الوجه الآخر فى تفسير " هامان" ، فهو أن تكون " هامان " فى القرآن عربية . وردت على الترجمة لقبا لكبير كهنة آمون ، قرين فرعون فى القرآن .

وقد شاعت " هَيْمَنَ " على عصرنا بمعنى القهر والغلبة والسيطرة، وليس بشىء، لأن هذه اللفظة لا تجد تأصيلها فى العربية إلا من القرآن ، بصيغة الفاعل فقط ، وفى موضعين فحسب ، الأولى اسما لله عز وجل: { **الملك القدوس السلام المُؤمنُ المهيمن** } (الحشر : ٢٣) ، والثانية وصفا للقرآن : { **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه** } (المائدة : ٤٨) . وقد استنبط البعض من هذا ـ على التخمين ـ أن " المهيمن " معناها " العالى المرتفع "، بينما قال آخرون إن معناها " الشاهد" . وليس لهذا أصل فى اللغة ، وإنما الصحيح ما ذكره " الجوهرى " وهو أن " هيْمَنَ " ليست من الرباعى المجرد ، وإنما هى من الجذر الثلاثى " أمن" مزيدا بهمزة التعدية ، فيكون أصلها " أأْمَنَ " بهمزتين ، انقلبت الثانية ياء " أيْمَنَ" ، وأبدلت الأولى هاء " هَيْمَنَ " ، كما قالوا " هَراقَ الماء " بمعنى أراقه . فالمهيمن أصلها " المؤأْمِن" ، فهو الأمينُ الحافظُ المُؤتَمَن . وهذا كما ترى يطابق تماما المعنى المقصود من " هيمنة " القرآن على الكتب السابقة ، فهو الحفيظُ عليها ، الأمينُ المُؤْتَمَنُ على ما صَحَّ فيها . وهو أيضا يُناسب ورودَ وصف الله عز وجل باسم "المهيمن" فى سورة الحشر بعد وصفه عز وجل باسمى " السلام" و" المُؤمِن " تباركت أسماؤه، فهو " السلام " ، وهو " المُؤمِن" الذى يُؤْمِنُ الخلقَ من الخوف ، وهو " المهيمن" الذى "يَأمَنُهُ" الخلقُ لأنه تبارك وتعالى الحفيظُ الأمينُ المُؤتَمَن .

هذا هو المعنى الصحيح للفظة " هيمن" العربية ، استطردنا بك إليه إرادةَ جلاءِ اللبس فى خطأٍ شائع لا يكاد يَبْرَأُ منه فى هذا العصر قَلَم ، ولا يَصِحُّ هذا فى لغة القرآن ، وفى الفهم الصحيحِ لمعانى القرآن ، ودقائقِ القرآن .



على أنك لا تستطيع اشتقاق اسم " هامان" قرين فرعون فى القرآن من "هَيْمَنَ " إن كانت "هامان" عربية ، لامتناعِ اشتقاقِ " فَعْلال " من " أفْعَلَ " (زنةِ " هَيْمَنَ " التى أصلُها أأْمَنَ كما مر بك) : الجائز من " هيمن " هو " المهيمن " لا غير .

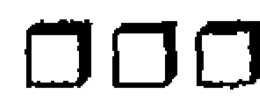
أما الذى يصح ، فهو أن تشتق " هامان " من " الهامة " ، أى " الرأس" ، على زنة " فَعْلان " من فَعْلَة ، كما قال العرب " كاذان " ، يعنى " عظيمُ الكاذة " ، " والكاذةُ هى اللحمُ الذى على الفخذ. فيكون معنى " هامان " عربياً هو " عظيمُ الهامة " .

ولا يقدح فى هذا الذى نقوله أن : " هامان " على معنى " عظيم الهامة " لم تُسْمَع من العرب، وإنما المسموعُ من العرب على معنى عظيم الهامة هو " الأَهْوَم " فقط ذلك أن القرآن على ما مر بك من منهجنا فى هذا الكتاب هو " صاحبُ اللغة " ، يَنْحتُ من جذورها على أوزانها المسموعةِ ما شاء ، كيفما شاء . بل فى هذا كما مر بك إشارةٌ إلى عُجمة صاحب الاسم العلم .

" عظيمُ الهامة " هى الوجهُ الوحيدُ الجائز فى معنى " هامان" ، إن كانت عربية ، على الترجمة من المصرية القديمة .

أما معنى "عظيم الهامة " فى المصرية القديمة فهو "ورْ ـ تب" (" ورْ " يعنى كبير ، " تِبْ " يعنى الرأس) ، أو "ورْ ـ ضاضا " (" ضاضا " مرادف " تب ") [(١)] .

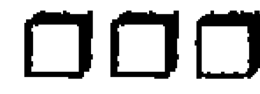
وقد مر بك أن كبيرَ كهنة " أون" (هليوبوليس) تَلَقَّبَ باسم " ورْ ـ ماءُ و " ، يعنى " عظيم الرائين " أو " الرائى الأعظم " . ولا يبعد أن يكون لقبُ كبير كهنة آمون على عصر فرعون موسى هو " ورْ ـ تب " أو " ور ـ ضاضا " ، بمعنى " عظيم الهامة " أو " الرأس الأعظم " ، جاء بها القرآن على " هامان" ، أى " عظيم الهامة " ، تفسيرا بالترجمة لا بالتعريب .



أما مفسرو القرآن (راجع تفسير القرطبى للآيتين ٦ ، ٨ من سورة القصص) ، فلم يتصدَّوا لاسم " هامان" ، وما كان لهم أن يتكئوا فى " هامان " المصرى على أهل

(١) " تب " و " ضاضا " كلاهما مترادفان بمعنى " الرأس ". وقد بقيت " ضاضا " فى المصرية المتأخرة ونَدُرَت "تب" . وقد أثبتنا " ضاضا " بالضاد العربية ، وهى الدال القاسية ، ولو أن علماء المصرية القديمة لا يعترفون للحرف المصرى بهذا الصوت ، وإنما يترددون فى نطقه بين الصاد العبرية وبين الجيم الفصحى فى لغة القرآن (دج) ، تأثرا فى هذه الأخيرة بما آل إليه النطق القبطى . والأصوب عندى أن هذا الحرف كان ينطق فى الهيروغليفية " ضادا " عربية ، بدليل أن هذا الحرف حين تَحَوَّر فى الطور الأوسط من المصرية القديمة تحور نطقا وكتابة إلى الدال ، ولم يتحور إلى السين ، أو إلى الجيم المصرية القديمة وهى نفسها الجيم " القاهرية " على عصرنا المبدلة من الجيم العربية الفصحى (دج)، فتأمل .

الكتاب وقد سكتت عنه التوراة . ولكنهم قالوا إن " هامان " كان وزيرا لفرعون من القبْط ، أى المصريين ، على ما فهموه من دوره فى بلاط فرعون . ولم يتساءلوا عن وجه اتجاه موسى بالرسالة إلى هامان بجوار " سيده " فرعون . وقالوا أيضا إن "هامان" كان حازيا لفرعون ، والحازى يعنى " المُنَجِّم " . وهذا قريبٌ من عمل الكاهن "الرائى" الذى كَانَهُ " هامانُ " لفرعون على ما نقول نحن . ولم يتصدَّ المفسرون أيضا لعُجمة "هامان " . وإنما مروا على اسمه مَرَّ الكِرام ، رغم أنه ممنوعٌ من الصرف من كل القرآن ، غَيْرُ مُنَوَّن . والوجهُ فى هذا أن "هامان" تُمنع من الصرف فى كل الأحوال ، عربيةٌ أو أعجمية : إن كانت أعجميةً فللعُجْمَة ، وإن كانت عربيةً فلأنها مختومةٌ بالألف والنون، على زنة " فَعلان" الممنوع من الصَّرْفِ وجُوبا .



لـ "هامان" كما رأيت فى التفسير وجهان : التعريبُ أو الترجمة ، معنيانِ كِلاهُما يُغايرُ الآخر .

إمَّا أنها جاءت فى القرآن على الترجمة من المصرية القديمة بمعنى "عظيم الهامة" أو " الرأس الأعظم" ، استيحاشا لاستبقائها على أصلها "وِرْ- تِب" أو "وِرْ- ضاضا" ، والتفسير فى القرآن بالترجمة يغنى عن كل تفسير .

وإمَّا أنها جاءت فى القرآن على التعريب من المصرية القديمة "ها + آمان" وهى بمعنى "النافذ إلى آمون" ، أو "هَوُّ - آمون" ، لقبا من المصرية القديمة دالاً على مَنْصِبِ كبيرِ كهنةِ آمون . ولكن القرآنَ لا يفسرُّها فى سياق الآيات التى تحدثت عن "هامان" خلافاً لمنهجنا فى هذا الكتاب .

ليس لدينا الدليلُ فى هذا أو ذاك ، لانعدام " النظير" الذى تُطابقه عليه لدى علماء المصريات أعنى المدونَ من التاريخ المصرى القديم ، أو بالأحرى ما تكشَّفَ من التاريخ المصرى القديم . ليس لديك فيما عُرِفَ من الأسماء والألقاب فى المصرية القديمة "ها + آمان" أو "وِرْ- تِب" أو "وِرْ- ضاضا" ، ناهيك بتحديد شخص حامل هذا الاسم أو اللقب قريناً لفرعون موسى الذى فى القرآن وفى التوراة ، وناهيك بِمَنْ هو "فرعونُ موسى" فى التاريخ المصرى القديم ، " فرعونُ ذو الأوتاد " فى القرآن - رمسيسُ

الثـانى كـمـا نقـول نحن ـ صـاحبُ " الأعـمـدة " فى مـعـبـد الكرنك ، "نبْ ـ يُونيت" فى المصرية القديمة .

وحين ينعدمُ النظيرُ المُتَّفَقُ عليه بإجماعٍ فى المصرية القديمة من علماءِ المصريات ، يمتنعُ أيضـا القطعُ بمعنى "هامـان" التى فى القرآن ، إلى أن ينكشِفَ من أسرار التـاريخ المصرى القديم ما يَدُلُّ عليه .

.ولكن القرآن الذى انفرد وحده بذكر " هامان " قرينا لفرعون موسى ، على غـيرِ سـابقـةٍ فى التـوراة ، ودونَ سندٍ من التـاريخ المصـرى القـديم ، ومـا كـان أغناهُ عنهـا ، يتـحـدَّى بـ " هـامـانَ " هذا الأولين والآخـرين : الأولين الذين جَهِلوا وجـودَ قـرينِ البَتَّةَ لفرعـونِ موسى ، والآخرين ـ علماءِ المصرية القديمة والتاريخ المصرى القديم ـ الذين لا يعلمـون حـتى الآن مَنْ قـد كـان " فـرعـونُ ذو الأوتاد " المَعْنِيُّ فى القـرآن ومكانَهُ فى سلسلة فراعين مصـر ، ولا يعـلمـون مِن ثَمَّ مَنْ قد كـان " كـبـيرُ الـكهنة " على عـصـرِ فرعونَ المعَنِيّ.

لو أن القـرآن لا يَعْلَمُ مـا يقـول ، أو يقـول مـالايَعْلَم ، فكيف يُجـازفُ فى غـيـرِ ضرورةٍ البَتَّةَ بذكر قـرينٍ لفرعـونِ مـوسى بالاسم ، آمنا ألا تكشف الأيام زَيْفَه بثـبـوت انعدامِ القرين ، واختـلافِ المسمى ؟ كيف ضَمِنَ فى مطلع القرن السابع للميـلاد وإلى هذا القرن العشرين أن يَقِفَ علماءُ المصريات حَيَارى أمامَ هذا التحدى ؟

ليس الإعـجـازُ فقط أن يَتَنَبأَ مُتَنَبِّىءٌ فيصيب . ربُمَّا قُلتَ صدَف . الحـادثُ فى المسـتـقـبل لا يَصِحُّ حـتى يَقَع . ولـكن الإعـجـازَ الحقَّ أن تتـحـدى سـامِعَكَ بما كـان ، فلايَمْلِكَ لك سامِعُك نفيا أو إثباتا .

لا يفعلُ هذا إلا شاهدٌ حافِظ ، انفرد بعلمِ كُلِّ الذى كان .

وكفى بهذا إعجازا تَنْقَطِعُ دُونَهُ الرِّقاب .

(٣٤) قارون

عَرَجْنا فى تحليل اسم "هامان" على ذِكر ما كان من شأنِ " قارونَ " الذى تَوَجَّهَ موسى إليه بالرسالة قريناً لفرعونَ وهامان .

كان قارونُ كما مر بك ، وكما نَصَّ عليه القرآن ، رجلاً عبرانياً مِن بنى إسرائيل فى مصرَ على عصرِ موسى ، اتجه إليه موسى بالرسالة لأنه مَرَقَ من دين الواحد الأحد، شأنَ الملأ من بنى إسرائيل من بعد يوسف ويعقوب الذين طلبوا الحُظْوَةَ عند سادتهم المصريين ، ثم رينَ على قلوبهم بذنبهم ، فكانوا آباءَ الذين عبدوا العجل فى التيه . ولكن قارونَ كَذَّبَ موسى شأنَ سيدِه فرعونَ وكبير كَهَنته " هامان" .

والقرآن يقص عليك بإيجازٍ بليغٍ مُسْتَوْفٍ فى سبع آياتٍ من سورة القصص (٧٦ ـــ ٨٢) كل ما كان من شأن قارون ومآله ، فيقول : { **إنَّ قارون كان منْ قوم موسى فبغَى عليهم ، وآتيناه من الكنوز ما إنَّ مفاتحَهُ لتنوءُ بالعصبة أولى القوة ، إذ قال له قومُهُ لا تفرح ! إن الله لا يُحِبُّ الفَرِحِين . وابتغ فيما آتاك اللهُ الدارَ الآخرة ولا تنسَ نصيبَك من الدنيا وأحْسِنْ كما أحْسَنَ اللهُ إليكِ ولا تبغِ الفسادَ فى الأرض إن الله لا يُحبُّ المُفسِدين . قال إنما أوتيتُهُ على علمٍ عندى ! أوَ لم يعلم أن اللهَ قد أهلك من قبله من القرون من هو أشَدُّ قوةً وأكثرُ جمعا ، ولا يُسألُ عن ذنوبهم المجرمون . فخرج على قومه فى زينته ، قال الذين يُريدون الحياةَ الدنيا ياليتَ لنا مثل ما أوتىَ قارون إنه لذو حَظٍ عظيم . وقال الذين أوتوا العلمَ وَيْلَكُمْ ثوابُ الله خَيْرٌ لِمَنْ آمنَ وعَمِلَ صالحا ولا يُلَقَّاها إلا الصابرون . فَخَسَفْنا به وبداره الأرض فما كان له من فئةٍ ينصرونه وما كان من المنتصرين . وأصبح الذين تَمَنَّوا مكانه بالأمس يقولون وَيْكَأنَّ اللهَ يبسط الرزق لمن يشاء من عباده**

ويَقْدِر، لولا أنْ مَنَّ اللهُ علينا لخسف بنا، ويْكَأَنَّهُ لا يُفلح الكافرون !} (القصص: ٧٦ ــ ٨٢) .

أثبتنا الآياتِ السبعَ برمتها هنا ولم نُحِلْكَ إليها في مصحفك لأنها تُغنى عن كل قول : أخذ اللهُ على قارون الكفر ، وبَطَر النعمة ، والاستكبار ، والإفسادَ فى الأرض ، والاستعلاءَ على قومه بما آتاه اللهُ من الكنوز، كما أخذ على قارونَ "بَغْيَهُ على قومه"، وكانت القاصمةَ تَبَجُّحُهُ بقوله : إنما أوتيته على علم عندى ! وشاءت رحمةُ الله عز وجل ألا يفتتنَ بقارونَ الذين يريدون " الحياة الدنيا " فخسفِ الله بهِ وبدارِهِ الأرض. أى خسف اللهُ به وبما جَمَع .

وأنت بالطبع لاتتصور أن قارونَ الذى يُحَدِّثُك القرآنُ عنه قد كان مَهْلكُهُ بتيه سيناء بعد إنجاءِ اللهِ بنى إسرائيل من قبضةِ فرعون . ولا تتصور أن يكون بَغْيُ قارونَ على قومه فى تيه سيناء وقد عَرِيَ قارونُ من سلطان فرعون الذى يبطش قارونُ بيده . ولا تتصور أن يبغى قارون على قوم موسى وموسى فى تيه سيناء بين ظهرانيهم حاكماً مُحَكَّما . ولا تتصور أن يجمع قارونُ كنوزه فى صحراءَ جرداءَ كتيه سيناء ، أو أن يخرج على قومه فى زينته فى صحراءَ كصحراءِ سيناء ، ولا تتصور أيَّ معنى لأن يخسف اللهُ الأرضَ بدارٍ لقارونَ فى التيه ، وما كانت دُورُ بنى إسرائيل فى التيه إلا أخبيةً من الوبَر على أحسنِ الفروض ، لا يستقرُّ بهم المُقامُ إلا ليحملوا عصا الترحال . ولا تتصور أيضا وبالأخص أن يُنْجِيَ اللهُ قارونَ مع موسى عَبْرَ البحرِ إلى سيناء ، ولا يهْلكَهُ مع فرعونَ وهامان، كما لا تتصور أن تكونَ لقارونَ فى مصرَ كنوزٌ تنوء بمفاتحها العُصبةُ أولو القوة ، ثم يعبر بها قارونُ البحرَ مع موسى إلى سيناء فى فِرار بنى إسرائيل من مصر .

قال عز وجل فى مَهْلك قارون : { **وعاداً وثمودَ وقد تَبَيَّنَ لكم من مساكنهم ، وزَيَّنَ لهم الشَيطانُ أعمالهم فصدَّهم عن السبيلِ وكانوا مستبصرين . وقارونَ وفرعونَ وهامان ، ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين . فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذَتْهُ الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسَهم يَظلمون** } (العنكبوت :٣٨ ــ ٤٠) . تجد فى هذه الايات النصَّ

بالترتيب الزمنى على مَهْلِكِ عادٍ وثمودَ وقارونَ وفرعونَ وهامان : كان بالحاصب مهلك عاد ، وبالصيحة مهلكُ ثمود ، وبالخسف مهلكُ قارون ، ثم بالإغراق مهلكُ فرعونَ وهامان . فتستخلص من هذا جازماً قاطعا أن مَهْلَكَ قارونَ بالخسف قد كان فى مصر ، سابقا على مَهْلِك فرعونَ وهامان فى اليم غرقا . وهذا شأنُ حكمته عز وجل : يَقْطَعُ المنافقَ الذنْب ، لتتعظَ به الرأس . ولكن فرعونَ وهامان لم يتعظا بقارون، فَحَقَ عليهما القولُ .

قارونُ الذى يحدثك عنه القرآن قد كان فى مصر بَغْيُهُ ومآلُهُ ، لا فى تيه سيناء. ولم يلتفت إلى هذا المفسرون .



تُحَدِّثُكَ التوراةُ (الفصل ١٦ من سفر العدد) عن ثُلَّةٍ قوامُها ٢٥٠ رجلا يتزعمهم رجلٌ يدعى " قُورَح " ، قاوموا موسى عليه السلام فى التيه ، أى تمردوا على رئاسته فنازعوه الانفرادَ بالتلقى من الله عز وجل واختصاصَهُ نفسَهُ وهرونَ بالكهانة . كما مر بك فى ذلك السفر نفسه (عدد١٢) من منازعة هرون ومريام أخاهما موسى . عندئذ سَخِطَ الرَّبُّ على " قورح " وجماعته : " ففتحت الأرض فاها فابتلعتهم هم وبيوتهم وكُلَّ إنسانٍ لقورح وجميعَ المال " (عدد ٣٢/١٦) . كان هذا فى تيه سيناء كما يتضح لك من مجادلتهم موسى : " أقليلٌ أنَّكَ أخرجتنا من أرضٍ تُدِرُّ لبناً وعسلا لتقتلنا فى البَرِّيَّة حتى تَتَرَأَسَ علينا تَرَؤساً أيضا ! " (عدد ١٣/١٦) . لم يكن الخسف بقورح الذى فى التوراة فى مصر بل فى تيه سيناء . ولم يكن الخسف بقورح الذى فى التوراة لأنه بَغَى على قومه ، وإنما لأنه بَغَى على موسى فنازعَهُ الرئاسةَ المستمدةَ من النبوة . ولم تكن لقورح الذى فى التوراة كنوزٌ يختالُ بها على قومه ، ولم تكن له ولجماعته دُورٌ مبنية يُخْسَفُ بها . وإنما كانت لهم بيوتُ أخبية من الوَبَر : " فتباعدوا من حوالى مَسكَنِ قورح وداثان وأبيرام وخرجَ داثانُ وأبيرام ووقفا على أبواب خيامهما هما ونساؤهما وعيالُهُما " (عدد ١٦ / ٢٧) . لا مجالَ للمقارنة بين قورح الذى فى التوراة وبين قارونَ فى القرآن .

ولكن مفسرى القرآن (راجع تفسير القرطبى للآيات ٧٦ وما بعدها من سورة القصص) تأثروا بهذا الذى قصصته عليك من سفر العدد ، فقالوا إن قورح هذا الذى

فى التوراة هو نفسه الذى فى القرآن، استئناسا بالتشابه بين لفظى "قورح" ، " قارون"، وأيضـا ـ وبالأخص ـ بالتـمـاثل فى المآل ، أى الخـسفُ بقـارون الذى فى القـرآن : {**فخسفنا به وبداره الأرض**} (القصص : ٨١) . وتلك واحدةٌ من الإسرائيليات فى تفاسير القرآن.

بل قد اتكأ على هذه التفاسير أدعياءُ الاستشراق المنكرون الوحى على القرآن ، كدأبهم على الاستفادة من تلك التفاسير فى النعى على القرآن ، فقالوا إن محمدا (صلى الله عليه وسلم) سمعها "قورح" فعربها على " قارو ن" على المجانسة مع "هارون" ، [1] ثم نسج حوله تلك القصة عن ثراء قارون وكنوزه التى تنوء بمفاتحها العصبة أولو القوة ، واستكباره على قومه ، لا على موسى نفسه ، ولكنه استبقى لقارون فى القرآن المآل الذى لقيه قورح فى التوراة : خَسْفُ الأرضِ به وبداره .

عليك إن كنت مسلما فى هذا العصر الذى نعيشه ، وقد أُتيحت أسفارُ التوراة بالعربية للقارىء بتلك اللغة مسلما وغيرَ مسلم ، أن تتوقف عند كل تفسير للقرآن يتأصَّلُ على شىء مما تقصه هذه التوراة التى بين يديك ، تُراجعُ النص التوراتى على النص القرآنى ، فَتُنَقِّى هذه التفاسير ـ أيا كان قدرُ أصحابها ـ مما علق بها من شوائب تلك الإسرائيليات ، لأن القرآن هو المهيمن على التوراة ، لا العكس ، والقرآنُ الذى يُصَدِّقُ ما صَدَقَ فى التوراة ، لا يُكَذِّبُ كُلَّ ما فى التوراة ، ولكنه يُكَذِّبُ فقط المكذوبَ على الله عز وجل وعلى التاريخ الصحيح مما دُسَّ على التوراة التى بين يديك ، ويعفو عن كثير .

ونحن لا نقصد من هذا إلى أن الخسف بقورح الذى فى التوراة محضُ خيال ولكننا نقول إنها أهابيشُ اهتبشها الكاتبُ أو الناسخ من ضباب الذاكرة ، كما اهتبش من قبل " هامان" المصرى فجاء به بعد قرونٍ من عصر موسى إلى بلاط فارس يكيد لبنى إسرائيل . لا يصح للجاحد المكابر أن يقول العكس ، أعنى لا يصح أن القرآن هو الذى اهتبش " هيمان " الذى فى بلاط فارس فجاء به إلى بلاط فرعون ، أو أنه هو الذى اهتبش من سفر العدد " قورح " الذى ناوأ موسى فى تيه سيناء فأعاده إلى مصر يناصر فرعون على موسى . لا يصح لأن القرآن فى اعتقاد هذا المكابر لا ذاكرة له

(١) انظر على سبيل المثال Joseph HOROVITZ ، المرجع المذكور ، ص ٢١ .

يهتبش منها ويغترف كما يفعل كتبة التوراة ونُساخُها : كل ما لدى القرآن فى اعتقاد هذا الجاحد هو أسفار التوراة وأقاصيص أهل الكتاب ، بُسِطت أمامَه ، وأُفْرِغَت فى أذنيه ، لا علْمَ له بشيءٍ خارجها ، فهو ينتقى منها ويختار. والذى ينتقى ويختار لا يقع فى مثل هذا الخطأ المادى الفادح الذى ليس له فيه سند . إلا أن تقول إن القرآن يخترع قَصَصَهُ اختراعا ، ويُؤلِّفُ بينه تأليفا . والذى يخترع القصص يخترع أيضا أبطال أحداثه ، ولا يلتقط نظائر لها فى التوراة على خلاف فى الزمان والمكان والأحداث ، بل يبعد بنفسه عن هذا كل البعد ، ويحترز منه أشدَّ الاحتراز . وإلا فهو ـ على غيرِ ضرورةٍ البتَّة ـ يَزُجُّ بنفسه فى المزالق .

لم يخترع القرآن قصة مَهلك قارون بالخسف فى مصر، ولكن كتبة التوراة الذين أَنْسُوا الذى كان ـ وهُمْ يكتبون أسفارهم فى أعقاب عصر داود وسليمان ـ أسقطوا مصير قارون فى مصر على نظير له فى تيه سيناء ، تغليظاً لمصير أولئك الذين تَجَرَّءُوا على موسى فنازعوه الكهنوتَ فى التيه . وفات الكاتب وهو فى سَوْرَةِ غضبه من قورح وجماعته أن الله عز وجل لا يخسف بالمتطاولين على أنبيائه ـ إن صح قوله فى قصة "قورح" ـ فيهلك معهم الحرث والنسل دون ذنب جَنَوْهُ ، بل ويهلك أيضا جماعة بنى إسرائيل كلهم عدا موسى وهرون ، حين تذمر بنو إسرائيل على موسى بسبب مهلك قورح وجماعته ، فيفنيهم جميعا فى لحظة ، لولا أن هرون قدم البَخُور وكَفَّرَ عن الشعب ، ووقف موسى بين الموتى والأحياء فكفت الضربة وكانت قد بدأت بالفعل ، فكان عدد الذين ماتوا بالضربة أربعة عشر ألفا وسبعمائة خلا من مات بسبب قورح (راجع سفر العدد / ٤١ ـ ٥٠) .

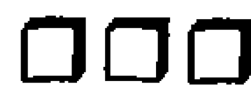
قارن ذنب قورح الذى فى التوراة بذنب قارون الذى فى القرآن . وقارن بين مَهلك قورح وهذا العدد الضخم من بنى إسرائيل بسبب قورح ، وبين قارون الذى لم ينازع موسى الكهنوت شأن قورح الذى فى التوراة ، وإنما كفر بموسى أصلا وبمن أرسله ، وكفر بأنعم الله عليه متبجحا بقولته : إنما أوتيته على علم عندى ! واستذل قومه فى مصر وكان سوط عذاب لفرعون عليهم ، فلم يخسف الله الأرض إلا به وحده وبداره : {**فخسفنا به وبداره الأرض**} (القصص : ٨١) ، ورَحِمَ الذين كانوا يَتَمَنونَ مكانه بالأمس ، فقالوا : { **لولا أن مَنَّ اللهُ علينا لخسف بنا ، وَيْكَأَنَّهُ لا يفلح الكافرون** } (القصص : ٨٢) .

قارن أنت بين هذين السردين ، الذى فى التوراة والذى فى القرآن ، وتَأَمَّلْ أىٌّ السَّرْدَيْنِ أَحَقُّ بالتصديقِ والاتباع .



والذى يجب أن تندهش له أن كتبة التوراة (خروج ١) الذين لم يفتهم أن يسموا بالاسم تلكما القابلتين العبرانيتين " شفرة وفوعة " اللتين أمرهما فرعون بقتل مواليد بنى إسرائيل الذكور واستحياء مواليدهم الإناث ، فخافتا الله كما يقول الكاتب ، لم يُسَمُّوا أحدا من " مُدَبِّرى بنى إسرائيل ومُسَخِّريهم " الذين سلطهم فرعون عليهم من أنفسهم (خروج ٥) فلم يتحدثوا قط عن "قارون" وأشباه قارون ، وكأنما ذاكرتهم "الحديدية" التى لم يفتها تسمية من خرجوا مع موسى من مصر ، انطمست فجأة ، فلم تستذكر أحداً من أولئك الخونة ، عملاء فرعون عليهم ، ناهيك برأس الكفر والبغى "قارون" .

والوجه فى هذا ، أن القابلتين "شفرة وفوعة" خافتا الله ، فسجل لهما الكاتب هذا الشرف فى أجيال نسلهما . أما أولئك "المُدبِّرون المُسَخِّرون" فهم عارٌ وشَنار . بل ربما قد كان منهم من تاب من بعد وأناب فَشَرُفَ بصحبة موسى فى عبور البحر إلى سيناء ، فتكتم الكاتبُ عنه عارَ ما قد سلف . بل قد كان منهم على وجه القطع والبقين من هلك فى مصر على كفره مثل "قارون" وأشباه قارون ، فحرص الكاتب أن يُعَمِّىَ أَمْرَه ـ خشيةَ أن يكون فى أشراف بنى إسرائيل عصرَ كتابة الكاتب ما كتب من ينتسبون إليه ـ فأسقط من سجله أسماء هؤلاء المُدَبرين المُسَخِّرين جميعا ، لا يُسَمى بعضاً دون بعض فيقع فى المحظور دون أن يدرى .



تكتمت التوراة إذن ما قد كان من شأن " قارون" فى مصر ولم تسمه ، وانفرد به القرآن. والقرآن ينص على أن " قارون" هذا كان رجلا عبرانيا : {**إن قارون كان من قوم موسى**} (القصص : ٧٦) ومن ثم تقطع بأن هذا الاسم "قارون" اسم عبراني. ولكنك لا تقع قط فى أعلام العبرانيين منذ وجدوا وإلى يومنا هذا على شخص واحد

تسمى بالاسم " قارون" ، وكأنهم يتحاشون التسمية به. ولكن اللغة العبرية لا تخلو من اللفظ " قارون" على الصفة ، زنة المفعول عبريا من الجذر العبرانى " قَرَنْ " بمعنى أنار وأضاءَ وأشعَّ ، فهو الأنْوَر المُنَوَّر ، ومن طريف ما يذكره القرطبى فى تفسيره الآيات ٧٦ وما بعدها من سورة القصص أن " قارون " كانت كُنْيَته فى قومه " المُنَوَّر" لوَضاءته وجماله ، دون أن يفطنَ بالطبع إلى أن " المُنَوَّر" هذه هى نفسها " قارون" عبريا. والذى نقطع به نحن أن القرطبى نقل هذا عن بعض رواة أهل الكتاب من اليهود، الذين ترجموا "قارون" التى فى القرآن إلى معناها العبرى " المُنَوَّر" ، يفتعلون العلم المُسْبَق بما ذكره القرآن ولم تذكره التوراة ، أو "يجاملون" بها مفسرى القرآن، تبريراً لمجيء القرآن بالاسم " قُورَح" الذى فى التوراة على لفظٍ مغاير ، هو "قارون" .

والذى لاتستطيع أن تُعْفِيَ مفسرى القرآن منه ، هو انسياقُهم إلى القول بأن "قارون" التى فى القرآن هى تعريب للاسم " قُورَح" الذى فى التوراة . فلا يصح هذا عربيا بوجه ، لإبدال النون من الحاء : لو أراد القرآن تعريب " قُورَح " لنطقها "قَوْرَح" بفتح القاف زِنَةَ " هَوْدَج" ، أو لقال " قُرَحْ " زِنَةَ "عُمَر" ، أو لقال " قَارُوح" زِنَةَ "قاموس" ، ولما قال البتة " قارون " بالنون . وإنما انساق المفسرون إلى هذا ، لانزلاقهم بتأثير رواتهم من أهل الكتاب إلى القول بأن " قارون " المخسوف به فى مصر هو نفسه " قورح" المخسوف به فى التيه ـ ولا يصح هذا البتة كما مر بك ـ لأنهم لم يفطنوا إلى وَجْه العلة فى تَوَجُّه موسى بالرسالة إلى فرعون وهامان وقارون جميعا ، وقد مَرَّ بك .

ولا يصح أيضا القول بأن قارون التى فى القرآن هى ترجمة عربية للاسم العبرى قورح الذى فى التوراة. فالاسم العبرانى معناه الأقْرَع ، أصْلَع الرأس، ولا صلة البتة بين قارون ـ إن أردتها عربية ـ وبين معنى القَرَع والصَّلَع الذى فى قورح العبرى . ولا يصح كذلك القول بأن " قارون" كُنْيَةٌ عربية كَنَّى بها القرآنُ عن " قورح" ، لا يترجم بها اسمه وإنما وصفاً له بما شُهِرَ به وتحدَّثَ به القرآن وهو "جَمْعُه" الأموال والكنوز ، أعنى " فاعول " على المبالغة من "قَرَى" العربى بمعنى "جَمَع" ، فلا يصحَ البتة اشتقاق قارون من قَرَى، وإنما الذى يصح من قَرَى على المبالغة هو " قَارُوء" بالهمزة لا "قارون" بالنون ، وإن لم تسمع " قاروء" من العرب. أما " قارون " على " فاعول" من " قَرَنَ " ـ وإن لم تسمع من العرب أيضا ـ فمعناها القارنُ بين الشيئين ، لا مُطلق الجمع .

ولأن كتبة التوراة جَهلوا ما كان من أمر قارون فى مصر أو أنْسُوه أو تَكَتَّمُوه ، بل وجَهلوا أو تكتموا وجود علم عبرانيّ البتة بلفظ " قارون" ، فأنت تُنَحِّى علماء العبرية وعلماء التوراة عن تفسير معنى هذا الاسم " قارون " ، وتلتمس تفسيره من القرآن على منهجنا فى هذا الكتاب ، لأن القرآن هو صاحبُ هذا الاسم ، الذى أتى به على غيرِ مثالٍ فى العبرية أو نظير فى أعلام بنى إسرائيل ، وهو أيضا الراوى قِصَّتَه وما كان من شأنِه وما آل إليه .

قال عز وجل يفسر الاسم العبرانى قارون بالتصوير : { **إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إنَّ مفاتِحَهُ لَتَنُوءُ بالعصبة أولى القوة** } (القصص : ٧٦) . هذه الصورة البليغة المعجزة تدلك على أن " قارون " هو المُوقَرُ المُثْقَلُ غنىً .

وفى المعجم العبرى [١] أن "يقر" (وهو من " وَقَرَ " العربى) يُفيد معانى الثِّقَل والعظمة والمال (وهذا قريب من معانى " وَقَرَ " العربى ، فالوِقر يعنى الحِمْل الثقيل ، والوَقار من معانيه العظَمَة ، والقرةُ من معانيها المال ، كما تقرأ فى معجمك العربى) وقد جمع هذا كله " قارون" الذى فى القرآن.

أما كيف تجىء " قارون " التى فى القرآن من " يَقَر " العبرى ، فهى تجىء فى العبرية على المزيد بالواو والنون ، فتصبح " يَقَرُون " ، كما جاءت "يَشَرُون" العبرية من "يَشَر" أى السواء والاستقامة ، فهو السَّوِىُّ المستقيم ، ثم تُحْذَفُ الياءُ البادئةُ من "يَقَرُون" استخفافا ، فتؤول إلى " قارون " الواقِر المُوقَر ، كما آلت من قبل فى العبرية "يَشَرُون" إلى "شَارُون" .

تُرى أكان القرآن ـ وهو يخترع " قارون" بزعمهم ـ يستطيع أن ينحت من العبرية هذا الاسم " قارون" من "يَقَر" العبرى إن لم يكن القرآنُ أفْقَهُ بالعبرية من أهلها ومعاصريه من أهل الكتاب الذين اعتجمت عليهم فظنوها " الأنْوَرُ المُنَور" كما يروى القرطبى على التفسير السهل المباشر من " قَرَنْ " العبرى بمعنى أضَاءَ وأشَعَّ ؟

ألا فَسَبِّح معى العليمَ الخبير ، الذى عَلَّمَ بالقلم علَّمَ الإنسانَ ما لم يعلم .

---

(١) راجع مادة "يَقَر" فى " هَمِلُونُ " هِحَداش لَتَناخ " ، المرجع المذكور ، ص ٢١٦ .

ومن طريف ما يذكر فى هذا السياق أن أهل الكتاب ـ الذين لم يعلموا بقارون إلا من القرآن وحده ـ يتخذون من قارون هذا مثلا على الغنى المفرط ، فيقولون بالعبرية " عَشِير كِقُورَح "يعنى" غَنِىٌّ مثل قورح" ، يُنَسِّقُون على قول الأوروبيين بالفرنسية مثلا riche comme Cresus يريدون ملك ليديا فى آسيا الصغرى فى القرن السادس قبل الميلاد الذى اشتهر بفرط غناه . ولم تصف التوراة قورحْ الذى فى التيه بالغنى والثراء ، وإنما وصفته بالعصيان والمروق ، وما كان لاسرائيلى فى التيه مهما بلغ غناه أن يُقَارَنَ بِغِنَى كرِسُوس ملك ليديا ، بل ما كان ذهب الاسرائيليين جميعا ليتجاوز وزن ذلك العجل من ذهب الذى حَرَّقَه موسى ونَسَفَهُ فى اليم نسفا . ولا يصل هذا إلى عُشرِ مِعشار ما كان لملك ليديا فيما تَروى الأساطير . وإنما نَسَقت العبرية فى هذا على قارون الذى فى القرآن ، الذى أوتى من الكنوز ما إنَّ مفاتحَه لَتَنُوءُ بالعصبة أولى القوة . وهم هنا أيضا يُوَحِّدُون ما بين " قورح " ، " قارون " ، يجعلون منهما نفس الشخص على اختلاف الزمان والمكان . وقد أدى هذا أيضا ببعض الأدعياء إلى القول بأن القرآن يُعَرِّب " كرِسُوس" اليونانى على قارون ، وينقله من ليديا إلى مصر، على بعد ما بين آسيا الصغرى ومصر ، وما بين القرن السادس قبل الميلاد الذى عاشه "كرِسُوس" اليونانى والقرن الثالث عشر قبل الميلاد الذى عاشه فرعون موسى . ولكنْ كيف تَجِىءُ " قارون" من " كرسُوس" ؟ كان أَوْلَى بالقرآن أن يقول " قاروس" ، لأن السين الأولى التى فى " كرِسُوس" اليونانية سين أصلية لا يجوز حذفها ، أما السين الثانية فهى حركة " إعراب " للرفع فى اليونانية تحل محلها النون فى النصب فتقول "كرِسُون" . هذا وذاك يدلك على الخلط والتخبط ، وهو أمرٌ بئِيس لا يُلْتَفَتُ إليه ، ولكننا دَلَّلْناكَ عليه كى تَأْمَنَ الوقوعَ فيه .

(٣٥) مصر

"مِصرُ" ، هذا الاسمُ الجغرافىُّ العَلَم ، اسمٌ عربىٌ ليست فيه شبهةُ عُجْمَة . ولا يَقْدُح فى هذا أنه اسمٌ ممنوعٌ من الصرف غير منون ، لأن "مصر " عَلَمٌ مؤنث ، والعَلَميةُ مع التأنيث تَمنَعُ من الصرف وجوبا ، عربياً كان الاسمُ أم غيرَ عربى .

وفى معجمك العربى " مصرٌ " أخرى تقبل الألف واللام ، كما تقبل التنكير والإضافة ، وتقبل الإفراد والتثنية والجمع، أعنى " المصر" بمعنى البلد أو القطر ، وتجمع على أمصار ، وليست هذه كتلك ، لأن المصرَ اسمٌ معنوىٌ مذكر ، ليس بِعَلَم .

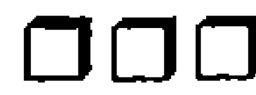
أما " مصرُ " الاسم الجغرافى العلم ، أعنى هذه الأرض التى نعيش عليها أنا وأنت ، فليس معناها عربيا البلد أو القطر ، وإنما معناها " الحائل " ، أى الحاجز بين الشيئين ، أو بين الأرضين ، يمنعك من اختراقه أو النفاذ منه ، ولفظُهُ فى العربية "ماصِر" على الفاعلية ، وأيضا " مِصْر" ، وفى العبرية " مَصُور" وأيضا "مِصِر" بكسرتين (راجع فى معجمك العربى الجذر " مَصَرَ " المشترك على هذا المعنى بين العربية والعبرية) .

ولكن "مصر" تجىء أيضا فى العبرية بصيغة المثنى "مِصْرَيم" ، وليس هذا على إرادة التثنية ، إنما هو للتعظيم ، كما يعرف حُذَّاقُ اللغة العبرية التى تقول "إلوهيم " جمع " إله " على التعظيم تريد الواحدَ الأحد . وربما أيضا على المجانسة مع "تَاوى" اسم مصر بلغة أهلها المصرية القديمة " الهيروغليفية " ، يعنى "الأرضان" على التعظيم لا التثنية .

كانت هيبةُ مصرَ فى صدور جيرانها منذ فجر التاريخ تُصَوِّرُها لهم سَدّاً منيعا ، تَعَلَّمُوا بالتجربة أنهم ما انتطحوه إلا وتحطمت عليه قرونُهم ، فلم يجدوا لمصر أليقَ من هذا الاسم "مصر" يُسَمُّونَها به .

ولكن مصرَ سفهَت من بعد فَتَرَفُّهت ولانت ، وتهاونَت فهانت . ومع ذلك فقد بقى لها حَقُها فى هذا الاسم بالتقادم : ذهبت الهيبةُ وبقيت مصر ، لايَعْرِفُ أهلُها اليومَ لاسمها هذا مبنىً أو معنى ، لا من العربية ولا من العبرية ، ولا من المصرية القديمة أيضا .

لا يُغَيِّرُ اللهُ ما بقومٍ حتى يُغَيِّروا ما بأنفسهم ، وسبحانَ مُقَلِّبِ القلوبِ والأحوال والأزمان . فاللهمَّ بجاهكَ وجاهِ نبيكَ ارْدُدْ علينا ما فَرَّطنا فى جَنْبِ أنفسنا : ارْدُدْ علينا إسلامَنا ، وارْدُدْ علينا قُرآنَنا ، وتُبْ علينا ، إنا هُدْنا إليك .



أما Egypt (إيجيبت) اسم مصر الشائع الآن فى كل اللغات تقريبا عدا العربية والعبرية ، فهو مأخوذ من "إغيبتوس" Aigyptos اليونانية (السين الخاتمة للرفع) ، اسم مصر عند اليونان . وقد تخبط الباحثون فى تفسيره فقيل إنه متحور عن Gbtiw (جبتيو) المصرية القديمة يعنى "قفط" (مدينة فى صعيد مصر) . وليس بشىء ، فلا معنى لأن يتخذ اليونان من مدينة قفط عَلَما على مصر كلها ، ولا معنى أيضا لأن يَتَأَنَّوا فى تسمية مصرَ وقد جاءوها من شماليها حتى ينتهى بهم التجوال إلى صعيد مصر . والراجح عندى ولم يقل به بعدُ أحد ـ فهو من الجديد الذى مَنَّ اللهُ علينا به ـ أن اليونان نحتوا Aigyptos هذه من لفظة agapytos وهو اسم المفعول فى اليونانية من agapo يعنى "أَحَبَّ" على الترجمة من المصرية القديمة "تا ـ مرى" يعنى أرض المحبوب ، أو أرض الأحبة ، أو الأرض التى تُحَبُّ ، وهو واحدٌ من أسماء "مصر" بلغة أهلها كما سترى .

كيفما كان الأمر ، فقد تحولت " إغيبتوس " اليونانية هذه فى اللغة القبطية إلى "جِپتُو" ، وعن "جِپتُو" القبطية هذه قال العرب : " القبط " ، يعنون المصريين أجمع ، لا نصارى مصر فحسب كما شاعت الآن ، وكما يظن الذين لا يعلمون . وهو خطأ لغوىٌ بَيِّن ، لأن " القبط" على هذه الأرض التى نعيش عليها أنا وأنت أسبقُ تاريخا من مبعث المسيح عليه السلام ، ناهيك باعتناق " القبط" المسيحية يومَ اعتنقوها . وهم أيضا أسبقُ وجودا على هذه الأرض من مجيءِ الإسلام ودخولِ أكثريتهم الكاثرة فى دين الله أفواجا .



لم يسم المصريون بلدهم باسم "مصر" العربي العبراني على معنى الحائل أو الحاجز كما أسماها بلغاتهم جيران مصر في الشرق ، هيبةً ويأساً وتعظيما ، فقد مَنَّ اللهُ على هؤلاء المصريين في غابر الدهر بالطمأنينة في بلادهم ، لا يَهابون أحداً من وراء هذا الحائل أو الحاجز ، بل قل لا يهتمون لشيء من أمر الذين هم من وراء هذا الحائل أو الحاجز . كان لديهم قَدْرٌ من " الاكتفاء بالذات " تَغْبِطهم عليه كُلُّ شعوب العالم القديم ، فانكَفَؤوا على أنفسهم يحرثون ويزرعون ، ويغزلون وينسجون ، ثم يجدون من بعد هذا كُله وَفْرَةً من الوقت يصنعون فيه أصول الحضارة والفن لكل البشر .

هذا الاكتفاء بالذات ، والانكفاء على النفس ، أَوْرثا المصريين من قديم أَنَفَةً واعتزازا ، وربما أيضا عُجْباً وخُيَلاءَ ، والتصاقاً بالأرض ، حتى مُلِئَت صدورُهم ببلدهم هذا عِشْقا ، فَقَرُّوا في "أرضهم" لا يبغونَ عنها حِوَلا ، وغيرُهمُ الذاهبُ الجائي [1].

كانت حياتهم الأرضَ والنهر ، فكانت مصرُ عندهم في لغتهم هي "الأرض" (تا)" ، لا أرضَ غيرُها من بعدِها ، وكان اسمُ النيل عندهم بلغتهم هو " النهر" (إِترو) ، لا نهرَ في الأرض من دُونه .

ومن الأرض والنهر اشتق المصريون الأقدمون اسم "مصر" بلغتهم هم فقالوا: (١) "إِدْبوى" مثنى "إِدْب" يعنى " الضِفّة " فهى الضفّتان ، يعنون على الراجح جانبى الوادى . (٢) " تاوى" مثنى "تا" يعنى الأرض ، فهى "الأرضان" ، ومنه " نبْ ـ تاوى" أى سَيّدُ الأرضَيْن" يعنى " ملك مصر " ، فى مقابلة " نبْ ـ ضار" أى ربُّ الكون . والراجح أن التثنية فى " الأرضَيْن " هى على التعظيم ، وليست على الجمع بين الوجهين البحرى والقبلى . (٣) " تا ـ مرِى " ، يعنى " أرضُ المحبوب " أو " أرضُ الأحِبَّة " أو " الأرض التى تُحَبُّ " [2] (٤) " تا ـ كِمْت " ، أو "كِمْت" فقط اختصارا ، وأصل " تا ـ كمت " هو " الأرض السوداء " ، والسواد هنا على معنى الخضرة الضاربة إلى السواد ، يعنى الزروع ، فى مقابل " تا ـ دشرْت " (الأرض الحمراء) يعنى الصحراء ، ومصر كما تعلم جزيرة وسط رمالٍ يَضْرِبُ لونُها إلى الحُمرة ، كما قال

---

(١) اللفظ الدال على صفة " الأجنبى" فى المصرية القديمة هو "شماو" ، "وشاسو " ، الأول من الجذر "شم" والثانى من الجذر " شس " وكلاهما بمعنى ذهب ورحل .

(٢) يحدث فى الهيروغليفية أحيانا أن يرسم اسم المفعول غفلا من التفرقة بين المفرد والجمع . كما يُستفاد أيضا من اسم المفعول هذه الصيغة " الذى يُحَبُّ " ، " التى تُحَبُّ " .

العرب "سواد العراق" ، فى مقابل باديته . وقد شاع من هذه الأسماء " تاوى " ، " تا ـ مرى " ، " تا ـ كِمْت " أو " كِمْت " اختصارا .

"مصرُ" عند أهلها كما رأيت بلغتهم هم هى الأرض، وإن تعددت النعوت . وقد "عَلِمَ" القرآنُ هذا قبلَ أن يَعْلَمَهُ أحد من الخلق أجمعين عصرَ نزوله وإلى هذا العصر ، فجاءت "مصرُ" فى عدة مواضعَ من القرآن باسم الأرض كما سترى ، وسبحان علام الغيوب .

وهذا من أبْيَنِ إعجازات القرآن التى تتناولها مباحثُ هذا الكتاب الذى نكتب .

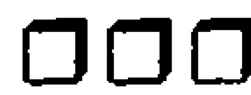


وردت " مصرُ " فى كل القرآن خمسَ مرات ، جاء الاسمُ فى أربعٍ منها ممنوعاً من الصرف ، غَيْرَ مُنَوَّن : { **وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصرَ بيوتا** } (يونس : ٨٧) ، { **وقال الذى اشتراه من مصرَ لامرأته أكرمى مثواه** } (يوسف : ٢١) ، { **وقال ادخلوا مصرَ إن شاء اللهُ آمنين** } (يوسف : ٩٩) ، { **ونادى فرعونُ فى قومه قال يا قومِ أليس لى مُلْكُ مصرَ وهذه الأنهارُ تجرى من تحتى؟** } (الزخرف : ٥١) . أما المرة الخامسة فقد ورد فيها الاسم مصروفاً ، مُنوناً بالألف نصبا ، وهى : { **وإذ قلتم يا موسى لن نصبرَ على طعامٍ واحد فادْعُ لنا ربَّك يُخرجْ لنا مما تُنبتُ الأرضُ من بَقْلِها وقثَّائها وفُومها وعَدَسِها وبَصَلِها ، قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم !** } (البقرة : ٦١) على خلافٍ بين مفسرى القرآن فى أن "مصراً" فى هذه الآية من سورة البقرة ليست هى مصر البلد المعروف ، وإنما هى بمعنى " المصر " مفرد أمصار ، أى اهبطوا من تيه سيناء إلى بلدٍ من تلك البلدان التى تُنْبتُ أرضُها من الزروع ما اشتهيتموه ، فيكون لكم فيه ما سألتم ، لا مصرَ بالذات على وجه التحديد ، إذ كيف يُؤْمَرون بالعودة إلى مصر وقد أنجاهم اللهُ منها ؟ استند القائلُ بهذا إلى أن "مصراً" هذه التى جاءت مصروفةً فى هذه المرة الخامسة ، مُنَوَّنَةً بالألف نصبا ، على خلاف المرات الأخرى ، ليست هى مصرَ العَلَمَ المؤنثِ الممنوعَ من الصرف وجوبا ، وإنما اسمٌ معنويٌ مشترك ينطبق على "أى" بلد أو

قطر . وفات هذا المفسرَ وأضرابه أن هذا ليس بدليل لأن ما كان من العلم المؤنث على زنة " هنْد " أو" مصر" يجوز فيه الصرفُ لخفته ، وقد جاء بها القرآنُ على الوجهين . وإن كان الأشهرُ فى "مصر" هو المنعُ من الصرف . وفاته أيضا أن المصر والأمصار ليست من ألفاظ القرآن ، وإنما نُحتَت فى العربية بعد نزوله ، عصرَ الفتوح وتقطيع "الأمصار" أو " تمصير" الأمصار، أى تخطيط المدن الجديدة فى البلدان المفتوحة. وفاته أخيرا ـ بل قل فاته أولا ـ أن عبارة "فإن لكم ما سألتم" ليست من الله عز وجل على الاستجابة، فلم يَهبطْ موسى ببنى إسرائيل من التيه لا إلى مصر من الأمصار ولا إلى"مصرَ" نفسها التى خرجوا منها فراراً بأنفسهم ، بل قد مات هؤلاء العصاةُ فى التيه ، لم يخرجوا إلى غيره ، بل ومات فيه موسى أيضا . وإنما العبارة هى من الله عز وجل على التقريع ، أى : أتطلبون الدُّنيَّة وقد أكرمكم اللهُ بإنجائكم من فرعون ، وأنزل عليكم المَنَّ والسلوى ، وفَجَّرَ لكم الماءَ من الصخرِ عيونا ، تريدون البَقْلَ والقثَّاءَ والفوم والعَدَسَ والبَصَل مما كنتم تأكلون فى مصر؟ عودوا إلى مصر وفرعون إذن! أى عودوا إلى ما كنتم فيه صاغرين أذلّة، قد أذَلّتْكُم بطونُكم ، وليتشفَّ منكم المصريونَ اشتفاءَ.

وردت " مصر " إذن بهذا اللفظ خمسَ مرات فى كل القرآن . وليس فى أى منها كما رأيت تفسيرٌ لمعنى لفظة "مصر" على منهجنا فى هذا الكتاب .

ولكن القرآن المُعْجِزَ يفسِّرُ اسم مصر على الترجمة من المصرية القديمة فى أكثر من موضع ، أى بلفظة " الأرض" التى فى "تاوى" ، "تا ـ مرِى" ، "تا ـ كمْت" ، على الإبدال من " مصر " العربية العبرانية . يفعل القرآن هذا عامدا متعمدا ، إدلالا بعلمه وإعجازه ، ما أن تَعْلَمَ أن " مصر " بلغة أهلها اسمُها " الأرض" ، وتضعَ "مصر" موضعَ " الأرض" فى الآيات التى سأنتقيها لك توا ، حتى يستقيمَ لك معنى الآية على الوجه الصحيح ، الذى لا تملك أن تَعْدِلَ به غيرَه . وسبحان العليمِ الخبير ، الذى عَلَّم بالقلم، عَلَّمَ الإنسانَ ما لم يعلم .



وردت مادة " الأرض" فى كل القرآن ٣٥٩ مرة ، تَلْمَحُ فى بعضها اسم "مصر" وراء لفظة " الأرض" التى فى الآية ، أَتْرُكُ لك استقصاءَها فى مصحفك ،

ولكنى سأدلُّكَ على أحد عشر موضعا فى القرآن ـ غَيْرَ مُستَقصٍ ـ فيها الدليلُ القاطع على أن " الأرض " التى فى الآية إنما يُقْصَدُ بها اسم "مصر" صريحا ، وهى :

اولا : ثلاثةُ مواضع فى قصة "يوسف" :

ـ { **فلما استيأسوا منه خلصوا نَجِيًّا ، قال كبيرُهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبلُ ما فرطتم فى يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين**} (يوسف : ٨٠) ، قالها رأوبين بِكْرَ يعقوب حين استيأسوا من يوسف أن يرد إليهم أخاهم بنيامين الذى احتبسه يوسفُ معه فى مصر بتهمة سرقة صواع الملك ، أو يأخذ أحدَهم مكانه . وكان يعقوب حين أذنَ لهم فى اصطحاب بنيامين فى سَفْرَتهم الثانية إلى مصر يمتارون لأهليهم قد خَشِيَ على بنيامين من إخوته أن يفرطوا فيه مثلما فرطوا من قبل فى يوسف ، فأخذ عليهم موثقا من الله لَيَأْتُنَّهُ به إلا أن يحاط بهم {راجع يوسف : ٦٦} ، وتحدثك التوراة (تكوين : ٣٧ ـ ٣٨) بأن رأوبين تعهد لأبيه بسلامة بنيامين وقال له : أُقْتُلْ ابنى إن لم أَرُدُّهُ إليك . خشى أن يعود إلى أبيه فى فلسطين بغير بنيامين ، فأقسم ألا يغادر " مصر " حتى يأذن له أبوه ، أو يحكم الله له . ترى هل تستطيع إلا أن تضع "مصر" موضع " الأرض " فى عبارة رأوبين : " لن أبرح الأرض " ؟

ـ { **وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى ، فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال اجعلنى على خزائن الأرض ، إنى حفيظٌ عليم** } (يوسف : ٥٤ ـ ٥٥} ، وأنت تعلم بالطبع أنْ ليسَ للأرضِ خزائن ، وإنما الخزائن التى أقام المَلِكُ عليها يوسف هى خزائنُ مصر . "الأرض" فى هذه الآية يعنى " مصر " ، لا مجال للقول بغيره متى عَلِمْتَ أن مصرَ بلغة أهلها اسمُها "الأرض" .

ـ { **وكذلك مَكَّنَّا ليوسف فى الأرض يَتَبَوَّأُ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين** } (يوسف : ٥٦) . لا تستطيع أن تقول ان الله عز وجل مَكَّن ليوسف فى مطلق الأرض ، بل مَكَّنَ له فى مصر ، يَتَبوأ من مصرَ حيث يشاء . " الأرض" فى هذه الآية هى "مصر" بلا جدال.

ثانيا : ثمانيةُ مواضع فى قصة " موسى " :

- { وقال الملأ من قوم فرعون أتَذَرُ موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويَذَرَكَ وآلهتَك قال سَنُقَتِّلُ أبناءهم ونستحيى نساءهم وإنَّا فوقَهُم قاهرون } (الأعراف : ١٢٧) ، والفساد فى هذه الآية بمعنى الخلل والاضطراب ، وجاء بيان هذا الخلل والاضطراب فى قولهم "ويذرك وآلهتك " ، أى أن المخشى من موسى وقومه هو أن يفسدوا الرعية على فرعون وكهنة فرعون بإثارة الشك فى عباداتهم. وليس الفساد المقصود هو " العتو " فما كان بنو إسرائيل ليستطيعوه فى مصر ، بدلالة قول " فرعون " : " إنا فوقهم قاهرون " أى هم أذَلُّ من أن يستطيعوا له شيئا . " الفساد " هنا هو " إفساد " مصر على فرعونها وعلى آلهته " الأرض" هنا يعنى "مصر" .
- { قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياءُ فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين } (يونس : ٧٨) ، لم يستنكر آلُ فرعون أن تكون لموسى وهرون الكبرياءُ فى مُطْلَقِ الأرض بالطبع ، وإنما خشوا على الكبرياء التى لآلِ فرعونَ أن تؤولَ إلى موسى وهرون . الأرضُ فى هذه الآية يعنى مصر ، لا يصح القولُ بغيره .
- { فأراد أن يستفزهم من الأرض ، فأغرقناه ومن معه جميعا } (الإسراء :١٠٣) ، أى أراد فرعون أن يستفز بنى إسرائيل من مصر ، لا من مطلق الأرض . الأرضُ هنا يعنى مصر .
- { إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شِيَعًا } (القصص : ٤) ، الأرضُ هنا تعنىَ مصر بالاسم ، لا يصح لك القول بغيره . بل فى هذه الآية الدليل الحاسم على أن القرآن يعلم يقينا أن " الأرض " اسم من أسماء مصر بلغة أهلها ، وعلى أنه يستخدم " الأرض " فى موضع " مصر " ، وإلا لألزَمَك فقهُ اللغة العربية أن تَفْهَمَ عبارة " وجعل أهلها شيعا " بأنها تعنى " وجعل أهل الأرض شيعا " لعودة الضمير الذى فى " أهلها " على لفظة " الأرض " التى قبلها . وليس هو مقصود الآية ، وإنما مقصودُها "إن فرعون علا فى مصر وجعل أهل مصر شيعا " . الأرض فى هذه الآية اسمٌ لمصرَ بلا جدال .

- { **ونريد أن نَمُنَّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلَهم أئمة ونجعلَهم الوارثين** } (القصص ٥) ، أى أن نَمُنَّ على بنى إســرائيل الذين استضعفوا فى "مصر" لا فى مطلق الأرض . الأرض هنا اسمٌ لمصر .

- { **ونُمكِّنَ لهم فى الأرض ، ونُرىَ فرعونَ وهامانَ وجنودهُما منهم ما كانوا يَحْذَرون** } (القصص ٦) ، أى نمكن لبنى إسرائيل فى مصر ، لا فى مطلق الأرض ، بدليل قوله آنفا : "ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون" ، كل هذا فى مصر نفسها . الأرضُ هنا أيضا اسمُ لمصر .

- { **وقال فرعونُ ذَرونى أَقْتُلْ موسى ولْيَدْعُ ربَّه ، إنى أخاف أن يُبَدِّلَ دينكم أو أن يُظْهِرَ فى الأرض الفساد** } (غافر ٢٦) ، شاور فرعون ملأه فى قتل موسى ، خشيةَ الفتنة فى الدين الذى يسوسون به الدّهْماء ، فيختل نظامُ المُلك ، وهو معنى قوله " أو يُظْهِرَ فى الأرض الفساد " ، أى يُشيعَ فى مصرَ الخللَ والاضطراب . الأرض هنا اسمٌ لمصر .

- { **يا قوم لكم المُلكُ اليومَ ظاهرين فى الأرض ، فمن يَنصُرُنا من بأسِ الله إن جاءنا ؟ قال فرعونُ ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيلَ الرشاد** } (غافر ٢٩) ، استمر الحوارُ بين فرعونَ وملئه ، وانبرى لجدالِ فرعون ومقالته ذلك الرجلُ المؤمن من آل فرعون الذى شُهِرَ بين المفسرين باسم "مؤمن غافر" ، أى المؤمن الذى فى سورة غافر ، فَخَوَّفَهُم بسوء المآل وضياع المُلك، وحذّرهم الافتتان بما هم فيه : لكم المُلكُ اليومَ ظاهرين فى الأرض ، أى فى مصر ، فلم "يَظهُروا" فى غيرها . الأرضُ هنا أيضا اسمٌ لمصر "تا ـ مرى"، لا يَصِحُّ القولُ بغيره.

ليس فيما مرَّ بك مصادفاتٌ كما ترى ، بل هو قَصْدٌ مقصود . على أن القرآنَ المُعْجِز لا يَدَعَكَ تمضى دون أن يَنُصَّ تنصيصا فى الآية ٦١ من سورة البقرة على أن "الأرض" = "مصر" فى سياق الحديث عن الذين لم يصْبِروا فى التيه على طعامٍ واحد، فَطَلَبوا من موسى أن يدعوَ لهم ربَّه : { **فادعُ لنا ربَّك يُخرِجْ لنا مما تُنبِتُ الأرض** } ، فاستدرك عليهم موسى : { **أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم** } (البقرة ، ٦١) . الأرض فى أول الآية اسم مصر بلغة أهلها (" تاوى " أو " تا ـ مرى" أو "تا ـ كِمْت ") مُتَرْجما ، ثم

مُعَقِّباً عليه فى آخر الآية باسمها العربى الصريح : اهبطوا مصرا ، أى إن أردتم ما تُنْبِتُ مصرُ فاهبطوا مصراً ، لا يَصِحُّ أن يُقال ان " الأرض " فى الآية هى على أصلها بمعنى " التُّربة " ، فلم يُردْ بنو إسرائيل أى بقل وقثَّاء وفُوم وعَدَس وبَصَل ، وإنما أرادوا ما تُنْبِتُ "مصرُ " من هذا الذى أكلوه فى مصر واعتادوه ، وإلا لكانت عبارةُ " مما تنبت الأرض " حشواً يغنيكَ عنه قولُك : فادعُ لنا ربك يُخرجْ لنا البَقْلَ والقثَّاء والفُومَ والعَدَسَ والبَصَل .

لفظة " الأرض" حين يُراد منها "مصر" ، هى ترجمةُ من القرآن المعجز لمعنى اسم مصر بلغة أهلها على عصر موسى : " الأرْضَان" (تاوى) ، أو " أرضُ الأحِبَّة " أو "الأرض التى تُحَبُّ " (تا ـ مرِى) ، أو "الأرضُ السَّوادُ " التى تُنْبِتُ الزرعَ (تا ـ كمِت) . وسبحان العليم الخبير .

(٣٦) سيناء

سيناء في القرآن بُقْعَةٌ شَرُفَت من دونِ بقاعِ الأرض جميعا بأنها الأرضُ التي كَلَّمَ اللهُ عليها موسى تكليما ، كما شَرُفَ ترابُها من دونِ ترابِ الأرض جميعا بتجَلِّي الله عز وجل بنوره على جبلٍ ما في نواحيها فجَعَلَه دكًا : إنها وادٍ مُقَدَّسٌ بنص القرآن ، يكفيك في قداسته هذا الكلامُ ، وهذا التَّجَلِّي .

ومن المصريين اليوم من يَغْفَلُ عن هذا ، بل منهم من يفوتُه أنه قد كان في مصر مَوْلِدُ موسى عليه السلام ، وعلى صَفْحَةِ نيلها تَهادىَ به التابوتُ رضيعا ، وكان على أرضها مَبْعَثُهُ من سَيْناء ، وفي بحرها انشقَّ له البحر ، وكان في التيه مَحْياهُ ومَماتُه ، فَدُفِنَ في ترابِ سَيْناءَ لا يُعْرَفُ لهُ قبر .

صلواتُ اللهِ وسلامُه على جميعِ رُسلِهِ وأنبيائه، وعلى كُلِّ من تَبِعَهُم بإحسان.



قال عز وجل : { **وأنزلنا من السماءِ ماءً بقَدَرٍ فأسكنَّاهُ في الأرض ، وإنا على ذَهاب بِهِ لقادرون. فأنشأنا لكم به جناتٍ من نخيلٍ وأعناب، لكم فيها فواكه كثيرة ، ومنها تأكلون . وشجرةً تَخْرُجُ من طور سيناء تَنْبُتُ بالدُّهْنِ وصِبْغٍ للآكلين** } (المؤمنون : ١٨ ـــ ٢٠) .

وقال عز وجل أيضا: {**والتين والزيتون . وطور سينين**} (التين١ ـــ ٢).

هذان فحسب هما الموضعان اللذان ذَكَرَ القرآنُ فيهما اسم "سَيْناء" : ورد في الأول على ما شاعت به (سَيْناء)، وجاء في الثاني بلفظ"سِينِين" التي انفردَ بها القرآن . على أن "سيناء " لم ترد في الموضعين مُنفَرِدَة ، وإنما وردت في كلا الموضعين مضافاً إليها "الطور" وهو " الجبل " في العربية وفي الآرامية أيضا .

ليس المقصودُ فى القرآن إذن هو " سَيْناء " بالذات ، وإنما المقصودُ فى القرآن هو ذلك " الطور" الذى فى سيناء ، أو المنسوب إلى سيناء .

والذى ينبغى التذكير به أن الجغرافيين العرب حتى الثُلُث الأوّل من هذا القرن العشرين لم يقولوا قط " سيناء " منفردة فى تسمية ما هو معروف الآن باسم "شبه جزيرة سيناء" ، وإنما قالوا دائما فى تسميتها "طور سيناء" أو "طور سِينِين"، على ما وردت فى القرآن، تعميما لاسم هذا الطور المبارك على كُلُ شبْه الجزيرة، ولكننا فى هذا القرن نَتَعالم ، فَنُسْقِط فصيحَ العربية لنستبدلَ به رطانةَ الأجنبى Sinai المنقولةَ حُذْوَ النَّعْلِ بالنعل عن العبرية "سيناى" ، أى " سَيْنَاَء " ، كما قال بعضُ متعالمى الأساتيذ علَى ما مر بك من " تَفاصُحِهم" إن صحيحَ " قيصر" هى "سيزار" .



أما لفظةُ "طُور" العربية ـ الآرامية ("هار" العبرية) ، فهى عربيا تعنى مُطْلَقَ الجبل ، أو هى الجبلُ المُنْبتُ للشجر خاصةً . وعلى هذا الوجهُ يُفْهَمُ قولُ الله عز وجل : {وشجرةً تَخرجُ من طُور سيناء تَنْبُتُ بالدُّهْنِ وصِبْغٍ للآكلين } (المؤمنون : ٢٠) فى وصف هذه الشجرة بأنها شجرةٌ تَنْبُتُ فى سُفوح هذا الطور المبارك. وتفهم أيضا أنها شجرةُ " الزيتون" بالذات ، لأنك لا تَعْلَمُ فى النَّبْت شجرةً تُنْبتُ الدُّهْنَ وتُنْبتُ "الصِّبْغَ" معا (وهو الإدام يُؤْتَدَمُ به) إلا ثمرةَ الزيتون التى تُؤكَلُ إداماً وتُعْصَرُ زَيْتا ، لا خلافَ على هذا بين مفسرى القرآن . وتستذكر أيضا قول الله عز وجل يَضْرِبُ المثلَ لنوره : { **الله نورُ السموات والأرض ، مَثَلُ نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباحُ فى زجاجة ، الزجاجةُ كأنها كوكب دُرِّى ، يُوقَدُ من شجرةٍ مباركةٍ زَيْتُونة لا شرقيةٍ ولا غربية ، يكادُ زَيْتُها يُضىءُ ولو لَمْ تَمْسَسْهُ نار ، نورٌ على نور** } (النور : ٣٥) (١) .

وقد وردت لفظةُ " الطور" فى كل القرآن عشرَ مرات ، ستٌّ منها فى هذا الطور المعنى بالنص، طور سيناء أو طور سينين : (مريم : ٥٢ ، طه : ٨٠ ، المؤمنون : ٢٠،

(١) انظر تفسير القرطبى لهذه الآية وما قاله المفسرون فى وصف هذه الزيتونة المباركة بأنها " لا شرقية ولا غربية " وقولهم ـ وهو جيد ـ انها شجرةٌ فى صحراء ومُنْكَشف من الأرض ، لا يستُرُها عن الشمس ساترٌ من جهة الشرق أو من جهة الغرب، لا إلى هذا ولاً إلى ذاك ، وهو أجودُ لزيتها .

القصص : ٢٩ و ٤٦ ، التين : ٢) ، وثلاثٌ تُرَجِّحُ أنها فيه أيضا ، أعنى ذلك الجبل الذى " نَتَقَهُ " اللهُ فوق بنى إسرائيل (البقرة : ٦٣ و ٩٣ ، والنساء : ١٥٤) ، والعاشرة لا تشك أنها فيه أيضا ، الذى أقسم الله به : { **والطور . وكتاب مسطور**} (الطور : ١ ـــ ٢) .

ووردت " الطور" بلفظ " الجبل " ، أى نفس الطور المعنى ، ثلاثَ مرات { **ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك ، قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا** } (الأعراف : ١٤٣) ، { **وإذ نتقنا الجبلَ فوقهم كأنه ظُلة** } (الأعراف : ١٧١) .

ومن عجائب القرآن أنه يضع لفظة الغَرْبى موضع الطّور ، مُرادفاً مطابقاً له ، فى قوله عز وجل : { **وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر** } (القصص: ٤٤) يعنى إذ قضينا إلى موسى الرسالة ، ثم يكرر الغربى بلفظ الطور لا يَفْصِلُ بين القولين إلا آية : { **وما كنت بجانب الطورِ إذ نادينا** } (القصص : ٤٦) ، وكأن الغربيٌّ بذاتها وبمحضِ لفظها ، اسمٌ موضوعٌ لهذا الطور المبارك .

وقد ظن بعض المفسرين (راجع تفسير القرطبى لهاتين الآيتين) أن " الغَرْبِيَّ " خلاف " الطور"، فقالوا إن الطور هو موضع المُناداة الأولى (ليلةَ آنَسَ موسى من جانب الطور ناراً فأراد أن يقتبس) ، أما " الغربيُّ " فهو موضعُ إنزال التوراة وتلقى الألواح فى مُواعَدَةِ موسى ثلاثينَ ليلةً أَتَمَّهُنَّ بعشر . ولا يصح هذا الذى قاله المفسرون ، لقول الله عز وجل فى تعيين موضع المُواعدة : { **يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدِّوكم وواعدناكم جانبَ الطورِ الأيمنَ** } (طه : ٨٠) ، فجانب الطور الأيمنُ إذن وجانبُ الغربى سواء ، والغربيُّ والطورُ واحد . وقد حار أيضا مفسرو القرآن فى وصف هذا الجانب من الطور بأنه " الأيمن " التى جاءت فى كل القرآن ثلاثَ مراتٍ فقط ، كُلُّها فى وصف جانب هذا الطور أو شاطئه ، والجانب والشاطىء واحد ، ثم وَصْفِه بأنه "الغربِّى" ، التى وردت فى كل القرآن مرةً واحدة فقط ، هى فى اسم هذا الطور المبارك أو جانبه ، فقالوا إن الجبال لا يَمينَ لها ولا يَسار، ولا غَرْبَ ولا شَرْق ، وإنما هو الذى على يمينِ موسى ، وإلى الغربِ من موسى .

والذى لم يعلمه هؤلاء المفسرون ، وما كان لهم بالطبع هم والخلق أُجْمَع أن يعلموه قبلَ أواسط القرن الماضى وأوائل هذا القرن العشرين ، وعَلِمَهُ الذى هو بكل شىءٍ عليم ، أن القرآن ها هنا يُرادفُ بين الأيمن والغربى إدلالاً بإعجازه ، وتدليلا على بالغِ فقهه باللغة المصرية القديمة ، لغة " شبه جزيرة سيناء " على عصر موسى ، لأن اليمين عند المصريين القدماء هو " الغرب" ، يعبرون عنهما بلفظٍ واحد : أمنت (قارن فى المصرية القديمة "وِنِمى" يعنى اليد اليمنى) ، واليسار عندهم هو " الشرق " يعبرون عنهما بلفظٍ واحد : يَابت (قارن فى المصرية القديمة "يابى" يعنى اليد اليسرى) ، على خلاف ما نفعل نحن الآن فى تعيين الجهات الأصلية الأربع : نستقبلُ الشمال ونستدبرُ الجنوب فيكون الشرق على اليمين والغرب على اليسار ، وكأنهم كانوا يستقبلون الجنوب (١) ويستدبرون الشمال ، فيكون الغرب على اليمين والشرق على اليسار . والغروب كما تعلم هو أفول الشمس واحتجابها وراء الأفق ، فاشتق المصريون معنى "الغرب " من الجذر المصرى أمن وهو فى لغتهم بمعنى الاختفاء والاحتجاب ، ومن هذا المعنى أيضا اشتق المصريون اسم معبودهم " آمون " (أو بالأحرى " آمان" كما نطقها البابليون على ما مر بك) الذى معناه المُحْتَجِب أو " الغربى" صيغةُ المذكر من أمنت يعنى الغرب أو الغربى ، أو هو " الغارب " ، فعلّ الشمس التى تأفل فى الأفق الغربى فتختفى وتحتجب : إنه الظاهر والباطن ، الذى يُشْرِق ويَغْرُبَ ، ومع ذلك فهو دائم الوجود ، دائمُ الفَيض ، عميمُ النعم . ومن هنا تَلْمَس فى " شِرْك المصريين " أصلاً قديماً من التوحيد ، ولكن الكهنوت يَرْمُزُ فيَطْمِس . ثم يُعَدِّدُ فيُفسِدُ ويُضِلُ . مثلما استولد " رَع " أى الشمس ، من الإله الخَفِىِّ المحتجب " آمون " ، وليس " آتون " أى قرص الشمس ، عن هذا ببعيد .

وربما قلت إن هذا الجبل " الغربى " الذى فى سيناء كان عند المصريين القدماء أيضا جبلا مقدسا ، ينسبونه إلى آمون "الغَرب" أو "الغربِّى" على ما مر بك . ولكن ليس لديكَ دليلٌ على هذا من المصرية القديمة ، أو مما عُرِفَ من المصرية القديمة .

---

(١) نظير هذا قولك فى مصر " الجهة القبلية " تُريد الجنوب ، حيث بيتُ الله الحرام فى مكة ، "قبلة " المسلمين أجمع ، وهى فى مصر إلى الجنوب من المُصلى . وربما استدبر المصريون القدماء الشمال واستقبلوا الجنوب ، حيث توجد "طيبة " مركزُ عبادَةِ " آمون " .

على أن فى القرآن إشارةً إلى هذا فى قول الله عز وجل يخاطب موسى : { **إنّى أنا ربُّك فاخْلَعْ نعْلَيْكَ ، إنك بالوادى المقدس طُوًى** } (طه : ١٢) ، وكأنَّ هذا الوادى المبارك تَقَدَّسَ من قبلِ أن يَطَأَهُ موسى ، أعنى تَقَدَّسَ فى ماضٍ بعيدٍ فى القرون الأولى ، يومَ كانت مصرُ قبل شِرْكِها بلداً مُوَحِّدا يَعْبُدُ الواحدَ الأحد . وربما كانت "طُوًى " هذه اسما من المصرية القديمة لهذا الجبل ، وربما كانت " طُوىً " على ما قال المفسرون لهذه الآية (راجع القرطبى) عربيةً من الجذر " طَوىَ " بمعنى " مَرَّتَيْنِ " ، فيكون المعنى : الذى تَقَدَّسَ الآن ، وتَقَدَسَ من قبل .

والذى يجب أن تعلمه أن من أسماء الجبل الذى فى سَفْحِه زَرْعٌ فى اللغة المصرية القديمة ، لفظةٌ تُرْسَمُ فى الهيروغليفية "ضو" ، وتُنْطَقُ فى القبطية " تُوُو " Toou وربما كان الأصل البعيد فى المصرية القديمة هو " ضُوَا " أو " طُوَا " .

وسبحان علام الغيوب .



لا يعرف علماءُ المصرية على التدقيق اسماً فى تلك اللغة موضوعاً على التخصيص لشبه جزيرة سيناء بحدودها المعروفة الآن ، وإنما الذى يعرفونه من اللغة المصرية القديمة هو لفظة " شَاسُو" ، عَلَماً على هذه الصحراء التى تَرْبِطُ مصرَ بجيرانها فى الشرق ، أى بالشام . والراجح أن المصريين ما كانوا يُفَرِّقُونَ بين الصحراءِ " شَرْقِىِّ السويس " ، وبين الصحراء " غَرْبِيِّ السويس " ، فلم تكن ثَمَّةَ قناةٌ تفصلُ ضفتاها بين الصحراوين ، بل كانتا معا صحراءَ واحدةً ممتدة ، تذهب فيها وتجىء جماعاتٌ من البَدْوِ الرُّحَّل ، أسْمَوْهُم بنفس هذا الاسم أيضا " شاسو " من الجذر المصرى " شِس" بمعنى ذهب ورحل ، وهم الذين نسميهم نحن الآن " بَدْو سيناء " .

ولا يعرفُ علماء اللغة المصرية القديمة أسماءَ بتلك اللغة لمواقعَ داخلَ شبه الجزيرةَ يَتَقارَبُ نطقُها مع " سيناء " العربية أو "سيناى " العبرية ، يمكن أن يُنْسَبَ إليها الطُّورُ المبارك ، بل إن " جبل موسى " ـ " حُوريب " فى التوراة ـ ليس مقطوعاً على وجه اليقين بأنه هو بالذات الجبلُ المعنى .

والذى يعنينا بالدرجة الأولى فى هذا الكتاب هو تفسيرُ لفظة "سيناء " ، لا تعيينُ موقعِ ذلك " الطور " الذى فى سيناء ، أو المنسوب إلى سيناء .



فى قراءة "سيناء" وجهان : الأول بفتح السين سَيناء، على قراءة الكوفيين ومنها قراءة "حَفْص" التى يَقرأ بها المصريون فى مصاحفهم ، والثانى بكسر السين ، سِيناء ، فى قراءة غيرهم . وهو يُقارِبُ النُّطْقَ الدارجَ فى العامية : سينا ، بالقصر بدل المد ، وبكسر السين لا بفتحها . وهذا يذكِّرُكَ بلقب الفيلسوف العربى العَلَم : "ابن سينا" .

ومن المصريين من يتفاصح فيلزِمُكَ بفتح السين فى " سَيْناء " ، مُخَطِّئاً إياك فى كسرها ، وإنما هو انحيازٌ لإحدى القراءتين فحسب . والراجح عندى أن كسر السين فى سِيناء أصوبُ وأفْصَح ، لقوله عز وجل على الإبدال من "سيناء " : سِينين ، فى الآية ٢ من سورة التين " والتينِ والزيتون . وطورِ سِينين " ، وكَأَنَّ أصلَ الاسم سِين ، جاء بصورة جَمْعِ السالم المذكر مجروراً بإضافة الطُّور إليه : سِينين . أو هو مُفْرَدٌ على أصله جُرَّ بالكسر منَونًا ، أى سِينٍ مع إشباع الكسرة قبل التنوين فتؤول الكسرة إلى الياء : سِينين ، على المُجانَسة مع رؤوس الآيات فى سورة " التين " ، كما قال عز وجل : {**سلام على إلْ ياسين**} (الصافات : ١٣٠) ، والأصل إلياس .

وقد جاءت " سين " هذه فى التوراة عَلَما على بَرِّيةٍ فى صحراء سيناء : " مدْبار سين " (النص العبرانى : خروج ١٨٦) ـ و " مِدْبار" عبريا يعنى البَرِّيةَّ ـ يُطْلِقُهُ شُرَّاحُ التوراة على صحراءَ غربىَّ جبلِ سيناء باتجاه الساحل الشرقى لخليج السويس الذى عَبَرَهُ بنو إسرائيل وغَرِقَ فيه فرعون وجنوده ، ومن شُرَّاحِ التوراة من يقول إن " سيناى " أى جبل سيناء ، هى صفةٌ على النسب إلى "سين " ، فهو الجبل السِّينى ، أو جبلُ سين، يعنى الجبلُ الذى فى بَرِيَّة " سين " . والعبرانيون لا يقولون " هارسيناى " أى جبلُ سِيناى ، يعنى الجبل السِّينى، وإنما يقولون اختصارا "سِيناى" أى "السِّينى" ، يعنون الجبلَ نفسَه لا المكانَ المنسوبَ إليه . أما "سيناى " فى العبرية المعاصرة فهى عَلَمٌ الآن على شِبه الجزيرة كَمه ، مأخوذٌ من اسم هذا الجبل المقدس، لا من بَرِيَّة "سين".

أفتكون "سين " هذه عبرية ؟ علماءُ التوراة على هذا كدأبهم فى " الاختصاص" بتسمية المواقع والأعلام بلغتهم هم وإن لم يكن لهم بها عهد ، أو انتحالِ التسميات من لغتهم هم مهما كانت ظاهرةَ الافتعال. دليلُكَ فى هذا أنهم لا يجدون فى لغتهم ما يشتقون منه "سين" هذه، فيقولون إنها من الآرامية ، ومعناها " الطين " ، فيكون معنى "سيناى" هو الجبل الطينى، أو جبل الصلصال . فتندهش كيف جاء الآراميون إلى هذا المكان فأسْمَوْهُ بلغتهم فى غفلةٍ من المصريين أصحاب الأرض؟ على أن فى اللغة المصرية القديمة أيضا "سين " بنفس المعنى ، الطين أو الصلصال ، فتفهم أن العبرانيين أخذوا " سين " بمعنى الطين والصلصال من المصرية القديمة رأسا ولم يأخذوها من الآراميين .

بل من اللغويين أيضا من قال بأن "سين " هذه بابلية ، اسما من البابلية لمعبودهم "سين " الإله القمر ، وأنَّ سيناء كانت موضعا لعبادة القمر . وهذا بعيد .

وربما شجع هذه المقولة أن " السَّنا " عربيا يعنى ضوء القمر ، أخذوها من مفسرى القرآن الذين حاولوا تفسير "سيناء " بالسَّنَا والوَضَاءة ، فالتقطها كدأبهمُ المستشرقون .

ومن علماء التوراة من يَظُنُّ أيضا أن "سين " هذه منسوبة إلى "سِنِى " العبرية (بكسر السين والنون ، والياءُ خاملة ، وظيفتُها إشباعُ كسرةِ النون ، أعنى أن الياء فيها تُنطَقُ ألفاً مُمالة ، كما لو نَطَقْتَ بالفرنسية Séné) ، وهو فى التوراة اسمُ الشجرة التى نُودى منها فى البقعة المباركة بشاطىء الوادى الأيمن : { **فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة** } (القصص : ٣٠) ، تَنُصُّ الآيةُ على " الشجرة " ، ولا تُبَيِّنُ ما هى . ولم يهتدِ علماءُ التوراة إلى أصلٍ عبريٍ فى اشتقاق" سِنِى" هذه يُجمِعُونَ عليه . قالوا ربما إنها من الجذر العبرى "سَنَنْ " ـ مكافىء "سَنَّ " العربى ـ بمعنى شَاكَ وأَحَدَّ وسَنَّن، فهو نَبْتٌ شوكيٌّ ذو أشواك، وانتهى المترجمُ العربى للتوراة إلى أنها شجرةُ العُلَّيْق . والعُلَّيْقُ كما تعلم أنواع ، منها "تُوت العُلَّيْق" ، وهو الفرامبواز ، Framboise فى اللغة الفرنسية ، و Raspberry فى اللغة الانجليزية . وعلماءُ النباتِ العرب يقولون لك إن هذا الفرامبواز ليس أصيلا فى بلادنا ، ناهيك بأن يكون أصيلا فى سيناء ، وإنما هو مستورد ، النَّبْتُ واسمُه ،

لايَصحُّ أن يكون على عصر موسى عليه السلام . ولكن المعجم العبرى الحديث لألفاظ التوراة " هَمِّلُون هحَداش لَتَناخ " (وهو من مراجع هذا الكتاب) يَنُصُّ فى تفسير "سِنِى" على أنه الفرامبواز ، فيقول فى تفسيره : سِيح پِطِل قَدُوش ، يعنى شجيرة الفرامبواز المقدسة ، ونسيجُ العبارة العبرية ذاتُه يُوحى لك بالتكلف والافتعال، لأن "پِطِل" العبرية هذه بمعنى " فرمبواز " ليست عبرية ، أعنى أنها ليست من عبرية التوراة ، وإنما هى من العبرية المستحدثة ، استحدثوها بعدما رأوا الفرمبواز فى أرض الشَّتات وأكلوه . وإضافةُ صفة " المقدسة " إلى تلك الشجيرة ، " قَدُوش" ، يَدُلُّكَ على أن هذا النَّبْتَ المقدس المسمى فى التوراة ، نَبْتٌ يُوجَدُ فى الذهن والتصور ، ولا يوجد فى الطبيعة ، فلا يأكل منه الناس ، وهذا هو الواقع ، فلا وجودَ لنَبْتٍ فى العبرية باسم "سِنِى" إلا فى التوراة . لهذا تَحَرَّزَ المعجمُ الثنائى عبرى ـ فرنسى " لاروس" من تفسير "سِنِى" بلفظ الفرمبواز على التعيين ، وإنما قال : Buisson d'epines أى شُجَيْرَةُ أشواك ، لا يحدد ما هى . كذلك تحرز المترجم الانجليزى للتوراة ، بل كان أشدَّ تَحَرُّزا ، فى ترجمته "سِنِى" ، فاكتفى بقوله Bush أى " شجيرة " ، لا يزيد . والقرآن على هذا كما مر بك : إنها الشجرة لا يسميها ولا يحدد ما هى . وهذا من إعجاز القرآن كما سترى ، الذى لم يلتفت إليه المفسرون الذين خاضوا فى تعيين اسم الشجرة (راجع تفسير القرطبى للآية ٣٠ من سورة القصص) ، فقالوا " سَمُرة " " عُنَّاب" ، "عَوْسَج" ، " غرقَد " ، بل قالوا " شجرة العُلَّيْق" بالنص ، متابعةً لعلماء أهل الكتاب ، ثم استراحوا لتفسيرها بالغرقد ، استئناسا بحديث النبى صلى الله عليه وسلم الذى خَرَّجَهُ مسلم فى صحيحه وجاء فيه أن الغرقد من شجر اليهود : " فإذا نزل عيسى وقتل اليهود الذين مع الدجال فلا يختفى أَحَدٌ منهم خلفَ شجرةٍ إلا نطَقَت وقالت يا مُسلِمُ هذا يهودىٌّ ورائى ، تعالَ فاقْتُلْه ،إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود ، فلا يَنْطِق" . وليس هذا الحديثُ على صحته بحُجةٍ للغرقد كما ترى ، إذ ليس لشجرةٍ بُورِكَتْ من الله عز وجل : { **فلما جاءها نودى أن بُورِكَ مَنْ فى النار ومَنْ حولها** } (النمل : ٨) أن يَخْرُجَ من بِذرتها ظَهِيرٌ للذين ظلموا .

هذا مُجْمَلُ ما قيل فى "سيناء " شرقاً وغربا .وهو كما رأيت لا يَصْمُدُ للنقد ، ولكنك تعود فتقول إن اسم بَرِّيَّةِ سِين الذى فى سفر الخروج لم يأتِ من فراغ : إنه اسم

البقعة التى يوجد بها الطورُ المبارك ، وإليها يُنْسَب . ولكنه كما كانَ عليكَ أن تَفْتَرِضَ من قبل ، عَلَمٌ على أرضٍ بلغة أصحاب الأرض .



ليست "سِنِى" العبرية هذه بعبرية ، وليست هى أيضاً عربية ، وإنما هى مصريةٌ هيروغليفية . ليست هى العُلَّيْق أو القرامبواز ، وليست هى أيضا بالعُنَّاب أو السَّمُر أو العَوْسَجِ أو الغَرْقَد كما تكلَّمَ فيها مفسرو القرآن ، وليست أيضا من السُّنا والوَضاءة على النسبة إلى القمر كما قال مستشرقون يتكئون على أهل التفسير الأوائل . ولكن "سِنِى" هى كما قال القرآن ، مُطْلَقُ الشَّجَرة .

ومطلق الشجرة فى المصرية القديمة هو " شِنْ " يصطلح علماءُ تلك اللغة كما مر بك على نطقها مكسورةَ الشين ساكنةَ النون ، لا يَجزمون .

والعبريةُ كما مر بك تُخالفُ بين الشين والسين : ما كان بلغة غيرِهم شيئاً قَلَبُوهُ إلى السين ، والعكس ، فلا تَستبعدُ أن ينطقوا " شِنْ " المصرية القديمة هذه "سِنْ " وتجىء منها فى التوراة "سِين " اسمُ تلك البَرِّيَّة ، " سِينِى" اسمُ ذلك النَّبْت .

وتَحَرَّفَ هذا وذاك على شُرَّاح التوراة ، فظنُّوا "سِنِى" من "سنَا " العبرية بمعنى الشوكة ، وأخذوا "سِين" اسم تلك البَرِّية ، من "سِين" الآرامية بمعنى الطين .

وأنت لا تتصور بالطبع أن تكون شبهُ جزيرةِ سيناء على عصر موسى مَفَازَةً بلا أعلام ، وإنما أنت تقطع بأنه قد كان فى شبهِ الجزيرة قبلَ عصرِ موسى بقرونٍ لا يعلمُها إلا الله مواقعُ ومنازل سَمَّاها أصحابُ شبهِ الجزيرةِ بلغتهم هُم ، لا ينتظرون عُبُورَ بنى إسرائيل إليها من "بحر القُلْزُم" (خليج السويس) ليُسمُّوها بلغتهم العبرية ، شأنَ الرَّحالة الأوروبيين فى عصرِ الكُشوف الجغرافية . بل قد كانت للمصريين فى سيناء محاجرُ ومناجم ، وكانت لهم فى سيناء مخافرُ وشرَطُ حُدود ، وكانت لهم عَبْرَ سيناء حملاتٌ وغَزَوات ، ولا يحدثُ هذا كُلُّه على مدارِ التاريخ دون أن تكونَ فى سيناء مواقعُ ومنازل أسماها المصريون أنفسُهُم قبلَ مجىء بنى إسرائيل إلى مصر فى ضيافة يوسف بإذنٍ من ذلك الملك الذى جَعَلَهُ على خزائن الأرض .

وأنت لا تتصور بالمثل أن تكون سيناء كُلُّها صحراء لا نَبْتَ فيها ولا زَرْع، وإلا لَخَلَت على مدى التاريخ من بدوٍ يَغدون فيها ويروحون فى طَلَبِ الكلأ والمَرْعَى .

ولكنك تعلم اليوم ـ بل وترى رَأْىَ العين ـ أن المطرَ ربما هَطَل على مواقعَ فى شبه الجزيرة سُيولا ، هى المَدَدُ لتلك المياه الجوفية التى يَسْلُكُها البارى عز وجل ينابيعَ فى الأرض ، ثم تَتَفَجَّرُ منها حيث يشاءُ سبحانَه العيونً والآبار ، ومنها ـ وهو الذى يعنينا هنا ـ " عيونُ موسى " فى جنوبى شبه الجزيرة قُبالةَ خليج السويس ، حيث عَبَرَ بنو إسرائيل . لا تَخْلُو سيناءُ إذن من واحاتٍ مُخْضَرَّة ، ولا تَخْلُو بالأخص من نخيلٍ وزيتون .

ولكن سفر الخروج (الفصل ١٦) يقول لك إن بنى إسرائيل عبروا البحرَ فبلغوا "برِّية سين " بعد خمسة عشر يوما من عبورهم بحر القُلْزُم (خليج السويس) ، فأعوزَهُم فى تلك البرية الماءُ والطعام ، وتذمَّروا على موسى وهرون : " ليتنا متنا بيد الرب فى أرض مصر ، إذ كنا جالسين عند قدور اللحم ، نأكلُ خبزا للشبَع ، فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكى تميتا كل هذا الجمهور بالجوع " (خروج ١٦/٤) .

فكيف يجوز تسميةُ القفر باسم "سين" على معنى " الطين " آراميةً أو مصرية ؟ بل كيف يجوز تسميةُ هذا القفر باسم "سين " المتحوِّرة عن " شنْ " الهيروغليفية ـ كما نقول نحن ـ على معنى " الشجرة " ؟ أفى القفر ثَمَّ طينٌ أو شجر ؟

الذى أقول به أنا هو أن "سين " هذه ليست منسوبةً إلى طينتها أو شجرها ، وإنما هى بالأحرى منسوبةٌ إلى هذا الجبل المبارك ، الذى تنتهى عنده تلك البرية فى وادٍ مقدس ، فى سفحِ "طور" يُنْبِتُ الشجر .

والصفةُ على النِّسَب تجىء فى الهيروغليفية ـ مثلما تجىءُ فى العبرية والعربية ـ بإضافة الياء فى آخر الاسم المنسوب إليه ـ غير مُشَدَّدة ـ فتقول بالهيروغليفية شِنى (من شِنْ) تُريدُ الأشْجَر ، ذو الشجر . وليست " شِنِى " الهيروغليفية هذه عن "سِنِى" العبرية ببعيد .

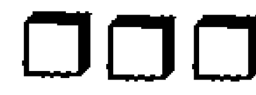
ومن هنا تُفْهَمُ عبارةُ سفر الخروج فى النص العبرانى : "مِتُّوخْ هَسِّنى " (خر ٣/٤) لا على أنها " من وَسَط العُلَّيْقَة " كما قال المترجم العربى ، ولكن على أنها "من وَسَطِ الشجرة " كما قال القرآن : { **فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة** } (القصص : ٣٠) ، أى نودى من الشجرة التى فى شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة ، أى الوادى المقدس "طُوَى" . وشاطىءُ الوادى الأيمن يعنى شاطىء الوادى من جهة الغرب ، أى الشاطىء الغربىّ كما

مر بك ، لا حاجة بك إلى القول كما قال المفسرون الأوائل بأنه الذى على يمين موسى أو إلى الغرب من موسى : إنه الشاطىءُ المواجهُ لبرِيَّةِ "سين" الواقعة بين غربيِّ الطور المبارك وبين شرقىِّ خليجِ السويس .

على هذا يكون معنى " طُور سيناء " هو : طور الشجْراء ذاتِ الشَّجَر ، أو هو "طُورُ الشَّجَرَة " المَعْنيَّة ، لا أكثرَ ولا أقل .

والقرآنُ ـ على منهجه فى التعريب ـ يأتى بـ "سيناى " العبرية على العَلَمِيَّةِ التى ثَبَتَت لها فى التوراة ، فيقول "سيناء " ، ولكنه يَعْلَمُ ما لم يَعْلَمْهُ شُرَّاحُ التوراة ، وهو أن سيناء بلغة أصحابِ الأرض أصْلُها من "الشَّجَر" فَيُرادف بين الشجرة وبين "سيناء" فى قوله عز وجل : { **وشجرةً تَخرجُ من طُور سيناء** } (المؤمنون : ٢٠). وسبحانَ العليم الخبير .

وقد مرَّ بك ما قلناه فى تفسير عدول القرآن عن "سيناء " إلى "سِينين " فى الآية ٢ من سورة التين ، فلا نَعودُ إليه .



أما ما هى تلك الشجرة ـ والله عز وجل بغيبه أعْلَم ـ فنحن نُرَجِّحُ أنها شجرةُ الزيتونِ بالذات ، استدلالا بوصفه عز وجل تلك الشجرة "التى تَخْرُجُ من طور سيناء" بأنها "شَجرة تُنْبِتُ بالدُّهْنِ وصِبْغ للآكلين" ، ولا يَصحُّ الجمعُ فى الإنبات بين هذا وذاك إلا فى ثمرة الزيتون ، واستئناسا أيضا بالترادف بين " الزيتون " وبين " سينين " فى قوله عز وجل : { **والتين والزيتون وطور سينين** } (التين : ١ ـ٢) ، وجمعا بين قوله عز وجل فى إحلال البركة على تلك الشجرة التى فى سيناء : { **فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها** } (النمل : ٨) ، وبين قوله عز وجل فى ضرب المثل لنوره : { **المصباحُ فى زجاجة ، الزجاجةُ كأنها كوكبٌ دُرِّى ، يُوقَدُ من شجرةٍ مباركةٍ زيتونة** } (النور : ٣٥) .

وقد مر بك أن سيناء لا تخلو من نخيلٍ وزيتون ، ولكنها بالقطع ـ عصرَ نزولِ التوراة على الأقل ـ كانت تخلو البَتَّة من تُوتِ العلَّيْق أو القَرامبواز ، على خلافِ ما ذَهَب إليه أهلُ الكتاب ، أصحابُ التوراة .

وسبحان علام الغيوب ، لا يَعْزُبُ عن علمه مثقالُ ذَرَّةٍ فى السموات والأرض .

(٣٧) التوراة

" التَّوراة " ، فى القرآن ، تعريبٌ مُفَسَّرٌ للفظة " تُورا " العبرية ، اسم الكتاب الذى أنزل اللهُ على موسى .

وتُنطَقُ " تورا " العبرية مَدّاً بالألف بعد الراء ، حين تَنفَرِد ، وتُزادُ فيها التاء حين تُضاف إلى مضافٍ إليه ، فتقولُ بالعبرية " تُوراتْ موشِيه " ، وتعنى " تَوراةُ موسى" . أما إن أضَفتَ إلى " تورا" أداةَ التعريف العبرية " ها " ، فأنت تَنْطِقُها " هَتُورا " ، تُريد " التوراة " مُعَرَّفَة بالألف واللام .



وقع فى وَهْمِ الذين لا يعرفون العبرية من المتعالمين فى المجتمع المسلم ـ الذين يأنَفُون أو يَفْرَقُون من إعمال المسلمين القرآنَ دستورا لهم فى مجتمعاتهم ـ أعنى هؤلاء العلمانيين المُتَأوِّربين فى المجتمع المسلم الذين يَكدُّون الذِّهْنَ فى تأصيلِ مقولة المُباعَدَة بين القرآن والسياسة وتسويدِ الصحائف فى إفلاس " الإسلام السياسى " ـ وقع فى وَهْمِ هؤلاء أن " تُورا " العبرية ، أى التوراة ، معناها بمحض لفظها العبرى " الشريعة " ، أما القرآن فهو كتابُ هُدَى ورحمة ، لا يَصحُّ أن تَتخَّذَ منهُ دستورا . يُريد هذا الكاتب إفتاء المسلمين بألا حرجَ عليهم فى المُباعَدَة بين القرآن والسياسة فى مجتمعهم لأن القرآنَ كتابُ هدايةٍ وإرشادٍ فحسب ، ليس بشريعةٍ كالتوراة . وربما تَفَكَّهْتَ معه فأَوْجَبْتَ عليه بحكم منطقه هذا أن يتصدى لإفتاء يهودِ هذا العصر بأن يُعْمِلوا التوراةَ فى السياسة لا يحيدون عنها إلى غيرها ، لأن التوراة هى الشريعة .

وليس هذا بشيءٍ كما سترى ، وإنما بَنَى الكاتبُ مقولَتهُ على ما وَجَدَه فى بعض معاجمه الفرنسية أو الانجليزية التى تُفَسِّرُ لفظة " تُورا " بلفظة Loi الفرنسية ولفظة

Law الانجليزية . وهو تفسيرٌ يأخذ لفظةَ " تُورا " لا بأصلِ معناها في العبرية ، وإنما بما آلت إليه عند بني إسرائيل الذين اتخذوا من توراتهم شريعةً لهم ، شأنّها شأنُ القرآنِ نفسه مع هؤلاء المسلمينَ أنْفُسهم منذُ نزوله وحتى انهيار الخلافة العثمانية في أوائل هذا القرن العشرين ، أساءوا التطبيقَ أم أحسنوا . يكفي أنْ قد كان لهمُ القرآنُ إماما ، ويكفي أنك تُحاسبُهم بهذا القرآنِ نَفْسه حينَ أساءوا : تعيبُ التطبيقَ ولا تعيبُ الأصْل ، تتهمُ المُؤتَمَّ ولا تتّهمُ الإمامَ ، فتنتقدُ نفسَك ولا تنتقدُ قُرآنَك ، أنَ أسأتَ الفَهْمَ عنه أو عَبَثت بكَ أهواؤك ، أو خُومِرتَ في عقلك فأردت التحلُّلَ منه ، تَلتمسُ الهُدى عند من أضَلُّوكَ عنه ، الذين فُتِنْتَ بهم منذُ اقتحموا عليك أرْضَك ، فأفسدوا عليك عَقْلَك ، وأفسدوا عليك إسلامَك .

ليس لمسلمٍ خيارٌ إلا اتباعُ قرآنه ، إن أراد أن يَظَلَّ مُسلماً بفكره ، مسلما بقلبه، مسلما بيده ، مسلما بلسانه ، لا مُسْلماً ببطاقة هُوِيَّته فحسب ، فما ذَلَّ المسلمونَ في بلادهِمُ اليوم وبالأمس ، إلا لأنَّهُمُ ارتَضَوُا الدَّنيةَ في دِينهم ، وتخاذلوا فسكتوا عَمَّنْ لَغا في هذا القرآن من ذواتِ أنفسهم ، حتى نَبَحَتِ الإسلامَ كلابُه .

وقد أخطأ الإسلاميون في هذا القرن ، وأخطأ معهم أمثالُ هذا الكاتب العَلْماني[1] ، الذين خلطوا بين التشريع والشريعة : أراد الإسلاميون من القرآن ، واشترط العلمانيون على القرآن ، يتوهَّمون تعجيزَه ، في صدورهم كِبْرٌ ما هم ببالغيه، أن يكون القرآن بذاته مجموعةً جاهزةً من الأحكام القانونية . وإنما القرآن "شريعة" ، والشريعةُ "دستور" ، والدستورُ "ضوابطُ" تحكم مسيرةَ المجتمع كله ، كما تَحْكُمُ الاشتراعِ والتشريع ، إنه الحاكمُ الضابطُ الموجِّهُ لما يَصْدُر في المجتمع المسلم من قوانينَ وتشريعات، يَحْكُمُ مُنْطَلَقاتِها وأهدافَها ، شأنُهُ شأنُ أيِّ دستورٍ آخر، تَسَفَّلَ أو تَسامَى.

فهل آن للمسلمين اليوم أن يثوبوا إلى مقالةِ نبيِّهم صلى الله عليه وسلم : "أيها الناس ! إن لكم معالم ، فانتهوا إلى معالمكم !" ؟ وهل "معالمُ" المسلمين في كل عصرٍ وكُلِّ زمن إلا هذا القرآن ؟ ألم يَحِنْ للمسلمينَ اليومَ أن يتخذوا من قرآنهم دستورا ؟

(1) " العَلْمانيُّ " نسبةٌ إلى " العَلْم " مفتوحَ العَيْن ساكن اللام ، أي هذا العالَمُ الذي نعيشه ، أي هذه الدنيا ، فهو " الدنيوي " ، تَرجمة عن اللاتينية secularis وهي لفظة كنسية دخيلة على المجتمعِ المسلم ، تفرقُ في المجتمعات المسيحية بين ما هو كَهنوتٌ وغير كهنوت ، وهي اليوم اصطلاحٌ يَرْمُز إلى الذين يفصلون بين الدين والسياسة . ليست هي من " العِلْم " مكسور العين كما توهَّم الذين لا يعلمون ، أو كما يُوهِمُكَ المُضَلِّلون كي تَحْسَب أن الفَصْل بين الدين والسياسة مقولة " علِمية " .

أمَّا أنَّ القرآنَ كتابُ هداية وإرشاد ، فنعم . ولكن ، هدايةٌ وإرشادٌ إلى ماذا ، وإلى أين ؟ هذا هو الذى فات الكاتب . غَفَرَ اللهُ لنا وله ، وهدانا وإياهُ جميعا إلى صراطه المستقيم: {**وأنَّ هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه، ولاتتبعوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بكم عن سبيله، ذلكم وصَّاكم به لعلكم تتقون**} (الأنعام : ١٥٣).

وأمَّا الذى تَعْجَبُ لَهُ وتندهش ، فهو أنَّ " تورا " العبرية هذه لا تعنى بذات لفظها العبرى الشِّرْعَةَ أو القانون ، وإنما هى تعنى بذات لفظها العبرى الهُدى والهداية ، وهو ما " نعاه " الكاتبُ على القرآن ، كما تعنى بذات لفظها الإراءةَ والتبصير ، وتعنى التعليمَ والإرشاد ، كما تعنى بذات لفظها العِلْم . ولا تزالُ العبريةُ المعاصرة تَنْحتُ من "تُورا " العبرية هذه لفظة مُورى ، يعنى المُعَلِّم . وتقول العبريةُ المعاصرة على سبيل المثال: تُورات هَنِّفش ، يعنون علم النفس، لا شريعة النفس ، وتقول : تُورات هاحِبْرا، يعنون علم الاجتماع، لا شرعة الاجتماع ، وتقول : تُورات هَاهجُيُّون ، يعنون علم المنطق، لا شرعة المنطق، كما لو فهمت "تُورات" فى هذا وذاك بمعنى الشرعة والشريعة ، كما يفهمها الذين يَستَمِدُّون ـ دُونَ تأصيل ـ من معاجمهم الفرنسية أو الانجليزية .



تَشْتَقُ العبريةُ لفظةَ " تُورا " من الجذر العبرى " يَرَا " ، وهى لا تشتق "تُورا" من ثُلاثيِّه المُجَرَّد " يَرَا " ، وإنما تشتقه من ثُلاثيِّه المَزيد فى أوَّله بهاء التعدية فى العبرية ، أى " هُورا " . وهاءُ التعدية فى العبريةِ تُكافِىء همزة التعدية فى العربية ، أى صيغة أَفْعَلَ يُفْعِلُ إفعالا . ولفظة "تُورا" مَصْدَرٌ من هذا ، فهى " إفعالٌ " من "أَفْعَلَ " ، أو هى " تَفْعِلَةٌ " من " فَعَّلَ " . وهى أيضا " تَفْعَال " مثل تبيان وتَرحال وتَجْوال ، على المبالغة .

والجذرُ العبريُّ " يَرَا " ، يَدُورُ هو ومشتقاته على معانيَ مُسْتَمَدَّة من أصول عربية أربعة ، هى: (١) الجذر العربى أَرَى ، وأَرَاهُ يعنى ثَبَّتَهُ ومَكَّنَه ، ومنه "يرُوشاليم".عاصمة فلسطين كما يقول علماءُ التوراة يعنى "ركيزة السلام" ، لا "مدينة السلام" كما يقول غيرهم أخذا من " أور" الآرامية يعنى المدينة ، وهو خطأ شائع ، لأن اسمَ القدس فى العبرية والآرامية معا مبدوءٌ بالياء لا بالهمزة . (٢) الجذر العربى وأر،

وأوْأرَهُ يعنى أعْلَمَهُ. (٣) الجذر العربى وَرَأَ ، وأورَأَهُ يعنى أعْلَمَهُ . (٤) الجذر العربى وَرَى ، ومنه الوَرَى ، أى الخلْق ، كان فى سابقِ علم اللهِ مكنوناً فظهر ، واستوراهُ فَوَرّى لَهُ يعنى استعلمه فأعلَمَهُ ، واستهداه فهداه ، أى أرشدَه ، لا يخرج عن هذا "وَرَّى عن الشىء" أى أرادُه وأظهرَ غيرَه ، أى أخفاه ، ومنه التَّوْرية ، لأنها معدولةٌ عن "الإعلام" إلى نقيضه بالحرف "عن" ، كما تقول " رَغِبْتُ فيه " و"رَغبْتُ عنه " ، وكما تقول ، عَدَلْتُ إليه " و" عَدَلْتُ عنه " .

معنى "تُورا"، أى " التوراة "، هو إذن عند علماء العبرية وعلماء التوراة : (١) العِلْم والإعلام ، تجىء بها فى العربية على " تَوْراء " ، زِنَةَ "تَفْعال" من الجذر "وَرَأَ". وقد استُجيزَت " تَوْراء" على معنى "توراة" فى الشعر خاصة ، لا تَصِحُّ القراءةُ بها فى القرآن لمخالفتها خَطَّ المُصْحَف . (٢) الإظهار والإبانة ، من الجذر "وَرَى ". (٣) الهُدَى والهداية والإرشاد ، من الجذر " وَرَى " أيضا . (٤) الإراءة والتَّبْصِرة ، من استوراهُ فَوَرَّى له ، تأخذ هذا من الجذر " وَرَى " كذلك .

وقد أَلَمَّ القرآنُ المُعجز فى تفسيره لفظةَ " توراة " بهذه المعانى الأربعة جميعا : العِلْم ، الإبانة، الهُدى ، التبصرة ، فى غير موضع ، تَكفيك منها الأمثلةُ التى نتلوها عليك تَوًا .



وكثيرا ما تَرِدُ فى القرآن لفظةُ " الكتاب " والمقصودُ بها " التوراة " على وجه التحديد ، من مثل قوله عز وجل : { **قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تُبدونها وتُخفون كثيرا** } (الأنعام: ٩١) . نعم، قد جاء لفظ "الكتاب" كثيرا والمراد منه "القرآن" بالقطع ، فى مثل قوله عز وجل : { **آلم. ذلك الكتاب لا ريب فيه** } (البقرة ١: ـــ٢) ، أى أن القرآن وحده ، دون الكتب من قبله ، هو الكتاب الذى لا ريب فيه ، لا تشك أن كل حرفٍ فيه من قول الله ، وغيرُهُ من الكتب تسمعُها فلا تَأمَنُ التصحيف والتبديل . وكثيراً أيضا ما يجىء القرآن بلفظة "الكتاب" ومراده منها مُجْمَلُ وحى الله على رسله ، وما "أم الكتاب" عن هذا ببعيد، أعنى اللوح المحفوظ

الذى تتنزل منه الملائكة بوحى الله على رسله ، قرآنا وغير قرآن ، ولكن ربما لا يلتفت كثيرون إلى أن " التوراة " بالذات ـ أعنى ما صدق فى التوراة التى بين يديك فَصَدَّقَهُ القرآن ـ هى وحدها فيما نعلم من قول الله عز وجل ، الكتابُ الوحيد الذى أنزله الله مكتوبا فى ألواح ، فهى الكتاب المكتوب ، كما تستظهر من قوله عز وجل : **{ وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظةً وتفصيلا لكل شىء، فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها، سأوريكم دار الفاسقين }** (الأعراف : ١٤٥) ، أى إن لم تفعلوا كان مصيركم دار الفاسقين . ولكن بنى إسرائيل لم يفعلوا ، وتعللوا بأن الألواح التى جاء بها موسى من عند الله ألقاها موسى فتحطمت منه فى فتنة العجل ، بل تقول لك هذه التوراة التى بين يديك ان الألواح لم تكن إلا لوحين اثنين ، كسرهما موسى بيديه فى حُمُوْ غضبه (خروج ٣٢/٢٩) فلم تعد ثمة ألواح ، ولكنه نحت لنفسه بأمر الله لوحين من حجر مثل الأولين كتب الله له عليهما نفس الكلمات التى كانت على اللوحين اللذين كسرهما موسى فى حُمُوّ غضبه (خروج ٣٤/١) . ولكن القرآن يجىء بالألواح على صيغة الجمع كما مر بك ويقول لك أيضا ان الألواح لم تتحطم ولم يكسرها موسى بيديه ـ حاشاهُ أن يفعل مهما كان حُمُوُّ غضبه ـ ولكنه التقط الألواح لم يمسسها سوء ولم تُمْحَ منها كلمةٌ مما كتب الله له فيها : **{ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يَرْهَبُون }** (الأعراف : ١٥٤) . بل ما كانت تلك الألواح لِتَنْحَطِم أو تنكسر لحظة ألقاها موسى ، فلم تكن من حجرٍ : كما وَهِمَ الكاتب ، وإنما كانت رقائقَ من الجلد، كما تستظهر من قوله عز وجل يُقسِمُ بالطورِ وبالتوراة، والكتابِ المسطور : **{ والطور . وكتابٍ مسطور . فى رَقٍّ منشور }** (الطور : ١ ــ٣).
أيا ما كان الأمر ، فأنت تعلم بالطبع أن بنى إسرائيل من بعد موسى أضاعوا هذه الألواح المقدسة فلم يبق منها إلا ما بقى فى ذاكرة كتبة التوراة : فيها من قول الله ، الذى صدقه القرآن والحديث الصحيح ، وفيها الذى هو إلى التواريخ والسير أقرب ، وهو أكثرها .

والذى يعنينا فى هذا السياق هو تأصيل المقصود من عبارة " أهل الكتابُ " فى

القرآن : أهم اليهود فقط أم اليهود والنصارى فحسب ، أم هم كل أمةٍ ذاتِ كتاب ، سواء أَخْبَرَ اللهُ عز وجل عنهم فى القرآن أم لم يُخْبِر (١) ؟

أمّا أن اليهود يندرجون تحت وصف أهل الكتاب فهذا مقطوعٌ به ولا خلاف عليه، تستظهره فى مثل قوله عز وجل: {**وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب،فريقا تقتلون وتَأسِرون فريقا** } (الأحزاب : ٢٦) ، والذين أَنْزَلَهُم الله من صَياصيهم ، أى من حصونهم ، وقَذَفَ فى قلوبهم الرُّعب ، وقَتَل منهمُ المسلمون وأسروا ، هم "بنو قُرَيْظَة" ، أى بعضُ يهودِ يَثْرِب .

وأما أن النصارى مُخاطَبُون هم أيضا فى القرآن باسم " أهل الكتاب " ، فهذا مقطوعٌ به كذلك ولا خلافَ عليه ، تَستظهره فى مثل قوله عز وجل : { **يا أهل الكتابِ لا تَغْلُوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيحُ عيسى بنُ مريمَ رسولُ اللهِ وكلمتُهُ ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، فآمنوا بالله ورُسُله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم ، إنما اللهُ إلهٌ واحدٌ سبحانَهُ أنْ يكون لَهُ ولد ، لَهُ ما فى السموات وما فى الأرض ، وكفى بالله وكيلا** } (النساء : ١٧١) ، والذين " قالوا ثلاثة " ليسوا اليهودَ كما تعلم ، وإنما هم النَّصَارى .

وأما أن اليهودَ والنصارى هم وحدهم " أهلُ الكتاب " لا يَنْدَرِجُ تحت هذا الاسم غيرُهم من الملل، فهذا هو صريحُ القرآن ، لا يَصحُّ غيرُه ، وشواهدُهُ القاطعةُ من القرآنِ عديدة ، ومنها هذا الشاهدُ الحاسم الذى يَقْطَعُ كُلَّ جدل : { **قل يا أهل الكتاب لستم على شىء ، حتى تُقيموا التوراة والإنجيلَ وما أُنزِلَ إليكم من ربّكم ، وليزيدَنَّ كثيراً منهم ما أُنزِلَ إليك من ربك طُغيانا وكفرا ، فلا تأسَ على القوم الكافرين** } (المائدة : ٦٨} ، أى هم أهلُ التوراةِ والإنجيل ، فليستقيموا عليهما ، وعلى ما أنزل إليهم من ربهم ، أى القرآن ، الذى جاء به محمدٌ صلى الله عليه وسلم ودَعاهُم إليه ، بدليلِ قوله عقب هذا مباشرة ولَيَزيدَنَّ كثيرا منهم

---

(١) لهذا التأصيل أهميةٌ بالغة فى صياغة " الدستور المسلم " يوم يَمُنُّ اللهُ علينا بتأليف القلوب على ارتضاء كتاب الله دستورا ، لأن القرآن يَخُصُّ أهل الكتاب بأحكام لا يجوز أن تنصرف إلى غيرهم . وفى هذا تأصيلٌ لعلاقة المسلم بغير المسلم فى مجتمعه وفى خارجه .

ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا ... (الآية) ، فما أُنزِلَ إليهم من ربهم بخلاف التوراة والإنجيل هو هذا القرآن الذى دُعُوا إليه . لا يصحُّ أن يُؤْمَرَ بإقامة التوراة والإنجيل ، إلا أهلُهما ، كما جاء فى قوله عز وجل : { **ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفَّرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أُنزِلَ إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، منهم أمةٌ مقتصدة ، وكثيرٌ منهم ساءَ ما يعملون** } (المائدة : ٦٥ ـ ٦٦) .

والراجحُ عندى لا يَصِحُّ غيرُه ، أنهم سُمُّوا " أهلَ الكتاب" بمعنى "أهل التوراة" ، فالتوراةُ ، لا الإنجيل ، هى الكتابُ المَعْنِى . وهى مشتركةٌ بين الطائفتين :يدين اليهود بالتوراة كما تعلم ، ويكفرون بالإنجيل ، ويدين النصارى بالتوراة وبالإنجيل . وقد قال المسيح عليه السلام : ما جئت لأهدم الناموس (أى التوراة) وإنما جئت لأُكمِّل ، أى بالإنجيل ، فالمسيح عليه السلام يُكَمِّلُ التوراة ولا يَنتَقِصُ منها . وقد ظَلَّ المسيحيون الأوائل يُعَدُّونَ فِرقةً من فِرقِ اليهود لا أكثر ولا أقل. ولم تُكتَبْ الأناجيلُ التى بين يديك إلا بعد زمانٍ من رفع المسيح، وهى قد كُتِبَتْ إنشاءً لا استنساخاً من أصلٍ يُرَدُّ إليه . ولا تزالُ المسيحيةُ إلى اليوم تَتَعَبَّدُ فى كنائسها بتلاوة فَقَراتٍ من هذه التوراة ، توراةِ اليهود . بل إن "الكتابَ المقدس" ، كتابَ المسيحيين كما مر بك ، مُجَلَّدٌ يَضُمُّ " التوراة والإنجيل " معا : إنه هو " الكتاب " The Bible (La Bible بالفرنسية) ، وأصلها Biblion اليونانية ـ لغة الكنيسة الأولى ـ وأصلُ معنى Biblion هذه "الكتاب" لا أكثر ولا أقل . وقد أصبحت Bible هذه عَلَماً على التوراة والإنجيلِ معا ، لا يجوزُ إطلاقُها إلا والمُرادُ منها " التوراةُ والإنجيل " ، لا مُجَرَّدُ أيِّ كتاب .

ومن إعجاز القرآن أن يَفطنَ وحده ـ مَطْلَعَ القرنِ السابع للميلاد ـ إلى هذا ، فيجمع بين الطائفتين تحت مُسَمًّى واحد: أهل الكتاب، على معنى أهل التوراة والإنجيل يعنى (بالإنجليزية مثلا People of the Bible، لا People of the Book كما تُخْطِىءُ فيها بعضُ ترجمات القرآن الإنجليزية . بل إن القرآنَ المُعْجز يأبى على أى من الطائفتين أن تُنكرَ إحداهما على الأخرى وكتابُهم واحد ، أى التوراة : { **وقالت اليهود ليست النصارى على شيء ، وقالت النصارى ليست اليهودُ**

اهداء من دكتور
حافظ يوسف

على شىء ، وهم يتلون الكتاب } (البقرة : ١١٣) يريد كيف يسوغ لهم إنكارُ بعضهم على بعض وهم جميعا يَتَعَبَّدُون بهذه التوراة نفسها ، وإن اختلف الكَنيس؟ [(١)] والقرآنُ بهذا الإنكار يَسْبِقُ بقرون المعاجمَ الأوربية التى استحدثت لفظة Judeo - christianism عَلَما على الثقافة " اليهودية ـ المسيحية" ، أعنى هذا الفكر المشترك الذى يَنْهَلُ من نبْعٍ واحد هو " التوراة " . هذا الفكرُ المشترك النابعُ من نَبْعٍ واحد ، هو الأصلُ الذى تُرَدُ إليه تلك " الموالاة " بين الطائفتين ، حين تتحدان فى مواجهة الإسلام : لا تتحزب مع الإسلام قَطْ طائفةٌ ضدَّ أُخْتِها . وهذا هو معنى قوله عز وجل : { **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض**} (المائدة :٥١) ، أى لأنَّهُم أولياءُ بعض تُخْشَى منهمُ المُواطأةُ عليك . وهذا من إعجاز القرآن أيضا ، دليلُكَ فيه ما يحدث فى هذا العصر بالذات من مُمَالأةِ إسرائيل عليك . ولكنك لا تلوم فى هذه إلا نفسَك ، فهم لم يخدعوك أو يغرروا بك ، وإنما أنت الذى عَمِيتَ عن كتابِ ربِّكَ وسُنة نَبِيِّك ، حتى هانت عليك نفسُك ، فَهُنتَ على الناس .

أما أن يقال لك ان أهلَ الكتاب معناها فى القرآن كُلُّ أمةٍ ذات كتاب ، فهو قَوْلٌ هُراء ، لا لما أسلفناه من القرآنِ فحسب ، وليس لمسلمٍ حُجَّةٌ بعدَ القرآن ، وإنما أيضا لأن القرآن لم يَقُل قط " أهل كتاب " على التنكير الذى يُفيدُ التعميم ، وإنما قالها "أهل الكتاب" مُعَرَّفاً بالألفِ واللام ، يُريدُ الكتابَ المَعْنى، أى التوراةَ بالذات على ما مر بك. ولأن القرآن يُريدُ الكتبَ " المُنَزلة " ولا يعبأ بالكتبِ "الموضوعة" ، ولا علم لك بكُتُبٍ أنزلت قبل القرآن إلا التوراة والإنجيل ، ناهيك بكتبٍ يصطنعها الذين كفروا بختامِ الرسالات والنبوات .إن عَمَّمْتَ ولم تُفَرِّق ، اعْتَلَّ عليك كُل ذى كتابٍ بكتابه ، وإن جاء بصريحِ الكفر . وإن عممت ولم تفرق ، فقد استدركتَ على القرآن الذى لم يُسَمِّ لك كُتُبَ زُرادشْت وكونفوشيوس وكُتُبَ البوذيين والهِندُوس ، وقد دانت بها الملايينُ على

(١) الكنيسُ والكنيسة واحد ، وإن خَصَّ العُرْفُ وحدَه اليهودَ بالكنيس وخَصَّ النصارى بالكنيسة . وهو فى العربية من الجذر كنس الذى يُفيد الاكتنان والاستتار ، ومنه كناس الظبى يَقيلُ فيه. وهى فى العبرية من الجذر كنس أيضا الذى يفيد التجمع والاجتماعَ ، ومنه " الكنيست". والكنيسة ترجمة Ekklesia اليونانية بمعنى الجامعة ، وليس من هذا المسجدُ " الجامع " وإنما هو المسجد " الكبير " فى المصر الواحد ، أو هو المسجد الذى تصلح إقامة صلاةِ " يوم الجُمُعة " فيه ، لا أىُّ مسجد .

عصر نزول القرآن، ولا تزال تَدين. وأخيرا ، إن عَمَّمْتَ ولم تُفَرِّق ، فقد أدخلتَ المسلمين أنفسهم فى زُمرةِ أهل الكتاب ، لأنهم أهلُ القرآن ، والقرآنُ كتاب ، بل هُوَ الكتاب . ولا يَعْتَلَّنَّ عليك أحدٌ بفعلِ عُمَرَ رضى الله عنه ـ إن صَحَّتِ الرواية ـ أنَّهُ استجازَ إلحاقَ المجوس بأهل التوراة والإنجيل : قد قاس عمَرُ إذن ، والقائس يجتهدُ فَيُخْطِىءُ أو يصيب . ولو كان فى المسألة نصٌّ صريح عن الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم يُقَرِّرُ أن المجوسَ بعضٌ من أهل الكتاب لما جاز لعمر أصلا أن يقيس (١) ، وما كان لمجوسى أن يستعلن بمجوسيته فى دار الإسلام على عصر عمر رضى الله عنه كما يستعلن اليهود والنصارى ، وإلا لقبل عمر الجزيةَ من الهُرْمُزان وما قال له : الإسلامَ أو السيف ! ولم تكن فى دار الإسلام على عصر عمر "معابد نيران" يَؤُمُّها المجوسُ مثلما كانت لليهود والنصارى فى دار الإسلام ولا تزال صلواتٌ وبِيَعٌ وأديرةٌ وكنائس . ودَعْكَ مما يقال لك ـ وإن صح ـ من أنه قد بَقِيَ فى الدولةِ العباسية مجوسٌ يَؤُمونَ معابدَ لهم، فلا تنس أن " العباسى" ليس صحابيا تَستَنُّ به ، ولا تنس أيضا أن الدولة العباسية قامت على أكتاف الفرس ، والعِرْقُ دسَّاس .

فى المجتمع المسلم ـ حينَ يَصحُّ إسلامُه ـ لا مُواطَنَةَ إلا لمسلمٍ أو كتابى ، ولا كتابِيَّ إلا اليهوديُّ والنصرانى، وغيرُهما عابرٌ مُسالمٍ أو مُعاهَدٌ مُستَأمِن ، ومِثلُ بِمِثْل.



مر بك أن التوراة هى الكتاب الذى أنزل الله على موسى . ولكن التوراة كما تعلم ، شأنُها شأنُ الإنجيل ، تُطلق أيضا ويُرادُ منها مُجْمَلُ أسفار "العهد القديم" ، فتشمل أسفار اليهود كلها ، التى يجمعها اليهود تحت اسم "تُورا نَبيئيم وكْتُوبيم" (وتلفظ عبرانيا " تُورا نَڤيئيم وخْتُوڤيم " وتختصر إلى "تَنَاخ" بالأحرف الأولى) يعنى "التوراة ـ الأنبياء ـ الكتب" ، أى " أسفار التوراة "، "أسفار الأنبياء" ، "أسفار

(١) لا يجوز لمسلم التثريب على الصحابة رضوان الله عليهم ، ففضل الصحابة عليك كبير . ولا يصح من مسلم أن ينتقد عمل الصحابى مهما كان قدره ـ ناهيك بعمر رضى الله عنه ـ فربما كانت له فيه حجة لم يُبدها لك . ولكن عمل الصحابى لا يُلزمك إلا أن يتأصل أو يقاس على محكم الكتاب والسنة ، فهما وحدهما إمامُك ، ولا حجةَ لمسلم فيما يخالفهما . هذا أصلٌ نفيس . ولو قد تمسك به الفقهاء لخلص الفقه الإسلامى من شوائب الاحتجاج للمُؤَوَّل والمظنون والضعيف .

الكتبة" ـ وسنقولها نحن اختصارا "توراةُ الأنبياء والكَتَبة" ـ لأن من أصحاب تلك الأسفار من ليسوا بأنبياء ، بل كتبة ، مثل سفر " عزْرا " ، كاتب شريعة الله بعد سبى بابل . والكتبة فى ديانة اليهود هم حُفَّاظُ التوراة ، يستنسخونها بأيديهم ، لم يَهْبط عليهم وحى ، وإنما جاءتهم القداسة بإضافة ما صنفوه إلى الكتاب . وما نزل القرآن إلا وقد اكتمل المجلد ، فهو تلك " التوراة " أو " العهد القديم" الذى بين يديك . وقد ضاع من قبل بعض تلك الأسفار وبقى البعض ، دليلُكَ فى هذا من التوراة التى بين يديك ، التى تُحيلُك فى بعض مواضع إلى أسفارٍ تُسَمّيها بالاسم ثم تفتش عنها فى هذا المجلد فلا تَجدُ لها أثرا بين دفَّتَيْه. وسواءٌ نُسبَ السفرُ إلى نبيٍ أو كاتب، فَسيانِ هذا أو ذاك، إذ ليس فى التوراة التى بين يديك سفرٌ واحد خَطَّه نبيٌ بيده ، أو أملاه وروجع عليه ، وإنما هى كُلُّها صُنْعُ " الكتبة " على التراخى ، حَفظَ الكتبة أم ضَيَّعوا . وما جاء القرآنُ فى بعض مقاصده إلا لهذا ، مُصَدِّقاً لما بين يديه ومُهَيْمناً عليه .

وتُنسَبُ الأسفارُ الخمسة الأولى من " توراة الأنبياء والكتبة " ، وهى سفر التكوين، وسفر الخروج ، وسفر العدد ، وسفر اللاويين ، وسفر التثنية (تثنية الاشتراع) ـ أو بالأصح تنسب مادة هذه الأسفار الخمسة ـ إلى موسى عليه السلام ، فهى وحدها "توراة موسى" ، تليها أسفارُ غيره، أنبياءَ وكتبة، ومن بين أسفار الأنبياء، سفر " المزامير " ، أى مزامير داود عليه السلام ، أى الزَّبور ، المَعْنِىُّ بقوله عز وجل : {**ولقد فَضَّلْنا بعضَ النبيين على بعض وآتينا داودَ زبورا**} (الإسراء: 55). وسيأتى الحديثُ عن " الزبور" فى موضعه .

هذه "التوراة" إذن ، أعنى"توراةُ الأنبياءِ والكتبة" كما يسميها اليهود ، أو "العهد القديم" كما يُسمِّيها النصارى ، تتضمن فيما تتضمن ، كُلاً من "توراة موسى"، "زَبُورِ داود" .

ولو قد آمن اليهودُ لعيسى ، لكان الإنجيلُ نفسُه بعضَ "توراةِ الأنبياء والكتبة"، خاتمةً لهذا " الكتاب " المنسوب إليه "أهلُ الكتاب" ، المُوسَوِىُّ منهم والمسيحىُّ سواء ، ولَحَفظَهُ الأحبارُ مثلما حَفظُوا توراةَ موسى وزَبُورَ داود ، على الأصلِ الذى نطق به عيسى بلغته العبرية أو الآرامية ، ولَسَمعْتَ كلماتِه من فيهِ المُباركِ تَنْطقُ بالحق الذى ضَلَّ عنه كثيرون .

ولكن اللهَ عز وجل هكذا شاءَ وقدَّر ، فحَسْبُكَ القرآنُ المُصَدِّق المُهَيْمِن ، وفيه الكفاية .

صلواتُ اللهِ وسلامهُ على جميعِ رُسُلِهِ وأنبيائه وعلى كُلِّ مَنْ تَبِعَهُم بإحسان .



أما " توراة موسى " ، أعنى تلك الأسفار الخمسة الأولى التى تتصدر "توراة الأنبياء والكتبة" ، فهى التُّراثُ الموروث لما سُمِعَ من الأنبياء منذ إبراهيمَ إلى موسى عليهم جميعاً أزكى الصلاة وأتَمّ التسليم ، بالقدر الذى حَفِظَتْهُ ذاكرةُ الكَتَبة الذين خَطّوا هذه الأسفارَ الخمسةَ بأيديهم ، أعنى " ما صدقَ " فيها .

تستظهر هذا من قوله عز وجل فى ختام سورة الأعلىٰ : {**قد أفلح من تَزَكّى وذكر اسم ربه فَصَلّى. بل تُؤثرون الحياةَ الدنيا. والآخرةُ خيرٌ وأبقى، إنَّ هذا لَفِي الصُّحفِ الأولى. صُحُفِ إبراهيمَ وموسى**} (الأعلى: ١٤-١٩).

أما " صُحُفُ موسى " فهى أسفارٌ أربعة من تلك الأسفار الخمسة : خروج ـ عدد ـ لاويون ـ تثنية ، التى تقص قصة موسى عليه السلام منذ مولده فى عاصمة مصر حتى وفاته فى تيه سيناء لا يُعرَفُ لهُ قبر . وأما " صُحُفُ إبراهيم " فتجدها فى السفر الأول من الأسفار الخمسة ، أعنى سفر " التكوين " ، الذى يقص قصةَ الخَلْقِ منذ بَدْءِ الخلقِ بآدم ، وينتهى بوفاة يوسفَ فى مصر . والذى تستطيع أن تُسَمِّيه " صُحُفَ إبراهيم " من هذا السفر هو الإصحاحات الأربعةُ والعشرون الأُولى من سفر التكوين ، وبداية الإصحاح الخامس والعشرين حتى يقول الكاتب : " وأسْلَمَ إبراهيمُ روحَه ومات بشَيْبَةٍ صالحة شَيْخاً وشبعانَ أياماً وانضم إلى قومه " (تكوين ٢٥/٨) . ثم يأتى بعد ذلك حديثُ إصحاحات السفر عما كان من شأن أبناء إبراهيم وحفدته وفيهم من الأنبياء إسماعيلُ وإسحقُ ويعقوبُ ويوسُفُ الذى ينتهى السفر بوفاته .

وكما لا تستطيع أن تقول ان الأسفار الأربعة التى تتحدث عن موسى هى بذاتِ حروفِها " وحيُ اللهِ على موسى" ، أو " صُحُفُ موسى" كما يسلميها القرآن ، لأنك لا تتصور أن يتضمن وحيُ اللهِ " على موسى" ، أخبارَ مولدِه وأخبارَ وفاته كما يَقُصُّها عليك الكاتب فى سفرى الخروج وتثنية الاشتراع ، لا تستطيع أيضا أن تقول

ان أول أسفار "توراة الأنبياء والكتبة " ، أعنى "سفر التكوين" وفيه ما فيه على ما مر بك، هو بذات الحرف والعبارة التى فى إصحاحاته الأربعة والعشرين الأولى "وحيُ الله على إبراهيم" ، أو "صُحُفِ إبراهيم" كما يسميها القرآن ، ولكنك تقول جازماً آمناً مطمئنا ان كتبة هذه الأسفار حَفظُوا وضَيَّعُوا وبَدَّلُوا ، ودَلَّسَ بعضُهم تدليسا ، بل وأفْحَشُوا إفحاشا ، يَقْبسون من أساطير اليونان وآلهة الأولمب ، من مثل خَلْقِ الله آدم على صورة الله ومثاله [1] ، فَقَدَّمُوا " للإنسان ـ الإله " ومَهَّدُوا لَهُ تمهيدا ، ومن مثل مصارعة الله يعقوبَ فجاهَدَهُ يعقوبُ حتى جَهَدَه ، وتطاولوا على مقام أنبياء الله ورسله ، من مثل إسكار نوحٍ حتى تنكشفَ عورتُهُ على أبنائه فيتضاحكوا منه ، ومن مثل زنَى ابنتى لوطٍ بأبيهما ليكونَ لهُما منهُ نَسلُ يُعَيِّرونَ به خصومَهم الموآبيين على ما مر بك ، ومن مثل صُنْعِ هرونَ العجلَ لمن طلبوا العجلَ فى التيه ، إلى آخر ما تعلم . وقد تلتمسُ العُذْرَ لأولئكَ الكتبة فيما ضَيَّعُوه من هذه التوراة لأنهم أنْسوهُ ، فذاكرةُ البشرِ تُسْعِفُ وتَخُون . ولكنك لا تعذرُهُم قط فيما بَدَّلُوا ودَلَّسُوا.

أما أنهم "حَفظُوا" فنعم: حَفظُوا حَظّاً مما ذُكِّروا به ، وهو الذى يُصَدِّقُهُ القرآنُ ويهيمنُ عليه . ونسوا حَظّاً مما ذُكروا به فالقرآنُ يَدُلُّهُم عليه . وتَبَدَّلُوا من قول الله قولَ البشر ، يَنقلُونَ الكَلِمَ عن بعضِ مَواضعه ، والقرآنُ يَرُدُّ عليهم مقالَتَهم ويُبَيِّنُ لهم . ولكن القرآن "يعفو" تَنَزُّهاً عن تكذيب ما أفحَشوا فيه ، المُحالِ فى جَنْبِ الله عز وجل ، المُحالِ على كرامة أنبيائه ، لأنه ظاهرُ البطلانِ بذاته .

يكفيك كى تُؤْمِنَ بهذا القرآن ـ إن كُنتَ من غيرِ أهله ـ أن تُراجعَ هذه التوراةَ عليه ، عسى أن تكون ممن شاء اللهُ أن يَهْدِيهَم ، لا هدايةَ إلا بَه سبحانه .

والذى يعنينا فى هذا السياق أن القرآن المُعْجِز ، وقد عَلِمَ أن أهلَ الكتابِ يَنْسبُون إلى موسى عليه السلام هذه الأسفارَ الخمسة من " توراة الأنبياء والكتبة " ، أو مَادةَ هذه الأسفار الخمسة كما مر بك ، يُصَحِّحُ لأهل الكتاب مقولتَهم فينسب بعضَ مادةِ هذه الأسفار ـ أعنى بعضَ ما فى النصف الأول من سفر التكوين ـ إلى إبراهيمَ

(١) ليس من هذا حديثه صلى الله عليه عليه وسلم فى أدب " التأديب" وقد رأى رجلا يضرب غلاما له على وجهه : تجنبوا الوجه ، فإن الله خلق آدم على صورته ، يعنى كرموا وجه البشر بكرامة الله عز وجل الذى خلق بيديه وجه آدم على صورة هذا الوجه ، أى وجه هذا الغلام .

عليه السلام : إنها ليست كُلُّها " توراةَ موسى " وحدَه ، وإنما هى معاً " صُحُفُ إبراهيمَ وموسى " !



أما التفسيرُ القرآنى ـ المَقْصدُ الأول فى مقاصد هذا الكتاب الذى نكتب ـ للفظة "توراة" (أعنى" تُورا" العبرية) بلغةِ أهلها، وقد مر بك وجوه اشتقاقها من العبرية على معانى أربعة هى العلم والإبانة والهِداية والتبصرة ، فقد فسر القرآنُ " التوراة " بمعنى العلم فى مثل قوله عز وجل : { **ومنهم من يستمع إليك، حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا** } (محمد : ١٦) ، يعنى الذين أوتوا التوراة ، وفى مثل قوله عز وجل : { **إن الدين عند الله الإسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلمُ بغيا بينهم** } (آل عمران : ١٩) ، يعنى لم يختلف أهل الكتاب أصحاب التوراة إلا من بعد ما جاءتهم التوراة ، وهذا من إعجاز القرآن ، لأن اليهود لم يختلفوا فرقا إلا من بعد ما أنزلت التوراة ، فالعلم هنا بمعنى التوراة ، لا يصح أن تفسره بمعنى "عيسى" كما قال مفسرون ، فقد نزل فيهم عيسى وَهُم فِرق ، ولا يصح أيضا أن تفسره بمعنى القرآن كما قال آخرون ، لأن أهل الكتاب كانوا مختلفين قبل نزولِ القرآن ومبعثَ خاتَمِ الرسل . وغير هذا فى القرآن كثير ، تكفيك منه هاتان الآيتان . وفُسِّرَت التوراةُ أيضا فى القرآن على معنى البيان والإبانة فى مثل قوله عز وجل : { **أو لم تأتهم بَيِّنَةُ ما فى الصحف الأولى** } (طه : ١٣٣) ، والصحف الأولى كنايةٌ عن التوراة كما تعلم ، وفى قوله عز وجل : { **وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة** } (البينة : ٤) أى ما اختلفوا إلا من بعد ما جاءتهم التوراة كما مر بك ، وفى قوله عز وجل : { **ولقد مَنَنَّا على موسى وهرون. ونجيناهما وقومَهُما من الكرب العظيم. ونصرناهم فكانوا هم الغالبين. وآتيناهما الكتابَ المُستبين** } (الصافات : ١١٤ ــ ١١٧)، يعنى بالكتاب المستبين " التوراة " . وفسر القرآنُ التوراة على معنى الهدى والهداية فى مثل قوله عز وجل : { **وآتينا موسى الكتابَ وجعلناهُ هُدًى لبنى إسرائيل** } (الإسراء : ٢) وغيرُهُ فى

معناهُ كثير ، تكفيك منه هذه الآية . وأخيرا فَسَّرَ القرآنُ التوراةَ على معنى البصيرة والتبصرة فى قوله عز وجل : { **ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائرَ للناس** } (القصص : ٤٣) .

وكما فَسَّرَ القرآنُ معنى التوراة بالمرادف المطابق والمرادف القريب ، فَسَّرَها أيضا بالتعريب ، فهى معدولةٌ عن " التوراء " كما مر بك ، تَفْعالٌ من الجذر " وَرَأَ " ، فهى بمعنى " الإيراء" أى الإعلام . وهى أيضا معدولةٌ عن " التَّوْرِيَة " ، تَفْعِلَةٌ من الجذر "وَرَى" أى من " أَوْرَاهُ " ، " وَرَىَ " لَهُ ، أى أظهرَ لَهُ وأبان . وهذا من التعريب الفنيِّ فى القرآن لأنه يُجانسُ " تورية" على " تورا " ، فيقول " تَوْرَاة " ، كما قال العربُ فى "قارية" يعنى الحاضرةُ الجامعة : " قاراة " ، وكما سُمِعَ من العرب فى " جارية " ـ الأَمَةُ أو الفتاة ـ " جاراة " . وسبحانَ العليمِ الخبير .



والذى ينبغى التنبيه إليه أن التوراة فى القرآن هى فحسب التى كَتَبَ اللهُ لموسى فى الألواح ، تلتمس ما بقى منها فى الأسفار الأربعة ـ " الخروج " إلى "تثنية الاشتراع" ـ لا شأن لك بما قبلها وما بعدها فى " توراة الأنبياء والكتبة " . وسفر التكوين ليس من توراة موسى قطعا ، وما بقى فى هذا السفر من "صحف إبراهيم" ليس من التوراة بالقطع ، دليلك فى هذا وذاك قوله عز وجل : { **يا أهل الكتاب ! لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده** } (آل عمران : ٦٥) وقوله تعالى : { **إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة** } (آل عمران : ٩٣) ثم تحداهم بقوله :{ **قل فأتُوا بالتوراة فاتْلُوها إن كنتم صادقين** } (آل عمران :٩٣) ، فكان الأمرُ كما قال : كَذَبَ المُكَذِّبون وصَدَقَ العَلِىُّ الكبير .

(٣٨) يأجوج ومأجوج

"يأجوجُ ومأجوجُ" غيبٌ من غيبِ الله عز وجل الذى أَخْبَرَ به القرآنُ ، لا تجدُ له فى التوراة والإنجيل اللذين بين يديك ، وفى أقاصيص أهل الكتاب ، إلا أهابيشَ من ضبابِ رُؤَى وخيالاتٍ تَبْعُدُ بك كُلُّ البعد عن حديثِ يأجوجَ ومأجوجَ الذى فى القرآن.

ففى "توراة الأنبياء والكتبة" يحدثك سفرُ حزقيال ـ وهو من أعلام القرن السادس قبل الميلاد ـ لا عن " يأجوجَ ومأجوجَ " الذين رَدَمَ عليهم " ذو القرنين " فلا يَخرجون حتى قبيل قيامِ الساعة ـ وإنما يحدثك عن " جُوج " أميرِ " ماجوجَ " الذى يجىء من أقاصىّ الشمال [1] ومعه شعوب كثيرة فيجتاح إسرائيل ، ولكن الله يرد لبنى إسرائيل الكرة عليهم فيستأصلونهم وَيُقْبَرُون فى وادٍ يُسَمُّونَهُ وادىَ جُمهورِ جُوج (راجع الإصحاحين ٣٨ و ٣٩ من سفر حزقيال) . وحزقيال عند اليهود نَبِىٌّ راءٍ ، يَرَى الرُّؤَى فَيُخبِر بها وكأنها وحىٌ من الله عليه ، والرؤى كما تعلم أضغاثٌ ورمُوز ، إن صَدَّقْتَ الرائى فلا تَأْمنُ سُوءَ الفهمِ عنه ، وإن استأمنت الناسخَ والناقل فلا تَأْمَنَ الخَلْطَ والتخليط .

وأما فى أسفار " العهد الجديد" ، فأنت تجد فى آخر أسفار الأناجيل، سفر " رُؤْيَا يوحَنَّا اللاهوتى،" أن "جوجَ وماجوجَ " هم الأممُ الذين فى أربع زوايا الأرض (راجع الإصحاح ٢٠ من سفر الرؤيا) . وعند يوحنا اللاهوتى أن هناك قيامتين : القيامة الأولى بعد القضاء على فتنة الدجال ، والناجون من هذه الفتنة يكونون كهنة لله والمسيح ويملكون معه ألف سنة : " ثم متى تمت الألف السنة يُحَلُّ الشيطانُ من سجنه ويَخْرُجُ لِيُضلَّ الأممَ الذين فى أربعِ زوايا الأرض جوج وماجوج ليجمعهم للحرب الذين عَدَدُهم مثلُ رملِ البحر . فصعدوا على عرض الأرض وأحاطوا بمعسكر القديسين وبالمدينة المحبوبة فنزلت نارٌ من عند الله من السماء وأكلتهم . وإبليس الذى كان

(١) فى سفر التكوين (تكوين ١٠/٢) تجد "ماجوج" ابنا ليافث بن نُوح ، وُلِدَ لَهُ بعدَ الطوفان . وإلى يافثَ هذا يُنسَبُ الأوربيون كما يقول شُرَّاحُ هذا السفر .

يُضلِّهم طُرِح فى بحيرة النار والكبريت حيث الوحشُ والنبيُّ الكذَّاب وسيعذبون نهارا وليلا إلى أبد الآبدين " (رؤيا ٢٠/٧ ـ ١٠) . ولا شك أن يوحنا اللاهوتى يستمد من حزقيال اسمى جُوج وماجُوج ، ولكنه لا يجعل ماجوج أرضاً لجوج ، وإنما يجعل جوج وماجوج معا أمما عددهم مثل رمل البحر يجمعهم الشيطان لحرب المدينة المحبوبة (أورشليم) مملكة المسيح فى مجيئه الثانى قرب قيام الساعة ، فيتفق مع حزقيال فى تعيين أورشليم موقع مهلك جوج أمير ماجوج ، ويختلف معه فى موعد خروجهم ومهلكهم : تَعَجَّلَهُ حزقيال فربطه بخراب أورشليم على أيدى مملكة بابل ، وأجَّلَهُ يوحنا اللاهوتى ألف سنة تعقب عودة المسيح إلى الأرض فى مجيئه الثانى . ورؤيا يوحنا اللاهوتى تَقتبس بلا شك من سفر حزقيال ، ولكنها تقتبس بتصرف ، وتقتبس أحيانا دون تَرَيُّث ، فقد تنبأ حزقيال فى القرن السادس قبل الميلاد بخراب بابل، وخَرِبَت بابلُ بالفعل فى قرْنه ، ولكن يوحنا اللاهوتى يعودُ فيتنبأ لبابلَ بالخراب : "وسيبكى وينوحُ عليها ملوكُ الأرض الذين زَنوا معها وتنعَّموا معها حينما ينظرون دُخانَ حريقها ، واقفين من بعيد لأجل خوف عذابها قائلين وَيْلٌ وَيْلٌ . المدينةُ العظيمةُ بابلُ المدينةُ القويةُ" ، " وَرَفَعَ ملاكٌ واحدٌ قَوِيٌّ حجراً كَرَحًى عظيمة ورماهُ فى البحر قائلا بِدَفْعٍ ستُرْمَى بابلُ المدينةُ العظيمة ولن توجدَ فى ما بعد" (راجع الإصحاح ١٨ من سفر الرؤيا) ، لا يدرى أن بابلَ المدينةَ العظيمة قد خَرِبَتْ بالفعل قَبْلَ ستة قرونٍ على الأقل من مَوْلد هذا الكاتب . ولكنك لن تَعدَمَ منْ شُراحِ هذا السفر من يقول لك إن بابلَ هذه ليست بابل ، ولكنها عَلَمٌ على كُلِّ مُلْك جَبَّارٍ فاسق . وهكذا أنت فى الأحلام والرُّؤَى، تُفَسِّرُ ما شئتَ بما تَشاء ، أو يُفَسِّرُ لكَ بما يُشاءُ لك .

وأما فى أقاصيص أهل الكتاب التى لا تجدها بين دفتى "الكتاب المقدس" ، ولا حجةَ بها من ثَمَّ على أهل الكتاب ، فمنها المَرْويةُ عن السُّريان فى أساطير الاسكندر[١] ، مؤسس الامبراطورية اليونانية فى الشرق الأدنى القديم، وقد وهم أدعياءُ الاستشراق [٢] أنها الأصل المباشر لقصة يأجوج ومأجوج فى القرآن ، وفى الأسطورة السريانية أن الاسكندر أغلَق على جوجَ وماجوجَ ، فلا يخرجون إلا فى نهاية العالم . وتُرْسَمُ "جوج" فى السريانية "أجوج" قريبةً من "يأجوج" التى فى القرآن .

(١) انظر Noeldeke, Beitrage zur Geschichte des Alexanderromans
(٢) J. Horovitz المرجع السابق ، ص ١٩ .

تَخْلُصُ من هذا إلى أن أهل الكتاب ، فى الكتاب المقدس بشطريه وخارجه ، كانوا على علم قديمٍ بيأجوج ومأجوج ، ولكنهم خَلَطُوا فيه ، وتفاوتت الروايةُ عن هذا وذاك ، فجاءوا محمداً صلى الله عليه وسلم يسألونه عن حقيقة الذى كان ، فأجابهم القرآنُ بقوله : { **ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا** } (الكهف : ٨٣) وسَرَدَ عليهم ما كان من شأن ذى القرنين مع يأجوج ومأجوج .

ففى بعض كتب التفسير أن بعضاً من أهل الكتاب أرادوا امتحانَ مَبْلَغ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم من العِلْم : سألوه عن فتيةٍ ذَهبوا فى الزمان الأول (أصحاب الكهف) فأجابهم القرآن : { **نحن نَقُصُّ عليك نبأهُم بالحق** } (الكهف : ١٣) وسَرَدَ ما كان من شأنهم . وسألوه عن الروح ما هو (أو ما هى) فكَفَّهمُ القرآنُ عنها : {**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** } (الإسراء : ٨٥) . وسألوه عن طوافة رحالة (ذى القرنين) فأجابهم القرآن : {**ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا . إنَّا مَكَّنا له فى الأرض وآتيناه من كل شيءٍ سببا** } (الكهف : ٨٣ ـــ ٨٤) ، ثم قص ما كان من شأن ذى القرنين مع يأجوج ومأجوج ، وكيف أُرْتِجَ عليهم مَحْبِسَهم ، لا يستطيعون الخروجَ منه أو نَقْبَهُ حتى يقتربَ الوعدُ الحق : { **فإذا جاء وعدُ ربى جعله دكاء وكان وعدُ ربى حقا . وتركنا بعضَهُم يومئذٍ يموجُ فى بعضٍ ونُفِخَ فى الصُّور فجمعناهم جَمْعًا** } (الكهف : ٩٨ ـ ٩٩) .

وقد جاءت " يأجوج ومأجوج " فى القرآن مرتين اثنتين فقط ، الأولى فى حديث ذى القرنين : { **قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خَرْجَاً على أن تجعل بيننا وبينهم سَدا** } (الكهف : ٩٤) ، والثانية فى النص على أن الفتح ليأجوج ومأجوج من علامات الساعة كما أَخْبَرَ الصادقُ المصدوقُ صلى الله عليه وسلم: قال عز وجل: {**وحرامٌ على قريةٍ أهلكناها أنَّهمْ لا يرجعون. حتى إذا فُتِحَت يأجوجُ ومأجوجُ وهم من كل حَدَبٍ يَنسِلُون. واقترب الوعدُ الحق فإذا هى شاخصةٌ أبصارُ الذين كفروا، ياوَيْلَنا! قد كنا فى غفلة عن هذا، بل كنا ظالمين** } (الأنبياء : ٩٥ ـــ ٩٧)، أى عندما يقتربُ الوعدُ الحقُ تُفْتَحُ يأجوجُ ومأجوج، فيتذكر الذين كفروا أنهم قد نُبِّئُوا

بهذا فى القرآن من قبل ، فَتَشْخَصُ أبصارُهم هَلَعا ، ثم يتندمون كيف غفلوا عن هذا ، ولكنهم يستدركون على أنفسهم بأنهم كانوا ظالمين ، لا غافلين فحسب ، نَسوا اللهَ فأنساهم مواعيدَه. بل قد كان منهم العابثُ الساخر ، المُتَفَكِّهُ بغيبِ الله عز وجل، فَسُحْقاً سُحْقا .

والوجهُ فى غيبِ الله عز وجل أنه علمُ الله الكُلِّيُّ المُطلَق ، يَعْلَمُ ما كانَ وَيكُون، على الوجه الذى به كانَ ويكون. وهذا العلمُ الكُلِّيُّ المُطلَق مُتَرَتِّبٌ على أنه عز وجل خالقُ كلِّ شىء وخالقُ كلِّ فعْل . وهو عز وجل ليس عالمَ الغيبِ فقط ـ والغيبُ هو كُلُّ ما غاب عنك علمُه ـ ولكنه عز وجل أيضا عالمُ " الشهادة " ، أى أنه جَلَّ وعلا يَعْلَمُ أيضا مَشهُودكَ ومَعْلُومَك ، لا كما تَعْلَمُهُ أنت ، ولكن على ما هو عليه : { **ألا يَعْلَمُ مَنْ خَلَق وهو اللطيفُ الخبير** } (المُلْك : ١٤) .

وقد خاض مفسرون (راجع تفسير القرطبى للآيات ٩٢ ـــ ٩٩ من سورة الكهف) فى يأجوجَ ومأجوج فَأَسَفُّوا وأَبْعَدوا : لم يهتبشوا من أهابيش أهلِ الكتاب فحسب ، بل وأضافوا إليها من عندهم تَهاويلَ خيالٍ سقيم ، فتجاوزوا نَصَّ القرآنِ والحديثَ الصحيح عن الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ، وزُيِّفَت فى يأجوجَ ومأجوج أحاديثُ لا يَصِحُّ لها سَنَد ، حتى عُمِّيَتْ عليك حقيقةُ يأجوجَ ومأجوج .

ولم يَعْلَم أولئك المفسرون أن أدعياءَ الاستشراقِ سَيَتَّكِئون عليهم ، لأن أدعياءَ الاستشراق لا يَسْتَقُون من القرآنِ ومن الحديث الصحيح ، وإنما يَسْتَقُونَ من كُتُبِ التفسيرِ هذه ، كما رأيت من قبل فى "قسطاس" ، "فردوسَ" ، "إبليسَ" ، وأمثالها. ولأن أولئك المفسرين تحذلَقُوا فتابعوا أساطيرَ السُّريانِ فى قولتهم ان " الاسكندر " هو صاحبُ " جُوجَ وماجُوج " ، فلم يجد أدعياءُ الاستشراق حَرَجاً فى القول بأن القرآنَ فى يأجوجَ ومأجوج يَسْتَقى من هؤلاءِ السُّريانِ رأسا : القِصَّةَ والبَطَل .



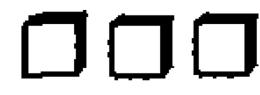
زعم بعضُ المفسرين (راجع تفسير القرطبى للآية ٨٢ من سورة الكهف) ، مُتَابَعَةً لما دُسَّ عليهم من أقاصيصِ أهل الكتاب ، أن " ذا القرنين " هو "الاسكندر" ، مُؤَسِّسُ الامبراطورية اليونانية فى الشرق الأدنى القديم ، وتَرَسَّخَ هذا فى أذهان الناس حتى شاع لقبُ " الاسكندر ذى القرنين " على هذا الملك الوثنى ، لا يَتَحرَّجُ مسلمونَ

اليـومَ من ذلك ، عـامّتُهم وخـاصّتُهم . وهذا يَدُلُّكَ على مَدَى الخِفَّة التى صار إليـهـا المسلمـون فى هذا العـصر . فَشتّان مـا بين عُبَّاد آلهـةٍ فى جبـال الأولب ومـا بين عُبَّادِ الواحدِ الأحد جَلَّ جلالُه الذين لم يكن ذو القـرنين من عـامّتهم فـحسب ، بل كـان من صَفْوَتِهم ، الذى قال اللهُ فيه : { **إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سَبَبا** } (الكهف : ٨٤) ، والذى حَكّمـهُ اللهُ فى قـومٍ عند عَيْنٍ حَمِئَةٍ لَقِيَهمْ ذو القـرنين وقد آذنت الشمسُ بالمغيب : { **حتى إذا بلغ مَغْرِبَ الشـمس وجدها تَغْرُبُ فى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ووجدَ عندَها قوما ، قلنا يا ذا القرنين إما أن تُعَذِّبَ وإما أن تتخذ فيـهم حُسْنا . قال أمَّا من ظَلَمَ فسوف نُعَذِّبُهُ ثم يُرَدُّ إلى رَبِّه فيعـذِّبُهُ عذابا نُكْرا . وأما من آمن وعَمِلَ صـالحا فَلَهُ جَزاءً الحُسْنَىَ وسنقولُ لَهُ من أمرنا يُسْرا** } (الكهف : ٨٦ ـــ ٨٨) ، والاسكندر ، وملوكُ الأرضِ جميعا ، أذَلُّ من ذلك .

الذى يُحَكِّمُهُ اللهُ عز وجل فيمن كفر أو آمن ، يُحْسِنُ فى طائفةٍ ويُعَذِّبُ طائفة، فيجعلُ العذابَ على الذين ظلموا ويجعلُ جَزاءَ الحُسْنى لمن آمن وعَمِلَ صالحا ، الذى يفعلُ ذلك بتحكيمِ اللهِ عز وجل ، لا يصحُّ أن تَنْسِبَهُ إلى عَبَدَةِ الأوثان ، بل لا يَصِحُّ أن تَنْسِبَهُ إلى عامةِ المؤمنين الصالحين ، وإنما تَسْلُكُهُ فى صَفْوَتِهم ، الذين اجتباهم اللهُ وأيَّدَهم بروحٍ منه ، نَبِيّاً أو فى مقام نبى . ولكنك لا تقولُ مـا قـالُ بعضُ المفسرين إنه "مَلَكٌ" من ملائكة الله عز وجل ، لأسبابٍ ثلاثة : أوَّلُها أن الملائكةَ رضوانُ اللهِ عليهم خَلْقٌ مأمُور ، لا تُخَيَّرُ كمـا خُيِّرَ ذو القرنين فى القوم الذين لَقِيَهُم عند العَيْنِ الحَمِئَة، وثانيها لأن الملائكة رضوان الله عليهم لا يستعينون البشَر كما استعان ذو القرنين الذين سألوهُ أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سَدّاً ، يُناولونَهُ زُبَرَ الحديد وينفخون فيه نارا حتى تلتحم الزُّبَر ، ثم يجيئونه بقِطْرٍ يُفرِغُه عليه ، وثالثا لأن الملائكةَ رضوانُ الله عليهم لا يمشون فى الأرض مطمئنين يُكَلِّمون الناس، ويستعملُهُمُ الناس : { **قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوجَ مفسدون فى الأرض فهل نجعلُ لك خَرْجاً على أن تجعلَ بيننا وبينهم سَدّاً. قال مـا مَكَّنّى فيـه ربّى خَيرٌ فأعينونى بقوةٍ أجعلْ بينكم وبينهم ردماً. آتونى زُبَرَ الحديد، حتى إذا سَاوىَ بين الصَّدَفَيْنِ قال انفخوا، حتى إذا جعلَهُ ناراً قال آتونى أُفْرِغْ عليهِ قِطراً. فما اسْطاعوا أن يَظْهَرُوهُ وما استطاعوا له نَقْباً. قال**

هذا رحمةٌ من ربي، فإذا جاء وعدُ ربي جعلهُ دكاء، وكان وعدُ ربي حقا. وتركنا بعضَهُم يومئذٍ يَمُوجُ في بعض، ونُفِخَ في الصُّورِ فجمعناهم جَمْعا. وعرضنا جهنَّمَ يومئذٍ للكافرين عرضا. الذين كانت أعْيُنُهم في غِطاءٍ عن ذِكْري وكانوا لا يستطيعون سمعا } (الكهف : ٩٤ـ١٠١) .

على أن ذا القرنين الذي يُحدِّثُكَ عنه القرآن لم يكن مَلِكاً يمشي في جيشه كالذي كانَهُ الاسكندر ، وإنما كان رَجُلاً فَرْدًا ، وإلا لما احتاجَ إلى من يناولونَهُ زُبَرَ الحديد، ثم ينفخونه ناراً حتى تلتحم الزُبَر ، ويأتونه بِقِطرٍ يُفْرِغُهُ على هذا السدِّ من حديد .



وكما جَانَبَ المفسرينَ الأوائلَ الصوابُ في تعيين ذي القرنين بأنَّهُ الاسكندرُ مُؤَسِّسُ الامبراطوريةِ اليونانيةِ في الشرقِ الأدْنَى القديم ، وُجِدَ أيضا من الباحثين الإسلاميين في القرنِ العشرين من وَهِمُوا أن ذا القرنين هو "كُورَشُ" مَلِكُ الفُرسِ الذي انتصر لليهودِ من بني إسرائيل أيامَ سَبْيِهم في بابل ، الذي رَدَّهُم إلى "أورشليم" وأَغْدَقَ عليهم ، فَعَدَّهُ اليهودُ من بعد "ملكاً قدِّيسا " . وقد أصَّلَ الباحثُ مقولتَهُ بالعثور على تَمْثال لهذا الملك الفارسي وعلى رأسه تاجٌ مُقَرَّنٌ من خَلْفٍ ومن قُدَّام ، فهو "ذو القرنين" على هذا المعنى . وليس بشيء ، فقد خَلَفَ كُورَشَ مُلوكٌ حَمَلت مثلَ هذا التاج ، كان منهم الاسكندرُ المقدونيُّ نفسُه بعدَ اندحار الفرس أمامه . وليس بالضرورة أن يجيء لقبُ ذي القرنين المَعْنِيِّ من وجود قرنين على رأسه ، تاجاً أو غيرَ تاج . وخاض الباحثُ أيضا في تعيين مَوْقِعِ " السدِّ " مما لا نستطردُ بكَ إليه ، فقد خاض في تعيينه الأوائل على ما تَقْرأ في تفسيرِ القرطبي واصْطُنِعَتْ لهُ أحاديث ، وليس بشيء ، لأن موضع " السد" ، بل موضع " السدَّيْن" اللذين رَدَمَ ما بينهما ذو القرنين ليَحولَ دونَ نفاذِ يأجوجَ ومأجوجَ إلى القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا: { **ثم أَتْبَعَ سببا. حتى إذا بلغ بين السدَّيْنِ وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهونَ قولا . قالوا ياذا القرنين إن يأجوجَ ومأجوجَ مُفْسِدُونَ في الأرض فهل نجعلُ لك خَرْجَاً على أن تجعلَ بيننا وبينهم سدا** } (الكهف :٩٢ ــ ٩٤)، كُلُّ هذا من المَغَيَّباتِ التي سَكَتَ عنها القرآنُ والحديثُ الصحيح . وقد سَكَتَ عنها القرآنُ

والحديثُ الصحيح لأنك لاتتصور أن يكون خروجُ يأجوجَ ومأجوج من علامات الساعة ثم يُعَيِّنُ لك القرآنُ والحديثُ الصحيح مكان مَحْبِسهم على هذا الكوكب الذى نعيشُ عليه ، تَغْدُو عليهمُ الناسُ وتَروح ، كما لم يُعَيِّنْ لكَ القرآنُ موضعَ تلك العَيْنَ الحَمِئَة والقومَ الذين لقَيَهُم عندَها ذو القرنين فى مَغْرِبِ الشمسِ وَحُكِّمَ فيهم ، يُعَذِّبُ منهم أو يتخذُ فيهم حُسْنَا ، ولم يُعَيِّنْ لكَ أيضا القومَ الذين لَقِيهُم ذو القرنين فى مَطْلِعِ الشمس لم يجعلْ اللهُ لهُم من دونها سِتْرا ، بل قد تكتم القرآنُ أمْرَهُم ولم يُحَدِّثْكَ بما كان من شأنِ ذى القرنين معهم فقال عز وجل : { **كذلك وقد أحطْنا بما لديهِ خُبْرا** } (الكهف : ٩١) ، أى قد عَلمنا نحن ما قد كان من أمرِه مَعَهُم ولن نُحَدِّثَكَ به ، فالقرآنُ لا يُحَدِّثُكَ بكلِّ أخبارِ ذى القرنين ، وإنما بطائفةٍ من أخباره فقط ، لقوله : { **سأتلو عليكم منه ذكرا** } (الكهف : ٨٣) أى بعضاً من ذِكْرِه فحسب ، أى خَبَرَهُ مع يأجوجَ ومأجوج ، وهو المسئولُ عنه ، وما سَبَقَهُ تمهيد لهذا الحديث عن يأجوجَ ومأجوجَ ، حتى تعلم مكانَ ذى القرنين عند الله عز وجل ، فلا يذهبَ بك الوهمُ إلى أنه مهندسٌ يُجيدُ بناءَ السدود ، أو أنه مَلِكٌ من تلك الملوكِ ذواتِ التاجِ المُقَرَّنِ من خَلْفٍ ومن قُدَّام ، الاسكندرُ أو كُورَش .

يأجوجُ ومأجوج ، مَحْبِسَهُم ومَخْرَجَهم ، كأصحاب الكهف ، من آيات الله عز وجل ، مَرْقَدَهم ومَبْعَثَهُم ، ولكنه تبارك وتعالى جَعَلَ خروجَ يأجوجَ ومأجوج علامةً على اقتراب الوعد الحقِّ الذى به تُؤْمِن ، كما آمن ذو القرنين : { **وكان وعدُ ربى حقا** } (الكهف : ٩٨) ، وهذا حَسْبُك .



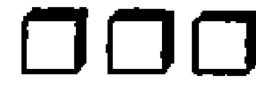
على أن نبوءَة حزقيال ـ وهو من أعلام القرن السادس قبل الميلاد ـ بمقْدم جوجَ أميرِ ماجوجَ وشعوبٍ كثيرةٍ معه إلى فلسطين وخرابِ أورشليمَ على يديه ، تَجْعَلُ الرَّدْمَ على يأجوجَ ومأجوج سابقاً على عصر حزقيال ، وبالتالى سابقا على كُورَشَ والاسكندر اللذين مَلَكَا فى فارس بعدَ حزقيال ، فلا يَصِحُّ أن يكونَ أحدُهما هو الذى رَدَم عليهم .

بل إن عصر الرَّدْمِ على يأجوجَ ومأجوج أَسْبَقُ بقرونٍ لا يعلمُها إلا اللهُ من مَوْلِدِ موسى ومَولدِ عبريةِ التوراة .

ذلك أن علماء العبرية وعلماء التوراة لا يستطيعون لِجُوجَ وماجوج اشتقاقا من جذور اللغتين العبرية أو الآرامية ، وإنما يقولون لك إن " جوج " هو أميرُ "ماجُوج" ، وأن "ماجُوج" هى أرضُ " جُوج " ، لا يزيدون ، فليس فى العبرية ، ولا فى الآرامية ، جذر مُسْتَعْمَل يُعِينُ على هذا الاشتقاق . فهما إذن اسمانِ وَقَعَا فى سَمْعِ حزقيال عَبْرَ أساطيرَ سَبَقَت مَولِدَ العبرانيين أنفسِهم .

على أن فى المعجم العبرى الآرامى لألفاظ التوراة (وهو من مراجع هذا الكتاب) الاسم "أَجَاج"، عَلَمَاً على ملوكِ العماليق المَعْنِيِّين بقوله عز وجل على لسان بعض بنى إسرائيل فى التيه : { **قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنَّا لن نَدْخُلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون**} (المائدة : ٢٢) . ولم يستطع علماءُ العبرية وعلماءُ التوراة تفسيرَ الاسم "أَجَاج" ، فَرَدوهُ إلى الجذر العربى " أَجَج " .

وفى العبرية أيضا اللفظ "جَاج " ومعناهُ سقفُ البيت ونَحْوُه ، لا يُعْرَفُ لَهُ كذلك أصلٌ أو اشتقاق ، فهو من "جوامد" تلك اللغة . وربما ظننتَ أن " جُوج " من هذا ، بمعنى المسقوفِ عليهم ، أى المَرْدُومِ عليهم . ولكن علماءَ العبرية وعلماءَ التوراة لم يتصدوا لهذا .



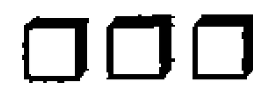
أما " يأجوج " و " مأجوج " اللذان فى القرآن ، فهما إسمان عربيان أصيلان ، تشتقهما من الجذر العربى " أَجَج " : " يأجوج " على زِنة " يَفْعُول " من أَجَّ / يَؤجُّ / أَجَّاً ، وأجيجاً وأَجَّةً أيضا ، ومن معانيه فى العربية إلى الآن الإهاجة والاشتداد والاستثارة ، والأُجَاجُ يعنى اللاذعُ المُمِضُّ مرارةً أو مُلُوحة ، ومن معانى الأجيج أيضا الاضطرابُ والاختلاط . أما "مأجوج " فهى على زنة "مَفْعُول" من " أَجَّ " هذه نَفْسها ، وكَأَنَّ " أَجَّ " يَصْلُحُ أيضا مُتَعدِّياً بنفسه ، وكأن معنى "يأجوج ومأجوج" هو الذين يَؤُجُّ بعضُهم بعضا .

نعم . يأجوج ومأجوج من العربية الأولى ، عربيةِ آدم ، لا تَستطيعُ أن تحدد زمان الإرتاج عليهم ، كما لا تستطيعُ تحديد موقعِهِ من هذه الأرض التى نعيش

عليها ، ولا تستطيعُ التنبؤَ بزمنِ خُروجهم ، لاستئثارهِ عز وجل بعلم الساعة ، لا يُجَلّيها لوقتها إلا هو .

الذى تستطيعه هو فحسب تفسيرُ " يأجوج ومأجوج " من القرآن بالقرآن ، مَقْصِدُنا الأول من الحديثِ عن يأجوج ومأجوج فى هذا الكتاب الذى نكتب :

فُسِّرَت " يأجوجُ ومأجوج " فى القرآن بالتعريب : الذين يَؤُجُّ بعضُهم بعضا ، ويَسْتَفِزُّ بعضُهم بعضا ، ويَمُوج بعضُهم فى بعض ، كما قال عز وجل فيهم :{ **وتركنا بعضَهم يومئذٍ يموج فى بعض** } (الكهف : ٩٩) والمَوْجُ على المصدرية من ماجَ / يَمُوجُ /مَوْجَا ، هو من الاختلاط والاضطراب ، فهو تفسيرٌ بالتصوير ، كما قال فى موضع آخر : { **وَهُمْ من كُلِّ حدبٍ يَنْسِلون** } (الأنبياء : ٩٦) كنايةً عن مَدَى الاختلاط والاضطراب . وفى الاختلاط والاضطراب فسادٌ وإفساد ، ومن هذا قول الذين استعانوا ذا القرنين عليهم : { **إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض** } (الكهف : ٩٤) .



ونحن لا نخوضُ فى مَنْ كان "يأجوج ومأجوج" ، وكيف هُمْ الآن فى مَحْبِسِهم ، ولا نخوضُ كما خاض مفسرون فى وصف خِلْقَتِهم وهَيْئَتِهم . هذا من غيب الله عز وجل الذى لم يشأ أن يطلعنا عليه فنحن نتوقَّفُ فيه . والله عز وجل بغيبه أعْلَم .

ونحن أيضا لا نخوض فى مَنْ كان ذو القرنين المَعْنِيُّ فى القرآن ، وإن كنا نُرَجِّح ـ كما رَجَّحَ مفسرون دونَ دليل ـ أنه هو نفسه العبدُ الصالح الذى صَاحَبَهُ موسى فى سورة الكهف ليُعَلِّمَهُ مما علمه الله ، فلم يستطع موسى مَعَهُ صبرا . وليس لدينا نحنُ أيضا دليلٌ على هذا نقترحُهُ عليك ، إلا شاهدين: الأول عجائبُ هذا العبد الصالح مع موسى بدءاً بالحُوتِ المَيِّتِ الحى الذى اتخذ سبيلَهُ فى البحر عَجَبا ، وانتهاءً بَرَمِّهِ الجدارَ الذى كان لغلامين يتيمين فى المدينة حتى يَبْلُغَا أَشُدَّهُما ويستخرجا كنزهما ، فأشْبَهَ "السد" . والشاهدُ الثانى ـ وهو أكثرُ دلالة ـ أن سورةَ الكهف تَضُمُّ أخباراً أربعة: (١) نَبَأ الفتيةِ أصحابِ الكهف. (٢) مَثَلَ الرجلين ، صاحبِ الجَنَّتَيْنَ والذى حَاوَرَهُ. (٣) قِصَّةَ موسى مع العبدِ الصالح . (٤) أخبار ذى القرنين . وقد فَصَلَت سورةُ

الكهف بفواصلَ تطولُ أو تَقْصُر ما بين هذه الأربعة (راجع هذا فى سورة الكهف)، إلا ما بين أخبارِ ذى القرنين وبين قصَّةِ موسى مع العبد الصالح ، فقد أتت بـ "ذِكْرِ" ذى القرنين مباشرةً بعد قصة موسى مع العبد الصالح لا يَفْصِلُ بينَهما فاصل : { **وما فَعلتُهُ عن أمرى ، ذلك تأويلُ ما لم تسطع عليه صبرا . ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا . إنا مَكّنّا له فى الأرض وآتيناهُ من كل شىءٍ سببا** } (الكهف : ٨٢ ــ ٨٤) ، وكأنها إشارةٌ إلى أن المَحْكِيَّ عنه فى النَّبَأيْنِ واحد ، وكأنَ ماتَقَدَّمَ ذِكرُهُ من قصة موسى مع الذى صَاحَبَهُ من أخبارِ ذى القرنين . والله عز وجل بغيبه أعْلَم .

وأما معنى اسمه " ذو القرنين " فقد تَعَدَّدَت الأقوالُ فيه ، على ما تَجِدُ فى تفسير القرطبى للآيَة ٨٣ من سورة الكهف ، ولا دليلَ عليها من قرآن أو سُنة ، وإنما هى اجتهاداتٌ لأصحابها ، أقْرَبُهَا إلى القبول أقْربُها إلى المنطق ، وأبْعَدُها أسْمَجُها بالطبع ، المنسوبُ إلى الإمام عَلِيّ رضَى اللهُ عنه والإمامُ عَلِيٌّ من هذا السُّخْفِ بَرَاء : قيل كان رجُلا دعا قومَه إلى الله عز وجل فشجُّوهُ على قَرْنه ، ثم دعاهم إلى الله عز وجل كَرَّةً أخرى فشجُّوهُ على قرنه الآخر ! والذى نقطع به نحن أن أهل الكتاب لم يسألوا عن : "ذى القرنين " بهذا الاسم ، فليس فى أخبار أهل الكتاب شىء اسمه "ذى قَرْنَيْم" (وهى " ذو القرنين " بالعبرية) ، وإنما سألوا عن الطَّوافَة الرحَّالة الذى كَانَهُ "ذو القرنين" . "ذو القرنين " إذن لَقَبٌ تَلَقبَ به فى القرآن . إن صَحَّ هذا فالراجحُ عندى استئناسا بقصته فى القرآن ـ ولا أقولُها جازما فالله عز وجل بغيبه أعلم ـ أن "القرنين" هما قَرْنَا الشمس كنايةً عن مَغْرِبِها ومَطْلعها (والقَرْنُ هو أولُ ما يَبْزُغُ من قرص الشمس عند مَطْلعها وآخرُ ما يَأفُلُ منها عند مَغْرِبِها) ، وكأنه الطَّوافُ بين قَرْنَي الشمس من مغربها إلى مطلعها ، كما فى القرآن : { **حتى إذا بلغ مَغْرِبَ الشمس** } (الكهف : ٨٦) ، { **حتى إذا بلغ مَطْلِعَ الشمس** } (الكهف : ٩١) . ربَّما كان هذا هو سببَ التسمية . والله عز وجل بغيبه أعلم .

كيفما كان الأمر ، فليس "ذو القرنين" من العَلَم الأعْجَمِيِّ الذى تتناولُه مباحثُ هذا الكتاب ، وإنما عَرَجْنا عليه إيناساً للقارىء ، واستكمالا لمَبْحَثِ "يأجوجَ ومأجوج". مثلما عَرَجْنا من قبلُ على لفظة " طُوَى" فى تحليلِ "سيناء " ، وكما عَرَجْنا من قبلُ على " ذى الأوتاد " فى تحليلِ اسمِ "فِرْعَوْن" .

(٣٩) اليهــود

يزعم اليــهــود (وهى "يِهُودِيم" ، يِهُودِيِّيم" فى العــبــرية و "يِهُودَائِين " فـى الآرامية) ، وتُنطق دالُها فى العبرية والآرامية ذالا ، أنَّهمُ سُمُّوا هكذا نسبةً إلى "يَهُوذا" ابن يعقوب . ولا يصحُّ هذا وإن قَالَهُ العبرانيون أنفسُهم وتابَعَهُم عليه الخَلْقُ أجْمَع .

لا يصحُّ هذا لأنك لا تتصـور أن يتسـمى اليـهـودُ باسم ابن لأبيـهم يعـقـوب ، وأبوهم حَىٌّ بعد ، لم يذهب ببنيه وحَفَدَته إلى مصر فى ضيافة يوسف ، وقد كانوا فى مـصرَ " بنى إسـرائيل " فـحسب ، وإسـرائيلُ كُنْيَةُ يعـقـوبَ أبِى يهـوذا وأبيـهم . وإذا استَجَزْتَ النسبـةَ إلى ابنٍ لأبيـهم ، فلمـاذا "يـهـوذا" بـالذات وليس هو بِكْرَ أبيـهم ، وإنما بِكْرُهُ "رأوبين " على مـا مَرَّ بك ، ولماذا حَظِىَ "يهـوذا " بهـذا الشـرف من دونهم وفـيـهم "يوسُف" صاحبُ الفضلِ وَوَلِىِّ النعمة ؟ وإذا لم يتـسموا نسبـة إلى "يهوذا" فى مصر ، فكيف ينتسبون إليه وحده فى التيه وهم إثنا عشر سبطا أحدهم فحسب سبط يهوذا ؟ ولماذا لم ينتـسبـوا فى التـيـه ـ إن أرادوا بـركـة النسـب ـ إلى سبـط لاوى ، سبـط مـوسى وهرون ، لا سيـمـا و "لاوى" هو الثـالث فـى ترتيب أبناء يعـقـوبِ و "يهـوذا" الرابـع ؟ وكـيف ينتـسبـون فـى التيـه إلى "يـهوذا " ومـوسى بين ظَهرانيـهم ومـوسى "لاوىٌّ " لا "يَهُوذِىٌّ " ؟ أفقـدِ انْسَلَّ من بينهم موسى ؟ فـمـا اليـهـودُ أجْمَع إن لم يكـن منْهُمُ مـوسى ؟ أفـهل تَسَمَّوْا بهـذا الاسـم بعـد مـوت مـوسى ودخولهم فى بعض نواحى فلسطين بقيـادة يَشوعَ فَتَى موسى ؟ فكيـف يصحُّ هذا وقد تَفَرَّقوا فـيما بينهم أسـباطا كُلُّ سِبْطٍ فى مـسـاكنهم ؟ وكـيف يصحُّ إطلاقُ هذا الاسم عليـهم جمـيعـا بعد افتـراقـهم مملكتين : مملكة يهـوذا فى الجنوب ومملكة إسـرائيـل فى الشـمـال ، تَضُمُّ الأولى سَبْطَىْ يهوذا وبنيامين ، وتَضَمُّ الأخرى العشرةَ الأسباطَ الباقية من بنى إسرائيل؟ بل كيف جاز للآراميين أن يُسَمُّوهم جميعا "يِهودَائِين " ؟

تُرَى ، ما سرُّ تلك الحظوة التى كانت ليهوذا بن يعقوب فى تاريخ اليهود ؟

السرُّ كُلُّه هو أن كَتَبة " التوراة" يكتبون أسفارَهم فى ظلُّ بيتِ داودَ المَلِكِ ، وداودُ وسليمانُ من سبط يهوذا .

تَقرأ هذا فى الترجمة العربية للإصحاح التاسع والأربعين من سفر التكوين ، حيث يضعُ الكاتب على لسان يعقوب تفضيلَ يهوذا على كل إخوته وإن كان فيهم يوسف ، فيبدأ بتنحية الأَسَنِّ منه ، رأوبين وشمعون ولاوى : رأوبين لأنه دَنَّسَ مضجع أبيه (يريد أنه نَكَح ما نكح أبوه من قبل وينسى ما سَجَّلَهُ على يهوذا الذى زَنا بأرملة ابنه ثامار فاستولدها من هذا الزنا ابنَهُ "فَارِص"، ينسى هذا عمدا لأن فارص هذا من آباء داود الملك على عمود النسب المباشر إلى يهوذا) . أما شمعون ولاوى فلأنَّهُما فى غضبهما قتلا إنسانا وفى رضاهما عرقبا ثورا . فيعقوب لهذا يُفَرِّقُهما فى إسرائيل . ويجىء دَوْرُ "يهوذا " فيعطيه يعقوبُ كُلَّ شىء :"إياك يَحْمَدُ إخوتُك . يَدُكَ على قفا أعدائك . يَسْجُدُ لَكَ بنو أبيك" ، "لا يزول قضيبٌ من يهوذا ومُشْتَرِعٌ من بين رجليه (يعنى لا يزال من نسله المَلِكُ والمُشْتَرِع) حتى يأتى شيلو ويكون له خُضوعُ شعوب". وقد كَذَبَت النبوءة أوَّلَ ما كَذَبت ، فى أوَّلِ مَلِكٍ مَلَكَ على بنى إسرائيل ، وهو المَلِكُ شاؤول (طالوت فى القرآن) ، وشاؤول من سبط بنيامين لا من سبط يهوذا ، ولكن داود الذى من سبط يهوذا وَرِثَ شاؤول ، وهذا هو سرُّ اجتماع سبطى يهوذا وبنيامين فى مملكة يهوذا من بعد داود وسليمان ولم يستقر الملك لبيت داود كما تنبأ الكاتب على لسان يعقوب ، فلم يملك رَحُبْعام بن سليمان بن داود حتى انشقت عليه الأسباط العشرة وانفصلوا وحدهم بمملكة إسرائيل ، لم يتركوا له إلا سبطى يهوذا وبنيامين . بل إن هذا المُلك المحدود لم يستقر لبيت داود كما تنبأ الكاتب ، بل تَرَاوَحَ على بيت داود ملوكٌ من أصحاب مملكة إسرائيل ، مَلَكُوا على يهوذا وإسرائيلَ كلتيهما . أما " شيلو " المُتَنَبَّأُ له بخلافة سبط يهوذا فى المُلك والاشتراع (أى المُلك والنبوة) والذى يكونُ لَهُ خضوعُ شعوب ، فقد طال انتظارُه ، حتى جاء البابليون فَقَضَوْا على هذا وذاك ، ولم يبقَ من بيتِ داودَ إلا ذكرياتٌ وأشجان .

أيًّا ما كان الأمر ، فقد تأثر أحبارُ اليهود من بعدِ هذا الكاتب بنبوءة استقرار المُلك والاشتراع (أى المُلك والنبوة) فى بيتِ داود الذى من سبط يهوذا كما تنبأ الكاتب

على لسان يعقوب ، فاشترطوا أن يكون المسيح المنتظر من نسل داود الملك ، لأنهم أرادوا ، أو تَمَنَّوا ، أن يكونَ المسيحُ مَلِكاً نبياً على مثال داود وسليمان ، يستردون به العزَّةَ الضائعة بعد سبى بابل ، وكيلا يزولَ المُلك والاشتراعُ عن سبط يهوذا كما قالت النبوءة ، لا يَعْبَئون بـ " شيلو" هذا مَنْ يكون .

وكما تأثر أحبارُ اليهود بهذه النبوءة ، فقد تأثر بها أيضا " مَتَّى" و " لوقا " فى إنجيليهما ، بحرصهما على تأكيد أن المسيح عيسى بن مريم هو نفسه المسيح الذى ينتظره اليهود ، أى أنه المسيحُ بن داود ، ينسبان كلاهما المسيحَ عليه السلام إلى داود ـ لا عَبْرَ والدته مريمَ عليها السلام فهى من سبط لاوى ، سبط موسى وهرون ، السبط الذى نبذه الكاتب على لسان يعقوب فأعَزَّهُ اللهُ بموسى وهرون ومريمَ أُمِّ عيسى عليهم جميعا صلواتُ الله وسلامه ـ وإنما عَبْرَ يوسف النَّجَّار خطيبها الذى هو من سبط يهوذا ، فى محاولةٍ لإقناع اليهود بأنه هُوَ هُوَ المكتوبُ عنهُ فى "توراة الأنبياء والكتبة" وإنْ شَوَّشا بهذا على عُذْرِيةِ مَوْلِدِه صلواتُ الله عليه ، فَنَصَّا كلاهما على عمود نسب "يوسف النجار" إلى يهوذا عَبْرَ داود ، وأيضا " فارص " ، المولودِ كما يَدَّعِى سِفرُ التكوين من زِنا يهوذا بأرملةِ ابنه ثامار .

وقد رَذَّلَ المسيحُ عليه السلام هذه المقولةَ كما تعلم ، مُسْتَنْكراً أن يكون هو ابناً لداود ، فهو يَعْلَمُ كما تَعْلَم ، وكما يَعْلَمُ مَتَّى ولوقا والمسيحيون جميعا ، وكما شَهِدَ اللهُ عز وجل فى قرآنه المُصَدِّقِ المهيمن، أن المسيحَ عليه السلام مَثَلُهُ مَثَل آدم ، مخلوقٌ بكلمة "كُنْ" ، ألقاها عز وجل إلى عذراءَ لا تُزَنُّ بريبةٍ ، فهو مولودٌ بِغَيْرِ أبٍ.

وقد كان لِمَتَّى ولوقا غُنْيَةٌ عن هذا لو قالا إن المسيحَ هو "شيلو" الذى ينتقل إليه المُلكُ والنبوة بعيدا عن سبط يهوذا . وقد قال بهذا فعلا علماءُ المسيحية من بعد ، فأسقطوا نبوءة "شيلو" على المسيح ، دون التفات إلى أن مضمون النبوءة يُوجِبُ أن يكون " شيلو" من غير سبط يهوذا ، فلا يحتاج النسَّابون إلى الارتفاع بنسب المسيح إلى داود . وقد فسروا اسم " شيلو " هذا من الجذر العبرى " شلاً " (المأخوذ من "سلا" العربى على معنى كشفِ الهمِّ والغَم أى السَّلْوىَ والسلوان) فهو المسيحُ "صانعُ السلام" والمرادُ أنه عليه السلام الذى يكون بِهِ السلام : سلامُ المرءِ مع نفسه، وسلامُهُ مع الناس. وهذا كلامٌ جميل ، يَصْدُقُ فى حَقِّ النبيين جميعا دون استثناء ، فبهذا جاءت كُلُّ

رسالات السماء . وفى " شيلو" قراءةٌ أخرى يُرَجّحُها علماءُ التوراة : إنه " شلُّو"، يعنى "الذى لَهُ" فى العبرية ، أى " الذى يئول الأمرُ إليه " ، فيزدادُ الغموضُ غموضا ، شأنَ كُلِّ نبوءاتِ التوراة ،إلا أن تُفَسّرَ " أيلولة الأمر" بمعنى "أيلولة المُلك والاشتراع" التى تنبأ بها الكاتب لـ " شيلو " .

ولكن المسيح صلوات الله عليه قال : ما جئت لأُلقى على الأرض سلاما ، بل سَيْفا! وما أصدقَ قَوْلَهُ عليه السلام ، فمازال الحقُّ الذى جاءَ بِهِ فتنةً لمُحِبِّيهِ وشانئيهِ على السَّواء غَالَى فيه فريقٌ وأَوْضَعَ فيهِ فريق ، وهو صلواتُ الله عليه من هذين بَرَاء .

أيضا لم يَمْلُك المسيحُ كما مَلَكَ داود ، بل قد رُفِعَ المسيحُ قبل أن يكونَ لَهُ ـ كما تنبأ الكاتب لـ " شيلو" ـ خُضوعُ شعوب .

ليس المسيحَ عليه السلام هو " شيلو " ، وليس هو أيضا ابنَ داود .

أما نحن فنقول ان نُبوَّةَ النبيين صلواتُ الله عليهم أجمعين ، تَثْبُتُ بذاتها ، أى بما جاءوا به وبما قالوهُ أو صَنَعُوه ، لا تَحتاجُ إلى كَدِّ الذهنِ فى تَصَيُّدِ النبوءات من الكتبِ السابقة ، صَدَقَ الكتبةُ أو زَيَّفُوا . ونُبُوَّةُ المسيحِ عليه السلامُ من هذا : دليلُها من ذاتِها لا من خارجِها ، شَأْنُها شأنُ النبوات من إبراهيمَ إلى خاتَمِ النبيين . وهذا حَسْبُك .



وقبل أن نتناول بالتفسير معنى اسم "يِهوُذا " بن يعقوب، ومعنى لفظة "يِهُودِى" (وتُنْطَقُ دالُها فى عبرية التوراة ذالا كما مر بك) المقول بأنها صفةٌ على النسب إلى "يِهُوذا" بن يعقوب ، يَحْسُنُ أن نرجع بك إلى معاجم العبرانيين أنفسِهِم لنستدلَّ منها على وجوهِ إطلاقِ لفظة "يِهُودِى " على ما نسميهم نحن الآن باسم " اليهود".

ففى المُعْجَمِ الحديث لألفاظ توراة الأنبياء والكتبة (هَمِّلُون هحَداش لَتَنَاخ) عبرى /عبرى ، وهو من مراجع هذا الكتاب المتخصصة، يقول لك المُعْجَمُ المذكور (ص ١٩٩) إن لفظة "يَهُودى" تُطْلَقُ على وجوهٍ ستَّة هى :(١) الساكنُ مملكة يهوذا ، (٢) الذى هو من جلاء يهوذا ، أى ممن أجلاهم البابليون عنها ، (٣) الذى هو من أصَلاَءِ يهوذا الذين بقوا بالأرض ولم يَجْلوا ، (٤) سَبْىُ صِهيَون الذين ليسوا بكهنةٍ أو لاويين ،

يعنى العامة من بنى إسرائيل فى هذا السَّبْىِ خلافَ الكَهَنةِ واللاويين "يسرائيليم هدْيُوطيم" ، (٥) لَقَبٌ اصطلاحى يُطْلَقُ على من سكنوا "يهوذا" ، المقاطعة الفارسية، (٦) أَبناءُ سِبْطِ "يهوذا" ، فهو " اليَهوذِىُّ " كما تقول " اللاوِىُّ " ، " الشَمْعُونِّىِ" إلى غيرِهما من المنتسبين إلى أسباطِ يعقوبَ الإثنى عشر .

يتضح لك من هذا الكلام أن "اليهودى" فى عبرية التوراة ليس هو "الإسرائيلى" بإطلاق ، أى أن بنى إسرائيل ليسوا كلهم "يهُوديم" ، وإنما بعضُهم فقط : الذى هُوَ من سلالة "يهوذا " بن يعقوب ، أى المنتسب إلى أبيه "يهوذا " ، وهذا لا خلافَ فيه ولا غبارَ عليه ، أما الآخر فهو المنسوب إلى أرض سُمِّيتَ "يهوذا " ، كان من سِبطِ "يهوذا" أو لم يكن وسواءٌ بَقِىَ على تلك الأرض أو نَزَحَ منها .

ويترتب على هذا مباشرة أن يَخرُجَ من عِداد اليهود ـ سوى سبطِ يهوذا ـ كُلُّ أسباط بنى إسرائيل الأحد عشر الأُخرى الذين لم يسبق لهم سُكْنَى "يهوذا " ، بل ويخرج من عِدادهم أيضا موسى وهرون لأنهما أولا من سبط لاوى ، وثانيا لأنهما لم يَرِيَا فى حياتِهما أرضَ يهوذا ، بل أرضَ فلسطين جميعا ، فقد وُلِدَا فى مصرَ وماتا فى تيهِ سَيْنائها .

ويترتب على قول هذا المعجم المتخصص ـ والقولُ ما قالَهُ لا ما نقولُهُ نحن ـ أن " اليهودى" على النسب إلى شخص "يهوذا" بن يعقوب ، وجُدَت على النسب إليه منذ أن وُجِدَ ليهوذا سبطٌ يُنْسَبُ إليه ، أما التسمية على النَّسَبِ إلى الأرض التى مَلَكَ فيها سبطاَ يهوذا وبنيامين فلا تصحُّ إلا بعد انفصال مملكة "إسرائيل" بأسباطها العشرة عن مملكة "يهوذا " فى أولَى سِنِى حُكْم "رَحُبْعام " بن سليمان بن داود بعد حوالى خمسةِ قرون من خروجهم من مصر ، على ما تَقرأ فى "توراة الأنبياء والكتبة" .

النسبةُ إذن عند صاحب هذا المعجم كما رأيت ليست إلى شخص يهوذا ولا تَمُتُّ إلى يهوذا هذا بصلة ، عدا انطباقها ـ حين تنطبق ـ على سبط يهوذا ، أى أبناء يهوذا. وإنما اسم " اليهودى " عنده نسبةٌ إلى أرضِ يهوذا ، واليهودُ عنده هم مواطنو مملكة يهوذا أو من كانوا يوما ما من مواطنى مملكة يهوذا منذ عصر ما بعد داود وسليمان لا شأنَ لهم بغيرهم من بنى إسرائيل .

على أن هذا الاسم ـ شاء صاحبُ المعجم أم لم يَشَأ ـ انطبق على بنى إسرائيل جميعا فى أرض الشَّتات ، لا يُعرفون بغيره ، فقد اختلطت الأسباطُ من بعدُ وتمازجت

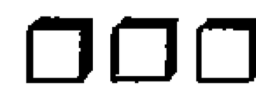
الأنساب ، لا تتوقف فى تسمية جارك اليهودى أهو من سبط يهوذا أم لا ، أكان من مواطنى مملكة يهوذا أم لم يكن ، يكفيك أنه ينتسبُ إلى موسى بن عمران .

وقد أصبحت " اليهودية " عند أهلها وعند غير أهلها ، هى اسمَ الدِّينِ الذى جاء به موسى ، لا إسمَ له إلا هذا .

ولكن نسبةَ هذا الدِّين إلى"يهوذا " بن يعقوب لا تصح ، وقد مات يهوذا قبل موسى بنحو خمسة قرون . ولا تصحُّ أيضا نسبةُ اليهود كُلِّهِمُ إلى "يهوذا " بن يعقوب، وأكثرُهُم من غير سبطه . وإنما الشرفُ فى هذا وذاك وَقَعَ ليهوذا بن يعقوب مَحْضَ مصادفةٍ ، أنْ كان من سبطه داودُ وسليمان اللذان راحا ـ على قِصَرِ مُلْكِهما ـ بكلِّ ما كان لليهود فى غابر الدهر من مجدٍ سياسى على تلك البقعةِ المحدودة من أرضِ فلسطين .

والذى نتوقف عنده فى هذا السياق أن القرآنَ المعجز الذى عَلِمَ هذا كُلَّهُ قبل أن يعلمَهُ غيرُه ، لا يجيءُ قط بلفظة "اليهود" وقد وَقَعت فى كل القرآن ثمانى مرات ـ ولا بلفظ "اليهودى" وقد وقعت فى كل القرآن مرةً واحدة ـ إلا مُقْتَرِنَيْنِ بلفظَى "النَّصْرانِيّ" ، " النصارى" ، يعنى أصحاب الملة على ما آل إليه اسمُهم فى عصره . أما إن أراد القبيلةَ أو الشعب فى عصورٍ سبقت ـ حتى الذين عبدوا العجل فى التيه ـ فلا يقولُ إلا " قومَ موسى" أو "بنى إسرائيل" ، وسبحانَ العليمِ الخبيرِ .

على أن القرآنَ يقول أيضا " الذين هادوا " ، وليست هذه كتلك ، كما سترى .



يستخدم القرآن فى تفسير معنى لفظة " اليهود " أسلوبَ الترجمة على منهجنا فى هذا الكتاب ، فيقول : " الذين هادوا " من الجذر العربى هاد/ يَهُودُ/ هَوْدًا ، يَأخذُها من قول موسى فى استغفاره لقومه فى فتنة العجل : { **قال ربِّ لو شئت أهْلَكْتَهم من قبلُ وإياى ، أتُهلِكُنا بما فعل السفهاءُ منَّا ! إنْ هى إلا فتنتُكَ تُضِلُّ بها من تشاءُ وتهدِى من تشاء ، أنت وَلِيُّنا ، فاغفر لنا وارحمنا ، وأنت خيرُ الغافرين . واكْتُبْ لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة ، إنا هُدْنا إليك** } (الأعراف : ١٥٥ ــ ١٥٦) ، أى تُبْنَا وأَتَبْنا .

وقد تقول ـ كما أقول ـ ان القرآن يستخدمُ عبارةَ " الذين هادوا " أخذاً لبنى إسرائيل بقولِ موسى على لسانهم : "إنا هُدْنا إليك" ، أى يستخدمُها على مَحْمل تبكيت الذين هادوا ثم لم يَهُودوا ، بل عَصَوْا ثم هادوا ثم عَصَوْا من بعد . وهذا جيد . ولكن الذى تندهش له ، أن " الذين هادوا " هذه هى أحد وجوه ترجمة اسم "يهوذا" عبْرِيّاً ـ الشخصِ أو الأرض ـ لا عِبْرَةَ بهذا أو ذاك ، إن لم يكن أصوبَ هذه الوجوه .



من معانى اليد فى لغتنا العربية الصنيعُ والإحسانُ والمعروف ، تقول : لَهُ عَلَىَّ يَدٌ ، تُريدُ له عندى صنيعٌ أنا لَهُ عارِف ، ممتنٌّ شكور . ويجىء على هذا المعنى الجذر العربى " يَدَىَ" ، مجرداً أو مزيدا فى أوله بهمزة التعدية " أَيْدَى " .

وعلى هذا المعنى أيضا يجىءُ فى العبرية الجذر العبرى " يَدَا " (وأصلُهُ بالواو " وَدَا " الذى تستخدم العبريةُ المعاصرة مُضَعَّفَهُ " ودّا " بمعنى الاعتراف والإقرار) ، والمُعَدَّى منه فى العبرية بالهاء (كالمُعَدَّى فى العربية بالهمزة على ما مر بك) هو " هُودا " يعنى أقرَّ بالصنيع أو شَكَر (ومنه فى العبرية المعاصرة " هُودا " على المصدرية بمعنى عرفان الجميل أو الامتنان وأيضا : " تُودا " يعنى : شُكْراً) . على أن "هُودا" تعنى أيضا الاعتراف والإقرار على أصلها ، ومنها " هُودا بأشْمَه" يعنى أقر بذنبه أو إثمه (والإثمُ فى العبرية بالشين) . وعلى هذا الوجه تستطيع أن تترجم إلى العبرية عبارة موسى عليه السلام فى القرآن : "إنا هُدنا إليك !" (الأعراف : ١٥٦) بقولك عبرياً : " كِي هُودينو لِخَا !" ، من "هُودا" العبرية هذه ، أى قد أقررنا لك ! على معنى التوبة والإنابة .

وعلماءُ التوراة يشتقون اسم يهوذا من " هُودا " أيضا على زنة فعل المضارع المفرد الغائب المبنى للمجهول يُرادُ منه اسم المفعول ، يشتقونه على معنى الشكر والعرفان فهو يُشْكَر ، بمعنى مشكور ، استنباطا من قول سفر التكوين على لسان والدته حين وضعته : "هَپعَّام أُودهْ إِت يَهْوَا ، علْ كِنْ قارْءا شْمُو يهُوذا ، وتَعْمُدْ ملّيدت" (تكوين ٢٩ / ٣٥) التى تجدها فى الترجمة العربية هكذا : "هذه المرة أَحْمَدُ الرب . لذلك دَعَتِ اسْمَهُ يهوذا . ثم توقفت عن الولادة " (تكوين ٢٩/ ٣٥ ـ النص العربى) .

هنا تلمح على سن قلم الكاتب أنه يفسر جازما معنى "يهوذا" بمعنى الحمد الذى فى عبارة والدته "هذه المرة أَحْمَدُ الرب" على ما ترجمها المترجم العربى لسفر التكوين. والصواب أن تترجم هذه العبارة بقولك : "هذه المرة أشْكُرُ الرب" لا "أَحْمَدُ الرب" لأن "هودا" العبرية بمعنى "شَكَر" لا بمعنى "حَمِد" . والتفرقة بين الحمد والشكر من دقائق اللغة العربية ، لا يَفْطِنُ إليها كثيرون ، ناهيك بغير الساميين الذين هم عن فَهْمِ هذه التفرقة أبْعَد ، فهم يخلطون بين الحمد والمدح والشكر ، كما تجد على سبيل المثال فى الترجمة الانجليزية لمعنى اسم " يهوذا " ، فيقولون Praised يعنى "ممدوح" . ولو كانت "هودا " بمعنى الحمد لما جاز للعبرية المعاصرة أن تشتق منها " تُودا !" يعنى "شُكْراً !" الصحيحُ على قول سفر التكوين فى هذا الموضع أن يهوذا معناها يُشْكَر على البناء للمجهول ، أى الذى هو موضع شكر والدته على إنجابها إياه ، ذَكَراً رابعا ، ولم تُنْجب بعد أختُها وضَرَّتُها راحيل . وقد سَمَّى العربُ قريبا من " يُشْكَر " هذه ، فكان من أعلامهم مثل " اليَشْكُرِىّ " .

على هذا يكون معنى " اليهود " ، أى " اليهوذيين " المنتسبين إلى "يهوذا " ، أى إلى "يشْكَر" هو " اليُشْكَرِيُّون " .

وقد تقول إن " ليئة " والدة يهوذا لم تقل هذا الذى قاله على لسانها كاتب سفر التكوين ، بدليل أنه يضع فى كلامها لفظة "يِهْوَا " بمعنى " الرب " فى النص العبرانى، ولم تعرف "يِهْوا " هذه فى العبرية إلا فى رسالة موسى (خروج ٣/٦) ، ولم يولد موسى إلا بعد هذا بخمسةِ قرونٍ على الأقل . وإنما قال هذا كاتبٌ يكتبُ على زمنه عصرَ داودَ وسليمان يُريدُ توثيقَ المعنى الذى يُفَسِّرُ به الاسم من أجلِ مجدِ بيتِ داودَ الذى من سبط يهوذا ، استكمالا لتفضيله يهوذا على جميعِ أبناءِ يعقوب على ما مر بك فى موضعه من وصايا يعقوب أو بَرَكَاتِهِ لبنيه .

وقد تكرر من الكاتب تأصيلُ معنى "يهوذا" على الفعل "هودا" العبرى ، لا على لسان والدته هذه المرة وإنما على لسان أبيه ، أعنى فى "بَرَكَات " يعقوبَ لبنيه ، بقوله فى الإصحاح التاسع والأربعين من سفر التكوين (النص العبرانى) : "يهُوذَا أَتَّا يُوذُوخا أَحِيخا" التى قالها المترجم العربى : " يهوذا إياك يَحْمَدُ إخوتُك " (تكوين

٨/٤٩) يترجم هذه المرة أيضا " يُوذُوخا " (وهى " هُودا " فى صيغة مضارع جمع الغائب) بمعنى الحمد ، ربما متابعةً للمترجم الانجليزى الذى يستخدم فيها هنا أيضا الفعل To Praise .

ولكن المعجم العبرى المتخصص الذى أحَلْتُكَ إليه (ص ١٩٧) يُخالفُ هنا المترجمَ العربىَّ والمترجمُ الانجليزىَّ على السواء ، إذ يتخذ من عبارة يعقوب هذه نفسها "أتَّا يُوذُوخا أحِيخا" (إياك يَحْمَدُ إخوتُك) مثالا لتفسير أحد معانى الفعل "هُودا" العبرى ، فيقول ـ والقول ما قاله بالطبع فهو صاحب اللغة ـ : أتَّا يُوذُوخا أحِيخا يِتَّانُو لخا هُودْ مَلخُوت ، كُلْ هَشْبَطِيم يِكَيرو بِعْركِخا ، أى لا "إياك يحمد إخوتك" وإنما : يعُطونَكَ مَجْدَ المُلك ، كُلُّ الأسباط يُقرُّون بفضلك . أعنى أن هذا المعجم العبرى المتخصص لا يفسر الفعل العبرى "هُودا" لا بمعنى "حَمِدَ " ولا بمعنى "مَدَحَ " أو "شَكَرَ" ، وإنما يفسره بمعنى الإقرار والاعتراف .

ليس هذا فقط ، بل إن هذا المعجم العبرى المتخصص يقول لك فى نفس الموضع بالنص وهو يسرد عليك مختلف معانى الفعل العبرى " هُودا " إن " هُودا " من معانيها عبرياً ، "هِتْحرِطْ" ، يعنى : "تابَ ونَدِم" ، فهى التَّوبَةُ والَمثابة (" تشُويا " العبرية).

متى صَحَ لك هذا ــ وهو صحيحٌ بقولِ شاهدٍ من أهْلِها ـ جاز لك أن تُفَسِّرَ اسمَ "يهوذا" على معنى "الهائد" التائب المُنيب .

وكَأنَّ "يهوذا " أثَارةٌ من اسم النبى "هود" عليه السلام ، مَأْخُوذاً من العربية الأولى على ما مر بك فى موضعه .



وليس لنا بالطبع فى هذا الكتاب أن نُطالبَ المترجمَ العربىَّ لسفر التكوين بتصحيح ترجمة عبارة "يهوذا إياك يَحْمَدُ إخوتُك" إلى : "يهوذا إليكَ يَثُوبُ إخوتك" ، وإنما الذى يعنينا فى مقاصد هذا الكتاب الذى نكتب هو أن القرآن المُعجزَ عَلِمَ من قبل أن من معانى "يهوذا" الهائد المُنيب ، فَجَانَسَ عليه فى وصف " اليهود" المنتسبين إليه، فقال "الذين هادوا" ، وكأنه يُذكِّرَهُم بقول موسى يستغفر لهم ربَّه فى فتنة العجل : {**إنا**

هُدْنا إليك] (الأعراف : ٥٦) التى تقولها عبرياً: "كِى هُودينولِخا" على ما مر بك ، يفسر لهم بها ما تَسَمَّوْا به . وسبحانَ العليمِ الخبير .



وكما جاءت "الذين هادوا " عَشْرَ مراتٍ فى القرآن على الإبدالِ من "اليهود" ، جاءت فيهم أيضا ثلاثَ مرات لفظةُ " هُود" (وقد وردت فى المراتِ الثلاث مزيدةً بألفِ تَنْوِين المنصوب "هُودا") .

وقد قيل (راجع تفسير القرطبى للآية ١١١ من سورة البقرة) لن " هود " هذه هى إما على التخفيف من "يهود " بحذف الياء البادئة ، وإما هى "الذين هادوا" نفسها جاءت بصورة جَمْعِ الفاعل من " الذى هَادَ " ، وهو الهائد ، يُجْمَعُ على هُود . وهناك وجهُ أقترحُهُ عليك ، وهو أن " هُود " هذه جاءت تسميةً باسم الفعل من هادَ يَهُودُ هَوْداً فهو " هُود " . هذا الوجه هو الراجحُ عندى ، وهو أيضا الذى إرتأيناه فى تحليلِ اسم النبى "هُودٍ" عليه السلام، والتسميةُ بالمصدر واسم الفعل يستوى فيها المفردُ والجَمْع . وكان هذا أيضا مَذْهَبَنا فى تفسير اسم النبى " لوطٍ " عليه السلام من لاطَ يَلُوطُ لَوْطاً فهو " لُوط" .

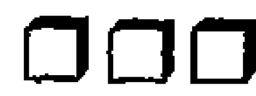
أما "يهود" فلم تقع فى القرآن قط مجردةً من الألف واللام ، وإنما جاءت حيثما وردت ، وقد وردت فى كل القرآن ثَمانَى مرات ، مُعَرَفَةً بالألف واللام "اليهود" ، والتعريفُ بالألف واللام كما تعلم يَمْنَعُ من الصرفِ وُجُوبا . ومن هنا لا يَستبينُ لك مَنْهَجُ القرآنِ فى جوازِ تنوين "يهود" . والفصيح هو عدم جواز تنوين "يهود" لسببين : إن اعتبرتَها أعجمية ، فَلِلْعُجمة ، وإن اعتبرتها عربية ، من هَادَ يَهُود ، فلأنَّها مبدوءةٌ بياءِ المُضَارَعَة كيَشْرِبَ ويَنْبُعَ ويَزِيد ، وهذا يَمْنَعُ من الصرفِ وُجُوبا .

والذى أقولُ به أنا هو أن "يهود" بالذات ليست عربية ، وإنما هى من الأعجمى الذى نطق به العربُ قبل القرآن ، وأنها قيلت بذاتها على معنى الجَمْعِ اسماً لشعبٍ أو قبيلة: تقول " ثلاثةُ رجالٍ مِنْ يَهود"، ولا تقول" ثلاثةُ رجالٍ يَهَاوِيد أو ثلاثةُ رجالٍ يَهُودِين" أما إن أردت التنصيص على المُفْرِدِ أو المُثَنَّى فأنت تقول على النسب "يَهُودِيٌّ" أو " يَهُودِيَّان " .

وقد وقعت الصفة على النسب إلى "يهود " مرةً واحدةٍ فقط فى كل القرآن ، فى قوله عز وجل { **ما كان إبراهيمُ يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفاً مسلماً** } (آل عمران : ٦٧) .

وجاء فى فصيحِ العربية ، بل وفى الصحيح من حديث سَيِّد الفُصَحاء صلى الله عليه وسلم ، لفظةُ "يهود" مُعَرَّفَةً بِمَحْضِ عَلَمِيَّتِها لا تحتاجُ إلى الألف واللام ، يُرادُ منها فى الغالب ذلك الحَىُّ من يَهودِ يثرب ، كما تقول " عادٌ " ، " ثَمُود ".

ولكن القرآن المعجز ـ وقد أتى بلفظة " اليهود" ثمانى مرات ـ لا يأتى بها إلا مُعرَّفَةً بالألف واللام ، يَقْطَعُ شُبْهَةَ تأويلِ مقولته فيهم فى تلك المواضع الثمانية بأنها تَنْصرفُ إلى بعض من يهود دونَ بعض ، من مثل قوله عز وجل : { **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء** } (المائدة : ٥١)، { **لَتَجِدَنَّ أشَدَّ الناسِ عداوةً للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا** } (المائدة : ٨٢) : إنهم يهودُ كلِّ مكانٍ وكلِّ عَصْر ، سُنَّةٌ ماضيةٌ فيهم إلى يوم القيامة ، فَخُذوا حِذْرَكُم أيُّها المؤمنون الذين أَسْلَمُوا .



وقد مر بك فى تقديمنا لهذا الفصل أن " اليهود " تسميةٌ على المَدْح . ولو فَهِمَها أصحابُها على أصْلِها فَعَملوا بها لكانَ خَيْراً لهم ، ولكن اليهودَ هادوا ثم عَصَواْ ، ثم هادوا ، ثم عَصَواْ من بعد .

ومن معانى الهَوْدِ فى اللغة، الهَوادَةُ والمُهَاودَة، أى الانصياعُ وَتَرْكُ التَأبِّى. والهَوْدُ إلى اللهِ عز وجل هو هذا بالذات : تَجيئُهُ مُذْعِناً قد سَكَنَ منكَ القلبُ والجوارح . إنه "إسلامُ الوجهِ لله" .

من هذا قوله عز وجل فى تفسير الذين هادوا : {**إنا أنزلنا التوراةَ فيها هُدَىً ونور يَحْكُمُ بها النبيون الذين أَسْلَموا للذين هادوا**} (المائدة : ٤٤).

ومنهُ أيضا قولُ القرآنِ على لسانِ سليمان : { **وأوتينا العِلْمَ من قَبْلِها وكُنّا مُسلمين** } (النمل : ٤٢) ، أى أوتينا التوراةَ من قبلُ وكنا هوداً هائدين .

بل منه أيضا تلك الآية الجامعة لا قَولَ بعدَها لقائل : { **إن الدين عند الله الإسلام ، وما اختلف الذين أَوتوا الكتاب إلا من بعدِ ما جاءهُمُ العِلْمُ بَغْياً بينهم** } (آل عمران : ١٩) يعنى إلا من بعد ما جاءتهم التوراة كما مر بك ، فما جاءتِ التوراة إلا بهذا الإسلامِ نَفْسِه .

وأخيرا قال الحق سبحانه : { **فإنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أسْلَمْتُ وجهى لله ومن اتَّبعَن وقُل للذين أوتوا الكتابَ والأميين أأسْلمتم فإن أسْلَمُوا فقد اهتدوا** } (آل عمران : ٢٠) .

هذا هو الدِّينُ القَيِّم ، لا يُدانُ للهِ بغيره ، ولكن أكثرَ الناس لا يَعْلَمُون .

فهل آن للذين هادوا أن "يَهُودوا " ؟

عسى ربُّهم أن يَرْحَمَهُم ، أو يتوبَ عليهم ليَهُودوا .

الفصل الثامن

داود ذو الأيد :

أنبياء وملوك

يتناول هذا الفصل تفسير اثنى عشر اسماً علماً ، هى : طالوت ـ جالوت ـ داود ـ الزَّبور ـ سليمان ـ إلياس ـ اليَسَع ـ ذو الكِفل ـ يُونُس ـ أيُّوب ـ عُزَيْر ـ لُقمان .



والترتيبُ التاريخيُّ للأعلام الخمسة الأولى : طالوت ـ جالوت ـ داود ـ الزبور ـ سليمان ، ترتيبٌ تتفق فيه التوراةُ مع القرآن . فطالوتُ هو شاؤول ، أولُ مُلوك بنى إسرائيل، سألوا نبيا لهم (١) أن يَبْعَثَ اللهُ عليهم ملكاً فبعث الله عليهم طالوتَ ملكا ، وهو شاؤول كما مر بك ، ومعنى " شاؤول " عبريا هو السُّؤْلُ والطِّلْبَة كما سترى . وجالوت من جبابرة الفلسطينيين الذين كانت بينهم وبين إسرائيل حروبٌ على عَصْرِ شاؤول . وداود كان يمشى فى عَسْكَرِ شاؤول ، فخرج إلى مبارزة جالوت ، وقَتلَ داودُ جالوت {البقرة : ٢٤٦ ـ ٢٥٢} . والزَّبور وهو " المزامير " فى أسفار العهد القديم ، وَحْيُ الله على داود كما تعلم . أما سُليمَان فهو ابن داود عليهما السلام ، خَلفَ أباهُ فى بنى إسرائيل فَوَرِثَ العرش كما وَرِثَ النُّبُوَّة .

أما الأعلامُ السبعةُ الأخرى : إلياس ـ اليسع ـ ذو الكفل ـ يونس ـ أيوب ـ عزير ـ لقمان ، فلا يستبين لها ترتيب مقطوع به فى القرآن . ولكنك تجد فى التوراة إلياس فى أعقاب سليمان ، وتجد اليَسَع تلميذا لإلياس ، ويجيءُ ذو الكفل من خلفاء اليَسَع . أما يُونُس وأيُّوبُ فلا ترتيبَ لهما تَطْمَئِنُّ إليه فى التوراة ، فجئنا بهما الواحدَ بعد الآخر ، قبل عُزَيْر . وأما لُقمانُ فقد انفرد به القرآنُ ولم تُسَمِّه التوراة .

(١) هو " صموئيل " ، وأصلها العبرى " شمُوئيل " بالشين . وقد تردد علماء التوراة فى تفسير النصف الأول من هذا الاسم المزجى " شمُو" : قال بعضهم انها من " شم " العبرية يعنى " اسم " فهو " اسم الله " أو " اسمُهُ الله " على تمجيد الله عز وجل يوم وُلد ، وقال آخرون بل هى مخففة من " شَمُوع " العبرية فهى سَميع بمعنى مَسموع ، فهو " مسموعٌ من الله " على معنى " مستجابُ الدعوة " . ولم يُذكر صموئيل بالاسم فى القرآن ، وإن أثبَتَ لهُ النبوة .

وليس المرادُ من عنوان هذا الفصل ـ " أنبياء وملوك " ـ أن رجاله جميعا إمَّا أنبياءُ وإمَّا ملوك ، أو أنهم ملوكٌ أنبياء . نعم ، قد كان منهم الملكُ النبى مثل داود وسليمان، وكان منهم الملك فحسب مثل شاؤول (طالوت) الذى كان ملكا ولم يكن نبيا ، وكان منهم إلياس واليسع وذو الكفل ويونس وأيوب ، أنبياء ليسوا بملوك . ولكن منهم أيضا من ليس هذا ولا ذاك : جالوت ، جَبَّار فِلَسْطِينِىٌّ عابدُ وَثَن ، لا تُثبت له التوراة صفة الملك على الفلسطينيين ، ولا يُثبتها له القرآن ، وإنما يثبت له صفة قائد جُندهم أو أمير جُموعهم كما تجد فى قوله عز وجل : {**فلما برزوا لجالوت وجنوده**} (البقرة : ٢٥٠) ، بينما هو فى التوراة شُجاعٌ عملاق من أبطال جند الفلسطينيين فحسب . وثَمَّ أيضا عُزَيْر ، لا نبىٌّ ولا مَلك . وثَمَّ أيضا لُقمان الذى انفرد به القرآن ولا تَتَجاوز به رُتبة الصِدِّيق ، فلم تَثْبت لَهُ النبوةُ فى القرآنِ أو فى حديث صحيح .

وإنما الإشارة بهذا العنوان ـ " أنبياءُ وملوك " ـ هى إلى داودَ وسليمان ، أبْرَزِ أعلامِ هذا الفصل ، اللذين انفردا بالملك والنُّبُوةِ جميعا ، صلوات الله وسلامه على جميع رُسُلِه وأنبيائه .

(٤٠) طالـوت

مر بك فى تضاعيف هذا الكتاب أن القرآن يخالف التوراة فى تسمية أوّل ملوك بنى إسرائيل: قالت التوراة " شاؤول " ، وقال القرآنُ " طالوت ".

وقد زعم بعضُ المستشرقين المنْكرين الوحىَ على القرآن (١) ، أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) أخطأ خطأً بيّنا فى تسمية شاؤول : قيلَت له شاؤول فوقعَت فى سمعه طالوت ، ولم يَتثَبت . وأنصفَ بعضهم ـ أو تحرى بعض الإنصاف ولم يستوف ـ فقال ان محمداً (صلى الله عليه وسلم) عَلِمَ من وَصْفِ هيئة شاؤول فى التوراة إفراطَ شاؤول فى الطُّول ، فلَقَّبَه بكُنْيَة يُستفادُ منها المبالغةَ فى الطول ، فقال " طالوت " على الإبدال من اسمه الأصلى فى التوراة " شاؤول " عالِماً أو غيرَ عالِم بهذا الاسمِ الذى لطالوتَ فى التوراة .

ولم يتصدَّ هؤلاء ـ كما لم يَتَصَدَّ القرطبىُّ رحمهُ الله فى تفسيره الآية ٢٤٧ من سورة البقرة ـ لسببِ عُدول القرآن عن " شاؤول " إلى طالوت ، ولو عَلِمَهُ المستشرقون لما مَلكوا إلاّ أن يَشهدوا لهذا القرآن بإعجازٍ فوق إعجاز ، كما سترى . ولكن الهُدى هُدى الله ، والله عز وجل لا يَهدى إليه إلا من أناب .



رَسَمْنا " شاؤول " بالألف بعد الشين على ما شاعت به فى "الكتاب المقدس" (وتُرْسَم فيه أيضا بواو غيرِ مهموزة " شَاوُل ") ، وصحيحُها فى العبرية "شَؤُول" ، على زِنَة " فَعُول" ، زنة اسم المفعول فى تلك اللغة . و "شاؤول" مفعول من "شَأَل" العبرى ، مُكافىء "سَأَل" العربى بكل معانيه ، وأخَصُّها المَعْنىُّ هنا الطلب ، تقول سألتُ الله عز وجل ، يعنى طلبتُ منه وتَمنّيتُ عليه : { **يَسألُهُ مَنْ فى السموات والأرض،**

(١) انظر Joseph Horovitz ، المرجع المذكور ، ص ١٩ .

كُلَّ يوم هو فى شأن } (الرحمن : ٢٩) أى أنه جل وعلا الساعى فى حوائج الخَلْقِ أجْمَع ، كُلَّ يوم هو فى شأنٍ هذا وذاك وتلك ، المُسْتَخْفى بالليل والسارب بالنهار ، لا يَغفَل عن النملة فى أديم الأرض ، ولا يَسْهُو عن النَّبْتَة فى صميم الجبل . وهذا من دقيقِ القرآن ، لو تأمَّلتَه لسَاخَت نفسُك ، ولخَشَعَ العقلُ وانفطرَ القلب .

" شاؤول " إذن معناها عبريا " مَسؤول " بمعنى مَوضعِ السؤال والطَّلَب ، فهو "طِلْبَةٌ " أو "سُؤْلٌ" أو هو " المِنَّة " و " الفضل " ، كما قال عز وجل يستجيبُ لموسى : { **قال قد أُوتيتَ سُؤلك يا موسى . ولقد مَنَنَّا عليك مرةً أخرى** } (طه : ٣٦ ــ ٣٧) ، يعنى قد طُلْنَا عليك بما سألت ، أى طُلْنَا عليك بسُؤلك الذى سألت ، وهذا شبيه بما سأله صموئيل لقومه : سألوا الله على لسان هذا النبى أن يبعث عليهم الله مَلكا ، فطالَ الله عليهم به ، وكان لهم سُؤْلُهُم الذى سألوا .

والقرآنُ المُعْجِز ، الذى لم يَفُتْهُ معنى " السُّؤال " الذى فى شاؤول العبرية كما ظن المتطفلون على المباحث اللغوية من أدعياء الاستشراق المُنْكِرين الوَحىَ عليه ، يجىء بشاؤول على " طالوت " العربية التى تَجْمَع بين مَعْنَيين كما سترى : الذى طالَ الله به على قومه ، والطُّوَالُ الذى فَاقَ بِطُولِه كلَّ أقرانه . فأىُّ إعجازٍ وأىُّ عِلم ! .



كان شاؤول رَجَلا طُوَالا ، يعنى مُفرِطاً فى الطُّول ، لا يتجاوزُ كَتفَيْه أحَدٌ من قومه : " فوقف بين الشعب فكان أطول من كل الشعب من كَتفه فما فوق " (صموئيل الأول ١٠/٢٣) [١] فكان طول قامته من دواعى تَقَبُّلهم له واجتماعهم عليه : " فقال صموئيل لجميع الشعب أرأيتم الذى اختاره الربُّ أنَّهُ ليس مثله فى جميع الشعب ؟ فهتف له كل الشعب وقالوا ليَحْيَى المَلك " (صموئيل الأول ١٠/٢٤) .

والقرآنُ يعبر عن فَرْط طُول قامة شاؤول بالبَسْطَة فى الجسم . ولكن القرآنَ يَزيدُ قارئَه بيانا : { **وقال لهم نبيُّهم إن الله قد بعث لكم طالوت مَلكا ، قالوا أنَّى يكونُ لَهُ المُلكُ علينا ونحن أحَقُّ بالمُلك منه ولم يُؤتَ سَعَةً من المال ؟ قال إنَّ الله اصطفاهُ عليكم وزَادهُ بَسْطَةً فى العِلم والجسم،**

(١) لصموئيل النبى فى العهد القديم سفْران : سفر صموئيل الأول وسفر صموئيل الثانى ، فهما سفران لا صموئيلان ، أعنى أن الأوَّل هنا صفة للسِّفر لا لصموئيل .

والله يُؤتِى مُلْكَهُ من يشاء ، والله واسعٌ عليم } (البقرة : ٢٤٧) ، يُذَكِّرُهُم بأنهم هم الذين استخاروا الله فيمن يملكون عليهم ، وقد اصطفاه الله من دونهم ، فلا قول بعد هذا لقائل . ولكنه عز وجل يتلطف ، فيبين لهم أسباب الاصطفاء لهذا المنصب: لا عبرة بسعة المال ، وإنما العِبْرَة بالبَسْطَة فى العلم اللازم لإدارة شؤون الملك ، وبالهيئة التى تَحْفَظُ الهَيْبَة ، وقد اجتمعا فى " طالوت " طويلِ القامة الذى طَالَ اللهُ عليهم بِه .

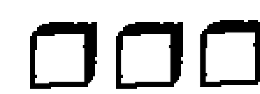


طَالَ يَطُولُ طُولا (مضمومَ الطَّاءِ فى المصدر) يعنى طالت قامَتُه فهو طويل .

أما طَالَ يَطُول طَوْلا (بفتح الطَّاءِ فى المصدر) فمعناه طالت قامَتُهُ حتى فَاقَ أقرانَه فهو طُوَال . ومعناه أيضا أفْضَلَ وَمَنَّ وأَنْعَم : طالَه بكذا ، وطال عليه به ، يعنى جاد عليه بالفضل والمنة . والاسم من هذا ، أى المَطُولُ به ، هو الطِّيل ، والطَّال والطَّالَة أيضا .

وقد وصف الله عز وجل ذاتَه العَلِيَّة بذى " الطَّوْلِ " (غافر ٣) يعنى المُنْعِمُ المِفْضَال المُتَفَضِّل .

و " طالوت " مصدر صناعىٌ من " الطَّال " على هذين المعنيين كليهما ، الطُّوال والطَّال ، كما قيل " ناسوت " من " النَّاس " ، جاءَ بها القرآنُ ولم تُسْمَع من العرب ، إدْلالاً بعلمه واعجازه ، فيجىء بشاؤول المعنى لا يسميه باسمه مُتَرجماً فحسب ولكنه يصوره لك أيضا بصفته : لا تقرأ " طالوت " أو تسمعها إلا وتراه أمامك ، الطُّوَال العِمْلاق . وسبحان العليم الخبير .



وقد فَطَنَ مفسرو القرآن (راجع تفسير القرطبى للآية ٢٤٧ من سورة البقرة) إلى معنى " الطُّوَال " الذى فى " طالوت " . ولكنهم ، وقد علموا من أحاديث أهل الكتاب أن طالوت اسمه فى التوراة " شاؤول " ، لم يَفْطِنُوا إلى ما فى "طالوت" من معنى الطِّيل والطَّال والطَّالة ، أى الامتنان على السائل بما سأل ، أى السُّؤل ، معنى

اسم " شاؤول" عبريا . وهم لم يفطنوا إلى هذا لأنهم لم يعلموا أن شاؤول عبريا معناها "السُّؤل " عربيا ، وما كان لهم أن يعلموا هذا لأنهم لا يقرءون التوراةَ مباشرة فى نصِّها العبرى ، ولأنهم أيضا ، وهذا أهم ، لم يتوفروا على دراسة عبرية التوراة بالقدر اللازم لتأصيل معانى أعلامها .



أما لماذا عدل القرآن عن "شاؤول" إلى "طالوت" التى لا وجود لها بذاتها أو بوجهٍ قريب منها فى أسفار التوراة التى بين يديك ، فهذا كما مر بك هو منهجُ القرآن فى التعريب : يَعْدِلُ عن التعريب إلى الترجمة حين يُسىء التعريبُ إلى المعنى :

إن قال فى " شاؤول " شَؤول على أصلها العبرى ، اختلط معناها بمعانى الجذر العربى "شَالَ" بالشين غير مهموز ، فعْلَ العقرب ، تَشُول عليك بذنبها ، وهذا بعيدٌ تماما عن معنى الجذر " شَأَل " العبرى المهموز المكافىء لـ " سَأَلَ " العربى بالسين .

وإن قال فى تعريب " شاؤول " " سَؤُول " ، أى شَؤُول العبرية مَعدولاً عن شينها إلى السين ، شأنَ القرآن فى الأعلام العبرية ذوات الشين ، مثل " شلُومُون " المعربة على " سُلَيْمان " ، أخذها القارىء بمعنى " سَؤول " العربية يعنى الكثير السؤال ، أى السائل الملحف فى السؤال ، أى أخذها بعكس معناها فى العبرية : السُّؤْل ، موضع السؤال .

وقد كان فى متناول القرآن بالطبع أن يترجم " شاؤول " بمكافئها العربى الدقيق ، أعنى " سُؤْل" أو سُول " (غير مهموزة ، قد سُمِعَت من العرب بمعنى " سُؤْل " المهموز) ، أو يترجمها بفعل آخر بنفس معناها ، وهو الطَّلَب ، فيقول " طِلْبَةٌ " (كما نسمى نحن فى أعلامنا الآن فنقول " طُلبة " بضم الطاء على معنى " البُغية ") .

ولم يفعل القرآن هذا لأن " سُول " غير المهموزة تختلط عند القارىء العربى بمعنى " التسويل" وهذا من معنى " شاؤول " العبرى بعيد . ولأن " سُؤل " و " طِلْبَة " ليس لهما من الجرسِ القرآنى الذى عَهِدَت نصيب .

أما " طالوت " التى جاء بها القرآن ـ وهى من مستحدَثات القرآن ـ يُصيبُ بها الاسمَ والصورةَ معا ، فهى شَأْوٌ فى الترجمةِ بعيد ، دُونَه قطع الرقابِ .



فسر القرآنُ إذن العَلَمَ العبراني " شاؤول " بالترجمة ، فقال " طالوت " ، والتفسير في القرآن بالترجمة يُغني عن كل تفسير . ولكن القرآن يفسر أيضا معنى هذا الاسم الأعجمي وهو الطِّلْبَة والبُغْيَة والسُّؤْل ، بالتصوير ، في قوله عز وجل : {**ألم تَرَ الى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبيٍّ لهم ابعثْ لنا مَلِكاً نقاتِلْ في سبيل الله** } (البقرة : ٢٤٦) ، أي سألوا الله على لسان هذا النبي مَلِكًا يقاتلون معه في سبيل اللهُ ، فاستجاب الله سُؤلَهُم بشاؤول مَلِكًا .

ولعلك تلاحظ هنا أن " شاؤول " ، شَأْنُها شَأْنُ كثير من أعلام التوراة ، تُشْبِهُ أن تكون كُنْيَةً يَتَكَنَّى بها العَلَمُ المقصودُ بعد تَحَقُّقِ الصفة والحال ، أي ما كان شاؤول "سُؤلاً " يوم وُلِد ، وإنما يوم مَلَّكَهُ الله عليهم بسؤالهم إياه .

وطالوت العربية من هذا أيضا بلا جدال ، فلا أحدَ يتسمى يوم مولده بالطُّوَال العملاق ، إلا أن يُرادَ منها المعنى الآخر ، الفضل والمِنَّة ، الذي تأخذه من الطال والطالة، فلا تَدري أيُّ الإسمين كُنْيَة ، ولا تَدري أيضا أي الكُنْيَتَيْن أسبق من الأخرى في تسمية هذا الملك .

أما لماذا جاءت " طالوت " في القرآن ـ وهي عربية ـ اسماً ممنوعاً من الصرف غَيْرَ مُنَوَّن ، فالوجه عندي أن أخص سبب لهذا هو الإشارة إلى عجمة صاحب الاسم العَلَم .

(٤١) جالـــوت

تُرسَمُ " جالوتُ " فى التوراة " جُلْيات " ، وتُنْطَقُ تاؤها فى عبرية التوراة ثاءً لاعتلالِ ما قبلها بالألف اللينة (أى غير المهموزة) على ما مر بك من قواعد النطق فى تلك اللغة .

وضم الجيم فى " جُلْيات " العبرية اصطلاحي بحت ، لأن جيمها فى الخط العبرى مشكولة بالفتحة المفخَّمَة الممدودة ، ولكن سُكونَ اللام بعد الجيم فى المقطع الأول ونَبْرَ الألف اللينة فى المقطع الثانى (جل ـ يات) يوجبان فى اصطلاح علماء العبرية خطف المقطع الأول ، أى تقصير زمن نطقه ، فتنطق الفتحة المُفَخَّمَةُ فيه " ضمة " خلافا للرسم، أى أنها ترسم بالفتحة " جَلْيات " وتنطق بالضمة "جُلْيات" . وهذا يدلك على أن الأصل فيه قد كان الفتحة ، كما فى جيم " جالوت " التى فى القرآن .

هذا إلى أن ضوابط النطق من نَقْطٍ وشكل فى التوراة التى بين يديك على مقتضى الرسم الذى ابتدعته جماعة " بَعَلِى ماسُورا " أى (أهل الأثر) على مدى ثمانية قرون من القرن الثانى إلى القرن العاشر الميلاديين فى ظل المسيحية ثم فى ظل القرآن ، ليست لها حُجِّيَةُ الشيء الموحى به ، كما مر بك فى تضاعيف هذا الكتاب . هذا فضلا عن أن صاحبَ هذا الاسم كما تقول التوراة كان رجلا فلسطينيا ليس بعبرى من بنى إسرائيل ، وأنه رغم وحدة الجذور بين اللهجات العبرية والآرامية والكنعانية كان يَنْطِقُ اسمه بلهجة آبائه وأجداده ، غَيْرَ مُجْبَرٍ على اتباع النقط والشكل اللذين ابتدعهما أهلُ الأثر وانتَهَوا منه فى القرن العاشر الميلادى بعد نحو ثمانية عشر قرناً من مَهلِك "جالوت" .



وقد زَلَّ أدعياءُ الاستشراق زَلَّةً فاحشة فى "جالوت" التى فى القرآن [١] ، كما زَلُّوا من قبل ومن بعد فى غيرها : قالوا إن محمدا (صلى الله عليه وسلم) ربما سَمِع

(١) راجع : Joseph Horovitz ، المرجع المذكور ، ص ١٨ و ١٩ .

من يهود يثرب لفظة "جالوت" العبرية (ومعناها عربيا الجلاء) تتردد على أفواههم ـ يعنى جلاء بابل أو سبى بابل على أيدى بُخْتَنُصَّر ـ فنَحَتَ منها اسمَ ذلك الجبَّار الفِلَسْطِينى " جُلْيَات " الذى قتله فى التوراة وفى القرآن داود .

والذى أرجوك إياه هو أن لا تَسْخَر من هذا العَبَث الذى قالهُ أدعياء الاستشراق هؤلاء ، وإنما تَرْثِى معى لقائله الذى أعماه الهوى عن الحق ، يَبْنِى على مَقولةِ النَّقْلِ والتلقين ولا يتوقف بينه وبين نفسه ليتساءل :

أين وكيف ومتى استطاع محمدٌ (صلى الله عليه وسلم) التَّسَمُّعَ على يهودِ يثرب فى خَلْوَتِهم وهم يتطارحون بالعبرية أشجانَ ذكرياتِ سَبْيِهم فى بابل فلا تَعِى أذناه من غمغمتهم بمراثيهم سوى لفظة " الجلاء " أى " جَالوت " العبرية هذه ؟

أَوَ قد كان يهودُ يثرب يتطارحون أشجانَ بابل فى يثرب بالعبرية فيما بينهم أم كانوا يُحَدِّثُون بها النبيَّ وأصحابَه ؟

فكيف استعصى عليهم الإتيانُ بلفظة " الجلاء " العربية التى تكافىء " جالوت" العبرية وقد كان من يهود يثرب من يُتقنون العربية كالفُصَحَاء والشُّعَراءِ من أهلها ؟

بل كيف يتشدقون أمام العرب بأيام نَحْسِهم ومَذَلَّتهم فى بابل ، وهم الهازئون بالعرب ، المتُعَاظِمُون عليهم ؟

وَهَبْ أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) وقعت فى أُذُنَيْهِ لفظة " جالوت " العبرية هذه من يهودِ يثرب فى نَدْبِهِمُ " الجلاء " ولا يَفْقَه لها معنى ، فكيف فَطَنَ إلى أنها تصلح اسماً لذلك الجبَّار الفلسطينى الذى سَمَّاه القرآن "جالوت" ولا تصلح اسما للملك " شاؤول " الذى سَمَّاه القرآنُ " طالوت " ؟

أفقد سَمع أيضا من يهود يثرب أخبار ما كان بين "جُلْيَات " وداود ؟ فكيف يخلط ، وهو اللَّقِن الفَطِن ، بين اللفظتين العبريتين " جَالوت " ، " جُلْيَات" ؟

وهَبْه قد عَلِم أن " جالوت " العبرية معناها الجلاء ، فكيف يجيء بها اسما لرجل على الإبدال من " جُلْيَات " التى انْبَهمت عليه ؟

ولماذا يعدل أصلا عن " جليات " إلى " جالوت " ؟

أفقد علم أيضا أن "جليات" و"جالوت" العبريتين لفظتان بنفس المعنى عبْرِيًا ، أم عَلِمَ ما لم يَعْلَمه علماءُ العبرية وعلماء التوراة فأراد أن يُصَحِّح لهم "جُلْيَات" إلى "جالوت" ؟

إنما قال أدعياءُ الاستشراق هؤلاء ما قالوه لأنهم إما يجهلون معنى "جُلْيَات" ، وإما أنهم يَعْلَمونه ولكنهم يفترضون فيك الجهل به ، فهم يُعَمُّون عليك ويُخلطون ، آمنين ألا يَنْكشف لك باطل دعواهم .

ولأنَّ الهوى والغرض داءٌ مميت ، فقد ماتَ هؤلاء الأدعياء بِدَائِهم .

أما القرآنُ الخالد الباقى ، قولُ الحقِّ الذى فيه يَمْتَرون ، فهو الذى قد عَلِمْت : أفقَهُ بالعبرية من أهلها ، وسبحان الذى عَلَّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم .



يشتقُ علماء التوراة اسم " جُليات " من الجذر العبرىّ " جَلا " ، وهو جَذْر بنفس المعنى فى اللغات الثلاث : العبرية والآرامية والعربية .

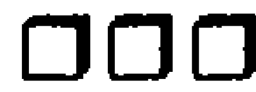
تقول منه جَلا عن وطنه ، ومن وطنه ، يَجْلُو ، جلاءً ، وجَلْواً أيضا ، يعنى نزح عنه ، خشية خوفٍ أو جَدْب ، يلتمس الأمْنَ أو الرزقَ فى غيره ، فهو " الجَالِى " ، والجَالِيَة ، شأن تلك " الجاليات " الأجنبية التى لا يَخْلو منها بَلد يُوفر الأمنَ والرِّزْقَ لتلك الجاليات فى مَهْجَرِها .

وتقول أيضا : أجْلاهُ عن وطنه إجلاءً (وجَلاهُ أيضا جَلاءً وجَلواً) يعنى قهرهُ على الجلاء ، أى أخرجه منه كرها ، فعْلَ الغاصب الغازى ، فالفاعل ـ أى هذا الغاصب ـ مُجْلٍ ، وجَالٍ أيضا ، والمفعول ـ أى الذى أخرجه الغاصب من أرضه ـ مَجْلُوٌّ ، ومُجْلَى أيضا ، والاسم الإجلاء ، والجَلاء أيضا . وتصلح " الجلاء " تسمية بالمصدر يستوى فيها المذكر والمؤنث ، والمفرد والجمع . تقول : هؤلاء القومُ هم جَلاءُ بابل ، أى الذين أجْلاهُم بُخْتَنَصَّر عن مملكة يهوذا ، وعن "أورشليم" بالذات التى جعل أهلها أثلاثا : ثُلث فى القَتلى ، وثُلث فى السَّبى، وثُلثٌ استحياهُ فتركَه يهيمُ فى خرائبها

وينوحُ على أطلالهـا ، وتلك هى النازلةُ التى يُشيـر إليـهـا القـرآنُ فى "مـواعـيـد بنى اسرائيل" بقول الحقّ سبحانه : { **فإذا جاء وَعْدُ أولاهُما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأسٍ شديدٍ فجاسوا خلالَ الديار وكان وعداً مفعولا** } (الإسراء : ٥] . وهذا الجلاء أو السبى [١] كَتَبَهُ الله من قبلُ على الظالمين من بنى إسرائيل ، لا يخرجون من جلاء حتى يقعوا بظلمهم فى جلاء غيره ، لقوله عز وجل : { **ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذّبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار** } (الحشر : ٣] ، سُنّة ماضية فيهم إلى يوم القيامة : { **ضُرِبَت عليهم الذلة أين ما ثُقِفُوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس** } (آل عمران : ١١٢] ، والحَبْلُ هنا بمعنى الإمهال والمد : يَمُدُّ لهم الله حينا ويَمُدُّ لهم الناسُ أحيانا . والذى " يَمُد لهم " لا يَلْبَثُ هو نفسه حتى ينقلب عليهم ، بظُلْمِهم حِينا ، وبغُلَوائهم وبَطَرِهِم أكثَر الأحيان .

" الجلاءُ " إذن كلمةٌ غليظة فى سمع بنى إسرائيل ، لا تَهِيجُ فيهم ذكريات مأساتهم على أيدى البابليين فى القرن السادس قبل الميلاد فحسب ، ثم على أيدى الرومان حوالى الربع الأخير من القرن الأول الميلادى فى أعقاب رفع المسيح ، ثم إجلاؤهم عن شبه الجزيرة أواخرَ عهد عمر رضى الله عنه فى أواسط القرن السابع للميلاد ، ولكنها تُذكِّرهم أيضا وبالأخص بخطر الجلاءِ الآتى ، والجلاء الذى يليه ، إلى دَوْرٍ فَدَوْر : إنه العقابُ الغليظ الذى خَصَّهم اللهُ به فى هذه الدنيا كلما ظَلَمُوا ، يُذيقُهم الله إياه ما بين كلّ نوبةٍ من نَوبات " إرخاءِ الحَبْل " ، يَعِظُهم بواحدةٍ ويبتليهم بأُخرى ، فما ارْعَوى الموعوظ ولا المُبْتَلَى .

ولكن "جلاء بابل" ، الذى كان أول جلاء أذاقَهُ الله بنى إسرائيل بظُلْمِهم ، حَدَثَ بعد "طالوت وجالوت" بقرون ، فكيف يجيءُ من " الجلاء" جُليات ؟



(١) ليس السبى كالأسر ، وإن كان منه غير بعيد : الأسير لا يكون " سَبِيًا " حتى يقتلعه آسره من أرضه ويحمله معه ، يَسْتَرِقُّه فى أرض الغازى لا على أرض المَغْزُو . ومن هذا ، "السَّبَاء"، أى العُود يحمله السيل من بلدٍ الى بلد . والجلاءُ بالمعنى الذى نقصده هنا هو السبى نفسه ، فهما مترادفان متطابقان : تقول جلاء بابل ، كما تقول سَبْيُ بابل .

من أعلام التوراة عَلَمان مشتقان من مادة الجذر "جلا" هُما : " يُجْلى" ، "جُلْيات" . الأول ـ وهو " يُجْلى" ـ وَرَدَ فى إسمِ الرئيس " بُقِّى بن يُجْلى" اسمَ رجل كان فى التيه مع موسى (سفر العدد ٢٢/٣٤) وهو كما يقول لك السفر رجل عبرى قُحُّ من سبط بنى دان . أما الثانى "جُلْيات" فهو رَجلٌ فلسطينىٌ (سفر صموئيل الأول ٢٣/١٧) بارَزَهُ فَتَىً يقالُ له داود ، خَرَجَ إليه من عَسْكَرِ شاؤول الملك ، فقتل داودُ جالوتَ كما فى القرآن .

وأنت بالطبع لا تتصور أن يتسمَّى إسرائيلىٌّ فى مصر ، وهو " يُجْلى" أبو "بُقِّى" الذى كان من رؤساء بنى إسرائيل فى التيه ، باسمٍ مشتق من "الجلاء" على معنى الأسير المَسْبىِّ ولم يكن بعد ثَمَّ "جلاء" ، حتى إن اعتبرت خروجَهُم إلى التيه جلاءً وليس نَجَاء .

ولكن علماء التوراة (راجع المعجم العبرى الآرامى لألفاظ التوراة الوارد فى قائمة مراجع هذا الكتاب تحت مادة " جلا ") يقولون لك بالنص إن معنى اسم " يُجْلِى" هذا هو من مادة " الجلاء "على معنى الأسير المُسْبِىِّ .

وأنت أيضا لا تتصور أن يتسمَّى " جُلْيات" الفلسطينى باسم مشتَقٍ من مادة "الجلاء" على معنى السَّبْى ، ولم يكن قد حدث لبنى إسرائيل جلاء بعد ، فضلا عن أن الرجل كما قالوا فلسطينى ، لا شأن له بجلاءات بنى إسرائيل، ناهيك بأن الرجل من جبابرة قومه ، فلا يَصِحُّ لهم وله أن يُدْعَى بهذا المعنى اسماً أو كُنْيَة .

ولكن علماء التوراة (راجع المعجم المذكور تحت نفس المادة) يقولون لك بالنص أن "جُلْيات" ، اسم هذا الفلسطينى ، مشْتَقَّة من مادة " الجلاء " مصدرا أو مفعولا، فهو " السِبَّاء" أو " السَّبِى " .

أما نحن فنقول ان " الجلاء " فى العبرية والآرامية والعربية جميعا ، له معنى آخر ، هو الأصل فى استعمال " الجلاء " فى معنى الإخراج من الوطن أو الخروج منه ، أى الخَلاء والإخْلاء (بالخاء المنقوطة من فوق فيهما) : إنه الإبانة والبيان والبينونة والبَيْن . تقول بَانَ اللحمُ عن العظم ، أى زال فانكشف العظم من تحته ، وتقول جلا الصدأَ عن السيف ، أى أزالَ ما يحول دون لَمَعانه ، وجَلا بَصَره ، يعنى أسقط عنه الغشاوة ، وتقول جَلا الأمر فأصبح جَليًا بيّنا ، وتقول " ابن جَلا " (غير مهموز) تعنى

الرجل الشريف فى قومه يُعْرَفُ مكانُه ، وجلا عمامته يعنى وضعها فكشف رأسه ، وجلا الشعر يعنى انحسر عن مقدمة الرأس ، إلى آخر ما تعلم .

لهذا فنحن نخالف علماء التوراة فى تفسير هذين الاسمين " يُجْلِى" ، "جُليات" ونقول جازمين أن معنى " يُجلى" العبرانى هذا (وقد جاء بصيغة المضارع المبنى للمجهول مُرادا مِنهُ اسمُ المفعول كما مر بك) هو "المَجْلُو " الجَلىُّ البيّن الواضح .

وعلى هذا المعنى نفسه نُفسر أيضا اسم "جُلْيَات" أو "جَالُوت" ـ لا شأن لك بما كان يَنطِقُ هذا الرجل اسمَه على عصرِ طالوت وداود فليس للغويين اليومَ إلى هذا من سبيل ـ فنقول إنه " الجَلا" (غير مهموز) على معنى الرجل الشريف فى قومه ، يُعرف مكانُه ، كالذى تتوقعه من فارسٍ قِرْمٍ شُجاع ، يخرج لمبارزة أقرانه ، ويَأنف من مبارزة مَن كان دُونَه ، على ما يقوله لك السفر من أن " جُلْيَات " أَنِفَ من مبارزة ذلك الفتى المغمور الذى كَانَهُ داود ، ومثلما تَقرأ فى كتب السيرة عن فارس حلف قُرَيْش فى غزوة الخندق ، عَمرو بن وُدّ ، الذى هابَ الخروجَ إليه فرسان المسلمين ، وأَراد أن يخرج إليه علىٌّ بن أبى طالب ، والنبىُّ يُنَهْنِه من حماس علىّ ، ويقول له : اجلس ، إنه عمرو ! يقولها ثلاثا حتى يقول علىٌّ فى الثالثة : يا رسول الله ، وإن كان عَمْرًا ! فيأذَنُ له صلى الله عليه وسلم ويدعو له ، ويَقتلُ علىٌّ عمرو بن وُدّ ، كما قتل داود جالوت .

ربما قُلْتَ معى إن علماء التوراة أرادوا بتفسيرهم " جُلْيات " على معنى السَّباء المَسْبىّ ، النَّيلَ من هذا الجبار الفلسطينى الذى صَالَ عَلى بنى إسرائيل . ولا يَصِحُّ هذا من علماء يأخذُ عَنْهُمُ الناس .

الصحيحُ فى " جُلْيات " أنه " ابنُ جَلا [١] ، لا العبدُ السَّبىُّ .



وقد فسر القرآن هذا الاسم على معنى " الجَلا " الجَلىُّ الواضح ، بالتعريب فجاء به على المبالغة " جَالُوت " ، كما قيل من " طغى " طاغوت " ، وأمثالها .

(١) تجد مثله يروى على لسان الحجاج بن يوسف الثقفى فى تعاظمه على أهل العراق : أنا ابن جَلا وطلاَّع الثنايا ـ متى أضع العمامة تعرفونى. وطلاَّع الثنايا كناية عن الساعى لمعالى الأمور.

وفَسَّرَه القرآن أيضا بالمرادف الملاصق القريب من معناه ، فى قوله عز وجل : {فلما برزوا لجالوت وجنوده} (البقرة " ٢٥١) ، و " بَرَزَ " فى معجمك العربى يعنى ظَهَرَ بَعد خفاء ، وأبرزه يعنى أظهره وبيَّنه فهو " مُبَرَّز " ، يعنى جَلِيٌّ واضحٌ ظاهر ، والبَرَزَة المرأة التى تُجَالِس الرجال . أما موانع " جالوت" من الصرف فهى نفس ما قلناه فى " طالوت " .

وسبحان العليم الخبير .

(٤٢) داود

تُرْسَم " داود " فى التوراة بأحرفٍ ثلاثة فقط هى " دود " بغير ألف بعد الدال ، ولكن جماعة " بَعَلِى ماسُورا " تضبطه فى التوراة التى بين يديك بحيث يُنطَق "داوِيد" (التى آلت فى العبرية من بعد إلى داڤيد David بعد أن تَحَوَّرَت الواو على ألسنة اليهود إلى الڤاء فى مواضع أخَصُّها حين تكون بادئَةً فى الكلمة أو المقطع ، ومنها : (دا ـ ويد) .

وعلماء العبرية وعلماء التوراة يفسرون " داوِيد " هذه على " فاعيل" بمعنى "مفعول" من جذرٍ يفترضونه فى العبرية ، وهو الجَذر "دُود" ، مقلوب الجذر العربى "وَدّ" فهو وَدِيد ، يعنون الحِبَّ المحبوب . وليس هذا على شُهرته بشىء كما سترى .

أما مفسرو القرآن (راجع تفسير القرطبى للآية ٨٤ من سورة الأنعام) فقد توقفوا فى "داود"، قالوا أنه اسم أعجمىٌّ فحسب ، ولم يُفَسِّروه .

ويرى المستشرقون [١] أن الاسم " داود " كان معروفا فى شبه الجزيرة قبل نزول القرآن بنطقه الوارد فى القرآن ، مُتَحَوِّراً عن أصله العبرى " داوِيد " ، فأتى به القرآن على ما كان العرب ينطقونه . وهو قد تَحوَّر على ألسنة العرب من " داويد " إلى " داود " التى تُرسم اصطلاحا بواو واحدة وأصلها بواوين (داوود) لأن الواو الوسطى حين تُمَدُّ ، يَمُدُّها العرب بالواو على وزن " فاعول " ولا يَمُدُّونَها قط بالياء "فاعيل" . والذى لم يلتفت إليه هذا المستشرق وأضرابُه أنه ليس فى العبرية كلها ـ عبرية التوراة والعبرية المعاصرة ـ لفظ عبرىٌّ واحد مشتق من فعل واوى أجوف (على مثال الجذر المفترض " دود ") على زنة " فاعيل " ، إلا " داويد " التى ارتأت جماعة "بَعَلِى ماسُورا " (أهل الأثر) ضَبْطَها على هذا النحو فى تسمية داود الملك ، الحِبّ المحبوب .

(١) انظر على سبيل المثال : Joseph Horovitz ، المرجع المذكور ، ص ٢٢ و ٢٣ .

ولو أُريدَ تسميةُ داودَ على معنى الحِبِّ المحبوب ، لَقِيلَ في العبرية "دُود" على أصل حروفه الثلاثة " دُود " في الخط العبري ، أو لَقيل في العبرية " يَديد" على "فَعيل" من الجذر العبري المستعمل ـ لا الممات ـ " يَدَدْ " المكافىء العبري المباشر للفعل العربي " وَدَّ " ، ولما كانت لعلماء العبرية وعلماء التوراة من حاجة إلى افتراض جذر مُمَات في العبرية اسمُه " دُود " .

وأما الذي جَهله هؤلاء وهؤلاء فهو أن القرآن المعجز يُخالف علماء العبرية وعلماء التوراة في تفسيرهم اسم داود على معنى الحِبِّ المحبوب ، وإنما يقول ان " داود" معناها " ذُو الأيْدِ " : { واذكر عبدَنا داود ذا الأيد إنه أواب } (ص : ١٧) يُفَسِّر داود بذى الأيْدِ على الترادف المُطابِق اللصيق .

وهذا من فرائدِ إعجازات القرآن التي تتناولها مباحثُ هذا الكتاب الذي نكتب .

فالحمدُ للهِ الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتديَ لولا أن هدانا الله .



كان شاؤول كما تعلم هو أولَ مَلِكٍ مَلَّكه بنو إسرائيل على أنفسهم ، اختاره الله لهم على ما تَعْلَم من التوراة ومن القرآن . والذي تتوقعه من شخص يصطفيه الله عز وجل على عِلْم للحُكم والملك أن يكون صَفْوَةَ بني إسرائيل جميعا . ولكن بني إسرائيل كدأبهم في بَطَر النعمة ما لَبِثُوا أن كرهوه لحزمه وصرامته ، فأكثروا عليه الأقاويلَ في أسفار العهد القديم ، وادَّعوا أنه سقط في عين الرب لخروجه على نصائح صَموئيل النبي الذي جاءهم به ، وآثروا على شاؤول داود ، ذلك الفتى الرقيقَ الجميل ، البَطَلَ الذي قتل بحجرٍ من مِقلاعه عملاقا فلسطينيا اسمه " جُليات " . أما شاؤول الملك فقد عَرِفَ قَدْر داود فأكرمه وأحبه، وقَرَّبه منه، حتى زَوَّجه من ابنته وربما آثره على كلِّ بنيه، بل وفكر في استخلافه من بعده . ولكن دسائس البلاط تُفَرِّق بينهما ، حتى يخشى شاؤول على نفسه من غدر داود ، وحتى يَفِرَّ داودُ بنفسه من شاؤول الذي طلب قتله . أحب شاؤول داودَ أشَدَّ الحب ،وأبْغَضَهُ أيضا فأمعن في بُغضه ، وكأنه كان يغار منه . ويموتُ شاؤول على حَالَي الحب والبُغض لداود ، ولكنه لا يموت بيد داود ، وإنما بيد

الفلسطينيين الذين بَدأ حُكمهُ بحربهم وانتهى أيضا على أيديهم فى جولة انكسر فيها شاؤول وجيشُه ، ويُصابُ شاؤول بجُرح شديد من سهم قاتل ، وتنزفُ منه الدماء فَيُجهزُ على نفسه بسيفه قبل أن يُمَثل به أعداؤه ، فَيُمَلِّك بنو إسرائيل داود مكانه (راجع أخبار شاؤول وداود فى سفر صموئيل الأول وفيه تهاويل كثيرة لا نستطرد بك إليها).

والذى يعنينا هنا أن بنى إسرائيل أصْفَوا داود الوُدَّ ، وأحبوه الحُبَّ كُلَّه . لم يُحبُّوا فيه داودَ النبى - بل قل لم يكن داود عندهم بنبى [١] - وإنما أحبوا داود الملك ، لا يَعْدِلون به ملكا غيره فى كل تاريخهم على قِصَرِ عهدِهم بالمُلك .

لهذا استقام لعلماء العبرية وعلماء التوراة تفسيرُ اسم داود (أى "داويد ") بمعنى الحبيب المحبوب ، وإن لم يَستَقِم هذا التفسير على أصول العبرية كما سترى .



ليس فى العبرية كما مر بك جذر اسمه " دُود " ، وإنما الذى فى العبرية من هذه المادة أسماء جوامد لا اشتقاقَ لها ، وهى ستة :

- " دُود " بضم الدال البادئة ، يعنى عم أو خال .
- " دُود " بضم الدال البادئة ، صفة بمعنى الحِبُّ الصديق .
- " دُود " بضم الدال البادئة أيضا ، لا تستخدم إلا بصيغة الجمع " دُودِيم " بمعنى الملاطفة والتحبب .
- " دُود " (بنفس نطق " دُود " العربية) بمعنى سَلَّة .
- " دُود " (بنفس نطق " دُود " العربية) بمعنى قِدْر أو مِرْجَل . وهذه مشتقة من جذر سريانى " دُود " بمعنى هاج واضطرب .
- " دُود " (بنفس نطق " دُود " العربية) ثمرة نوع من النبات اسمه " يُبْرُوح " أو " لُفَّاح " وهو بالإنجليزية mandagora و mandrake .

---

(١) تَقرَأ فى سفر صموئيل الثانى وسفر الملوك الأول أنه كانت على عهد داود أنبياء منهم ناثان وجاد ، لا يعظون داود فحسب ، وإنما ينقلون إليه توجيهات الرب ، يُوحى الله إليهم فيبلغون داود . ومن كانت هذه حاله فليس بنبى ، ونحن كمسلمين ننزه داود عن ذلك ، وإنما الذى يعنينا هنا هو مفهوم الكاتب لمنصب داود عليه السلام ، وبالتالى مفهوم اليهود .

هذا بالإضافة الى أعلام توراتية أخرى هي: "دُودو" يعني حِبُّه أي "حبُّ الله "، "دُودَوَهُو" بنفس المعنى ، "دُودَيْ" أي "حِبِّي" ، وبالإضافة بالطبع إلى "داود" التى ترسم "دُود". وهذه الأعلام كلها ، بما فيها داود ، تُردُّ جميعا إلى " دُود " بضم الدال ، فلا تدرى لماذا خَرجت عن هذا النَّسَق " داويد " .

وهنا يثور سؤال : كيف يُفْتَرَضُ جذر واحد ممات اسمه " دُود " لتفسير هذه المعانى الست : العَمُّ ـ الحِبُّ ـ التَّحَبُّبُ ـ السَّلَّةُ ـ المرجلُ ـ ثَمَرةُ اللُّفَّاح ؟ إن جازت الصلة بين الحِبِّ والتَّحُبُّب ، فما الصلة بين العَمِّ والسَّلَّة ، وبين هذين وبين المِرجَل وثمرة اللُّفَّاح ؟

وإذا كان اسم داود (داويد العبرية) مشتقا من الجذر المفترض "دُود" ، فلماذا الإصرار على أنه من " دُود " بمعنى الحِبِّ ، وليس من "دود" بمعنى العَم ، وكلا "الدُودين" يُكتب ويُنطق سواءً ؟

وإذا كان اسم داود (داويد العبرية) بمعنى "الحِبِّ" هو نفسه "دود" الحِبُّ ـ كتابة ومعنى ـ فلماذا انفردت " دود " التى هى اسمُ داود بالنُّطق "داويد" على خلاف الرسم؟

ولماذا تخصصت " داويد " (المرسومة " دُود ") بمعنى " الحِبِّ " اسما علما لداود الملك ، وامتنع استخدامها صفة بمعنى " الحِبِّ " ، لا يُستعمل فى موضعها كصفة إلا "دُود" التى تُنْطَقُ " دُود " دون خشية اختلاطها بمعنى العَمِّ أو السَّلة أو المِرجل أو ثمرة اللُّفَّاح ؟

ولماذا الإصرار على جذر ممات اسمه " دود " بمعنى المودة والحب ولدى العبرية جذر آخر بنفس المعنى هو " يَدَدْ " مكافىء " وَدَّ " العربى ـ مُبدلا من واوه ياءً شأن العبرية والآرامية فى كل جذر عربى مبدوء بالواو كما مر بك ـ لا تزال تستخدم العبرية المعاصرة منه صيغة " هِتْيَدَّدَ " بمعنى "تَوَدَّدَ" العربى ولا تستخدم قط صيغة فعلية من الجذر المفترض الذى اسمه " دُود " ؟ بل والأصل فى العبرية " يَدِيد" من هذا الجذر "يَدَدْ" لا من " دُود" ، تَلَقَّبَ بها سليمان بن داود عليهما السلام فقيل " يَدِيدْيًا " أى حِبُّ الله، ولم يقُل "دَاوِيدِيا" من اسم " داويد " (داود) أبيه ؟

الصوابُ أن يقال ان " دُود " بمعنى الحِبِّ أصلها " يدُود " من " يَدَدْ " حذفت ياؤه البادئة تخفيفا (ولهذا نظائر فى العبرية يعرفها المتخصصون) ، لا حاجةَ لعلماء العبرية وعلماء التوراة بافتراض جذر مُماتٍ اسمهُ " دُود ".

وإنما اضطروا إلى افتراض هذا من أجل تفسير "داويد" بمعنى الحِبّ لا أكثر ولا أقل ، ولم يعبئوا بتفسير سبب كتابتها فى الخط "دُود" تماما كـ "دُود" الأخرى بمعنى الحِبّ.

ولست أقول ان جماعة "بعلى ماسورا" (أهل الأثر) افتعلوا "داويد" نُطقا لـ "دُود" التى فى الرسم ، وإنما هم ضبطوها على ما كان يُنْطَقُ به هذا الاسم فى عصرهم "داوِيد" التى تجدها بهذا النطق نفسه فى رسمها اليونانى بأصول الأناجيل ، دون أن يتساءلوا عن سبب رسمها فى مخطوطات العهد القديم بأحرفٍ ثلاثة : الدال والواو والدال "دُود" .

وقد مر بك أن جماعة أهل الأثر هؤلاء بدأت عَمَلَها فى القرن الثانى الميلادى ، ولا شك أنها ضبطت أعلامَ العهد القديم على ما كانت تُنْطَقُ به فى عصرها ، وما كان يجوزُ لها غير ذلك فى الأسماء الأعلام بالذات .

ومر بك أيضا أن الحاجة إلى ضبط نصوص العهد القديم بالشكل والنقط نَشأت عن وقوعِ اللَّحْنِ فى قراءة هذه النصوص فى خطٍ لا يعبأُ كثيرا بإثبات حركات المد بعد مُضِيِّ نحو عشرة قرون على عصر داود عليه السلام . أما كيف كان داود ومعاصروه ينطقون اسمَهُ المرسوم فى أسفار التوراة " دود " (١) ، فليس لك اليوم إلى هذا من سبيل . ليس لديك إلا هذه الأحرف الثلاثة (واو بين دالين) تنطقها كما تشاء . وقد شاءت جماعة " بعلى ماسورا " فى القرن الثانى بعد الميلاد أن تنطقها كما كان اليهود ينطقونها فى عصرهم " داويد " .

ولأنه كما مر بك ـ لا وجود فى عبرية التوراة والعبرية المعاصرة للفظ عبرى واحد على زنة " فاعيل " بمعنى "مفعول" مشتقٍ من جذر واوى أجْوَف على مثال ذلك الجذر المفترض " دُود " ، فلا مناصَ من أن تقول ان " داويد " هذه ليست إلا نُطْقًا تحرّف على ألسنةِ اليهود عن الصورة الصحيحة التى كان عليها نطق هذا الاسم العَلَم على لسان معاصرى داود .

---

(١) ربما قيل لك ان " داويد " ربما رُسِمَت مرةً أو مرتين " داويد " بإثبات الياء فى الخط وليس بدليل. هذا من النادر الذى فى حَكم المعدوم لا يُعْتَدُّ به . وهو إن وُجد ، استدراكٌ من الناسخ على الأصل الذى بين يديه أو المتلوِّ عليه . دليلك فى هذا أن اسم داود فى العبرية لا يزال يُرسَم بواو بين دالين " دُود " .

ولأن الفرق فى الرسم بين " دُود " ، " داويد " كبير ، فلابد لك أن تلتمس نطقا أقرب الى الرسم " دُود " . ولا أقرب إلى هذا من أن تنطق دالها البادئة بحركة بين الكسر والفتح (شوا العبرية) التى ترسم نُقطتين رأسيتين (:) تحت الحرف المَعْنِيّ مع تثقيل ضم الواو ، فتقول : دِوُود (بواوين) أقرب ما تكون إلى " داود " التى نطق بها العرب ونزل بها القرآن .

أما من أين تجىء فى العبرية " دِوُود " هذه التى أقترحها عليك ، فهى تجىء سهلة سلسة من " دِى ـ أُود " : أما " أُود " العبرية فهى الأيْدُ عربيا ، وأما "دِى" العبرية الآرامية فهى " ذو " : إنه " ذو الأيدِ " كما فسرها القرآن المعجز . وسبحانَ العليم الخبير .

هذا يُفَسِّرُ لك لماذا قال العرب قبل القرآن " داود " ولم يقولوا " داويد" التى قالها يهودُ يثرب فى قراءتهم أسفار "توراة الأنبياء والكتبة" . عَرِفَ العربُ بداود الملك على عصره ، فنطقوها كما كان ينطقها داودُ ومعاصروه ، ولم تَتَحَرَّفْ عليهم " داويد " إلى "داود" ، كما يظن المتطفلون على مباحث اللغة أدعياءُ الاستشراق .



ورد لفظ " الأيْد " فى كل القرآن مرتين فحسب ، إحداهما قولُهُ عز وجل : {**والسماء بنيناها بأيْدٍ وإنا لموسعون**} (الذاريات : ٤٧) ، والأخرى قوله عز وجل : { **واذكر عبدنا داود ذا الأيْدِ إنه أواب** } (ص : ١٧) وصفا لداود بأنه "ذُو الأيْد" . ولم تَرِدْ " ذو الأيد " فى كل القرآن إلا فى هذا الموضع فحسب ، تفسيراً لمعنى الاسم العلم " داود " بالمرادف المطابق اللصيق " ذو الأيد " .

إن أردتَ دليلا على أن القرآن أَفْقَهُ بالعبرية من أهلها ، كَفَاكَ هذا الدليل . فَدَعْ عنك دعوى الاستنساخ والتلقين وسَبِّح معى القائل بِكُلِّ اللغات ، الذى عَلَّمَ بالقلم، عَلَّمَ الإنسانَ مالم يعلم . والحمدُ لله ربِّ العالمين .

(٤٣) الزبـــور

قال عز وجل فى نبيه داود عليه السلام: {**واذكر عبدَنا داود ذا الأيْدِ إنَّهُ أوّاب. إنا سَخَّرْنا الجبال معه يُسَبِّحْنَ بالعشى والإشراق. والطيرَ محشورة، كُلٌ لَهُ أوّاب. وشَدَدْنا مُلْكَهُ، وآتيناهُ الحِكمَةَ وفَصْلَ الخطاب**} (ص : ١٧ ـــ ٢٠) . وقال فيه أيضا: {**ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبالُ أوِّبى معهُ والطيرَ وألَنَّا لَهُ الحديد**} (سبأ : ١٠) وقال عز مِنْ قائل : {**ولقد فَضَّلنَا بعض النبيين على بعض، وآتينا داود زبورا**} (الإسراء : ٥٥) .

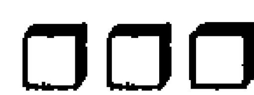
كان هذا الفضلُ من الله ، وكان نبىُّ الله داود عبداً شكوراً .



أنعم الله عز وجل على عبده داود بالصوت النَّدى ، وحَلاَّهُ باللحن الشَّجى الرقراق : يُسبح ويُرَنِّم ويُطرِبُ حتى الجماد، ويَصْدَحُ ويَشْدُو فتشدو على نغماته الطير، وتُسبِّح معه الجبال . وقد عَرَف داود حق هذه النعمة فوضعها حيث يجب أن تكون : تسبيحا وتمجيدا ، وتهليلا وتكبيرا ، واستغفارا ودعاء ، يدعو ربه فيسألُهُ ويستعينهُ، يُهلِّلُ للمِنَّة ، ويستنصر فى الشِّدة ، ويتوجَّع فى المِحْنة ، ويُفْتَنُ فَيَنْدَمُ ويتوب . كان داودُ بحق إمامَ المغَنِّين .

وهل أرْوَعُ وأبدع من هذا الجمال وذاك الجلال ، نشيداً من فَم داود على مزمار داود ، تَرَنَّمَت به مع داودَ الجبالُ والطير يوماً فى جَنَبات أورشَليم ؟ بل كيف أنت وقد أسلمتَ أذنيك لأنغامِ تلك التسابيح ، تَشْدُو بها مع داود الطيرُ ، وتَصدَحُ الجبال ؟

لا غَرْوَ قد صار بها مزمارُ داودَ مثلا ، حتى قيل على المبالغة فى الصوت يَعْذُبُ وَيَرِقُّ : مزاميرُ داود !



أما هذه " المزامير " فهى ذلك الجزء من " توراة الأنبياء والكتبة" المنسوب إجمالا إلى داود عليه السلام ، والمُعَنْون فى ترجمات العهد القديم باسم " سفر المزامير" ، وهو يضم مائة وخمسين مزمورا ، يُنسَبُ بعضها فقط إلى داود ، وينسب بَعضُها لابنه سليمان ، كما ينسب بَعضُها لآساف ، كبير المغنين فى بلاط داود ، وبعضها الآخر مسكوتٌ عنه غيرُ منسوب .

ولكن القائلين تلك المزاميرَ من غير داود يَأتَمُّونَ بطريقته ، وينسجُون على منواله ، فلا تدرى على التحقيق أىُّ المزامير قالها داود ، وأيُّها الذى لم يَقُلْهُ من بينِ كل المزاميرِ المنسوبة إليه بالاسم فى ذلك السفر من أسفار العهد القديم .

لهذا حَرَصت ترجماتُ أهل الكتاب لأسفار العهد القديم على تسمية هذا السفر "سفر المزامير" على التعميم ، لا يقولون "مزامير داود" لأنها ليست كُلُّها لداود ، وإنما هى "مزامير داود وسليمان وآساف وآخرين" . ولئن جازت القداسةُ لمزامير قالها داود وسليمان عليهما السلام ، فلا تجوز القداسة بوجه لمزامير ترنَّم بها آسافُ كبيرُ المغنين فى بلاط داود ، أو قالها من هو دون آساف فى هذا البلاط ، فلا قداسةَ إلا لنبىٍّ يُوحَى اليه . وهذا يَدُلُّك على أن المجموعَ بين دفتى هذا العهد القديم ليس كُلُّه من وَحْى الله عز وجل على رُسُلِه وأنبيائه ، بل منه هذا وذاك . وهو يَدُلُّك أيضا على أن مَعْنَى الوحى عند أهل الكتاب ليس هو نفس معناه عند أهل القرآن . ولكن هذا مبحثٌ آخر يَخْرُجُ بنا عن مقاصد هذا الكتاب الذى نكتب ، فلا نستطردُ بك إليه .

الذى يعنينا فى هذا السياق هو أن مجموع تلك المزامير التى صحَّت نسبتُها إلى داود عليه السلام فى ذلك السفر ، أعنى أيُّها فى عِلم الله عز وجل صَدَق ، هو فحسب المَعْنِىُّ فى القرآن باسم " الزَّبور" ، فى مثل قوله عز وجل : { **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان ، وآتينا داود زَبُورا** } (النساء : ١٦٣) .



على أن العهد القديم فى نصه العبرانى لا يسمى هذا السفر "سفر المزامير" كما تسميه ترجمات العهد القديم ، وإنما اسمه فى النص العبرانى " سِفْرْ تِهِلِّيم " أى سفر

التسابيح ، من " هَلَلْ " العبرى المأخوذ من " هَلَل " العربى لا بمعنى صاح وصَوَّت ، ولكن بمعنى " سَبَّح " ، ومنه لفظة " هَلِلُويا " الشهيرة فى أناشيد أهل الكتاب ، وأصلها العبرى " هَلِلُو ـ يَهْ " ، أى هَلِّلُوا له ، أى سَبِّحُوه ؛ يعنى سَبِّحُوا الله ، على التمجيد . فالترجمة العربية الدقيقة لاسم هذا السفر بالعبرانية هى "سفر التسابيح" أو "سفر التهاليل" ، لا "سفر المزامير" .

ولكن النص العبرانى أيضا لهذا السفر يضع " مِزْمُور" العبرية عنواناً لكل فصل من فصوله المسماة " مزامير" ، تسبق رقم هذا " المزمور " أو ترتيبه بين " المزامير" ، فيقول "مِزْمور ريشون" ، أى المزمور الأول ، "مِزْمُور شِينى" ، أى المزمور الثانى ، الى آخر المزامير المائة والخمسين .

ومن هذا اللفظ ـ " مِزْمُور" العبرى ـ ترخصت الترجمة السبعينية اليونانية لأسفار العهد القديم فأسمته بمجموع ما فيه ، أى بصيغة الجمع من "مزمور" فقالت "المزامير" . وقد ترجمت اليونانية الكنسية لفظ " مِزْمُور " العبرية بلفظة Psalmos اليونانية ، من الفعل اليونانى Psallein، يعنى " نَتَشَ " ، إشارةً إلى فعل العازف بأصابعه على ذوات الأوتار ، وأخَصُّها " الهَارْب " Harp ، فمعنى Psalmos اليونانية الكَنَسية فى ترجمة " مِزْمُور " العبرية هو المعزوفة على ذوات الأوتار ، لا زَمْرَ ثَمَّ ولا طَبْل ، ولا غابَ ولا قَصَبَ ولا ناى ، كما قد يظن الذين يخلطون بين العبرى والعربى . أما الذين ترجموا " مِزْمُور" العبرية إلى Psalmos اليونانية ، أى "المعزوفة" أو "الأنشودة " فقد تأثروا بما فى بعض المزامير من إشارة فى أعلاها إلى آلة العزف المصاحبة لها ، وأيضا بلفظة " سِلاه " العبرية " التى تَرِدُ فى بعض مقاطعها ، وتُفيد فى رأى البعض علامةً موسيقية يَرْفَعُ عندَها المُنْشِدُ صوته بمصاحبة الآلة ، وفى رأى البعض الآخر علامة موسيقية على الوقف، فأخذوا "مِزْمُور" العبرية بمعنى الأغنية والأنشودة ، وهو بالفعل من بين معانيها ، بل لا تزال العبرية المعاصرة تستخدم لفظة "زَمَّار" بمعنى "المُغَنِّى" . أما المترجم العربى للعهد القديم فقد تأثر ـ كما تأثر مفسرو القرآن الأوائل جميعا ـ بالتقارب اللفظى الشديد بين "مِزْمُور" العبرية وبين " مَزْمُور " العربية لا فرقَ بينهما إلا تثقيلُ الضَّمّ بالواو فى اللفظة العربية وإبدال الكسرة العبرية فتحة فى الميم ، فأخذوها بمعنى النفخ فى المزمار ، ربما لأن المزمور فى العربية هو "المِزْمار" نفسه

لا فعل " الزَّمْر" ، وقد شُهِرَ داود بإجادة النفخ فى الناى . ولو درسوا العبرية لعلموا أن المِزْمار فيها هو "حَلِيل"، أو "نِحِيلا" أى المثقوبة الجَوْفَاء ، من "خَلَل" العربى بالخاء.

وليس هذا هو المعنى الذى يعنيه القرآن بقوله عز وجل : "وآتينا داود زبورا"، كما سترى .



يجئ " زَمَرَ " العربى بمعان منها بالطبع زَمَّرَ بالمزمار ، ومنها أيضا معنى القِلَّة ، يُقال عطيةٌ زَمِرَة، أى قليلة ، ورجلٌ زَمِرُ المرُوءة، يعنى قليلُها ، والزِّمير يعنى القصير، ومنها أيضا معنى الحُسْن، والزُّمُور يعنى الغُلامُ الجميل، وزَمَرَهُ أيضا بمعنى مَلأه ، يُقال زَمَر الوعاء ونحوه يعنى ملأه، وزمر الكلبَ وغيرَه يعنى وَضَع فى عنقه السَّاجور أى الغُلُّ وهى القلادة التى توضع فى عنق الكلب وتنتهى بالسلسلة يُمْسَكُ بها أو يُثَبَّت . ومنها أخيرا " الزُّمْرة " أى الجماعة أو الفوج من الناس .

أما "زَمَرْ" العبرى فيجىء بمعان ليس بينها قط الزَّمْر بالمزمار: المعنى الأول والأساسى هو قَطَّعَ وقَسَّمَ وشَذَّب ، ومنه " زِمُورا " العبرية بمعنى الغُصْن والفَنَن . وهو هنا يشترك مع " زَمَر " العربى حين تقول بالعربية " زَمُور " بمعنى الغلام الجميل ، تريد "قَسِيم الوجه" . والمعنى الثانى ، وهو مشتق من الأول ، يستخدم فيه "زَمَرْ" العبرى مضعفا، والمراد منه تقطيع القصيد ، يعنى نَظْمُه ، فهو الكلام المُقَطَّعُ المنظوم . والمعنى الثالث ، وهو المترتب على الثانى ، معنى الإنشاد أو الغناء ، ومنه "زِمْرا" العبرية يعنى الأنشودة أو الأغنية (ولا يقال للأغنية "زِمْرا" إلا إذا كانت قصيدةً مُغَنَّاة) ، والمعنى الرابع ، وهو المترتب على المعنى الثالث ، معنى "اللحن" الموسيقى ، أو العزف على آلة موسيقية ما . من هنا تجد أن " زَمَرَ " العربى لا يشترك مع "زَمَر" العبرى إلا فى معنى " زَمُور " أى الغلام القسيم الوجه المتناسق الأعضاء . وربما أيضا فى " زُمْرَة " العربية إن اعتبرت الزُّمرة " قِطْعَة " من الناس ، وهو الراجح .

ليست " مِزْمُور " العبرية إذن من الزَّمْر بالمزمار ، وإنما هى بمعان ثلاثة هى : الأنشودة - المَعْزوفة - الكلام المقَطَّعُ المنظوم أى " المقطوعة " .

وقد نَظَر القرآنُ إلى هذا المعنى الأخير : المقطوعة والمُقَطَّعات ، فقال "الزَّبُور"، خلافاً لقول علماء اللغة العربية وكل مفسرى القرآن الذين قالوا "الزَّبُور" يعنى

المكتوب، فهو فَعُول بمعنى مَفْعول من زَبَرَهُ يَزْبُرُه زَبْرا ، يعنى كَتَبَه ، أو جَوَّدَ كتابته (انظر تفسير القرطبى للآية ١٦٣ من سورة النساء) ، فهو الكتاب المزبور ، بمعنى الكتاب المكتوب . وقد حَمَلَهُم على اختيار هذا المعنى وحدَه من بين مختلف معانى مادة " زَبَر " العربية وُرُودُ هذه المادة فى مثل قوله عز وجل : { **وإنه لفى زُبرِ الأولين** } (الشعراء : ١٩٦) ، يعنى القرآن فى كُتُبِ السابقين ، وقوله عز وجل : {**وكُلُّ شىء فَعَلوهُ فى الزُّبُر**} (القمر : ٥٢) أى قد سَجَّلنا عليهم أعمالَهم فى الكتب . وكان هذا كافيا لصدهم عن التماس المعنى الآخر فى "زَبَر" العربى ، الذى فى قوله عز وجل : { **فَتَقَطَّعُوا أمرهُم بينهم زُبُرا ، كل حِزْبٍ بما لديهم فَرِحُون** } (المؤمنون : ٥٣) ، لا تستطيع أن تقول : فتقطعوا أمرهم بينهم كُتُبا ، أو الذى فى قوله عز وجل على لسان ذى القرنين فى سورة الكهف : { **آتونى زُبَرَ الحديد** } (الكهف : ٩٦) أى آتونى " قِطَعَ الحديد " ، بلا خلافٍ بين المفسرين .

أما مادة " زَبَر" فى معجمك العربى فتجىء بمعان: زَبَرَهُ بالحجارة يعنى رماه بها، وزبر البناء يعنى وضع بعضه فوق بعض ، أى رَصَّه رَصًّا ، وزبره عن الأمر يعنى منعه ونهاه ، والأصل فيها قَطَعَهُ عنه ، فزَبَر بمعنى قَطَعَ ، وزبر الكتاب يعنى كتبه ، والأصل فيه أتقن كتابته مُبَيَّناً مُفُصَّلاً "مُقَطَّعا" ، وهذا هو المعنى الرئيسى فى مادة "زَبَر" الذى يُفَسِّرُ مختلف استخداماتها ، ومنها الزُبْرَة بمعنى القطْعَة أو الكُتْلَة ، والزُبْرَة أيضا بمعنى السِّندان من هذا : الكُتْلَةُ من الحديد يَطْرُقُ الحَّدادُ عليها حَدائدَه .



والذى نقول به نحن إن الأصوب فى فهم " مِزْمُور" العبرية بكسر الميم ، أن تُفْهَم عبريا على أصل معناها : المُقَطَّعَة ، يعنى القصيدُ المنظوم ، فهى المَقْطَّعات لا المزامير، ولا تُفْهَم بمعنى الأغنية أو المعزوفة الوترية كما فهمتها ترجماتُ العهد القديم بَدْءا بالترجمة السبعينية اليونانية ، فالله عز وجل إنما يُنَزِّلُ على أنبيائه كلاما ، ولا يُنَزِّلُ عليهم موسيقى وألحانا ، إلا أن تقول كما يقولُ أهلُ الكتاب ان هذه المزامير ـ لَفْظَها وألحَانَها ـ من صُنع من أنشدوها ولَحَّنُوها ، داودَ أو غيره ، ربُما بإلهام من الله عز وجل أو بتوفيق منه ، وعندَهم أن الإلهامَ من معانى الوحى، على خلاف أهل القرآن فى معنى وَحْىِ الله على أنبيائه ، لا يكون إلا بمَلَك . بل نحنُ نذهبُ إلى أبعد من هذا فنقول إن " زَمَرْ" العبرى معدولُ عن زَبَرَ العربى ، أُبْدِلَت باؤه فى العبرية ميما .

بل قد قال هذا ـ معكوسا ـ أدعياءُ الاستشراق المنكرون الوحى على القرآن[1]، الذين زعموا أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) سمع " مِزْمُور" العبرية فَتَحَوَّرَت عليه إلى الباء ، ظنها من " الزُّبُر" فقال "زَبُور" . وهذا تافهٌ لا يُعْتَدُّ به ، لوجود كلتا المادتين فى العربية " زَمَرَ" ، " زَبَرَ " خلافا للعبرية التى ليس فيها إلا " زَمَرْ" وحده بالميم ، بل قد فَهِمَ القرآن المُرادَ من " زَمَرْ " العبرى على أصله "تقطيعُ القصيد" فجاء به على "زَبُور" ولو فهم منه المعنى الغنائى لقال "زَمُور" بالميم ، وسبحان العليم الحكيم.

أما " الزبور" العربية القرآنية فى وصف وحى الله عز وجل على نبيه داود عليه السلام ، فليس بجيد فَهْمُها بمعنى مُطْلَق الكتاب ، وإلا لما تَمَيَّزَ وحيُ الله على داود باسم عَلَمٍ يختصُّ به من دون كتب الله على رسله ، كما اختصَّ باسمه العَلَمِ كُلٌّ من التوراة والإنجيل والقرآن ، وإنما أريد له مَعْنًى مضافٌ يُمَيِّزُهُ عن غيره من الكتاب المكتوب ، فقيل له " زَبُور " بمعنى " مَزْبُور " ، منظورا فى ذلك إلى مادته وصيغته : إنه كتابُ " تسابيح" مُقَطَّعَات .

كان " الزبور" كما رأيت تسابيحَ وتهاليل ، ليس فيه شيء من التعاليم أو التكاليف كالذى تجد فى توراة موسى وإنجيل عيسى وقرآن خاتَم النبيين ، دليلُكَ فى هذا ما بَقِى من وحى الله على داود فى تلك المزامير التى فى العهد القديم ، ودليلُكَ فى هذا ، بل قبلَ هذا ، من القرآن نفسه ، الذى لا يذكر الزبور بالاسم كلما جَمَعَ بين القرآنِ وبين توراة موسى وإنجيل عيسى ، كما تجد فى قوله عز وجل : { **إن الله اشترى من المؤمنين أنفُسَهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فَيَقْتُلُون ويُقْتَلون، وعداً عليه حقاً فى التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ**} (التوبة : ١١١) ، بل لايجمع بين التوراة والإنجيل وبين الزبور فى سِلْكٍ واحد حين ذَكَرَ ما عَلَّمَهُ اللهُ عبدَهُ ورسولَهُ عيسى بنَ مريم : {**ويُعلِّمُهُ الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ والإنجيل** } (آل عمران : ٤٨} ، وماذاك إلا لأن التسابيح ليست عِلْماً يُعَلَّم ، فهى ليست من ذاتِ جنسِ "كُتُبِ" الله على أنبيائه ، وإن كانت وحياً منه تبارك وتعالى على نبيه داود ، صلواتُ اللهِ وسلامُه على جميع رُسُلِهِ وأنبيائه . بل قد كانت خِصِّيصَةً لداود

---

(١) راجع : Joseph Horovitz ، المرجع المذكور ، ص ٦١ .

عليه السلام، فَضْلا آثَرَهُ بهِ عز وجل من دون أنبيائه ، لقوله عز وجل: {**ولقد فَضَّلْنَا بعضَ الأنبياءِ على بعض وآتينا داود زبورا**} (الإسراء :55) .

وسبحانَ العليمِ الخبير .



" الزبور " إذن عربية ، ليس فيها شبهة عجمة ، ومن ثم فهى لا تدخل فى مقاصد هذا الكتاب ، لأنها ليست من العَلَم الأعجمى الذى يُفَسِّرهُ القرآنُ للعرب وفْقَ منهجنا فى هذا الكتاب الذى نكتب، ولكننا تَصَدَّينا لها لجلاءِ شُبُهاتِ فَهْمها عربياً بغير معناها المقصود فى القرآن ، ودَفْعًا لمقولة أدعياء الاستشراق إنَّها من الأعجميّ الذى عَرَّبَهُ القرآن فأبدلَ من الميم التى فى "مزْمُور" العبرية باء. على أن القرآن قد فَسَّرَ المُراد من "زَبُورِ داود" بالتصوير وبالمرادف القريب: لا تَجدُ أبلغ من قوله عز وجل: { **إنا سَخَّرْنَا الجبالَ مَعَه يُسَبِّحنَ بالعَشِيِّ والإشراق . والطَّيْرَ محشورةً كُلٌّ لَهُ أوَّاب**} (ص : ١٨ ـــ ١٩) وقوله عز وجل: { **يا جبالُ أوِّبى مَعَهُ والطير**} (سبأ : ١٠) ، والتأويب يعنى ترجيع الصوت. كان داود عليه السلام كثيرَ التسبيح، يَتَغَنَّى به، فأعطاه الله ما يُسَبِّحُ به كلاماً منه عز وجل تُرَجِّعه الطير والجبال ، وسبحانَ العزيزِ الوهاب .

(٤٤) سليمــان

مر بك فى تضاعيف هذا الكتاب أن " فَعْلان " العربية على الصفة ، مثل ظَمآن وأمثالها ، تجىء فى العبرية على "فِعْلُون" ، مثل يِثْرُون وشِمْعُون وجِدْعُون وأمثالها. ومـر بك أيضـا أن النون فى "فِعْلُون" العـبرية يجوزُ حذفُهـا استـخـفافـا كمـا قـيل فى "يِثْرُون" " يِثْرو " .

وعلى " فـعلون " جـاء " شِلُومُو " (بغـيـر نون) اسم نـبى الله سليـمـان بن داود عليهما السلام فى النص العبرانى لتوراة الأنبياء والكتبة، أى فى أسفار العهد القديم: "شلومو" أصلها " شِلُومون" عبريا ، حُذفت نونها استخفافا ، كما حُذفت النون استخفافا مِن "يِثْرُون" حَمى مـوسى فـقـيـل " يِثْرُو". دليلك فى هذا بقـاء نون "شِلُومُو" فى السـريانيـة "شلِمُون"، وبقـاؤها أيضـا فى النص اليـونانى للأناجـيل Solomon "سُولُومون"، على إبدال السين من الشين كدأب اليونان ، وعن اليونانية أخذت اللغات الأوروبية جميعا هذا الرسم اليونانى .



رغم هذا ، ورغم استقرار علماء العبرية ونُحاتها على أن " فِعلُو" العبرية أصلها " فِعْلُون" حذفت نونها استخفافا ، إلا أن أدعياء الاستشراق المنكرين الوحى على القرآن (١) عَجبُوا من مجىء القرآن بهذا الاسم " شِلُومُو" مزيدا بالنون فى "سليمان" ، رغم اعترافهم بأن سَلْمان وسُليمان كليهما اسمان عَرَفَهُما العرب قبل نزول القرآن ، بل وقعوا فى حَيْصَ بَيْصَ من هذه النون التى زادها القرآن فى اسم " سليمان " : قالوا ربما انتقلت إلى العرب من السريان الذين قالوها " شلِمُون " كما مر بك ، أو العكس ، أى أن العرب هم الذين أخذوا " شِلُومو" العبرية من اليهود فتحرفت عليهم إلى "سليمان" ،

(١) انظر : Joseph Horovitz ، المرجع المذكور ، ص ٢٣ .

وانتقلت بصورتها هذه إلى السريان فقالوا " شلمُون " . وفات هؤلاء الأدعياء أن "فَعْلان" ، ومُصَغَّرَه " فُعَيْلان " ، لا يَتَّزنان على موازين العربية إلا بالنون فى النعت على المذكر ، لا تُحذَفُ نونه إلا فى المؤنث منه ، " فُعَيْلَى " ، كما تجد فى "سَلْمَى" ، "سَلْمَان" ، وكما تجد فى مُصَغَّرِهما " سُلَيْمى " ، سُلَيْمَان " . وفات هؤلاء الأدعياء أيضا قبل هذا أن " شلُومو" العبرية أصلها بالنون " شلُومُون " ، فلا معنى لكل ما قالوه ، ولكنهم فى تحرِّيهم إثبات نقل القرآن عن أهل الكتاب يذهبون بعيدا ، فيحاولون إثبات أن العرب وُجِدُوا بعد أن وُجِدَ أَهْلُ الكتاب ، وأن اللغة العربية نشأت فى حضْنِ العبرية والآرامية ، فهى ناقلة عن الواحدة أو الأخرى ، حتى فى نحت الأسماء الأعلام ، وكأنَّ العربَ فى شبه جزيرتهم كانوا قوماً بُكْماً ، لا يَنْبسون ببنت شَفَة حتى يتسمعوا على اليهود أو السريان ، وكأنَّ العربية ليست هى أم السَاميَّات جميعا حيثما كان للساميين فى هذه الأرض مكان ، لا يقولُ اليومَ بغير هذا إلا جاهل كما مر بك فى تضاعيف هذا الكتاب . أما دعوى النقل والتلقين التى تَصايح بها المُنكرون الوَحْيَ على القرآن ، فقد مات بها أصحابُها كَمَدا ، لأن " التِّلْميذ" الناقل يُعَلِّمُ " أستاذَه" مالم يكن يَعْلَم ، ويُصوِّبُ له ما أخطأ فيه ، ويُصَحِّح له ما تَحَرَّف عليه ، ويُذَكِّرُهُ بما أُنْسِيه ، ويَرُد عليه مقالته ، بل ويَعْنُفُ عليه ، حين تَزِلُّ بأستاذه القَدَم ، أو يَشتَط به الهوى فيفترى على الله عز وجل ، أو يتطاول على مقام رسل الله وأنبيائه ، غَالَى بهم أو أَوْضَع فيهم . ولا يَصِحُّ هذا من " تَلْميذِ " ناقل ، وإنما يصح فحسب من المُصَدِّقِ المُهَيْمِن .



أما " شلُومو " العبرية هذه فهى من الجذر العبرى " شَلَمْ " (مكافىء " سَلِمَ " العربى بكل معانيه) . والمصدر منه " شَلُوم " يعنى عربيا السِّلْم والسِّلم والسلام ، كلها بمعنى السلام . وتجىء السِّلْم بفتح السين على الصفة أيضا فى العربية ، فيقال "رَجُلٌ سَلْمٌ لرجل" يعنى هُوَ له مسالم ، فالسَّلْم على الصفة عربيا يعنى " المسالم " . والسَّلْمُ العربية هذه على الصفة هى نفسها " شَلوم" العبرية على الصفة أيضا ، أى السَّلْم بمعنى المسالم . ولكن " شَلُوم " على مقتضى النحو العبرى ـ حين يُضافُ إليها مَقْطعُ الزيادة بالواو والنون الذى فى " شلُومُون " ـ تُخطَف فتحتُها البادئة على الشين فتتحول إلى صوت بين الفتح والكسر (حركة " شوا " العبرية) لا يكادُ يُحس ، وربما

هى إلى السكون أقرب ، فتقول بدلا من شَلُومُون : شلُومُون أو شْلُومُون ، ثم تحذف النون ، فتقول " شْلُومُو" اسم نبى الله سليمان عليه السلام ، من السُّلم بمعنى المُسالم.

ورغم أن "سليمان" عربية قُح ، لا تحتاجُ من القرآن أن يفسرها للعرب على منهجنا فى هذا الكتاب ، فإن القرآن فى قصة سليمان مع ملكة سبأ يجىء عَقبَ "سليمان" بالمرادف القريب الذى يُجَلِّى لك المعنى المخصوص الذى يفهمه القرآنُ من هذا الاسم العَلَم من بين مختلف معانى الجذر"سَلِمَ" ، فيقول : **{قالت ياأيها الملأ إنى أُلقِىَ إلىَّ كتابٌ كريم. إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم. ألاَّ تَعْلُوا عَلَىَّ وأْتُونى مسلمين }** (النمل : ٢٩ ــ ٣١) ، يعنى جيئونى سَلْماً مُسالِمين .

أما لماذا جاءت "سليمان" العربية فى القرآن ممنوعةً من الصرف لا تقبل التنوين، فهذا فى العربية هو شأن كلِّ مذكرٍ مَزيدٍ بالنون يَتَأنَّثُ بفقد النون : فَعْلى وفَعْلان ، وأيضا مُصَغَّرهما فُعَيْلَى وفُعَيْلان ، كما تقول سَلْمى وسَلْمان ، وسُلَيْمَى وسُلَيْمان .



وقد يظنُّ الجاهلُ بفقه اللغة العبرية ، كما ظَنَّ أدعياءُ الاستشراق ، أن القرآن أخطأ فى تصغير " سَلْمان " التى جاء بها على " سُلَيْمان " ، لأن "شْلُومُو" العبرية تقابل " سَلْمان" العربية ولا تقابل "سليمان" على التصغير .

ولكن علماءَ العبرية يقولون إن الزيادة فى "فعلون" بالواو والنون ، كما تجىء على الصفة واسم الفعل ، تجىء أيضا لإفادة التصغير ، ومثاله " إيشُون" العبرية المزيدة بالواو والنون من " إيش" العبرية يعنى " إنسان " ، فيقولون أنَّ "إيشُون" هى مُصَغَّرُ "إيش" فهى "أُنَيْسان" على التصغير من "إنسان" ، ويقال من "إيشُون" العبرية هذه "إيشُون بيتْ عَيْن" يريدون ذلك "الأُنَيْسان" الذى تراهُ فى عينِ محدِّثكَ حين تُحَدِّقُ فيه ، فهو "إنسان العين" ، أى " بُؤْبُؤُها". وليس المراد من بنية التصغير فى كل الأحوال ـ على ما يعرف اللغويون جميعا ـ هو صِغَرُ الحجم أو صِغَرُ القَدْر ـ فمن العرب من سُمُّوا " كُلَيْباً " وهم ملوك ـ وتقول لابنك وقد شبْتَ وشَابَ معك : يا بُنَيَّ ! كنايةً عن الحُبِّ والوَدَادَةِ والإعزاز .

وقد علَمَ القرآنُ مرادَ داودَ من تسمية ابنه يوم وُلِدَ فأسْماهُ "شْلُومو" ("شْلُومُون")، على التصغير من "شَلُوم" العبرى الصفة لا المصدر ، لا يَصِحُّ فى تفسير "شْلُومو" ، عبرياً ، إلا هذا : لو كانت " شْلومو" (شْلُومُون) مَحْضَ الصِّفة لا مُصَغِّرَها لقيل " شلْمون" على زنة " فعْلُون" ، كما قال العرب فى الصفة "سَلْمان" على "فَعْلان" من سَلِمَ ، ولكن نبى الله سليمان عليه السلام اسمه "شْلُومو" (شْلُومون) لا "شلْمُون" فهو مُصَغَّرُ "شَلُوم" يعنى السِّلْم أو سَلْمان على الصفة ، إنْ صَغَّرْتَ "شَلُوم" قلت "شْلُومُون " ، وإن صَغَّرْتَ " سَلْمان " قلت سُلَيْمان .

جاء القرآن باسم نبيِّ الله "شْلُومو" (شْلُومون) على "سليمان" فأصاب المعنى وأصاب البنية ، أى بناء الاسم على التصغير . وسبحان العليم الخبير .



وقد خاض كتبة العهد القديم فى سفر صموئيل الثانى (راجع صموئيل الثانى ١١ ــ ١٢) بفُحش لا مثيلَ له فى قصة داود عليه السلام مع " بِتْشبع " امرأة ضابطه "أوريَّا الحثىّ" ، فقالوا إن داود اطَّلَعَ عليها من سطح بيته وهى تستحم فى بيتها ، وكانت رائعة الجمال ، فسأل عمن تكون ، فقيل له هى بتْشبع بنت إليعام امرأة أوريَّا ، فلم يتورع ، وزوجُها فى صفوف القتال ، أن يُرسِلَ إليها من يأخذُها إلى بيتِ "داود" فدخلت إليه فاضَّجَعَ معها وهى مُطهَّرة من طَمْثِها ثم رَجَعت إلى بيتها " (صموئيل الثانى ١١ / ٤) . زنا بها داود إذن فى غيبة زوجها على مرأىً ومَسْمعٍ من حاشيته ، لم يتأثَّمْ ولم يتأثَّمُوا من جُرم عقوبتُهُ فى توراة موسى الرَّجم للزانى والزانية ، وإن حَرَصَ وحَرَصوا على أن تكون " طاهراً غيرَ طامث " ! ويعودُ الضابط المثلومُ العرضُ ليُفاجأ بالفضيحة فيمتنعَ عن الدخول على امرأته وينامَ على بابِ قصر داود ، ويُخْبَرُ داودُ فيستفسر منه عن السبب ويقول له لماذا لم تنزل إلى بيتك وقد جئتَ من السفر ؟ ويَرُدُّ صاحبُ العرضِ الجريح وكأنَّه يعظُ داود : " إن التابوتَ وإسرائيلَ ويهوذا ساكنون فى الخيام ، وسيدى يُوّابُ وعبيدُ سيدى (يعنى يُوّابُ وجنودُه ويُوّاب هو القائدُ الأعلى للجيش) نازلون على وجه الصحراء ، وأنا آتى لآكلَ وأشْرَبَ وأضْجعَ مع امرأتى ؟ وحياتكَ وحياةِ نَفْسك لا أفْعَلُ هذا الأمر . " (صموئيل الثانى ١١/١١) . ولا تختلجُ عَضَلَةٌ فى وجهِ داودَ الملك الذى يَكْتُبُ الكاتبُ سيرتَه ، ولكنه وقد شاعت الفضيحة

يَعْتَزُّ بإثمه فَيُولمُ لهذا الضابط يَأكُلُ معهُ ويشربُ ويَسْكَر ، ثم يبلغَ من عُتُوِّه أن يُحَمّلَ أوريًا من غده رسالةً مطوية فيها الأمرُ ليُؤاب قائد الجيش تَقول : اجعلوا أوريًا فى وجه الحرب الشديدة ، وارجعُوا من ورائه فَيُضْرَبَ ويَمُوت (صموئيل الثانى ١١/١٥) ويُقتل أوريًا بالفعل فى المعركة صريعَ جمال امرأته وغدر داود . أما المرأة فَنَدَبت بَعْلَها، وأما داود فلم يَتَلَبَّث أن مضت "المناحةُ" حتى أرسَلَ إليها فَضَمَّها إلى بيته وصارت لهُ امرأة . وتضع المرأة ابنا لداود منْ زناهُ بها . ويُرسِلُ الربُّ ناثانَ النبى إلى داود يَضْرِبُ لَهُ مثل الرجلين ، صاحب النعجة الوحيدة التى اقتناها وربَّاها وكَبِرتْ معه ومع بَنيه جميعا ، تأكلُ من لقمته وتشربُ من كأسه وتنامُ فى حِضْنِه وكانت له كابنة ، يُريدُ بتْشبع امرأةَ أوريًا ، والرجل الآخر ذى الوفرة من الغنم والبقر الذى نزل عليه ضيفٌ فاستكثر أن يُولِمَ له من غنمه بل بلغ من عُتُوِّه أن يأخذ نعجةَ الرجل الفقير يُولِمُ بها لضيفه ولم يَأبَهْ ، فعْلَ داود مع أوريًا . ويَحْمَى غَضبُ داودَ على هذا الظالم ويقضى عليه بقوله : يُقتَلُ هذا الظالم وتُردُّ النعجةُ إلى صاحبها أربعةَ أضعاف ! فيقول له ناثان النبى : بل أنت هذا الرجل ! قتلتَ الرجل وأخذتَ امرأتَه لكَ امرأة ، ولم تَذكُر آلاء الله عليك . فَعَلْتَ فى السِّر واللهُ يفعلُ بك فى العَلَن : يأخذُ الربُّ نساءك أمام عينيك ، ويُعطيهن لِمَنْ يَضْجعُ معهُنَّ فى عَيْن هذه الشمس . يُفْعَلُ بِهِنَّ هذا قُدَّامَ جميعِ إسرائيلَ وقُدَّامَ الشمس . قال داودُ لناثان قد أخطأتُ إلى الرب . فأجابَهُ ناثانُ قائلا الرَّبُّ أيضا قَد نَقَل عنك خطيئتك . لا تموتُ (أى لا يُعاقبُك بالقتل جزاءَ فعْلتك) ولكن الابنَ المولودَ لك منها يموت . (ربما أراد الكاتب أن يمهد لما حدث من بعد لداود فيما يحكيه هذا السفر من أحداث حرب لداودَ مع الفلسطينيين كانت لهم فيها سبايا من نساء داود وأهل بيته وكأنها عقوبةٌ لداود على فعلته مع أوريًا) . ويمرض المولود ويموت . ولكن داود يُعزى بتْشبع عن ابنهما ويدخل إليها ويَضْجعُ معها فتحملُ وتلد له ابنا يدعوه سليمان : "فولدت له ابنا فدعا اسمه سليمان (شلومو) والربُّ أحَبَّه . وأرْسَلَ بيد ناثان النبى ودعا اسمه يَديديًا من أجل الرب" (صموئيل الثانى ١٢/٢٣ ـ ٢٥) أى لأن الرب أحب سليمان كناه أبوه " يَديديًا " يعنى "حِبُّ الله " كما مَرَّ بك . وكأنما قد كان مولدُ سليمان لداود علامةً على السِّلْم والسلام مع اللهِ عز وجل الذى غفر له ما فعل.

هذا هو معنى تسمية سليمان " شْلُومو" ومناسبتها ، فلا غرو أن يجيء بها داود على التصغير من " شَلُوم" ، تَوَدُداً وتَحَبُبا .



وقد قَصَصْتُ عليك فَأطلت ، كى تعلم إلى أى مدى يَلغُ الكتبةُ فى أعراض أنبياء الله ورسله، لا يتأثمون من شىء مهما عَظُم : نبيٌّ يغتصبُ امرأةَ صاحب جُنده فى غيبته ، يجيء بها إليه عُصْبَةٌ من رجاله ليزنى بها عَلَنا فى بيته ، ويعودُ زوجها فيطلب إليه داود الدخول إليها كى يختلط الماءان فلا يُعْرف من كان الأب ، ويمتنع الزوج الذى اكتشف الفضيحة ، ولكنه لا يجرؤ أن ينبس ببنت شفة ، ويُولِمُ له داود "العشاء الأخير" قبل أن يبعث به من غده إلى ساحة الموت يَحْمِلُ أمْرَ إعدامه بيده إلى قائد الجيش "يُوَاب" فَيُنَفِّذُه غيرَ مُبالٍ ، ثم يُبْلِغُ داود بأنَّه قَد تمّ ! ولا يَزيدُ داود على أن يقول : "لا يسوء فى عينيك هذا الأمرُ (يُعَزِّيه فى ثَلْمِ شرف الجندية !) لأن السيف يأكلُ هذا وذاك !" (صموئيل الثانى ١٢/٢٥) . ألا ما أَقْذَعَ هذا وما أَبْشَعَه !

قارن هذا بما قاله القرآن العظيم فى هذه النازلة التى ابْتُلِىَ بها داود (الآيات من ٢١ الى ٢٥ من سورة ص) : لم يَزْنِ داود بالمرأة ولم يَقْتُل زوجها ، ولكن أسْتَزَلَّهُ هواهُ فَفُتِنَ بها ، ولم يستعصم ، فاستدعى إليه زوجَها وَعَزَمَ عليه فى طلاقها كى يتزوجَها هو : { **فقال أكْفِلْنيهَا وَعزّنى فى الخطاب** } (ص : ٢٣) أى شَدَّدَ عَلَىَّ بسلطانه ، ويُذْعِنُ الرجلُ ويَضْعف تحت وطأة هذا السلطان ، ويعودُ إلى موقعه على الجبهة وقد أُجْبِرَ على فراق زوجته بسلطان الهَيْبَة وسلطان المُلك ، ربما هانت عليه نفسُه فاسترخصَ الموت ، ولم يُعنِّهُ عليه يُوَاب قائدُ الجيش بأمر من داود ، فلا يَصِحُّ بهذا مُلْك، ولا يَصْبِرُ على هذا جيش. ولكنك لا تعتذر لداود عما فعل ، فمجرد رغبته فى تطليق امرأة من زوجها ليتزوجها هو ضِمْنَ حريمٍ يكاد يَبْلُغُ المائة ، ظُلمٌ صَراح ، وبَغْىٌ لا يَصِحُ من أفراد الناس ، فما بالك بمَلِك ، ناهيك بنبى ! قد قالها داودُ بنفسه : { **لقد ظَلَمكَ بسؤال نعجتكَ إلى نعاجه وإن كثيرا من الخُلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هُم** } (ص : ٢٤) ، وينتبه داود إلى أنه بفعلته مع أُوريًا لم يَعُد من القليل الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلا يَبْغُونَ على خُلَطائهم (ولعل أُوريًا كان ضابطا مقرّبا إليه) ، فهالتْهُ المصيبة التى لا

تَعْدلُها عند المؤمن مصيبة ، بل قد أيقن أنه فُتن : {وظن داود أنَّما فَتَنَّاهُ ، فاستغفر ربه ، وخَرَّ راكعا وأناب } (ص : ٢٤) . وقد غفر الله لداود هذه الزلّة لأن داود كانت له عند الله قُرْبَى بسالف العمل ، موعودٌ بحُسْنِ المآل : { فغفرنا له ذلك ، وإن له عندنا لزُلْفَى وحُسْنَ مآب } (ص : ٢٥) . ولكن الله عز وجل يَعظُ بها داود فى نفسه وَعْظاً بليغا ، لو سَمِعَهُ ملوك الأرض لَتَفَطَّرَت قلوبُهم هَلَعاً من يوم الحساب : { يا داودُ إنَّا جعلناك خليفة فى الأرض فاحْكُمْ بين الناس بالحق ولا تَتَّبِع الهوى فَيُضِلَّكَ عن سبيل الله ! إن الذين يَضِلُّون عن سبيل الله لهم عذابٌ شديدٌ بما نَسَوا يَوْمَ الحساب } (ص : ٢٦) ، أى ليس لمن مَلَّكَهُ اللهُ على الناس أن يَتَّبِع هواه ، وخَيْرٌ لمن يَتَّبِعُ هواه أن يَنْأَى بنفسه عن المهالك فَيَنْأَى بنفسه عن المُلْكِ ويَعْتَزِلَ الناس ، وإلا فمَصيرُهُ إلى النارِ وبئس القرار .

ذكر القرآنُ حقائقَ ما كان : الفتنةُ والتَّوبة ، والإنابةُ والاستغفارُ والمغفرة ، وثَنى بَعْدَ الموعظة بالوعيد . أما ذلك الكاتبُ فى العهد القديم فقد لَغَطَ قَلَمُهُ بما لَغَت به ألسنةُ الوالغينَ فى أعراض الناس بالباطل ، يَبغونَ لَهْوَ الحديث ، فما أفلَتَ منهم نَبِيٌّ ولا صِدِّيق . ولعلك لاحظت أيضا أن الكاتب فى العهد القديم لم يكن لديه علمٌ بتلك الملائكة الذين تَسَوَّرُوا على داودَ فى محرابه يَعِظُونَه ، ويَضْرِبُون له المَثَلَ ويُذَكِّرونَه ، حتى يسترجع داود وتَتَفَلَّتُ منه العَبَرات ، ويغفر اللهُ له فيبشرونه بالتوبة والمغفرة مشروطتين بالاستقامة على عهد الله عز وجل ، لا يتَّبع من بعد الهوى المُضِلَّ . لم يعلم الكاتب بهذا ، فماذا يفعل ؟ يلجأ لنبيٍ اسمه ناثان يَرْأَبُ به الثُّغرة ، فينقل ناثان وحى الله إلى داود ، يَضربُ نفس المثل الذى فى القرآن أو يكاد ، ولا يزيد داود على أن يقول : قد أخطأتُ إلى الرَّب ! ويقول له ناثان : والرَّبُّ أيضا قد نَقَل عنك خطيئتك! (لا يَقْتُلُه بها وإنما يَقْتُل مولودَه من الزنا) . ويَمْثُل ناثان هذا أمامك مُعَلِّما لداود ونبيا فوق نبى ، وما هكذا تكونُ الأنبياء .

قارن بين الروايتين واحكم بنفسك : أى الروايتين كَلامٌ من الله نَزَل ؟ القرآن الذى ينطق بالحق ويُميط الأذى عن أنبياء الله ورسله ، أم كلام ذلك الكاتب الذى يَضَعُ نَبِيَّ الله داود فى صفوف الزُّنَاةِ والقتلة ؟

على أنك "تَحْمَدُ " للكاتب شيئا واحدا ، وهو تَعَفُّفَه عن الغمزِ فى مَوْلد سليمان عليـه السـلام ، فلم يجـعله ابنا لداود من الزنا ، وإنما ابتـدع " المولودَ الأول" لداود من بِتْشبِع ، ثم أماته ، ليجىء سليمان من بعدُ " ابن رَشْدَةٍ " ، أى بعد موت أوريا وزواج داود فى الحل من أرملة أوريًا . ولكنك تجزم معى بأن هذا المولود الأول المُفترى به على داود وبِتْشبْع لم يكن له قط وجود ، بل هو من بنات أفكار الكاتب ، يُحْكِم به نَسيج قصته .

(٤٥) إلياس

" إلياسُ " فى القرآن هو اسم نَبِىُّ الله " إيليًا " المذكور فى سفرى الملوك الأول والثانى بالعهد القديم ، نبياً من أنبياء بنى اسرائيل على عهد الملك آخاب الذى مَلَك على مملكة اسرائيل فى السامرة بعدَ إحدى وأربعين سنة من موت رَحُبْعَام بن سليمان . ويقول لك كتبة هذين السفرين ان " آخاب عبد البَعْلَ وسجد له . وأقام مذبحا للبعل فى بيت البعل الذى بناه فى السامرة . وعَملَ آخابُ سواريَ وزاد آخاب فى العمل لإغاظة الرَّبِّ إله إسرائيل أكثَر من جميع ملوك إسرائيل الذين كانوا قبله (الملوك الأول ١٦/ ٣١ ـ٣٣) . وإلى هذا المَلك وقومه الذين انحرفوا عن الواحد الأحد واتخذوا البعل والصنم من دون الله عز وجل ، أَرسلَ إلياسُ عليه السلام : { **وإن الياس لمن المرسلين . إذ قال لقومه ألا تتقون . أتدعون بَعْلاً وتذَرون أحْسَنَ الخالقين** } (الصافات : ١٢٣ ــ ١٢٥) ، والذين " دَعَوْا " بعلاً (اسم صنمهم الأكبر) هم ذلك الملكَ آخاب وقومُه من بنى إسرائيل ، فَتَقطَعُ من القرآن بأن إلياس عليه السلام هو نَبِىُّ الله " إيليا " المذكور بهذا اللفظ فى العهد القديم .

وقد عَرَّبَ القرآن " إيليًا " العبرية على "إلياس" ناظراً إلى لفظها اليونانى الشائع عَصْرَ نزوله Elias أى بصورة المرفوعِ فى تلك اللغة وعلامتها فى المُذكر إضافَة السين ، على ما مَرَّ بك فى تضاعيف هذا الكتاب .



أما هذا الاسمُ العبرانى إيليا ، المختصر من إليَّاهو، فأَصْلُهُ إيل + ى + ياهو، أى "إيلى يهوا" ، والمعنى هو اللهُ إلهى أى " اللهُ ربّى" .

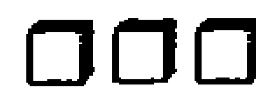
وقد ورد اسم "إلياس" عليه السلام فى القرآن ثلاثَ مراتٍ فحسب : {**وزكريا ويحيى وعيسى وإلياسَ كُلٌ من الصالحين**} (الأنعام : ٨٥)، {**وإن إلياسَ لمن المرسلين** } (الصافات : ١٢٣) ، وفى هاتين المرتين ورد الاسمُ " إلياس" ممنوعاً

من الصرف للعجمة غَيْرَ مُنَون ، أما فى المرة الثالثة : {**وتركنا عليه فى الآخرين. سلامٌ على إلياسين**} (الصافات : ١٢٩ ـ ١٣٠) فقد ورد كما ترى لا مصروفاً مجرورا بالكسر فحسب مُنَوناً ، بل ومع إشباع الكسرة قبل نون التنوين حتى تَؤولَ الكسرةُ فى الرسم إلى الياء : إلياس + ى + ن . والعلة فى هذا كما قال المفسرون (راجع تفسير القرطبى لهاتين الآيتين من سورة الصافات) هى مراعاةُ رؤوس الآيات قبْله كما رأيت من قبل فى الإبدال من سينَاءَ "سِينِين" .

والذى يستوقفُ النظر هو رَسْمُ المصحف لهذا الاسم فى صورته الثالثة المزيدة بالياء والنون ، فقد وقعت فى الرسم مقطعة : إلْ ياسين ، لا مجموعة : إلياسِين ، والرأىُ عندى أن هذا التقطيع مرادٌ من الكاتب بتوقيف من النبى صلى الله عليه وسلم، إشارةً إلى أن الألف واللام البادئتين فى هذا الاسم ليستا هما أداةُ التعريف العربية ، وإنما هما اسمُ الله عز وجل " إلْ " العبرانية ـ والتى نطق بها العربُ أيضا على ما مر بك ـ كى لا يُتَوهَّمَ أن اسم "الياس" من " اليأس" سهلَت همزته ، أو نحو ذلك . وهذا يدُلكَ على علْمِ النبوة بفقه تركيب هذا الاسم العبرانى الذى لم يَفُت الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم . أما "ياسين" المَقطعُ الثانى فى هذا الاسم الذى رُسم مَقَطَعاً فى "الياسين" ، فالرأى عندى أيضا أنه الياءُ والسين تُنطقان كما تنطق الحروف المقطعة فى بوادىء السور، ومنها يس فى السورة المسماة بهذا الاسم وتنطق يا + سين.



هذا عندى هو الوجْه الأمثل فى تفسير مجىء إلياس على الياسين فى الآية ١٣٠ من سورة الصافات : قد روُعيت رؤوس الآيات بلا جدال ، ولكن ليس ثمَ إضافة ولا تنْوِين .



وقد فَسّرَ القرآن على منهجنا فى هذا الكتاب الاسم " الياس" بالمرادف ، كما تستظهر من قوله عز وجل : {**وإن إلياس لمن المرسلين. إذ قال لقومه ألا تتقون. أتدعون بعلاً وتذَرونَ أحْسَنَ الخالقين. الله ربَّكمْ وربَّ آبائكم**

الأولين . فكذّبوه ، فإنهمُ لمحْضرُون. إلا عبادَ اللهِ المخلَصين. وتركنا عليه فى الآخرين. سلامٌ على إلْ ياسين} (الصافات : ١٢٣ ــ ١٣٠).

ألاَ تجَدُ فى هذا الجناس البديع بين "إليـاس" (الله ربِّي) وبين "اللهَ ربَّكُم" مـا يفسّرُ الاسم إليـاس (اللهُ ربّى أو اللهُ إلهَى) أُبْيَنَ تفسير ؟ نَعَمْ . وسُبحانَ العليمِ الخبير .

(٤٦) اليسع

" الْيَسَع " عليه السلام هو نَبِيُّ الله المرسومُ " إليشَعْ " فى أسفارِ العهد القديم إلى جوار إيليًا (إلياس) ، تلميذُ إيليًا وخَلَفُهُ فى النبوة .

وأصل "إليشَعْ" العبرية هو إلْ + يشَعْ، و المعنى : اللهُ يسَعَ، وهى نفسُها إل + يَسَع ، التى فى القرآن " الْيَسَع " . فهو اسمُ أعْجَمِىُّ مُفَسَّرٌ بالتعريبِ وحده ، بل هو من أبْيَنِ تفاسيرِ القرآن عَلَمَهُ الأعجمىَّ بالتعريب ، ولم يَفْطِن إليه أحَد .



يجىء " الوُسْع " ، " السَّعَة " ، فى العربية بمعان تدورُ كُلُّها على معنى واحدٍ هو " الرَّحابة " ضد " الضِّيق " ، ومنه الطريق الواسع أى العريض ، والرِّزْقُ الواسع أى الذى لا يضيقُ عن النفقة ، ورجلٌ مُوَسَّعٌ عليه ، يعنى غَيْرُ مُضَيَّق ، وذو السَّعَة يعنى ذو الوفرة و الغنى ، ولا يَسَعُنى هذا الأمر ، يعنى يَضيقُ عنه جَهدِى وقُدرَتى ، فالسَّعَة أيضا يعنى الطاقة والقوة. إلى آخر ما تعرف من معانى هذه المادة ومجازاتها.

وقد بقى فى العبرية من هذه المعانى معنيان اثنان : الغِنَى، والفَرَج بمعنى النُّصْرَة ، أى التوسعة للمُضَيَّقِ عليه ، و التفريج عن المكروب .

وللمادة العبرية من "وسع" العربى صورتان " شاع / يِشُوع / شُوع " ، وهو مقلوب "وَسِعَ " العربى ، والصورة الثانية هى " يَشعْ " على إبدال الواو من "وسع" العربى ياءً كدأب العبرية والآرامية فى كل الجذور العربية ذوات الواو .

ولكن عبرية التوراة لا تستخدم الجذر شاع / يشوع فى صيغةٍ فعلية ، وإنما تقول منه على الصفة " شوع " يعنى الغَنِىَّ ذو الوفرة أو السخىَّ الكريم ، وتقول منه على الإسمية " شوع " (بتثقيل الضم فى الواو) يعنى الغِنَى والثروة (أى السَّعة) ، وتقول منه على الإسمية أيضا " تْشُوعا " (أى التوسعة) بمعنى الفَرَجِ و النَّجاء .

أما الجذر العبرى الآخر "يَشَع" فلا تستخدمه العبرية فى صيغة الثلاثى المجرد، وإنما تستخدمه فى صيغة " هِفْعِيل " المُعَدَّى بالهاء (وهى صيغة " أَفْعَلَ " العربى المُعَدَّى بالهمزة كما مر بك) بمعنى أَوْسَعَ لَهُ و فَرَّجَ عنه . وأيضا فى صيغة "نِفْعِيل" (وهى صيغة المطاوعة فى " انفَعَلَ " العربى) على المفعولية من " يَشَع " ، والمعنى أُوسِعَ له وفُرِّجَ عنه على البناء للمجهول . وهذا يَدُلُّك على أن " يَشَعْ " العبرى غيرَ المستعمل كان فى أصله فعلا متعدياً بذاته ، وإلا لما جاز منه "انفعل" ، تماما كوَسِعَ العربى المُتَعَدَّى بذاته ، كما فى قول الحق تبارك وتعالى متحدثا عن نفسه : { **وَسِعَ كرسيُّهُ السموات والأرْضَ** } (البقرة : ٢٥٥) ، ولكنْ لأن " يَشَع " العبرى أُميتَ فى ثُلاثيِّه المجرد ، فقد استُخْدِمَ فى موضعه " هُوشِيع " أى " هِفْعِيل " المعدَّى بالهاء، فتظن أن " يَشَع" أصلُهُ لازمٌ غيرُ مُتَعَدٍ (أى اتَّسَعَ) و الأَصوبُ هو العكس .أعنى الصحيح هو أن الجذر الثلاثى العبرى (المُمات فى ثلاثية المجرد) كان قبل مواته فعلا متعدياً بذاته ، فيكون معنى إِل ـ يشَع ، الله يَسَعُ ، يُرادُ من هذا كما مر بك اسمُ الفاعل ، بمعنى " اللهُ ناصر " ، " اللهُ مُوسِع " ، " اللهُ مُفَرِّج" ، " اللهُ مُعِين " .

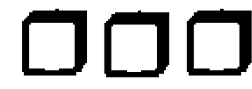
أما تركيبُ هذا الاسم المزجى ، فهو فيما نقول نحن ، إل ـ يِيشَع ، " إل" إسمُ الله فى العبرية ، "يِيشَع " قياسُ المضارعة من الجذر الثلاثى المُمات "يَشَع" ، وهو "وسِعَ " العربى .

ولكن علماء التوراة يقولون ان التركيب المزجى لاسم "إِلِيشَع" هو "إِلِى ـ يشَاع"، حيث "إِلِى" = "إِلَهِى" ، "يشَاع " = سَعَةٌ ، مصدراً من الجذر المُمات "يَشَع" ، ويكون المعنى إِلهى نُصْرَة ، إلهى فَرَج ، إلهى عَوْن ، ولا فرقَ فى المعنى بين هذا وبين الذى قلناه ، بل يؤكد أن "يشَعَ " أصْلُهُ مُتَعَدٍ لا لازم ، لأن المصدر منه ، الباقى فى العبرية إلى الآن (النصْرَة ، السَعَة ، الفَرَج ، العَوْن) يفيدُ التعدى قطعاً ولا يفيدُ اللزوم .

ولئن كان النطق والمعنى على القولين واحدا، فإن ما نقوله نحن أَصْوَبُ وأَوْجَه، لأن قولَ علماء التوراة مفتعل ، فلا أحد يصف اللهَ عز وجل بصفةٍ فيه ويقول "إِلهَى" كذا وكذا ، مثل إلهى رحيم ، إلهى رحمان ، إلهى واسع ، وكأن " إِلهَهُ " ليس"إله" كلِّ الناس ، وإنما يقول اللهُ رحيم ، اللهُ رحمان ، الله واسع . لا يصح أن يقال "إِلهَى" إلاَّ على الخطاب من العبد لربه فى الدعاء والمناجاة .

أما الذى صَدَّ علماءَ التوراة عن القول الذى به نقول ، فهو أن الجذر "يشع" ممات فى ثلاثيه المجرد كما مر بك ، فلا يصح أن يُستخدم المضارعُ منه : إل ـ ييشَع . وليس هذا بحجةٍ فى الأسماء الأعلام بالذات ، التى تستحيى المُماتَ فى اللغة غيرَ ناظرةٍ إلى تَوَقُّفِ جَرَيانه على ألسنة الناس ، فكم من اسمِ عَلَم استبقى تراكيبَ أُميتت فى الاستعمال . من ذلك فى العبرية نفسها الاسم العلم "عُمْرِى" (اسم ملك من ملوك إسرائيل)[1] والجذر منه " عَمَر" مُمات فى ثُلاثيِّه مثل "يشَع" سواءً بسواء .

وقد تَلَبَّثْتُ معك قليلا عند معانى هذا الجذر العبرى "يشَع" ـ وربما أثقلتُ عليك بعضَ الشىءِ بمُواضَعات النُّحاة ـ رغم أنهما علمان اثنان فقط يَدْخُلُ فى تركيبهما هذا الجذرُ " يَشَع" ، من بين واحدٍ وستين اسماً تتناولُها مباحثُ هذا الكتاب ، وما ذاك إلا لأن العَلَم الثانى ـ غيرَ "إليشَع" ـ هو علمُ المسيحيةِ الأكبر عيسى عليه السلام الذى لنا فى تفسيره مذهبٌ نُخالفُ به علماء المسيحية الذين فَسَّروه من قديم بمعنى "المُخَلِّص" على الفاعلية من "خَلَّص" ونفسره نحن على ما يأتى إن شاء الله فى موضعه باسم المفعول ، فهو " المُخَلَّصُ " الناجى .



أما أدعياءُ الاستشراق الذين قد عَلِمْت ، فقد عابوا على القرآن قراءة "اليسع" فى المصحف بهمزةٍ مفتوحة مُخْتَلَسَة على الألف البادئة ـ عكس ما فَعَلَ فى "إلياس" الذى راعى فيه إثبات الهمزة المكسورة تحت الألف البادئة لا يجوز اختلاسها فى الوصل فتقول " إنَّ إلْياس " ، ولا تنطقها قط " إنَّلْياس" ـ على ما مر بك من الحكمة فى رسمها مرة " إلْ ياسين " مقطعة . فقد وَهِمَ القرآنُ فى زعمهم[2] أن الألف واللام فى "اليسع" هما أداة التعريف وليستا "إلْ " اسم الله عز وجل فى العبرية .

---

(١) مختصر " عُمْرِيَا " أى "خادمُهُ " يعنى "خَادِمُ الله " ، من " عَمَرْ " العبرى المماتُ ثلاثيه بمعنى كان له خادما أو "سادنا" والباقى منه فى عبرية التوراة صيغة استفعل أى " هِتْعمر" أى عامله معاملة الخادم ، يعنى امتهنه أو تَخَدَّمَه . والرأى عندى أن "عُمَر" ، "عَمْرو" فى العربية من هذا لا من طول البقاء ، ومنه قوله عز وجل فيما أرى : {واستعمركم فيها} [هود : ٦١] أى أنشاكم من الأرض واستخدمكم فيها .

(٢) انظر : Joseph Horovitz ، المرجع المذكور ، ص ١٣ .

وتبتسم معى إشفاقا : أفقد سَلّمْتُم للقرآن بالفقه فى اللغة العبرية حتى استطاع أن يحلل اسم "إلياس" إلى عنصريه ، فَيُفْرِدَ " إلْ " بالرسم مقطعة منعاً لظنها أداة التعريف مُضافةً إلى "ياس" فى اسم "إلياس" ؟ فكيف يفطن إلى "إل" فى إلياس وتَنْبَهِمُ عليه فى " اليسع" ؟ ألعل الذين لقَّنُوه " إلياس " فَسَّرُوه له ، ولم يُفَسِّروا له "اليسع" حين أسْمَعُوهُ إياه ؟ أم أن تركيب هذا الاسم "إليشع" انْبهَمَ أيضا على من لَقَّنُوهُ إياه ؟

لا هذا ولا ذاك بالطبع ، ولكن القرآن الأفْقَهَ بالعبرية من أهلها يَعلَمُ من دقائق العربية ما يَخْفَى على هؤلاءِ المتطفلين الأدعياء : الاسمُ المزجى "إل + ياس" يُشَكِّلُ بذاته جملةً إسميةً تامة بشطريها ، المبتدأ والخبَر ، فى أصل تركيبها العبرى ، بينهما ضميرُ الملْك للمتكلم المفرد : إل + ى + ياهو ، يعنى : إلهى هو ، أى : هو إلهى . والمبتدأ فى هذه الجملة الإسمية التامة ، مضافٌ إلى مضافٍ إليه : إل مضافٌ إلى ضمير المِلْك للمتكلم المفرد وهو الياء (فى العربية والعبرية سواء) ولا تجوزُ قط أداةُ التعريف فى ضمائر الوصل (الياء والكاف وما جرى مجراهما) ولا ضمائر الفصل (أنا وأنت وما جرى مجراهما) . أيضا الاسم المزجى إل + يسع (إل + يشع) العبرى يُشَكِّلُ بذاته جملةً إسميةً تامة : اللهُ يَسَع ، ليس بينهما ضميرُ مِلْك ، والانفصالُ بينهما واقعٌ ظاهر ، يُجَلِّيه نُطْقُكَ " إل " وكأنها أداة تعريف، يليها فعلٌ عبرىٌ مضارع يُراد منه اسمُ الفاعل، أى الواسعُ المُوسِع (والواسعُ من أسماء الله الحسنى) ودَلَّ القرآنُ بهذا النُّطق على أن الشَّطر الفِعْلِىَّ من الاسم المزجى " اليسع" ، يُراد منه الاسم لا الفعل . على أن إضافة أداة التعريف إلى صيغة الفعل المضارع صحيحٌ فى العربية : تقول منه "اليُؤْكَل" على سبيل المثال تريد " الذى يؤكل " أى الصالح للأكل (edible الانجليزية وكل مختوم بأحد المقطعين able ـــ و ible ـ فى اللغات الأوربية الحديثة) ، لأن " الـ " هنا بمعنى الذى عند علماء العربية . وقد مر بك فى بعض حواشى هذا الكتاب ترجيحُنا تفسير اسم الجلالة "الله" بأنه من " الـ + هو " أى الذى هو ، وأنَّهُ فى ترجيحنا الأصلُ الذى جاءت منه " إلْ " ، " يهوا " اسمين لله عز وجل فى التوراة . فلا يبعد أن يكون مراداً من الألف واللام كأداةِ تعريفٍ فى اسم " اليسع " المُعَرَّبِ عن " اليشع " العبرى ، هو اسمُ اللهُ عز وجل .

على أننا لا نتوقف عند هذا، وإنما نُذكِّرُ هؤلاء الأدعياء بأن "اليسع" ، شأنُهُ شأنُ "إلياس" إنما جاءا في العربية التي نزل بها القرآن ، لا على أصلِهما ، وإنما مُعَرَّبَيْن على أوزان العربية ، شأنَ التعريب الجيد لا الببغائي ، ولا يصح تعريبٌ في " اليسع " إلا بنطق الألف واللام فيه كما تنطق أداة التعريف العربية . إن فَعَلْتَ غيرَ هذا ـ وأرجو منك أن تحاول ـ كَسَرْتَ الوزن .

وردت " اليسع" ـ تعريباً لاسم نبي الله "إليشع" عليه السلام ـ مرتينِ اثنتينِ فقط في القرآن ، الأولى التي في سورة الأنعام في جُملة لفيفٍ من أنبياء الله ورُسُله : { **وإسماعيلَ واليسعَ ويُونُسَ ولوطًا ، وكُلاًّ فضلنا على العالمين** } (الأنعام : ٨٦) ، والثانية في قوله عز وجل : { **واذكر عبادنا إبراهيمَ وإسحقَ ويعقوبَ أولي الأيدي والأبصار . إنَّا أخلصْناهم بخالصةٍ ذكرَى الدار. وإنهم عندنا لمن المُصْطَفَيْنَ الأخيار . واذكر إسماعيلَ واليسعَ وذا الكفل ، وكُلٌّ من الأخيار** } (ص : ٤٥ ـ ٤٨) . وليس في أيٍ من المرتينِ كما ترى تفسيرٌ لمعنى هذا الاسم العَلَم العبراني " اليسع" .

" اليسع " إذن مُفَسَّرَةٌ في القرآن بالتعريب وحده . إنه "إلْ + يَسَع" ، يعني "إيل يَسَع" ، أي "اللهُ يَسَع" ، واسعٌ عليمٌ سبحانه .

(٤٧) ذو الكفل

"ذو الكِفْل" عليه السلام نبيٌّ من أنبياءِ اللهِ عز وجل المُسَمَّيْنَ فى القرآنِ بالاسم. ورد اسمه فى القرآن مرتين فحسب ، أولاهما التى فى سورة الأنبياء مجموعاً إلى إسماعيلَ وإدريسَ عليهما السلام : { **وإسماعيلَ وإدريسَ وذا الكفل ، كل من الصابرين** } (الأنبياء : ٨٥) ، والثانية التى فى سورة ص ، مجموعا إلى إسماعيل واليسع عليهما السلام : { **واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل ، وكل من الأخيار**} (ص : ٤٨) .

ولفظ "ذى الكفل" كماترى عربىٌّ قُح ، ليس فيه شُبْهَةُ عُجْمَة .

على أن " ذا الكفل" لم يكن رجلا عربيا يتكلم العربية التى نزل بها القرآن . ولم يكن "ذو الكفل" بهذا اللفظ العربى هو الاسم الذى سماه به أبوه . وإنما "ذوالكفل" اسم "جاءَ به القرآنُ على الترجمة ، بديلاً من اسمه العبرانى فى" توراة الأنبياء والكتبة" ، أى فى العهد القديم ، شأنَ القرآنِ المُعْجز فى العدول عن التعريب إلى الترجمة حين يُسىءُ التعريبُ إلى المعنى أو يُفْسِدُ الجَرْس . وقد اجتمعت هاتان العلتان فى اسم "ذى الكفل" على أَصْلِه العبرى ، فوجبت الترجمة ، كما سترى .



تكلم المفسرون فى "ذى الكفل" (تفسير القرطبى للآية ٨٥ من سورة الأنبياء) فلم يتوقفوا عند تفسير معناه لأنه اسمٌ عربىٌ ظاهرُ العربية ، لا يحتاجُ إلى تفسير . ولكن لفيفاً منهم أنكر نبوةَ ذى الكفل : قالوا هو رجلٌ صالح من بنى إسرائيل . وساقوا فى هذا أحاديث ، حَمَلُوها على " ذى الكفل " المُسَمَّى فى القرآن . وهى تدورُ على رَجُلٍ لم يكن يتورع عن ذنب ، جاء امرأةٌ أعطاها ستين دينارا على أن تُمَكّنَهُ من نفسها فَقَبِلَت ، فلما هَمَّ بها بكت . قال : هل أكْرَهتُكِ ؟ قالت : لا ، إلا أننى واللهِ ما

فعلت هذا من قبل ولكنها الحاجة ، ألْجَأتْنى . قال أنا بهذا أولَى . فَعَفَّ عنها وتَرَكَ لها المال . فأماتَهُ اللهُ مِنْ ليلته . وأصبح الناس ، فوجدوا مكتوباً على بابه : قد غُفِرَ لذى الكفل .

وهذه الأحاديثُ وأمثالُها - وإن صحت - لا يَصحُّ حَمْلُها على "ذى الكفل" المُسَمَّى فى القرآن، لأن الرجلَ المجعولَ له هذا الحديث - إن صح - الذى عاش حياته لا يتورع عن ذنب ، ثم كَفَّ نفسَهُ عن الزِّنا بامرأةٍ سَعَى إليها بماله وعَفَّ عنها أرْيَحِيَّةً وسخاءَ نفس ، لم تُعِفَّهُ تقوى اللهِ عز وجل ، فأماتَهُ اللهُ على صَالحته مغفورَ الذنب ، مثلُ هذا الرجل مهما أطنبتَ فى حسن صنيعه لا يصح أن يُذكَرَ فى القرآن بالاسم ، ناهيك بأن يُذكَرَ فى القرآن مجموعاً إلى لفيفٍ من النبيين صلوات الله عليهم، فالقرآنُ لا يَخْلِطُ الأنبياءَ بغيرهم ، لا مَلكٌ ولا وَلِيٌّ ولا صِدِّيق، فما بالُك بداخل فى عفو اللهِ عز وجل ، أُميتَ على صَالِحته ؟

أما أن "ذا الكفل" ورد فى القرآن مجموعاً إلى أنبياء لا تَشُكُّ قط فى نبوتهم، فيكفيك أنه جاء مجموعاً إلى إسماعيل واليسع فى الآية ٤٨ من سورة ص التى تَلَوْتَ تَوّاً . وقد جاء ذكر إسماعيل واليسع فى طائفةٍ من الأنبياء خَتَمَ اللهُ الحديثَ عنهم بقوله عز وجل فيهم : { **أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحُكْمَ والنُّبُوَّة ، فإن يَكْفُرْ بها هؤلاء فقد وكَّلْنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هَدَى الله ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ، قل لا أسألكم عليه أجرا ، إن هو إلا ذِكرىَ للعالمين** } (الأنعام : ٨٩ ـ ٩٠) .

"ذو الكفل " عليه السلام نَبِيٌّ بصريحِ القرآن إن تَمَعَّنْت . ولا يصح مع صريحِ القرآن تفسيرٌ - أياً كان قائلهُ - يخَالِفُ صريحَ القرآن . ولا يصحُّ لمسلمٍ فى الأخبار عن النبى صلى الله عليه وسلم قَبُولُ حديثٍ - أياً كان رُواتُه - يُخالِفُ صريحَ القرآن لا مجالَ لصرفه عن معناه . هذا أصلٌ نفيس ، لو عَضَّ المفسرونَ عليهِ بالنواجذ لَخَلُصَ عملُهم الجليلُ من شائبةٍ دكناء كالهَنَةِ فى الثَّوْبِ الأبيض .

أما المستشرقون المنكرون الوحى على القرآن (١) فقد توقفوا فى "ذى الكفل" لا يدرون عمن يتحدث محمدٌ (صلى الله عليه وسلم) وكَأَنَّ ليس لَهُ عندَهم سَمِيٌّ فى

(١) راجع : Joseph Horovitz ، المرجع المذكور ، ص ٣٣ - ٣٤ .

"توراة الأنبياء والكتبة "، فقالوا إن لفظ " ذى الكفل" العربى يحتملُ عدة معانٍ لا يُستطاعُ القطعُ بأيِّها المَعْنى .

وكان هذا أيضا هو موقف الأحبار من أهل الكتاب الذين يتكئُ عليهم المفسرون وأصحابُ السِّيَرَ ، فقد تكتموا علِم ما عَلَّمَهُمُ الله ، لا يُرْوىَ عنهم قولٌ فى "ذى الكفل" الذى سماه القرآن ، مَنْ يكونُ فى أنبياءِ بنى إسرائيل وصُلَحائهم .

وأما لماذا يتعين أن يكون "ذو الكفل" من بنى إسرائيل لا من غيرهم ، فقد عَلِمْتَ من القرآن فى قوله عز وجل : { **ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مُهْتَدٍ ، وكثيرٌ منهم فاسقون** } (الحديد : ٢٦) إن النبوة من بعد إبراهيم [١] محصورةٌ فى نسله لا تخرج عنهم إلى غيرهم حتى خاتم النبيين صلوات الله عليهم أجمعين . ولو كان " ذو الكفل " من بنى إسماعيل شأنُهُ شأن محمدٍ صلى الله عليه وسلم لا من بنى إسحق ويعقوب لَتَوَقَّعْتَ من القرآنِ أن يُشير إليه ، ولكن القرآنَ ينص على عكسه ، لاختصاصه محمداً صلى الله عليه وسلم بلقب النبى الأميّ فى مثل قوله عز وجل : { **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل** } (الأعراف : ١٥٧) ، يَصفُ النبيَّ الذى يتعين على أهل الكتاب الإيمانُ به حين يُهِلُّ زمانُه بأنه " أمِى" والأمىُّ عند اليهود ليس هو كما تظن ، الذى يجهل القراءة والكتابة، وإنما هو "الذى مِن الأممْ " ، أى ليس منهم وإنما من الأُمَمِ الذين من حولهم ، فهو كُلُّ أجنبىْ عنهم. واللفظة العبرية هى " جُوِى" ، مفرد "جوِيم" ، وأيضا " أُمِّى"، "أُميِّيم"، أى هو النبى الذى من غير اليهود . وقد كان الخطاب بهذه الآية لموسى فى أعقاب فتنة العجل : { **قال عذابى أصيبُ بهِ من أشاء ورحمتى وَسِعَتْ كُلَّ شىء ، فسأكتُبُها للذين يتقون ويُؤْتُون الزكاةَ والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يَتَّبِعُون الرسولَ النبىَّ الأمِيَّ الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراةِ والإنجيل يَأْمُرُهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُحلُّ لهم الطيباتِ ويُحَرِّمُ عليهمُ الخبائث ويضعُ عنهم إصْرَهُم والأغلالَ التى**

---

(١) الأنبياء المُسَمَّونَ فى القرآن من ذرية نوح لا من ذرية إبراهيم هم : إبراهيم نفسه ولوط ابن أخيه ، وقبلهما صالح وهود . أما شعيب فهو بعد إبراهيم ولوط بنص القرآن كما مر بك .

كانت عليهم فالذين آمنوا به وعَزَّرُوه ونصروه واتبعوا النورَ الذى أُنزِلَ معه أولئك هم المفلحون } (الأعراف : ١٥٦ ــ ١٥٧) . وقد وصَّى بها موسى قومَهُ فى التوراة التى بين يديك : يُقيمُ لك الربُّ إلهُك نبياً من وَسَطِكَ من إخوتك مثلى، له تَسْمَعُون ! " (تثنية ١٨/ ١٥) . والمخاطَبُ بقوله : " يُقيمُ لكَ الربُّ إلهُك " على المفرد المذكر ، إسرائيل ، مراداً منه "بنو إسرائيل" ، والترجمة العربية "من وَسَطِك" مُضَلِّلة ، لأنها فى الأصل العبرانى : "مِقِّرْبخا " يعنى لا "من وَسطِك" وإنما من "صَمِيمتك"، والذى من صَميمة إسرائيل من إخوته هم بنو إسماعيل لا بنى إسرائيل بالطبع ، وقد خَفيَت هذه على المسلمين الذين جادلوا أهلَ الكتاب بها . ووصَّى بها عيسى أيضا أهلَ الإنجيل فى الأناجيل التى بين يديك :" إن لى أموراً كثيرة لأقولَها لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن . وأما متى جاء ذاك روحُ الحقِّ فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية " (يوحنا ١٢/١٦ ــ١٣). وروح الحق بالعبرية التى تكلم بها المسيح هى "رُوح إمتْ" فى الترجمة العبرية لهذه الأناجيل ، و "إِمتْ " عبرياً مصدرٌ من الجذر العبرى "أَمَنْ" ، فهو الأمانة على معنى قول الحق ، والأمينُ لَقَبهُ صلى الله عليه وسلم فى الجاهلية ، لا يقولُ إلا حقا . أما علماء النصارى فقد قالوا من بعد إن المعْنىَّ بروح الحق هو "الروح القُدُس" ، يعنون جبريل صلواتُ الله عليه ، وليس بشىء ، لأن جبريلَ عندَهم إله ، ثالثُ الثلاثة فى مُثَلَّث التثليث ، فلا يصح ولا يليق أن يقال فيه "لا يتكلم من نفسه بل كل ما يَسْمَعُ يتكلمُ به" شأنَ النبىِّ يُوحَى إليه ، موسى وعيسى ومحمدٌ صلوات الله عليهم فى هذا سواء ، ولكنك لا تَهْدى من أحْبَبْت .

والذى يجب أن تَعْلَمَه هو أن " الأمىَّ ، " الأميين " ، من مُستحدَثات القرآن ، لا علْم بهما للعرب قبل القرآن ، ولا شاهدَ لهما فى كلام العرب من دونه . وهو نسبةٌ إلى الأُمَّة لا إلى الأمِّ . وقيل "أُمِىٌّ" ولم يُقَلْ "أُمَمىٌّ" لأن العربية ـ أعنى عربية القرآن ـ لا تَنْسب ، أى لا تضيف ياءَ النسب إلى اللفظ فى صورة الجمع وإن كان المرادُ هو النسبة إلى الجمع ، وإنما تُعيدُ اللفظ الجمع إلى صورته فى المفرد ثم تنسب إليه ، كما نقول نحن الآن " دَوْلِى" ولا نقول "دوَلِىٌّ" على الجمع من "دَوْلة " ، وإن كان مقصودُ النَّسَب هو النِّسْبَةَ الى مجموع الدول لا إلى " الدولة " . ولكن مفسرى القرآن ، وتابَعَهُم علماءُ العربية ، فسَّروا الأمى والأميين فى القرآن بأنه نسبة إلى "الأم" لا إلى "الأُمَّة"،

يُريدون الذين هم على حال "أمِّهم" في جَهالة الفطرة . واستنبطوا من هذا أن "الأمي" هو العَيِيُّ الجافي ، الجاهل ، الذى لا يقرأ ولايكتب . فَسَّرُوها بهذا على التخمين ، لا على التأصيل ، فليس لهذا التفسير أَصْلٌ في العربية يُرَدُّ إليه ، والنسبةُ إلى الأمِّ لا تقتضي هذا الذى قالوه ، والذى لم يُسْمَع من العرب قبل القرآن .

أما أن العرب عند اليهود "أُمِّيون" فهذا لا خلاف عليه، لا لأن العرب أمةٌ أمية، لا يقرءون ولا يكتبون، وإنما لأنهم "جُويِم" ، "أميـيم"، أى من الأمَم، لا من بنى إسرائيل . وقد ورد فى توراة الأنبياء والكتبة ـ وهذا جديدٌ لم تقرأهُ من قبل ـ في التنديد ببنى إسرائيل على ألسنة أنبيائهم ، ما يلى : " لأن الرب قد سكب عليكم روح سُبات وأغمض عيونَكُم . الأنبياء والرؤساء الناظرون غَطَّاهُم . وصارت لكم رؤيا الكُلِّ مثلَ كلامِ السفر المختوم الذى يدفعونه لعارف الكتابة قائلين اقرأ هذا فيقول لا أستطيع لأنه مختوم . أو يُدْفَع الكتابُ لمن لا يعرف الكتابة ويقال له اقرأ هذا فيقول لا أعرف الكتابة " (إشَعْيَاء : ٢٩ / ٩ ـ ١٣) . ربما تجد فى هذا ــ وأنت مُحقٌّ بالطبع ـ إشارةً إلى المَعْنِيِّ بها ليلةَ القدْر فى غار حراء ، جبريلَ ومُحَمَّدٍ صلواتُ الله وسلامُه على ملائكته وأنبيائه ، يقول له اقرأ ، فيقول ما أنا بقارىء . ولكن الذى يعنينا فى هذا السياق هو أن العبرية لا تعرف لفظة " الأمِّى" بمعنى الذى يجهلُ القراءةَ والكتابة ، وإنما تقول : " أشِير لُو يُدِيعَ هَسِّفِر" أى الذى لا يَعْرِفُ السفر ، يعنى لا يَعْرف الكتابة . أما العبرية المعاصرة التى تستعير أحيانا من العربية فلم تَسْتَعِرْ منها لفظة " الأمِّى" بمعنى الذى لا يعرف القراءة والكتابة ، وإنما قالت فى الذى لا يقرأ ولا يكتب " بُور" يعنى "الجاهل " ، من " البوار" عربياً أى الأرض التى تُخَلَّى فَتَبور . وهى لم تَسْتَعِر " الأمِي " من العربية خَشْيَةَ اختلاطِها فى العبرية بمعنى الأجنبى الغريب الذى ليس من اليهود .

وأما لماذا "خَمَّن" المفسرون ـ وتابعهم عليها علماءُ العربية من بعد ـ أن "الأمِّى" يعنى الذى لا يعرف القراءة والكتابة ، فهو عِلْمُهم القاطع الذى لا خلافَ عليه أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن قبل نزول القرآن عليه يعرف القراءة والكتابة ، لا بدلالة قوله فى غار حراء لجبريل : ما أنا بقارىء! ، ليس لهذا فحسب ، وإنما لقوله عز وجل مُخاطباً نبيه : { **وما كنتَ تتلو من قبله من كتابٍ ولا تَخُطُّهُ بيمينك ، إذن لارتابَ المُبْطِلون** } (العنكبوت : ٤٨) ، وكانت هذه من آيات نبوته صلى الله

عليه وسلم وحُجَّةً لَهُ على من ادَّعَواْ عليه القراءةَ فى الكتب السابقة والاستنساخَ منها .
ولكن ليس فيها دليلُ على أن وصفه صلى الله عليه وسلم بالنبى " الأُمِّى" من هذا ، أى لعدم معرفته القراءة والكتابة . أما الحديثُ المَرْوِىُّ عنه صلى الله عليه وسلم : نحن أمةٌ أميَة ، لا نقرأ ولا نَحْسِب ؛ ففيه نظر ، لا من جهة رُواته بالذات ، وإنما من جهة المَتْن ، أى من جهة دَلالته ومعناه ، لأنه يُخالفُ الواقع .

لا يصح أن يقال إن " العرب " سُمُّوا أُميِّين : [**هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم**] (الجمعة : ٢) لأنهم على حالٍ أَمَّهم من جَهالة الفطرة لا يقرءون ولا يكتبون ، فقد قرأ العربُ وكتبوا ، دليلُكَ فى هذا تلك الصحيفة التى عَلَّقَها كفارُ قريش حين قَطَعُوا ما بينهم وبين بنى هاشم ، ودليلُكَ فيه أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم أَمْلَى هذا القرآنَ إمْلاءَ على نَفَرٍ من الكتبة العرب فكتبوه بالخط العربى لا بالخط العبرانى ، بل ودليلُكَ فيه كذلك من القرآن نفسه ، أعنى من تلك الآية فى سورة العنكبوت : [**وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون**] (العنكبوت : ٤٨) التى تفيد أن فى العرب قارئين كاتبين لستَ منهم .

ولا يصح أن يقال أيضا ان العرب سُمُّوا "أميين" على معنى الجهل بالقراءة والكتابة ، تسمية بالمُجمَّل ، لأن معرفة القراءة والكتابة لم تكن فاشية فيهم فُشُوَّها فى الشعوب من حولهم : الواقع أن " فُشُوَّ " العلم بالقراءة والكتابة لم يكن من سِمات العالم القديم عصرَ نزول القرآن ، بل إن شُيوع " الأمية " فى أهل البوادى والنجوع قد كان ـ ولا يزال إلى حدٍ كبير فى أيامنا هذه ـ هو القاعدة ، آفةٌ لا يَسْلَمُ منها بدرجةٍ أو بأخرى إلا أهلُ المدن ، ولم تكن مكةُ ، ولا يثرب ، باديةً أو نَجْعاً ، حتى يُقالَ فى أهلِها " أميون " بهذا المعنى ، أو حتى تلتصق هذه الصفة بالعرب فتكونَ عَلَما عليهم من دونِ شعوب الأرض ، تُطْلَقُ فلا يُفْهَمُ منها غيرُهم .

الصحيحُ أن اليهود هم الذين أَسْمَواْ العرب ـ كما أَسْمَوا غيرَهم ممن ليسوا من أنفسهم ـ أميين ، أى الذين من " الأمَم " على معنى الأجنبى ، لا على معنى الذى يجهل القراءة والكتابة. والذى ينبغى أن تتوقف عنده أن القرآن لا يستخدم لفظة "الأميين" ، وقد وردت فى القرآن أربعَ مراتٍ فحسب ، إلا فى سياق حديثٍ مع أهل

الكتاب أو عن أهل الكتاب ، على المغايرة منهم (راجع الآيات : البقرة ٧٨ ، آل عمران ٢٠ و ٧٥ ، الجمعة ٢) ، وهو أيضا لا يستخدم لفظة " الأمي" ، وقد وردت في كل القرآن مرتين فحسب في آيتين متتابعتين من سورة الأعراف (١٥٧ و ١٥٨) نعتاً للنبي صلى الله عليه وسلم في خطاب لأهل الكتاب يُرادُ منه النبيُّ الذي ليس منكم ، أي ليس من بني إسرائيل ، إلا في هذا المعنى وحده .

على أنك لا تحتاجُ مع القرآنِ إلى قولٍ لقائل . فقد حَدَّدَ القرآنُ بأجلى بيان مقصودَهُ من لفظ " الأميين " في قوله عز وجل : { **ومِنْ أهل الكتاب مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بقنطارٍ يُؤَدِّهِ إليك ، ومنهم من إنْ تَأْمَنْهُ بدينار لا يُؤَدِّهِ إليك إلا ما دُمْتَ عليهِ قائما ، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل** } (آل عمران : ٧٥) ، أي نستبيحُ في غيرنا ما هو مُحَرَّمٌ علينا . وليس المعنى بالطبع " نستغفلهم لأنهم لا يعرفون القراءة والكتابة " وإنما المعنى لا حَرَجَ علينا في أكْلِ أموالِهم بالباطل لأنهم من " الأمَم" ، ليسوا منا . وهذا من عقائدِ اليهود الثابتة في التوراة التي بين يديك : لا حُرْمَةَ لأجنبيٍ عنهم .

ها قد عَلِمْت أن " الأمي" في ألفاظ القرآن هو الذي ليس من بني إسرائيل ، لا الذي يَجْهَل ، أو العَيِيُّ الجافي ، أو من لا يعرف القراءة والكتابة. هذا شائن ، لا يَصِحُّ في حقِّ أفصحِ الناس وأرَقِّهِم حاشيةً بإطلاق ، الذي عَلَمَهُ اللهُ فهو أعْلَمُ الناس .

ولكن لا بأس بهذا الخطأ الشائع ، الذي أكْسَبَ اللغةَ العربية لفظاً جديداً يُغني بذاته عن جملةٍ طويلة (الأمي = الذي يجهل القراءة والكتابة) . فقط عليك أن تحترز من أن تفهم من هذا اللفظ المُحْدَث ما فَهِمَهُ المفسرون الأوائل في نَعْتِ الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم : { **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض ، لا إله إلا هو يحيي ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون** } (الأعراف : ١٥٨) .



ولأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو النبى الوحيد المنحدر من صلب إسماعيل ابن إبراهيم عليه السلام ، ولأن الأنبياء جميعا من بعد إبراهيم كلهم من نسل إبراهيم ، فلم يبق لك فى نسب نبى الله ذى الكفل إلا أن تأخذ بأحد خيارات ثلاثة :

١ـ إما أن ذا الكفل نبىٌ سابقٌ على إبراهيمَ نفسه ، عاش ما بين آدم إلى نوح شأن إدريس عليه السلام ، أو ما بين نوح وإبراهيم شأن هودٍ وصالحٍ على ما مر بك فى تضاعيف هذا الكتاب .

٢ـ وإما أنه نبىٌ من بنى إبراهيم خِلافَ إسماعيلَ من غيرِ بنى إسرائيل ، شأنه شأن شعيب عليه السلام (حمى موسى على ما يُرَجِّحُ المفسرون ونحن معهم) .

٣ـ وإما أنه نبىٌ من بنى يعقوب ، أى من بنى إسرائيل .

والذى نرجحه نحن من هذه الخيارات الثلاثة ونأخذ به ، هو الخيار الثالث ، أى أن " ذا الكفل " نبىٌ من أنبياء بنى إسرائيل ، لا لوروده فى القرآن بعدَ اليسعَ خَلَفِ إلياس ، فى إحدى الآيتين المذكورِ اسمُهُ فيهما : { **واذكر إسماعيلَ واليسعَ وذا الكفل** } (ص : ٤٨) ، فقد ورد فى الآية الأخرى بعد إدريس : { **وإسماعيل وإدريسَ وذا الكفل** } (الأنبياء : ٨٥) ، بل لا يُراعى القرآنُ دائما الترتيبَ الزمنى فى سردِهِ أسماءَ الأنبياء ، ولا بدلالةِ دُخوله فى زمرة " الأخيار" إبراهيم وإسحق ويعقوبَ فى قوله عز وجل عنهم : { **وإنهم عندنا لمن المُصْطَفَيْنَ الأخيار. واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكُلٌ من الأخيار** } (ص : ٤٧ ـــ ٤٨) التى يفهم منها للوهلة الأولى إلحاقُ هؤلاءِ الأخيار بأولئك ، فقد تَرَىَ أنت أن هذا دليلٌ على أن نبى الله ذا الكفل من بنى إبراهيم فحسب لا عبر يعقوب (إسرائيل) بالضرورة . ولكن الدليل عندى على أن " ذا الكفل " من أنبياء بنى إسرائيل هو اسمه هذا الذى سُمِّيَ به فى القرآن على الترجمة : ذو الكفل ، ومعناه بالعبرية هو " حِلْقِيًّا " ، وهو عَلَمٌ جارٍ فى أعلام العهد القديم ، أشهرُ من تسموا به إثنان : والد إرميا النبى ، واسمه إرْميا بن حِلْقِيا ، والثانى هو " حِلْقِيًّا " الكاهن على عصر يُوشِيًّا ملك يهوذا ، الذى عثر أثناء ترميم الهيكل فى عهد ذلك الملك على سفر شريعة الرب (أى توراة موسى) بخط موسى نفسه (راجع فى هذا الإصحاح ٢٢ من سفر الملوك الثانى ، والإصحاح ٣٤ من سفر أخبار الأيام الثانى) والملقب فى العهد القديم بلقب "الكاهن العظيم".

والذى أرجحه أنا ـ والله أعلم بغيبه ـ أن ذا الكفل المعنى فى القرآن هو هذا "الكاهن العظيم" حلقيا، لا يقدح فى هذا قولُهم كاهنٌ لا نبى، فالعهدُ القديم يخلط بين النبى والكاهن والرائى، دليلُكَ فى هذا من العهد القديم نفسه : "كلامُ إرْميا بن حلقيا من الكهنة الذين فى عناثُوث فى أرض بنيامين" (إرميا ١/١) الذى تَفْهَمُ منه أن إرْميا كاهنٌ من الكهنة ، بينما إرْميا عند اليهود نَبِىٌّ بإجماع .

أما لماذا لم يفطن المفسرون إلى "حلقيا" هذا سَمِىِّ ذى الكفل العبرانى ، فهذا بادىءَ بدءٍ لأن رُواتَهم من أهل الكتاب تَكَتَّموه عليهم ، وثانيا ـ وهو الأهم ـ لأن المفسرين الأوائل حتى وإن عَلِموا بوجود "حلقيا " فى العهد القديم ما كان لهم أن يعلموا معناه فى لغته ليطابقوه على "ذى الكفل" سَمِيِّه فى القرآن ، فما كانوا يعلمون من عبرية التوراة القدر الكافى لتحليل معانى أعلامها .



أما "حلقيا " ، ذلك الاسم العبرانى ، فهو اسم مزجى : حِلْقِى + يَا ، من الجذر العبرى "حَلَقْ " بالحاء غير المنقوطة ، مكافىء "خَلَق" العربى بالخاء المنقوطة من فوق ، ومن معانيه فى العبرية والعربية معا ، "الخلاق" بتخفيف اللام، أى الكِفْلُ والحَظُّ والنصيب والقِسْم بمعنى القسمة، كما تجد فى قوله عز وجل : { **إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خَلاقَ لهم فى الآخرة** } (آل عمران: ٧٧) أى لا نصيبَ لهم ولا حَظٌّ فى نعيم الآخرة . أى لا كِفْلَ لهم من هذا النعيم ولا " يُقْسَمُ " لهم منهُ شىء . وأصل هذا الاسم "حِلْقِياهُو" ، ثم اختصر إلى "حِلْقِيا" ، كما اختُصِرَ "إلِيَّاهُو" إلى "إيليًّا" ، ومعنى "حِلْقِياهُو " على أصلها المزجى هو "خَلاقُه " أى خَلاقُ الله ، يعنى قِسْمُهُ الذى قَسَم ، فهو خَلاقٌ منه عز وجل ، أى كِفْلٌ مَنّ به ، والمُسَمَّى بِهِ " ذُو كِفْلٍ " أى المُعْطَى كِفْلا .

هذه هى ترجمة القرآن المعجز للاسم العبرانى "حِلقيا" : لا أَجْمَلَ ولا أَدَقَّ ولا أَبْيَن. أما لماذا عَدَلَ القرآنُ عن تعريب هذا الاسم إلى ترجمته ، فلأنه إن تركه على أصله العبرى بالحاء غير المنقوطة التبس معناه عند القارىء العربى بمعانى الجذر العربى "حَلَق" غيرِ المرادةِ من التسمية ، ولو عَدَلَ به عن الحاء إلى الخاء على جهة التعريبِ

المُفَسِّرِ للمعنى ، لانبهم على القارىء العربى المُرادُ منه ، أهو "الخَلْق" أم "الخُلُق" ، أم "الخَلاق" ، وأبعدُها عن الذهن هو هذا الأخير رغم أنه وحدَهُ المُراد .

ولكنَّ للقرآنِ سبباً آخر أوْجَبَ العدولَ عن تعريب " حِلْقيًا " إلى ترجمته ، هو عندى السبب الأوْجَهُ والأقوىَ ، وهو الجَرْسُ القرآنى . قارن أنت واحكم بنفسك : أىُّ اللفظينِ ألْيَقُ بجَرْسِ القرآن ، " حِلْقيًا " أم " ذو الكفل " ؟

وسبحانَ العليمِ الخبير .

(٤٨) يونـــس

"يُونُس" فى القرآن ، اسم نبى الله يُونُس بن مَتَّى عليه السلام ، هى تعريبُ "يُونَا" العبرية فى العهد القديم، التى شُهِرَت بيونانيتها فى أصول الأناجيل "Ionas" "يُوناس" (مضافاً إليها سينُ الرفع اليونانية) وجاءت فى ترجمات الأناجيل العربية "يُونَان" (بإضافة نون المنصوب فى اليونانية أيضا) ، ولكنها شُهِرت عند العرب بصورتها السُّريانية المأخوذة عن اليونانية " يُونِس" بكسر النون ، فَعَرَّبَها القرآنُ على ما شُهِرَت به عند العرب ، ولكن بضم النون ، منعاً لشبهة فهمها من الأُنس والإيناس ، إن تركها على وزن "يُفْعَل" اليونانى ، أو على وزن "يُفْعِل" السُّريانى. وقد مر بك هذا فى تحليلنا اسم نبى الله يوسف عليه السلام ، فارجع إليه .

وقصة يونُس عليه السلام تَرِدُ فى "العهد القديم" ، أى "توراة الأنبياء والكتبة" فى سفر مستقل مُعَنْوَنٍ باسمه . ولأنك لا تجد ترجمةً عربيةً لهذا العهد القديم فى مُجَلَّدٍ قائمٍ برأسه أَشْرَفَ عليها اليهودُ أنفسُهم ، وإنما تجدُ الترجمةَ العربيةَ للعهد القديم مجموعةً فى مُجَلَّدٍ واحد مع "العهد الجديد" فى ترجمةٍ عربيةٍ أَشْرَفَ عليها المسيحيون العرب ، فستجد سفر يونس هذا فى ترجمته العربية المنقولة عن العبرية مُعَنْوَناً ـ كما يجبُ أن تتوقع ـ لا باسم سفر يونس كما هو لفظه العربى، ولا باسم سفر يُونا على أصلِه العبرى ، وإنما تجده معنونا باسم "سفر يونان" على ما شاع به اسم هذا النبى عند المسيحيين العرب : " يُونان" . وبهذا الاسم "يونان " ستجيءُ الإشارةُ إلى مُقْتَبَساتِنا من هذا السفر عند الضرورة .

والذى ينبغى التنبيهُ إليه فى هذا السياق ، هو فضلُ المسيحيةِ الضَّخْم على ديانة اليهود : لولا إيمانُ المسيحيين بهذا " الوحى" الذى فى توراة الأنبياء والكتبة ، واعتبارُهم المسيحَ عليه السلامُ مُكَمِّلا ومُتَمِّما لهذا "الناموس" الذى يُمَثِّلُهُ العهدُ القديم، ولولا حاجتُهم إلى استقصاءِ ما فى العهد القديم من " بِشارات " بِمَقْدِمِ المسيح

وأوصافه وصفاته وإعجاز مولده إعْمالا لوصيته فى الأناجيل : (فَتِّشُوا الكتب وهى تَشْهَدُ لى) ، بل قُلْ اختصارا لَوْلا اتكاءُ العهد الجديد على العهد القديم ، لما قامت المسيحيةُ بهذا الجُهْد الضخم فى دراسة أسفار توراة الأنبياء والكتبة ، وترجمتها ، ونشرها فى بقاع الأرض بكل اللغات ، ولو تُرِكَ الامرُ لليهود أنفسهم لما ضربوا فيه بسهم ، لا لكَسَلٍ فيهم ، وإنما لأنهم "يَضِنُّون بالخير على غير أهله " فى وَهْمِهم ، أى على العالم كُلِّه من دونهم ، لأنهم وحدَهم "شعبُ الله " لا حاجة به إلى غيرهم ، تعالى اللهُ عن ذلك عُلُواً كبيراً .

وأنت بالطبع تَحْمَدُ للمسيحية فضلَها فى خِدْمَة أسفار اليهود ، بحثاً وترجمةً ونشرا ، إذ لولا المسيحيةُ لبقيت تلك الأسفارُ حبيسةَ خزائنهم . ولكنك تَحْتَرِزُ وأنت تقرأ أسفارَ اليهود فى غير أصلها العبرانى من شُبهة تطويع الأصل لهوى المُتَرْجِم فى كلِّ نص يُرادُ منه الاستشهادُ للمسيح أو لعقيدة التثليث ، مثلما تَحْتَرِزُ كُلَّ الاحتراز من شبهة " التَّشَيُّع " فى تفاسير القرآن والحديث . تحترز من المغالاة هنا وهناك ، لأن المغالاةَ إسفاف ، والإسفافُ مُنزَلَقٌ إلى الإثم الكبير .



قال صلى الله عليه وسلم : " لا تفضلونى على يونس بن متى" . وهذا من تواضعه صلى الله عليه وسلم ، فقد قال عز وجل : { **تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض** } (البقرة : ٢٥٣) ، أى فضلنا كُلاً بِمَأْثُرَةٍ . وقال فى خاتم النبيين : {**وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما** } {النساء : ١١٣} ، وقال فيه عز وجل أيضا : { **إن فضله كان عليك كبيرا** } (الإسراء : ٨٧) . حَسْبُكَ أنه خاتَمُ النبيين صلى الله عليه وسلم، الذى خُتِمَت به النبوةُ والرسالة ، والذى يُخْتَمُ به هو الأعلى لا الأدنى . ولكنك تفهم أيضا من هذا الحديث ـ فوق دلالته على تواضعه صلوات الله عليه ـ أن الأنبياءَ جميعا سواءٌ فى " فضل النبوة " لِوَحْدَة الرسالة والقصد ، وَوَحْدَة المُرسل جَلَّ وعلا . وتلمحُ فى هذا الحديث أيضا صَدَى قَولِه عز وجل : { **آمن الرسولُ بما أُنزِلَ إليه من ربه والمؤمنون ، كُلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورُسُله ، لا نُفَرِّقُ بين أحدٍ من رسله ، وقالوا سَمِعناً وأطعنا ، غُفرانَكَ ربَّنا وإليك المصير** } (البقرة : ٢٨٥) .

ولكن الله عز وجل يقول لخاتم النبيين : { **فاصبرْ لحُكمِ ربِّك ، ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم . لولا أن تَدَارَكَهُ نعمةٌ من ربه لَنُبِذَ بالعراء وهو مذموم . فاجتباه ربه فجعله من الصالحين** } (القلم ٤٨ ـــ ٥٠) ، أى لا تكن أنت كصاحب الحوت ذى النون - والنون فى العربية يعنى الحوت - يُونس بن متى عليه السلام الذى لم يصبر لحكم ربه فالتقمه الحوت وهو مُليم - والمُلِيم هو الذى أتَى ما يُلامُ عليه - حين ذهب مُغاضبا ، أى هَجَر وتَبَاعَد : { **وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك ،إنى كنت من الظالمين** } (الأنبياء : ٨٧) . وهو أيضا يُونس فى قوله عز وجل لموسى وقد ولَّى مُدبراً ولم يُعَقِّب حين ألقى عصاهُ عن أمر الله فرآها تهتز كأنها جانٌ : { **فلما رآها تهتز كأنها جانٌ ولَّى مُدبرا ولم يعَقِّب ، يا موسى لا تَخَفْ ، إنى لا يخافُ لدىَّ المرسَلون . إلا من ظلم ثم بَدَّل حُسناً من بعد سوء فإنى غفور رحيم** } (النمل : ١٠ ـ ١١) ، أى يا موسى أنت معى آمن ، فلا يخافُ فى حضرتى أنبيائى . ولكنه عز وجل عَلِمَ أنه سيكون من يونُسَ ما كان ، أى سَيَفِرُّ يونس من وجهه عز وجل لا إليه سبحانه ، فكان يونُسُ بهذه " المغاضَبة " ظالماً ، مُليماً أتَى ما يُلامُ عليه ، ومن معانى الظلم فى العربية أن تكون غَيْرَ مُحِق ، تضعُ الشيءَ فى غير موضعه ، فلا يَفرُّ من وجه الله إلا ظالم ، فما بالُك بنبىٍ وضع اللهُ عز وجل عليه كَنفَه ، أفَيفرُّ من كَنَف الله أحد ؟ استثنى اللهُ عز وجل من أنبيائه الذين لا يخافون فى حضرته يونُسَ الذى ظَلَم : ذكر ملامته ، وذكر توبته ، وعقَّب بمغفرته ورحمته ، ولم يُولَد بعدُ يونس . فسبحان الذى ما فرَّطَ فى الكتاب من شيء ، الذى أحْكَمَ فى القرآنِ كُلَّ قَولٍ قَالَه .

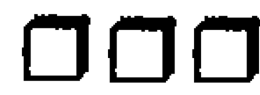
ولكن مفسرى القرآن (راجع تفسير القرطبى للآية ١١ من سورة النمل) تهيَّبوا القول بأن يكون فى رُسُلِ الله من ظَلم ، فقال بعضُهم إن الاستثناء بالذى ظَلَم استثناءٌ منقطع ، يعنى إلا الذين ظلموا من عباده غير الأنبياء . وهذا ضعيفٌ لا يَتَعَمَّقُ معنى الآية ، لأن خشية الله عز وجل وقْرٌ واقِر فى قلبِ كل مؤمن ، نبىٍ وغيرِ نبىٌ ، والنبى بهذا أقمَنُ وأجْدَر ، فلا يخشى الله حقَ خشيته إلا عَالم ، ولا عَالمَ كنبى ، وليس هذا هو الذى لامَ اللهُ عليه موسى ، ولكنه ليمَ لأنه وهو فى كَنَف الله عز وجل خَشِيَ على نفسه من ثُعبانٍ فولّى مُدْبِراً ولم يُعَقِّب ، ونَسِيَ أنه فى حضرته عز

وجل آمنٌ مُؤَمَّن ، فَذَكَّرَهُ اللهُ بها ، فالمستثنَى منهُ إذن في الآية هُم الأنبياء حالَ كونهم في حضرته عز وجل، لا في عموم شأنهم وأحوالهم ، والمستثنَى هو يونس لأنه "غَاضبَ" فَفَرَّ من وجه الله عز وجل ولم يَفِرَّ إليه سبحانه . أما الآخرون فقالوا إن الاستثناء لا شكَّ متصل ، أي أن من الأنبياء من ظَلَم ، ولكنهم لم يَخُصُّوا بها يونُس ، وإنما عَمَّمُوها في هَفَوات الأنبياء صلواتُ الله عليهم ، من مثل غَفْلَة آدم الذى نَسَى فأكل مما نُهِيَ عنه ، وفتنة داودَ حين وقعت في قلبه امرأةُ صاحب جُنده فأرادَهُ على تطليقها ليتزَوجَ هو منها ، وأيضا يونس الذى أتى ما يُلامُ عليه حين ذهب مُغاضبا ، والصغيرةُ من النبى في حكم الكبيرةِ من غيره . وليس هذا أيضا هو معنى هاتين الآيتين من سورة النمل ، لأن مقصودَهما كما مَرَّ بك هو اللَّوْمُ على خَوْفِ النبى في حضرةِ الله عز وجل حيث الأمْنُ الذى ليس فَوْقَهُ أمْن ، لا خوف النبى من ذَنْبٍ أتاه ، وهذا لم يفعلْهُ يونس، فلم يَفِرّ من وجه الله عز وجل لذنبٍ أتاه ، وإنما كان الذَّنْبُ الذى ظَلَم بِهِ هو هذا الفرارَ نفسَه . وقال بعضُ المفسرين أيضا إن " الذى ظَلَم" في الآية لا يَبْعُدُ أن يكون هو موسى نفسه ، يُذكرُهُ الله بذنبه حين وكَز ذلك الرجلَ المصريَّ فقضى عليه ، وهذا ضعيفٌ مُمْعِنٌ في الضَّعْف ، لأنه يتأدَّى بك الى معكوسِ الاستثناء في قوله عز وجل "إلا من ظَلَم" ، فيكون المعنى أنت وحدك يا موسى الذى تخافُ في حضرتي غيرُ آمن، لفعلتك التى فعَلْت ، فلماذا لامَهُ اللهُ إذن على فرارِهِ مُدْبِراً لم يُعَقِّب ؟ على أنك لا تَعُدُّ موسى قاتلاً مُرتَكِبَ كبيرة ، فلم يُرِد قتلَ هذا المصرى ، وإنما قتله عفواً بوكزةٍ من يده في مُدافَعَتِهِ عن رجلٍ من قومه كاد المصرى في اقتتالهما أن يَبْطشَ بالذى "من شيعته" ، ولكن موسى عَدَّ هذا القتل غيرَ العَمْدِ إثما بَليغا : { **قال هذا من عمل الشيطان ، إنه عَدُوٌّ مضلٌّ مُبين** } ، { **قال ربِّ إنى ظلمتُ نفسى فاغفر لى فغفرَ له إنه هو الغفورُ الرحيم** } وعاهدَ موسى ربَّه وقد تاب عليه ألا يكون من بعدُ ظهيراً لمجرم ولو كان من شيعته : { **قال ربِّ بما أنْعَمْتَ عَلَيَّ فلن أكونَ ظهيراً للمجرمين** } (راجع الآيتين ١٥ و ١٦ من سورة القصص)، فقد تاب اللهُ عز وجل على موسى ومَحَا عنه إثْمَ هذه الفَعْلَة وَتأثُّمَهُ منها الذى حاك في صدره : { **وقتلتَ نفساً فنجَّيناكَ من الغمِّ** } (طه : ٤٠) ، قبل أن يُبْعَثَ موسى إلى فرعون بعشرِ سنين قضاها موسى في مَدْيَن . وتستطيع أن تقول أيضا إن الفرارَ من ثعبانٍ مُبين كالذى صارت إليه عصا موسى أمرٌ طبيعى في حقِّ البشر وإن كانوا

أنبـيـاء، وليس هذا هو الذى لِيمَ عليـه مـوسى ، وإنما لِيـمَ مـوسى لأنـه "وَلّى مُدْبِراً ولم يُعَقِّب" يعنى أدْبَرَ موسى فِراراً من هذا الثعبان لِمَا وَقَعَ فى قلبِهِ من الخوفِ منه ، وهذا طبيعىٌّ فى حَقِّ البشر ، ولكنه " لم يُعَقِّبْ " ، أى لم يقفل راجعا إلى ربه يلتمسُ الأَمْنَ من هذا الخَوفِ عند السَّلامِ المؤمنِ المُهيمنِ جَلَّ وعلا .

على أن يونس عليه السلام أَقَرَّ بظلمه فى قول الله عز وجل على لسانه : { **لا إله إلا أنت سبحانك ، إنى كنت من الظالمين** } (الأنبياء : ٨٧) ، وليس بعدَ هذا قَوْلٌ لقائل .

قد " ظَلَمَ " إذن يونُس صلواتُ اللهِ عليه . فكيف ظَلَم يونس ؟



كـانت نَيْنَوىَ ـ وتَقَعُ أطلالُهـا اليـومَ قُبالة مـدينة الموصل شَمـالِيَّ العـراق ـ لا عـاصـمـةَ الآشـوريين وإنما عـاصـمـة الشـرق الأدنى القـديم كله مـا بـين القـرنـين الثـامن والسابع قبل الميلاد . كانت آشورُ تَحْكُمُ بابل ، فهى عـاصمةُ آشورَ وبابل ، ولم يكن قد بَزَغَ بعد نجمُ الفرس الذين كان عليهم أن ينتظروا حتى الرُّبْعِ الأخير من القرن السادس قبل الميلاد . أما مصر فلم تَعُد لهـا اليـدُ الطُّولَى فى أحداث الشرق الأدنى القديم منذ مَهْلِكِ فرعون (رمسيس الثانى كما عَلِمْتَ) فى خليج السويس أواخرَ القرن الثالث عشر قبلَ الميـلاد ، بل استـطاع " أسرحدُّون " الأشـورى اقتـحـامَ مصر على عـهـد "طهرقـا" (٦٨٩ـ٦٦٣ ق . م) وطاردَهُ حتى جنوبيِّهـا ، ولَقَّبَ نفسَه ملك آشـور وبابل ومـصـر ، فـأصـبـحت نينوى عـاصـمـةَ العـالم القـديم كله دون مُنازِع . ولكن هذه العَظَمَة لم تَدُم طويلاً لنَيْنَوىَ ، لأن بابلَ هَبَّت من كبـوتهـا فـأسقطت آشـور وفـتـحت عـاصـمـتهـا نينوى حوالى سَنة ٦٠٧ ق.م ، فكان هذا هو آخر عهد نَيْنَوىَ بالعظمة ، بل بالوجود كمدينة، فلم يُبقِ البابليون منها إلا خرائبَ وأطلالا .

وإلى نَيْنَوى هذه أُرسِلَ يونُسُ عليه السلام كما تقرأُ فى العهد القديم : " وصار قـول الرب إلى يونان بن أَمَتَّاى قـائلا : قم اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة وناد عليها لأنه قد صَعَدَ شَرُّهم أمامى " (يونان ١/١ـ٢) . ولكن يونان ـ أى يونس ـ شَقَّ عليه الأمر ، وكأنما خَشِيَ على نفسه من مُصاولة هذه المدينة العظيـمة وفيها مَلِكٌ جائر (كما فَرَقَ موسى من قبلُ من مـواجهـة فرعون فـى مصر فـقال هو وأخوه هرون : { **قالا ربنا**

إننا نخاف أن يَفْرُطَ علينا أو أن يطغى } (طه : ٤٥) ، على نحو ما تقرأ فى العهد القديم : "فقام يونان ليهرب إلى تَرْشيش من وجه الرب فنزل إلى يافا ووجد سفينةً ذاهبة إلى ترشيش فدفع أجرتها ونزل فيها ليذهب معهم إلى ترشيش من وجه الرب" (يونان ١/٣) ، فكان من أمره مع أصحاب السفينة ما تعلم : عصفت بهم الريح وهاج البحر هياجا لم يَعْهدُوا مثله ، فظنوا أنه من رُكابِها ظالمٌ آبِق ، واقترعوا على ركاب السفينة أيهم الظالمُ الآبِق ، فكان يونس ، فألقوهُ فى البحر ، فهدأت الريحُ وسَكَن البحر ، واستقامت لهم السفينةُ بعد خلاصِهم منه . أما يونس فقد التقمهُ حوتٌ كأنما كان ينتظرهُ . ولكن اللهَ أمرَ الحوتَ ألا يَمَس منه شَعْرة . ومكث يونس فى بطن الحوت ثلاثةَ أيام وثلاثَ ليال ، وهو قائمٌ يستغفرُ ويسبِّح . حتى أمر اللهُ الحوت أن يَلفظَهُ إلى البرِّ سليماً مُعافَى : " ثم صار قول الرب إلى يونان ثانية قائلا : قم اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة وناد لها المناداة التى أنا مُكَلِّمُكَ بها " (يونان ٣/١ ـ ٢) ، فذهب يونانُ من فوره إلى نينوى وقال لأهلها : "بعد أربعين يوما تنقلب نينوى" (يونان ٣/٤) . ولكن أهل نينوى ، على غير دَأْبِ الذين تُبْعَثُ فيهم الرُّسُل ، آمنوا بيونس ، وصدَّقوا وعيدَ الله على يديه ، المَلِكُ والرعية ، فَرَجَعُوا عما هُم فيه من ضلالتهم : " ونادَوْا بِصَوْم ولبسُوا مُسوحاً من كبيرهم إلى صغيرهم " (يونان ٣/٥) ، وقالوا :" لعل الله يعودُ ويندَمُ ويرجعُ عن حُمُو غضبه فلا نَهْلِك (يونان ٣/٩) . " فلما رأى اللهُ أعمالَهم أنهم رَجَعَوا عن طريقهم الرديئة نَدِم اللهُ على الشر الذى تَكَلَّمَ أن يصنَعَهُ بهم فلم يصنعه " (يونان ٣/١٠) . أما يونان فقد اغتم لهذا غما شديدا ، وكأنه قال فى نفسه فيمَ إذن كان هذا العناء ، وفيم كانت بَعْثَتى إلى هؤلاء واللهُ يرقُّ ويَرْحَم : " فَغَمَّ ذلك يونانَ غَمّاً شديدا فاغتاظ وصَلَّى إلى الرب قائلا آه يا ربُّ ، أليس هذا كلامى إذ كنتُ بعد فى أرضى . لذلك بادرت إلى الهرب إلى ترشيش لأنى عَلِمْتُ أنك إلهٌ رؤوفٌ رحيمٌ وبطىءُ الغَضَبِ وكثيرُ الرحمة ونادمٌ على الشر ، فالآن يا رب خذ نفسى منى لأن موتى خيرٌ من حياتى " (يونان ٤/١ـ٣) . تُرىَ هل كان يونانُ يتمنى إيقاعَ الوعيد بأهل نينوى رغم توبتهم كيلا يُقالَ أَوْعَدَ يونانُ فأَخْلَفَ اللهُ وعده؟ هذا هو ما يقوله لك السِّفْر : "وخرج يونانُ من المدينة وجلس شرقى المدينة وصنع لنفسه هناك مَظَلَّة وجلس تحتها فى الظل حتى يرى ماذا يحدث فى المدينة" (يونان ٤/٥) . ثم تفهم من السفر أن الله عز وجل أراد أن يُبَرِّرَ ليونان سببَ تجاوزه عن

إيقاع العذاب بأهل نينوى : إنه الرحمة والشفقة منه تبارك وتعالى لا التوبة من جانبهم "فأعد الرب الإله يقطينةً فارتفعت فوق يونان لتكون ظلا على رأسه لكى يُخَلِّصَهُ من غَمِّه [(١)] . فَفَرِحَ يونانُ من أجل اليقطينة . ثم أَعَدَّ اللهُ دُودةً عند طلوع الفجر فى الغد فَضَرَبَت اليقطينةَ فَيَبِسَت . وحدث عند طلوع الشمس أن الله أَعَد ريحاً شرقية فضربت الشمس على رأس يونان فَذَبُل ، فطلب لنفسه الموتَ وقال موتى خيرٌ من حياتى . فقال الله ليونان هل اغتظت بالصواب من أَجل اليقطينة ؟ فقال اغتظتُ بالصواب حتى الموت . فقال الربُّ أنت شَفِقْتَ على اليقطينة التى لم تتعب فيها ولا رَبَّيتَها ، التى بِنْتَ ليلةٍ كانت وبنتَ ليلةٍ هَلَكَت . أفلا أُشْفِقُ أنا على نينوى المدينة العظيمة التى يوجد فيها أكثرُ من اثنتى عشرة رِبْوَةً [(٢)] من الناس الذين لا يعرفون يَمينَهم من شِمالِهم وبهائمُ كثيرة ؟" (يونان ٤/٦ ـ ١١) .

بهذا التبرير لتجاوز الله عن إيقاع العذاب بأهل نينوى بعدَ توبتهم ، ينتهى سفرُ يونان فى العهد القديم . وبغض النظر عن بعض العبارات التى تنبو عن أدب الحديث فى جَنْبِ الله عز وجل ، من مثل " الله يَنْدَمُ " (فى الأصل العبرانى "وَيِنَّحِمٌ ها إلوهيم" من الجذر العبرى " نَحَمْ ") التى تَفْرَقُ منها أُذُنُ المُسلم وإن أَلِفَتْها أسماعُ أهل التوراة ، وبغض النظر أيضا عن سماتٍ فى أسلوب هذا السفر تُذَكِّرُكَ بأساليب كاتب سفر التكوين حتى تكاد تظن الكاتبَ فى السفرين واحدا ، وتَهْبِطُ بكتابة سفر التكوين إلى عصرٍ متأخر عن أحداثه ، كما مر بك فى تضاعيف هذا الكتاب . بغض النظر عن هذا وذاك ، فإن وقائع سفر يونان تتقارب كُلَ التقاربُ مع قصة يونس فى القرآن ، ولكن ترتيبَ هذه الوقائع فى السَّرْدِ القرآنى مختلف .

وهو اختلافُ بالغُ الخطورة ، لأنه هو الذى يُحَدِّدُ لك كيف " ظَلَمَ " يونس ، وفِيمَ كانت ملامتُه .



(١) تُرَى ما حاجته إلى ظلِّ اليقطينة والكاتبُ يقول إن يونان أَعَدَّ لنفسه مَظَلَّةً جلس تحتها ؟ الكاتبُ هنا يَخْلِطُ فى ترتيب الأحداث . وإنما كانت اليقطينة عقب أن نَبَذَهُ الحوتُ بالعراءِ وهو سقيم ، لا بعد خروجه مُغاضبا من نينوى كما سترى .

(٢) الرِّبْوَةَ فى مصطلح اليهود عشَرةُ آلاف ، فهم مائةٌ وعشرون ألفاً فى نَيْنَوىَ .

يقول لك سفر يونان إن ملامةَ يونس التى استحق بها عقابَ الحبس فى بطن الحوت ثلاثةَ أيامٍ وثلاث ليال، كانت هى نُكولَهُ عن حَمْلِ أعباء الرسالة إلى أهل نينوى، أشْفَقَ منها وفَرَّ هاربا من وجه الله عز وجل. ولا يفعلُ هذا نَبِيٌّ اختارَهُ اللهُ على علم.

ويقول لك القرآن ان ملامة يونس التى قذفت به إلى بطن الحوت هى أنه ذهب مغاضبا: {**وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه**} (الأنبياء: ٨٧) ، أى أنه عليه السلام غَضِبَ فغاضب ، وبديهى أنه لم يَغْضَبْ من الله عز وجل لإنزاله الرسالةَ عليه فهجر اللهَ وتباعد عنه ، وهذا معنى المغاضبة فى اللغة ، وإنما المعنى أنه عليه السلام لم يَصْبِر لحكم الله عز وجل فى أهل نينوى ، أى إمهالِهم حتى يتوبوا ثم يَرفَعَ العذابَ عنهم ، ليكونوا مَضربَ المثل فى قوله عز وجل : { **إن الذين حَقَّت عليهم كلمةُ ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كُلُّ آيةٍ حتى يَرَوا العذابَ الأليم . فلولا كانت قريةٌ آمنت فنفعها إيمانُها إلا قَوْمَ يُونُسَ لما آمنوا كشفنا عنهم عذابَ الخزْيِ فى الحياةِ الدنيا ومَتَّعْنَاهُم إلى حين**} (يونس : ٩٦ ـــ ٩٨) ، ولكن يونُسَ غَضِبَ من هذا ، وكأنما ساءَهُ عفْو الله بمحضِ التسبيح والتوبة عن قومٍ أُرْسِلَ لهدايتهم لا لإيقاع العذابِ بهم، فخرج من المدينة مُغاضبا، أى هَجَر وتباعد ، فكان من أمره فى السفينة وفى بطن الحوت ما تعلم ، كى يُعَلِّمَه الله عز وجل أن التوبة والتسبيح هما وحدهما السبيلُ إلى الرحمة والعفو : حبسه فى بطن الحوت لا ملجأ له من الله إلا إليه ، يُقِرُّ بذنبه ، فَيُسَبِّحُ ويستغفر ، مثلما فعل قومُه حين سَمِعُوا وعبدَ الله على يديه ، لم يُصِرُّوا على ما فعلوا ، وأيضا لم يَقْنَطوا . بهذا نفسِه نُجِّىَ يُونُس : { **فلولا أنه كان من المُسَبِّحين .لَلَبِثَ فى بطنه إلى يومِ يُبعثون . فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنبتنا عليه شجرةً من يقطين . وأرسلناه إلى مائةِ ألفٍ أو يزيدون . فآمنوا فَمَتَّعْنَاهم إلى حين** } (الصافات : ١٤٣ ـــ ١٤٨) . كان مجيء يونس إلى قومه قبل التقام الحوتِ إياه ، لا بَعْدَهُ كما تجد فى سفر يونان . وكان إنباتُ اليقطينةِ عليه عُقَيْبَ أن لَفَظَهُ الحوتُ إلى البر مباشرةً لحاجته إلى ظِلِّها فى العراء وهو سقيم ، لا لينام مُسْتَرْوِحاً فى ظِلِّها ينتظر إيقاعَ العذابِ بأهل نينوى لِيَتَشَفَّى فيهم كما يقص عليك الكاتب فى العهد القديم ، فقد صنع لنفسه من قبل مَظَلَّةً يتظَلَّلُ تحتها كما يروى

الكاتب . وإنما احتاج الكاتبُ إلى هذا بعد أن خَلَّطَ فى أحداث القصة ، وفاته درسُ الحوت الذى استنفده فى عقاب يونس على رفضه الرسالةَ إلى نينوى ـ وهو مُحالٌ فى جَنْبِ رُسل الله كما مر بك ـ فافتعل من عنده " درس اليقطينة " التى فَرِحَ بها يونانُ فَرَحاً شديدا لا تدرى لماذا ، ثم أماتها فى ليلةٍ فَحزنَ لموتها يونانُ أيضا حُزنا شديدا ، بل واغتاظ لموتها حتى طَلَبَ لنفسه الموت، وأنتَ الذى تَغيظُكَ هذه المبالغاتُ والتهاويل، كي يقول له اللهُ فى النهاية مُسَكنا غيظَه على اليقطينة التى أَحَبَّها حتى الموت إنه أَقْمَنُ بالشفقة على عباده ، مائةٍ وعشرينَ ألفَ خَلْقٍ من خَلْقه صَنَعَهُم بيديه ، عدا بهائمَ كثيرة فى المدينة ، وكأنه عز وجل ـ تعالى اللهُ عن ذلك علوا كبيرا ـ يَعْتَذِرُ لنبيه عن إشفاقه على أهل نينوى ، الذين رَحِمهُم لكثرتهم لا لتوبتهم . فأين درسُ اليقطينة فى هذا السفر من درسِ الحوت فى القرآن ؟ بل ما الحكمةُ من إرسال الرسل إذا كان اللهُ يَرْحَمُ العُصاةَ فى هذه الدنيا من أجل كثرتهم فلا يُهلِكُهم بذنوبهم ؟ بل هذا هو ما قاله يونان لله فى ذلك السفر يبرر بها نكوله عن تلقى الرسالة إلى نينوى حين نكل ، وكأنما يعاتبُ اللهَ بها ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا : " آه يارب ! أليس هذا كلامى إذ كُنتُ بَعْدُ فى أرضى ؟ لذلك بادرتُ إلى الهرب إلى ترشيش ، لأنى عَلِمْتُ أنك إلهٌ رؤوفٌ ورحيمٌ وبطيءُ الغضب وكثير الرحمة ونادمٌ على الشر . فالآن يارب خُذ نفسى منى لأن موتى خيرٌ من حياتى " (يونان ٤/٢ـ٣) يعنى أن يونان لم يُخطىء فى فراره من تلك الرسالة لأنها عَبَثٌ فى عَبث ، فسيرحمُ اللهُ فى النهاية ، كما كان عبثاً فى عبث حَبْسُهُ فى الحوت . ولكنك لا تتوقف لتناقشُ يونانُ فى هذا القول الذى قاله ، فلا يقول نَبِيٌ هذا الكلام ، والذى فى السفر من هذا وأمثاله لا يَدْخُلُ فى وحى الله على رسله ، وإنما هو عَبَثٌ انساقَ إليه قَلَمُ الكاتب .

أما قصةُ يونس فى القرآن ، فتجد مُجْمَلَها فى قوله عز وجل : { **وإن يونس لمن المرسلين . إذ أبقَ إلى الفلك المشحون . فساهم فكان من المُدْحَضِين . فالتقمهُ الحوتُ وهو مُليم . فلولا أنه كان من المسبحين. للبث فى بطنه إلى يومِ يُبعَثُون. فنبذناهُ بالعراء وهو سقيم. وأنبتنا عليه شجرةً من يَقْطين . وأرسلناه إلى مائة ألفٍ أو يزيدون. فآمنوا فَمَتَّعْنَاهُم إلى حين** } (الصافات : ١٣٩ ـــ ١٤٨). والإمتاع فى اللغة هو الاستبقاء، أى آمنوا فأبقينا عليهم ولم نُهلِكْهُم ، فالإيمانُ يَجُبُّ ما قبله كما قال الصادقُ المصدوقُ

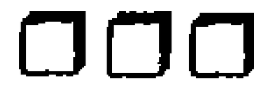
صلى الله عليه وسلم لمن شَرَطَ عليه العفوَ عما سلف من ذنوبه قَبْلَ إسلامه فقال له : الإسلامُ يَجبُّ ما قبله ، أي يُسقطُهُ ، ولكن غَلَب "التمتع" في التنعم ، وكلاهما "مُراد" في الآية . أما "فمتعناهم إلى حين" فهي من إعجاز القرآن ، لأن نينوى ضَلَّت وأفسدت من بعد ، فأرسلَ اللهُ عليها البابليين فاستأصلوا شأفتها ، مثلما بَعَثَهُم اللهُ على بني إسرائيل بَعْدَ هذا ببضع سنين فدمروا أورشليم على أهلها .

وربما قيلَ لك : فماذا تقول في هذا السَرْدِ الذي في سورة الصافات الذي يُفْهَمُ منه أن مجيء يونس إلى " مائة ألف أو يزيدون " - أي إلى أهل نينوى - قد كان بنص القرآن بعد انتباذ الحوت إياه " بالعراء وهو سقيم " : { **فالتقمه الحوتُ وهو مُليم. فلولا أنه من المسبحين . لَلَبِثَ في بطنه إلى يومِ يُبعَثُون . فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنْبتنا عليه شجرةً من يَقْطِين . وأرسلناهُ إلى مائة ألفٍ أو يزيدون** } (الصافات : ١٤٢ ــ ١٤٧) ، قد التقمه الحوت إذن قبل أن يَصْدَعَ بأمر الله فيذهب إلى نينوى مُنذراً مُتَوِّعدا ، تماما كما في سفر يونان ، فماذا تقول في هذا ؟ الرَدُّ بسيط . هذا المُعترِضُ يُغْفِلُ مُفْتَتَح الآياتِ الإحدى عشرةَ من سورة الصافات التي تقص بَعْثَةَ يونس ، وهي : "وإن يونس لمن المرسلين" ، ثم يستطرد النسق القرآني المعجز إلى ما كان من أمر يونس حين " أَبَق " ، ليعودَ فيقص عليك ما كان من شأن القوم الذي كان يونس رسولا إليهم قبل إباقه : كانوا مائة ألفٍ أو يزيدون، وكأنه يَرُدُّ على تساؤلك : إذا كان يونس من المرسلين ، فإلى من أُرْسِلَ يونس؟ إلى مائة ألفٍ أو يزيدون! ثم ينتهي السردُ المعجز لينبئك بمصير المُرْسَلِ إليهم:آمنوا بيونس فمتعهم الله إلى حين : كي تظل هذه الحكمة واقرة في أذنك ، لأنها الحكمة المقصودة من قصة يونس ، كي تُقارِن مصيرَ من كَفَرَ من الأمم بمصير من آمن . أما درس الحوت فهو موعظة للأنبياء من بعد يونس ، لا لك أنت ، فليس لك في هذا نصيب . وقد كان خاتمُ النبيين في قومه أرفق النبيين ، لا يستعجل لهم قط العذاب ، وقد لقى منهم أشد ما لقى نبي من قومه ، فلا يزيد على أن يقول : " اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون" . رغم هذا فقد وعظ خاتم النبيين بموعظة يونس : { **فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت** } (القلم : ٤٨) .

كانت هذه بالضبط ملامَة يونس : لم يصبر لحكم ربه ، أي شَقَّ عليه قضاء الله في قومه برفع العذاب عنهم ، فذهب مغاضبا وأبق إلى الفلك المشحون ، وقلما يقال

"أبق" فى العربية إلا فى العبد الآبق من مولاه ، وكان يونس هو هذا العبد الآبق من عفو الله عن قومه فضيق اللهُ عليه فى ظلمات البحر والحوت ، حتى فهم الدرس ، ثم أعاده إلى قومه هاديا مرشدا ، يرجو لهم الرحمة ولا يطلب لهم الضيقة ، فقد ضيق الله عليه من قبل فى بطن الحوت : { **إذ نادى وهو مكظوم** } (القلم : ٤٨) .

والذى يجب أن تعلمه هو أن " يونا " اسم نبى الله يونس عليه السلام فى العبرية يعنى بذات لفظه العبرى أيضا " الذى ظلم ولم يعدل " (إى صدقْ " عبريا) التى جانس عليها القرآن قول يونس : { **لا إله إلا أنت سبحانك ، إنى كنت من الظالمين** } (الأنبياء : ٨٧) ، أى ما أنصف يونس فى إباقه من رحمة ربه ، يفسر بها أحد مَعْنَيى هذا الاسم العبرانى " يُونا " ، كما سترى ، وسبحان العليم الخبير .



لفظة "يونا " فى المعجم العبرى معناها "الحمامة" الطائر المعروف . وعلماء التوراة على أن الاسم العبرانى العلم " يُونا " (يعنى يونس) من هذا : يونس = حمامة .

والذى يجب أن تعلمه أن هذا الاسم العلم " يُونا " اسم لم يتسم به قبل يونس أحد قط من أعلام التوراة ، فهو اسم غير مسبوق ، وكأنه موضوع له بالذات فشا من بعد فى بنى قومه نسبة إليه ، كما رأيت من قبل فى يوسف وموسى وهرون .

أما الذى لا نعلمه أنا وأنت وعلماء العبرية وعلماء التوراة ، فهو المعنى الذى قصده متى أبو يونس (وأصل "متى " هو " أمتاى " يعنى عبريا " الأمين " قائل الصدق من " إمت " العبرية بمعنى الأمانة والحق والحقيقة) من تسمية ابنه "يونا" : هل أراد معنى "الحمامة" أم أراد معنى آخر من هذا اللفظ "يونا" ، يتطابق رسما ونطقا فى الخط العبرانى مع لفظ " يونا " بمعنى "حمامة " ؟

لستُ فى هذا جادا بالطبع ، ولكنى أقرِّبُ لك المعنى الذى أريد أن أصل بك إليه : الوزن "يونا" وأمثاله فى العبرية (المختوم بهاءٍ خاملة لا عَمَل لها إلا إشباع المد بالفتح قبلها) هو زنَةُ الفاعل على التأنيث، ولئن جاز فى العَلَم المذكر التسمية بالمؤنث، فهو المؤنث اللفظى لا المعنوى ، فتسمى ابنك مثلا " حمامة " أو نخلة " أو "شمس" ، لا تنعته بمؤنث ، وإنما تنظر إلى صفات الحمامة أو النخلة أو الشمس ، على التشبيه ،

ولكن لا يجوز لك قط تسمية المذكر بنعت مؤنث ، فتسمى ابنك مثلا "جميل" ، ولا تسميه قط "جميلة" . و ليس فى العبرية قط نعت يطابق "يونا" فى الرسم والنطق ويغايره فى المعنى، إلا النعت المؤنث "يونا" يعنى "ظالمة" ، ومنه "عِير يُونا" ، يعنى "قرية ظالمة" كالتى بعث فيها يونس ، وبعث فى مثلها الأنبياء من قبله .

لا يصح إذن فى معنى العلم العبرانى المذكر "يونا" إلا معنى واحد هو"حمامة".

ولكن القرآن المعجز ، الأفْقَه بالعبرية من أهلها ، ينظر إلى المعنى الآخر الذى فى النعت المؤنث " يُونا " ، اسم الفاعل المؤنث من الجذر العبرى " ينا " ، أى "الظالمة" حين جَانَس على اسم "يونس" ، "الحمامة التى ظلمت" ، مشيرا إلى إباق يونس حين أبق: { **إلا من ظلم ، ثم بدل حُسْنًا من بعد سوء فإنى غفور رحيم** } (النمل : ١١) ، وأيضا فى قول يونس وقد أقَرَّ بظلمه فى بطن الحوت : { **لا إله إلا أنت سبحانك ، إنى كنت من الظالمين** } (الأنبياء : ٨٧) ، التى تترجمها إلى العبرانية هكذا : كِي مِي يُونِيم أنِي ![1] .

كفاك بهذا إعجازاً فى فقه العبرية دونه كل إعجاز ، وسبحان الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم .

---

(١) كِي = إنَّ ، مِي = منْ ، يُونيم = ظالمين ، أنِي = أنَا (ضمير المتكلم) ، وقد رَسَمْتُ (مِي يونيم ، أى من الظالمين) مُقَطَّعَةً للتوضيح ، وهى فى أصلها العبرى موصولة : مِيونيم .

(٤٩) أيـوب

ليس " أيوب" عند بنى إسرائيل بنَبِيٍّ ، بل هو عندهم من الرؤساء الصديقين . تَجِدُ هذا فى مفتتح "سفر أيوب " بالعهد القديم " كان رجلٌ فى أرض عَوْصَ اسمُهُ أيُّوب. وكان هذا الرجل كاملا ومستقيما ، يتقى اللهَ ويَحِيدُ عن الشر . وَوُلِدَ له سبعةُ بنينَ وثلاثُ بنات . وكانت مواشيه سبعةَ آلاف من الغنم وثلاثة آلاف جَمَل وخمس مائة فدان بقر وخمسَ أتان وخَدَمُهُ كثيرين جدا . فكان هذا الرجل أعْظَم كُلّ بنى المشرق" (أيوب ١/١ ـ٣) ثم يُطنِبُ الكاتب فى غِنَى أيوب وتقواه ، ثم ينزلق به القلم كما انزلق من قبل بأخيه الذى فى سفر التكوين ، فيصطنع أساليب قُصَّاص اليونان فى خُرافات آلهة الأولمب ، ويقول :"وكان ذاتَ يومٍ أنَّهُ جاء بنو الله [1] لِيَمْثُلُوا أمام الرب، وجاء الشيطانُ أيضا فى وسطهم ، فقال الرب للشيطان من أين جئت ؟ فأجاب الشيطان الرَّب وقال : من الجَوَلان فى الأرض والتَّمَشِى فيها ، فقال الرب للشيطان هل جعلتَ قلبك على عبدى أيوب ؟ لأنه ليس مِثْلُهُ فى الأرض ، رَجُلٌ كاملٌ ومستقيمٌ يتَّقِى اللهَ ويَحِيدُ عن الشر" (أيوب ١/٦ ـ ٩) ، وكَأَنَّ اللهَ يُفاخِرُ الشيطانَ بعبده أيوب . ويَرُدُّ الشيطانُ بأن استقامة أيوبَ وتقواه ليستا من ذاتِ نفسه ، فقد أغْنَاهُ اللهُ وحَفِظَهُ وبَارَكَ عَمَلَ يديه ، ولو شَدَّدَ الله عليه ، وأزال نعمتَه وامتحنَهُ فى أهله ، لَسَخِطَ على خالقه ، ويُصابُ أيوبُ فى ماله وولده جميعا ، ولكن أيوبَ يصبر ويحتسب : " عُرياناً خرجت من بطن أمى وعُرياناً ثَمَّ أعود . الرَّبُ أعطى والرَّبُ أخذ .

---

(١) يعنى الملائكة فى لغة هذا الكتاب وإخوته من قبل ومن بعد . وهو مجازٌ سقيم ضَلَّ به كثيرون. حتى قال اليهود " عُزَيْرٌ بنُ الله " ربما على مجاز القُرْب والنعمة ، لا يدرون مَغَبَّةَ هذا القول لدى من جاء بعدهم ، الذين أبدلوا من المجازِ حقيقة . وتندهش كيف يُجْمِعُ أهلُ الملتين من قارئى هذا السفر على أن بُنُوَّة الملائكة لله مجاز ، وتُصِرُّ إحدى الملتين على تحققها فى المسيح: { **وخَرَقُوا له بنينَ وبناتٍ بغيرِ علم ، سبحانه وتعالى عما يَصِفُون** } (الأنعام: ١٠٠) .

تَبَارَكَ اسمُ الرب ! " (أيوب ١/٢١) . ويعود اللهُ فيفاخرُ الشيطانَ بعبده أيوب الذى امْتُحنَ بكُلِّ هذا فصمد للامتحان ولم يَكْفُر . ولكن الشيطان لا يَيْأس ، بل يستأذنُ الرَّبَّ فى إيقاعِ الأذى بأيوب فى جسده : " ولكن أَبْسِط الآن يَدَك ومَسَّ عَظْمَهُ ولَحْمَه فإنَّه فى وجهك يُجَدِّفُ عليك. فقال الرب للشيطان ها هو فى يدك. ولكن احفظ نفسه. فخرج الشيطان من عند الرب وضرب أيوب بِقُرْحٍ ردىء من باطنِ قدمه إلى هامته ، فأخذ لنفسه شَقْفَةً ليحتكَّ بها وهو جالس فى وسط الرماد . فقالت له امرأته أنت مُتَمَسِّكٌ بَعْدُ بكمالك ؟ بَارِكِ اللهَ ومُتْ ! فقال لها تتكلمين كلاما كإحدى الجاهلات ؟ أنقبل الخيرَ من عند الله ولا نقبل الشر" (أيوب ٢ / ٥ ـ ١٠) . ويسمع ببلاءات أيوب أصحابُه فيجيئون لزيارته ويَهُولُهم ما هو فيه ، كما يَهُولُهم أيضا صَبْرُهُ واحتسابُه، ولكن أيوبَ فى تَصابُرِه يَبْدُو لهم وكأنه يفاخرُ اللهَ بصبره ، ويُذكُرُ اللهَ بأنه لا إثم فيه ولا ذنب حتى يُنْزِلَ به كُلَّ هذا العذاب ، فيذكّرونه بأن اللهَ يفعل ما يشاء ، ويحاورهم ويحاورونه بحوارٍ يُطنب فيه الكاتب ، يَتفاوَتُ متانةً وعُمْقاً وجزالة ، وترتفع المأساة إلى الذروة حين يُطِلُّ اللهُ على أيوب من السحاب ، يُعَلِّمُهُ الحكمة . وأخيراً يرفعُ اللهُ البلاءَ عن عبده أيوب ، ويَرُدُّ عليه ما أخَذَ منه ومِثْلَهُ معه .



وقد ذهب بعضُ المفسرين ، وذهب معهم أيضا باحثون وكتاب ، إلى أن أيوب رجلٌ عربى . استدلوا على هذا بأن اسمه " أَيُّوب " مشتقٌ من الأَوْبِ والتَّوْب ، فهو التائبُ الآيبُ على المبالغة .

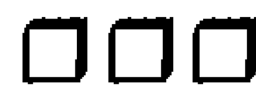
والصحيحُ أنه ليس نَبِيٌّ عَرَبِيٌّ من نسل إبراهيم إلا خاتمُ النبيين صلى الله عليه وسلم كما مر بك . والعربية التى نعنيها هنا هى عربيةُ اللسان ، أعنى عربية القرآن ، فاسماعيل نفسه بهذا المعيار ليس بعربى، دليلُكَ فى هذا اسمه : يِشْمَعْ إيل ، العبرانى، أى "سَمِعِ الله" أو "سميعٌ هو الله" على ما مرَّ بك فى موضعه . بل أيوب عليه السلام من بنى إسرائيل ، شأنُهُ شأن يونس وشأن الأنبياء من بعد داود وسليمان ، أعنى من الأسباط أبناءِ يعقوب ، بدليل حرص اليهود على إدراج سفر أيوب ضمن أسفار توراة الأنبياء والكتبة (يضعونه فى النص العبرانى بين أسفارَ الكتبة لا الأنبياء) . أما دليلكَ من القرآن على أن أيوب من ذرية الأسباط بنى يعقوب أى بنى إسرائيل ، فهو

النص فى القرآن على أنه من ذريتهم، {**وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبورا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما** } (النساء : ١٦٣ ــ ١٦٤) ، ولا مبرر لاستبعاد أيوب وحده من زمرة أنبياء من نسل الأسباط بلا خلاف ذكروا معا فى نفس الآية .

أمَّا أنَّ أيوب عليه السلام نبيٌّ بنص القرآن ، على خلاف قولِ أهلِ الكتاب فيه ، فلوُرود اسمه فى لفيفٍ من الأنبياء خُتِمَ الحديثُ عنهم بقوله عز وجل : { **أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحُكْمَ والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكَّلْنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هَدَى الله ، فبهداهم اقْتَدِه** " (الأنعام : ٨٩ ــ ٩٠) (١) .

على أن " أيوب " ليست اسما عربيا من الأوْبِ والتَّوْب كما ظنَّ مفسرون وباحثون وكتاب . فهو ممنوعٌ من الصرف فى كل القرآن لا لعلَّةٍ إلاَّ العُجْمة ، ولو كانت "أيوب" عربية من الإياب والأوْب ، على مثالِ " قَيُّومٍ " وأمثالِها ، لَصُرِفَت .

وقد أماتت العبرية الجذر العربى "آب / يؤوب" ، واستعاضت عنه بمقلوبه العربى "باء/يبوء" . فليست "أيوب" عبرانيا بهذا المعنى الذى ظنه المفسرون والباحثون . وإنما معنى " أيوب " ـ وتنطق فى العبرية " إيُّوب " مكسورة الهمزة البادئة مشددة الياء مع إشباع المد بالضم لا بالواو ـ معنى آخر، بعيدٌ كُلَّ البُعْد عن الإياب والأوب . وقد علم القرآن هذا المعنى الآخر ففسر به اسم " أيوب " كما سترى . وسبحان العليم الخبير .



فى العبرانية الجذر "أَيَبْ / يِئْيَبْ " ، وهو ليس "آب / يؤوب" العربى ، ولكنه مُبْدَلٌ من مادة " وَيْب" العربية التى أُميتَ فِعْلُها فى العربية وبقى منه إسمُ الفعل فقط، أى "الوَيْب" بمعنى "الوَيْل"، يعنى حلول البلاء والشر . تقول منه فى العربية : وَيْبٌ لَهُ! تريد : وَيْلٌ لَهْ ! لا فرق بينهما ، ولكنها نادرة الآن ، لا تَعْثُرُ عليها إلا فى المعاجم.

(١) " اقتده " أصلُها " اقْتَد " من الفعل اقْتَدَى ، جُزِمَ للأمر فَحُذفَت ياؤه . والهاءُ فيه للوقف ، وظيفتها تقصير المد بالكسر فى الدال الخاتمة ، ومَنْع الوقوف عليها بدالٍ ساكنة .

أما الفعل "أَيَبْ" العبرى فهو حَىٌّ فى العبرية إلى الآن، ومعناه "شَنَأَهُ"، "كَرِهَهُ"، "أَبْغَضَهُ" ، وأيضا "ضَادَّهُ" يعنى كان له "ضِداً" ، أى عَدُوًّا مُناوئا ، واسم الفاعل من هذا الفعل العبرانى "أَيِ " (بمد الكسر فى الياء) يعنى الشانىء المناوِئ العدو ، واسم المفعول منه : "أَيُوب" (بتخفيف الياء لا بتشديدها) يعنى المكروه البغيض .

ومن المعاجم الانجليزية من فَطَن إلى هذا المعنى ، فقال فى ترجمة "أيوب" Loath يعنى البغيض المَقيت .

وعلماء التوراة ، وأيضا علماءُ العبرية ، يرون أن الاسم العبرانى "إِيُّوب" (بكسر الهمزة وتشديد الياء ممدودةً بالضم لا بالواو كما لو نطقت "جِيُّوم" Guillaume الفرنسية) مأخوذ من هذه المادة العبرية " أَيَبْ " ، على المضعف المشدد (فعّلْ العبرى وهو فَعَّلَ العربى) ، فهو عندهم على زِنَة " فعُّول" العبرى (الذى يكافىء "فعّيل" العربى) والأصل فيه الدلالة على الفاعل ، ولكنه فى اسم "أيوب" جاء على النُّدرة بمعنى المفعول المُشَدَّد من "أَيَبْ" العبرى ، فهو البغيض الكريه المكْروه ، المشنوء المُنَاوأ. أما إن استحْيَيْتَ مادة " الوَيْب " العربية بمعنى الويل فهو ـ كما نقول نحن ـ الذى شُدِّدَ الوَيْبُ عليه .

أما المعجم العبرى الآرامى لألفاظ التوراة (وهو من مراجع هذا الكتاب) وهو موضوع بالانجليزية كما مر بك ، الذى يمثل وجهة نظر علماء التوراة ، فهو يترجم "إِيُّوب" العبرية إلى الإنجليزية بلفظة Persecuted يعنى المَضْهُود المُضْطَهَد . وقد جاءهم هذا الفهمُ من تغليبهم معنى العداوة على معنى الكراهة اللذين فى "أَيَبْ" العبرى، ففهموا "إِيُّوب" بمعنى الذى ضايقه عدوه وشدَّد عليه ، ربما لأنهم يقرءون فى سفر أيوب أن الشيطان (ساطان العبرى) ومعناها " العدو" كما مر بك ، هو الذى أَنْزَلَ بأيوبَ عذاباته ، فهو المَضْهُود من عدوه ، أى من الشيطان . ولا بأس بهذا بالطبع ، ولكنه يحوم حول المعنى ولا يصيبه فى صميمه . فأنت تعلم أن لفظة To Persecute الانجليزية تُفيد فى أصل معناها "الملاحقة" بالتشديد والتضييق والضُّرّ والأذَى . ولكن المنظورَ إليه فى "أَيَبْ" العبرى ليس هو "الملاحقة" بالذات ، وإنما هذا الضُّرُّ والأذى .

صحيح أن العداوة من الكراهة قريب ، لأن العدو شانىءٌ مُبْغض . ولكن التأصيل اللغوى لا يصحُّ على التقريب ، وإنما يصحُّ بالمرادف الدقيق . والذى يَدُلُّكَ

---

(١) " اقتده " أصلُها " اقْتَد " من الفعل اقْتَدَى ، جُزِمَ للأمر فَحُذِفَت ياؤه . والهاءُ فيه للوقف ، وظيفتها تقصير المد بالكسر فى الدال الخاتمة ، ومَنع الوقوف عليها بدال ساكنة .

على أن " أَيَبْ " العبري أصله من "وَيْب" العربي بمعنى الويل والضُّر والمكروه ، أن المعجم العبرى / عبرى " هَمِّلُون هِحَداش لِتَناخ" ، يعنى "المعجم الحديث لألفاظ توراة الأنبياء والكتبة" ، وهو من مراجعنا المتخصصة فى هذا الكتاب الذى نكتب ، يشرح مادة "صَرَرْ" (بمعنى الضُّرّ والضَّرَر ، أَبْدَلَت العبريةُ من ضادها صاداً لانعدام الضاد فى العبرية) فيقول إن "صَار" (ضارُ العربية) اسم الفاعل من "صَرَرْ" العبرى هى "أُويِب" فاعل "أَيَبْ" العبرى ، وهذا يدلك بشهادةِ شاهدٍ من أهلها على أن "أَيَبْ" العبرى يجيء بمعنى الضُّرّ والأذى وإيقاعِ الشرّ أى " المكروه " ، فهو الضَّرِيرُ المُتَأَذِّى . وهذا هو أَصلُ معنى مادة " وَيْب " العربية .

من هنا تقول آمنا جازما مطمئنا أن "إِيُّوب" العبرية ، اسمُ نبيِّ الله أيوبَ عليه السلام معناها الضرير المضرور الذى "وُيِّب" ، أى شُدِّدَ "الوَيْبُ" عليه .

أما القرآن المعجز فقد عَلِمَ هذا كُلَّه قبل أن يَعْلَمَهُ غيرُه، ففسر اسم "أيوب" بالمرادف الدقيق فى قوله عز وجل: {**وأيوبَ إذ نادى ربَّهُ أنّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ** (١) **وأنت أرحمُ الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضُرٍّ ، وآتيناه أهلَهُ ومثلَهُم معهم رحمةً من عندنا وذكرى للعابدين** } (الأنبياء : ٨٣ ـ ٨٤) . ولا يفوتُ القرآنَ وهو يفسر معنى هذا الاسم تقريظُ "صبر أيوب" إمامِ المبتلين ، فيعقب فى الآية التالية مباشرة بقوله عز وجل : { **وإسماعيلَ وإدريسَ وذا الكفل كُلٌّ من الصابرين** } (الأنبياء : ٨٥) ، يَجْعَلُ لأيوبَ كِفْلاً من الصبر مع هؤلاء الذين صبروا مثله ولم يجزعوا ، وحَسْبُك صبر اسماعيل فى البلاءِ المبين . وسبحان العليم الحكيم .

ولا يفوتنا نحن فى سياق تفسير هذا العلم الأعجمى أيوب ، التنبيه مرة أخرى إلى خطورة التعجل فى تفسير هذه الأعلام من القرآن بالقرآن ـ على منهجنا فى هذا الكتاب الذى نكتب ـ بقرينتى التشابه والتجاور فقط ، فتقول مثلا ان "أيوب" من "الأوب" ، تقتنصُها دون تَحَرُّز من قوله عز وجل فى أيوب : {**نِعْمَ العبدُ إِنَّهُ أوَّاب**} (ص : ٤٤) ، فتظن متعجلا دون تَثَبُّت أن المُراد هنا هو تفسير اسم أيوب بأنه "أوَّاب"،

---

(١) عبارة "أنى مسنى الضر" يصلح تماما فى موضعها بالعبرية : " إِيُّوب أنى " يعنى أنا أيوب متأيب ، فأى إعجاز وأى علم !

وتعتقد أن اسم " أيوب " مُفَسَّرٌ فى القرآن بالتعريب ، لأن الأَيُّوب والأوَّاب فى العربية واحد ، زِنَتَا مبالغةٍ من " آب / يؤوب " . ولا يصحُّ هذا ، لأن سليمان أيضا وُصفَ فى نفس السورة بذات العبارة : { ووهبنا لداودَ سليمانَ نِعْمَ العبدُ إِنَّهُ أوَّاب } (ص : ٣٠) ، وليست "سليمانُ " هى "أيوب" بالطبع . شَرْطُ التصدِّى للتفسير بالقرآن من القرآن فى العَلَمِ الأعجمى هو أولا استقصاءُ معنى الاسم الأعجمى فى لغة صاحب الاسم العلم ، ثم تمضى مُستعينا بهداية الله وتوفيقه فى تَلَمُّسِ اللفظ أو العبارة اللذين يُفَسِّرُ بهما القرآن معنى هذا الاسم ، فلا يَصِحُّ فى القرآنِ لمسلمٍ أن يكون هَجَّاما .

اللهم ارْزُقْنا الصوابَ واجْنُبْنا الزَّلل ، وباعدْ بيننا وبين اللغو فى كتابك الكريم . فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . اللهم قد أَحْسَنْتَ فيما مَضَى ، فأَحْسِنْ لى فيما بَقِيِ ، لك وحدكَ الفضلُ والمَنَ ، ومنكَ وبكَ التوفيق .

(٥٠) عزيــر

ورد الاسمُ " عُزَيْر " مرة واحدة فى القرآن فى قوله عز وجل : { **وقالت اليهود عُزَيْرٌ ابنُ الله وقالت النصارى المسيحُ ابنُ الله ، ذلك قولُهُم بأفواهِهِم، يُضاهِئُون قولَ الذين كفروا من قبل ، قَاتَلَهُم اللهُ ، أنَّى يُؤفَكون** } (التوبة : ٣٠) . وتُقرأُ " عُزَيْر" بالتنوين فى قراءة عاصم ، التى نقرأ بها فى مصر ، وتُقرأ أيضا ممنوعةً من الصرف فى غيرها لا لعلة العُجْمة فحسب وإنما أيضا إرادةَ اختلاس الهمزة فى " ابن " فتنطقها : عُزَيْرُبْنُ ، كما تَنْطَقُ : عُمَرُ بْنُ الخطاب على سبيل المثال ، تُدغمُ هذا فى ذاك ، فَيُسْمَعُ منك : عُمَرُبْنُلْخَطَّاب . والرأىُ عندى ـ لا تَعَصُّباً فالتعصُّبُ ممقوت ـ أن قراءةَ عاصم التى نقرأ بها فى مصر أفصحُ وأَبْيَن ، لأنها تجعل عبارتى "عزيزٌ ابن" ، "المسيحُ ابن" على المبتدأ والخبر فى قَوْلَىْ اليهود والنصارى ، لا على البَدَل ، والخبرُ يصدُقُ ويَكذب ، أما البَدَلُ فهو إثباتٌ مَحْض ، كما تقول عُمْرَ بْنُ الخطاب ، تنبىء سامعك بأن عمر ، الذى هو ابن الخطاب ، قال كذا وكذا أو فعل كذا وكذا ، عالماً أن سامعَك يتفق معك فى أن عمر هو ابن الخطاب . والقرآنُ بالطبع لا يتفقُ مع هذا القائل ، وإنما يستنكرُ مقولتَه ويُنَدّدُ بها ، فيقول { قَاتَلَهُم اللهُ ، أنَّى يُؤْفَكون } ، أى ما لَهُم يَلْبَسُ عليهم هذا الإفك ، أى هذا الكَذب . وقراءةُ عاصم كما ترى أَقْمَنُ باستبعاد هذه الشبهة . على أن تنوين الأعجمى الذى يَخفُ وزنُه ، مثل "عُزَيْر" ، مسموعٌ فى العربية غيرُ منكور .

وهذه الآيةُ كما ترى من إعجاز القرآن . فهو يُنَبِّئُك بأن مقولةَ النصارى فى بُنُوَّة المسيح لله ليست بِدْعاً ابتدعوه ، وليست أيضا " كَشْفاً " كُشِفَ لهم عنه فى الأناجيل التى بين يديك كما قالوا من بعد فى تبرير الانتقاض على توراة موسى عليه السلام المُتَشَدِّدَة فى توحيد الواحد الأحد ، وإنما هم فى هذه المقولة مسبوقون ، سبقهم بها كتبةُ العهد القَديم ، الذين تَبَذَّلوا وتَرَخَّصُوا فقالوا كما مر بك إن الملائكة أبناءُ الله ، وإن آدمَ ابنُ الله (التى نَقَلَها عنهم لوقا فى إنجيله) ، حتى رَخُصَ القولُ وابْتُذِل ، فلم

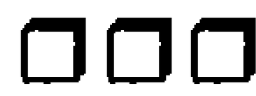
يستنكف بعضُ اليهود أن يخلعوا على عُزَيْرٍ المُسَمَّى فى القرآن لقب "ابن الله" فيما يَحْكِي القرآنُ عنهم . ربما قالوها تعظيماً وتبجيلا لا يدرون مَغَبَّتَها فيمن جاء بعدَهم ، ولكنهما التعظيمُ والتبجيل المؤْذِنانِ بالسقوط فى هاوية الكُفْرِ والهَلَكة .

بل يُنبئُك القرآنُ المعجز بأن اليهود والنصارى أيضا ، أى كلتا المِلَّتَيْنِ معا ، مسبوقتان بمقولتيهما هاتين ، فهما تُضاهئانِ مقولةَ قومٍ قد كفروا من قبل ، ولا يقولُ القرآنُ المعجز هذا إلا وهو يَعْلَمُ ما يقول . وقد ظن مفسرو القرآن الأوائل (راجع تفسير القرطبى للآية ٣٠ من سورة التوبة) أن المَعْنِيَّ بالذين "كفروا من قبل" هم كُفَّارُ قريش فى قولهم ان الملائكة بناتُ الله ، وان اللاتَ والعُزَّى ومَنَاةَ بناتُ الله ، ولا يصح هذا لأن اليهود والنصارى لا يُضاهئون مشركى قريش ، وإنما يضاهئون بالذات (اليهودُ أولا والنصارى من بعد) شِرْكَ المصريين ، الذين أضاعوا عقيدةَ التوحيد الخالص قبل عصر التاريخ المدون واستبدلوا بها خُرافات الكهنة، وخيالاتِ الفلاسفة الذين كان آخرَهُم "أفلوطين" المصريُّ الأسيوطيُّ (وهو من أعلامِ القرن الثالث الميلادى) صاحبُ نظرية الفَيْضِ والانبثاق عن الذات الإلهية ، وأيضا تهاويلِ الأساطير ، يكفيك منها أسطورةُ إيزيس وأوزوريس ، التى تَلْمَحُ الكثيرَ من ظِلالها فى عقيدة التثليث . ويكفيك أيضا أن أولَ من أَصَّلَ هذه البُنُوَّةَ على مبادىء فلسفة "أفلوطين" المصرىِّ الأسيوطىِّ، مصرىُّ آخر من الاسكندرية ، هو أُسْقُفُها "أثَناسيوس" ، قال بها وناضَلَ عنها حتى استصدر بها فى مجمع نيقية عام ٣٢٥ م مرسوماً من القيصر البيزنطى "قُسطنطين" ، يؤَلِّهُ المسيحَ على البنوة لله بعد ثلاثةِ قرونٍ من رفع المسيح . نَعَمْ ، قد كان مَولدُ المسيحِ عليه السلام بغيرِ أَبٍ معجزةً كبرى ، ولكنها معجزةٌ لله عز وجل لا للمسيح ، شأنُها شأنُ خَلْقِ آدمَ من تراب ، لا أبَ لآدمَ ولا أمْ .بل هما معا دون خَلْقِ السموات والأرض : { **لَخَلْقُ السموات والأرضِ أكبرُ من خَلْق الناس** } (غافر : ٥٧) . وأنت تعلمُ بيقين أن الله عز وجل هو صانعُ هذا الميلاد الإعجازى ، فَتُعَظِّمُ الفاعلَ ولا تُعَظِّمُ المفعول . إنه آيةٌ من آياتِ الله عز وجل يَضْرِبُها للناس ليعرفوهُ بها ويعظِّموه ، لا ليعظِّموا غيرَهُ وصُنْعَ يده : { **وتلك الأمثالُ نَضْرِبُها للناس وما يَعْقِلُها إلا العالِمون** } (العنكبوت : ٤٣). وكأنما كان عليه السلام يَتَنَبَّأُ بما سيُقال من بعده فقال فى الأناجيل التى بين يديك ، يُناجى ربَّه وقد دَنَت ساعةُ رحيلهِ عن هذا العالم : " وهذه هى الحياةُ الأبدية ، أن يعرفوك ، أنتَ الإله الحقيقى

وحدك ، ويسوعَ المسيح الذى أَرْسَلْتَه " (يوحنا : ٣/١٧) ، يُريدُ بالحياة الأبدية الحياةَ الآخِرة ، لا نصيبَ فيها لأحدٍ ممن أُرْسِلَ إليهم إلا من آمن بالإله الواحد ، الإلَه الحقيقى وَحْدَه ، وبيسوع المسيح رسولاً منه لا ابن . ولا تظن أن المسيح فى الكتاب المقدس هو وحده المرفوع إلى السماء حيا ، فقد سبقه بها " إيليا " أى إلياس (الملوك الثانى ١١/٢ ـ١٢) ، ولا تحسَبُ أيضا أن المسيحَ فى الكتاب المقدس هو وحَدهُ الذى أَحْيا الميّت ، فقد سبقه بها " اليشع " أى اليسع (الملوك الثانى ١٧/٤ـ٣٧) ، ولكن اليهودَ لم يُؤَلِّهُوا إيليا ولم يُؤَلِّهُوا اليشع .

ولاتَحْسَبُ أيضا أن المصريين انفردوا بأساطير البنوة لله ، فهذا قديمٌ فى خُرافات من أشرك ، قالت به عقائدُ الهند ، وتَغَنَّت به أساطيرُ الأولمب ، وغيرُ هذين فى شِركِ الأقدمين كثير . ولا يقال لك ان القِدَمَ أصالة ، فالوسواسُ الخنَّاسُ أيضا قديم . وإنما تَأَصَّلَ هذا القول عند من ابتدعه على تلك المُناكَحَة بين السماء والأرض لاستيلادِ الخَلْق، على مثال المَطَر والزرع ، وهو قولُ شعراءَ يَتْبَعُهم الغاوون، فالماءُ من صميمِ مادةِ هذه الأرض [١] ، من الأرضِ يَخْرُجُ وإلى الأرض يعود . إن قُلْتَ كما يقولُ البعض إن قِدَمَ التثليث والبنوة لله وشيوعهما فى عقائد الأقدمين إرهاصٌ بالتثليث المسيحى ودليلٌ على صحته ، فقد قُلْتَ شططاً كمسيحى ، لأنك تُعَدّدُ أبناءَ الله ، فلكل عقيدةٍ من تلك العقائد ابن ، فلا يعودُ المسيحُ ابنَ الله الوحيد فى قولِ من قال .

هؤلاءِ وأولئك ـ آباءُ هذه المقولة فى أُمَمٍ قد خَلَت من قبل ـ هم الذين يعنيهم القرآنُ بقوله : { **يُضاهِئُون قولَ الذين كفروا من قبل** } (التوبة ٣٠:) . وسبحانَ العليمِ الخبير ، فما عَرَفَ الناسُ هذا إلا فى هذا العصر ، بعد تأسيس علمِ مُقارَنَةِ الأديان .



أما " عُزَيْرٌ " المسمى فى القرآن فليس فى العهد القديم الذى بين يديك "عُزَيْرٌ" ادَّعَى عليه اليهودُ تلك البنوة لله ، أو لقَّبوه بها على مجرد التعظيم والتبجيل . وإنما

(١) سبق القرآن إلى هذه الحقيقة العلمية بقوله المعجز: { **والأرضَ بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها** } (النازعات : ٣٠ ـ٣١) أى استخرج منها ماءها استخراجا .

الصحيحُ الذى نُرَجِّحُه أن القرآن يحكى هاهنا مقولةَ يهود غيرِ مسطورةٍ فى أسفار العهد القديم الذى بين يديك ، تناقلها اليهودُ بعد عودتهم من سبى بابل ، وربما لَهَجَ بها يهودُ فى مكةَ أو يَثْرِب ، بدليلِ أنهم لم يُنكروا على القرآنِ قولَهُ هذا فى قومهم ، بل تَوارَوْا من هذه المقولة خجلا ، فموسى بلاشك عندهم بهذه المقولةِ أولَى من هذا العُزَيْرِ المُسَمَّى فى القرآن . أما وَفْدُ نصارى نجران فقد جاهروا بمقولتهم فى المسيح وجادلوا بها خاتم النبيين فى مسجده صلى الله عليه وسلم ، لأن مقولتهم هذه هى صُلْبُ عقيدتهم ، لو تراجعوا فيها قَيْدَ أَنْمُلَةٍ لما بَقِىَ لهم عذر فى البقاء على مسيحيتهم ، ولَدَخلوا فى دين الله أفواجا ، شأنَ الكثرة الكاثرة من أقباط مصر ، والجَمّ الغفيرِ من نصارى الشام . أما نجرانُ وتَغْلِبُ وأضرابُهما من العرب فقد قَصَّرت بهم قَبَلِيَّتُهم .

ولكن الذى نُعْنَى به فى مقاصد هذا الكتاب الذى نكتب هو " عُزَيْرٌ " نَفْسُه ، لا مقولةُ بعض اليهود فيه . الذى نُعْنَى به هو مَعْنَى اسمه ، ومَنْ يكونُ فى أعلام بنى إسرائيل .



" عُزَيْرٌ " من بنى إسرائيل بلا شك ، لقوله عز وجل : { **وقالت اليهودُ عُزَيْرٌ ابنُ الله** } ، فهو منهم . وهذا الاسمُ حين تَرُدُّهُ إلى أصلِه العبرى ، يجىء من الجذر العبرى "عَزَرْ" المشترك فى العبرية والآرامية والعربية على معنى العون والتأييد والنصرة . والقرآنُ لا يستخدم " عَزَرَ " إلا فى هذا المعنى وحده . أما "عَزَرَهُ" بمعنى "لامَهُ" ، ومنه يجىء التعزيرُ بمعنى التأديب أو العقاب بما دون الحَدّ فى اصطلاح الفقهاء ، فليس فى الجذر " عَزَرْ " العبرى من هذا شىء ، وإنما هو فقط بمعنى نَصَرَهُ وأيَّدَهُ وأعانَه ، تماما كما فى صِنْوِهِ العربى المُضَعَّف "عَزَّرَ" الذى تجده فى قوله عز وجل: { **إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا. لتؤمنوا بالله ورسوله وتُعَزِّرُوهُ وتُوَقِّرُوهُ وتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وأصيلا** } (الفتح : ٨ ـــ ٩) .

وأسم الفعل فى العبرية من هذه المادة ، يعنى العَوْنُ والتأييدُ والنُّصْرُ والنُّصْرَة ، له صورتان : "عِزِرْ" (بكسرتين متتابعتين) ، "عِزْرَا" (بكسرٍ فسكونٍ فراءٍ ممدودة بالألف). أما اسم الفاعل منه ، أى العازرُ الناصرُ المُؤَيِّدُ المُعين ، فهو "عُزير" التى تُشبهُ

"عُزَيْر" التى فى القرآن، ولكنها لا تُنطق مثلها على زنة التصغير العربية "فُعَيْل" مثل "عُمَيْر" مَصَغَّر عَمْرو، "عُبَيْد" مُصَغَّر عَبْد ، وإنما تنطق ياؤها على الإمـالة مكسـورةَ الزاى قبلَها ، كما لو نطقت "زِيد" العامية تُريدُ "زَيْد" الفصحى ، الاسمُ العَلَم .

وليس فى أعلام العهد القديم من تَسَمَّى باسم الفاعل من "عَزَرْ" العبرى ، أى باسم "عُزِير" هذه المُمالةُ الياء مكسورةُ الزاى. فلا يقال ان القرآن عَرَّبَ "عُزِير" هذه على "عُزَيْر" مفتوحة الزاى ساكنة الياء ، زنَة العربية " فُعَيْل" مثل عُمَيْر وعُبَيْد ، كما وَهِمَ المستشرقون المنكرون على القرآن ، الذين تفكَّهوا فى هذا المَقام سُخْرِيةً من "عُزَيْر" الذى فى القرآن لمجيئه على زنة التصغير العربية ، التى أُولِعَ بها العربُ حتى قالوا فى تصغير فِرْعَوْن : فُرَيٌّ ! [1] وإنما الذى فى أعلام العهد القديم من مادة "عَزَرْ" العبرى الثلاثى المجرد هو "عزِرْ" ، "عزِرْا" تسميةً بالمصدر واسم الفعل من "عَزَرْ" ، أى "العَزْر" بمعنى النَّصر والنُّصْرَة .

ولكنك لا تحتاجُ إلى تَقَصّى كافة من تَسَمَّوْا فى العهد القديم بهذين الاسمين "عزِرْ عزِرْا " ، كى تقع على أيّهم "عُزَيْر" المَعْنىُّ فى القرآن ، فليس فيهم جميعا نابهُ الذِكرِ غَيْرُ خامل ، إلا عَلَمٌ واحد ، هو " عزِرْا " صاحبُ السفر المُعَنْوَن باسمه فى العهد القديم ، من أعلام القرن الخامس قبل الميلاد ، كاتبُ شريعة الله ، الذى قاد مسيرةَ اليهودِ فى عودتهم إلى أُورشَليم من سَبْى بابل . والمَرْوِىُّ عنه فى مأثورات اليهود التى نَقَلَها عنهم مفسرو القرآن الأوائل (راجع تفسير القرطبى للآية ٣٠ من سورة التوبة) أنه كان أَحْفَظَ الناسِ لتوراة موسى ، يتلُوها عن ظهر قلب أيام سَبْيِهم فى بابل ، ويستنسخُها من الذاكرة ، فلما عاد بهم إلى أورشليم وطابقوا كتابتَهُ على نسخةٍ عثروا عليها تحتَ أطلال هيكل سليمان الذى خَرَّبَهُ البابليون من قبل ، وَجَدُوا كتابتَهُ مطابقةً لتلك النسخة حرفاً بحرف ، فقيل " عُزَيْر ابن الله " .

ولئن كان الأصلُ فى معنى الاسم العلم "عزِرْا " أنه تسميةٌ بالمصدر لا باسم الفاعل ، أعنى أنه بمعنى " نَصْر" لا بمعنى " ناصر" ، فإن علماء التوراة يقولون لك إن المُرادَ من التسمية ليس المصدر وإنما اسمُ الفاعل ، فهو " عَزْر" بمعنى "عازِرٍ" ، أى أنه عبرياً "عزِرْا" بمعنى " عُزِير" (المعربة على " عُزَيْرٍ " فى القرآن) [2] .

(١) انظر : Joseph HOROVITZ ، المرجع المذكور ، ص ٢٥ .

(٢) المعجم العبرى الآرامى لألفاظ التوراة ، المرجع المذكور ، ص ٣٩٥ ، مادة " عَزَرْ " .

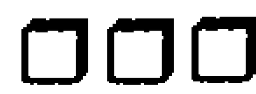
وقد مر بك من قبل أن القرن الخامس قبل الميلاد (قرن " عزرا " الكاتب) شهد غَلَبَة الآرامية فى رُبوع فلسطين على عبرية التوراة ، حتى كان جزءٌ لا يُستهانُ به من سفر عزرا هذا نفسه مكتوباً بهذه الآرامية التى بات يتكلمها الناس ، وحتى انبهمت توراة موسى على المتعبّدين بها فى نصها العبرانى فلا يفهمون ما يُتْلَى عليهم حتى يُفَسِّرَهُ لهم اللاويون والكتبة . وقد كان هذا بتأثير السبى فى بابل حيثُ الآراميةُ لغةُ الحديث والكتابة ، يعنى لُغة السادة . وما عاد سَبْىُ بابل إلى أورشليم بقيادة عزرا الكاتب إلا وقد رانت على ألسنتهم جميعا رطانةٌ آرامية، ولم يأت القرنُ الثالث قبل الميلاد حتى بات عامةُ إسرائيل آراميى اللسان ، فنقطع جازما آمنا مطمئنا بأن هذه الآرامية قد كانت هى لُغَةَ المسيح ولُغَةَ انجيله ولُغَةَ حوارييه وليس عبرية التوراة . وهذا يفسر لك فسادَ تلاوة الناس من أسفار هذه التوراة غير المضبوطة بالشكل والنقط، حتى جاء أمثالُ جماعة أهل الأثر (بَعَلى ماسورا) منذ القرن الثانى لميلاد المسيح يحاولون ضبطها بالشكل والنقط بعد أن فسدت ألسنة الناس . وهو يفسر لك أيضا استغراقَ هذه المحاولة ثمانيةَ قرون كاملة حتى تَمَّت فى القرن العاشر الميلادى ، لا لسبب بالطبع إلا اختلافُ الناس عليهم ، يعنى لم يكن على " قراءتهم " إجماع ، حتى كُتِبَ لهم النصرُ أخيرا على منتقديهم فصارت لقراءتهم السيادةُ على ما عداها .

والذى يعنينا هنا من هذا كله هو أن اسم " عزرا " هذا العائد من سبى بابل ، تَأَثَّر بدوره بهذه الآرامية التى فَشَت على ألسنة الناس وأقلامهم ، فهو مختومٌ فى الرسم بألف مد ، لا بتلك الهاء الخاملة " العبرانية " التى خُتِمَ بها "عزرا" آخر ، صنْوُهُ فى المعنى ، أى على المصدرية من الجذر العبرى : عَزَرْ " . هذه الصورة "الآرامية " المرسومُ بها اسم "عزرا " الكاتب المعنى ، ربما تُوحِى لك بآرامية العَلَم التوراتى الذى عاش مع سبى اليهود فى بابل يتلو عليهم من توراة موسى ويُفَسِّرُ لهم باللسان الآرامى ما يَغْمُضُ عليهم ، أعنى أن اسمه اتخذ فى السبى صورةً آرامية .

وقد مَرَّ بك أن أداةَ التعريف فى الآرامية هى " ألف مد " يُخْتَمُ بها الاسم ولا تَبْدَؤه وكأنها ألفُ المنصوب فى العربية . فتقول الآرامية "مَلْكَا" تعنى "الملك" ، وتقول "كَاتبا" تريد "الكاتب" ، وتقول أيضا "عَازِرا" (دون تنوين بالطبع فى هذا كله) تعنى "العازِر" اسم الفاعل فى الآرامية من "عَزَر" ، فهو عربياً العازِرُ الناصر ، لا العَزْرُ والنَّصر . والذى يجب أن تعلمه هو أن الرسم " عزرا " لا يفهم آراميا إلا على معنى

اسم الفاعل مزيدا بأداة التعريف الآرامية (أى بألف المد فى آخره) ، ولا يفهم آراميا على المصدرية من " عَزَرْ " الآرامية ، لأن مصادر الثلاثى المجرد فى الآرامية تجىء على زنة "مِفْعال " .

وقد مر بك أن جماعة " بعلى ماسورا " فى ضبطهم نطق أسفار التوراة (أعنى العهد القديم) بالشكل والنقط ، ما كان لهم من سلطان على " أحرف" هذا النص المقدس ، فما كان لهم بالطبع تغيير ألف المد فى اسم " عزرا " الكاتب إلى الهاء الخاملة العبرانية ، لأن عملهم كما تعلم اقتصر على "التشكيلُ" فقط . ولم يكن التشكيلُ عشوائيا بالطبع ، بل هو متأثرٌ بأستاذيتهم فى عبرية التوراة ، يُنَقُّونها مما عَلَق بها من شوائب تلك الآرامية التى لحَنَ بها الناس فى قراءتهم النصَّ المقدس . ومن هنا لا تُحيل عليهم أن يُجانسوا ضبط اسم "عزرا" الكاتب المختوم بألف المد الآرامية على صِنْوِه ، "عزرا " الآخر المختوم بالهاء الخاملة العبرانية ، فيئول نُطق "عَازِرا" (ويُرْسَمُ فى الخط العبرى ـ الآرامى بغير ألف بعد العين أى " عَزِرا ") إلى نفس نُطقِ سَمِيِّه "عزْرا" الآخر المختوم بالهاء الخاملة العبرانية ، فَيَظُنُّ أنهما واحدٌ فى المعنى . وهذا يفسر لك لماذا استجاز علماءُ التوراة فَهْمَ معنى اسم "عِزْرَا" هذا وسَمِيِّه الآخر ، على معنى اسم الفاعل من "عَزَرْ" ، لا على المصدرية منه .



أيًّما صَحَّ هذا أو ذاك ـ أعنى آرامية اسم " عزرا " الكاتب أو عبرانيته ـ فالراجح عندى أن القرآن لم يأتِ بهذا الاسم "عُزَيْر" من فراغ ، وإنما جاء به على نحو ما نَطَقَ به هذا الاسمَ يهودُ يثرب ، الذين فَهِمُوا من هذا الاسم معنى اسم الفاعل من "عَزَرْ" العبرى، فجاءوا به على الأصل العبرىِ لزنة اسم الفاعل فى العبرية "عُزِير" مضمومةِ العين مكسورةِ الزاى بعدها ياءُ مُمالة .

ولكن العربية الفصحى ، وأُمُّها عربيةُ القرآن ، لا تَعرفُ هذا الوزن (أعنى "عُزِير" المُمالة الياء) وإنما تَعْرِفُهُ فقط العربية العامية فى نُطقِها أمثالَ "حسِين"، "عبيد".

هذا الوزنُ العبرىُّ "عُزِير" الممالةُ الياء لا يَتَّزِنُ على أوزان العربية إلا إذا جئتَ به على أقرب الأوزانِ العربيةِ إليه ، وهو الوزن "فُعَيْل" ، فتئول "عُزِير" المُمالةُ الياء إلى "عُزَيْر" التى فى القرآن .

جاءت إذن "عُزَيْر" فى القرآن على التعريب لا على التصغير كما وَهِمَ أدعياءُ الاستشراق . وهو أيضا تعريبُ مُفَسِّر لا يحتاجُ من القرآنُ إلى تفسير آخر لمعنى هذا العَلَم الأعجمى لوحدة المادة اللغوية المنحوتِ منها لفظُ "عزْرا " العبرى ـ الآرامى ولفظ "عُزَيْر" الذى فى القرآن : غايةُ ما تفهمه من "عُزَيْر" إن حاولتَ فَهْمَهُ عربياً أنه "العَزْرُ" مُصَغَّرًا فهو "عُزَيْر" جاء نُطقاً ومعنىً على مثال "نَصْر" و " نُصَيْر" الفاشِيَيْنِ فى أعلام العرب . وقد صاغت العربيةُ أسماءَ نادرةً على فُعَيْل" لا تريدُ منه التصغير ، أشْهَرُها " لُجَيْن " التى تَفْهَمُ منها معنى " الفِضَّة " لا " الفُضَيْضَة . والاسمُ " عُزَيْر" فى القرآن بهذا أشْبَه .



ومن إعجاز القرآن الذى لم يلتفت إليه أحد ، أنه يُحَدِّدُ لك شَخْصَ " عُزَيْر" المَعْنى بأنه "عزْرا" الكاتبُ لا غيره . تستظهر هذا من قوله عز وجل مُعَقِّبا على "دَعْوَى البنوة" التى أسبغَت على عُزَيْرٍ وعلى المسيح : { **وقالت اليهودُ عُزَيْرٌ ابن الله وقالت النصارى المسيحُ ابنُ الله ، ذلك قَوْلُهُم بأفواههم ، يُضاهئون قَوْلَ الذين كفروا من قبل ، قَاتَلَهُم الله ، أنى يؤفَكُون . اتخذوا أحبارَهُم ورُهْبَانَهم أرباباً من دونِ الله ، والمسيحَ ابنَ مريم ، وما أمروا إلا ليَعْبُدُوا إلهاً واحداً ، لا إله إلا هو سُبحانَهُ عما يُشركون**} (التوبة : ٣٠ ــ ٣١) ، يعنى كانت البنوةُ المُدعاةُ لصنفين : عُزَيْرٌ "الحَبْر" ، والمسيحُ عبدُ الله ورسولُه . وليست " الحَبْر" هى العَالِمُ بإطلاق على ما شُهِرَت به ، وإنما هى أيضا "الكَاتب" يُحَبِّرُ كتابتَه ، شأنَ كتبة التوراة ، وأحبارُ اليهود هم حُفَّاظُ التوراةِ وكُتَّابُها . وقد كان عُزَيْرٌ (أعنى عِزْرا الكاتب) عند اليهود هو هذا الكاتبُ الحَبْر . ولم يكن عزرا عند اليهود كاتباً فحسب ، ولكنه أيضا كاهنٌ كاتب " كُوهِين سُوفير" (راجع فى هذا النصين العربى والعبرانى : نَحَمْيا ٩/٨) . بل هو الأستاذُ المُعَلِّم : "وفى اليوم الثانى اجتمع رؤساءُ آباءِ جميعِ الشعب والكهنة واللاويين إلى عزرا الكاتب ليفهمهم كلام الشريعة" (نحميا ١٣/٨) ، مَهيباً جليلا: "ووقف عزرا الكاتب على منبر الخشب الذى عملوه له لهذا الأمر ، ووقف بجانبه مَتِّثْيا وشَمَع وعَنَايا وأوريًّا وحِلْقيًّا ومَعْسيا عن يمينه ، وعن يساره فَدَايا وميشائيل ومَلْكيا وحَشُوم وحَشْبَدَّانة وزكريا ومَشُلام. وفتح عزرا السفر أمام كل الشعب، لأنه كان فوق كل الشعب" (نحميا ٤/٨ ـ ٥).

أما قائل هذا الكلام ، نَحَميا صاحب هذا السفر المعنون باسمه ضمنَ أسفارِ العهد القديم ، فليس نبيا ولا كاهنا ، وإنما هو وَالِى فارسَ على إقليم " اليهودية " فى فلسطين الذى آلت إليه " مملكةُ يهوذا " بعد الاحتلال البابلى وَوَرِثَتْهُ فارسُ فيما وَرِثَت عن بابل . ورغم سلطان نَحَمْيا فى أورشليم المستمد من سلطان فارس ، تراه وهو يهوديٌ مثل عزرا يقول عن عزرا إنه " فوق كل الشعب " يسمع لهُ نَحَمّيا ويطيع . وما ذاك إلا لأن ملك فارس ، أرتحشتا ملك الملوك ، سَمِعَ لعزرا واستجاب لكل سُؤْلِه حتى لتكاد تَظُنُّ أنه انخلعَ من دينه ودخل فى دين عزرا : " عزرا هذا صعد من بابل وهو كاتبٌ ماهر فى شريعة موسى التى أعطاها الربُ إلَهُ إسرائيل ، وأعطاه الملك حَسْب يدِ الربِّ إلهه عليه ، كُلَّ سُؤْله (عزرا ٧/٦) ، بل أعطاه تفويضا على بياض : "من أرتحشنا ملك الملوك إلى عزرا الكاهن كاتبِ شريعةِ إله السماء الكامل ، الخ ." (عزرا ١٢/٧) ، يقول فيه : "ومنى أنا أرتحشتا الملك ، صدر أمْرٌ إلى كل الخَزَنة الذين فى عبر النهر إنَّ كُلَّ ما يطلبه منكم عزرا الكاهن كاتب شريعة إله السماء فَلْيُعْمَلْ بسرعة إلى مائةِ وَزْنَةٍ من الفضة ، ومائة كُرٍ من الحنطة ، ومائة بَثَ من الخمر ،ومائة بَثٍ من الزيت والملح من دون تقييد" (عزرا ٧/٢١ـ٢٢) . ومن كانت هذه حُظْوتُه عند ملك الملوك : " قد صدر منى أمر أنَّ كل من أراد فى مُلْكى من شعب إسرائيل وكهنته واللاويين ، أن يرجع إلى أورشليم معك ، فليرجع . من أجل أنك مُرْسَلٌ من قِبَلِ الملك ومُشيريه السبعة لأجل السؤال عن يهوذا وأورشليم حَسْبَ شريعةِ إلهك التى بيدك، ولحَمْلِ فضةٍ وذهب تَبَرَّعَ به الملك ومشيروه لإله إسرائيل الذى فى أورشليم مَسْكَنُه . وكل الفضة التى تجد فى كل بلاد بابل من تبرعات الشعب والكهنة المتبرعين لبيت إلههِم الذى فى أورشليم . لكى تشترى عاجلا بهذه الفضة ثيرانا وكباشا وخرافا وتَقْدماتِها وسكائبَها وتُقَرِّبَها على المذبح الذى فى بيت إلهِكُم فى أورشليم. ومهما حَسُنَ عندك وعند إخوتك أن تعملوه بباقى الفضة والذهب فحَسْبَ إرادةِ إلهكم تعملونه . والآنيةُ التى تُعْطَى لك لأجل خدمة بيتِ إلهك فَسَلِّمْها أمامَ إلَهِ أورشليم . وباقى احتياج بيت إلهك الذى يتفق لك أن تعطيه فأعطه من بيت خزائن الملكُ " (عزرا : ٧/١٣ـ٢٠) ، أقول من كانت هذه حُظْوَتُه عند الملك ، بل من كانت الشريعةُ بيُمناه والمال بيُسراه وسلطانُ الملك من ورائه ، فلا تستكثر عليه أن يَلْهَجَ الناسُ بحمده وتعظيمه حتى الإغراق، والمُغَالاةُ كما مر بك إسفافٌ لا تؤْمَنُ مَغَبَّتُه . وقد حَدَث .

شَحَّ العِلْمُ والعلماءُ فى زمنِ عزْرا الكاتب، فانفردَ وحدَهُ بالكلمة فى بنى إسرائيل . لم يكن نبيـاً ، نَعَم . ولكنه كـان أخطرَ من نبى . فإلى عـزرا هذا وحدَه يُعْزَى النصُّ المقدس الذى استنسخه من ذاكرته لتوراةِ موسى التى بين يديك الآن ، والذى لا تَبْعُدُ بِهِ أَبْعَدَ من قـرن عزْرا الكاتب ، القرنِ الخامس قـبل الميـلاد ، بعـد وفـاةِ مـوسى عليـه السلام بنحو سبعة قرون .

تُرى إلى أى مـدى صَدَقَت ذاكـرةُ عزْرا ، وكم حَفِظَت أو ضَيَّعَت ؟ عِلْمُ هذا لله وحدَه . ألا ليت عزْرا الكاهنَ الكاتب كان نبياً تأتَمِنُهُ على وحى الله ، معصوما بعصمة أنبيائه فى البلاغِ والتبليغِ عن الحقِّ تبارك وتعالى . إذن لجاءتْكَ توراةُ موسى عليه السلام بنفس نصِّها المسطورِ فى الألواحِ ! لا عليك . حَسْبُكَ القرآنُ المصدِّقُ المهيمن وفيه الكفاية ، الذى تَعَهَّدَ اللهُ بحفظه كاملاً غيرَ منقوصٍ إلى قيام الساعة ، لا يَتَحَرَّفُ أو يَتَبَدَّلُ فى الصُّدورِ ، ولا يَتَصَحَّفُ على يَدِ النُّسَّاخ .



ولا ينقضى القولُ فى عزرا أو عُزَيْر قبل الإشارة (راجع تفسير القرطبى للآية ٢٥٩ من سورة البقرة) إلى ما قيل من أن عُزَيْراً هذا هو ذاك الذى أماتَهُ اللهُ مائةَ عامٍ ثم بَعَثَه : { **أو كالذى مَرَّ على قريةٍ وهى خاويةٌ على عروشها قال أنَّى يُحيى هذه اللهُ بعدَ موتها، فأماتَهُ اللهُ مائةَ عامٍ ثم بَعَثَه، قال كم لَبِثْتَ ، قال لَبِثْتُ يوماً أو بعضَ يوم ، قال بل لَبِثْتَ مائةَ عامٍ فانظر إلى طعامِكَ وشرابِكَ لم يَتَسَنَّهْ ، وانظر إلى حمارِك ، ولنَجْعَلَكَ آيةً للناس ، وانظر إلى العظام كيف نُنْشِزُها ثم نكسوها لحما ، فلما تَبَيَّنَ له قال أعْلَمُ أن اللهَ على كلِّ شىءٍ قدير** } (البقرة : ٢٥٩) . جاء القرآنُ بهذه المعجزة الكبرى فى الإماتة والإحياء ، يُمَهِّدُ بها للآية التالية مباشرة (البقرة: ٢٦٠) فى سؤالِ إبراهيمَ ربَّهُ أن يُرِيَهُ كيف يُحيى اللهُ الموتى ، فأمرَ بذبحِ أربعةٍ من الطير ثم يجعلِ لحْمَها أخلاطا يُفَرِّقُها فى قِمَمِ أربعة جبال ثم يَدْعُوهُنَّ فيأتينَهُ سعيا ، قد جَمَعَ الله كُلَّ جزءٍ إلى جزئه، ثم نَفَخَ فيهنَّ الحياة . كانت كلتا المعجزتين أكبرَ من أختها ، ولكن المعجزة التى أراها اللهُ إبراهيمَ كان شاهدُها إبراهيمَ وحدَه ، أما الأخرى فكانت "آيةً للناس" ، لأن الذى أماتَهُ اللهُ مائةَ عامٍ ثم بَعَثَه عاد إلى قومه

يُحَدِّثُ بها ، لم تَنَلْ المائةُ السنونَ من نضارته شيئا ، فلا يستطيعُ تكذيبَه من بَلَغَ به الكِبَرُ من قومه ، الذين عرفوا فيه ذلك الفتى يَوْمَ خرج من قريتهم على حماره هذا نفسه يَحْملُ طعامَهُ وشرابَهُ فافتقدوه مائةَ عام . ومن الناس من تكون آياتُ الله عليه عَمَىً ، المُكَذِّبُ والمُسفُّ سواء ، فقيل " ابن الله " كما يحكى مفسرو القرآن .

ولا يصح أن يقال إن عزرا الكاتب هو هذا الرجل ـ إن قلت إن عزرا الكاتب هو نفسه عُزَيْر المُسَمَّى فى القرآن ـ فتكون قريتُهُ هى تلك القريةُ الخاويةَ على عروشها التى خَرَّبَتْها بابل ، أى أورشليم ، إذن لكانت ميْتَتُه فى أورشليم نفسها ، ولما صَعدَ منها فى سَبْىِ بابل وعاد إليها بقومه يومَ عادوا إلى أورشليم من هذا السَّبى ، أو لعادَ قومُهُ إلى أورشليم وما زال عزْرا فى المَيْتَةِ التى أميتَها مائة عام ، لم يَشْهَد معهم إعادة بناء الهيكل الذى جاءوا من بابل لإعادة بنائه فَوْرَ عودتهم ، وعزْرا الكاتبُ لم يشهد فقط إعادة بناء هذا الهيكل ، وإنما شارك فى إعادة بنائه مشاركةَ القائد الرئيس ، بل المُمَوِّل عن أمْر ملك فارس . ولو كانت تلك الآيةُ الكبرى فى عزرا الكاتب لما فاتت على اللاهجين بمآثِرِه فى سِفْرَىْ عزرا ونَحَمْيا على ما مر بك . بل ليس فى العهد القديم كله، أو فى الكتاب المقدس بشطريه ، إشارةٌ إلى شخص أماتَهُ اللهُ مائةَ عامٍ ثم بَعَثَه .

وقد مر بك أن القرآن فى "عُزَيْر" يكادُ ينص بالاسم على عزْرا الكاتب الحَبْر، فى تعقيبه على دعوى البنوة لله : { **اتَّخَذُوا أحبارَهُم ورُهْبانَهم أرباباً من دون الله** } (التوبة : ٣١) ، فلا يترجَّحُ لديك قولٌ بغيره .

ليس ما يمنع من أن يكون الذى أماتَهُ الله مائة عامٍ ثم بَعَثَه رَجُلاً من غير بنى إسرائيل لم يُحيطوا به خُبْرا ، ولكنهم عَلِمُوه من القرآن فاصطنعوه كدأبهم لأنفسهم ثم حَدَّثُوا بقصته (المليئة بالتهاويل فى تفاسير القرآن) مفسرى القرآن الآخذين عنهم ، الذين وَجَدُوا فيها المُبرِّرَ لانزلاق اليهود إلى دعوى البنوة على عُزَيْر ، ابنِ اللهِ فى قَوْلِ من قال .

الصحيحُ أن الذى أماتَهُ اللهُ مائةَ عام ثم بَعَثَه فكان من آيات الله كالفتْية أصحابِ الكهف ، رَجُلٌ لم يُسَمِّه القرآن ، كما لم يُسَمِّ أصحابَ الكهف . وكلُّ خَبَرٍ فى القرآن واقعٌ لا مَحَالَة قَدْ وَقَع . ولكن القرآن سرَدَ الخبرَ وتَكَتَّمَ الاسم ، فهو من غَيْبِ الله لا يُخاضُ فيه ، واللهُ عز وجل بغيبه هو وحدَهُ العالِمُ الأعْلم .

(٥١) لقمـــان

ورد اسم " لُقمـان " فى القرآن مـرتين اثنتين فى سـورةٍ سُمِّيَت باسمـه . وليس له سَمِىٌ أو نظير فى أعـلام الكتاب المقدس بشطريه ، وإنما انفردَ القرآنُ بذكره على غيرِ سابقةٍ فى التوراةِ والإنجيل .

ولقمان حكيمٌ من الحكماء ، ليس بنبىٍّ ، بل صدِّيقٌ أو ولىٌّ ، قال فيه عز وجل : { **ولقد آتينا لقمان الحكمة أنِ اشكرْ لله ومن يشكرْ فإنما يشكرُ لنفسه ومن كفر فإن اللهَ غنىٌّ حميد** } (لقمان : ١٢) . وقد شرُفَ لقمان أىَّ شرف بذكر اسمه فى القرآن فى سورةٍ سمِّيَت باسمه ، ولم ينَلْ هذا الشرف من دون الأنبياء إلا مريمُ أمُّ عيسى . بل قـد شرُفَ لقـمانُ الشرفَ كُلَّه بالنص على وصاياهُ لابنه وهو يَعظُه فى قرآنٍ مَتْلُو يتعبَّدُ الناس بتلاوته إلى يوم القيامة . ربما لم تأت فى القرآن بذاتِ اللفظ الذى نطق به لقمان ، ولكن يكفيه أن الله عز وجل أجراها على لسانه نابضةً بلُبابِ الحكمة : { **يابنى لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم** } (لقمان : ١٣) ، ظُلمٌ للفطرة ، وظلمٌ للنفس ، وظلمٌ للعقل ، وظلمٌ للحواس . وقوله : { **يا بنى إنها إنْ تَكُ مثقال حبَّةٍ من خَرْدَلٍ فتكن فى صخرةٍ أو فى السموات أو فى الأرض يأتِ بها الله إن الله لطيفٌ خبير** } (لقمان : ١٦) ، لا ملجأ منه إلا إليه سبحانه . وقوله : { **يا بنى أقِمِ الصلاةَ وأمُر بالمعروف وانْهَ عن المنكرِ واصبر على ما أصابَك إن ذلك من عَزْمِ الأمور. ولا تُصَعِّرْ خدَّكَ للناس ولا تَمشِ فى الأرض مرَحا، إن اللهَ لا يُحبُّ كُلَّ مختالٍ فخور. واقْصدْ فى مَشيك واغْضُض من صَوتك ، إن أنكرَ الأصواتِ لصوتُ الحمير**} (لقمان : ١٧: ١٩) . هذه الوصايا القصارُ الثقال ليست هى لُبابَ الحكمة فقط ، وإنما هى جُمَّاعُ الإيمان والعملِ الصالح ، أثْقَلُها فى جنب الله عز وجل قولُ لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأثْقَلُها فى حقِّ العباد وفى حقِّك أنت أن تأمُرَ فى مجتمعك بالمعروف وتَنْهى عن المنكر ، وهذا هو جُمَّاعُ القولِ فى سياسة الدولة والمجتمع : تستقيم على ما أُمرْتَ به

فى كتاب ربك وسنة نبيك لا تَحيدُ عنهما إلى غيرهما ، فتكون كما أرادك اللهُ أن تكون فى قوله عز وجل للملائكة: {**إنى جاعلٌ فى الأرضِ خليفة**} (البقرة : ٣٠). أىْ جُنديًاً لله فى أرضه ، يَطْعَمُ من رزقه ، ويَعْمَلُ فى طاعته ، ويأتمرُ بأمره ، واللهُ من فوقك رقيبٌ حسيب لا يَعْزُبُ عن علمه مثقالُ ذرة ، فإما رضوانُ الله أو سَخَطُه ، نَعوذُ بالله من سَخَطه. بهذه الوصايا القصَارِ الثِّقال ، أثْبَتَ القرآنُ للقمان لُبابَ الحكمة، وسبحانَ العزيز الحكيم : { **يُؤْتِى الحكمةَ من يشاء ومن يُؤْتَ الحكمةَ فقد أوتِىَ خيراً كثيرا** } (البقرة : ٢٦٩) .

وقد مَرَّ بك من قبل من قول الله عز وجل انحصارُ النُّبُوَّةِ والكتاب فى ذرية إبراهيم من بعد نوح { **ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب** } (الحديد : ٢٦) ، فليس نَبِىٌّ من بعد إبراهيم ، ولا كتاب، إلا فى نَسْلِ إبراهيم ، لِتَمَنِّيه على الله عز وجل حينَ عَقَدَ لَهُ لواءَ الإمامة يومَ البلاءِ المبين ، أن يَجْعَلَ إمامةَ الناس فى ذريته من بعده ، فاستجابَ له عز وجل ، واستثنى الظالمين : {**وإذ ابْتَلَى إبراهيمَ ربُّهُ بكلماتٍ فأتمَّهُنَّ قال إنى جاعلُكَ للناسِ إماما ، قال ومن ذريتى ؟ قال لا يَنالُ عهدى الظالمين**} (البقرة : ١٢٤) ، أى هذا لك علىَّ عهدٌ لا يَدْخُلُ فيه من ظَلَمَ وأفسد ، لا ينالُهم ولا يَصِلُ إليهم . وقد نال هذا الشرفَ أنبياءُ أئمةٌ : إسماعيلُ وإسحقُ ويعقوبُ والأسباط وجملةُ أنبياء بنى إسرائيل ، وخُتِمَت الإمامةُ بمحمد صلى الله عليه وسلم خاتَمِ النبيين صلواتُ الله عليهم أجمعين . وليس نَبِىٌّ قَصَّ القرآنُ عليك نَبَأه إلا هؤلاء فيمن جاء بعد إبراهيم . أما شُعَيْبٌ الذى جاء بعدَ إبراهيم بنص القرآن ، وليس من أنبياء بنى إسرائيل بالقطع ، على مامَرَّ بك فى موضعه ، الذى نُرَجِّحُ أنه حمو موسى كما يقولُ جمهورُ المفسرين، فالراجحُ أنه من بنى إسحق غير يعقوب ، أو من نسلِ بنى إبراهيم غير إسماعيل وإسحق ، فليس نَبِىٌّ من بنى إسماعيل إلا خاتَمُ النبيين .

ولكن القرآن لم يَعُدُّ لقمانَ فى عدادِ من تحدَّثَ عنهم من الأنبياء من ذرية إبراهيم ، فتقول ربما كان نبياً ما بين نوحٍ وإبراهيم ، أو ما بين آدمَ ونوح شأنُهُ شأنُ إدريس ـ وقد قال بتَقَدُّمِ لقمانَ على عصر إبراهيم مفسرون ـ أو تقول كما نقول ويقول الجمهور إنَّ لقمانَ حكيمٌ ليس بِنَبِىٍّ ، فليس هو بالضرورة من بنى إبراهيمَ أو بنى إسرائيل ، بل تقولُ مُصيباً غيرَ مخطىء انه لو كان من أهل الكتاب لما سَكَتَ عنهُ أهلُ الكتاب ، وقد خَلا الكتابُ المقدسُ بشطريهِ من ذِكْرِ لقمان .

ولعلك تتفق معى أن اقتصارَ القرآنِ فى الحديث عن لقمان على موعظة لُقمانَ لابنه دليلٌ على أن لقمان لم يكن نبياً فى قومه ، وإنما كان رجلاً فاضلاً فى أهله وذَويه، آتاهُ اللهُ الحكمة ولم يُؤْتِه النبوة ، بلغ من حكمته أن يُسَجلَها لَهُ اللهُ عز وجلَ فى قرآن يُتْلَى ، فهو حكيمُ الحكماء . وليس كُلُّ حكيم بنبى ، وإن كانت الحكمةُ من أُشراط النبوة ، فليس نبىٌّ إلا حكيم . وإذا كان عز وجل قد حَصَر النبوة والكتاب من بعد إبراهيم فى ذرية إبراهيم ، فالحكمةُ من فضل الله عز وجل يؤتيها من يشاء ، ليست قَصراً على ذرية إبراهيم. من هنا يَتَّسعُ لك بابُ البحث عمن كان لقمان ، لا تَحْصُرُهُ فى أُمَّةٍ بعينها ، ولا تشترط أن يكونَ اسمهُ على أصلِه عبرياً كالعبرانيين .

ولكنك تُثبت للقمان ما أَثْبَتَهُ لَهُ القرآن ، أعنى رُتْبَةَ الصدِّيق على ما تَقَدَّمَ ذكرهُ فى حواشى هذا الكتاب : قد خُوطبَ لقمانُ على ملائكة الله عز وجل بقوله : { **ولقد آتينا لقمانَ الحكمة أن اشكر لله** ! } (لقمان : ١٢) على الأمر منه عز وجل ، والمخاطَبُ على ملائكة الله عز وجل صَدِّيقٌ وإن لم يُنَبَّأ ، على القولِ الذى به نقول ، شأنَ امرأةِ فرعونَ وامرأةِ عِمْران ، وأُمِّ موسى وأُمِّ عيسى ، رضى اللهُ عنهم جميعاً ورضوا عنه .

ها قد اتسع أمامك بابُ البحث عَمَّنْ كان لقمان . ولكن ماذا قالوا فى لقمان ؟



أما المستشرقون المنكرون على القرآن [١]، فقد أَسَفُّوا أَيُّما إسفافٍ فى لقمان، لأنهم كما مر بك لا يتصورون أن يكون فى القرآن شىءٌ لم يَتَسَقَّطْهُ من أهل الكتاب أو أقاصيص أهل الكتاب . قالوا إن الاسم لقمان يجىء فى العربية من الجذر "لَقَم" بمعنى "بَلَع" ، فهو سَمِيٌّ ملك أدوم فى سفر التكوين "بالَع بن بِعُور" (تكوين ٣٢/٣٦) ـ وأصله فى العبرانية " بِلِع " على المصدرية واسم الفعل من الجذر العبرى "بلَعْ " بمعنى ابتلعه أو أتَى عليه وأفناه ـ فجاء به القرآنُ على "لقمان" أو هو "بلعام بن بِعُور" ـ على زنة "فِعْلام" من نفس الجذر العبرى "بَلَعْ" ـ نبىٌ من غير بنى إسرائيل عاصَرَ موسى عليه السلام (عدد ٥/٢٢) . وقد تظن أن هذا جُهْدٌ عِلمِىٌ يليق

(١) راجع : Joseph Horovitz ، المرجع المذكور ، ص ٢٩ ـ ٣١ .

بمستشرقين علماء ، والواقع أنهم اتكأوا فيه كدأبهم على أصحاب التفاسير والسِّيَر الذين ائتمنوا الرواةَ من أهل الكتاب ، فقد قال ابن إسحق ان لقمان ، هو بَالَع بن بَعُوراء (انظر تفسير القرطبى للآية ١٢ من سورة لقمان) وما كان لابن إسحق أن يعلم عِلْمَ بالع هذا إلا من رواته من أهل الكتاب الذين فَطنوا إلى هذا الجناس المعنوى بين بَالع ولُقمان . أما بَالَعُ ملك أدوم فلا تحدثُكَ التوراةُ عنه بشىء ، حكيماً استطارت حكمتُهُ أو غيرَ حكيم . وأما بِلعام بن بعُور الذى عاصر موسى عليه السلام فقد كان عند اليهود " نَبيا لَعَّاناً " استأجره بالاق بن صفُور ملك مُوآب ليلعن له بنى إسرائيل حتى ينكسروا أمامه فى حربه معهم ، ولكن الله كان يُحَوِّلُ لعنات بلعام فترتد على جيش الموآبيين وحلفائهم (راجع الإصحاح ٢٢ من سفر العدد) ، ولو كان مفسرو القرآن وأصحاب السير يقرءون فى أسفار هذه التوراة فَعَلموا حقيقة "بلعام" لأحجموا عن مساواته بلقمان الذى فى القرآن .

قال هؤلاء المستشرقون أيضا ، إن موعظة لقمان لابنه شبيهةٌ بما فى أساطير السريان عن "أُحيقار" (وهى " أخو الوَقار" بمعنى ذى الوَقار) الذى يَعظُ ابنه بما معناه : يا بنى طأطىء رأسَك وأَلنْ قولك وغُضَّ بصرك ، فلو كان بيتٌ يُبْنَى بجَهارة الصَّوْت لَبَنى الحمارُ بيتين فى يوم [٢] وهذا ضعيفٌ كما ترى ، يَدلُّكَ على مدى هزل هؤلاء المستشرقين ، يأخذون وجه الشبه من نهيق الحمار فى الموعظتين أما مُطاطَأةُ الرأس وإلانَةُ القول وغَضُّ البصر ، فهذا من الشائع المأثور الذى لا تخلو منه موعظةُ مُرَبٍ ، وليس هذا هو لُبُّ مواعظ لقمان ، وإنما أدناها . على أن لقمان يأخذ على الحمار نُكْرَ الصوت ، أما "أحيقار" السريانى فيقول إن جَهارةَ الصوت شأنُ صوتِ الحمار، لغوٌ لا طائلَ من ورائه .

على أن سوء التشبيه بين " أحيقار " السريانى ولقمان الذى فى القرآن يكفى بذاته للمباعدة بينه وبين مقولة هذا القائل فَتَستَبْعدُ " أحيقار " السريانى كما استَبْعَدْتَ من قبل " بلِع " ، "بِلْعام " . وقد استبعدهم أيضاً Joseph Horovitz الذى نَنْقِلُ عنهُ هذا الكلام .

(٢) ترجمة من عندنا لعبارة Joseph Horovitz الانجليزية ، وهى :
"My son, Lower thy head, speak softly and look down. For if a house could be built by means of a loud voice, the ass would be able to build two houses in one day."

قالوا أيضا فيما يرويه عنهم هذا المستشرق إنَّ الاسمَ اليونانيَّ " الكميون" ، وشبْهُه " الكمان ("Alkmaion', "Alkman") فيه شيءٌ من " لقمان" الذى فى القرآن، مشيرين إلى تردد هذا الاسم اليونانى "فى دوائر واسعة بالمشرق" . وليس على هذا دليلٌ كما عَقَّبَ هذا المستشرقُ نفسه فقال إنه إنْ كان لابد من يونانية " لقمان" فهو يُؤْثِرُ الاسمَ اليونانيَّ " لقُيان " "Lucian" المحفوظةَ أقوالٌ لَهُ فى مُدَوناتٍ سُريانية ، مشيرا إلى يُسْرِ تصحيف " لُقيان" بالياء إلى "لُقمان" بالميم فى رسم المصحف ، وهى فريَّةٌ مُضحكة مُبكيَة لا يخجلُ من اصطناعها أدعياءُ الاستشراق الذين لا يُحيلون التصحيفَ على المصحف الإمام يَسُدُّون بها الثغرة فى تهافُت حجاجهم مع القرآن ، وكأنهم يَقيسون المصحف الإمامَ على " توراة الأنبياء والكتبة " التى تراوحَت عليها أقلامُ النُّسَاخ ، فيفتضحون بجهلهم القديم بتاريخ القرآن ، وجَمْعِ القرآن ، وتدوين القرآن . ولكن هذا المستشرق يعودُ أيضا فيستدرك على نفسه وقد أعياهُ البحثُ عن "لقمان" عند أهلِ الكتابِ وعندَ السريانِ وعندَ اليونان ، فيقول إنه ليس على هذا كُلّه دليل ، والراجحُ عنده فى النهاية أن لُقمانَ اسمٌ عربيٌّ أصيل عَرَفَهُ العربُ قبل القرآن ، فقد ذَكَرَهُ من شُعرائهم أمثالُ طَرَفة والأعشى وزُهير وامرىء القَيْس والمُخَبَّلِ وأفنون ، وغيرِهم ، فضلا عن أساطيرِ العرب فى " لُقمان بن عاد " (١) .



أما مفسرو القرآن (راجع تفسير القرطبى للآية ١٢ من سورة لقمان) فقد تفاوتت أقوالُهم فى لقمان . وقد مَرَّ بك ما حكاهُ القرطبى عن ابن إسحق فى "بالَع" ، "بَلْعام" ، ولكن ابن إسحق رحَمِهُ الله تَكتُم مصادرهُ فلم ينصَّ على "بلَع" ، "بلعام" ، وإنما قال فى المرتين " لُقمان بن باعوراء" ، وباعوراء ـ التى هى "بعُور" فى التوراة ـ تكشف مصادر ابن إسحق بجلاء . وقال السُهَيْليُّ كان لقمان نوبياً من أهل إيلة (وما أبعدَ البونَ مابين أرض النوبة وأرض فلسطين!) ، وقيل أيضا عن سعيد بن المُسيَّب إن لقمان أسود من سُودانِ مصرَ ذو مشافرَ (يعنى عظيم الشفتين) وعظْمُ الشفتين فى هذه الرواية وأمثالها محاولةٌ لتفسير معنى "لقمان" بأنه عظيم اللُّقْمة ، تَلْقامَةٌ تلقام (وهو فَهْم غيرُ دقيقٍ لأصل معنى الجذر العربى " لَقَمَ " كما سوف ترى) . وقال وَهَبُ ومقاتلُ والزَمَخْشَرِيُّ كان لقمانُ ابنَ أختِ أيوب أو ابن خالته (وهى محاولة لتأصيل

(١) راجع هذا على : J. HOROVITZ ، المرجع المذكور ، ص ٣١ .

عُروبة لقمان على عروبة أيوب فى قول بعض المفسرين وهذا غيرُ صحيح بناء على ما قلناه فى تحليل اسم "أيوب" وإنه من بنى إسرائيل على الصحيح) وقيل كان لقمان من أولاد آزر أبى إبراهيم، عُمِّر ألف سنة فأدرك داود . وروى عن ابن عباس أن لقمان كان رجلا حكيما بحكمة الله تعالى قاضيا فى بنى إسرائيل أسودَ مُشَقَقَ الرِّجْلَين ذا مشافر يعنى عظيم الشفتين كما مر بك . فَتَعَجَبُ كيف يكون قاضياً فى بنى إسرائيل نُوبِىٌ أو من سودان مصر .

ربما تجد فى هذا الإصرار على سواد بشرة لقمان دليلا على أنه ليس من بنى إسرائيل . ولكن سواد بشرته ليس مانعا من أن يكون لقمان عربيا من العرب ، وعربية لقمان أليق بعربية اسمه. أما القول بأنه مصرى أو من سودان مصر، أو من أهل النوبة، فليس ما يمنع من هذا بالطبع ، فقد سكت القرآنُ والحديثُ الصحيح عن نَسَبِ لُقمان فى أمَّةٍ بعينها. ولكن القول مُرسَلٌ ليس عليه دليل. ولا يصح أن يكون الاسم "لقمان" عَلَماً أعجميا من المصرية القديمة بالذات، لأن المصرية القديمة تفتقد حرفَ " اللام" ـ الحرف البادىء فى " لقمان" ـ وتضع فى موضعه حرف " النون" ، وأحيانا قليلة حرف "الراء"[(١)] ومن أمثلة ذلك فى جذور المصرية القديمة المشتركة مع الساميات: اللامُ النافية ولامُ المِلْك ولامُ الاتجاه ، المُعَبِر عنها فى المصرية القديمة بالحرف " نـ " ولفظه "لُبّ" العربية العبرية الآرامية بمعنى القلب والفؤاد المُعَبَّرُ عنها فى المصرية القديمة باللفظ "رِب" وغيرُهُ كثير.

وإذا كان " لقمان " قد أعيا المستشرقين والمفسرين البحثُ عَمَّنْ يكون ، وليس فى القرآن والحديث الصحيح ما يَدُلُّ عليه ، فليس شخص لقمان هو الذى يعنينا بالدرجة الأولى فى مباحث هذا الكتاب الذى نكتب ، وإنما الذى نهتم له فحسب هو معنى هذا الاسم " لقمان" وتفسيره من القرآن بالقرآن ، مَقصدُنا الأول فى هذا الكتاب. والقرآنُ كما سوف ترى يُفَسِّرُ هذا الاسم على أصلٍ عربىٍ ، فتقطعُ بعربيةِ الاسم والشخص ، وسُبحانَ العليمِ الخبير .



(١) انظر فى افتقاد المصرية القديمة حرف اللام وإبداله نونا أو راء : A. Gardiner, p 27 EGYPTIAN GRAMMAR أما اللام النافية فهى فى مثل قولك : لا أفعله ، وأما لام الملك ففى قولك : لله المشرق والمغرب وأما لام الاتجاه فهى المبدلة من الحرف " الى" .

ليس معنى الجذر العربى " لَقَمَ " هو " البَلْعَ " كما يبدو لك للوهلة الأولى ، وكما استشعر المفسرون الذين وصفوه بعظَم الشفتين مُجانَسَةً على ما فهموه من معنى "لقمان" . وقد ظنوه كما ترى زنةَ مبالغةٍ من "لَقَمَ" فهو صنوُ "تَلْقام" ، "تَلْقامة" يعنى "عظيم اللُّقْمَة" ، وهذا يحتاج إلى سَعة الفم وغلظ الشفتين . وقد جَرَّهُم هذا الفَهْمُ على ما أرجِّحُهُ أنا إلى التورط دون دليل فى القول بسواده ونُوبيَّته أو سُودانيَّته ، يعنون "زِنْجيَّتِه" ، لشيوع غِلَظِ الشفتين فيهم .

ولكن معنى " لَقَمَ " الرئيسى على أصله ليس كذلك ، وإنما هو بمعنى سَدَّه فأحْكَمَ سدادَه حتى غُصَّ به . تقول من هذا : لَقَمَ الطريق ، يعنى سَدَّ فَمَ الطريقِ على من يُريدُ الخروجَ منه . وأيضا : أَلْقَمَهُ حجرا ، يعنى أسكته وأفحمه ، والحَجَرُ هنا للتقوية ، لأن " أَلْقَمَهُ " بذاتها كافية . وليست " لَقِمَ " بذاتها يعنى " بَلَعَ " كما ظن ذلك المستشرق وأضرابه ، وانما اللَّقْمُ هو الأخذ بِجُمْعِ الفَمِ ، أعنى مِلءَ الفَمِ ، ويجيءُ البلعُ بعد ذلك . واللُّقْمَة هى ما يسَدُّ الفَمَ سَداً ، أى التى تَمْلَؤُه . ولا تزالُ "اللقمة" لقمة ما بَقِيَت بالفَمِ لا تُجاوزهُ إلى "البلعوم" . والتقم الطفلُ ثَدْىَ أُمّه ، من هذا ، فهو لا يبتلعه ، ولكنه يأخذه بِجُمَّاعِ فيه . ومن هذا أيضا قولُهُ عز وجل فى يونس : {**فالتقمه الحوتُ وهو مُليم** } (الصافات ، ١٤٢) ، ليس معناها ابتلعه ، كما تجد فى بعض المعاجم ومنها " المعجم الوسيط " الصادر عن مجمع اللغة العربية بمصر ، وإنما معناها أن الحوت أخذ يُونُسَ بملء فيه ، أى كان يونسُ للحوت لُقْمَةً امتلأ منها فُوه ، ثم جاء الابتلاعُ بعد ذلك فصار فى بطن الحوت ، فهو مكظوم : { **ولا تكن كصاحب الحوت ، إذ نادى وهو مكظوم** } (القلم ، ٤٨) ، أى مُضَيَّقٌ عليه مكتوم . حدث هذا فى بضع ثوان ، ريثما استجمع الحوتُ عضلات بُلعومه لابتلاع يونس بعد التقامه ، فلا ابتلاعَ إلا بعد التقام . ولكنه التصويرُ الفَنِّيُّ المُعجز الذى عَهِدتَهُ فى القرآن ، لا يريدُ أن تفوتَك اللحظةُ الهائلة : لحظةُ التقامِ الحوتِ يُونُس .

والعاميةُ المصرية تُبدِلُ من قاف " لقم " فى معنى الكظِّة والاكتظاظ ، كافاً ، تقولُ منه بالعامية المصرية "اتْلَكَمْت" ، "مَلْكوم" وأصلها الفصيح "مَلْقُوم" والمعنى "كُظِظْت" فأنا "مكظوظ" ، لا "ابتلعت" ولا "مبلوع" . كما تجد نظير هذا فى تلك الحَلْواء الشامية ، " اللكوم" (" المَلَبَّن" فى مصر) ، وأصلها الفصيح "اللقوم" من اللقم ، فهى " اللاقِمة " ، سِدادُ الفَم ، وربما سِدادُ النَّفْس أيضا من شِدَّةِ حُلْوِها .

أما العبرية والآرامية فقد أُميت فيهما الجذرُ العربيُّ " لَقَم " وإن بقيت أثارةٌ منه بالمعنى الذى ذكرناه ، السدُّ والانسداد ، فى عبرية التوراة ، وهى لفظة " لَقُّوم" (سفر يشوع ١٩/٣٣) اسمُ موضع لسبط نَفْتالى ، يفسر علماء التوراة [١] معناها من الجذر العربى " لقم " بمعنى سِدادُ الطريق ، فيقولون ان لَقُّوم = الحِصْن ، الحائلُ المانع .



أما "الحكيم" فى العربية فهى بمعنيين: الذى يَحْكُمُ هَوَى نفسه أى الذى يَعْقِلُ نفسهُ عن الهوى، والآخرُ هو الحكيمُ قائلُ الحكمة، يُحْكِمُ قولَهُ فَيَسُدُّ على سامعه منافذ القولَ، لامقولةَ بعدَهُ لقائل، الذى أَسْكَتَ خَصْمَهُ وأَرْتَجَ عليه، يعنى سَدَّ فَمَه، أى أَلْقَمه. ويقول العربُ كَظَّ فلانٌ خَصْمَه يعنى أَلْجَمه حتى لا يَجِدَ مَخرَجا ، وكَظَّهُ بمعنى أَلْقَمه .

وأصلُ معنى الجذر العربى :"حَكَمَ" هو المَنْعُ والصَّرْف ، ومنه "الحَكَمَة" بفتحتين، تلك الحديدة فى فم الفرس التى تُلْجمهُ بها فَتَحْكُمُه عن السير على هواه ، وأَحَكَم الفرسَ يعنى جعل للجامه حَكَمة . وأصل الحُكم والحِكْمة من هذا . وكُلُّ معانى الحُكْم والحِكْمَةُ متفرعةٌ على هذا الأصل ، مجازاً وتوسُّعا ، فتجيء الحِكْمَةُ بمعنى العلم والفقه، لأن العلم شرطٌ فى الحِكْمَة ، لا حكيمَ إلا عالم قد أَحْكَمَهُ العلمُ عن اللغو ، ويقال من الصمت حِكْمَة ، والمرادُ صَمْتُ العالم ، لا صَمْتُ الجاهل ، ويقالُ أَحْكَمَهُ بمعنى أَتْقَنه ، والأصلُ ضَبَطَه ، وهكذا .

والاسم " لقمان " فى القرآن من هذا : إنه الحكيم قائلُ الحكمة ، اللاقمُ سامعَه ، أُوتى الحِكْمة، يعنى فَصْلَ الخطاب ، لا يَمْلِكُ سامعُهُ على قوله تعقيبا، فقد "أَلْقَمه".

وليست " لقُمان" ـ وهى عربيةٌ كما ترى ـ ممنوعةً من الصرف فى القرآن للعُجْمة وإنما مُنعَت من الصرف للعلمية المزيدةِ بالألفِ والنون ، شأنُها شأنُ "عُثمان" التى لا يختلفُ على منعها من الصَّرْف أحد .

وإذا كانت العربُ عصرَ تصنيف تفاسير القرآن لم تَعْرِف فى " لُقمان" معنى الحكيم قائلِ الحِكْمَة ، فهذا كما تعلم من أساطير العرب فى " لقمان بن عاد " لأن لقمانَ عند العرب قديم ـ بل مُتَطاوِلُ القِدَم ـ فهو من العربية الأولى ، عربيةِ عادٍ قومِ هود .



(١) انظر المعجم العبرى الآرامى لألفاظ التوراة ، المرجع المذكور ، ص ٤٤٩ .

قال عز وجل يفسر "لقمان" بالمرادف المطابق اللصيق : { **ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد** } (لقمان : ١٢) .

فَسَّر القرآنُ إذن "لقمان" بمعنى الحكيم قائل الحِكْمَة . وقد غَلَب لفظُ الحكيم على لقمان، حتى ليكادَ يُغْنِي ذكرُ أحدهما عن الآخر، فهو عَلَمٌ عليها وهي عَلَمٌ عليه .

وأصلُ معنى الشكر في اللغة الامتلاءُ من رِيٍّ أو سِمَن ، ثم استُعير للامتلاءِ من النعمة . ثم استُعيرَ من بعد لظهورها ، وأيضا إظهارِها بعرفانِها والثناءِ عليها . وهذا المعنى الأخيرُ هو وحده المشهورُ المعروفُ المستعمل في العربيةِ المعاصرة .

والشَّكُور من الإنسانِ والحيوانِ والنَّبْت ، هو الذي تبدو عليه آثارُ النعمة لا يَكْتُمُها، وإنما يُبديها ويُحَدِّثُ بها . وفي الآيةِ التي تلوتُ تَواً جناسٌ معنويٌ خَفِيٌ بديع: أي لُقِّمْتَ يا لقمانُ الحكمةَ حتى مُلِئْتَ منها ، فَعِظْ بها. فكانت عظاتُ لقمانُ لابنه في القرآنِ لُبابَ الحكمة . وسبحانَ العزيزِ الوهاب ، يؤتي الحكمةَ من يشاء ، الذي عَلَّمَ بالقلم ، عَلَّمَ الإنسانَ ما لم يعلم .

والحمدُ لله ربِّ العالمين .

الفصل التاسع

المصدق والبشير

يتناول هذا الفصل فى ختام مباحث هذا الكتاب تفسيرَ ما بقى أمامنا من العلم الأعجمى فى القرآن ، وهى عشرةُ أعلام : زكريا ـ يحيى ـ عمران ـ مريم ـ عيسى ـ الإنجيل ـ النصارى ـ الصابئون ـ المجوس ـ الروم .

والأعلامُ السبعة الأولى (زكريا ، يحيى ، عمران ، مريم ، عيسى ، الإنجيل ، النصارى) هى أعلام المسيحية . فزكريا أبو يحيى ، ويحيى ابن خالة مريم ، ومريم ابنة عِمْران هى أم عيسى ، رضى الله عنهم جميعا ورضوا عنه ، أنبياءَ وصدّيقين ، أما الإنجيل فهو وحى الله على عيسى ، وأما النصارى فهم المسيحيون أتباع المسيح .

أما الأعلامُ الثلاثة الأخرى (الصابئون ، المجوس ، الروم) فهم من أعلام المسيحية قَريب . فقد قيل فى الصابئين إنَّهم بقيةٌ من أتباع يحيى بن زكريا عليهما السلام ، وقيل غيرُ ذلك . وأما المجوس فهى عَلَمٌ على أتباع ديانة فارس أو الزُرادشْتيين أتباع زُرادشْت ، ولعلك قرأت فى الإنجيل أن مجوساً رأوا فى السماء نجم المسيح فجاءوا من بلادهم يحضرون مولده عليه السلام ويقدمون له "هدايا ذهباً ولباناً ومُرًّا" (متى ٢/ ١١) . وأما الرومْ فالمَعْنِىُ بها فى القرآن هم البيزنطيون وقَيْصَرُهم هِرَقْل عصرَ نزول القرآن ، وقد تسمَّى بها البيزنطيون فى آسيا الصغرى والبَلْقان لأن ملوكَهُم كانوا سلالةً من قياصرة روما قبل انهيار الامبراطورية الرومانية على أيدى القُوط ، بل قد كان من البيزنطيين من خلع اسمَ "روما" (عاصمة إيطاليا اليوم) على بيزنطة (وهى استامبول اليوم فى تركيا) ، تَحناناً إلى ذكرى روما الأولى (روما يوليوس قيصر وأُوكتافيوس أُوْجُسْتُس ومَرْكُس أنطنيوس) أيامَ مجدِها القديم .

ولم نجد أنسب من هذا الفصل موضعاً للحديث عن الصابئين والمجوس و الروم فى سياق تحليلنا معانى أعلام المسيحية وتفسيرها من القرآن بالقرآن ، فقد جاء "النصارى" مَجْمُوعين إلى الصابئين والمجوس فى قوله عز وجل : { **إن الذين آمنوا ، والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشْركوا ، إنَّ الله يفصلُ بينهم يوم**

القيامة ، إنَّ اللهَ على كلِ شيءٍ شهيد } (الحج : ١٧) . أما الروم فلأنهم الذين آل إليهم منذ القرن الرابع لميلاد المسيح صَوْلَجانُ المسيحيةِ وسُلطانُها .



وليس من مقاصدنا المباشرة فى هذا الكتاب الذى نكتب نَقْدُ المسيحية فى صورتها التى نَقَضَها القرآنُ من قبل ، أعنى عقيدة التثليث والخلاص بالمسيح ، فَادِى البشرِ بدمه المسفوحِ علي الصليب ، فقد تَكَفَّلَ القرآنُ بالنقد والنقض معا ، وليس بعدَ القرآنِ مزيدٌ لُمستزيد ، الذى جاء بها ناصعةً بَيِّنَة فى جواب المسيحِ ربَّه يومِ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فيقولُ ماذا أُجِبْتُم قالوا لا علمَ لنا ، إنك أنت علام الغيوب : { **وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلتَ للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ! ما يكون لى أن أقولَ ما ليس لى بحق ! إن كنتُ قلتُهُ فقد عَلِمْتَه ، تعْلَمُ ما فى نفسى ولا أعلمُ ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب. ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا اللهَ ربِّى وربَّكم ، وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم ، فلما توفيتنى كنتَ أنتَ الرقيب عليهم ، وأنت على كُلِّ شيءٍ شهيد** } (المائدة : ١١٦ ــ ١١٧)، وقوله عز وجل ، المتفرِّد بالالوهية والمُلك:{ **لن يستنكفَ المسيحُ أن يكون عبداً لله ولا الملائكةُ المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرُهُم إليه جميعا** } (النساء : ١٧٢) ، ويَدْخُلُ فى الملائكةِ المقربين جبريلُ روحُ القُدُس صلواتُ الله عليه، ثالثُ الثلاثة فى عقيدة التثليث. من هنا تستظهر أن المسيحية يومَ رُفِعَ المسيحُ ليست هى تلك المسيحيةَ التى جادل بها أساقفةُ نَجْران خاتَمَ النبيين ، التى صِيغَت أصولُها فى المجامع ، بدءا بمجمع نيقية عام ٣٢٥م، بعد رفع المسيحِ بنحو ثلاثة قرون، الذى ألهَ المسيحَ على البنوة لله، ثم أعقبه بنحو خمسين سنة مجمعٌ آخر فَصَّلَ القولَ فى ألوهيةِ روحِ القُدُسِ جبريل، فاكتمل الثالوثُ الأقدس : الآبُ والابنُ والروحُ القدس ، ثلاثةٌ فى واحد .

ولكن مقولةَ المسيحيين فى المسيح هى التى تَفْرِضُ نفسَها على كُلِّ بحثٍ لُغَوِيٍّ صِرْف يريد تحليلَ معنى عَلَم المسيحية الأكبر ، عيسى بن مريم صلواتُ الله عليه ، كما سترى ، وأيضا لفظة "إنجيل" ، لأن مقولة المسيحيين فى المسيح هى التى صَنَعت التفسيرَ اللُّغَوِىَّ الشائعَ لهاتين اللفظتين : "عيسى" (" يشُوع " عبرياً) ، "إنجيل" المقول بيونانيتها ترتيباً على يونانية الأناجيل .

والذى ينبغى التنبيهُ إليه فيما مضى من مباحث الكتاب وفيما سوف يلى ، أننا حين يُلجئُنا موضوعُ البحث إلى النقد ، فهو النقدُ الرصين ، نريدُ به وجهَ الحقّ تبارك وتعالى ، فنختصم المقولةَ ولا نَشْجُبُ القائل ، فالهُدى هُدَى الله عز وجل ، ولو شاء لهدى الناسَ أجمعين ، ولله وحدَهُ الفضلُ والمَنْ: { **قل لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إسلامكم بل اللهُ يَمُنُّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين**} (الحجرات : ١٧) . ومن فَضْلِ الله على المُسلِم أنه معصومٌ بعصمة الله عز وجل عن الخوضِ فى مَقام أنبيائه : { **لا نُفَرِّقُ بين أحدٍ من رُسُلِه** } (البقرة : ٢٨٥) ولا تستقيمُ لغيرِ المسلمِ مع المسلمِ حُجَّةٌ إلا بالخوضِ فى نُبُوةِ خاتَمِ النبيين .

ومن فرائد إعجازات القرآن فى غُيوب القرآن قولُهُ عز وجل فى الآية التى تَلَوْتُ توًا : { **إن الذين آمنوا ، والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شىءٍ شهيد**} (الحج : ١٧) ، أى سيظل من هؤلاء وهؤلاء فِرَقٌ يفصلُ بينهمُ اللهُ يومَ القيامة ، يومَ يجىءُ كُلُّ أُناسٍ بإمامهم .

أما أنبياءُ اللهِ ورسُله ، لا نُفَرِّقُ بين أحدٍ من رُسُله ، فسلامٌ على المُرْسَلين ، والحمدُ للهِ رب العالمين .

(٥٢) زكريا

"زكريا" عليه السلام نبيٌّ بنص القرآن لمجيئه على نحو ما مر بك من قبل فى لفيف من ذرية يعقوبَ مُعَقّبٍ عليهم بقولِهِ عز وجل : { **أولئك الذين آتاهم اللهُ الكتابَ والحُكْمَ والنُّبُوَّةَ** } (الأنعام : ٨٩) ، وإن كان فى الأناجيل التى بين يديك مجرّدَ كاهن : "كان فى أيام هيرودس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة أبِيًّا وامرأته من بنات هرون واسمها اليصابات . وكانا كلاهما بارّين أمام الله سالكَين فى جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لَوْم . ولم يكن لهما ولد إذ كانت اليصابات عاقرا ، وكانا كلاهما متقدّمَيْنِ فى أيامهما" : (لوقا ١/٥ ــ ٧) ، ثم يمضى الكاتب فى قصة ولادة يحيى بن زكريا عليهما السلام (المرسوم فى أصول الأناجيل اليونانية وترجماتها جميعا "يوحنا" على ما سيجىء فى موضعه). وإلى صلاحِ آل زكريا عليه السلام يشير القرآن بقوله عز وجل : { **وزكريا إذ نادى ربه رب لا تَذَرْنى فردا وأنت خيرُ الوارثين . فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يُسارعون فى الخيرات ويَدعُونَنا رَغَبا ورَهَبا وكانوا لنا خاشعين** } (الأنبياء : ٨٩ ــ ٩٠). وقد كان إعجازُ ميلاد يَحْيَى لزكريا وقد بلغ بِهِ الكِبَرُ عِتِيًّا شبيهاً كُلَّ الشبه بمولد إسحق لإبراهيم وسارة : كلتا المرأتين عجوزٌ عاقر ، وكلا الرجلين شيخٌ كبير ، ولكن الفاطرَ المُبْدِعَ البارى الذى لا يُعْجِزُهُ شىء يقضى ما يشاء ويفعلُ ما يريد . ولو شاء اللهُ خَلْقَ يحيى على مثال آدم بغير أبٍ أو أمٍّ لفعل ، ولكنه أراد النسبةَ إلى زكريا ، كما أراد من بعد فى خلق عيسى النسبةَ إلى مريم ، وأراد قبل هذا وذاك النسبةَ إلى آدم أبى البشر جميعا ، كيلا يضل أحدُ فى دعوى البُنُوة لله عز وجل ، ولم يغفل عنها لحظة عيسى عليه السلام فى نفس هذه الأناجيل التى بين يديك، لا يَسْأَمُ من تكرارها على سامعيه حتى باتت عَلَماً عليه : إنه ابن الإنسان (وهى فى العبرية " بِنْ أدام ") يعنى آدَمِيٌّ من بنى آدم . والقرآنُ لا يجىء

بذكر مولد يحيى إلا ويعقبه بذكر مولد عيسى (ولوقا يفعل نفس الشيء فى إنجيله) ، يُمَهِّدُ لإعجاز بإعجاز ، فكلتا الولادتين آيةٌ تنقطعُ دونَها رقابُ البشر : إخصابُ بُوَيْضَةِ الأنثى بغيرِ مُخْصِب ، أو خَلْقُ هذه البُوَيْضَةِ مُخْصَبَةً ابتداء ، أو إخصابُها بكلمةٍ منه عز وجل نفخاً من روحِ القدس جبريل كالذى تَجِدُ فى القرآن وفى الإنجيل ، والأخرى شأنُها شأنُ الاستحياءِ من عَدَم ، فى زَوْجِ زكريا ، كما تجد فى قوله عز وجل الذى تلوناه توا : (وأصلحنا له زوجه) ، يعنى استحيينا فيها ، وهى العجوزُ العاقر ، آلةَ الحَمْلِ والولادة ، وسبحانَ الخلاَّقِ العليم . فلما عَجِبَ زكريا من هذا ، قيل له :{ **قال كذلك قال ربك هو على هَيِّنٌ وقد خلقتُكَ من قبلُ ولم تَكُ شيئا** } (مريم : ٩) ، يُذَكِّرُهُ بخلقه وبالخَلْقِ الأول ، وعن هذا يَضِلُّ كثيرون ، يُعَظِّمُون المفعول ولا يُعَظِّمون الفاعل . ولم يكن هذا موقفَ لوقا فى إنجيله ، بل هو يُعَقِّبُ على مولد يحيى وعيسى عليهما السلام بتسابيحَ لله العليِّ القادرِ .

على أن أخبار زكريا فى القرآن لا تقتصر على أُبُوتِه ليحيى ، وإنما هو أيضا كَافِلُ مريم عليها السلام على ما تقرأ فى القرآن ، وليس فى الأناجيل التى بين يديك من هذا شىء ، وهى أيضا لا تَقُصُّ عليك شيئاً من أنباء خدمتها فى الهيكل ، وقال عزوجل: { **ذلك من أنباء الغيب نُوحيه إليك ، وما كنتَ لديهم إذ يُلْقُون أقلامَهُم أيُّهُم يَكْفُلُ مريم ، وما كنتَ لديهم إذ يختصمون** } (آل عمران : ٤٤) ، وسبحان علام الغيوب .



أما الاسم "زكريا" فيجيء فى العبرانية من جزأين : زكر + يا (وينطق عبريا "زخَرْيَا" على ما مر بك من تحوُّل النطق فى العبرية بعد مُتَحَرِّكٍ أو معتل من الكاف إلى الخاء) .

أما المقطع الأول " زكَر" ، فهو الجذر العبرى " زكَرْ " المكافيء فى كل معانيه للجذر العربى "ذكَرَ" ، أُبْدِلَت ذالُهُ زايا. وأما المقطع الثانى"يا" فهو مختصر من "يهوا"، اسم الله عز وجل فى العبرية .

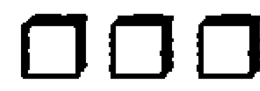
على هذا يكون معنى " زكريا " هو " ذَكَرَ اللهُ " بالضم فى لفظة " الله " على الفاعلية للفعل العبرى "زكر" ، أو هو "ذَكَرَ اللَّهَ" بالفتح فى لفظة "الله" على المفعولية

من " زكر" ، لأن العبرية ليس فيها إعراب فلا تستطيع القطع بأيِّهما المراد . وقد اختار علماء أهل الكتاب ـ بغير موجبٍ من نحو اللغة العبرية ـ الوجه الأول "ذَكَرَ الله" على معنى "الذى يَذْكُرُهُ الله" . وهم فى هذا ـ أعنى علماء المسيحية ـ ينظرون لا إلى أصل التسمية فقد تَسَمَّى بالاسم " زكريا " من قبل فى العهد القديم كثيرون أشهرهم بالطبع "زكَرِيَّا بن بَرَخِيَّا" صاحب السفر المعنون باسمه فى توراة الأنبياء والكتبة ، وإنما هم ينظرون إلى دلالة الاسم على المسمى المَعْنِيِّ فى العهد الجديد ، الذى تَمَنَّى على الله الولد وقد بلغ من الكِبَرِ عتيًّا فَذَكَرَهُ الله فى وَحْدَته وضعفه وشيخوخته فاستجاب دعاءه. وهذا جيد لا غُبار عليه فى حقِّ زكريا المعنى فى الإنجيل وفى القرآن . ولكنه تَحَيُّزٌ بغير موجب من نحو اللغة العبرية كما مر بك لأحد الوجهين دون الآخر . بل الوجهُ الثانى ، أعنى " ذَكَرَ اللهَ " بالفتح فى لفظة " الله " على المفعولية لهذا الذاكر ، فيكون المعنى " ذاكرُ الله " ، أوجهُ وأَبْيَن فى منطق اللغة العبرية ـ وأيضا غيرُ متعارضٍ مع نحوها ـ لأنكَ فى الوجه الأول تحتاج إلى تفسير " ذَكَرَ " من الله عز وجل على معنى " استجاب " ، أما فى الوجه الثانى فالفعل " ذَكَرَ " من هذا الذاكر يَظَلُّ على أصلِ معناه ، والتفسيرُ بالأصلِ أَوْلَى من التفسير بالمُؤَوَّل . على أن الوجه الثانى أيضا ، "ذاكرُ الله " لا يَبْعُدُ بك عن دلالة التسمية على المسمَّى فى حق "زكريا" المعْنِيِّ فى الإنجيلِ والقرآن ، العَبْدُ الذاكرُ الخاشع لقوله عز وجل : { **فاذكُرونى أذكُرْكُم**} (البقرة:١٥٢) يعنى يجىءُ الذكرُ من العبد أولا ، يَذْكُرُ اللهَ فيذْكُرُهُ الله ، لا يَصِحُّ العكس فى جنب الله عز وجل . وهذا بالضبط الذى حَدَثَ لزكريا . "ذاكرُ الله" : ذَكَرَ اللهَ فَذَكَرَهُ الله ، كما تجد فى هذا الجناس المعجز : { **كهيعص . ذِكْرُ رحمةِ ربِّكَ عبدَهُ زكريا . إذ نادى ربَّهُ نداءً خفيًّا** } (مريم: ١ـ٣) .

"زكريا" إذن على القول الذى به نقول ، يعنى " ذاكرُ الله " .

وقد عَرَّبَ القرآنُ " زكريا " طبق الأصل من صورتها الشائعة فى الأناجيل اليونانية ، وهى Zacharia " زَخَرِيًّا " (الذى تُضاف فى آخره سينُ الرفع اليونانية حالَ وقوعه مرفوعاً كما مر بك) : خالفوا العبرية بفتح الزاى البادئة بدلا من كسرها وشَدَّدُوا الياءَ بدلا من تخفيفها . وهو نفسُ النطق العربى لهذا الاسم فى القرآن ، لولا إرجاعُ الخاء العبرية كافاً على أصلها . فقد عَلِمَ العربُ من قبل أن خاءاتِ العبرية كافُ كُلُّها فلا تكاد تَجِدُ لُمَعَرَّباتِهم من تلك اللغة لفظاً لم تبْدَلْ خاؤهُ كافا.

ولكن العرب ـ أعنى مفسرى القرآن كما تجد فى تفسير القرطبى للآية ٣٧ من سورة آل عمران ـ لم يَفْطِنُوا إلى أن " زكريا " من الذِّكر ، فقالوا بعُجْمَته ولم يتصدَّوا لتفسيره ، أعنى لم يفطنوا إلى أن الزاى البادئة فيه مُبْدَلَةٌ من الذال ، وتَكَتَّمَ عليهم معنى الاسمِ رُواتُهم من أهل الكتاب ، وما كان لديهم من عبريةِ التوراة القدرُ الكافى لتحليل معانى أعلامِ التوراةِ والإنجيل . ورغم أن القرآن ـ على منهجنا فى هذا الكتاب ـ فَسَّرَ الاسمَ زكريا بأجلى بيانٍ فى موضعين اثنين كما سترى ، فما كان لديهم هذا المنهجُ الذى هدانا اللهُ إليه بفضلٍ منهُ ونعمة ، لهُ وحدَهُ الفضل والمَنُ سبحانَه .



فُسِّرَ الاسمُ "زكريا " فى القرآن مرتين : التفسير بالمُشاكَلة ـ وقد مَرَّ بك فى مقدمة هذا الكتاب ـ تجده فى قوله عز وجل : { **كهيعص . ذِكْرُ رحمةِ ربِّكَ عبدَهُ زكريا** } (مريم : ١ ـ ٢) ، وكأنها : ذَكَرَت رحمةُ رَبِّكَ عبدهُ ذاكرَ الله ، لا تجد جناساً أَبْيَنَ من هذا ولا أدقَّ ولا أجْمَل . ولكن روعةَ النغمِ المصاحبِ لجلال المعنى المنظومِ فى الآيةَ يَأْخُذُ بمجامعِك ، فتلتفتُ إلى الجناس اللفظىِّ فقط بين " ذِكْر " ، " زَكَرِيَّا " ، وتفوتُكَ المُجانسَةُ المعنوية بين اللفظين التى استبانت لَكَ الآن : زكريا = ذاكرُ الله . وسبحانَ العليم الخبير ، القائل بِكُلِّ اللغات .

أما فى المرة الثانية فقد جاء الاسم " زكريا " مُفَسَّراً بالمرادفِ الدقيق فى قولهِ عز وجل : { **هنالك دعا زكريا ربَّه قال ربِّ هَبْ لى من لدُنْكَ ذريةً طيبةً إنك سميعُ الدعاء . فنادتهُ الملائكةُ وهو قائمٌ يُصَلّى فى المحراب أنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بيحيى مُصَدِّقاً بكلمةٍ من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين . قال رَبِّ أنَّى يكونُ لى غلامٌ وقد بَلَغَنِيَ الكِبَرُ وامرأتى عاقر ؟ قال كذلك اللهُ يَفْعَلُ ما يشاء . قال رَبِّ اجعل لى آية ، قال آيَتُكَ ألا تُكَلِّمَ الناسَ ثلاثةَ أيامٍ إلا رَمْزا ، واذكُرْ رَبَّكَ كثيراً وسَبِّحْ بالعَشِيِّ والإبكار** } (آل عمران : ٣٨ ـ ٤١) . وكأنه عز وجل يقول : اُذكُرْ رَبَّكَ يا ذاكِرَ الله . والتفسيرُ هاهنا بالمرادف كالشمسِ وضُوحا ، وسبحانَ الذى عَلَّمَ بالقلم ، عَلَّمَ الإنسانَ ما لم يَعْلَم .

والذى يجب التنبيهُ إليه فى ختام الحديث عن نبى الله زكريا عليه السلام أن الصوم عن الكلام ثلاثةَ أيام سَوِيًا (وسَوِيًا يعنى سليماً معافًى لم يفقد القدرةَ على الكلام بمرضٍ أو آفة) أصاب زكريا فَوْرَ بُشْراهُ بيحيى : { **فخرج على قومه من المحراب فَأوْحَى إليهم أن سَبِّحوا بُكْرَةً وعَشِيا** } (مريم :١١) وأن هذا العجز المؤقت عن الكلام استمر معه ثلاثةَ أيامٍ فقط كما تقرأ فى القرآن . وكان زكريا قد سأل ربه آيةً يَعْلَمُ بها تَحَقُّقَ البُشرى ، أى تَحَقُّقَ حَمْلِ زوجته بالغلام المُبشَّرِ به ، والقارىءُ المتعجل يظن أن الآية هى إمساكُ زكريا عن الكلام . والصحيحُ أن الآية هى انفكاكُ لسانه فى ختام الأيامِ الثلاثة ، يعنى لما حَدَثَ الحَمْلُ انْفَكَّ لسانُه . لا يَصِحُّ القولُ الأولُ، لأن زكريا كان لا يزال قائما فى المحراب لحظةَ أصابَهُ العجزُ عن الكلام ، لم يخرج بعد إلى زوجهِ كى تَحْمِلَ منْه . وإنما حَمَلَت منهُ أثناء هذه الأيامِ الثلاثة الموقوتةِ لَهُ من الله عز وجل . وإلا لَقُلْتَ إن الحَمْلَ حَدَث قبل أن يَدْعُوَ ربَّه ، وإن اللهَ بَشَّرَهُ بشىءٍ حَدَث لا بشىءٍ سيحدُث . وهذا يُضْعِفُ المعجزة فلا يعودُ لها معنى . مُنِيَ زكريا إذن بالعجزِ عن الكلام ثلاثةَ أيامٍ فحسب ، أُوتِيَ خلالَها ـ وخلالها فحسب أيضا ـ القدرةَ على الإنجاب ، فقد عاد زكريا من بعدها مباشرةً نفْسَ الشيخِ الذى كانَه ، الواهنِ العَظْم ، البالغِ من الكِبَرِ عتيًا ، لا يُنجبُ من بعدَ ، شاهداً على إعجاز الله فيه وفى زوجه . هذا أوجهُ وأَبْيَن ، ولكنك لاتقرأ مثله فى التفاسير التى بين يديك ، فهو من الجديد الذى مَنَّ اللهُ علينا به [1] .

والذى فى إنجيل لوقا بشأن هذا الصوم عن الكلام أن زكريا طلب علامةً على تحقق البشرى فاختار له المَلَكُ آيةَ العجزِ عن الكلام على وجهِ التأديب ، لأنه لم يُصَدق البُشرى التى زُفَّت إليه . ويقول أيضا ان هذا العجز عن الكلام استمر مع زكريا منذ أن خرج على قومه من المحراب وطوال حمل زوجته بيحيى حتى وضَعَتْه ، أى تسعةَ أشهرٍ لا ثلاثَ ليالٍ ، فلم يَنْفَكَّ لسانُ زكريا إلا يومَ خِتان يحيى، أى اليومَ الثامنَ من مولده: "وفى اليوم الثامن جاءوا ليختنوا الصبى وسموه باسم أبيه زكريا. فأجابت أمه وقالت لا بل يسمى يوحنا . فقالوا لها ليس أحدٌ فى عشيرتك تَسَمَّى بهذا الاسم. ثم أومأوا إلى

(١) شاهدُك على هذا من القرآن قَوْلُه عز وجل : { **ثلاثَ ليالٍ سويا** } [مريم :١٠] يعنى لا تُكَلِّمُ فيهن الناسَ عجزاً عن الكلام ، وإن كنت فيهن أيضا " السَّوِى " بغير آفة ، حتى آفة الكِبَر .

أبيه ماذا يُريُد أن يُسَمِّى . فطلب لوحاً وكتب قائلاً اسمُهُ يوحنا . فتعجَّب الجميع . وفى الحال انفتح فَمُه ولسانهُ وتكلمَ وبارَكَ الله" (لوقا ٥٩/١ ــ ٦٣) . ولا يصح هذا لأن تَحَقُّقُ البشرى يكفى فيه حدوثُ الحمل ، فلا معنى لإسكات زكريا من بعد حتى يُولَدَ يحيى ، إلا إذا قُلْتَ كما قال لوقا إن هذا الصمتَ الجَبْرِيَّ كان من الله عز وجل على وجه التأديب ، لا على وجه التبشير ، أو قلت مُجانباً الصواب ان زكريا ما كان ليؤمنَ بتحقق البشرى إلا أن تَضَعَ زوجتُهُ حملَها بالفعل ، غلاماً يَخْتِنُهُ ويُسَمِّيه .

ولكنك تستبقى من قول لوقا فى هذا الموضع من إنجيله جملةً على جانبٍ كبيرٍ من الخطورة وهى: "فقالوا لها ليس أحدٌ فى عشيرتك تسمى بهذا الاسم" ، يعنى "يوحنا" ومصداقه من القرآن : { **ياذكريا إنا نبشرك بغلامٍ اسمُهُ يحْيَى لم نجعل له من قبل سميا** } (مريم ٧) ، فتفهم ـ مسيحياً كنت أو مسلما ـ أن هذا الاسم المعطى لهذا المولود (يوحنا فى الإنجيل أو يحيى فى القرآن) اسمٌ قد جاء على غير سابقةٍ فى أعلام العبرانيين .

وإذا عَلِمتَ أن الاسم "يوحنا" ـ وأصلُهُ العيرانىُّ " يوحَنان " ـ اسمٌ فَشَا فى أعلام اليهود قبل مولد يحيى عليه السلام بقرون ، عَجِبْتَ كيف يَعْجَبُ قومُ زكريا من هذا الاسم "يوحنا" وهو فاشٍ فى أعلامهم ، وقُلتَ جازماً مُصيباً غيرَ مُخطىء إن زكريا وزوجَهُ اليصابات لم يقولا فى تسمية ابنهما هذا الاسم "يوحنا" الذى عَجِبَ له سامعوه ، وما كان لهم أن يَعْجَبُوا ، وإنما قال زكريا واليصابات اسماً آخر أُمِرَ بهِ زكريا فى المحراب لحظةَ البُشرى بيحيى واتُّفِقَ عليه الزوجُ وزوجه منذ تحقق البشرى بحدوث الحمل وقبلَ مولد يحيى ، وأصَرَّا عليه فى مواجهة إنكارِ السامعينَ عليهما .

هذا يُفَسِّرُ لك لماذا قال القرآنُ "يحيى" التى يَعْجَبُ لها علماءُ المسيحية ، ولم يقل "يوحنا" ، رغم علمه القاطع بأن المسيحيين يقولون "يوحنا" ولا يقولون "يحيى" ، بدلالة نَصِّهِ على معنى "يوحنا " الذى لم يفْطِن إليه المفسرون .

(٥٣) يحيى

اخترنا عنوانا لهذا الفصل كما رأيت : " المصَدِّقُ والبَشير " ، وهما أبرزُ أعلامِ هذا الفصل ، وأيضا أبرزُ أعلام المسيحيةِ أجمَع الذين نَخْتَتِمُ بهم هذا الكتاب .

أما " المصَدِّقُ " فهو يحيى عليه السلام ، المُصَدِّقُ بعيسى الذى هو كَلِمَةٌ من الله ، لقوله عز وجل فى يحيى : { **فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أنَّ اللهَ يُبَشرُكَ بيحيى مُصَدِّقاً بكلمةٍ من اللهِ وسَيِّداً وحصوراً ونبياً من الصالحين** } (آل عمران ٣٩) .

وأما " البشيرُ " فهو المسيحُ بنُ مريم ، عيسى صلواتُ اللهِ عليه ، المبشِّرُ بخاتم النبيين ، لقوله عز وجل : { **وإذ قال عيسى بن مريم يابنى إسرائيل إنى رسولُ اللهِ إليكم مُصَدِّقاً لما بين يَدَىَّ من التوراة ومُبشِّراً برسولٍ يأتى من بعدى اسمُهُ أحمد ، فلما جاءهم بالبيناتِ قالوا هذا سِحْرٌ مبين** } (الصف ٦) .

وفى الأناجيل التى بين يديك أن مريم عليها السلام حَمَلت بعيسى عُقَيْبَ حَمْل خالتها المعُجِز بيحيى ، فكان يحيى وعيسى ابْنَىْ خُؤولةٍ متعاصرَيْن ، بُعثَ يحيى أولاً ثم أعقَبَهُ عيسى ، فَشَهِدَ كُلٌّ منهما للآخر بالنبوة ، يعنى كان يحيى مُصَدِّقاً بعيسى على نحو ما تقرأ فى القرآن . ولكنك لا تقرأ فى الأناجيل التى بين يديك بشارةً من المسيح باسم خاتم النبيين صريحا ، مُحَمَّداً أو أحمد ، وإنما تقرأ فى الأصول اليونانية لتلك الأناجيل أن المسيح بَشَّر بإنجيل الله (مرقس ١ / ١٤) (لا بملكوت الله كما تقول الترجمة العربية Kerusson to euaggelion tou theou فى نفس الموضع كما مر بك) . وأنت تعلم بالطبع أن euaggelion اليونانية (المُحَلاَّة فى النص اليونانى بالبادئة -eu ومعناها الخَيِّرة) تُفيد معنى " الرسول " ، فتفهم كمسلم ـ على ما يأتى فى موضعه ـ أن " إنجيل الله " الذى بَشَّرَ به عيسى فى هذا

النص اليونانى euaggelion tou theou هو "رسولُ الله " الخِيرةَ ، أى صفوةُ الرسل وإمامُهم ، محمدُ بنُ عبد الله ، الذى خُتِمَت به النُّبُوَّة والرسالة ، صلوات الله وسلامُه على جميع رُسُلِه و أنبيائه ، وعلى كل من تَبِعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين .

ولكن الذى نتوقف عنده فى هذا السياق هو إعجازُ النبوءة التى تضمنتها البشرى بيحيى عليه السلام ولم يُولَد بعدُ عيسى ولم يُحْملْ به : إنها بشارةٌ صريحة لزكريا بمولد عيسى عليه السلام ، أسبق من بُشرى جبريلَ لمريم بمولده ، وأيضا إنباءٌ بأن محور رسالة يحيى هو التصديقُ بعيسى ، كالذى كان ، وسبحانَ علام الغيوب . ولا تفوتُك تلك الصياغةُ المُعْجزة التى فى قوله عز وجل " مُصَدِّقا بكلمةٍ من الله " ، فهو كَلمَةٌ منه سبحانه ، لا كَلمَةُ الله ، ولا " الكَلِمة " على التعريف الذى يفيد الحصر ، كما يُخطِىءُ فيها كثيرون ، مسلمون وغيرُ مسلمين ، عرب وغير عرب ، والفَرْقُ كما ترى بين المعنين جدُّ كبير .

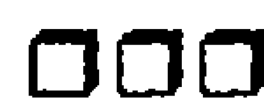


تَجِيءُ "يَحْيَى" عربياً على مضارع المفرد المذكر الغائب من الجذر العربى "حَيَا" ، فمعنى الاسمِ " يحيى " الذى فى القرآن هو إذن ـ عربياً ـ " الذى يَحْيَى" .

وللجذر"حَيَا " العربى (ويُرْسَمُ أيضا "حَيَى / يَحْيَى" كما يرسم "حَيَا / يَحْيَا") معنيان : المعنى الأول من الحياة نقيض الموت ، تقول : لن أنسى لك هذا الصنيعَ ما حييت ! يعنى ما دُمتُ حياً لم أمت . والمعنى الثانى للجذر العربى "حيا" من الحياء بالهمزة ، أى الاحتشام . تقول بهذا المعنى الثانى : حييت منه، تريد استَحَيْتُ وخَجِلت. وأصلُهُ ـ أى الحياء ـ من الانقباض والانزواء ، ومنه قيل للأفعى حَيَّة ، لأنها تنقبض حين تستدير على نفسها كهيئة القرص .

والراجحُ عندى أن حَيَا حياءً لا حياة ، مُبْدَلٌ من الجذر العربى الآخر "حَوَى" بالواو ، الذى يقال منه : تحَوَّت الحيَّة ، أى تجمعت واستدارت ، فهى فى الأصل "حَوِيَّة" أبدلت "حَيَّة "

والذى يعنينا الآن هو : إذا كان الاسم "يحيى" فى القرآن من الجذر "حَيَا" فبأىٌّ المعنيين هو ، أبمعنى الحياءِ أم بمعنى الحياة ؟



نص القرآن على أن الاسم "يحيى" من الحياء، لا من الحياة ، بقوله عز وجل {**إنَّ الله يبشرك بيحيى مصدِّقا بكلمةٍ من الله وسيدا وحصوراً** } (آل عمران : ٣٩)، فهو عليه السلام الحَيِيُّ بمعنى الحصور، أى الحَيِيُّ الذى يحيا حياءً.

ولفظة الحصور فى اللغة لها وجهان : الذى يَكُفُّ نفسهُ عن شهوة النساء مع وجود القدرة ، والثانى هو المكفوفُ عن النساء بآفةٍ تقطعُ فيه هذه الشهوة . ويحيى بالمعنى الأول ، لا بالمعنى الثانى، لأنه الذى يَحْيَا ، والذى يحيا إنما يَحْيَا حياءً لا عجزا، والعَنينُ المجبوبُ لا يجدُ الشهوةَ أصلاً حتى يحيا ويَعفَّ . وما كان لنبيٍ أن تكون به آفة ، فما بالُكَ بآفةٍ يسميه اللهُ بها فضلاً وتشريفا، على ما مر بك من أن الله عز وجل هو الذى سَمَّى، على غيرِ سابقةٍ سُمِعَت فى أعلام العبرانيين: {**يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا** } (مريم : ٧) . بل قد تَقَدَّمَت على صفة "الحصور" فى يحيى صفةُ "السيد" ، فى قوله عز وجل {**وسيداً وحصورا** } (آل عمران : ٣٩) ، وما كانت الناسُ لتُسَوِّدَ عنيناً أو مجبوبا ، حاشا لأنبياء الله أن تكون . والذى قلناهُ الآن بمنطق اللغة فحسب ، أى أن الذى يَحْيَا إنما يَحْيَى حياءً ، كافٍ بذاته لقطع دابر إسفاف الرواة ـ الذى حكاهُ [1] عنهم القرطبى رحمه الله فى تفسيره الآية ٣٩ من سورة آل عمران ـ ولا عليك من إسفاف الرواة .

بل كان يحيى صِنْوَ عيسى عليهما السلام : كلاهما بُعِثَ فى رَيْعان الشباب وَرِئْيِه وحُسَيْناه . ولم يلبثا فى قومهما إلا قليلا حتى قبضهما الله إليه ، لا زوجَ ولا أبناءَ ، فقد شُغلا بقصر الرسالة عن هذا وذاك . وربما قلتَ ان الله شاء برحمته ألا تكون لأيهما ذُرِّيةٌ يفتتنُ بها الناس ، أو كى لا يقال إن اللاهوت فى المسيح على قولِ من قال يَمْنَعُ من إتيان النساء ، فيقال له قد كان يحيى أيضا على هذا المثال ، أى كانَ يحيى وعيسى كلاهما حصورا ، لا يحيى وحده ، وهذا مقطوعٌ به عند المسيحيين جميعا بلا خلاف ، ودَعْك من تَخَرُّصِ المُجَّانِ بأقاصيصِ يحيى وسالومى ، وخوضهم فى المسيحِ والمجْدَلِيَّة ، فهذا من عورات هذه الحضارة ، التى تطاولت فاستباحت باسم "حرية القول" الاجتراء على مقام النبوة والنبيين .

---

(١) قالوا كان " إحليلُهُ " كالقَذَاة ـ والإحليلُ مجرى البول يُكَنَّى به عن الفَرْج للرجل والمرأة ـ قاسوه على الناقة الحصور لا يَقْرَبُها الفحل لضيقِ إحليلها خِلقة . فأى خِفةٍ وأى إسفاف .

هذا هو اسم " يحيى " عليه السلام فى القرآن ، عربى ليس فيه شُبْهَةُ عُجْمة ، جاء بصورة مضارع المفرد الغائب المُرادِ منهُ اسمُ الفاعل كما جاءت يَثْرِب ويزيد ، فهو الحَيِيُّ حياءً . وقد عجب علماء المسيحية لمجيء القرآن بهذا الاسم ، وهو عندهم "يوحنا" كما مر بك . ولكن " يُوحَنَّا " هذه نفسها أيضا مُنْكَرَةٌ عند آل زكريا أبى يحيى ، الذين راجعوه فى تسميته بالاسم يوحنا لأنه عندهم اسمٌ لم يَتَسَمَّ بهِ من قبل أحد فى عشيرتهم كما يَروى لوقا فى إنجيله ، وقد مر بك . وقد عَجِبْتَ أنت أيضا لإنكارهم هذا الاسم " يُوحنا " ، رغم فُشُوِّهِ فى أعلام العبرانيين بصورة أخرى هى "يُوحَنَان" . وعلماء المسيحية يقولون لك ان " يُوحَنَّا " هى نفسها " يُوحَنان " ، دليلُك فى هذا أنهم فى ترجماتهم الأناجيل إلى العبرية لا يقولون قط " يُوحَنّا " ، وإنما يقولونها على أصلها العبرى " يُوحَنَان " . وهم أيضا يفسرون معنى "يوحنا" بنفس معنى "يوحنان" ، البادئة المشتركة فيهما "يو" مختصر "يهوا" اسم الله فى العبرية ، أما "حنان" و "حَنَّا" فهما كلتاهما مصدرٌ من الجذر العبرى ـ الآرامى " حَنَنْ " (نفس الجذر العربى " حَنَّ ") والمعنى أنه " حَنانٌ من الله " ، تماما كالعلم العبرى الآخر "حَنَانيا" ، أى هو يُو + حَنَان ، قُدِّمَ فيهِ اسم الله عز وجل على التعظيم .

تُرَى أكان عَجَبُ آل زكريا لهذا الاسم " يُوحَنَّا " لأنهم لم يدركوا أن "حَنَّا" معناها "حنان" ؟ كيف ، وعندهم " حَنَّا " بمعنى " حَنَان " (وتُرْسَمُ أيضا فى الترجمات العربية "حَنَّة") اسم خالة يحيى أم مريم عليها السلام ؟

لا منطق فى هذا القول بالطبع . وإنما كان عَجَبُ آل زكريا من هذا الاسم "يوُحَنَّا" حين أَمْلَتْهُ عليهم اليصابات أُمُّ يحيى ، أنهم سَمِعُوهُ منها بنُطق مُغاير لم يَطْرُق آذانهم من قبل : سَمِعُوهُ "يُوحَنَّى" بالكسر فى الياء على الإمالة ، لا بالفتح ، تماما كما أثبتها بالكسر فى الياء كَتَبَةُ الأناجيل فى الأصل اليونانى Ioannes يُوَنِّس ، لا Ioannas يُوَنَّس (السين فى الحالتين هى سين الرفع اليونانية) . ولا يصح لك العدول عن هذا النطق الإنجيلى الأصلى فى لغته الأصلية ، فهو العُمْدَةُ فى هذا الباب ـ أعنى الأسماء الأعلام بالذات ، فهم رُواةُ المسيحية الأوائل ، سَمِعُوا أو عايَنُوا ، بل قد كان منهم ـ لا سيما مَتَّى الحَوارِى ومرقس تلميذُ بطرس رئيس الحواريين ـ من عاصَرُوا يحيى عليه السلام وسَمِعُوا منه ونَادَوْهْ . نعم ، قد ذَهَبت حاءُ " يُوحَنَّى " فى الرسم اليونانى ، لأن اليونان لا يستطيعون الحاء ، ولكن ما العلة فى عُدولهم عن المد بالألف إلى الإمالة

بالكسر ، وقد قالوا فى يونس Ionas ولم يقولوا Iones ؟ لا عِلّةَ بالطبع إلا أنهم سَمِعُوهُ هكذا : يُوحَنِّى لا يُوحَنَّا .

أما الذى نتوقف عنده لِنُسَبِّحَ معاً العليمَ الخبير القائل بكل اللغات ، فهو أن "يُوحَنِّى" هذه (التى تستطيع أن ترسمها أيضا " يُحَنِّى ") بالكسر على الإمالة فى آخره لا بالفتح ، تُفيد فى العبرية ـ الآرامية معنى " اللهُ أَحْصَرَ " فهو الحصورُ التى فى القرآن !



فى عبرية التوراة ، وفى العبرية المعاصرة ، وفى الآرامية أيضا ، الجذر "حَنَا" غيرُ مُشَدَّدِ النون ، تقول منه عبريا وآراميا على سبيل المثال : "حَنَا عَلْ عِير" ("عير" يعنى المدينة)، أى ضَرَبَ عليها الحصار . فهو بمعنى حَصَرَهُ وصَرَّاهُ وضَيَّقَ عليه [١].

والمُشَدَّدُ من هذا (أى زِنَةَ فَعَّلَ العربى) هو" حَنِىٌّ " بكسر الحاء فى العبرية وبفتحها فى اللهجة الآرامية [٢] التى غَلَبت على ألسنة الناس فى ربوع فلسطين منذ ما قبل عصر المسيح بثلاثة قرون على الأقل . والمعْنَى هو " شَدَّدَ الحصر عليه " .

على هذا يكون معنى "يوُ + حَنِّى" (بإضافة "يو" مُختصر اسم الله عز وجل فى العبرية) هو" اللهُ أَحْصَرَ " بمعنى " الذى أَحْصَرَهُ الله " ، فهو الحَصُور التى فى القرآن .

والذى يَدُلكَ على أن " يوحنا " لا تصح عبريا بمعنى "يوحنان" الاسم العَلَم الفاشى فى أعلام العبرانيين ، أن علماء العبرية المسيحيين لم يستجيزوا "يُوحَنَّا" فى موضع "يوحنان" عندما ترجموا الأناجيل اليونانية الأصل إلى العبرية ، بل رفعوا "يُوحَنّا" ووضعوا فى موضعه "يوحنان" . أعنى أنهم فهموا " يوحنا " بمعنى "يوحنان" فترجموا "يُوحَنَّا" إلى "يوحنان" عبرياً بعبرى ، فهم قد قَرَءوها فى النص اليونانى "يُوحَنِّى" ، فاستشكلَ عليهمُ المَعْنَى كما استشكل من قبل على آل زكريا يوم أَمْلَتْهُ عليهم اليصابات على الحرف الذى سَمِعَهُ زكريا من الملائكة فى المحراب ، فَقَرَّبُوه إلى

(١) راجع هذا على المعجم " هَمِّلُون هِحَداش لَتَناخ " عبرى/ عبرى ، مادة " حَنَا " .

(٢) راجع هذا الوجه فى المعجم العبرى الآرامى لألفاظ التوراة ، المرجع المذكور ، شروح على تصاريف الأفعال ، فى صدر الكتاب ، ص ٢١ .

"يوحَنَّا" وترجموا "يوحَنَّا" إلى يوحنان ، العَلَم العبرانّى المألوف لهم ، تماما كما فعل السريان فى أناجيلهم التى ترجموها كما تعلم عن اليونانية مباشرة ، ولكن المنطق السريانى يستسيغ " يُوحَنَّا " لختامها بألف المد ، التى تبدو كأنها أداةُ التعريف الآرامية كما مر بك ، فأخذوها على أنها ترخيم "يوُ + حَنانَ + ا" ، تؤول إلى "يُوحَنَنَا" فإلى "يُوحَنَّا" .

ولعلك تجد معنى الحصور الذى أحصره الله فى قول المسيح عليه السلام : "فقال لهم ليس الجميع يقبلون هذا الكلام بل الذين أُعْطِىَ لهم . لأنه يوجد خِصيانٌ وُلِدوا هكذا من بطون أمهاتهم . ويوجد خصيانٌ خَصاهم الناس . ويوجد خِصيانٌ خَصَوْا أنفسَهُم لأجل ملكوت السموات. من استطاع أن يَقْبَلَ فلْيَقْبلَ" (متى ١٩/١١ ـ١٢) وهذا من معنى "يُوحَنّى" أى يحيى عليه السلام جِدُّ قريب ، ولكن لم يلتفت إليه فى تفسيرِ مَعْنَى هذا الاسم أحد .



ولكن القرآن المعجز الذى عَلِمَ هذا كُلَّه من قبل ، جاء بالاسم "يَحْيَى" على الترجمة لمعنى الحصور الذى فى "يوحَنّى" التى فى الأناجيل اليونانية . ولم يَفُتْهُ أيضا معنى الاسم الشائع عند معاصريه : يوحَنا = يُوحَنان = حَنَانٌ من الله . فقال عز وجل : { **يا يَحيَى خُذِ الكتابَ بقوة ، وآتيناهُ الحُكْمَ صبيا . وحنانا من لَدُناً وزكاةً ، وكان تَقِيا** } (مريم : ١٢ ــ١٣) وقد فاتت على مفسرى القرآن "حنانًا من لدنا" هذه التى هى طبق الأصل من "يوحنان" المبدلة من "يوحُنا" ، فقد رَوَى القرطبى فى تفسيره للآية ١٣ من سورة مريم عن ابن عباس رضى الله عنه قوله : "لا أدرى ما الحنان" ، يعنى لا يدرى موْضعَها ووجهَ دُخولها فى الآية ، أما أنت فلا أحسب أنها تفوتك الآن ، بل ولا أظنّها تفوتك أيضا عبارةُ " وكان تقيا " فى الآية ، وهى من معنى يَحْيَى الحَيِيِّ الحَصُورِ قريب . وسبحان العليم الحكيم .

(٥٤) عمـــران

"عمرانُ " المَعْنِىُّ فى القرآن هو والدُ مريم أم عيسى ، يعنى جَدُّ المسيحِ صلواتُ الله عليه . ولكن الأناجيل التى بين يديك لاتَنُصُّ على اسم أبى مريم . والمشهور أنه مات قبل مولدها عليها السلام ، فلم يشهد ولادتها ولم يُسَمِّها ، بل سَمَّتْها والدتُها كما تقرأ فى القرآن ، ولكن الله عز وجل { كَفَّلَها زكريا } (آل عمران : ٣٦ ــ ٣٧) ، وزكريا هو أبو يحيى ، زوج اليصابات ، خالة مريم .

ولأن الأناجيل لم تحفظ لك اسم أبى مريم ، لا تقول عمران ، ولا تقول أيضا باسم له غير عمران ، فقد عَجبَ أدعياءُ الاستشراق المنكرون الوحى على القرآن لقوله : { **ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدَّقت بكلمات ربِّها وكُتُبِه وكانت من القانتين** } (التحريم : ١٢) . فمن أين جاء القرآنُ باسم أبى مريم ولم تُسَمِّه الأناجيل ؟ لابُد قد شُبِّهَ لَهُ ولُبِّسَ عليه ! لأن القرآن عند هؤلاء الأدعياء ليس متهماً بالنقل عن أهل الكتاب فحسب ولكنه أيضا ـ كَبُرَت كلمةً تخرج من أفواههم ـ مُتَّهَمٌ على الأخص بالخلطِ والتخليط : قد عَلَمَ محمدٌ (صلى الله عليه وسلم) باسم عِمران أبى موسى وهرون فى التوراة (واسمه عَمْرام فى النص العبرانى) فأسقط اسم عمران أبى موسى على أبى مريم ، التى خَلَط من قبلُ بينها وبين " مِرْيام " ابنة عمران ، أخت موسى وهرون ، فقال على لسان قوم مريم أم عيسى عليهما السلام : { **يا أخت هرون !** } (مريم : ٢٨) يَحْسَبُها أختاً لموسى وهرون ابنَىْ عِمْران (عَمْرام فى النص العبرانى) وبين موسى وعيسى ثلاثة عشر قرناً على الأقل. ولا يليقُ هذا بمستشرقين " عُلماء " يُظَنُّ بهمُ العلمُ وتفتَرَضُ فيهم نزاهةُ البحث فيتتلمذُ عليهم الناس ، ناهيك بمن اتخذوهم أئمة مطلعَ القرن العشرين فى مصر بالذات .

فقد مر بك من قول لوقا فى إنجيله ، يَصفُ اليصابات زوجَ زكريا أبى يحيى : "وامرأته من بنات هرون واسمها اليصابات" (لوقا ١/٥) ، ولم يَقُلْ أحدٌ بالطبع أن اليصابات زوجُ زكريا أبى يحيى ـ التى يفصل بين حملها بيحيى وبين حمل مريم

بعيسى ستة أشهر فقط كما سطَّرَ لوقا فى إنجيله (لوقا ١/٢٦ ـ ٣٦) ـ كانت ابنةً لهرونَ أخي موسى ابنَيْ عمران ، لقول لوقا إن اليصابات كانت من" بنات هارون" ، وإنما فَهِمَ أهلُ الإنجيل على الفور من عبارة لوقا " بنات هرون " هذا الذى استغلظ على أدعياء العلم فَهْمُه من عبارة القرآن " أخت هرون" ، فهم يقرءون فى سفر الخروج بالعهد القديم أن الكهانة جُعِلَت ميراثا فى سِبْط هرون أخي موسى ، حتى صارت الهارونية عَلَماً على السالكين فى سِلْكِ هرون أصحاب الكهانةِ والسِّدانة .

ولا تستطيع أن تقول ان أدعياء الاستشراق المنكرين على القرآن قوله "أخت هرون" جهلوا هذا ، فهم إما يهودٌ وإما نصارى وإما مُلحدونَ وُلِدُوا فى إحدى هاتين الملتين ، وإنما تقولُ جازماً مصيباً غيرَ مخطىء ، أنهم دلَّسوا عليك ، فَدَلَّسُوا على أنفسهم . وتلك من العالِمِ بالذات زَلَّة لا تُغتفر ، لأنها تمْنَعُكَ من التتلمذِ عليه وأخذِ العلمِ عنه .

وقد كان أدعياءُ الاستشراق هؤلاء كُلُّهم هذا العالِمَ المُدَلِّس، كلما خاضوا فى القرآن بقول أو أرادوا سوءاً بأهله . وكانوا يظنون أن عبثهم هذا بمنجاةٍ أن يُفْتَضح ، فقد جمعوا بين ضِغنهم القديم على القرآن وبين الاستهانة بأهله ، لا يَرَوْنَهم أهلا لحجاجهم أو تحقيق مقولتهم ، ولكن الله عز وجل يُقَيِّضُ لهذا القرآن إلى يوم القيامة من أهلِهِ فى كُلِّ قرنٍ من يَذُبُّ عنه ، له الفضلُ والمنُّ ، والحمدُ للهِ وحدَه .

وقد كان عُذر التلاميذ الذين افتتنوا بهؤلاء " الأساتذة " مطلعَ هذا القرن هو ضخامةَ الجُهد الذى بذلهُ هؤلاء المستشرقون فى أبحاثهم ، إنْ أنكرتَ بعضَه فلا تَمْلك إلا أن تُجِلَّ بعضَه ، فأصابت التلاميذَ الفُسولة ، وقَعَدت بهم هِمَّتُهم عن تتبع مقولةِ المستشرقين فى مصادرهم . فلما شَبَّ التلاميذ عن الطوْق ، واستقلوا بأبحاثهم ، كان الوقتُ قد فات ، فقد ترسخت مقولةُ الاستشراق وتَحَصَّنت بما يُشبهُ القداسة . وربما عَزَّ على الأشياخ فى مجتمعكَ من بعد أن يراجعوا أنفسهم فيما نقلوه من قبل عن هؤلاء المستشرقين وكتبوه ، بل وطنطنوا بهِ فى صدر الشباب وزَهْوِهِ ، وشِرَّته . بل لا تزال فى مجتمعك بذرةٌ من هؤلاء التلاميذ ، ورثوا تعظيمَ الاستشراق ، يحاجُّون عنه فى الغث والسمين ويلتمسون لأهله العلة ، ويدفعون عنهم ظنَّ السوءِ والتُّهْمة . وربما عَز على هؤلاء ما نقولُهُ الآن ، وأبَواْ عليك اتهامَ المستشرقين المنكرين على القرآن قولهُ فى مريم

أم عيسى " أختَ هرون " [1] ، بالتدليس . ولكنك ما أن تُعْفى من تُهمة التدليس هذا المستشرق وأضرابَه الذى أنكروا على مريم أم عيسى " أُخُوَّةَ هرون " ، حتى تُضطر اضطراراً إلى اتهامه هو وإخوته بالجهل الفاضح ، لأنه لم يفهم معنى "أُخُوّة هرون" عند أهل التوراة الذين ينقل القرآنُ مقولتهم لمريم عليها السلام أم المسيح صلواتُ الله عليه. والجهلُ أهونُ من تعمد التدليس ، ولكن الجهلَ من عالمٍ أو مُدَّعى علمٍ يَصْرِفُكَ عن التتلمذ عليه ، أو الاعتداد بمقولته ، إلا أن تُراجعَهُ فيها ، فَتَرُدَهُ إلى جادَّة الصواب إنْ أخطأ وتَقْبَلَ منه إن أصاب . ولكنك لا تأخذ من هذا العالِم أو مُدَّعى العلم شيئاً قط يقولُهُ فى القرآن ، الذى يُحاجُّ القرآن بالتوراةِ والإنجيل ، ولا يَعْلَمُ عِلْمَ ما فى التوراةِ والإنجيل .

بل لا يَعْلَمُ هذا المُدَّعِى العِلْم عِلْمَ ما فى القرآن الذى تَصَدَّى لحجاجه ، وإنما هم يأخذون منه نتَفَاً من هنا أو هناك كيفما اتفق ، ولو قرءوا القرآنَ كما تَجبُ قراءةُ القرآنِ لخجلوا من أنفسهم كيف ادَّعَواْ عليه الجهلَ ببُعْدِ ما بين موسى وعيسى عليهما السلام حتى يَخْلطَ ما بين مريمَ ابنة عمرانَ أم عيسى وبين "مرْيام" ابنه عمران أخت موسى وهرون، وهو يَعْلَمُ أنَّ رسول المسيحية جاء بالإنجيل بعد ما جاء موسى بالتوراة، فكيف يتعاصران. بل كيف يتعاصران وبينهما جَمٌّ غفيرٌ من الرسل: {**ولقد آتينا موسى الكتاب وقَفَّيْنا من بعده بالرسل ، وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناهُ بروح القدس أفكلما جاءكم رسولٌ بما لاتهْوَى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذَّبتم وفريقا تقتلون**} (البقرة : ٨٧) وقولُهُ عز وجل فى عيسى آخرِ رسلِ الله إلى بنى إسرائيل: {**ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوةَ والكتاب فمنهم مهتدٍ وكثيرٌ منهم فاسقون. ثم قَفَّيْنا على آثارهم برسلنا، وقَفَّينا بعيسى بن مريم**} (الحديد : ٢٦ ـــ٢٧) أى قَفَّينا بعيسى بن مريم ختاماً لجميع أنبياءِ بنى إسرائيل، فكيف يكون موسى هو خالَه؟

الذى يبلغ من فقهه بديانة اليهود أن يَعْلَمَ معنى "أخت هرون" ومدلولها فى مصطلحات اليهود ومُواضَعاتِهم، لا تستكثر على واسعِ علمه أن يُعَلِّمَكَ من قد كان أبو مريم أم عيسى عليهما السلام ، عمرانُ غيرُ المذكورِ بالاسم فى الأناجيل. قد قالها القرآنُ " عمران " ولم يَقُلْها غيرُه ، عالمُ الغيبِ والشهادة ، أَبْصِرْ بِهِ وأَسْمِع .

(١) راجع قولَ المُنكرين أخوةَ هرونَ وأُبُوَّةَ عمران على سبيل المثال فى J. Horovitz المرجع المذكور، ص ١٠، ١٥.

ليس أمام المنكرينَ أُبُوَّةَ عمران لمريم عليها السلام أمْ المسيح صلواتُ الله عليه ، إلا أن يأخذوا من القرآن اسم أبى مريم ، فلا مَصْدَرَ أمامَهُم فى هذا غيرُ القرآن ، والقرآنُ لو عَلموا مَصْدَر أىُّ مَصْدَر . أو يأتوا لعمران جد عيسى عليه السلام باسم آخر، مُحَرَّراً مُوثَّقا . وإلا فليصمتوا هم والمنكرون أُخُوَّة هرون على مريم بعد نشر هذا الكتاب ، صمتاً طويلا .



من بين ما يستوقفُكَ فى القرآن ـ والذى يستوقفُكَ فى القرآنِ كثير ـ أنَّهُ لايجىءُ قط باسم نبىٍ من الأنبياء على النسبِ لأبيه ، كأن يقول مثلا : موسى بن عمران ، وإنما يقول موسى فقط ، أو هوداً فحسب ، لا يَنْسِبُ هذا أو ذاك ، لأن النبىَّ أشهرُ من أن يُعْرَفَ بأبيه ، ولأن القرآن لا يهتمُّ أصلاً للنسب ، خلافا لما تقرأ فى العهد القديم ، إلا أن تعلم من القرآن اسم الأب فى سياق حديثِ الابنُ فيه نَبىٌّ صنْو أبيه ، كما فى داود و سليمان ، وكما فى إبراهيم وبنيه ، إلا أن يريدَ القرآنُ الإدلال بعلمه وإعجازه ، فيسمى لك " آزر " أبا إبراهيم : {**وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر**} (الأنعام:٧٤) ، وما كان أغناهُ عن " آزرَ " هذه ، ولو أسقَطَها من سياق الآية لجاز ، ولما اختلَّ وزنٌ أو نَظْم ، ولكنه أراد منها إعلامَ أَهل الكتاب ما لم يَعْلَمُوه ، أو يُفَسِّرُ لهم بها معنى " تارح " اسم أبى إبراهيم فى سفر التكوين . ومن هذا أيضا قوله : {**ومريمُ ابنة عمران** } (التحريم : ١٢) ، لا يريد منها إلا الإدلال بعلمه وإعجازه ، يُسَمِّى لهم بها أبا مريم ـ جَدَّ عيسى عليه السلام ـ غيرَ المذكور بالاسم فى الأناجيل .
أما المسيحُ عليه السلام فهو استثناءٌ وحيدٌ من كل هذا الذى قلناه : قلما يجىء به القرآن إلا منسوباً إلى والدته "أمة الرب" مريمَ الصديقة "أخت هرون" ، الهارونية ، أى السالكة فى سِبْطِ هرون ، الكهنةِ سَدَنَة هيكلِ الرب ، فلا يَنْفَكُّ القرآن يقول : عيسى ابن مريم ، حتى فى خطابِ الله عز وجل إياه : { **وإذ قال اللهُ يا عيسى بنَ مريم** } (المائدة : ١١٦) . وما ذاك إلاّ على التشريفِ لمريمَ عليها السلام ، التى صدَّقت بكلماتِ ربِّها يومَ نفخ فيها جبريل ، وإذكاراً بإعجازِ مولدِ عيسى : أنه ابنُ مريمَ فحسب ، لا أبَ لَهُ سِواها ولا أم .

والذى أريد أن أصل بك إليه هو أن القرآن لا يَدُلُّكَ على اسم أبى موسى وهرون، المدعُوّ "عَمْرام" فى النص العبرانى لأسفار التوراة ، فلا تقطع من القرآن بلفظ هذا الاسم لو عَرَّبَهُ القرآن ، أيجىء على أصله العبرى فى التوراة "عَمْرام" ، أم يصير إلى "عمْران" فيكون سَمِيًّا لجد عيسى عليه السلام فى القرآن؟ لاسبيلَ إلى هذا بالطبع من القرآن لأنه لم يُسَمِّ أبا موسى وهرون .

ولكنك لا تتلبثُ طويلا عند هذا ، فقد قرأتَ من حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم تسميةَ أبى موسى وهرون : "وأيْمُ اللهِ لو سَمِعَ بى موسى بنُ عمران لما وَسِعَهُ إلا اتباعى !" فتوقن أن الإسمين واحد . عِمران التى فى هذا الحديث ، وعمرام التى فى التوراة .

وإذا كان الأمرُ كذلك ، وهو كذلك بالفعل ، فهل جاءت "عِمْران" على ألسنة العرب تعريباً للاسم العبرانى "عَمْرام" ، أعنى أن "عَمْرام" هى الأصل الذى جاءت منه عِمْران، أم العكس ، أى أن "عِمران" هى الأصل الذى تَحَوَّرَ على ألسنة العبرانيين إلى عَمْرام ؟

إذا كانت عِمْران هى الأصل فهذا يعنى أن عِمْران التى فى القرآن عربية ، تُفَسَّرُ بالعربية وحدها . أما إذا كانت عَمْرام اسم أبى موسى فى التوراة هى الأصل فهذا يعنى أَحَدَ أمرين : إما أن عِمْران التى فى القرآن عربيةٌ أيضا يُتَرْجِمُ بها القرآنُ عَمْرام التى فى التوراة ومن ثم تُفَسَّرُ أيضا بالعربية وحدها ، وإما أن عِمْران التى فى القرآن ليست عربية وإنما هى تعريبُ لفظيٌّ لصنْوِها فى التوراة " عَمْرام " فلا يتسنى تفسيرُ عِمْران التى فى القرآن إلا بفهم صِنْوِها العبرى "عَمْرام" .

ولأن عمران جدٌّ عيسى عليه السلام فى القرآن رَجُلٌ من بنى إسرائيل ، بل هو من سبط لاوى بالذات ، سبط موسى وهرون ابنَىْ عَمْرام الذى فى التوراة ، فأنت تقطعُ بأن اسمه كان يُلْفَظُ بين أهلِهِ وعشيرته عَمْرام ، لا عمران التى جاءت فى القرآن إما على الترجمة وإما على التعريب . لهذا يتعين استقصاءُ وجوهِ معنى عمران العربية قبل الانتقال إلى فهْمِ معنى عَمْرام ، اسم أبى موسى وهرون ، عند علماءِ العبريةِ وعلماءِ التوراة .

□□□

وردت "عمران" فى القرآن ثلاثَ مراتٍ فحسب ، كُلُّها فى جَدٍّ عيسى عليه السلام ، لا فى أبى موسى وهرون . وهى فى المرات الثلاث لم تَأت قط منفردة وإنما على الإضافة فحسب : "آل عمران" ، "امرأة عمران" ، "ابنة عمران" . تجد هذا فى قوله عز وجل : { **إن الله اصطفى آدمَ ونوحاً وآل إبراهيم وآل عِمْران على العالمين . ذُرِّيةً بعضُها من بعض واللهُ سميعٌ عليم** } (آل عمران : ٣٣ ــ٣٤)، سميعٌ لدعوة إبراهيم فى إمامة الناسِ من بعده ، عليمٌ بالصالح من ذرية إبراهيم لهذه الإمامة . وقوله عز وجل : { **إذ قالت امرأةُ عِمْران رب إنِّى نذرتُ لك ما فى بطنى مُحَرَّراً فتقبل منى إنك أنت السميعُ العليم** } (آل عمران : ٣٥) ، أى نَذَرْتُ ما فى بطنى لخدمة الرب ، خالصاً لهذه العبادة ، فتقبل منى النَّذْرَ الذى تَعْلَمُ إخلاصى فيه ، فأنت السميعُ لما أعْلَنْتُ ، العليم بما أسرَرْت . وقوله عز وجل يُزَكِّى مريمَ عليها السلام مع امرأة فرعونَ مثلاً للذين آمنوا: { **ومريمَ ابنةَ عِمْران التى أحصنَت فرجَها فنفخنا فيه من روُحنا وصَدَّقت بكلمات ربِّها وكُتُبِه وكانت من القانتين** } (التحريم : ١٢) .

ولقد قال مفسرو القرآن (راجع تفسير القرطبى للآية ٣٣ من سورة آل عمران) ، إن "عِمْران" عربية ، مُنعَت من الصرف فقط لزيادتها بالألف والنون ، فهى من الجذر العربى "عَمَرَ " الذى تعددت أعلامُ العرب منه : عَمْرو (وأصلها "عَمْر" زيدت بالواو فى الرسم لا فى اللفظ فارقاً بينها وبين "عُمَر") ، عُمَر (وهى زِنَةُ مبالغةٍ من "عامر") ، عامر ، عمارة ، عمير ، وأيضا " عِمْران " هذه نفسها التى سُمِعَت فى أعلام العرب قبل القرآن . وفى العربية أيضا الاسم العلم "عَمَّار" (ومنهَ عَمَّار بن ياسر رضى الله عنه وعن الصحابة أجمعين) .

ولكن مفسرى القرآن ـ ترتيباً على عربية "عمران" ـ لا يفسرون لك معنى هذا الاسم العَلَم فى العربية ، شأنَهم فى كل علمٍ عربىٍ وردَ فى القرآن ، لأنهم يفترضون فيك العلمَ بمعناه ، تستخلِصُهُ من كافة معانى مادة ع / م / ر العربية ، تنتقى منها الوجهَ الذى تَشاءُ فى تفسير الاسم "عِمْران" جد عيسى صلوات الله عليه. ربما قلتُ إنه من " العُمْر" بمعنى مدة الحياة ، وربما قلت إنه من العُمران ضد الخراب ، أو من المأهولِ نقيض القَفْر ، إلى آخر ما تعلم من وجوه معانى هذه المادة العربية "عَمَر" . ولكنك ـ وقد عَلِمْتَ أن عِمْران التى فى القرآن هى كُفْءُ عَمْرام التى فى التوراة ـ لا تستطيع أن

تأخذ من "عَمَر" العربية فى تفسير عمران التى فى القرآن إلا بمعنى واحدٍ فقط ، هو المعنى الذى يشترك فيه هذا الجذرُ العربى مع صِنْوِهِ من نفس مادته فى العبرية أى الجذر العبرانى "عَمَرْ" ، وإلا امتنعَ عليك مقابلةُ عِمْرانَ بعَمْرام .



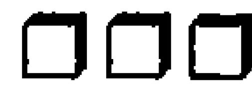
هذا المعنى الوحيدُ الذى يلتقى فيه " عَمَرَ " العربى بصنوه العبرانى "عَمَرْ" هو معنىً واحد، لسببٍ بسيط وهو أن "عَمَرْ" العبرانى ليس له إلا معنىً واحد ، وهو "السدانة" والسادِن هو خادمُكَ الذى يُلازمُك، استعُيرَت لخدمة المسجد أو المعبد خاصة.

أما أن "عَمَرَ" العربية تجىء بهذا المعنى، فحسبُكَ قولُ الله عز وجل فى نَعْيِه على مشركى قريش اعتدادهم ـ على كُفْرِهم ـ بسقاية الحاجِّ وعمارة المسجد الحرام : {**أجعلتم سِقاية الحاجِّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن باللهِ واليومِ الآخر وجاهدَ فى سبيلِ الله ؟ لايستوون عند الله ، واللهُ لا يهدى القومَ الظالمين** } (التوبة : ١٩) ، بعد أن مَهَّدَ لها بقوله عز وجل : { **ما كان للمشركين أن يَعْمُروا مساجدَ اللهِ شاهِدِينَ على أنفسهم بالكفر ، أولئك حَبِطَت أعمالُهم وفى النار هم خالدون . إنما يعْمُرُ مساجدَ الله من آمن باللهَ واليومِ الآخر وأقام الصلاةَ وآتى الزكاةَ ولم يَخْشَ إلا الله ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين** } (التوبة :١٧ ـــ ١٨) . أى لا تَصِحُّ عِمارةُ المسجد إلا لمؤمن بالله واليومِ الآخر ، مُتَعَبِّدٍ فيه بما تَعَبَّدهُ به الله ، لا يخشى غيرَه ، لا لمشركٍ مُكَذِّبٍ باليوم الآخر ، يشهدُ على نفسه بالكفر إذ يَتَعَبَّدُ فى الكعبةِ وما حولَها لغيرِ اللهِ عز وجل وهو يَدّعى سِدانةَ بيته . وقد تَفاوتَ قولُ المفسرين الذى حكاه القرطبى رحمه الله فى تفسيره لهذه الآيات الثلاث حول معنى عمارة المسجد : اقتربوا ولم يَسْتَوْفُوا . لم يفتخر كفار قريشٍ بأنهم يَؤُمُّون المسجد الحرامَ للعبادة فيهِ كما تَفْهَمُ أنت اليوم من " عُمَّارِ المساجد" الملازمين الصلاةَ فيها . وليست العمارةُ هى إعمارُ المسجد أى كونهُ عامراً بهم . وليست هى فحسب مُعاهَدَةَ المسجد والقيامَ بمصالحه ، أو تَعَهُّدَهُ بالتنظيف والإصلاح والصيانة . هذا كلامٌ مُطَوَّلٌ يجمعُهُ قولُك : " السِّدانة " ، وهى بالذات التى تَبَاهَى بها كفارُ قريش . والسادِنُ كما مر بك هو

فى الأصل خَادَمُكَ الذى يُلازمك ، أو هو حاجبُكَ الآذن كما فى معجمك العربى . والمعنى الباقى فى "عَمَرْ" العبرانى هو هذا نفسُه : "عُمير" العبرى (بالإمالة فى الياء) يعنى "الخادَم" ، جاءت منه عبريةُ التوراة بالاسم العلم " عُمْرى" ، مَلِكٌ من ملوك بنى إسرائيل ، وأصله "عُمْريًا" يعنى "خادَمُ الله" ، أى خادَمُ بيته ، فهو السادن . وعُمير العبرى هى اسمُ الفاعل عبرياً من "عَمَرْ" العبرى ، فهى مكافىء "عامر" العربى . ولئن كانت عبريةُ التوراة (والعبريةُ المعاصرةُ أيضا) قد أماتتا " عَمَرْ " العبرى فى ثُلاثيِّه المجرد ، فقد استَبْقَتاهُ كلتاهما فى صيغة " هِتْفَعِّل " (نظيرة تَفَعَّلَهُ واستفعلهُ العربية) فتقولان " هِتْعَمِّر" تعنيان تَعَبَّدَهُ وتَخَدَّمَهُ وتَمَهَّنَهُ ، فتقطع بأن "عَمَرْ" العبرى كان معناهُ فى ثُلاثيِّه المَمات : خَدَمَ و عَبَدَ ، وأن الاسم منه هو الخادَمُ العابد . لا معنى له غيرُ هذا من مختلف معانى " عَمَرَ " العربى .

" عَمْرام " العبرية ، اسم أبى موسى وهرون فى التوراة من هذا لا من غيره ـ مع الاعتذار الواجب لعلماء العبرية وعلماء التوراة الذين ليسوا على هذا الرأى .

عَمْرام العبرية على القول الذى به نقول هى نفسُها عِمران العربية جذراً ومعنى: السَّادِن ، خَادَمُ المسجدِ أو المعبد .



وربما قلتَ : فكيف يجىءُ معنى السَدانة والخدامة من الجذر العربى "عَمَر" وهو فى أصل معناه البقاء والحياة ؟ وأقول لك إن العكس هو الصحيح : الأصلُ البعيد وراء كل معانى الجذر العربى "عَمَر" هو المُلازمة ، التى تفسر كُلَّ ما تَفَرَّع عنهُ من معان : المُكث الذى جاء منه العُمر بمعنى مدة الحياة ، والسُّكنىَ التى تجىءُ منها عمارة المكان ، والتَّعَهُّدُ الذى تجىء منه عِمارة المال وتعميره ، والقُبوع الذى يجىء منه اسم لِباس الرأس مثل " العمارة " بمعنى " العمامة " ، إلى آخر ما تعلم .

أما الذى قد لا تعلمه لِنُدْرَته فهو أنَّهُ من مادةِ "عَمَر" العربية هذه تجىء فى العربية لفظة "العَمْر" بمعنى الدِّين والمِلَّة ، ومن هذه يجىء الاسم " عَـمَّار " بمعنى الكثير الصلاة والصوم ، يعنى المُلازِم العبادة ، فيكون العامر بمعنى العابد .

ومن هذه المُلاَزَمَة استبقت العبريةُ " عُومِر " العبرانية [1] بمعنى الحُزمة والربطة كما استبقت أيضا الفعل المضعَّف العبرى " عمِّر " بمعنى حَزَم .



أما علماءُ العبرية وعلماء التوراة فهم يقولون أن " عَمْرام " ليست لفظةً وحيدةَ الجذر، لا من "عَمَرْ" ولا من غيره ، وإنما هى اسمُ مزجى مركب من شقَّيْنْ : عَمْ + رام ، "عَمْ" بمعنى الشعب أو الأمَة ، " رام " بمعنى علا أو تَعَالىَ (فعلٌ ماضٍ) أو هى اسم الفاعل منه أى عَلِىٌّ أو مُتعالٍ .

من هنا فهم فريقٌ منهم هذا الاسم على معنى الفاعل وفِعْله ، فقالوا إن معناه هو "الشعبُ عَلاَ" أو "تعالى الشعْب" [2] .

أما الفريقُ الآخر فقد فَهِمَ الاسم على معنى المضاف والمضاف إليه فقال بل هو "شعبُ العلِىِّ " ، يرِيدُ "شعبُ الله" [3] .

وكلا الوجهين كما ترى مُفْتَعَل . لأنهما كليهما لايصلحانِ اسماً لرجل ، إذ ما معنى أن تُسَمِّىَ ابناً ولِدَ لك " شعبُ الله " أو " تعالى الشعبُ " ؟

أهى النبوءة بأنه سيخرجُ من صلب عَمْرام الرجلُ الذى سيتعالى به الشعب ، موسى الذى سيقودُ خروجَ بنى إسرائيل من مصر ويصنعُ منهم " شعب الله " ، أو هى محاولةُ تعظيم موُسى عن طريق التفخيمِ فى اسم أبيه ؟

الملاحظة الأولى على هذا أن الاسم العَلَم عَمْرام لم يقع فى أعلام العبرانيين قبل أبى موسى ، وإن فشا من بعده فى أعلام إسرائيل نسبةً إليه . وقد تزوج عمرامُ أبو موسى من " أمّ موسى" أيامَ محنةِ بنى إسرائيل فى مصر . وحتى إن سَلَّمت بأن مولد عمرام وتسميته كانا سابقين على هذه المحنة ، أى سَبَقا بسنواتٍ انقلابَ فرعون مصر عليهم ، فلا يَذْهَبَنَّ بك الظن إلى أن قوم موسى كانوا قبل هذا الانقلاب مباشرة ـ وهم

(١) وأيضا " عَمِير" العبرانية بنفس معنى الحزمة . وربما جاءت من هذه " عَمَار " العربية بمعنى الريحان ، أى الحزمة منه . ولا عليك مما تقوله المعاجم من أنهم كانوا يُحَيُّونَ به الملوك قائلين : عَمَّرَكَ الله ، أى حَيَّاك وأبقاك .

(٢) انظر المعجم العبرى الآرامى لألفاظ التوراة ، المرجع المذكور ، ص ٦٠٤ .

(٣) انظر : WEBSTER'S DICTIONARY, (Unabridged), op. cit., Suppl., Scripture Proper Names and Froeign Words, p. 87.

ضيوفٌ إن لم تقل دُخَلاءُ على أهل مصر ـ يستطيعون مباهاة المصريين بقولهم " تَعَالَى الشعب" أو " الشعبُ عَلا " فى وصف أنفسهم ، فضلا عن أن يتسموا بها فى أبنائهم ، آمنين ألا يُنْكِرَ المصريونَ عليهم ، أو فى أقل القليل أن يتخذَ المصريون من اسم هذا المولود الذى سيتعالى الشعب به مزْحَةً يتندَّرون بها ، فلم تكن العبرانيةُ بعد قرونٍ من مُقام بنى إسرائيل فى مصر طلاسمَ مطلسَمَة فى آذان المصريين ، وحتى إن بَقيتَ طلاسمَ مُطَلْسَمَةً فى آذانهم ، فما كانوا ليعدموا من يُفسِّر لهم معنى هذا الاسم من بين خُلَطائهم العبرانيين المتَقرِّبين إليهم بالمودة على حساب بنى قومهم .

والملاحظة الثانية هى أن فكرة " شعب الله " لم تنبت فى أدمغة بنى إسرائيل إلاَّ من بعد موسى ، فكيف يُنْحَتُ منها اسمُ أبيه ؟

والملاحظة الثالثة هى أن اختلاف علماء العبرية وعلماء التوراة حول معنى هذا الاسم عَمْرام ، وانقسامَهُم فى تفسيره بين " تَعَالَى الشعبُ " ، " شعبُ الله " يَدُلُّكَ على أنه ليس له أى تفسير معروف فىَ مأثورات بنى إسرائيل ، على نحو مامر بك من شَغَف كَتَبة التوراة بتفسير الأسماء الأعلام أو مناسبة التسمية ، مثلما فسروا اسم موسى بن عمران ، ولو كان للاسم عَمرام تفسيرٌ مأثور، معلوم ، مُسْتَقَرٌ عليه ، لما انقسم فى تفسيره علماء العبرية وعلماء التوراة ، ولكنها اجتهاداتٌ لهم ، كُلٌ يُدلى بدلوه ، لا تُلزمُك .

ولم لا يُقال إن " عمْ + رام " (مكسور العين فى " عِمْ " يعنى " مَع ") يُرادُ بها "مع" العلِيّ"، أى "مع الله" لا " شعبُ الله" ، يعنى السالك مع الله (هُوليخ عِمْ رام عبرياً) اختصرت إلى " عِم + رام " ، كما قالوا " عِمَّانُوئيل " أى اللهُ معنا ، ثم تَحَوَّرت كسرةُ العين إلى الفتح ؟

تستطيع أن تقولَ هذا وأمثاله فلا تنتهى ، ولكنك تتوقفُ عند عَمْرام بمعنى عِمْران ، الملازِم العبادة ، أو السادنِ خادم المعبد ، تستخلص معناه مباشرةً من الجذر "عَمَر" دون حاجةٍ إلى افتراض "مَزْجِيَّاتٍ" لا داعى لها . وقد مر بك من قبل أنه حين يستعصى فهم لفظٍ فى الساميَّات فلابد من التماسه فى أمِّها ، أى فى العربية ، وقد عَرَفَ العربُ "عِمْران" قبل الإسلام بقرون وتسموا به ، لم ينقلوه عن العبرية المُخْتَلَف فيها على معناه . دليلُكَ فى هذا أن يهود مكةَ ويثرب قالوا فى اسم أبى موسى وهرون

"عِمْران" يعنون "عَمْرام" الذى فى التوراة ، عالمينَ أن اللفظين واحد . ودليلُكَ فيه أيضا وُرودُ هذا الاسم بالنون لا بالميم فى كتابات Lucian وهو من أعلام القرن الثانى للميلاد ، ووروده بالنون أيضا فى نقش حورانى باليونانية Emranes "عِمْرانس" (السين للرفع) ، فتقطع بعربية "عِمران" كما قطع بها المستشرق الذى ننقل عنهُ هذا الكلام [1] .

ولكن هذا المستشرق لا يُريد الإقرار بأن " عمْران " العربية هى الأصل وراء عمرام التى فى التوراة ، وأن بنى إسرائيل فى مصر استعاروا " عِمْران " من جيرانهم الساميين فآلت على لسانهم إلى " عَمْرام " مع وحدة الجذر والمعنى . وإنما هو يقول ما تَفْهَمُ منه أن القرآن شَاكَلَ عِمْران العربى على عَمْرام العبرى يظنُّهما واحداً ، لأن هذا المستشرق وأضرابه لا يحققون معانى الأسماء الأعلام ، وإنما يهتمون فحسب للتقارب اللفظى ، يظنون أن القرآن كَدَأبهم هُم يأخذُ نِتَفاً من هنا ونتفا من هناك دون تَثَبُّت ، وفاتَهُم كما مر بك أن اليهود فى مكة ويثرب قالوا هم أنفسهم "موسى بن عمران" ولم يقولوا "موسى بن عَمْرام" .

على أن هذا المستشرق وإخوته يقعون رغم أنفهم ، أو قل بتعسفهم النَّعْى على القرآن ، فيما ينقض دعواهم : إذا كانت عمران عندهم عربيةَ الأصل من الجذر "عمى " (ولا يصح اشتقاقٌ فى عمران إلا من عَمَر) فليس هى إذن "عَمْ + رام" العبريةَ المُفْتَرَضَ معناها "تعالَى الشعبُ" ، أو "شعبُ الله" ، ومن ثم فليس الإسمانِ واحداً ، ولا وجهَ بالتالى للقول بأن القرآن يَخْلِطُ بين عِمران جَدٍّ عيسى وبين عَمْرام أبى موسى وهرون .



ولئن كانت " عمران " عربية ، لا تدخل فى مقاصد هذا الكتاب الذى نكتب ، فقد أدخلناها فى مباحث الكتاب للرد على المستشرقين المنكرين الوحى على القرآن ، من جهة ، ومن جهة أخرى لأن القرآن الذى فَسَّر الاسمَ عمران على المشاكلة مع عمرام الذى فى التوراة لم يكتف بذلك ، وإنما فسر معنى هذا الاسم أبين تفسير بالمرادف ، بل

---

(١) Joseph HOROVITZ , OP. CIT. , P. 15

قد جَانَسَ عليه فى تفسير معنى الاسم " مَريم " ، فهو العامِر العابد ، وهى أَمَةُ الرب ، وسبحان العليم الخبير القائل بكل اللغات .

قال عز وجل : { **إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم** } (آل عمران : ٣٥) ، والمنذورُ لله عز وجل محررا ، هى نفسُها "عِمران" ، الملازم العبادة ، الملازم بيت الرب ، وكأنها رضى اللهُ عنها أرادت عِمْران آخر سمياً لزوجها عمران ، وكأنها لو وضعتْهُ ذكراً لأسمتهُ عمران على اسم أبيه . ولكنها رُزِقَت بالأنثى ، مريمَ عليها السلام ، فأسمَتها بالمؤنَّثِ منه : مَرْيَم ، يعنى أَمَةُ الرب .

وقال عز وجل أيضا : { **ومريمَ ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين** } (التحريم : ١٢) ، يعنى كانت ابنةُ عمران صنوَ أبيها ، اسماً على مُسمًّى ، وهل القانتُ إلا العامِر العابد عِمران ، وهل أَمَةُ الربِّ من هذا ببعيد ؟

وربما قلت : وما وجهُ الإعجاز والقرآنُ عربىٌّ وعِمْران عربية ، فهو يُفَسِّرُ عِمْران على أصلِ معناها فى لغته ؟ وهذا صحيح .

ولكن الإعجاز الذى أريد أن أدُلَّكَ عليه هو أن القرآنَ الذى عَلِمَ معنى "عِمْران" من العربية ، يجُانِس عمران العربية هذه على " مَرْيَم " ، أَمَةُ الرب ، ومَرَيَم اسمُ آرامىٌّ بَحْتٌ كما سوف ترى . فأىُّ إعجازٍ وأىُّ علِم !

(٥٥) مريـــــم

" مَرْيَم " أم عيسى عليهما السلام ، اسمٌ آراميٌّ مَزْجِيٌّ مُرَخَّم ، أصلُهُ : مَارِى + أمَا ، المقطع الأول يعنى بالآراميـة " الرَّبُّ " ، والمقطع الثانى " أمـا " يعنى بالآراميـة أيضا نفس ما تعنيه " الأَمَةُ " عربياً ، فاسمُها عليها السلام يعنى "أَمَةُ الرَّبِّ" ، قُدِّم فيه المضافُ إليـه على المُضاف، تعظيماً لاسمِ الرَّبِّ تَباركَ وتعالى ، مثلما رأيت فى "يُو + حَنَان" المُبْدَلَةَ من يُوحَنَّا وهو يحْيَى بنُ زكريا عليـهمـا السـلام . وكـان حَقُّهُ أن يُنطَق : مَارِيأمَا ، كاملا ، ولكن المزجيةَ سَهَّلت الـهمزة ، فأصبح : مَارِيَما ، ثم رُخِّم بحذفِ ألف المد الخاتمة ، فـأصبح "مَرْيَم" طبقَ الأصلِ من نطقـه اليـونانى Mariam فى الأناجـيل اليونانية ، وهو نفْسُ نُطقِه فى القرآن .

أمـا "مـارى" الآراميـة بمعنى "الرب" فـهى تجىء من اللفظة العربيـة "إمْرُؤ" (تُنْصَبُ على "إمْرأ" وتُجَرُّ على "إمْرِىء") ، وأيضـا "مَرْءٌ" ، ومن هذين يجىء المؤنث "امرأة" وأيضـا " مَرْأة " . وأصلُ معنى " إمْرُؤ " العربيـة ليس هو مطلق الرجولة أو الذكورة ، وإنما أصلُهُ من "السيـادة " ، ومنه جاءت " المُروءة " يعنى خُلُق السـادة ، أى الشَّهامة ، فالمرأة يعنى فى الأصل "السيدة" مؤنث "مرء" بمعنى السـيـد ، ولكن المَرْءَ والمرأة أميتتا بهذا المعنى فى العربية ، ولم تبق منهما إلا هذه الدَّلالةُ المُبْهَمَةُ على آحاد الناس : المَرْءُ مفردُ الناس ، والمرأةُ مفردُ النِّسْوَة ، لا يَدُلُّكَ على أصلِ ما كانا عليه إلا هذا المصدرُ منهما : المُروءة .

وأمـا لماذا أماتت الآراميـة لفظة "راب" بمعنى السيد الرب ، واستعـاضت عنهـا بلفظة "مارى" (وأيضا " مار " بدون ياء) بمعنى الرب والسيد ، فلأنها ـ أى الآرامية ـ أماتت "راب" بمعنى الرب ، واستبقت منها معنى " الرُّبُوِّ " أى الكِبَر والزيادة ، فآلت "راب" فى الآرامية إلى معنى كبير أو عظيم ، ومنها : "رَبْرَبَان" الآرامية بمعنى الكُبراء الأكابر ، ومن هنا لم تعد "راب" الآرامية صالحةً للاستعمال بمعنى السيد الرب ، لا فى

حق البشر ، ولا فى حق الله عز وجل من باب أولى . وقد خَصَّصت الآراميةُ لفظة "مارى" (المختومة بالياء) لله عز وجل بمعنى " الرب " لا تُقالُ فى غيره ، وأفْرَدَت "مار" بدون الياء للسادة من البشر ، ومن هذا : مَارْ مَرْقُس ، يعنى السيد مرقس ، والمؤنث منه "مرت" بتاء التأنيث الآرامية ، إن أَضَفْتَ فى آخره ألف المد التى هى أداة التعريف الآرامية كما مر بك ، أصبحت Martha مرتا ، وهى بضم الميم أفصحُ آراميا) العَلَمَ الشائعَ فى نساءِ المسيحيات ، ومعناه الحرفى من الآرامية هو "السيدة" . وربما ظن من لا يعرفون معنى الاسم "مريم" أنه من هذا ، فيفهم من "السيدة مريم" أن "السيدة" هنا ترجمةٌ لاسمها عليها السلام ، والصحيح أنه أضيف إلى اسمها على التوقير والتبجيل لِمقام تلك التى قال فيها عز وجل : { **يا مريمُ إن الله اصطفاكِ وطَهَّرَكِ ، واصطفاك على نساءِ العالَمين** } (آل عمران : ٤٢) .

على أن الآرامية ـ شأنها شأنُ العبرية ـ تستعمل لفظة "آب" (الأب المعروف) فى الإشارة إلى الله عز وجل ـ تلك التى ضَلَّ بها كثيرون ممن لا يفقهون مجازَ اللغات السامية ـ ولكن الآرامية ـ لغةَ المسيح عليه السلام مع عشيرته وحوارييه ـ تَخْتُمُ اللفظ بألف المد على التعريف ، فتؤول إلى " أبَّا " ، أى الأب بمعنى الرب لا بمعنى الوالد الذى وَلَد ، وتجوز أيضا على النداء والمناجاة : رَبِّى ! لا يا أبى .

أما أن " الآب " ، " الأب " ، معناها " الرب " فى الآرامية والعبرية ، فدليلُكَ الدامغُ فيه باختصار ـ وقطعاً للطريق على من قد يتعجَّلون فيتورطون فى نقد مقولاتنا اللغوية فى هذا الكتاب ـ هو ذلك العَلَمُ العبرانىُّ " أبِيَّاهُو " بن رِحُبْعام بن سليمان بن داود ، الذى سبق مولدُهُ مولدَ المسيحِ بسبعة قرونٍ على الأقل ، وهو اسمٌ مركَّبٌ من شقَّيْن " أبِى + يهْوَا " (يهْوَا هو اسمُ اللهِ فى العبرية من بعدِ موسى كما مر بك) ، لا يَصِحُّ أن تتصوَّرَ ولو للحظة أن معنى الاسم الذى سماه به رِحُبْعام بن سليمان ابن داودَ هو " اللهُ أبِى " أعنى أبِي الذى وَلَدنى ، إذن لَذَبحه اليهودُ فورَ هذه التسمية على مَرْأىً من أبيه ، إن لم يذبحوا أباهُ معه ، وإنما فهم اليهود وأرادَ رِحُبْعام الأبَّ بمعنى الربِّ فى مُصْطَلَحِهم ، فالمعنى هو " اللهُ ربِّى " ، لا " اللهُ والدى " كما يفهمها علماءُ أهل الكتاب الذين لا يفقهون مجاز الساميات [1] .

---

(١) انظر المعجم العبرى الآرامى لألفاظ التوراة ، المرجع المذكور ، ص ١ .

أما الدليل الثانى فهو قولُ المسيح عليه السلام فى الأناجيل التى بين يديك : "إنى أَصْعَدُ إلى أبى وأبيكم وإلهى و إلهكم" (يوحنا ٢٠/ ١٧) يُرادفُ الأولى بالثانية، أى أن أبى وأباكم هو إلهى وإلهكم ، لا يريدُ بالطبع إنى أصعدُ إلى والدى ووالدكم الذى هو إلهى وإلهكم ، وإنما أراد إنى أصعدُ إلى ربِّى وربِّكم الذى هو إلهى وإلهكم ، كلانا مَرْبُوبٌ لله عز وجل ، والمَأبُوُّ آرامياً وعبرياً يعنى المَرْبُوبُ عربياً . لا تصَحَ " الأب " عربياً بمعنى " الرب " ، وإنما اضطرت الآرامية و العبرية إلى هذا المجاز لاستنفادهما لفظة "راب" فى معانى أخرى ليس منها " الرب " الإله ، وهى معنى الكبير ، الرئيس ، الإمام ، المُعَلم المُرَبِّى . أما العربية فهى لا تحتاجُ إلى هذا المجاز المُؤْذِنِ بالخَلْطِ والتخليط ، وإنما تقول ربِّى ، حين تريدُ "إلهى" ، وتقول أبِى ، تعنى "والدى الذى ولدنى" . وقد فهم القرآنُ المعجز مُرادَ المسيح من قوله بالآرامية " أبِى وأبوهم " فلم يقُلْ على لسان المسيح "أبى وأبوكم" على الترجمة الببغائية ، وإنما قال عز وجل على لسان عبده ورسوله عيسى بن مريم فى خطاب قومه : { **وأنَّ اللهَ ربِّى وربُّكم فاعبُدوه ، هذا صراطٌ مستقيم** } (مريم : ٣٦) ، أى أن مَرْبُوبيَّةَ المسيح والبشر جميعا لله عز وجل الواحدِ الأحد هى الصراطُ المستقيم، لا صراطَ غيره. عليك إذن كلما قرأت فى الأناجيل لفظة " آب " ، " أب " ، حين تُعَرَّفُ بالألف واللام ، أو حين تُضافُ إلى المسيح : " أبى " ـ وأنت تعلم مسيحياً كُنْتَ أو مسلماً أن المسيحَ غير ذى أبٍ ـ أن المُرادَ منها هو " الرَّبُّ " ، " رَبى " ، فتفهم منها ما أرادَه المسيحُ على وجه القطع واليقين ، لا ما فَهِمَهُ الذين أَلَّهُوا المسيحَ على البُنُوَّةِ لله عز وجل فى مجمع نيقيه عام ٣٢٥ م فَبَنَوا صَرْحَ مقولتهم فى المسيح على خطأٍ لُغَوِيٍ بيِّن ، لا يَصِحُ من عالِمٍ فقيه .

كان عُذْرُ الحواريين الذين كتبوا هذه الأناجيل أو كُتِبَت عنهم باليونانية ، هو ظَنَهُم أن " الأب " تَصِحُّ بمعنى " الرب " فى كل اللغات ، لا فى الآرامية والعبرية وحدَهما ، ووحدَهما فقط ، فكتبوها باليونانية Pater (نظير Father الانجليزية بمعنى الوالد الذى ولد) ، وعن هذه الأناجيل نقلت كل الترجمات . ولكن يشاءُ ربُّك لهذه الكلمة اليونانية الأصل Pater (يعنى الأب) ونظائرها فى كُلِّ اللغات أن تكتسب بمحض الاستعمال على لسان المسيحى فى بقاع الأرض ـ أياً كانت لغتُه ـ كُلَّ معانى القداسة الواجبة لله عز وجل وَحْدَه تَقْرَؤُها فى وجه هذا المسيحى وهو يقرأ فى صلاته :

"أبانا الذى فى السموات" ، فتقطع بأنه لا يريد بها "أبانا الذى وَلَدَنا" ولا "أبا المسيح الذى فى السموات" ، وإنما هو يَمثُلُ أمامكَ فى صلاته رجلاً آرامياً ـ عبرانياً يريد بها ما كان يريده الرجلُ الآراميُّ ـ العبرانى فى زمن المسيح : الأبُ = الرّب ، لا إلهَ غيره .

وإذا كانت "الأب" تعنى فى حق الله عز وجل آرامياً وعبرياً ـ لسانَ المسيح عليه السلام ولسانَ قومه ـ الربُّ الإلَه فقط لا غير ، لا الأبُ الوالد ، فكيف جاز فهمُها فى المسيح وحده على معنى" أُبُوَّة " الله إياه ؟ كيف يجىء المسيحُ بلفظة الأب فيما ترويه الأناجيل من قوله : " وأما أنت فمتى صُمْتَ فادهن رأسَك واغسل وجهك ، لكى لا تظهر للناس صائما بل لأبيك الذى فى الخفاء ، فأبوك الذى يرى فى الخفاء يُجازيك علانية " (متى ٦ / ١٧ ـ ١٨) فلا يفهم السامع "المَأْبُوُّ " (١) من لفظة "أبيك" فى هذا الكلام إلا معنى " الرب " ، أما إن سمعها من المسيح يناجى بها ربه : "أيها الآب ، نَجِّنى من هذه الساعة !" (يوحنا ١٢ / ٧) فهذا السامع يفهم منها فى حق المسيح وحده لا الرب ، وإنما الأب الوالد ؟ لم يكن هذا بالطبع هو موقف كتبة الأناجيل اليونانية التى بين يديك ترجماتُها ، وإلاَّ لأوقعْتَ كَتَبَتَها فى التناقض ، ولكنه كان موقفَ الذين استعانوا بهذه الأناجيل اليونانية فى تأليه المسيح على " البنوة " لله عز وجل فى مجمع نيقية عام ٣٢٥ م ، بعد رفع المسيح بنحو ثلاثة قرون .

نعم ، قد أجرى اللهُ على يدِ المسيح معجزاتٍ تنقطعُ دونَها رقابُ البشر ، كان أبرزَها إحياءُ الميت . ولكن " اليشع " الذى فى العهد القديم سبقه بمثلها ، ولم يؤلِّه اليهودُ اليشع لأنهم علموا أن "الفاعل" فى هذا الإحياء هو اللهُ عز وجل لا نبيُّهُ اليشع . ورفع الله المسيح إليه جسداً حياً لم يَمُت ، ولكن " إيليا " الذى فى العهد القديم سبق المسيحَ بمثلها ، ولم يُؤَله اليهودُ إيليا لأنهم يُؤَلِّهون "الرافع" لا المرفوع . ولو قد اقتصرت معجزاتُ المسيح على أمثالٍ لها فى العهد القديم لما كانت ثَمَّةَ حُجَّةُ البتة فى شُبهة ألوهيته .

ولكن المسيحَ عليه السلام انفردَ من دون الخلق جميعا بمعجزةٍ غير مسبوقة ، هى ولادتُهُ لأمٍ بغير أبٍ ، فَشُبِّهَ لمن شُبِّهَ له أنها البُنُوَّةُ لله ، وجاءت دعوى

---

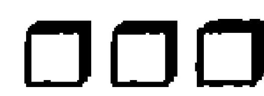
(١) أباهُ يأبوهُ إباوةً يعنى صار له أباً ، والمفعولُ منه " مَأْبُو " . ومن هذا جاءت " الآب " لغةً فى " الأب " : إنه " الآبى" الذى يأبو ، رُخِّمت ياؤه .

الألوهية ترتيباً على هذه البنوة المُدَّعاة ، ولم يفطِنوا إلى أن الله عز وجل الذى يخلقُ ما يشاءُ ويختار ، أى يخلقُ ما يشاء على الوجه الذى أراد ، إنما أرادها آيةً للناس ، وهو على أمثالها قادرٌ فى كل حين . وقد عجبت مريمُ عليها السلام حين جاءها جبريلُ بالنبأ ، فذكَّرها جبريلُ بإعجاز الله فى حمل خالتها بيحيى من قبل وقال : " لأنه ليس شىءٌ غيرَ ممكنٍ لدى الله " (لوقا ١ / ٣٧) . فَهِمَت مريم أن الله هو خالقُ هذا الجنين الذى فى بطنها ، فلم تُؤَلِّه المولودَ الذى ولدته . إنها معجزةٌ من الله عز وجل يضربُها آيةً للناس الذين يَمُرُّون على آياتِ الله عُميانا ، فما الخلقُ من الأبِ والأمِّ معاً بأهون فى إعجاز الخلق من ولادة عيسى بغير أبٍ ، ولكنه خَرْقُ العادةِ والإلْف ، كى يلتفتَ الناسُ إلى إعجازِ العادةِ والإلِف . ولا فضلَ فى هذه المعجزةِ لجبريلَ أو المسيح ، حتى تتأصَّلَ عليها ألوهيَّةُ المسيحِ وجبريل ، أو حتى يتميزَ أى منهما بميزةٍ ترفعه عن أصل طبيعته وكينونته : جبريلُ مَلَكٌ من ملائكة الله ، والمسيحُ بَشَرٌ من خَلَق .

والذى لا يلتفت إليه كثيرون أن هذه المعجزة، قبل أن تكون معجزةً فى المسيح، هى معجزةٌ فى مريمَ نفسها الوالدة العذراءِ لم يَمْسسْها بَشَر ، اجتمع فيها للمسيحِ الأبُ والأمُّ معا ، فهى صِنْوُ المسيحِ فى الآيةِ والمعجزة : { **وجعلنا ابنَ مريمَ وأُمَّهُ آيةً وآويناهما إلى ربوةٍ ذاتِ قرارٍ ومعِين** } (المؤمنون : ٥٠) .

قال عز وجل فى خطاب مريمَ على لسانِ جبريل يُسَكِّنُ من روعها ويقطعُ عليها عَجَبها لقضاءِ قضاهُ الله : { **قال كذلك قال ربُّك هو على هَيِّن ، ولنجعله آيةً للناسِ ورحمةً منا ، وكان أمراً مقضيا** } (مريم : ٢١) .

وقالت مريم لجبريل : "هو ذا أنا أَمَةُ الرب ، ليكن لى كقولك" (لوقا ١ / ٣٨). كانت مريمُ عليها السلام اسماً على مُسَمًّى ، المصدِّقَةَ بكلماتِ ربِّها ، المذعنَة لقضائه فيها : إنها مريم ، أَمَةُ الرب ، مَارِى + أمَا .



وقد عَلِمَ مفسرو القرآن (راجع تفسير القرطبى للآية ٣٦ من سورة آل عمران) معنى هذا الاسم "مريم" ، فقالوا إن معناه "خادم الرب" بلغةِ قومها ، وخادم الرب هى نفسُها أَمَةُ الرب . وهم لم يعلموا هذا من حديثٍ أو سُنَّة ، فليس فى صحيح

الحديث من هذا شيء ، وإنما عَلِمُوه من رُواتِهم من أهل الكتاب ، النصارى لا اليهود ، السُّريانَ لا العبرانيين ، لأن هذا الاسم " مريم " لا يصح تفسيرُه من العبرية بمعنى خادم الرب أو أمة الرب ، لأن "ماري" بمعنى الرب ليست عبرانية ، وإنما هى آرامية بحت (والآرامية هى السريانية لغة هؤلاء النصارى السريان) ، والعبرانيون لايفسرون بها اسم "مِرْيام" أخت موسى وهرون ، وإنما يقولون كما مر بك ان "مريام" أخت موسى وهرون من المراء والمرية ، فتقطع بأن هذين الاسمين ليسا واحدا ، وأن القرآن لا يخلط من ثم بين "مريم" أم عيسى وبين "مريام" أخت موسى وهرون كما وهم أدعياء الاستشراق المتطفلون على مباحث اللغة .

والذى تأخذه على الترجمة العربية لأسفار العهد القديم التى بين يديك هو أنها تَرْسُمُ الاسمَ "مِرْيام" أخْتَ موسى وهرون بالرسم " مَرْيم " فيظن القارىء ، كما ظنَّ أدعياءُ الاستشراق من قبل ، أنها سَمِيَّةُ " مريم " أم عيسى ، وهو خطأ مَحْض لا تَقَعُ فيه الترجماتُ الانجليزية مثلا التى تَرْسُمُ اسم أختِ موسى وهرون Miriam أى "مِرْيام"، بينما يُرْسَمُ بالانجليزية اسمُ والدة عيسى عليهما السلام Mary "مارى"، لا شُبْهَةَ خَلْطٍ بينهما .

وأما لماذا لم يلتفت أدعياءُ الاستشراق إلى معنى اسم "مريم" أم عيسى عليهما السلام الذى قاله مفسرو القرآن نقلا عن رواتهم السريان ـ وهو قاطعٌ فى آرامية الاسم مانعٌ من عبرانيته ـ فيتعلموا من هذه التفاسير عِلْمَ ما جهلوه أو خَلَّطوا فيه من مثل خَلْطِهم بين "مريم" ، "مريام" ، فذلك لأن آراميةَ الاسم "مَرْيَم" وعبرانيةَ الاسمِ "مِرْيام" وبُعْدَ ما بين معنييهما من ثم ، دليلٌ على فساد مقولتهم فى خلط القرآن بين مريم أم عيسى وبين مريام أخت موسى وهرون ، ولأن صاحب الهوى الأحمق يُبْصرُ الحقَّ ولا يراه ، بل يشاءُ له نحسُه ألا يَتَصَيَّدَ من تلك التفاسير إلا أخطاءَ وقع فيها المفسرون أو دُلِّسَت عليهم ، من مثل قولهم بُعجمة فردوس وعدن وجهنم وإبليس والصراط وقسطاس ـ وقد مر بك ـ يتصَيَّدُها من تلك التفاسير وينسبُها لنفسه فرحا فخورا ثم يختال بها على قرائه وتلاميذه المبهورين بعلمه ، الذين ائتمنوه أن قد حَقَّقَ وَتَثَبَّت ، فينقلون عنه أمثالَ أن القرآن نحت " قسطاس" من "جستيس" Justice لا من" قسط" العربية ، فتعذرهم بجهلهم أن هذه اللفظة اللاتينية المُدّعاة Iustas تنطق "يُوسْتَس" بالياء لا بالجيم ، وأن الياء اللاتينية فى هذه وأمثالها لم تتحور إلى الجيم فى

الانجليزية والفرنسية والإيطالية (دون غيرها من اللغات الأوروبية) إلا بعد نزول القرآن بقرون ، وأن لفظة "قِسط" أقدمُ فى الساميّات من مولد اللاتينية نفسها .

أما النَّحْسُ الأكبر الذى وقع فيه هؤلاء المستشرقون ـ لم يتصيَّدُوه من تفاسير القرآن وإنما استأثروا بشرف الوقوع عليه ـ فهو قولُهم إن القرآن سَمَّى مريم أم عيسى أختاً لموسى وهرون ، بقوله على لسان قومها : ياأختَ هرون ، فأخطأ القرآنُ وخَلَّط ! فتقطع بأنهم وهم أهل كتاب لم يقرءوا فى (إنجيل لوقا ١/ ٥) قوله إن اليصابات أم يحيى خالة مريم أم عيسى كانت "من بنات هرون" ، لا يعنى بالطبع أن اليصابات كانت ابنة أخي موسى وبينهما ثلاثة عشر قرناً كما وَهِموا أن القرآن قد فعل ، وإنما يعنى أن اليصابات خالة مريم كانت " هارونية " من سبط هرون أصحاب الكهانة والسدانة فى بنى إسرائيل من بعد موسى ، يعنى " لاوية " خادم معبد ، كالذى كانتهُ مريمُ أم عيسى عليه السلام . أو تقطع بأن هؤلاء المستشرقين الذين ولدوا فى اليهودية أو النصرانية لا يعلمون شيئا من اللغة العبرية التى يتصدون للكلام فى أعلامها ، أو لا يعلمون شيئاً من مواضعات اليهود ومصطلحاتهم كالذى عَلِمَهُ القرآنُ بقوله فى مريم: يا أختَ هرون ! أو تقطع أخيراً بأنهم علموا هذا وذاك ولكنهم تعمدوا التدليس عليك ، حسداً من عند أنفسهم . صحيح أن مفسرى القرآن لم يصيبوا فى فهم مدلول " أخت هرون" لأنهم لم يعلموا مدلولها فى مواضعات اليهود ومصطلحاتهم ، وجُهِلَهُ أيضا رواتُهم من أهل الكتاب أو تَكتَّمُوهُ عليهم ، ولكن مفسرى القرآن لم يخوضوا فى علم ما لم يعلموه ، واكتفوا بأنها " صِنْو هرونَ فى الصلاح" ، ولكن ما عذر أولئك المستشرقين الأدعياء المتطفلين على مباحث اللغة وهم يهودُ أو نصارى ؟

الراجحُ عندى ـ إن كان هؤلاء المستشرقين أبرياءَ بجهلهم ـ أن الذى جَرَّهُم إلى هذا هو اشتباهُ "مريم" عليهم بمريام ، ولم يتثبتوا [1] ، واشتباهُ "عِمْران" عليهم ـ التى فى القرآن ـ بعَمْرام أبى موسى ومريام فى التوراة ، فَتَأَدَّوْا من هذين إلى خطأ ثالث هو أن القرآن بقوله : أختَ هرون ، يَخْلِطُ بين "مِرْيامَيْنِ" ، لا بين " مَرْيَم " ، "مرْيام".

---

(١) وقع فى هذا الخطأ أيضا ، الذى نعيناه من قبل على المترجم العربى للكتاب المقدس ، المترجم العبرانى للأناجيل اليونانية ، الذى يرسم بالخط العبرانى فى ترجمته اسم مريم أم عيسى عليه السلام بنفس رسم " مريام " أخت موسى وهرون ، فيئول معنى الاسم عند قارئه العبرانى إلى معنى المراء والمرية كالذى يفسر به علماء التوراة الاسم " مريام " . ولا يصح عندك ـ مسيحيا كنت أو مسلما ـ أن تتسمى على هذا المعنى والدة المسيح .

ولو قد كانت لدى هؤلاء المستشرقين وتلاميذهم ذَرَةٌ من تُؤدَةِ العالِم وأناته ، أو قل لو كانت لديهم مسحةٌ من إنصافِ العالِمِ المُدَقِّق الذى يَدَّعُونَه، لسجلوا للقرآن بقوله: يا أخت هرون ، إعجازاً فوق إعجاز .

لم يعلم القرآنُ فقط مدلولَ " أخت هرون" فى مُواضَعات اليهود ومصطلحاتهم ، أى " الهارونية " اللاوية ، "خادم الهيكل" الذى كانَتْهُ أَمَةُ الرب ، مريمُ ابنةُ عمران ، أم عيسى صلوات الله عليه ، وهذا بذاته إعجاز ، ولكن القرآنَ المعجزَ بواسعِ عِلمِهِ يُجانسُ بأختِ هرون هذه على "مريم" ، أَمَةِ الرب آرامياً، فَيُفسِّرُ بها هذا العلم الأعجميَّ بالمرادف القريب من معناه فى قوله عز وجل : { **قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فَرِيًّا . يا أختَ هرون ما كان أبوكِ امرأَ سَوْءٍ وما كانت أمُّكِ بغيًّا** } (مريم : ٢٧ ـ ٢٨) ، أى يا من اسْمُك أمةَ الرب ، يا من أنت أختُ هرونَ ساكنةُ المحراب ، يا ابنةَ عمران وامرأة عمران العامر العابد ، كيف فَعَلْتِ ما فعلت ؟ انظر معى إلى تصاعد التقريع فى هذا النسق القرآنى المعجز الذى لا يستطيعه إلا قائله عز وجل ، واعجَبْ معى للمُتَطاولين على هذا العِلْمِ المُحيط .



فسر القرآنُ على منهجنا فى هذا الكتاب الاسم الآرامى "مريم" ـ يعنى أَمَةُ الرب ـ تفسيرا مباشرا بالمرادف اللصيق فى قوله عز وجل : { **يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين**} (آل عمران : ٤٣) ، وقوله أيضا فى مريم : {**ومريم ابنة عمران التى أحْصَنت فَرْجَها فنفخنا فيه من روُحنا وصَدَّقت بكلماتِ ربِّها وكُتُبه وكانت من القانتين** } (التحريم : ١٢) ، ومعنى "قَنَتَ" فى اللغة العربية هو "ذَلَّ له وخضعَ وانقاد" فهو العبد : قال عز وجل متحدثا عن ذاته {**وله من فى السموات والأرض كل له قانتون** } (الروم : ٢٦) أى كُلٌّ له منقادٌ ذَلول وإن جَحَدَ وبَطِر . وقال عز وجل فى خطاب أمهات المؤمنين : { **ومن يَقنُتْ منكن لله ورسوله وتعملْ صالحا نُؤْتِها أَجْرَها مرتين** } (الأحزاب :٣١) أى من تخضع لأمر الله ورسوله مهما شَقَّ وعظُم . ووَصَفَ بها إبراهيم فى البلاء المبين ، يفعلُ ما يُؤمَر وإن كان ذَبْحَ إسماعيل : { **إن إبراهيم كان أُمَّةً قانتاً لله** } (النحل : ١٢٠) ، وليس بعد هذا عَبْدٌ قانت . وإنما استعير القُنُوتُ فى التعبد لأن

الإقرار بالعبودية هو لُبُّ العبادات جميعا . وليس فى الأمثلة التى سُقْتُها لك من القرآن مَثَلٌ واحد يُفْهَمُ فيه القُنُوتُ بمعنى " القنوت فى الصلاة " أى العبادة ، وإنما هو العبوديةُ على معنى الطاعة والخضوع والانقياد .

وهل كانت مريمُ " أَمَةَ الرب " إلا هذا يوم بشِّرت بالمسيح فَحَملت به ؟ رَضِيت بالتهمة والظنة وهى أطهرُ عذراء لأن المولى هكذا شاء وقَدر. قد عَلِمَت أنها أَمَةُ الرب، لا تملك من أمر نفسها شيئا . قالت لجبريل أنا أَمَةُ الرب ، ليكن لى كقولك . فلما أجاءها المخاض إلى جذع النخلة توجعت كما يتوجع النساء ، بل أكثرَ مما يَتَوجعُ النساء، وهى تَلدُ ابنها وحيدةً مُنْزَوِيَةً عن أهلها تتكتمُ أمرها خشية ألسنة الناس ، عالمةً أنها ما أن تنتهى أوجاعُ الولادة وتضعَ حملها حتى تنفجرَ التُّهمةُ الظالمة فتقتحمَها أعينُ الناس وتَقرَعَها ألسنةُ السوء، أو يرجموها بناموس التوراة ، وإن كانت هى وابنها آيةً للناس : { **فأجاءها المخاضُ إلى جذع النخلة قالت يا ليتنى مِتُّ قبل هذا وكنت نسياً منسيا . فناداها منْ تحتها ألاَّ تحزنى ، قد جعلَ ربكِ تَحْتَكِ سَرِيا . وهزى إليك بجذع النخلة تُساقطْ عليكْ رُطباً جَنِيا . فَكُلى واشربى وقَرِّى عَيْنا ، فإما ترينَّ من البشر أحداً فقولى إنى نذرتُ للرحمنِ صوماً فلن أكلِّمَ اليومَ إنسيا** } (مريم : ٢٣ ــ ٢٦) . هنا قَرَّت عينُ مريم : ها هو جدولٌ رَقراقٌ يجرى ماؤه تحت قدميها ولم يَكُ ثَمَّة جدول . وهذا الجِذع الأجوف الذى ألجأها المخاضُ إليه ، ها هو يهتز ويربو وقد حَيَت النخلة ، ما أن تَضُمَّهُ إليها حتى يتَساقط جَنَاه . قد عَلِمَت مريمُ من قبل أن الله يأتيها برزقها فى كل حين : { **كلما دخل عليها زكريا المحرابَ وجد عندها رزقا ، قال يا مريمُ أنَّى لكِ هذا، قالت هو من عند الله ، إن اللهَ يرزقُ من يشاء بغير حساب**} (آل عمران : ٣٧) . ولكن هل تُدْرِكُ أنت كَمْ هى فرحةُ أم بمولودٍ لها تَضَعُهُ فيكلِّمها فى قماطه ؟ لا يناغيها وتناغيه فَيُسَرِّى عنها ، ولا يناجيها فيذهبَ هَمَّها ، ولا يبكى كما يبكى الرضيع ، ولكنه ينطق ليطمئنها أنه هو الذى سيحمل عنها عبءَ مواجهة الناس يومَ تأتى به قومَها تحمله : { **فأشارت إليه ، قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبياً . قال إنى عبدُ الله ، آتانى الكتابَ وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادُمْتُ حيا وبَرّاً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا . والسلامُ علىَّ يوم وُلِدت ويومَ أموتُ ويومَ**

أبْعَثُ حيا } (مريم : ٣٠ ــ ٣٣) ، بدأ بأنه عبدُ الله ، يَعِظُ بها من سَيُغالون فى تعظيمه ، وقال بَرّاً بوالدتى ، ولم يقل بَرّاً بوالدَىَّ كما قيل عن يحيى فى نفس السورة قبلَه، يُخْرِسُ بها من سيفترون عليها البهتان . هنا خَرِسَت ألسنةُ السوء أمامَ المعجزةِ الكبرى .

هذه الآياتُ من سورة مريم إعجازٌ فى أنْباءِ القرآن لا يَعْدِلُهُ إعجاز، ولكنها فاتت على كتبة الأناجيل فلم يسجلوها ، لأنهم اكتفوا بشهادة المجوس الذين جاءوا ليسجدوا للمسيح فى المِذْوَد ، ويُقدِّموا له ولأمه هدايا ذهباً ولباناً ومُراً ، بين جُوق من الملائكة يُسَبِّحُ ويهلل ، وترانيمَ يصدحَ بها رعاةٌ تصادفَ وجودُهم ، لا تدرى من أين جاءوا ، ولا مَنْ أوحى لهم بأن المولودَ مسيحٌ من الله . كل هذا لا يفسر لك لماذا سَكَت قومُ مريم على مريم يوم أتتهم برضيعها تحمله ، ولماذا لم يَنْبسوا فى مواجهة هذه الفضيحة بِبِنْتِ شَفَة ؟ نعم ، قد قال لوقا فى إنجيله (لوقا ٢/ ٨ ـ ١٩) إن مَلَكاً ظهر للرعاة ، كما قالَ متى فى إنجيله (متى ٢/ ١ـ٢) إن نجماً ظهر للمجوس ، ولكن من سَيصدِّقُ الرعاةَ أو يُصدِّقُ المجوس؟ وقالت الأناجيل أيضا (متى ١/ ١٨ـ٢٤) إنه لما بدت أعراضُ الحمل على مريم فَكَّر خطيبُها يوسف النجار فى تَخْليتها سراً ، لولا أن تراءى له مَلَكُ الرب فى حُلمٍ فَبَرّأ مريم ، وصَدَّقَ يوسفُ بالرؤيا وضَمَّ مريمَ إلى كنفه ، ولكن من سَيُصدِّقُ يوسف ؟ الأحرى أن يتهموه . بل هذا هو الذى يقصه عليك لوقا بالنص : "ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة وهو على ما يُظَنُّ ابن يوسف بن هالى .... الخ" (لوقا : ٣/ ٢٢) ، يَدعَمُ بها نسَبَ المسيح إلى داودَ عَبرَ يوسف النجار الذى من نسل داود ، هذا النسب الذى أنكره المسيحُ من بعد ، وما كانت به إلى هذا النسب من حاجة، فلا أبَ للمسيح إلا أمهُ مريمُ ابنةُ عمران ، ليس هو من نسل داود وليس من سبط يهوذا ، بل هو من سبط والدته ، وجدِّه عمران ، سبطِ لاوى ، وكَذَبت نُبوءَةُ كاتب سفر التكوين على لسان يعقوب فى اختصاص سبط يهوذا بالنبوة والمُلْك ، فكان أوَّلَ ملوك بنى إسرائيل شاؤولُ (طالوت) الذى من سبط بنيامين ، وكَذَبت نُبوءَتُهُ أيضا فى تَرذيلَ سبط لاوى ، فَكَرَمَ اللهُ هذا السبطَ الذى جاء منه موسى وهرون ، وخُتِمَ خَيْرَ ختامٍ بالمسيح بن مريم ، صلواتُ الله وسلامُه على جميع رُسُلِه وأنبيائه . تَوَرطَ إذن مَتى ولوقا فى استمساكهما بتأصيل نسب المسيح إلى داود استناداً إلى هذا الخَيْطِ الواهى عَبْرَ يوسفَ النجار خطيب مَريَم . وليس فى عبارة لوقا : "وهو ـ أى المسيح ـ فيما

يُظَنُّ ابنُ يوسف ابن هالى .. الخ " إلا تفنيدُ هذا النسب فى واقع الأمر ، فما بالك بتكذيبه على لسانِ المسيح نفسه فى الأناجيل ؟ هذا التعلق بالنسب إلى داود يشوشُ على عُذْريَّةِ مولد المسيح صلواتُ الله عليه ـ وإن يكن من مَتَّى ولوقا بالطبع غيرَ مقصود . ولكنه يُسجلُ لك ظَنَّ الناسِ ظنَّ السوء بمريم وابنها عليهما السلام منذ مولده وقبل مبعثه صلواتُ الله عليه ، فلماذا سكتوا على مريم ويوسف ؟ الراجحُ عندى لا يصح غيره أن خِطبة مريم ليوسف ما كانت لتحدث قبل حَمْلِها الإعجازى بالمسيح ، لقول القرآن فيها : { **ومريمَ ابنة عمران التى أحصنت فَرْجَها فنفخنا فيه من رُوحنا** } (التحريم : ١٢) وإحصانُ الفرج هنا كنايةٌ عن التَّبَتُّلِ والانقطاع لعبادة الله لا زوجَ ولا وَلَد ، وما كان لِبَتُول أن تَقْبَل خِطبةَ الرجال ، لا يوسفَ النجارِ ولا غيره . وإنما خَطَبَها يوسف ـ خلافًا لقول الأناجيل ـ بعد حَمْلِها ، وربما بعد ولادَتها . مُصَدِّقاً مؤمناً بالآيةِ والمعجزة ، لتكون مريمُ وابنُها فى كَنَفِه ورعايته لا غير ، فهو أبٌ بالتبنى فحسب إن جاز التعبير .

أما لماذا خَرِسَت ألسنَةُ السوءِ عن مريم وابنها يوم أتت به قومها تحمله ، فلم تُزَنَّ بريبة ، ولم يتعرض لهما الكتبةُ والفَرِيسيُّونَ بسوء ، منذ مولد المسيح وحتى مبعثه ، فلا مبررَ لهذا من العقل والمنطق وأخلاقِ اليهود وناموسهم ، إلا هذه المعجزةُ الكبرى التى سَجَّلَها القرآنُ العظيم وفاتت على كتبة الأناجيل فلم يُعْنَوا بتسجيلها ، أعنى كلامَ المسيح فى المهد ، ينطِقُ وهو الرضيعُ بالبراءة القاطعة لوالدته عليها السلام ، فتنقلبُ التهمةُ إلى شَرَفٍ أيِّ شرف ، إعجازِ الله فيها وفيه ، وينقلبُ الغمز واللمز والتجريح إلى تسبيحٍ وتهليلٍ ، وتتناقلُ الألسنةُ حديثَ الطفل المعجز مَنْ سيكون . ولكن الذى نَطَقَت الملائكةُ بلسانه وهو فى المهد فصيحاً بليغاً ، يَصْمُتُ من بعد حتى تأتى سنه لينطقَ كما ينطقُ الطفل . وتمضى به الأيامُ ويُنْسَى ما كان كما يُنسى كُلُّ شىءٍ بعدَ حين ، إلا منهُ هو نفسه ومن خاصته وأهلِ بيته ، وإلا من والدته عليها السلام التى أُنبِئَت يومَ حملها به أن الله جاعلُهُ آيَةً لبنى إسرائيل .

والذى ينبغى التنبيه إليه أن القرآن العظيم لا يَنْعى على اليهود قولَهُم البهتانَ فى مريم عليها السلام ، وإنما هو يُكَفِّرُهم بهذا القول : { **فبما نَقْضِهم ميثاقَهم وكُفرِهم بآياتِ الله وقتلِهم الأنبياءَ بغير حَقٍ وقولِهم قلوبُنا غُلْفٌ بل طَبَعَ اللهُ عليها بكفرِهم فلا يؤمنون إلا قليلا . وبكفرِهم وقولِهم على**

مريمَ بهتانا عظيما } (النساء : ١٥٥ ـــ ١٥٦) . وإنما قال اليهودُ هذا البهتانَ على مريم بعد مَبْعَثِ المسيح لا قبله ، قالَهُ منهمْ مكَذّبُوه وشانئوه وطالِبُو دَمِه ، يطعنون فى نَسَبِه طعناً فى نبوته ، لُعِنُوا بما قالوا .

ولكن الله عز وجل ما كان لِيكَفِّر قائلى هذا البهتان على مريم ـ وهو لا يتجاوزُ القذف ـ لمجرد قولهم هذا ، وإنما كَفَّرَهُم اللهُ عز وجل لأنهم شَهِدوا الآيةَ المعجزة ، ثم كَفَرُوا بما شهدوا وعاينوا .

لم يكن مولد المسيح الإعجازى سراً بين مريم وابنها ، أو بين مريم ويوسف ، أو بين مريم وخاصَّةِ بيتها ، أو بين مريم وبين نبى الله زكريا أبى يحيى كافِلِها وراعيها ، الشاهدِ لها بالرزق يأتيها به الملائكةُ فى المحراب ، وإنما استعلن اللهُ بهذه الآية لبنى قومها جميعا { **ولنَجْعَلَهُ آيةً للناس** } على لسان هذا المتكلم فى المهد الذى نطق بنسبه الصحيح : "وبَراً بوالدتى" ، ليس له والدٌ غيرها .

سَمِعَ الناسُ منه هذا وشهدوا وعاينوا ، وما كان لهم بعد هذه الآية إلا أن يؤمنوا بما شَهِدوا وعاينوا . ولكنهم كَفَرُوا بها .

ومن يَكْفُر بآيات الله فقد كفر بالله عز وجل .

هذا القرآنُ ينطقُ بالحق ويهدى للتى هى أَقْوَمَ ، فما ضَرَّهم لو آمنوا به مُصَدِّقا لما معهم ، حفيظا عليه ، مُحَقِّقا مهيمنا ؟ ولكن ليس عليك هُداهم ، بل يهدى اللهُ لنورِهِ من يشاء ، حين يشاء ، وهو أَعْلَمَ بالمهتدين .

أما أنتِ أيتها الصدِّيقةُ مريم ، أَمَةُ الرب ، فعليكِ صلواتُ اللهِ وسلامه مع النبيين والصديقين والشهداء ، وحَسُنَ أولئكَ رفيقا .

(٥٦) عيسى

" عيسى" هو الاسم المسَمَّى به المسيح عليه السلام فى القرآن ، بينما هو فى أصول الأناجيل اليونانية يجىء على Iesou (يِسُو) تضاف إليه السين فى حالة الرفع وتضاف إليه النون فى حالة النصب فيصبح Iesous أو Iesoun (يِسُوس أو يِسُون). والمجمعُ عليه أنه من العبرية "يِشُوع " . ذهبت عينُها الخاتمة عند اليونان وانقلبت شينُها سينا . ومن "يِشُوع " العبرية هذه جاء الرسم " يَسُوع " بالسين الذى تقرؤه اسما للمسيح فى الترجمات العربية للأناجيل اليونانية الأصل ، استئناسا بأن الشين تنقلب إلى سين فى العربية ، غالبا ، وهذا صحيح بالنسبة إلى الاسم العبرى "يِشُوع" بالذات لأنه من المادة العبرية " يَشَعْ " التى تكافىء " وسع " العربية .

والمحقق الثابت أن العرب لم يسمعوا من نصرانييهم هذا الاسم عيسى الذى جاء به القرآن ، وإنما سمعوها منهم "يسوع" بالسين على اللفظ الذى ينطقُ به نصارى السريان تحولا عن الشين التى فى "يِشُوع" العبرانية إلى السين التى فى Iesous اليونانية فى أصول الأناجيل .

أما لماذا قال القرآن "عيسى" ولم يقل " يسوع " التى عرفها العرب اسما للمسيح ، فهذا من فرائد إعجاز القرآن فى أعلامه الأعجمية : لو قالها "يَسُوع" على ماشاعت به، لفهمها العربُ من العربية على معنى " الذى ساع" من ساع يَسُوعُ سوعاً، يعنى ضاع وهلك، ولم يَهْلك المسيحُ على الصليب كما يؤمن الذين شُبِّه لهم ، فما قتلوه وما صلبوه ، بل تَوَفَّاهُ اللهُ رافعاً إياهُ إليه ، أى تَوَفَّاهُ بأن رَفَعَهُ إليه ، سليماً مُعافى لم تَهْلِك منهُ شعرة ، ولم يُخْدَش منهُ ظفْر ، جسداً حياً ولم يَزَل ، لا يموتُ إلا والساعةُ قريب ، فهو من أعلام الساعة وأشراطها ، يَنْزِلُ فى الناس بالحق الذى جاء به القرآنُ فيه ويُصَحِّحُ مقولةَ الذين شُبه لهم ، ثم يموتُ على دين خاتم النبيين كما مات الرُسُلُ من قبله ليُبْعَثَ معهم يومَ يقومُ الأشهاد : { **وإن من أهل الكتاب إلاَّ ليُؤْمِنَنَّ به قبل موته ، ويومَ القيامةِ يكونُ عليهم شهيدا** } (النساء : ١٥٩) .

وليس أصل معنى "التَّوَفِّي" في اللغة هو الإماتة ، كما يُخطيءُ مفسرون ، وإنما "التَّوَفِّي" في أصل معناه ، بل وفي معناهُ القرآنيِّ بالذات ، هو " الاستيفاء " ، أي "الاستخلاص" كاملاً غيرَ منقوص ، تقول منه : وَفَّيْتُهُ حَقَّه ، وتوفَّى هو حَقَّه ، يعني أخذهُ كاملا ، ومن هذهُ قولُهُ عز وجل : { **وإنما تُوَفَّوْنَ أجوركم يومَ القيامة** } (آل عمران : ١٨٥) . ومنه أيضا : { **الله يَتَوَفَّى الأنفسَ حين موتها ، والتى لم تمت فى منامها** } (الزمر : ٤٢) . وإنما جاز "التَّوَفِّي" بمعنى الإماتة لأن الموتَ مترتبٌ عليه، أعني الذي مات إنما مات لأن اللهَ " تَوَفَّى" نفسَه أي قبضها إليه، أي استخلصها من هذا الجسد. والذي في المسيح ليس من هذا ، وإنما هو في المسيح على أصل معناه : التَّوَفِّي بمعنى الاستخلاص كاملاً غيرَ منقوص ، دليلُك في هذا قوله عز وجل: {**إذ قال الله ياعيسى إنى مُتَوَفِّيك ورافعُك إلىَّ**} (آل عمران :٥٥)، لو فهمتَها بمعنى " إني مميتُك ورافعك إلَيَّ " لما كان لكلامك معنى ، فالله لا يَرْفَعُ إليه جسداً مَيْتا ، وهو أيضاً لا يرفعُ إليه نَفْساً أُميتَ جسدُها بالتَّوَفِّي ، أي بتَوَفِّي النفس، وإنما هو يقبضُ الأنْفُسَ ولا يَرْفَعُها. وحتى إن سَوَّغَت لك نفسُك هذا الفَهم السقيم فقلت أن "الرفع" هاهنا بمعنى "القبض" ، فقد أماتَ اللهُ إذن المسيح على هذه الأرض وقبض نفسه كما يَقْبِضُ اللهُ الأنْفس ، فماذا يبقى لديك من معنى الآية ، وقد تَقدَّمها مباشرةً قول الله عز وجل : { **ومَكَرُوا ومَكَر الله ، والله خير الماكرين**} (آل عمران : ٥٤) أي أرادوا صَلْبَهُ وأرادَ اللهُ بالمسيح شيئاً آخر؟أفَيَصحُّ أن يكون هذا الشيءُ الآخر هو أن يُميتَ اللهُ عيسى كيلا ينالوه حيا ، وكأن المعنى لم يقتلوهُ ولم يصلبوهُ وإنما أَمَتْنَاهُ نحن بأيدينا لا بأيديهم؟ فما الإعجازُ في هذا ؟ أفي هذا إنجاءٌ وتخليص؟ وما قيمةُ هذا في جنْبِ مَكْرِ الله عز وجل وتدبيره وهو "خيرُ الماكرين" ، هذا هُراءٌ بالطبع لا يَصِحُّ أن تَقعَ فيه إن وَقَعْتَ على مثله . وخلاصةُ قول المفسرين في هذا (راجع تفسير القرطبي للآية ٥٥ من سورة آل عمران) أن المسيحَ عليه السلامُ رُفِعَ بجسده ونفسه معا ، أي رُفِعَ جسداً حيا ، وأنه لم يزل كذلك ، إلى أن يُهْبِطَهُ اللهُ إلى الأرضَ ليموتَ عليها كما مات الأنبياءُ وكما يموتُ البشرُ وكُلُّ ذي نَفْسٍ ، لأن كُلَّ نَفْسٍ ذائقةُ الموت كما أخبرَ القرآن . أما قَوْلُهم في التَّوَفِّي فَفريقٌ على أنه بمعنى القبض ، أي إني قابضُك إلَيَّ ورافعك إلَيَّ ، وكأن الرفعَ هو التَوَفِّي . وهذا من الحشو الذي لا يُضيف جديدا ، فأنا وأنتُ نُنَزِّهُ القرآنَ عنه . أما الفريقُ الآخر الذي يُصرُّ على أن التوفي بمعنى الإماتة ، فهو يقول ان في الآية تقديماً وتأخيراً ، أي إني رافعُك إلَيَّ

ومُطهِّرُكَ من الذين كفروا ، ومتوفيك بعد ذلك ، أى حين يُعيدُهُ إلى الأرض مرةً أخرى ليشهدَ على الذين خاضوا فى عبدهِ ورسوله . وليس هذا أيضا ـ أى التقديمُ والتأخير ـ بمقبول، لأنه يعكس ترتيبَ الأحداث منذ الرفع إلى التوفى وبينهما فَجْوَةٌ اتسعت حتى يومنا هذا لحواليْ عشرين قرناً من الزمان والله أعْلَمُ متى تلتئمُ الفجوة ، ولا يصح فى هذا تقديمٌ وتأخير ، وإنما هو خَلطٌ وتخليط نُنَزِّهُ أنا وأنت القرآنَ عنهما : لاحيلةَ لمن أراد التَوفِّى فى الآية بمعنى الإماتة إلا أن يُسَلِّمَ بخطئه ، إن وقع التَوفِّى بمعنى الموت أولا على الترتيب الذى جاء به القرآن ، فقد امتنع الرفعُ والتطهير ، وإن افترض فيه تقديماً يُرادُ به التأخير ، أى أراد معكوسَ الترتيب الذى فى القرآن ، فلا يصح له هذا إلا بافتعالٍ لاَ يليقُ بجلالِ القرآن .

على أن هناك من قال كما نقول نحن ان التَّوَفِّى فى الآية هو بمعنى الاستيفاء على أصل معناه ، ولكنه لم يُوَفَّق إلى استجلاء مُراد القرآن من هذا الاستيفاء : قال ان الله عز وجل وقد رَفَعَ عيسى إليه حياً لم يَمُت ، إنما استوفى عُمْرَهُ فى الدنيا ، أى استكملَهُ له ، أى استوفى حياتَهُ على الأرض بين الناس . ولايصح هذا من وجهين ، الأول أن المسيح المرفوع لم يستكمل حياتَهُ على الأرض ، بل سيعودُ إليها ليستوفى ما بَقِىَ لَهُ من عُمْرهِ . والوجهُ الثانى أن هذا القول لا يصح فى اللغة ، لأن المفعول فى "متوفيك" هو المسيحُ نفسُه ، لا عُمْرَ المسيح ولا حياتُه ، فالمستوفَى (بفتح الفاء) الذى استوفاه اللهُ هو المسيحُ لا عُمْرُ المسيح ، واستيفاءُ المسيح يعنى استخلاصه مما أرادوهُ به، أى القتلِ والصلب ، فهو الإنجاءُ والتخليص ، الذى فَسَّرَهُ القرآنُ المعجز بقوله عُقَيْبَ هذا مباشرة : { ومُطَهِّرُكَ من الذين كفروا } أى أسُلُّكَ منهم كما يُسَلُّ الحقُّ من الباطل ، وكما يُنْفَضُ الوَسَخُ عن الثوب . وقد ظن المفسرون ـ ولم يوفقوا ـ أن التطهير فى الآية يعنى إبراؤه من ذنب ما قالوه فيه ، إلَه أو ابن إله ، ولا يصح هذا أيضا لأن قَالَةَ هذه المقالة ما كانوا قد وُلِدُوا بعد ، بل حتى إن سلمت كما يؤمن النصارى بأنهم قالوها وهو بين ظهرانيهم فما كانوا هُمُ الذين طلبوا قَتْلَهُ على الصليب.

أما الذى لم يعْلَمْهُ المفسرونَ جميعا فهو أن القرآن المعجز يُفَسِّرُ بالتَّوَفِّى ، أى الاستنقاذ والتخليص ، هذا الاسمَ العَلَم "عيسى" ("يشُوع" عبريا) كما سترى ، وسبحان العليم الخبير .



يَنُصُّ القرآن على أن الله هو الذى سَمَّى المسيحَ بن مريم ، لا والدتُهُ وذووه : {**إذ قالت الملائكةُ يا مريمُ إنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بكلمةٍ منه اسمُهُ المسيحُ عيسى بْنُ مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين**} (آل عمران ٥٤)، كما سَمَّى اللهُ يحيى من قبلُ لأبيه. والذى تُلاحظُهُ من هذه الآية فى سورة آل عمران أن القرآنَ لا يُسَمِّيهِ بالاسم عيسى فحسب ، وإنما يُلَقِّبُهُ أيضا بهذا اللقب الذى غَلَب عليه من بعد : " المسيح" . وهو لا يسميه ويلقبه فحسب ، وإنما هو أيضا يَنْسِبُه : "ابنُ مريم" ، إن أردت أن تدعوه بأبيه فلا أبَ له غيرُها .

أما اللقب ، " المسيح " (مَشِيح عبرياً) ، فمعناهُ فى مصطلح اليهود الممسوحُ ، يريدون الذى مُسِحَ بدُهن البركة (زيت الزيتون) ، أى الذى صُبَّ الدُّهنُ على رأسه ، مَلِكاً كان أو كاهنا أو نبيا ، فيصير بهذه المَسْحة " قديسا " ، يعنى صدِّيقا فى لغة أهل القرآن وإن لَغَط بعضُ أهله فى هذا العصر بالقديس والقديسين مُتَابَعةً لأهل الكتاب الذين يقرءون لهم ولا قداسةَ ثَمّ ، وإنما هى الصِّدِّيقيةُ لا غير . وقد كانت هذه المسحةُ طقسا من طقوس اليهود فى كهنوتهم ، يرْسُمُ بها الكاهنُ كاهنا مثله ، أو يرسم بها نبيا " اعتمد" الكهنوت نبوتَه ، أو يرسم بها الكاهن أو النبى مَلِكاً نَصَّبُوهُ على بنى إسرائيل، أو يرسم النبى نبيا يخلفه فى النبوة ، فهى الرِّسامة ، أى التَّنْصيبُ فى الكهانة أو المُلك أو النبوة. وقد آل اللفظ فى مجاز العبرية إلى معنى "الصديق" وإن لم يرسمه كاهنٌ أو نبى ، فهو المبارك . ومُسحاء الرب، يعنى أولياؤه ومُباركوه . "المسيح" إذن عربيةٌ بلفظها فقط ، ولكنها أعجميةٌ بمعناها، رغم التقارب اللفظى الشديد بين "مَسيح" العربية وبين "مَشيح" العبرية ـ الآرامية ، لغة المسيح ولغة أهله وعشيرته وحوارييه ، لتخصيص معنى " المَسح " بما ليس فيه عند أهل الكتاب ، فَيَنْبَهِمُ عليك المعنى المراد من هذا الوصف ، إلا إن كنتَ متضلعا من مصطلحات اليهود العبرانيين ، ناهيك بأن تكون لغتُك غيرَ ساميَّة ، فلا تدرى ما المراد من Messiah أو Messie ، والانبهام يؤدى إلى التوهم والتضخيم فتذهب بك التَّوَهُّماتُ كُلَّ مذهب فى مدلول لقب "المسيح" دون أن تدرى أن قد خَلَت من قبلِه المسحاءُ فى بنى إسرائيل بالألوف: إنه فحسب المُبارك أو الصدِّيق .

وقد فسر القرآن لفظ " المسيح " على معنى " المبارَك " على لسان عيسى يوم أنطقه الله فى المهد ليستعلن بنسبه ويتحدث بآلاء الله عليه : { **قال إنى عبد الله**

آتانى الكتاب وجعلنى نبيا. وجعلنى مُباركا أين ما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دُمْتُ حيا. وبَرّاً بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا. والسلام علىَّ يوم ولدت ويوم أموتُ ويوم أبعثُ حيا} (مريم : ٣٠ ــ٣٣].

وتسميةُ القرآن عيسى بن مريم بالمسيح يوم البُشْرَى بِهِ لمريم ، تُفيد أنه مسيح من الله ، أى مباركٌ منه جل وعلا ، وإن لم يرسمه كاهن أو نبى ، بل وُلِد "مسيحا" ، تلك التى غلبت عليه ، تَعْرِفُهُ بها وحدها دون أن يُسمَّى لك بالاسم "عيسى" أو عيسى ابن مريم، فهو المسيح بإطلاق. وهى فى المسيح عيسى عليه السلام لا تجىء إلا مُعَرَّفَةً بالألف واللام ، دالةً على عَلَمِيَّتِها فيه وحده ، فهى اللقبُ الذى اختُصَّ به .

والذى يدلُّكَ على اختصاص عيسى بن مريم صلوات الله عليه بلقب "المسيح" ، اجتزاءُ القرآن فى ثمانية مواضع اجتزاءً مطلقا عن الاسم "عيسى" بلقبه ، " المسيح" ، وهى : { **لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله** } (النساء : ١٧٢) ، {**لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير** } (المائدة : ١٧) ، { **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار** } (المائدة : ٧٢) ، { **ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرُّسُل وأُمُّهُ صدِّيقة كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف نُبيِّنُ لهمُ الآياتِ ثم انظر أنَّى يؤفكون** } (المائدة : ٧٥) ، { **وقالت اليهودُ عزيرٌ ابنُ الله وقالت النصارى المسيحُ ابن الله، ذلك قولُهم بأفواههم ، يضاهئون قولَ الذين كفروا من قبل، قاتَلَهُم الله أنَّى يؤفكون. اتخذوا أحبارَهُم ورهبانهم أربابا من دونِ الله ، والمسيحَ ابنَ مريم ، وما أُمِرُوا إلا ليعبدوا إلها واحداً ، لا إله إلا هو ، سبحانَهُ عما يشركون}** (التوبة : ٣٠ ــ ٣١) .

والذى يستوقفك هنا أن هذه المواضع الثمانية بالذات هى الآياتُ التى شَدَّدَت النكيرَ على من قالوا إن المسيح إلهٌ على البنوة لله ، وقد تَعَمَّد القرآن المعجز الاجتزاءَ فيها عن اسم عيسى بلقبه الملازِمِ له ، "المسيحُ" ، لينبِّه من لم ينتبه إلى أن "الممسوح" يقتضى "ماسحاً" يمسحُه ، وأن "المبارك" يقتضى من "يباركه" وأن الذى هو من جوهر الله على قول من قال ، لايحتاجُ إلى هذه "المَسْحَة" أو هذه البركة من الله بالذات ، ناهيك بأن يحتاجَ إليها من غيره ، أو أن يسعى إليها عند يحيى بن زكريا ليُعَمِّدَهُ[1] فى ماء نهر الأردن شأن الساعين إلى هذا العماد على يد يحيى ، فلما التقى النبيان امتنع عليه يحيى بتواضع الأنبياء قائلا له : " أنا محتاجٌ أن أعتمد منك وأنت تأتى إلىَّ؟ فأجاب يسوع وقال له اسمح الآن ، لأنه هكذا يليقُ بنا أن نُكَمِّلَ كُلَّ بِرٍّ" (متى٣/١٤ ـ ١٥).

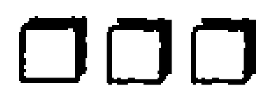
وقد اعتل تلاميذُ يحيى من بعد على تلاميذ المسيح باعتماد عيسى منه ، ولم يعتمد يحيى من المسيح، فيحيى إذاً أرفعُ رتبةً من عيسى وإلا لما احتاج إليه المسيح. ولكن الأناجيل ترد على هذا بأن عيسى لم يباشر مهام نبوته ولم يستعلن بها للناس إلا بعد مقتل يحيى : "وبعد ما أُسْلِمَ يوحنا جاء يسوعُ إلى الجليل يَكرزُ ببشارة ملكوت الله ويقول قد كمل الزمان واقترب ملكوتُ الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل" (مرقس ١/١٤ ـ ١٥) ، وهذا منطقىٌّ تماما ، فلا يصح لمن يدعوانِ بنفس الدعوة أن يُشَوِّشَ أحدهما على الآخر بنفس المقولة : " وفى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز فى برية اليهود قائلا توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات" (متى٣/١ ـ٢) . ولكن التاريخ لم يحفظ لك ما كتب تلاميذُ يحيى فى سيرة معلمهم مثلما حفظ لك فى تلك الأناجيل ما كتبه تلاميذُ عيسى فى سيرة يحيى والمسيح معا . وقد حرص كاتبو الأناجيل ـ وكأنهم يردون على تلاميذ يحيى الذين ضاعت كتاباتهم ـ حرصاً شديدا على إثبات ما يُعْلى رتبة المسيح على ابن زكريا ، وبالغوا فى هذا إلى حَدِّ الإغراق ، من مثل قولهم

(١) لا يشتبهن عليك العمادُ والاعتمادُ هنا بمعانى الإقرار والإجازة ، فالجذر " عَمَد " المعْنى هنا ليس عربيا ، وإنما هو من العبرية ـ الآرامية بمعنى " وقف منتصبا " شأن المعتمد من يحيى الذى يغطسه فى ماء نهر الأردن قائما . وقد أحْسَنَ نصارى مصر بقولهم الغطاس بدلا من العماد ، لأن " الغطاس" أدق فى ترجمة Baptizein اليونانية . وقد قيل يحيىَ المغتسل بدلا من يحيى المعمدان ، وليس بشىء ، والصحيح يحيى المغطاس .

على لسان يحيى إنه ليس أهلا لحمل حذاء عيسى (متى ٣/١١) ولايجمل هذا بالأنبياء حتى فى تواضعهم ، بل هو اتِّضاعٌ مَقيت لا يليقُ البتة بمن اعتمد منه المسيحُ وشَهد له بالنبوة ووصفه فى تلك الأناجيل بأنه لم يَقُمْ فى المولودين من النساء من هو أعظمُ من يوحنا (متى ١١/٩ ـ١٢) ، ولكنه يستدرك فيقول فى نفس الموضع "ولكن الأصْغَرَ فى ملكوت السموات أعظمُ منه " ، يعنى نفسه فى قول شراح المسيحية ، وحتى إن سَلَّمْتَ هذا فلا يصح أن ترتب عليه أن يحيى ليس أهلا لحمل حذاء عيسى ، لأنه تَصاغُرٌ يسلبُ يحيى نُبُوّتَه ، ولأنه لا يصح الاتضاعُ ويكْرُمُ إلا لله عز وجل ، فلا يصحّ اتضاعُ الأنبياءِ لغيره جَلّ وعلا ، ولا يصح أيضا تفاخرُهُم على الناس أنبياء وغيرَ أنبياء . وقد كان عيسى عليه السلام غايةً فى التواضع ، يَأبى على أتباعه أن يُعَظِّموه : " وفيما هو خارجٌ إلى الطريق ركَضَ واحدٌ وجَثَا له وسألهُ أيُّهَا المُعَلِّمُ الصالح ماذا أعملُ لأرثَ الحياةَ الأبدية . فقال له يسوع لماذا تدعونى صالحاً . ليس أحدٌ صالحاً إلا واحدٌ وهو الله " (مرقس ١٠/١٧ ـ١٨) . الذى يقول هذا لا تنتظر منه أن يُعَظِّم نفسه .

غالت الأناجيلُ إذن فى تعظيم المسيح حتى أشْرَفت على المُنْزَلَق الخطر . ومن هذا حذر النبيُ الخاتم (١) : " لا تُفضِّلونى على يُونُس بن متى ! " فالنبوةُ من الله عز وجل ، يرفعُ درجاتٍ من يشاء ، والمُوحِي واحد ، الفضلُ له والمَنّ ، فلا فاضِلَ ولا مفضول .

وقد جَرّت هذه المُغالاةُ فى المسيح كما تعلم إلى شَرٍ كبير .



أما الاسم "عيسى" فقد جاء فى القرآن على الإبدال من "يِشوع" العبرية التى نطقها نصارى السريان للعرب على اللفظ " يَسُوع " تبَرُكا بسين "يشوع" التى فى الرسم اليونانى فى أصول الأناجيل ، واحتفظت بها الترجماتُ العربية فقالت هى أيضاً "يَسُوع" .

وأنت لا تَظُن بالطبع أن الملائكة يومَ بُشّرتَ مريمُ بالمسيح كانوا يخاطبونها بهذا اللفظ العربى الذى فى القرآن : " اسمه المسيح عيسى بن مريم " وإنما خاطب الملائكةُ

(١) وهو " الأصغر فى ملكوت السموات " كما قال المسيح ، أى الأخيرُ بَعْثَةً . فتأمل .

مريمَ بلسان مريم ، أى بالعبرية ـ الآرامية ، فيقولون لها بالعبرية مثلا : " ويقرا شْمُو هَمْشيَح يِشُوع بِنْ ـ مَرْيَم" ، أو يقولون لها بالآرامية : " شْمِيهْ مشِيحا يِشُوعا بار ـ مَرْيَم" ، لم ينطقوها عيسى بالقطع ، وإنما قالوها "يِشوع" .

قد علم القرآن هذا ، كما علم أيضا أن نصارى العرب يقولونها "يَسُوع" . فلماذا تَحَوَّلَ بها إلى "عيسى" ؟

مر بك فى تضاعيف هذا الكتاب أن القرآن يرفض التعريبَ حين يسىءُ التعريبُ إلى المعنى ، أى حين تلتبسُ صورةُ الاسم فى لفظه المعرب بلفظٍ عربىٍ يُغاير معناهُ معنى الاسم الأعجمى فى لغة صاحبه ، فما بالُكَ بتعريبٍ يُفيدُ الضدَّ من معناه ؟

لم يرتضِ القرآنُ إذن هذا التعريب الذى وجده جاهزا عند نصارى العرب ونصارى السريان : يِشُوع = يَسُوع . لأن "يسوع" هذه تعنى فى العربية " السائع الهالك " وما كان الله لِيسَمِّى المسيحَ بهذا المعنى المذموم يوم البُشْرَى به ، فلا يصح هذا فى نبىٍ مُرْسَلٍ من الله ، بل لايصح من آحاد الناس فى مواليد الناس ، وإلا لانقلبت البُشرى إلى فاجعة . بل لا يصح هذا التعريب الببغائىُّ أصلا ، لأن الله سماهُ بالعبرانية "يِشوع" المراد منها العكسُ الصريح لمعنى السائع الهالك الذى فى صِنْوِها اللفظىِّ "يَسُوع" عربياً .

ومر بك أيضا أن القرآنَ حين يَعْدِلُ عن التعريب فهو يَعْدِلُ عنه إلى الترجمة .

أفتكون " عيسى" هى الترجمة العربية لمعنى الاسم العبرانى " يِشُوع " ؟ فما معنى عيسى عربياً وهى لم تقع قط فى كلام العرب ؟

لا يصح اشتقاق عيسى عربياً إلا من فعلٍ ثلاثى أجوف مُعْتَلِّ الوَسَط بالواو أو بالياء ، عاس/ يعوس أو عاس/ يعيس . أما عاس/ يعوس بالواو فمعناه طاف بالليل ، وعاس على عياله يعنى كدَّ وكدح عليهم ، وعاس مَالَهُ يعنى أحسن القيام عليه ، وعَوِسَ يَعْوَسُ عَوَساً فهو أعْوَس ، يعنى دخل شدقاه عند الضحك . وأما عاس/ يعيس بالياء فالمستعمل منه " أعْيَسَ " (الزرعُ) أى لم يكن فيه رَطْبٌ ، "تَعَيَّست" (الإبل) يعنى صار لونُها أبيض تُخالطُهُ شُقرَة ، فهى عيس . وليس فى أى من هذه المعانى جميعا ـ كما سترى ـ شىءُ يُقارِبُ ، ناهيك بأن يُطابق ، معنى الاسم العبرانى " يِشُوع " ، وأصله " يهُوشُوع " ، أى يهْوا خلاصٌ ، أى خَلاصُ الله .

قال بعض الصوفية أيضا أن " عيسى" تجيء من " عَسَى" ، ذلك الفعل الناقص الذى يفيد الرجاء ، فهو المرجوُّ الذى فيه الرجاء . وفى هذا القول جَمالٌ كما ترى ، ولكنه خطأ محض من حيث اللغة ، فلا تصح عيسى التى بالياء بعد العين إلا من فعل أجوف معتل الوسط بالواو أو الياء كما مر بك ، ولا تجيء قط من فعل معتل الآخر فحسب كالفعل " عسى" . هذا الصوفى إن تمعنت ، يُنَسِّقُ مقولته على تفسير النصارى لمعنى الاسم " يشوع " ، التى يقولون إن معناها " المُخَلِّص" الذى يكونُ به الخلاص . وهذا أيضا ـ على الجانب المسيحى ـ تفسيرٌ صوفى يُفَسِّر الاسم ، لا بمعناه فى اللغة ، وإنما بما يُراد له أن يكون .

لم تجيء " عيسىٰ" إذن فى القرآن على الترجمة من "يشوع" ، ولم تجيء أيضا على التعريب لبعد ما بين الصورتين " عيسى" ، "يشوع" (" يسوُع " فى الأناجيل العربية التى نَطَق بها نصارى العرب قبل القرآن) . فَمِمَّ جاءت " عيسى" ؟

الصحيح أن القرآن لم "يعتمد" هذه الصورة المعربة "يَسُوع" التى نطق بها نصارى العرب ، التى وجدها جاهزةً عند نزوله ، لأنها ـ إن حُسِبَت عربية ـ تجيء من ساع / يسوع يعنى ضاع وهلك ، فهو السائعُ الهالك ، على الضد من معنى "يشوع" العبرانية ، خلاصُ الله أى الذى يُخَلِّصُهُ الله وينَجِّيه ، فجاء القرآنُ بالاسم "عيسى" على غير مثالٍ فى العربية ، مقلوباً لاسم "يسوع" لإفادة عكس معناه : ليس هو السائعَ الهالك وإنما هو المُخَلَّصُ الناجى . وأصل المقلوب التام لاسم "يسوع" نطقا هو "عُوسَيْ" (بفتح السين وسكون الياء) وليس من أوزان العربية ، فعدل به القرآن إلى "عيسى" ، زنة "سِيما" ، اكتفاءً فى القلب بدلالة نقل عين " يسو " الخاتمة من آخر الاسم إلى أوله . وبقيت " عيسى" أعجمية غير عربية ، تماما كأصلها العبرى "يشوع" ، يفسرها القرآن بالمرادف : " يا عيسى إنى متوفيك " أى مستخلصك .

لم يَتَسمَّ المسيح عليه السلام بالاسم "يشوع" على غير سابقة فى أعلام العبرانيين وإنما تقدمه أكثر من يشوع ، أول وأبرز من تسمى به قبله عَلَمٌ سبق مولد المسيح بنحو ثلاثة عشر قرنا ، هو "يشوع بن نون " فتى موسى فى سورة الكهف ، الذى خَلَفَ موسى على رأس بنى إسرائيل . كان اسم يشوع بن نون فى الأصل (عدد ١٣/٨) " هُوشِيع " ، ولكن موسى عليه السلام لم يرتضه له فأبدله منه (عدد

١٣/١٦) الاسم "يـهُوشوع"، ثم تَخَفَّفَ "يهوشوع" فصار إلى "يِشُوْع" اختصارا[١]، وهذه الصورة الأخيرة " يِشُوع " هى المعتمدة فى الترجمة العربية للعهد القديم (سفر يشوْع) لاسم فتى موسى يشوع بن نون .

هذه الصور الثلاث : هُوشِيَع - يِهُوشُوَع - يِشُوع ، منحوتة كلُها من الجذر العبرى "يَشَعْ" (المُبْدَل من "وسع" العربى) ، ومعناهُ من الإيساع والسَّعة ، مقصوراً فى العبرية بالذات على معنى واحد ، وهو الخروجُ من الضيق إلى السَّعَة ، يعنى الخلاصُ والتخليص ، وبهذه المادة العربية (الخلاص والتخليص) يُتَرجِمُ المترجمُ العربى للعهد القديم كل مشتقات مادة " يَشَعْ " العبرية فى توراة الأنبياء والكتبة .

أما الصورة الأولى "هُوشِيَع" (التى لم يرتَضِها موسى اسماً لفتاه فأبدلَهُ منها يِهُوشُوع) فهى - أى "هوشيع" - تسميةٌ بالمصدر من "يَشَعْ" بعد تعديته عبرياً بالهاء (وهى التعدية بالهمزة فى العربية) فيكون المعنى "إيساع" أى التخليص والإنجاء، فهو خلاصٌ ونجاء .

وأما الصورة الثانية " يِهُوشُوَعَ " فقد نحتها موسى عليه السلام من مقطعين عبريين هما : يِهُو + شُوع ، الأول مختصر يهوآ ، اسم الله عز وجل فى العبرية منذ موسى عليه السلام كما مر بك ، والمقطع الثانى " شُوَع " مصدرٌ بمعنى السَّعَة ، أى الخلاصُ والنجاء ، فيكون معنى هذا التركيب المزجى هو " اللهُ خلاصٌ ونَجاء " . أراد موسى عليه السلام بهذا التعديل الذى أدخله على اسم فتاه يشوع بن نون التنبيه إلى أن الله عز وجل هو " الفاعل" فى هذا الخلاص وهذا النجاء ، أى لستَ يا "هوشِيعَ" خلاصاً ونجاء ، وإنما بالله عز وجل الخلاصُ والنَّجاء ، فالله هو مُخَلِّصُكَ ومُنجِّيك .

ولأن الصورة الثالثة لاسم فتى موسى (أعنى صورته بالرسم "يشوع") هى نفسها الاسم "يُهوشُوَع" مختصراً كما يقول علماءُ العبرية وعلماءُ التوراة ، فهى لا تحتاج إلى مزيد بيان : إنها نفسها "يهُوشُوَع" التى نَحَتَها موسى عليه السلام ، "الله خلاصٌ ونجاء" يعنى الله مُخَلِّصُهُ ومنجِّيه .

هذا هو معنى "يشوع" عبريا ، اسم المسيح عيسى عليه السلام : " اللهُ مُخَلِّصُهُ ومنجِّيه " . وهى من الله عز وجل تسميةٌ على النبوءة ، لأنه هكذا كان : { **إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا** } (آل عمران : ٥٥) . وقد تقدم .

---

(١) راجع مادة "يشع" فى المعجم العبرى الآرامى لألفاظ التوراة ، المعجم المذكور .

ورغم أن علماءَ المسيحية يعلمون كما تعلم أنت الآن أن "يشوع" المسيح عليه السلام سَمِيٌّ لفتى موسى يشوع بن نون ، وأن معنى يهُوشُوع قبل اختصاره إلى يشوع هو " الله خلاصٌ ونجاء" أى أن الله مُخلِّصُهُ ومُنَجِّيه ، فقد نَحَوا مَنْحَىً آخر فى تفسير اسم يشوع المسيح من دون كل "يشوع" : قالوا إنه ليس من "يَهْوا + شُوَع" ، ولكنه " يهى - يِهىِ + شُوَع " (١) يعنى " هو - يكون - خلاصاً " أى هو المُخَلِّصُ الذى يكون به الخلاص ، وهو تفسيرٌ مفْتَعَل ، لأن هذا بالذات هو الذى نَعَاهُ موسى على اسم فتاه "هُوشِيَع" كما مر بك . ولو أريدَ للمسيح أن يكون بذات اسمه "يشوع" هو الخلاص والنجاء ، تسمية بالمصدر ، فهو المُخَلِّصُ المُنَجِّى" ، لَسُمِّيَ "هوشيع" على ما كان عليه اسمُ فتى موسى " هُوشِيع بن نون" قبل تعديله إلى "يهُوشُوع" التى آلت إلى "يشُوع" كما يقول علماءُ العبرية وعلماءُ التوراة ، دون الحاجة إلى افتعال إضمار "يِهِىِ - يهىِ" (أى "هُو يَكُون") قبل المقطع " شُوع " .

ثم لماذا ينفردُ "يشوع المسيح" بهذا الإضمار المخصوص "يِهى - يهى" من دون كل "يشوع" سبقه أو تلاه ؟ بل وما الدليلُ على هذا من التسمية ؟ ألأنَّ "مَلَكَ الرب" الذى ظهر ليوسف النجار فى الحلم قال له : "فستلد ابناً وتُدعو اسمه يسوع . لأنه يُخَلِّصُ شعبه من خطاياهم" (متى١ / ٢١) ؟ فلماذا لم يُسَمِّهِ جبريلُ لمريم على أصل هذا المعنى "هُوشِيع" أى الخلاص ، أو يُسَمِّه " المُخَلِّص" مباشرةً أى "مُوشيع" زنَةَ الفاعل؟ ولكن لم يلتفت أحد لقول الملك ليوسف النجار عُقَيْبَ هذا مباشرةٍ : "وهذا كُلُّهُ كان لكى يتم ما قيل من الرب بالنبى القائل هُوَذَا العذراءُ تَحْبَلُ وتلدُ ابناً ويدعون اسمهُ عِمَّانُوئيل الذى تفسيره الله معنا " (متى١ / ٢٢ -٢٣) . أفليست "عِمانُوئيل" هذه تعنى " اللهُ معنا " كما قال مَتَّى ؟ فما معنى الله معنا ؟ أليس معناها اللهُ ناصرُنا ومُؤَيِّدُنا ؟ ألا يقترب هذا كل الاقتراب من معنى "يشُوع" التى أصلُها "يهوشوع" أى اللهُ خلاصُهُ ونجاؤه ؟ ولكن اللاهوتَ المسيحى لا يَرَى هذا وإنما يرى أن هذا الطفلَ المُبشَّرَ به هو نفسه " الله" ، يُولَدُ من العذراء ويعيشُ معنا زمناً فهو نفسه "اللهُ معنا" . وهذا هو التفسيرُ بالعقيدة لا التفسيرُ بمحضِ اللغة . على أن النُّبوءةَ لم تقل إن الله سيعيش معنا ، وإنما قالت تَحملُ العذراءُ وتلد مولودا " يسَمُّونَهُ " اللهُ معنا

---

(١) راجع هذا التخريج فى نفس المرجع ، ص ٣٥٤ مادة " يشوع " .

فحسب ، لا أن الله سيجىء إلينا ليكون معنا . إذا قُلتُ لك : اللهُ معك ! فلا يَصِحُّ أن تفهمَ عنى أن الله معك بذاته ، أو أنك أنت من ذات الله ، وإنما الذى تفهمُهُ ببساطةٍ أنّى أدعُو لك اللهَ أن تَصْحَبَكَ عنايتُه ، لا أكثر ولا أقل ، ولكن هكذا كان .

والذى يعنينا هنا فى مقاصد هذا المَبْحَث هو أن نَعْرِف لماذا لم يُرِدْ علماءُ المسيحية ـ خلافاً لعلماء العبرية ـ أن يكون معنى الاسمِ "يشوع" فى المسيح وحده هو نفس معناه فى غيره ، ناهيك بأول من تسمى به : يشوع بن نون ، الذى سماه موسى عليه السلام بالاسم "يِهُوشوع" المختصر من بعد إلى "يشوع" ، التى فَشَت فى أعلام العبرانيين من بعده ، حتى سُمِّى بها المسيحُ عيسى بنُ مريم عليهما السلام .

أراد علماءُ المسيحية من المسيح أن يكون بذاته هو الخلاص "هُوشِيع" الذى يكون به الخلاص ، فهو فادى البشر بدمه المسفوحِ على الصليب ، لم يُخَلِّصُه الله من الصلب كما فى القرآن ، فلا يَصِحُّ أن يكون اسمُهُ بمعنى الذى يُخَلِّصُهُ اللهُ ويُنجّيه "يِهُوشُوع" .

أسقط علماءُ المسيحية إذن اسم الله " يهوا " المُضْمَر فى "يشوع" (التى أصلُها "يهوشوع" أى "يهوا + شوع" كما مر بك) ، فبقيت " شوع " فأضمروا قبلها ـ لا يهوا اسم الله فى العبرية ـ وإنما "يِهِى ـ يِهِى" (أى " هُوَ يَكُون ") فأصبح معناه عندهم "هُوَ يَكُونُ الخلاص" ، يريدون هو " المُخَلِّصُ المنجّى" ، لا " المُخَلَّصُ الناجى" كما فَسَّر القرآنُ هذا الاسم فى قوله عز وجل : { **إذ قال اللهُ يا عيسى إنى مُتَوَفِّيكَ ورافعُك إلىَّ ومُطَهِّرُك من الذين كفروا** } (آل عمران ، ٥٥) يعنى الله مُستخلصُكَ (وهى نفسُها ـ عبرانياً ـ يِهُوشُوع " التى جاء منها "يِشُوع" اسم عيسى فى الآية) أى مُسْتَوفِيكَ كاملاً غيرَ منقرص .

لم يَرَ علماءُ المسيحية ضَيْراً فى هذا "الإبدال"، لأن "الابن" عندَهم من جوهر "الآب"، وإذن فَهْوَ هُوَ . بل إن الكلمة" (أى المسيح) كما قال يوحنا فى إنجيله "كان عند الله، وكان الكلمةُ اللهَ"(يوحنا ١/١). وقد كَفَّرَ القرآنُ قائلَهَ هذه المقولة كما تعلم، وتَبَرَّأ منها المسيحُ عليه السلام فى القرآن: {**ما قُلتُ لهم إلا ما أمرتنى به، أن اعبدوا الله ربى وربكم، وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما تَوَفَّيْتنى**

كُنْتَ أنتَ الرقيبَ عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد } (المائدة : ١١٧) ، لم يَدْعُ إليها هو ، ولم تُقَلْ لَهُ وهو بين ظهرانيهم ، ولكنها قيلَت بَعْدَه .

فلماذا وكيف ، تَبَدّلَ الناس قولاً غيرَ الذى قيلَ لَهُم ؟



بُعِثَ عيسى عليه السلام ابنَ ثلاثين سنة[١] رسولاً إلى بنى إسرائيل حوالىٌ سنةِ ستٍ وعشرين ميلادية ، وفلسطينُ يومئذٍ ولايةٌ رومانية تَحْكُمُها روما مباشرة ، وروما يومئذٍ والعالمُ القديمُ كُلُّه ، وثنىٌّ مُشْرِك ، إلا بنى إسرائيل ، الشعبَ الذى يعبدُ الواحدَ الأحد منذُ إبراهيم . وقد تَنْدَهِشُ كيف يَبْعَثُ اللهُ الرسلَ إلى شعبٍ مُوَحد ، بل وكيف يَخُصُّهُ بجَمٍ غفيرٍ من رسله وأنبيائه ، فلا يكاد يخلو منهم جيلٌ إلا وقد كان معهُ طبيبٌ يُطَبِّبُهُ ويُداويه . ولكنك تستدرك على نفسك فتقول أن داءَ العارِفِ الجاحد أعتى من ضلالةِ حائر يلتمسُ مَنْ يهديه .

كانت رسالةُ المسيح إذن ـ شأنهُ شأنُ مَنْ سبقه ـ قاصرةً على هذا الجيل الضالّ من "بنى الأنبياء" الذين حَارَ فيهم طِبُّ النبوة ، لا تَعْدُوهم إلى غيرهم من أهل الأرض وثنيين ومشركين . نَصُّ المسيح على هذا فى الأناجيل بعبارةٍ قاطعة لا تحتملُ التأويل : " لم أُرْسَلْ إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالّة" (متى ١٥/٢٤) .

لهذا ، لم تكن رسالةُ المسيح إلى قومه رسالةً إلى التوحيد ، لأن دعوةَ التوحيد نداء واقِر فى سمعِ هذا الشعبِ من قديم ، لا يحتاجون إلى من يَدُلُّهم عليه . وإنما كانت دعوتُهُ عليه السلام فى قومه دعوةً إلى توحيدٍ من نوعٍ آخر دَأَبُوا على مخالفته والخروجِ عليه : التوحيد بين الظاهر والباطن، بين القلبِ والقول ، بين الفكرِ والجوارح ، بين الإيمانِ وبين العمل على مُقْتَضَى هذا الإيمان .

كان عليه السلامُ فى دعوته ـ كما تَنْطِق بهذا أقوالُهُ فى الأناجيل ـ يَبْنِى على ما جاءَ به الذين تَقَدَّمُوه ، موسى وإبراهيم ، وما كان لك أن تنتظر غير هذا ممن قال ما جِئْتُ لأَهْدِمَ الناموسَ والأنبياء ، وإنما جِئْتُ لأُكَمِّل ، ناهيك بأن تنتظرَ منه مقولةً غيرَ مسبوقة فى توحيد الله عز وجل تُضِيفُ إليه عيسى وجبريل ، كالتى صِيغَت من

(١) وُلِدَ عليه السلام على الراجح سنةَ ـ ٤ م ، ورُفِعَ سنة ٢٩ م .

بعده مرحلة بعدَ مرحلة فى المجامع ، مَجْمَعاً بعدَ مجمع ، تَثْلُمُ هذا التوحيدَ الخالص الذى جاء بِهِ موسى وإبراهيم ، فَتُبَعِّضُ ذات الواحد إلى آبٍ وابنٍ ومَلك .

والذى ينبغى التنبيه إليه ، أيا كان الدين الذى به تدين ، أن كلمة الرسول فى لب العقيدة وجوهرها لا تؤخذ من فم الشراح ، تلاميذ وغير تلاميذ ، كهنوتا وغير كهنوت ، وإنما تؤخذ من فم صاحب الرسالة نفسه ، يقولها جلية بينة فيفهم عنه سامعوه مباشرة ، دون وسيط ، عالمهم وجاهلهم سواء ، ثم يتناقلونها من بعده خَلَفاً عن سَلَف ، اللفظةَ باللفظة ، والحرف بالحرف ، لأن النبى لم يَقُل لهم هذا الكلام من عنده وإنما من عند الذى أرسله ، أى من الله عز وجل ، لا يجوزُ فيه التبديل ، ولا تجوزُ فيه الإضافة ولو بقصد التفسير والتوضيح : النبى الذى يحتاج فهم مقولته إلى تفاسير شُراحٍ يجيئون بعده بقرون ، يتفقون ويختلفون ، ويتجادلون ويتناظرون ، ثم يقترعون بأغلبية الأصوات فى المجامع أيهم المخطىء وأيُّهم المصيب ، ليس بنبى ، لأنه لم يُحسن تبليغ الرسالة كما أنزلت إليه .

لم يكن هذا بالطبع حالُ المسيح عليه السلام ، حاشاهُ أن يكون . الذى أبلغ فأدَّى . يكفيك من محكم قوله فى تأصيل عقيدة التوحيد الخالص "لا اله إلا الله" قولُهُ المحفوظُ فى الأناجيل التى بين يديك حين سُئل عن أعظم الوصايا فى توراة موسى فأجاب : " إن أول كل الوصايا هى : اسمع يا إسرائيل ، الربُّ إلهُنا ربٌّ واحد ، وتُحبُّ الربَّ إلهَك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك . هذه هى الوصيةُ الأولى . وثانية مثلها هى : " تحب قريبك كنفسك [1] . ليس وصية أخرى أعظم من هاتين" ، فقال السائل : "جيدا يا معلم ، بالحق قلت ، لأنه الله واحد وليس آخر سواه " . علم المسيح أنْ قد اطمأن قلب السائل فقال له : " لستَ بعيدا عنْ ملكوت الله" ، ولم يجسر أحد بعد ذلك القول الفصل أن يسأله (راجع مرقس ١٢/٢٨ ـ ٣٤) فقد جاء المسيح على دين موسى .

استحسن السائل قول المسيح ، واستحسن المسيح تعقيب السائل فَبَشَّرَهُ بأنه من الجَنَّةِ قريب وكأنه يزكيه لقومه ، من كان له مثلُ إيمان هذا السائل فَعَمِلَ به ، فَدَخَل

---

(١) " القريب " ترجمةٌ سقيمة للفظة Plesion اليونانية ، صحيحها " الجار" . من ذلك الوصية التى تقول : لا تشته امرأة قريبك ، لا يصح أن يفهم منها سريان الحظر على نساء ذوى قرباك فقط ، بل هى لا تشته امرأة جارك . وقد أحسنت الترجمة الانجليزية فقالت Neighbour وحبذا لو تفعل الترجمات العربية .

الجَنَّة : توحيدُ اللهِ عز وجل والاحسانُ إلى الجار ، ولو أَحْسَنَ كُلُّ جارٍ إلى جاره لكانت الحُسنى فى الخلق جميعا .

بالتوحيد المطلق " لا إله إلا الله " قال المسيحُ كما رأيت من نص كلامه فى هذه الأناجيل ، وبالتثليث قال منتسبون إليه فى المجامع ، فَأىُّ الفريقين أولَى بالاتباع ؟

ولكنك لا تَعْدَمُ من يقولُ لك ان التثليث أيضا توحيد ، لأن الآب والابنَ والروح القُدس ثلاثة فى واحد . إنهم ثلاثةُ أوجه للذات الإلهية أو ثلاثةُ أقانيم ، تتمايز لنا نحن البشر ، وتجتمع فى الله الواحد . وليس هذا من وحى الله فى شىء ، وإنما هو من تهافت متفلسفة اللاهوت ، يُرَقِّعُون قولاً بقول ، جَرَّهُم إليه القول بآبٍ وابنٍ ومَلَك . وما كان بهم إلى هذا من حاجة لولا أنهم حَكَّمُوا المتشابه فى المُحْكَم ولم يُقَيِّدُوهُ به ، ولولا إساءتهم فهم لفظتى الآب والابن العبرانيتين ـ الآراميتين كما سوف ترى .

وهل أَحَكَمُ من قوله عليه السلام يُرَدِّدُ قول موسى فى التوراة: اسمع ياإسرائيل، الربُّ إلهنا ربٌّ واحد ؟ أفيقول هذا لمن سأله عن الوصية الأولى والعظمى ، وهو يُضْمِرُ فى نفسه أنه وجبريلُ إلهَان إلى جوار الله عز وجل ؟ أليس قد وَعَدَ المسيحُ هذا السائل بالجنة إن مات على توحيد الله عز وجل؟ فماذا لو قيل لهذا السائل من بعدِ المسيح إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثة؟ أفيصدقهم هم ويكذب المسيح ؟ فمن يضمن له الجنة بقولهم؟ أفالضمانُ عليهم؟ فكيف يَتركُ ضمانَ المسيح إلى ضمانهم هم ؟ بل من يضمن لهؤلاء القائلين الجنة وقد خالفوا الوصيةَ الأولى والعظمى التى لَقَّنها المسيحُ هذا السائل؟

بل علامَ اتكأ القائلون هذه المقولة؟ أفى الأناجيل الأربعةِ التى بين يديك قولٌ واحد قاله المسيحُ يَنُصُّ على أن اللهَ ثالث ثلاثة ، أو يَنُصُّ على أن الثلاثةَ فى واحد؟

وإذا كان الثلاثةُ واحداً ، فلماذا يُقالُ أصلاً ثلاثة وهم فى النهايةِ واحد ؟

وإذا كان اللهُ اثنين فقط فى مقولة أصحاب مجمع نيقية عام ٣٢٥ م ، فلماذا ، تَثَلَّثَ بإضافةِ جبريل بعدَ مجمع نيقية بخمسين سنة ؟ وما شأنُ من قال باثنينيةِ الآبِ والابن وناضلَ عنها وجادلَ بها وماتَ عليها قبل أن يَتَأَلَّهَ جبريلُ أيضا ؟

بل ما شأن مُوسى والنبيين من قبلُ ومن بعد الذين تَقَدموا المسيحَ وقد دَعَوُا إلى التوحيد الخالص وماتوا عليه؟ أليسوا مع المسيح فى الجنة؟ فلماذا تكتم اللهُ

التثليثَ عليهم وعلى من بُعِثوا فيهم فاستجابوا لهم وماتوا على ما دُعُوا إليه فدخلوا الجنة ؟

أفقد ارتضى اللهُ التوحيدَ الخالص من الخَلْقِ أجمع قبلَ عيسى ، ثم أَغلَظَ على الخلقِ من بعده فاشترط عليهم التثليثَ لدخول الجنة ؟

وإذا كان القولُ بالتثليث هو وحدَه المدخلُ إلى الجنة كما يقولُ علماءُ المسيحية ، فلماذا تَكَتَّمَهُ المسيحُ على الناس ؟ أفقد جاء لِيُضِلَّهم عنه أم ليَهديهم إليه ؟

أفقد تَكَتَّمها على هذا السائل عن الوصية الأولى والعظمى ، وأسَرَّها فى آذان بعض تلاميذه ليستعلنوا بها للناس من بعده ؟ أفهُوَ النبىُّ أم هُمُ الأنبياء ؟

وَهَبْ أنَّهُ أسَرَّها لتلاميذه وحوارييه ليعلنوها للناس من بعده ، فكيف لم يُسَجِّلوها هم أو الآخذون عنهم فى هذه الأناجيل وقد كُتِبَت كُلُّها بعدَ رحيله، أو يَحْذفُوا منها جوابَ المسيح على هذا السائل عن الوصية الأولى والعظمى : " اسمع يا إسرائيل! الربُّ إلهُنا رَبٌّ واحد" وتعقيب السائل وقد اطمأن قلبُهُ بهذا الجواب : " بالحقِّ قُلتَ ، لأنه اللهُ واحد ، وليس آخرُ سواه !"؟ أليست هذه هى نفسها شهادةُ المسلم: "لا إله إلا الله"؟ فكيف خَفيت على مجمع نيقية وعلى المجامع من بعد نيقية ؟ بل كيف خَفِيت على أساقفةِ نجران فى حوارِهم ثلاثَ ليالٍ مع خاتمِ النبيين فى يَثْرِب ؟

هذا الذى أنْكَرَ أن يقالَ لهُ " أيها المعلمُ الصالح " فقال " ليس صالحاً إلا واحد وهو الله" ، الذى أَبَى أن يكون صالحاً مع الله ، كيف يُظَنُّ بِهِ أنّهُ اللهُ أو إلهٌ مع الله ؟

الذى قال : "أيها الآب ! كُلُّ شيءٍ مستطاع لك ، فَأَجِزْ عنى هذه الكأس [1]! ولكن ليكن لا ما أُريدُ أنا ، بل ما تُريدُ أنت" (مرقس ٣٦/١٤) ، الذى سَجَّلت الأناجيلُ له هذا الكلام ، الذى يبتهل إلى "الآب" (وهو الرب كما قد عَلمت) ويسأله ويدعوه ويستغيثه ، ثم يُفَوِّضُ الأمر إليه ويُذعِنُ للمشيئة ، كيف يقالَ إنَّهُ " ابن الآب" وإنَّهُ والآب واحد ، إلهٌ فى الله ، أو إلهٌ مع اللهَ ؟

هب أن المسيح صُلِبَ بالفعل وقُبِر ثم قام من قبره فى اليوم الثالث كما يؤمن المسيحيون جميعا ، فَلِمَنْ معجزةُ القيامةِ من بين الأموات ؟ أللمقبور فى قبره ، الذى قال على الصليب : "يا أبتاه (يعنى ياربّاه كما قد عَلِمت) فى يديك أستودعُ روحى" (لوقا ٤٦/٢٣) ، ولا فِعْلَ لِمَيِّت، أم المعجزة للهِ الذى لا اله إلا هو الحىُّ الذى لا يموت؟

(١) الكأس هنا كنايةٌ عن الموتِ على الصليب .

ولماذا يُؤَلَّهُ المسيحُ وحدَه بهذه المعجزة ؟ أليس سيقوم الخَلْقُ جميعا ، بَرُّهُم وفاجِرُهم ، يوم القيامةِ للهِ الواحدِ القهّار ؟

ولماذا لم يُؤَلَّه " لعازرُ " الذى أحياهُ عيسى بإذن الله فانشق عَنْهُ القبر وخرج يَدِبُّ على قدميهِ مُدْرَجَاً فى أكفانه ؟ ولماذا لم يُؤَلَّه أيضا عيسى يومَ " أحيا " لعازر ؟

ولماذا أيضا لم يُؤَلَّه نبيُّ الله اليشع (اليسع) والصبيُّ الذى "أحياه" كما تقرأ فى العهد القديم (الملوك الثانى ٤/١٧ ـ٣٧) ؟

ألأنَّ المسيحَ ارتفع جسداً حيا أمام أعينهم إلى السماء ؟ فلماذا لم يُؤله أحدٌ نبيَّ الله إيليا (إلياس) الذى تقرأ فى العهد القديم (الملوك الثانى ٢/١١ ـ ١٢) ، أنه ارتفع إلى السماء جسداً حيا تحتَ سَمْعِ وبَصَرِ تلميذهِ نبيُّ الله اليشع (اليسع) ؟

نعم ، ثَـمَّةَ فَرْقٌ بين رَفْع إيليا ورفع المسيح : " أَخَذَ " اللهُ إيليا قبل أن يأخذه أعداؤه ، لم يَمَسُّوُه بسوء ، أما المسيح فى رواية الأناجيل فقد مَكَّنَ اللهُ منه أعداءه الذين رفعوه على الصليب حتى الموت ، ثم دُفِن ، ليبعثَهُ اللّه من بعد يُطَمْئِنُ تلاميذه، ثم يأخذه اللهُ إليه . ولكن أَيُهُما أليقُ وأكرمَ ؟ أفى صلب الأنبياء كرامة ؟ ناهيك بأن يُقال إن المسيح إلهٌ أو ابن الهٍ ، فكيف يُصلبُ "الإلهُ" أو يَتْرُكُ "ابنه" للصلْب على أيدى بشرٍ ممن خَلَق ؟

لابد لهذا من علَّة ، هكذا قال مؤلهو المسيح على البنوة لله : شاءت محبةُ الله الفائقةُ للبشر الذين عَصَوْهُ ويَعْصُونَه منذ أبيهم آدم ، أن يُكَفِّر عنهم بقربان يَعْدِلُ جسامةَ هذا العصيان ، فلم يجد قربانا أكرمَ من المسيح يبذله فداءً للبشر ، فَضَحَّى بابنه الوحيد فداءً للخلق . وتستطيع أن تَرُدَّ على هذا بقولك : فلماذا خَلَق اللهُ جهنمَ للعصاة وهو ينتوى افتداءَهم بالمسيح ؟ وإذا كان المسيح قرباناً من ذات الله للّه ، فمن المُضَحِّى وهو نَفَسُهُ الأضْحيَة ؟ وهل يُكَفِّرُ اللهُ المعاصى بالقرابين شأنَ آلهةِ الأساطير أم يُكَفِّرُها بالتوبة والطاعة ؟ وهل كان الذين صَلَبوا المسيح يُقدِّمون لله قربانا ، أم أن اللهَ هو الذابحُ والذبيح ؟ وإذا كان المسيحُ لم يَضُرَّهُ هذا الصلب ، ولم يَفْسَد له جسد بل انبعث بجسده من قبره لم يَمْسَسْهُ سوء فبمَ كان الفداء ؟ أليس قد شَبَّه اللهُ عليهم؟ وهل يليقُ بجلال الله عز وجل الذى وسع كرسيه السموات والأرض أن يتحيز فى جسدِ بشر ، أو تكون له أمٌ تحنو عليه وتُرضعه وتَفْطمُه وتَغْذُوه ؟ ربما قيل لك انّ الله عز وجل إذا ارتضى أمراً فعله، لا يَحُدُّ من قدرته شيء ، وما جاز لَمرَدة سليمان فى

فما قمهم أهونُ على الله عز وجل، الذى اتخذ من مريم العذراء جسداً تَلَبسٌ به زمنا على الأرض ، لا يُعجزُه تصريفُ مُلكه من مَحبسه وتدبيرُ ملكوته ، لأنه سبحانه كُلّىُ القدرة ، يتعاظمُ فلا تدركه الأبصار ، ويتضاءلُ إن شاء فيتلبَّسُ بالنملة والهَباءَة . هذا من تلبيس إبليس ، يزينُهُ لأوليائه . أما أن قدرتَهُ عز وجل لا تُحَدّ ، ما شاءَ فَعَل ، فهذا مُسَلَّمٌ مقطوع به فى جَنْب الله عز وجل بمقتضى ذات ألوهيته. ولكنك تُحيلُ على الله المُحال ، لأن المُحَالَ عدم ، والعدمُ غيرُ مقدور ، يعنى لا تتعلقُ به قدرةٌ أو عجز . والمُحَالُ فى حقّه جل وعلا أن يكون إلهاً وغير إله ، الخالقَ والمخلوق ، أن يَحُدَّهُ الزمانُ والمكان وهو خالقُ الزمان والمكان ، أن يُجْلَدَ ويُصْلَبَ مُريداً بذاته العَليَّة الذِّلَّة والمَهانة وهو العزيزُ الجبار ، أن يموتَ ولو للحظة الحيُّ الذى لا يموت ، أوَ يَتَّضعَ لخلقه الكبيرُ المُتعال . ولماذا المُحال؟ لأن مَحَبَّتهُ " الفائقة " للبشر قد غَلَبَتْه ؟ ألاَ لو ظَنَّ هذا البشرُ فَسُحْقاً للبشر أجمع .

ثم من قال ان الله " شاء" افتداءَ البشر من معاصيهم بقربانٍ من ذاته يُقَدِّمُهُ إليهم لا بقربانٍ منهم يقدِّمونهُ إليه ثم يقال إن الله ما شاء فَعَل ؟ من قال إن الله "شاء" هذا ؟ لا يصح الخبرُ بمشيئة الله إلا لنبى، ولا يجوز التَزيُّد على الأنبياء ، فما بالُكَ بخائضين فى ذات الله يتركون مُحْكَمَ القول إلى مُتشابهه ؟ قد قال المسيحُ فى هذه الأناجيل انه يأتى بعده أنبياءُ كذبة كثيرون تعرفونهم من ثمارهم ، أى بما يدعون الناسَ إليه ، بل وقال بالنص : " ليس كل من يقول لى يا رب يا رب يدخل ملكوت السموات ، بل الذى يفعل إرادة أبى الذى فى السموات . كثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم يارب ، أليس باسمك تنبأنا ، وباسمك أخرجنا شياطين ، وباسمك صَنَعْنا قُوَّات كثيرة [(١)] ؟ فحينئذ أصَرِّحُ لهم أنىٌ لم أعرفكم قط . اذهبوا عنى يا فاعلى الإثم" (متى ٧/ ٢١ ـ٢٣). ليس من يُرَبِّبُ المسيحَ بداخلٍ ملكوت السموات ، وإنما يدخله "الذى يعمل إرادة أبى الذى فى السموات " ، يعنى الذى يعمل مشيئة الله ، الذى يأتمر بأمره ويُنفذُ وصاياه ، فكيف يُنْفذُ وصايا الله الذى يُخالفُ أولى وصاياه : اسمع يا إسرائيل : الربُّ إلهنا ربٌ واحد ، أى اللهُ واحدٌ وليس آخرُ سواه ، كما قال ذلك السائلُ المسيحَ عن الوصية الأولى والعظمى وأخذها من فم المسيح نفسه ، لا يَسألُ عنها أحداً بعده ، فمات عليها ، فَدَخَل الجنة .

---

(١) " القوات " فى مصطلح الأناجيل يعنى الخوارق والمعجزات ، وإخراجُ الشياطين يعنى إبراء المجنون أو المصروع .

كان هذا كُلُّهُ بالطبع مَثَار جدلٍ عنيف بين المسيحيين من بعد المسيح ، مؤلّهين وغيرَ مؤلهين . وليس لديك شاهدٌ على ما قاله غيرُ المؤلهين بلسانهم ، فلم يحفظ لك التاريخ إلا مقولة المؤلهة وحدهم ، الذين استقرت مقولتهم بعد قرون من رفع المسيح ، واتُّهِمَ مخالفوهم بالهرْطَقَة (١) ، أن قالوا ليس الابنُ من ذات جوهر الآب ، وطُورِدَ قائلو هذه الهرْطَقةَ وحرقَت أناجيلُهم فلم يعُد لديك دليلٌ مقطوعٌ به من كتابتهم ، كالشأن في تلاميذِ يحيى بن زكريا عليهما السلام . ولكن الدليلَ على مقالتهم المخالفةِ لمقولة مجمع نيقية المنعقد سنة ٣٢٥ م للفصل في الخلاف حول طبيعة المسيح بين المسيحيين أنفسهم هو مجمعُ نيقية نفسه ، ولو لم يكن على طبيعة المسيح خلافٌ بين أتباعه لما كانت هناك حاجةٌ أصلاً إلى انعقاد هذا المجمع وما تلاه من مَجامع .

هذا يدُلك على حكمة الله عز وجل من فتنة الناس بالمسيح: أغْزَرَ على يديه الآيات منذ أنطقهُ في المهد مولوداً بغير أبٍ ، وتتابعت على يديه المعجزاتُ حتى إحياء الميت، ثم شُبِّه لهم قتْلُهُ على الصليب حتى لم تبق لأحد شُبهة في أنه الذى مات ، ليتراءى لهم من بعدُ جسداً حياً يكلِّمهم ويؤاكلُهم ثم يرتفعُ أمامَ أعينهم إلى السماء جسداً حيًّا .

وقد مر بك في تضاعيف هذا الكتاب أن الله عز وجل يفتنُ الناس في هذه الدنيا بما شاء ، وكيفما شاء ، بل ويفتنُهم بالملائكة رضوانُ الله عليهم كما رأيت من قبل في الفتنة بهاروتَ وماروت ، ومر بك أيضا أن الفتنةَ من الله عز وجل هي على أصلِ معناها في اللغة ، اختبارٌ وتمحيص ، لِيهْلِكَ من هَلَكَ عن بَيِّنة ، ويحيى من حَيَّ عن بينة .

ولأن المسيحَ عليه السلام هو آخرُ رسل الله إلى بنى إسرائيل ، فقد شاءت حكمتُهُ عز وجل أن تكون الفتنةُ بالمسيح في شعب التوحيد منذ إبراهيم فتنةً في هذا التوحيد نفسه الذى تعَالوا به على جيرانهم من قديم ، ولو كانت بَعْثَةُ المسيحِ في شعب وثنيّ يُعَدِّدُ آلهته لما كان لفتنهم بالمسيح من معنى أنْ أضافوا ابنا جديداً لكبير آلهة الأولمب وذراريه . بل أراد اللهُ عز وجل التمحيصَ الأخيرَ لصدقِ إيمان الذين استتاب

(٢) " الهرطقة " hairesis اليونانية من hairein أى اتخذَ أو تخيَّر ، صارت في مصطلح الكنيسة إلى معنى ابتدع أو قال في الدين كفرا .

موسى آباءهم من عبادة العجلِ فى التيه . الذين قال لهم موسى : " اسمع يا إسرائيل، الربُ الهُنا ربٌ واحد" (تثنية ٦/٤) فأجاب بها المسيحُ ذلك السائلَ عن الوصيةِ الأولى فى الناموس .

لا يستقيم هذا مع قولِ من قالوا الآبُ والابنُ واحد ، ثم أضافوا إليهما من بعدُ جبريل ، ثلاثة أوجهٍ فى ذاتِ الواحد أو ثلاثة أقانيم . تُرى ماذا يبقى من المسيح الذى عرفوه وقد فَنِىَ فى ذات اللهِ وفَنِىَ جبريل ؟ ليس بعد هذا التشبيه تشبيه .

ليس هذا من قول المسيح فى الأناجيل التى بين يديك ، ومن ثم فهو لا يُلْزِمك. فلا أحدَ يأخذُ دينَهُ من أفواهِ الفلاسفةِ أو الشعراء ، وإنما يأخذهُ من فم صاحبِ الرسالةِ نفسه ، المُبَلِّغِ عن ربه ، الذى قال فى هذه الأناجيل يُناجى ربَّه : " أنت الآله الحقيقى وحدك " (يوحنا ١٧/٣) . هذا هو الأصلُ المُحْكَم الذى تقيسُ عليه كُلَّ أقوالِ المسيح فى هذه الأناجيل التى بين يديك وإن شُبِّهَ لكَ بعضها أو اشْتَبَهَ عليك .

تُرَى ما يقولُ المسيحُ فى "مجيئه الثانى" لهؤلاء الذين شُبِّه لهم ؟ أيُنْكِرُ عليهم أن قالوا فيه مالم يُقل ، أم يأخذُهم بما استحفظَهُم إياهُ فنسوه ؟

أما أمثالُ هذا السائلِ المسيحَ عن الوصيةِ الأولى والعظمى : اللهُ واحدٌ وليس آخرُ سواه ، فعَضوا عليها بالنواجذ ، أولئك الذين استمسكوا بالعروة الوُثْقَى لا انفصامَ لها ، فَطُوبَى لهم وحُسْنَ مآب .



كان مُوتُ المسيح على الصليبِ فتنة كبرى لمن شُبِّهَ لهم وقوعُ الصلب على ذات المسيح ، أعنى جميع الذين شَهدوا هذا الصلب : شانئو المسيحِ ومبغضوه وطالبو دَمِه ، وأيضا أنصارهُ ومُحِبُوهُ الذين لو خُيِّرُوا لافْتدَوهُ بأنفسهم وأبنائهم .

فأما شانئو المسيح ومُبغِضُوه وطالبو دمه فقد أخذتهم العِزَّةُ بالإثم أنْ قتلوا بأيديهم المسيحَ عيسى بن مريم رسولَ الله ، وتباهَوْا بها مستهزئين : {**إنا قتلنا المسيحَ عيسى بنَ مريمَ رسولَ الله**} (النساء : ١٥٧) . وكم قَتَل اليهودُ من أنبياء العهدِ القديم ، ثم خَتَموا بيحيى عليه السلام فيما تَروى الأناجيل ، فما قامت الدنيا وما قعدت ، ولم يَقُلْ أحدٌ فى نَبىٍّ قُتِل إنَّهُ أراد هذا القتلَ وسعى إليه وكان

محْوَرَ رسالته ، يُكَفَّر به عن خطايا البشر أو يفتديهم بدمه ، كما قيل فى المسيح ، وإنما قال أتباعُ النبى المقتول إنهُ مات شهيدا ، دَمُهُ على قاتليه .

وأما أنصارُ المسيح ومُحبُّوه فقد كان موتُهُ على الصليب محنَةً لهم أى محنة ، بل كان فاجعةً كبرى لا تَعْدلها مصيبة : أفقد مات الذى قال لهم إن الله أرجأه إلى قُرب انقضاء الدهر ؟ هاهم يَرَوْنَهُ بأعينهم يساقُ إلى الصلب مُهانا ، ثم يُرْفَعُ على الصليب مشقوبَ اليدين والقدمين ، ويُسلمُ الرُوحَ مطعون الجَنْب ، ليدفنوه بأيديهم . أفقد مات الذى أحيا الميت؟ فلماذا لم يُنْقذْ هو نفسه من القتل على الصليب ؟ نعم ، قد قطعوا رأس يحيى قبله ولكن ابن زكريا ما أحيا مَيْتاً ولا أبْرَأ أكْمهَ أو أبْرَص ، ولم يقُل لتلاميذه انه لا يموتُ إلى قُرب انقضاء الدهر كما سمعوا هم المسيحَ يقول . فلماذا تركهُ اللهُ يموت ؟ لمَ لمْ يَقْبل اللهُ ضراعتَه : "أيها الآب ، نَجِّنى من هذه الساعة" (يوحنا ٧/١٢) فَلَمْ يُنَجِّهْ ؟ لماذا يتركهُ يموتُ وهو يناديه : "إلهى ، إلهى ، لماذا تركتنى؟" (متى ٤٦/٢٧) ، أفقد مات المسيحُ لا يدرى بأى ذنب يُقْتَل ؟ أو يموت يتساءل لماذا تَركهُ اللهُ يموت ؟

كُلُّهم شَكَّ فيه ، كما قال لهم ليلةَ القبض عليه كُلُّكمُ تَشكّونُ فى الليلة (مرقس ٢٧/١٤) . تُرى لماذا شَكَّ التلاميذُ فى المسيح ، وفيم كانت شكوكُهم ؟ أفى نُبُوَّته وقد علموا أن الأنبياء تُقْتَلُ وتموت ، وما رأسُ يَحيى على طَبَقٍ من الفضّة ببعيد ؟ أم شَكّوا فى " ألوهيته" وقد علِمُوا أن الآلهة خالدةٌ لا تموت ، فَفِيمَ الفاجعةُ إذن فى "شُبْهَة" إلهٍ يموت ؟

أما الذى لم يَشُكَّ فيه أحد ، تلاميذُ وغيرُ تلاميذ ، فهو أن الذى مات على الصليب هو نفسه المسيح . لم يَرْتَبْ أحدٌ ولو للَحْظة فى أن المرفوعَ على الصليب ليس هو ، وإنما هو يَهُوذا الذى أسْلَمَه ، شُبِّه لهم .

كان التشبيهُ غايةً فى الإتقان ، لا يستطيعهُ إلا خيرُ الماكرين :{ **وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ ، واللهُ خيرُ الماكرين** } (آل عمران : ٥٤) .



هذا المائتُ على الصليب ليس هو المسيح ، يكفيك فى هذا قولُ القرآن وليس بعده قول لِقَائل { **وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّهَ لهم ، وإن الذين**

اختلفوا فيه لفى شك منه ، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا. بل رفعه اللهُ إليه وكان الله عزيزا حكيما} (النساء : ١٥٧ ــ ١٥٨) . أما إن أردتَ الدليلَ من هذه الأناجيل التى بين يديك ، فهاك الدليلَ من قولِ المائت على الصليب : "إلهى ، إلهى ، لماذا تركتنى!" (متى ٤٦/٢٧)، وقد حرص متى على إثبات هذه العبارة فى إنجيله بنصها الأصلى : "إيلى، إيلى ، لما شَبَقْتَنَى" كأنه يُؤكِّدُ للقارىء اليونانىَّ أنها هكذا قيلت. وحرص أيضا مرقس فى إنجيله على إثبات نفس العبارة "إلهى إلهى لماذا تركتنى" بنصَّيْها الأصلى واليونانى (مرقس ٣٤/١٥) وإن تحول مرقس بلفظة " إيلى" (أى إلهى) العبرية ـ الآرامية إلى نظيرتها العبرية القُحّ " إلُوهِى" (بمد الكسرِ فى الهاء وسكون الياء بعدها) ولكن قلمه اليونانى لم يستطع الهاء فحذفها ، فصارت "إلُوى" التى مازلت تقرؤها فى الترجمات العربية محذوفة الهاء تَبرُكاً بالأصل اليونانى [1]. وحرص الكاتبان كلاهما ألا يشتبهَ عليك مقصودُ المائت على الصليب فتظن أنه أراد "ايليا" (إلياس عليه السلام) ولم يُردْ "إيلى" أو "إلُوهِى" (أى إلهى) فقال كلاهما ان قوما من الحاضرين لما سَمعُوا العبارةَ ظنوا أنه ينادى إيليا (المرفوع حياً قبله فى العهد القديم) كى يأتى ويُخَلِّصَه ، وكأنهما يقولان لك لا تخطىء الفَهْمَ كما أخطأ هؤلاء ، بل كان المصلوبُ ينادى " إلهه" !

فَطَن لوقا ويوحنا ـ اللذان كتبا إنجيليهما بعد مَتّى ومرقس ـ إلى خطورة هذا الذى أثبتهُ متى ومرقس فى إنجيليهما على دَعْوى ألوهية المصلوب :كيف يستغيثُ إلهَه ؟ أفللإله إله ، بل كيف يستغيثُ من الصَّلب وهو يَعْلَمُ أنه لهذا جاء ويُعلِّمُه ؟

أما لوقا فقد حذف هذه العبارة من إنجيله وأثبت فى موضعها : "يا أبتاه ، فى يديك أستودع روحى" (لوقا ٤٦/٢٣) ، وأما يوحنا فقد أسقط العبارةَ جُمْلَةً ولم يُثبت فى موضعها شيئا .

أما أنت فَتَفْطِنُ إلى أخطرِ مما خَشِيَه لوقا ويوحنا : هذا المائت على الصليب ، الذى يستغيثُ اللهَ ولاَ مُغيث ، ليس بنبىَ . ولا عليك أن يُقالَ إلهٌ أو ابن إله .



(١) ليس فى اليونانية حرف مخصوص للهاء، وإنما هى علامة "نَقْط" ترسم فوق حرف علة يبدأ الكلمة ، ومن هنا لا تُسمع الهاء من اليونان إلا هاء بادئة للكلمة، كما فى "هرطقة" وأمثالها.

على أن المقبوضَ عليه عَشاءَ فِصْحِ اليهود فَحُوكِمَ وأُدين ، ليس هو أيضا المسيح . دليلُك فى هذا من الأناجيل عبارةٌ نَدَّت عنه وهو يُحاكَم ، أثبتها متى فى إنجيله وهو لا يدرى مدى خطورتها فى تحديد هُوِيَّةِ الذى حُوكِمَ فأُدين : "وأيضا أقولُ لكم من الآن تُبصرون ابن الإنسان (يعنى المسيح) جالساً عن يمين القوة وآتياً على سحاب السماء" (٢٦/٦٤) فكيف يكون الماثلُ أمامَهم هو نَفسُهُ فى عين الوقت الجالسَ عن يمينِ القوة الآتى فى سحاب السماء؟ أليس قد أفلت الله المسيحُ قبل أن يُحاكم أو يُصلَّب ؟ أفهل تفوتُكَ عبارةُ "من الآن" ؟ تجد مثل هذا فى لوقا أيضا أكثر وضوحا : "إن كنت أنت المسيح فقل لنا . فقال لهم إن قلت لكم لا تصدقون . وإن سألتُ لا تجيبوننى ولا تطلقوننى . منذ الآن يكون ابن الإنسان جالسا عن يمين قوة الله . فقال الجميع أفأنت ابن الله . فقال أنتم تقولون إنىٌّ أنا هو"، (لوقا ٢٢/٦٧ ـ ٧٠). مرقس وحده فَطَن إلى خطورة ما يَخُطُّهُ قلمهُ ، فأسقط "منذ الآن" ، وزيادة فى الحيطة غَيَّرَ ما قيل فى متى ولوقا فى جواب الذى حُوكِمَ حين سئل هل هو المسيح . قال متى " قال له يسوع أنت قلت" (متى ٢٦/٦٤) وقال لوقا "أنتم تقولون" (لوقا ٢٢/٧٠) ، وقال مرقس "فسأله رئيس الكهنة أيضا وقال له أأنت المسيح ابن المبارك . فقال يسوع أنا هو" (مرقس ١٤/٦١ ـ ٦٢) . أما يوحنا فقد أسقط هذا وذاك .

ترُىَ هل رُفِعَ المسيحُ لحظةَ جاءوا يقبضون عليه وشُبِّهَ لهم يهوذا الاسخريوطى [1] فأخذوه مكانه ؟ هذا هو ما يقوله لك إنجيلُ برنابا الذى يُنْكِرُهُ المسيحيون ، ولكنك تجدُ مثله فى إنجيل مرقس ولم يُمَحِّصْهُ أحد : "وللوقت وفيما هو يتكلم أقبل يهوذا ـ واحدٌ من الإثنى عشر ـ ومعه جمعٌ كثير بسيوف وعِصِيٍّ من عند رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ . وكان مُسلِّمُهُ قد أعطاهم علامة قائلا الذى أُقَبِّلُهُ هو هو . أمْسِكُوه وامضُوا به بحرص . فجاء للوقت وتقدم إليه قائلا ياسيدى ياسيدى . وقَبَّلَه . فألقوا أيديهم عليه وأمْسَكُوه . فاستلَّ واحدٌ من الحاضرين السيف وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه. فأجاب يسوع وقال لهم كأنه على لصٍ خرجتم بسيوفٍ وعصِىٍ لتأخذونى . كُلَّ يوم كنتُ معكم فى الهيكل أعَلِّم ولم تُمسكونى . ولكن لكى تُكَمَّلَ

(١) الاسخريوطى أصلها العبرى "إيش قِريوت" يعنى الرجل الذى من " قريُوت" اسم بلدة فى اليهودية أو فى أرض موآب ، فهو المنسوب إلى هذه البلدة ومعنى اسمها عبريا " قُرى" جمع قرية ، فهو يهوذا القروى. وقد تحرفت ايش قريوت على قلم الأناجيل اليونانية إلى اسخريوط.

الكُتُب . فتركه الجميعُ وهربوا . وتبعه شابٌ لابساً إزارا على عُرْيه فأمسكه الشبان . فترك الأزارَ وهرب منهم عُريانا" (مرقس ١٤/٤٣ ـ ٥٢) . والذى يتعين التنبيه إليه فى خصوص هذا النص الإنجيلى المعتمد عند المسيحيين كافة ، هو أن التلاميذ هربوا جميعا لحظةَ القبض على المسيح ، فلا تصح لهم شهادةٌ على ما قاله المقبوضُ عليه للجند لحظة القبض عليه ولا على ما قيل له منذ لحظة القبض عليه ، وما جرى له وما جرى منه أثناء المحاكمة التى جَرَت بين جدران مُغلَقة ولم تجْرِ علنا ، وكذلك ما قاله وقيل له عند هيرودس مَلِكِ اليهودية من قِبَلِ الرومان أو عند والى روما بيلاطُس البُنطى كالذى تقرأ فى الأناجيل الأربعة المعتمدة ـ وهو ما يُفسِّرُ لك اختلافَ الكتبة الأربعة لهذه الأناجيل اختلافاً كبيراً فيما بينهم حَوْلَ ما قيل أو حَدَث . لا تَقْبَلُ شهادَتَهُم لا لأنك تُجَرِّحُهُم ، وإنما لأنهم كانوا عن هذا غائبين، والغائبُ لا يُعْتَدُّ بشهادته. ربما قلت انهم أو بعضهم على الأقل شَهِدَ الجلد والصلب اللذين وقعا علنا ، فتكتفى منهم بما سَمِعوا أو عاينوا منذ الجلد إلى الموت على الصليب . ولكنهم لم يسمعوا كُلَّ الذى قيل ، دليلكَ فى هذا تضاربُهم فيما رووه ، فتقطع بأنهم أكملوا ما لم يسمعوا ، وكانت لكل منهم مصادره ، وتفاوتَ قولُ الرواة ، فتفاوتت أقوالهم . بل هناك ما تقطعُ بأنه لم يَحْدُث، وإنما هو من قول الرواة ، من هذا ومثله الحوارُ الهامس بين المائت على الصليب وبين زميليه، الذى انفرد به لوقا فى إنجيله (لوقا ٢٣/٣٩ ـ ٤٢)، المختوم بقول المائتُ على الصليب للص التائب: الحقَّ أقولُ لك إنك اليوم تكون معى فى الفردوس ! أكان الثلاثةُ يتصارخون بهذا الحوار ليسمعه جمهورُ الحاضرين فى الساحة مثلما صرخَ المائتُ على الصليب لحظةَ أسْلَمَ الروح "يا أبتاه ، فى يديك أستودعُ روحى"، التى وقعت فى سَمْعِ مَتّى ومرقس بلفظ: "إلهى إلهى لماذا تركتنى"؟ تَصَوَّرْ أنت المسافةَ بين المرفوعين على الصليب وبين الجُند، ثم بين الجُند وبين الجمهور، واحْكُمْ بنفسك .

ولكن الذى نتوقف عنده هو هذا الشاب الذى رآه مرقس يتبع المقبوض عليه عُريانا إلا من إزار ائتزر به ، فأرادوا إمساكه ، ولكنه ترك إزارهُ فى أيديهم لِيَفِرَّ عريانا . تُرى من كان هذا الشاب الواقف مباشرةً خَلْفَ المقبوض عليه ؟ أكان من التلاميذ؟ كيف وقد هربوا جميعا كما يروى لك مرقس [1] ؟ أفكان من الجند ؟ فكيف

(١) مرقس صاحب هذا الانجيل هو تلميذ لبطرس الحوارى ، فهو ينقل عنه .

أرادوا إمساكه ؟ أكان هو يهوذا ، فكيف يهرب منهم وهو الذى جاء بهم ؟ أكان عابرَ سبيل دفعهُ الفضولُ إلى السَّيْر فى موكبِ الجند والمقبوض عليه مثلما يسيرُ الناس فى موكبِ الشرطةِ والجُناة ، فما خَشْيتُهُ من الجندِ وما خَشْيةُ الجندِ منه ؟ أفقد أمسكوا بالمتجمهرين جميعا ؟ فلماذا يحاولون الإمساك به وحده ؟ أليس لأنه استفز شكوكَهم التصاقهُ بالمقبوضِ عليه وهيئتُهُ بزيِّ اللابسِ إزاراً على عُرْيه ؟ أفقد لمسوا إزاره فسقط عنه أم جَبَذُوه به فَتَفَلَّت منه ؟ وكيف يخرج من إزاره فيستفزهم عُرْيهُ ولا يَلْحَقُون به ؟ كيف انسل من أيديهم ولم يُلاحقوه ؟ أليس هو المسيحَ نفسَه الذى حَاجَزَت عنه الملائكةُ بعد أن أُلقِىَ شَبَهُهُ على يهوذا المقبوضِ عليه لحظة " القُبْلة " لا تدرى من قَبَّلَ من ؟ ألم يأخذ الملائكةُ لباسَ عيسى فوضعوه على يهوذا ، لم يُبقوا له إلا إزاراً يأتزرُ به، ثم يتركه فى أيديهم ليَتلَبَّس رِداءً من نور لا يُبصِرُهُ إلا ملائكةٌ من نور، محجوبون عن أعينِ الناس؟ هكذا غاب الشابُ عن أعينِ طالبيه الذين قَبضوا على يهوذا مكانه.

ربما قيل لك إن من مأثور المسيحيين غير المسطور فى الأناجيل أن هذا الشاب اللابسَ إزارا على عُريه كان "يوحنا " التلميذ الذى كان المسيحُ يُحبه. وليس بشىء لأن المكتوبَ فى الأناجيل هو أن التلاميذ كُلَّهم هربوا ، لم يتبعه أحد منهم أو فَكَّرَ فى اتباعه لم يتبعه أحدٌ بعد هربهم ومُضِىِّ الجُند إلا بطرس الذى تبعهم من بعيد كما يقول لك متى ومرقس ولوقا . ولكن يوحنا يقول فى إنجيله (وهو ليس يوحنا التلميذَ المَعنِىَّ) إن بطرس لم يكن وحده ، وإنما كان معه التلميذُ الآخر (يُريد يوحنا) الذى كان معروفاً عند رئيس الكهنة فدخل مع يسوع إلى دار رئيس الكهنة (يوحنا ١٨/١٥) ، ولايصح أن يكون هذا والذى فَرَّ عُريانا هو نفس الشخص ، إذ كيف يدخل عُرياناً على رئيس الكهنة ؟ وكيف يستعيدُ ثيابه ويَلْحَقُ الموكب ؟

هذه المعجزةُ الكبرى ، معجزة تشبيه عيسى لطالبى دمه وقُضاته ومحاوريه وللجمهور الذى شَهِد الصلب، لم يشاهدها من دون المسيح والملائكة أحدٌ قط إلا واحد ، هو يهوذا المُشبَّه به . وكيف تُعَمَّى عليه والجُند الذين جاء هو بهم وسار معهم وكَلَّمَهُمْ وكَلَّمُوه ، يقبضون عليه لا يشكون لحظة أنه هو نفسه عيسى الذى دَلَّهُم عليه : خرج من صفوفهم ليُقَبِّل المسيح فتركوا المسيحَ وقبضوا عليه هو ؟ أليس قد أَحَسَّ يهوذا أنه لم يزل هو يهوذا ولكن الجند يَرَوْنَهُ هو المُراد القبضُ عليه ؟ الذى أصبح صوتُه كصوته وهيئتُهُ كهيئته ويتكلمُ بمثل كلامه ، فيظن الجميعُ أنه هُوَ هُو ، حتى التلاميذ

الذين هربوا ظناً منهم أن قد أخذَ مُعَلمُهم ؟ ولكنه لا يزال هو يهوذا لا شُبْهَة عنده في ذلك ، فما بالُ الناسِ قد سُحِرُوا ؟

هنا يُدرك يهوذا المقبوض عليه عُمقَ الفاجعة : أغواهُ الشيطانُ فَشَكَّ في نُبُوةِ مُعَلِّمه ، وزَيَّنَ لهُ الشيطانُ أن يمتحن صدقَ المسيح في دعواهُ النبوة فَدَلَّ عليه خصومَه وطالبي دمه . قال في نفسه إن كان نبياً فلن يُمكِّنَهمُ الله منه ويُخَلِّصَه ، وإن كان دَعياً مُحتالاً فبئس جزاءُ المُحتالِ الدَّعي ، وقد احتاط هو - يهوذا - لنفسه وحَظِيَ عند الكهنة . ويُفجَعُ يهوذا بالذي كان : أهكذا يخلص الله المسيح ؟ أيُخَلِّصه ويوقعُهُ هو في نفس المصير الذي أراده بمعلمه؟ أفقد أوقعَهُ في الحفرة التي نَصَبَها له ؟ فَمَنْ ليهوذا بالذي يُخَلِّصُه هو الآن وهو صِفْرُ اليدين مما أُوتي عيسى، صاحبُ العجائبِ المعجزات؟ أفيقول لهم انه ليس هو ؟ فمن ذا يُصَدِّقهُ وهوَ هُوَ عند كُلِّ من يراه أو يسمَعُه ؟ ليس أمامَهُ إلا أن يستسلم للمصير الذي أراده لمعلمه عساه يُكَفِّرُ بها عن عبث الشيطان به، ويَرُدُّ سَهْمَهُ في نَحْرِهِ . عساهُ بصمته يُضيف تمويهاً إلى تمويه ، فينجو المسيحُ بنفسه ويكتفوا هم به . عساهُ بافتدائه المسيحَ بنفسه أن تُكْتَبَ لَهُ بها حسنةٌ قد يمحو بها الله عنه إثمِ ما قد فعل . كانت لسانَ حاله عبارةٌ حَفِظَها لوقا في إنجيله حين سُئل : إن كنت أنت المسيحَ فقل لنا ؛ قال إن قلت لكم لا تصدقون ، وإن سألتُ لا تجيبونني ، ولا تطلقونني . ويمضون به ويمضي معهم، وفي أذنيه فقرةٌ من مزمور لداود : "عَتَّا يَدُعْتي كِي هُوشِيع يِهْوَا مشيحو ؛ (الآن عَرَفْتُ أن اللهَ مُخَلِّصُ مَسيحه ؛) (مزمور ٢٠/٧).

كيف خَفيت هذه الفقرةُ السابعة من مزمور داود العشرين : "الله مخَلِّصُ مسيحه" ، على كَتَبة أناجيل جَعلُوا من مزامير داودَ نُبوءاتٍ تُحَدِّثُ بسيرةِ المسيح ومصيرهِ ؟ أليس في هذه العبارة التي تَرَنَّمَ بها داودُ في المزمور "اللهُ مخَلِّصُ مسيحه" ، التي هي بالعبرية "هُوشِيع يِهْوَا مْشيحو" ، تحديدٌ لاسم هذا المسيح الذي يُخَلِّصُهُ الله؟ أليست هُوشيع يهوا هي مقلوبَ "يِهُوشُوع" اسم المسيح "يِشُوع" ؟ فلماذا لم يَفْطِنوا إليها ، بل قل لماذا أسقطوها ؟ أليس لأنها على الضدِّ مما يريدون الاستشهادَ به على خُذلانِ الله مسيحَه ؟ بل قل كيف خَفِي عليهم معنى الفقرات من مزمور داود الحادي والتسعين التي أثبتَها لوقا في إنجيله على لسانِ إبليس يُغوي بها المسيح : "ثم جاء به إلى أورشليم وأقامه على جناح الهيكل وقال له إن كنت ابن الله فاطرح نفسك من هنا إلى أسفل ، لأنه مكتوبٌ أنه يُوصي بك ملائكته لكي يحفظوك ، وأنهم على أياديهم

يَحْملُونك لكى لا تَصدمَ بحجر رجلك" (لوقا ٤/ ٩ ـ ١١)؟ أليس إبليس يستشهدُ هنا للمسيح بفقراتٍ من هذا المزمور؟ أليس فى هذا دليلٌ على أن لوقا يعتبر هذا المزمورَ فى المسيح ، فلماذا لم يلتفت لوقا إلى بقية ما قيل : "لأنك قُلتَ أنتَ ياربُّ مَلْجَئى ، جَعَلْتَ العَلِىَّ مسْكَنَك . لا يلاقيك شرٌ ولا تَدنو ضربةٌ من خَيْمَتك . لأنه يوصى ملائكته بك لكى يحفظوك فى كُلِّ طُرُقك . على الأيدى يحملونك لئلا تَصْدِمَ بحجرٍ رجْلك. على الأسدِ والصِّلِّ تطأ . الشِّبلَ والثعبانَ تَدوس . لأنه تعَلقَ بى أُنَجِّيه (١) أَرْفَعُه لأنه عَرَف اسمى . يدعونى فأستجيبُ له . مَعَه أنا فى الضّيق . أُنْقذهُ وأُمَجّدُه . من طول الأيام أشْبعه وأريه خلاصى. (مزمور ٩١/ ٩ ـ ١٦) ؟ أليس قد رَفَعَ اللهُ المسيحَ قبل أن يُصْلَب؟ أليس هكذا كان خلاصُ اللهِ مسيحَه ؟ أكانت هذه فى المائت على الصليب أم فى الذى رُفِع ؟

يهوذا وحدَه هو الذى عَلِمَ وعاين . ولكن يهوذا لم يَقُل لأحدٍ ممن شُبِّه لهم .

كان يرجو بصمته أن يكتفى اللهُ من عقابه بالإهانة والجلد ، فمضى يحمل على كَتفه صليبَه وهو يُرَدِّد : "اغفرْ لهم يا أبتاه ، فإنهم لا يعلمون" . نعم ، لا يعلمون علْمَ الذى يعلم ، ولو عَلمُوه لشابت رؤوسُهم ، أو لخَزيُوا وذَلوا أو لانْفضّوا من حوله وذهبوا يلتمسون المسيح الذى أفلَتَ من أيديهم بآيةٍ من آيات الله . فليصطبرَ عليها . لا يئنُّ وهم يثقبون بالمسامير يديه وقدميه ، ولا يشكو وقد رفعوه على الصليب ، ودماؤه تنزف ، ونَزْعُ الموت يقترب . كانت ما تزالُ به نُضاضَةٌ من أمل فى عفو الله وقد احتملَ ما احتمل . ولكن الأمل ينطفىء بمجىء مَلَك الموت يتراءى ليهوذا على الصليب فَيَصْرخُ يأساً هو أفظعُ الألَم : "إلهى ، إلهى ! لماذا تركتنى !" .

أفقد غفر اللهُ ليهوذا فعلتَه ؟ أفقد شاء برحمته أن يَحْتَسبَها لَهُ شَهادة ؟

اللهُ عز وجل بغيبه أعْلم .

ولكنك تعلمُ الآن ، وإن كُنْتَ غيرَ مُسْلم لا يُصَدِّقُ بخبر القرآن ولا يَعْتَدُّ بأنباء القرآن، أن "يهوشُوع" قد كانت فى المسيح "يشُوع" اسما على مُسَمّى ، فقد خَلَّصَ اللهُ مسيحَهُ ونَجَّاه: إنهُ "المُخَلَّصُ الناجى"، لا الخلاصُ أو الذى يكونُ به الخلاص كما يُفَسِّرُهُ علماءُ أهل الكتاب .

---

(١) فـمـم أنجاه ؟ ناهيك أن تعلم أصلَ اللفظة فى الأصل العبرانى " أَفَلْطِهُو" يعنى "أَفْلَتُه" ، فـمم أفلت المسيح ؟

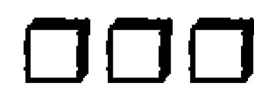
وسبحانَ العليمِ الخبير ، الذى عَلَّمَ بالقلم ، عَلَّمَ الإنسانَ ما لم يَعْلَم .



أما جثمانُ يهوذا الذى قُبِر ، ففى إنجيل متّى ما يُفَسِّرُ لك مصيرَه :

" وفيما هما ذاهبتان إذا قومٌ من الحراس جاءوا إلى المدينة وأخبروا رؤساء الكهنة بكل ما كان (يعنى أن المائت على الصليب قد قام من قبره الذى وجدوه خاليا من جثمانه) . فاجتمعوا مع الشيوخ وتشاوروا وأَعْطَوْا العسكر فضةً كثيرة قائلين قولوا إن تلاميذه أَتَوْا ليلا وسرقوه ونحن نيام . وإذا سُمِعَ ذلك عند الوالى (أى إذا افْتُضِحَ كَذِبُكُم أو حاسَبَكُمْ على غفلتكم عنه) فنحن نستعطفُهُ ونَجْعَلُكم مطمئنين . فأخذوا الفضة وفعلوا كما عَلَّمُوهم . فشاع هذا القولُ عند اليهودِ إلى هذا اليوم" (متى ٢٨/ ١١ ـ ١٥) .

ما يدريك أن هذا بالضبط هو الذى حَدَث ؟ ما دُمتَ قد سَلَّمْت بأن المقبور هو يهوذا وليس المسيح ؟ ولكن " السارقين" من اليهود يكتشفون المهزلة ، فقد بَطَلَ التشبيهُ وعاد الجسدُ يهوذا الذى كان ، فماذا يفعلون به ، أفيعتلنون بفضيحتهم للناس أم يُغَيِّبُون الجثمانَ بعيداً عن القبر ؟ أَلْقَوْا به من عَلٍ ، لِيُظَنَّ أنه نَدم فخنقَ نفسَه كما قال مَتَّى ، أو دَفَعَ بنفسه من حالق كما قال بطرس " وإذ سقط على وجه انشقَّ من الوَسَط ، فانسكبت أحشاؤه كُلُّها " (أعمال الرسل ١/ ١٨) .

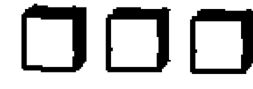


ونحن لا نجادلُ الأناجيلَ فى كيفية الصلب الذى كان ، فالصلبُ واقعٌ وَقع لقول القرآن : " ولكن شُبِّه لهم" ، أى حدث القتل وحدث الصلب ، ولكنهما كانا فى المصلوب الذى شُبِّهَ لهم ، لا فى عيسى الذى رُفِع . ولا نجادل الأناجيل أيضا فى استشهادهم من المزامير على كيفية الصلب وما قاله المصلوب من مثل " ثقبوا يدى ورجلى" ، "على ثيابى اقترعوا" ، هذا كُلُّه فى المصلوب ، لا فى شخصه . ولا يصح قَصرُ " نبوءات المزامير" على المسيح وحده ، بل منها ما هو فى نجاته ، ومنها فى إيقاعِ الصلب على المُشَبَّه به ، الذى أوقَع بِهِ عند طالبى دمه فوقع إثمهُ على نفسه : " كراً جبًا ، حَفَرَه ، فسقطَ فى الهُوَّةِ التى صَنَع . يرْجعُ تَعَبُهُ على رأسه وعلى هامته يَهْبطُ ظُلْمُه" (مزمور ٧/ ١٥/ ١٦) .

ونحن أيضا لا نجادل الأناجيل فى أن المسيح تراءى لتلاميذه بعد الصلب، أعنى بعد نجاته من الصلب، بل هذا هو الأقربُ إلى الصواب ، الأشْبَهُ بما فى القرآن : " إنى متوفيك ورافعك إلىّ". وقد مر بك أن التوفى فى الآية من "الاستيفاء" بمعنى الاستخلاص كاملا غير منقوص ، وقع الاستخلاصُ أولا ممن جاءوا للقبض عليه والمحاجَزَةُ بينه وبينهم على نحو ما قص عليك مرقس فى إنجيله من حديث الشاب المؤْتَزِر بإزار على عُرْيِه ، الذى اختفى عن أعين طالبى الإمساك به فانسل من ردائه ولم يَرَوْهُ بعد . وما كان اللهُ عز وجل ليرفع المسيحَ إليه إلا على أعين الحواريين ، ليكونوا على رَفْعِهِ شُهودا ، كما سبق أن استشهد اللهُ الحواريين على إنزال المائدة إليهم ليحاسبهم إنْ كفروا من بعد ، حاشا الحواريين أن يكفروا بما استشهدَهم اللهُ عليه . وفى إنجيل متى أنه واعدَ الحواريين قبل محاولة القبض عليه فى أورشليم ، أى قبل القبض والصلب ، أن يلتقى بهم فى الجليل ، وأن الأحدَ عشر (أى خلا يهوذا بالطبع) ذهبوا إليه فى الجليل ، ذهبوا وبعضُهم شاك حتى بعد أن رأوْه ، مما يدلُّك على أن معجزةَ التشبيه شُبِّهَت عليهم أيضا (متى ١٦/٢٨ ـ١٧) أى كانوا ممن قال القرآنُ فيهم : { **وإن الذين اختلفوا فيه لفى شَكٍ منه ما لهم به من عِلْمٍ إلا اتباع الظن** } (النساء : ١٥٧) ، وكان لابُد للمسيح أن يرتفع إلى السماءِ أمامهم بعد أن كَلَّمَهم (مرقس ١٦/١٩) ليكونوا شُهداءَه على إعجاز اللهِ فى تخليصِ مسيحه .

أما ما قاله المسيح لهم قبل أن يرْفَعَهُ اللهُ إليه ، فهو فى الأناجيل التى بين يديك مقولةُ الذين شُبِّه لهم شَخْصُ المصلوب ، وهو أيضا يتفاوتُ بتفاوت ما أراد الكاتبُ إثباته على لسان المسيح احتجاجا لرأى الذى كَتَب ، إن صَدَّقت بإنجيلٍ فقد كَذَّبت بإنجيل ، على ما ترى من قولهم على لسان المسيح فى آية "يونان النبى" (يعنى يونس عليه السلام) حين طلب منه الكتبة والفريسيون أن يروا منه آية فقال لهم جيلٌ شريرٌ وفاسق يَطْلُبُ آيةً ولا تعطى له إلا آيةُ يونان النبى، ثم يمضى متّى فيقول : " لأنه كما كان يونانُ فى بطن الحوت ثلاثةَ أيام وثلاثَ ليالٍ هكذا يكون ابن الانسان (يعنى المسيح) فى قلب الأرض ثلاثةَ أيام وثلاثَ ليالٍ" (متى ١٢/ ٤٠) . لا مفر لك إلا أن تقول إن متّى أراد هنا الاحتجاجَ لصلب المسيح ودفنه فى الأرض ثلاثة أيام وثلاثَ ليال يبعثُ بعدها حيا . ولا يصح هذا لأن الذى صُلِبَ بإجماع الأناجيل الأربعة حتى متّى نفسِه ، إنما مكثَ فى قبرِه ليلتين فقط (الجمعة والسبت) وخرج منه فَجْرَ الأحد . ولا

يصح أن يقال هذا أيضا على التشبيه بما كان عليه يونس فى بطن الحوت، لأن يونس لم يَمت فى بطن الحوت ولم يَلْتَقمهُ الحوت جسداً ميتاً كحال المصلوب . ولو تَمهل متَّى والمستشهدون بقوله فى "آية يونان" لما قالوها ولما نَسَبُوها إلى نبىٍّ يُوحَى إليه لا يقولُ إلا حقا . هذا ومثلُه كثيرٌ لا نَتَصَدَّى له ، لأنه يَخْرُجُ عن مقاصدِ هذا الكتاب .



على أننا نتصدَّى كما وعدناك لبعض تلك الشُّبَه اللغوية الألصقِ بمباحثِ هذا الكاتب ، والتى جَرَّت فى رأينا إلى ما جَرَّت إليه ، ولم يتوقف عندَها أحد .

أَوَّلَ هذه الشُّبَه ، شُبْهَةٌ " نَحْوِيَّة " ، وهى أن الإضافة دليلٌ على "المغايرة" ، يعنى أن المضافَ ليس هو المضاف إليه ، بل هو غيره . إن قلتَ مثلاً "ملاكُ الرب" فهذا يعنى أن الرب ليس هو الملاك ، والعكس بالعكس . فلا يتربَّبُ الملاكُ لأنه مضافٌ إلى الرب ، كما ربَّبُوا "ملاكَ الربِّ" جبريل . كذلك إن قلتَ " ابن الله " فهذا دليلٌ على أن "الابن" ليس هو " الله " ، وأن " الله " ليس هو " الابن " . وإن قلت مثلا فى إبراهيم انه "خليلُ الله" فليس معنى هذا أن إبراهيمَ هو الله ، أنْ انتمى إليه بالخُلَّة ، بل يظل الله هو الله ويظل إبراهيم هو إبراهيم . وإذا قلت " نبى الله " فلا يصح أن تفهم أن للنبى شركاً فى الألوهية يستمده ممن أرسله . الإضافةُ دليلٌ على المُغايرة ، إلا أن تكون الإضافةُ لغواً ، كأن تضيف الشىء إلى نفسه فتقول مثلا " نهرُ النيل" وقد عَلِمْتَ من قبل أن النيلَ نهرٌ اسمهُ النيل. وما أيسر أن تكتشف اللغو فى هذه الإضافة، حين تَقْلِبُ المضاف والمضاف إليه إلى مبتدأ وخبر فتقول : النيلُ نهرٌ . إن صح لك هذا ، وهو صحيح فى " نهر النيل" ، اكتشفت أن المضاف هو نفسه المضاف إليه ، وأنهما معا عبارةٌ عن ذاتٍ واحدة . ولكن لايصح لك هذا فى مثل "الربُّ ملاك" ، "اللهُ ابنٌ" ، "اللهُ خليلٌ" ، " الله نَبى" ، لأن اللفظين متغايران ، ليس الواحدُ هو الآخر .

على أساسٍ من هذه الشبهة النحوية قال أصحاب مجمع نيقية ، الذين أخطأوا من قبل فهم عبارة " بار ـ أبًا " بمعنى " ابنُ ـ الأب " ، إن المسيحَ ابنٌ لأبٍ هو الله ، وأسموهُ من بعد "ابن الله" ، ورتَّبوا على هذا أن الابنَ من ذات جوهر الآب ، وأنه والآبُ واحد ، وهذا مرفوضٌ بمنطق " النحو" وحَده : من كان ابنا لله فليس هو الله ، ناهيك بأن تَلِدَ الآلهةُ أو تُولَد.

وكما ألّهَ مجمعُ نيقية المسيحَ على البنوة لله ، وقع فى نفس الشبهة النحوية المجمع التالى الذى ألّه جبريلَ على " الملائكية " لله ، أنْ كان جبريلُ "ملاكَ الرب" النافثَ فى مريم كما قال لوقا فى إنجيله . وقد جَانَبَ هذا المجمعَ التوفيقُ جملةً فى تأليه جبريلَ على أساس من الأناجيل التى بين يديك ، فليس فيها قط أيَّما شُبْهةٍ فى تأليهه كما وقعت الشبهةُ فى المسيح بإساءة فهم عبارة " بار ـ أبًا " كما سترى لأنه إن جاز لمجمع نيقية القول بأن المسيح هو " ابن الله الوحيد" ليُخْرِجَ من البنوة لله "آدم" المسَمَّى ابناً لله فى إنجيل لوقا هو الآخر ، فليس بمستطاع القولُ بأن جبريل هو "ملاك الرب الوحيد" لأن ملائكة الربِّ أكثر من أن تُحْصى ، ولا يعلم جنودَ ربِّك إلا هو ، فلماذا يتخصص من دونهم جبريل بالتّألُّه ؟ وقد مر بك أن لفظة "الملاك" (وهى "مَلآخ" العبرية ـ الآرامية) معناها الرسول المُرْسَل على المفعولية من الجذر العبرى ـ الآرامى "لأخ" ، يعنى أرْسَلَهُ برسالة ، فكيف يكون المفعولُ هو الفاعل ، أو يكون المخدومُ هو الخادم ، أو يكون العبدُ هو السيد ، أو يكون الرسولُ هو نفسه الذى أرْسَله ؟ وقد قال المسيح فى هذه الأناجيل بالنص : ليس عبدٌ (يعنى نفسه) بأعظمَ من سيده ، وليس رسولٌ بأعظمَ من الذى أرْسَلَه . وقال أيضا : الآب أعظمُ من الابن . فكيف يقال إنه هو ، المسيحُ أو جبريل . ولماذا اختير جبريلُ وحده من دون الملائكة ليكون هو من ذات جوهر الله ؟ ألأن معنى اسمه كما مر بك هو "جبار الله" أو "رجل الله" ؟ فماذا فى "ميكائيل" الذى يقولون ان معنى اسمه " الذى هو كالله " ؟ أليس ميكائيل بها أولَى ؟ ولكن ميكائيل لم يكن هو النافثَ فى مريم . وقد ظَنّوا ـ وقد ألّهُوا " المنفوث" من قبل على البنوة لله ـ أن المنطق لا يستجيز أن يستعلى المنفوث على النافث ، ولكن هل ألْزَمك أحدٌ بتأليهِ المنفوث حتى تُضْطَرَّ إلى تَأليه النافث ؟

فى مثل هذه الشبهة أيضا وقع القائلون بتأليه مريم على المضاف والمضاف إليه ، فهى " أمُّ الله " ـ وإن سمعتها منهم " أمُّ الإله " وكأنهم يُخَفِّفون عليك من وقعها فى أذنيك وكأن ألالهَ غيرُ الله ـ ولكنك لا تستطيع أن تقول "اللهُ أم" أو "الالهُ أم" فيمتنع التظنُّ فى أن مريم هى الله أو الإله بمقتضى النحو وحده ، ناهيك بامتناع الأمومة والبنوة فى حق الله .

وقد كان بالفعل أناس أَلّهُوا مريم لمجرد أنها " أُمُ عيسى" وقد أَلّهُوه ، فلا يصح أن تكون الوالدةُ أدنّى من المولود . وقد أشار القرآن إلى هذا فى نعيه على ما قيل فى المسيح : { **وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك** } (المائدة : ١١٦) ، ولكن " عبادة مريم" لم تستقر طويلا بعد نزول القرآن ، بل نُبِذَت واستُبْقِيَت لمريم كرامةُ الأمومةِ لله (mere de Dieu) .

ولو أنصَفُوا لفعلوا نفسَ الشيء فى باقى أفراد الثالوث الأقدس ، فاستبقوا لعيسى كرامةَ النبوة والرسالة ، واستبقوا لجبريل كرامةَ المَلكِ المُقرَّب ، وأفردوا الواحد الصمد لا إله غيره بالربوبية لهذين وللبشر أجمع .

ولكنك لا تهدى من أحببت . إن قارعتَهُم بالمنطق قالوا لك وهل يُؤخَذُ الدينُ من أفواه المناطقة ؟ هذا هو الوحىُ الذى توارثْنَاهُ كابراً عن كابر .

لا يُؤْخَذُ الدينُ من أفواه المناطقة . هذا صحيح . ولكن لايصحُّ فى مُقابِلِه أن يُقال ليس فى الدينِ منطق . لأن الدينَ هو المنطق . وهل تَعَبَّدَ اللهُ البشر من دونِ الخلق إلا به ؟

والدينُ وحىُ اللهِ على رسله ، نعم . فهلّا استمسكوا بما قال موسى وعيسى والنبيون من قبلُ ومن بعد ، اللهُ واحدٌ ، وليس آخَرُ سِواه ؟



أما الشبهة الثانية ، فهى شبهةٌ لغوية : ظنوا بلغتهم اليونانية (وقد عَلِمْتَ يونانيةَ هذه الأناجيل) أن " آب" ، " أبًا " ، " أبى" لا تعنى فى لغة المسيح إلا أبِى الذى ولدنى ، وهى فى لغةِ المسيح تعنى " الربُّ " حين يُقْصَدُ بها اللهُ عز وجل .

لن أُثْقِلَ عليك بالرجوع إلى معاجم اللغتين العبرية والآرامية لتستوثق مما أَقُولُهُ لك أى لتقرأ فيها أن "الأب" فى هاتين اللغتين تعنى أيضا الفاطر المبدع البارى ، ولن أُحيلك إلى قولِ المسيح فى هذه الأناجيل اليونانيةُ يُكَنّى فيها عن الربِّ بالأبِّ وقد مَر بك ، ولن أستشهدَ لك بتسمية حفيد سليمان بن داود " أبيًا هُو" أى "اللهُ أبى" على معنى اللهُ ربِّى التى تَسَمَّى بها أيضا ابنٌ لهرون أخى موسى عليهما السلام، وليس لك

أن تتصور قبولَ موسى هذا الاسم لابن أخيه ، على معنى اللهُ أبى ، وهرونُ هو أبوه . وإنما هى " الله ربَى" لايَصحُّ غيرُها فى اسمٍ لابن أخى موسى .

ولكنى سأدُلُّكَ على الشاهدِ اليقين الذى لا تَصِحُّ فيه مماحكةٌ من قولِ موسى عليه السلام نفسه فى هذه التوراة التى بين يديك تَرْجَمَتُها العربية التى أشْرَفَ على ترجمتها مسيحيون لا تَشُكُّ فى مسيحيتهم :

قال موسى فى هذه التوراة التى بين يديك بلغته العبرية : هَا ليهْوَا تِجْمِلُو ـ زُوت عام نَبال ولوحاخام ؟ هَا لو ـ هُو أبيخا ، قانيخا ، هُو عاسخَا ويخُونِينخا ؟ "وترجمته العربية المعتمدة" : "ألربُّ تكافئون بهذا يا شعباً غبياً وغيرَ حكيم ؟ أليس هو أباك ومُقْتنِيَك ، هو عَمِلَكَ وأنشأك ؟ " (تثنية ٦/٣٢) .

ليس بعد هذا دليل ، وموسى نفسه يُجانس الأبَّ على الربِّ .

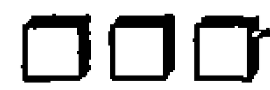
هذه هى الشبهة اللغوية الأولى . أما الشبهة اللغوية الثانية فهى ظنهم أن "بار" العبرية ـ الآرامية تعنى الابنُ المولودُ لأب ، وهى تعنى أيضا بذات لفظها ورَسْمها فى الخط العبرى ـ الآرامى كما تقرأ فى معاجم هاتين اللغتين : البارُّ المَبرور على معنى الصفى المختار. لا يُفهَمُ أيُهما المقصود (البار أو الابن) إلا من السِّياقِ وحدَه . ومتى قد انتفَت الأبُ بمعنى الوالد فى حق الله عز وجل ، وإنما هو " الرب " ، فلا يصح لك أن تفهم من "بار ـ الرب" أنه ابن الرب وإنما تقول انه "مُختار الرب" حين تَسْمَعُ بالآرامية "بار ـ أبًا" ، لأن " بار" العبرية ـ الآرامية هى من الجذر العبرى ـ الآرامى "بَرَرْ" يعنى اصطفى وتَخَيَّر ، فهو الصَّفِىُّ المُختار .

ومن طريفِ ما تقرؤه فى الأناجيل عبارة مرقس : " ولما رأى قائد المئة الواقف مقابله أنه (أى المسيح الذى على الصليب) صرخ هكذا وأسلم الروح قال حقا كان هذا الإنسان ابنَ الله " (مرقس ٣٩/١٥) ، التى تَجِدُها هى نفسها فى لوقا : " فلما رأى قائد المئة ما كان ، مَجَّدَ اللهَ قائلا بالحقيقة كان هذا الإنسانُ باراً " (لوقا ٤٧/٢٣) . هذه المقابلة بين النصين فى مرقس ولوقا تَدُلُّكَ بوضوح ـ والقائلُ هو القائلُ فيهما ـ على أن "بار" فى مرقس فُهمت بمعنى الابن ، وفُهِمَت على أصلها فى لوقا بمعنى "البار" .

عليك إذن أن تنحو نحو لوقا فى هذا الفهم كلما قرأت " الابن" أو "ابن الله" فى الأناجيل التى بين يديك حتى لا يستشكل عليك مراد المسيح عليه السلام منهما إن

قالها أو خوطِبَ بها أو قيلَت فيه من بعده ، فلن يستشكلَ عليك أن يكون المسيحُ عليه السلام صَفِي الله أو مُختارَ الله، وهل أنبياءُ الله ورسُلُه إلا أصفياؤه ومختاروه ؟ فالحمدُ لله ، وسلامٌ على عبادِه الذين اصطفى .

والأطرفُ من هذا في الدلالة على أن "بار" المَعْنِية ليست هي الابن ، وإنما هي "البار" على معنى الصَّفِيُّ المختار ، هو اسم ذلك الشقيِّ "باراباس" الذى أبى اليهودُ طالبو دم المسيح افتداء المسيح به حين عَرَضَ عليهم بيلاطس البُنْطى أن يُطْلِقَ لهم المسيحَ ويَصْلُبَ "باراباس" مكانه . والذى قد لا تعلمه أن أصل هذا الاسم "باراباس" ـ لا تندهش ـ هو "ابنُ الله" على قولِ من قال إن " بار" يعنى ابن ، "أبًّا" يعنى الرب : "باراباس" فى أصلها الآرامى هى "بار ـ أبًّا" . وأنت بالطبع مسيحياً كنت أو مسلما لا تستجيز أن يكون معنى اسم هذا الشقيِّ باراباس هو " ابن الرب " أو "ابنُ الآب" أو "ابنُ الله" . عليك إذن أن تَفْهَمَ معنى الاسم "باراباس" على أنه "مختُارُ الرب" ، أسماهُ به أبوه يومَ ولد تَيَمُّناً وتفاؤلا ، ثم خابَ فيهِ فَألُه .



قال المسيح عليه السلام فى القرآن يتشفعُ عند الله عز وجل للذين بَدَّلُوا بعده : { **إن تعذِّبْهُم فإنهم عِبادُك ، وإن تغفرْ لهم فإنك أنت العزيزُ الحكيم** } (المائدة : ١١٨) .

لن تستطيع ـ مهما حاولت ـ أن تقول أبلغ من هذا القول الذى قاله المسيح فى القرآن : لم يقل إنهم "عبيدك" ، فأنت وما شئت فيمن خَلَقت ، ولكنه قال "عبادُك" ، وكأنه يومىء إلى أنهم وإن خاضوا فى جلال ذاتك فإنهم يُريدون وجهك . افتتنوا بى حتى سَفِهُوا ، فارتفعوا بى عن ذليلِ مَقامى منك إلى عزيزِ مقامِك . وأنت القاهرُ فوقَ عبادِك ، إن تغفر لهم فأنت عليها قادر .

فماذا كان جوابُ العزيز الحكيم ؟

قال يمتدح صدقَ المسيح فى الذى قاله، وَيَتَكتَّمُ على الخلقِ أجمع بماذا هو مُجيبُه: { **قال الله هذا يومُ ينفعُ الصادقين صدقُهم ، لهم جناتٌ تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبدا ، رَضِيَ اللهُ عنهم ورَضُوا عنه ، ذلك الفوزُ العظيم** } (المائدة : ١١٩) ، أى هذا لك يا عيسى ولمن صَدَّقَ بك على الأصلِ

الذى قُلْتَ لهم . وذَرِ القضاءَ لصاحبِ المُلك : { **لله مُلكُ السموات والأرض وما فيهن ، وهو على كُلِّ شىءٍ قدير** } (المائدة : ١٢٠) .

ألا هل بعد هذا بلاغ ؟

فسبحان من بيده ملكوتُ كل شىء لَهُ الحمدُ ولَهُ المُلك ، غافرِ الذنبِ وقابلِ التَّوْب شديد العقابِ ذى الطَّوْل ، لا الهَ إلا هو إليه المصير .

اهداء من دكتور
حافظ يوسف

(٥٧) الإنجيـــل

يضم " العهدُ الجديد " الذى يتعبَّدُ به المسيحيـون قُبَيْـلَ نزولِ القرآن وإلى اليوم سبعةً وعشرين سِفَرا ، وهى إنجيـلُ متى وإنجيلُ مرقس وإنجيلُ لوقا وإنجيلُ يوحنا ، وهى تحكى سيرةَ المسيح وأقوالهُ وأفعالهُ ووصاياه منذ أن ولد حتى رُفِع ، فهى أشْبَهُ بالسـيـرة النبـوية عند المسلمين . بالإضـافـة إلى ثلاثـةٍ وعـشـريـن سِفْرا أخـرَى أولُها "أعـمـال الرسل" أى أعـمـال الحواريين ومن دخلوا فى عدادِهم بعد رفع المسيح ، ويُنْسَبُ هذا السفر إلى لوقا أيضا ، صاحب الإنجيل الثالث المُسَمَّى باسمه. تجيءُ بعد ذلك أربـع عشـرة رسالـة تُنسَبُ إلى بولس (وهو من غير الحواريين بل لم يشهد المسيح ولم يسمع منه) ، ثم رسالة تُنسبُ إلى يعقـوب الحوارى ، واثنتـان منسوبتـان إلى بطرس رئيس الحواريين ، وثلاثُ منسوبةٌ إلى يوحنا الحوارى ، التلميذ الذى كان المسيح يحبه ، وهو أصغر الحواريين سنا ، وليس هو صاحب الإنجيل الرابع المسمى بهذا الاسم ، بل هو سَمِيٌّ له. ثم رسـالـة منسـوبة إلى يهـوذا الحـوارى (وهو غـيـر يهـوذا المتـهم بخـيـانة المسـيـح) . وأخيراً "رؤيـا يوحنا اللاهوتى" ، وليس هو يوحنا الحوارى على التحقيق . والأسـفـار الأربعـة الأولى ، أعنى الأناجـيل الأربعـة ، هى المَعْنِيَّة بلفظة الإنجيـل على الإجمـال ، يكمـل بعضُـها بعضـا وينقلُ بعضها عن بعض ، متـساويةٌ فى الحجية عند المسيحيين. فلم تحفظ لك الكنيسةُ إنجيلا آخر للمسيح غيرَ هذه الأربعة .

ويقـول مؤرخو المسيحيـة إن الأناجيل لـم تكـن فى الصـدر الأول أربعـةً فـقـط ، وإنما كـانت بالمئات ، نحو ثلاثمـائة إنجيـل ، يَروى كُلٌّ ما شَهِد أو سَمِع ، أو ينقل عـمن شهد أو سمع ، أو يقص ما يَحْتَجُّ به لمقولته فى المسيح . ولكن الكنيسة ـ بعد استقرار عقيدة التثليث فى القرن الرابع ـ استبقت من هذه الأناجيل أربعةً فقط ، هى تلك التى بين يـديك الآن ، وحَظَرَت مـا عـداها ، الذى طُورِدَ وأُعْدِم ، لمخـالـفـتـه بـلا شك لمقـولـة الكنيسـة فى المسيح .

والمشهور أن مكتبة الفاتيكان احتفظت فى خزائنها ببعض هذه الأناجيل المُنْكَرة، المحظور تداولها بين الناس ، وليس هذا بشىء وإن صَحَ ، لأنه ليس لك حِجاجُ الكنيسة بالذى أنكرته من تلك الأناجيل . من هذه الأناجيل المنكَرةِ عند الكنيسة الأنجيلُ المنسوب إلى بَرْنابا الحوارى كما يروى مكتشف هذا الإنجيل ، الذى أنكرته الكنيسة غَداة ظهوره فى القرن الثامن عشر ، ورمته بالزيف والانتحال ، مكيدةٌ كادَها للكنيسة بعضُ خصومها وشانئيها . وليس لك أن تأخذ على الكنيسة إنكارَها إنجيلَ "برنابا" ، فهو يقول بمقالةِ القرآن فى المسيح : أنه فحسب عبدُ اللهِ ورسولُه ، ليس إلهاً أو ابن إلَه ، بشَرٌ صريحاً بخاتم النبيين ، وأرادوا قتله على الصليب فَشُبِّهَ لهم ، ورفعه اللهُ إليه جسداً حيا لا يموت حتى قُرْبِ قيامِ الساعة ، فينزل فى الناس ليقطع شُبْهَةَ الناسِ فيه .

ولسنا من القائلين بحجية إنجيل برنابا فى مواجهة الكنيسة ، إذ ليس لك حِجاجُ الكنيسة بما تُنكره ، بل كُلاً يُوَلِّى الله ما تَوَلَّى . فحسبك هذه الأناجيل الأربعة التى بين يديك ، وفيها رغم كل شىء الكفايةُ كُلُّ الكفاية .

وبعد ، فليس برنابا الحوارى إلا راويةً بين رُواة ، كُلُّهم كَتَب بغير لغة المسيح ، لا تدرى عن أى أصل نَقَل ، ولا تدرى هل أَخْطأ فى الترجمةِ أم أصاب .



والذى ينبغى التنبيه إليه أنه ليس فى هذه الأناجيل الأربعة إنجيلٌ منسوبٌ إلى حوارىٍ شَهد وعاين ، إلا إنجيلَ مَتَّى وحده ، الأول فى ترتيب أسفار العهد الجديد ، إن قُلتَ إنه "متى العشار" (واسمه فى الأصل " لاوى") المعدودُ بين الاثنى عشر على ما تجد فى إنجيله (متى ١٠/٣) . أما كاتب الإنجيل الثانى ، مرقس ، فهو من تلاميذ بطرس الحوارى ، سَمِعَ منه ولم يشهد أو يعاين ، شأن التابع والصحابى عند أهل الإسلام ، وأما الإنجيل الثالث ، لوقا ، فهو يُفْصِحُ لك فى مفتتح إنجيله عن أنه لم يشهد ولم يعاين : " إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصَّة فى الأمور المتيقنة عندنا كما سَلَّمها إلينا الذين كانوا فى البدء معاينين وخُدَّاماً للكلمة ، رأيت أنا أيضا إذ قد تتبعت كل شىء من الأول بتدقيق ، أن أكتب إليك على التوالى أيها العزيزُ ثاوفيلس لتعرف صحةَ الكلام الذى عُلِّمتَ به" (لوقا ١/١ ـ٤) ، فهو يونانى يكتب

إلى يونانى ، والمشهور أنه سمع من بولس الذى تَعْلَمُ بشهادته هو أنه لم يسمع ولم يعاين ، فلوقا إذن ناقلٌ عن ناقل . وأما الإنجيل الرابع ، يوحنا ، فقد قالت الكنيسة إنه يوحنا الحوارى (التلميذُ الذى كان المسيح يحبُّه) ، كَتَبَه وقد أسَنَّ قُرب ختام المائة الأولى لميلاد المسيح ، سألوه فى كتابته لِيَرُدَّ على "بِدَع ظهرت" تَجْحدُ لاهوتَ المسيح ، أو تُنْكِر أن قد كان للمسيح وجودٌ قبل مريم أمِّه ، أو تلاميذُ ليحيى بن زكريا يُغالون به تلاميذَ المسيح ، فاستجاب لهم وكتب هذا الإنجيل إثباتاً للاهوت المسيح خاصة (١) . وهذا يعنى أنْ قد كان قبل كتابة هذا الإنجيل مسيحيون ماتوا مؤمنين بالمسيح رسولاً نبيا ليس إلهاً أو ابنَ إله . وقد أصَرَّت الكنيسة على نسبة هذا الإنجيل إلى يوحنا الحوارى دَعْما لشهادته التى تَجْهَرُ بتأليه المسيح . وليس هذا بصحيح ، لا لأنك شَهِدَت الكاتب الذى كتب هذا الإنجيل ، وإنما ببساطة لأن الكاتب يُنْهى إنجيله بما تفهم منه صريحاً أنه ليس هو يوحنا الحوارى ، وإنما هو ناقلٌ عن يوحنا : "هذا هو التلميذ (أى يوحنا) الذى يشهد بهذا وكتب هذا ، ونَعْلَمُ أن شهادتَه حق . وأشياء أُخْرى كثيرة صنعها يسوع إن كُتِبَتْ واحدة واحدة فلستُ أظنُّ أن العالمَ نفسَه يَسَعُ الكُتُبَ المكتوبة" (يوحنا ٢١/٢٤ ـ ٢٥) ، إنَّهُ يُؤمِّن على أستاذه لا أكثر ولا أقل ، لأن الضميرَ فى "نَعْلَم" ، "لستُ أظن" ، قاطعُ الدلالة على المُغايَرة بين هذا المتكلم الشاهدِ ليوحنا وبين يوحنا المشهودِ له .

والذى ينبغى التنبيهُ إليه أيضا أن هذه الأناجيل الأربعة لم يُكتب أىٌّ منها بلغة المسيح العبرية ـ الآرامية ، وإنما كُتِبَت كُلُّها ابتداء بلغةٍ يونانيةٍ متأخرة عُرِفَت باليونانية الكنسية لاحتوائها ألفاظاً وتراكيب لم تُسْمع من اليونان قبل عصر المسيح، من مثل : إيفنجليون euaggelion يعنى " الإنجيل" ، فارقليط parakletos التى تترجم فى الأناجيل العربية بلفظة " المُعَزِّى " ، وليس كذلك ، وإنما هى " أحْمد " أو " مُحَمد " كما سوف ترى . ولا يصح ما قيل من أنه قد كان لهذه الأناجيل اليونانية كُلِّها أو بعضِها أصلٌ عبرانى نُقِلَت عنه، وبالذات إنجيل مَتَّى الذى كتبه كما يقال لليهود فى فلسطين ، ولكن هذا الأصل فُقِد . لا يصح هذا القول ليس فقط لأنه لا عِبرةَ بأصل مظنونٍ قد

(١) راجع هذا فى : الكتاب المقدس ، طبعة الفاتيكان العربية ـ بيروت ـ سنة ١٩٥١ ، حواشٍ على مجلد العهد الجديد ، ص ٤٦٩ ـ ٤٩٧ .

فَقد، وإنما أولا وبالأخص لأن مَتَّى بالذات ، بل ومرقس أيضا الناقلَ عن بطرس ، ذكرا فى إنجيليهما كما تَعلّم عبارات بلغة المسيح العبرية ـ الآرامية حَرَصا كلاهما على ترجمتها إلى اليونانية ، ولو كانا يكتبان أصلاً بلغةِ المسيح لقارىء بلغةِ المسيح لما احتاجا إلى هذه الترجمة لأن قارئَهُما لايحتاجُ إليها .

فى هذه الأناجيل الأربعة إذن عناصرُ ثلاثة تَحتَرِزُ منها كُلَّ الاحتراز كى لا تُسيءَ فهم ما نَطَق به المسيح الذى خاطَبَ رَبَّهُ فى القرآن بقوله : { **ما قلتُ لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربِّى وَرَبَّكم** } (المائدة : ١١٧) ، وهذه العناصرُ الثلاثة هى :

١ـ عنصر الرواية ، أعنى صدْق الراوى فيما رَوَى ، فلا تأخذُ إلا بما أجمعَ عليه الرواةُ الأربعة ، أو بما لا يتناقض مع ما أجْمَعَ عليه الرُواة الأربعة .

٢ـ عنصر الترجمة ، أعنى صِحَّة الترجمة من لغة المسيح إلى لغة الأناجيل اليونانية ، فتفهم " الآب" بمعنى " الرب " كما قالها موسى عليه السلام ، وتفهم " الابن " بمعنى البار المبرور المُتَبَرِّ أى "مختار الرب" لا ابن الرب ، كما رأيتَ فى تحليلنا لاسم ذلك اللص الذى رفض اليهودُ افتداءَ المسيحِ به ، أعنى " باراباس" ، التى أَصْلُها العبرانىُّ الآرامى "بار ـ أَبَّا" يعنى "مُختارُ الرب" لا ابنُ الرب ولا ابنُ الأب

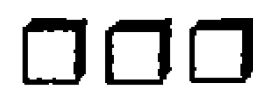
٣ـ عنصر الرأى ، أى القول الذى زاده الكاتبُ من عنده يُفَسِّرُ برأيه شيئاً من قول المسيح أو فعْله ، أو يَستشهدُ من العهد القديم بفقراتٍ ينتقيها لإثباتِ مقولتهِ هو فى المسيح ، مثلما مر بك فى إنجيل متَّى من استشهادٍ فى غير موضعه بيونُسَ فى بطنِ الحوت ، أو يُدَبِّجُ بقلمه ديباجةً يستعلنُ فيها برأيهِ هو فى لاهوت المسيح كالذى تقرأ فى مُفْتَتَحِ إنجيل يوحنا . ليس هذا من وحى الله على رسله ، وإنما هو قَول الكاتب ، لا يُلزمُك .

تفعلُ هذا كمسلم يقرأ فى هذه الأناجيل . أما الكنيسة فقد احتاطت لحُجِّيَّةِ المكتوب فى هذه الأناجيل بالكلمةِ والحرف ، فقالت بأنه وَحْى الله على كاتبيه بذاتِ اللغة التى كتبوا بها ، تَنَزَّلَ عليهم به الروحُ القدس ثالثُ الثلاثة فى عقيدة التثليث ، يعنى جبريلُ صلواتُ الله عليه . وقالت أيضا ان ما اختلفوا فيه يُكَمِّلُ بعضُه بعضا ،

كُلُّ إنجيل يقص ما وَعىَ مما سَمِع . أما حين يَصْعبُ التوفيقُ بين النقيض ونقيضه من مثل "ابن الإنسان" ، "ابن الله" ، وهما"بار ـ أنَشا" ، "بار ـ أبًا" الآراميتين ، فعندئذ يقالُ لك : في المسيح ناسوتُ ولاهوت ، أو " الكلمةُ صار جسداً وحَلَّ بيننا " ، أو يقال لك أخيرا "عظيمُ هو سرُّ التقوى" ، يعنى أن هذا فوقَ العقل ، تُؤْمنُ به كما عُلِّمْت . وتؤمن أيضا بأن آباء الكنيسة الذين صاغوا لك " قانون الإيمان" القائل بأن اللهَ ثالثُ ثلاثة ، وبأن الثلاثةَ واحدُ أحد ، إنما قالوا ما قالوه هم أيضا بوحيٍ من الروح القدس بعد رفع المسيح ، فهم معصومون بعصمةِ الله عز وجل من الوقوع فى الخطأ .

هنا يَمتنعُ الجَدَلُ ويمتنع الحِوار .

ولكنك تقول ما قاله اللهُ عز وجل فى القرآن : { **من يَهْدِ اللهُ فهو المُهْتَد ، ومن يُضلِلْ فلن تجد لهُ وليّاً مرشدا** } (الكهف : ١٧) ، أو تقول بقول القرآن : { **قل اللهم فاطرَ السموات والأرض ، عالمَ الغيب والشهادة ، أنت تحكُمُ بين عبادِك فيما كانوا فيه يختلفون** } (الزمر : ٤٦) .



وقد قال نُقادُ أناجيل مسلمون ان "الإنجيل" المَعْنيُّ فى القرآن ليس هو تلك الأناجيل الأربعة المعتمدة وحدها عند المسيحيين يومَ نزول القرآن ، بل ثَـمَّةَ "إنجيلٌ" آخر كتبه المسيحُ أو أملاه ، ولكنَّ أتباعَ المسيحِ أضاعوه .

وليس على هذا القول دليل ، بل لديك من القرآن الدليلُ على عكسه ، أعنى أن القرآن يَنْظُرُ إلى هذه الأناجيل الأربعةِ نفسها ، التى فيها من وحى الله وفيها من قولِ الرواة ، وأن الذى فيها من وحىِ الله على عيسى هو وحدَهُ المَعْنيُّ بلفظة "الإنجيل" فى القرآن ، وما عداه ليس بإنجيل ، لقوله عز وجل فى هذا القرآن : {**وليحكم أهلُ الإنجيل بما أنزل اللهُ فيه** } (المائدة : ٤٧) ، وما كان اللهُ ليُعَمّيَ عليهم إنجيلاً غيرَ الذى بين أيديهم ، ولكنه طَلَب إليهم أن يَتَحَرَّوْا ما أنزل اللهُ فيه ، وينبذوا ما زادَ الرواة .

فكيف تُمَيِّزُ أنت كمسلم بين ما قاله الله عز وجل فى هذه الأناجيل الأربعة وبين ما زاد فيها الرواة ؟ قد عَلِمْتَ أن الله عز وجل يخاطب الخلقَ على لسان أنبيائه ، لا على لسان صحابةٍ أو تابعين ، ولا على لسان حواريِّين أو رُواةِ لحواريين . فالذى قاله الله عز وجل فى الأناجيل هو الذى نطق به المسيحُ نفسُه مُبَلِّغاً عن ربه .

حيثما وقعتَ فى الأناجيل على قولٍ مَحْكيٍّ عن المسيح أنَّهُ قاله ، عليك أن تضعه بين قوسين، أو تَخُطَّ تحته سطرا ، ودَعْكَ من الباقى ، فليس هو من المسيح نفسه ضَرْبَةَ لازب، وإنما هو من قول الكاتب ، يحْتَجُّ به لمقولته فى المسيح ، لايُلزِمُك، لأنه ليس من وحى الله على رسله .

خذ مثلا تلك الديباجة الفخمة المُفَخَّمة التى افتتح بها يوحنا إنجيله ، المكتوب بعد رفع المسيح بما لا يقل عن ستين سنة فى أقرب التقديرات ، يَحْتَجُّ به لعقيدته فى لاهوت المسيح : " فى البدء كان الكلمة . كان عند الله ، وكان الكلمةُ اللهَ . هذا كان عند الله . كل شىء به كان ، وبغيره لم يكن شىء مما كان . فيه كانت الحياة ، والحياة كانت نور الناس . والنور يضىء فى الظلمة ، والظلمة لم تدركه " (يوحنا ١/١ ـ٥) ، ويمضى فيقول : " كان النور الحقيقى الذى ينير كل إنسان آتيا إلى العالَم . كان فى العالَم ، وكُوِّنَ العالَمُ به ولم يعرفه العالَم . إلى خاصَّته جاء ، وخاصَّتُهُ لم تقبله . وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانا أن يصيروا أولادَ الله ، أى المؤمنون باسمه . الذين لا من دمٍ ولا من مشيئة جَسَدٍ ولا من مشيئة رَجُلٍ ولكن من الله وُلِدُوا " (١) (يوحنا ٩/١١ ـ ١٣). هذا الكلامُ العويص (٢) المُبْهَمُ المُفَخَّم الذى قاله يوحنا فى مفتتح إنجيله ـ أيًّا كان رأيُكَ فيه ـ ليس من وحى الله على رسله ، لأن قائله ليس المسيح ، وإنما القائل هاهنا هو يوحنا الكاتب ، يستعلن بعقيدته فى ألوهية المسيح ، وأن اللهَ والمسيحَ واحد (وكان الكلمةُ اللهَ) ، ناسيا أنه سيقول بعد ذلك على لسان المسيح يُناجِى ربه : " أنت الإله الحقيقى وحدك " (يوحنا ٣/١٧) (٣) ، أفتأخذ بقول يوحنا وتترك قول المسيح ؟

---

(١) هذا مَثَلٌ من كثير على أسلوب تلك الأناجيل فى فهم البنوة لله (أى المؤمنون باسمه) : ليست هى البنوة بمعناها المعروف ، فضلا عن عمومها فى " جماعة المؤمنين " ، لا يختص بها المسيح وحده . فتأمَّل ! .

(٢) لايعتاص هذا الكلام إلا على بسطاءَ مكفوفين ـ كما يقالُ لهم ـ بِعُلُوِّه على مداركهم ، وهو كما يعلم دارسو الفلسفة ، مُرَقَّعاتٌ من فلسفات الاسكندرية وبالذاتَ أفلوطين . وهذا يدُلك على أن الكاتب ليس حوارياً ، فقد مات الحواريون وتابعوهم قبل مولد أفلوطين .

(٣) هذا من نقائض يوحنا الكاتب . وقد قيل ان " لاهوت المسيح " الذى فى إنجيل يوحنا منحول ، نَحَلَهُ إياهُ نيقياويون يحتجون به لعقيدتهم . وهذا إن صح يفسر لك نقائضه .

أما وقد استَصْفَيْتَ أقوالَ المسيح فى هذه الأناجيل فَخُذْ بأحسنها ، كالذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، معيارُك فى ذلك ألا تترك مُحْكَمَ القول إلى متشابهه ، بل تُحَكِّمُ المُحكَمَ فى المتشابه فَتُقَيِّدُهُ به ، لا تُحَكِّمُ المتشابهَ فى المُحْكم وتفسِّرُ المُحْكَمَ بالمتشابه الذى يضطرك إلى قول المحالِ على الله عز وجل ، كالذى قيل فى مجمع نيقية وما تلاه من مجامع .

وليس عليك بعد ذلك حرجٌ أن كُنْتَ مسلماً يقرأ فى هذه الأناجيل ، فقد وَضَحَ لك الطريق ، واستبانَ المنهج .



والذى يعنينا بالدرجة الأولى فى مقاصد هذا الكتاب الذى نكتب ، هو معنى لفظة "إنجيل" . وقد قال علماء المسيحية انها لفظة يونانية هى "إيڤَنْجِليُون" euaggelion معناها الحرفى هو الخبر السار أو البشارة . ولكن بشارة بمن أو بماذا ؟ أهى بشارة بشىءٍ حَدَث أم بشىء سيحدث ؟ إن كانت بشارة بشىء حَدَث فهى المسيحُ نفسه الذى " تَنَبأت الكتبُ " بمجيئه ، فهو البشرى التى تحققت . ولكن علماءَ المسيحية لا يقولون بهذا ، وإنما يقولون ان البشرى هى بشىء سيحدث ، وان رسالة المسيح هى البشارة بهذا الذى سيحدث . فما الذى جاء المسيحُ يُبَشِّرُ به ؟ أعنى ما هو الخبرُ السار الذى جاء يعلنه للناس ، فَسُمِّيَت به الأناجيلُ " إنجيلاً " ؟

قال علماءُ المسيحية ان الذى جاء المسيح يبشر به فى هذه الأناجيل هو قرب "ملكوت السموات" : "من ذلك الزمان ابتدأ يسوعَ يكْرِزُ ويقول تُوبوا ! لأنه قد اقترب ملكوت السموات" (متى ٤/١٧) . هذه العبارة ، ملكوت السموات ، وتجىء أيضا بلفظ ملكوت الله ، من العبارات الهائمة المُبْهَمة فى مصطلحات الأناجيل ، استعصى فهمُها حتى على الحواريين أنفسهم فما فَتِئوا يُسائلون عنها المسيح وما فَتِىء هو يَضْرِبُ لهم المثل تلْوَ المثل فى شرحها ، حتى فهموا أخيراً أنه يعنى بها الحياة الآخرة ، فريقٌ فى الجنة وفريقٌ فى السعير . إنها البشارة بقرب قيام الساعة . ولكن لماذا تَسَمَّى الساعةُ ملكوتا ، فيقولون فى صلواتهم : "أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتُك ، لتكن مشيئتُك، كما فى السماء فكذلك على الأرض" (متى ٩/٦ ـ ١٠) ؟ الذى يُقربُ لك المعنى إن كنت من أهل القرآن هو قوله عز وجل يوم يرث الأرض ومن عليها { **لمن المُلْكُ اليوم ؟ للهِ الواحدِ القَهَّار**} (غافر : ١٦) . وربما

كَنى المسيحُ بلفظ "الملكوت" عن الجنة ، فقال "أبناء الملكوت" ، يعنى الأبرار الداخلين فى عفو الله ورحمته، المُنَعَّمين فى رِضوانه، أولـئك "هم الوارثون" كما تجد فى القرآن.

ولكن ، كيف تَصِحُّ البشارةُ بقرب قيام الساعة ؟ قد كان يُظَنُّ عصرَ كتابة مَتَّى إنجيله أن الساعةَ على الأبواب ، لقوله فى مرقس : "متى رأيتم هذه الأشياء صائرةً فاعلموا أنه قريبٌ على الأبواب . الحقَّ أقولُ لكم لا يمضى هذا الجيل حتى يكون هذا كله" (مرقس ٢٩/١٣ ـ ٣٠) ، لا يلبث المسيح أن يرفعه الله إليه حتى يعود فى مجيئه الثانى فتقوم الساعة. ولكن مضت القرون ولم تأت الساعة . وقد قال لهم المسيح فى نفس الموضع : " وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين فى السماء ، ولا الابن ، إلا الآب " (مرقس ٣٢/١٣) ، وكفى بهذا إقرارا من المسيح بأنه لا يَعْلَمُ إلا ما عَلَمَهُ الله ، أما الساعة فعلمُها عند ربى، لا يُجَلِّيها لوقتها إلا هو، كالذى تقرأُ فى القرآن . فكيف يُبَشِّرُ المسيحُ بشىء لا يَعْلَمُ مَوعِدَه . لم يُبَشِّر المسيحُ باقتراب ملكوت السموات إذن ، فقد مضت إلى اليوم قرونٌ وقرون ولم تَقُم الساعة . بل لا يصح لمؤمن يُؤمنُ بالله واليوم الآخر أن يبشر بقيام الساعة . الأحرَى أن يُنذرَ بها ولا يُبَشِّر ، فليست هى بالخبر السار إلا لمن ضَمنَ الجنة ، ولا يَضْمَنُ أَحَدٌ الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته ، وإنما هو يرجو عفوَ الله ومغفرته ، فكل عملٍ فى جَنْبِ الله قليل لم يَقُل المسيح : تهللوا ! فالساعةُ قريب . وإنما قال : تُوبوا ! فقد اقترب ملكوت السموات . إنه هنا نذيرٌ لا بَشير .

لم يُبَشِّر المسيحُ إذن بملكوت السموات ، إن فَهِمْتَ ملكوت السموات بمعنى قُرب قيام الساعة ، وإنما تستطيع أن تقول انه أنذر بها . وقد قالها يوحنا قبله بنفس عبارته: "توبوا ! لأنه قد اقترب ملكوت السموات" (متى ٢/٣) . ومن ثم لا يصح اختصاصُ المسيح وحده بهذه البشارة ، أعنى النِّذارة ، حتى يُسَمَّى بها وحىُ الله عليه "الإنجيل" ، فلم يغفل عن قولها من قبلُ ومن بعد نَبِىٌّ .

قيل أيضا ان بشارة المسيح هى البشارة بمغفرة الخطايا ، يعنى أنه جاء خلاصاً للبشر من خطاياهم . وليس بشىء ، لقوله فى مرقس : "اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا [1] بالإنجيل للخليقة كلها . من آمن واعتمد خَلَص ، ومن لم يؤمن يُدَنْ"

---

(١) ليست هى " كَرَزَ " العربية يعنى لَجَأ واعتصم ، وإنما هى منحولة من الآرامية بمعنى صاح وصوت ، فهو" كاروز" يعنى " نذير " أى herald الإنجليزية . وقد اختارتها الترجمات العربية فى مقابل kerussein اليونانية بمعنى أعلن وبشر to proclaim .

(مرقس ١٦ / ١٥ ـ ١٦) ، فليس هو إذنْ خلاصاً للبشر أجمع ، و إنما الخلاص لمن آمن . وهذا صحيحٌ فيه وفى سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين . فليست هى إذن بشارةً تتخصص به . وقد دعا بها يوحنا قبله : "كان يوحنا يُعَمِّدُ فى البرية ويكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا" (مرقس ٤/١). فلا مغفرةَ إلا بالإيمان والتوبة، أتباع يحيى وأتباع المسيح فى هذا سواء . وما العِمادُ على يد يحيى أو عيسى إلا عَهْدٌ على إخلاصِ التوبة .

ها قد استبان لك بالتحليل النقديِّ وحده أن محور رسالة المسيح عليه السلام ليس هو البشارة بقيام الساعة ـ إن فَهِمْتَ ملكوت السموات بمعنى يوم الحساب ـ فلا أحد يبشر بقيام الساعة ولا يطلبها فى صلواته . وليس هو أيضا "النِّذارة" بها ، فهذا عامٌ فى كل نبى لا يختص به المسيح وحده . بل حتى إن فهمت ملكوت السموات بمعنى الحياة الآخرة "المُلْكُ يومئذ لله" ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، أو فَهِمْتَ ملكوت السموات بمعنى الجنة فقط ، فلا يستقيم لك هذا أو ذاك ، لأن التبشير بالجنة والتنفير من النار هو قولُ الأنبياء جميعا لم يغفل عن قوله نبى ، ولا يختص به نبى دون نبى ، لا يصح أن تنفرد به رسالةُ المسيح فيتسمى به "إنجيله" . ولا يصح أيضا أن تكون رسالةُ المسيح هى "البشارة" بمغفرة الخطايا ، فهذه هى بُشرى جميع الأنبياء من قديم لكل مؤمن تاب وأناب فأسلم وجهَهُ لله مُخلِصاً له الدين .

ولا يصح بالذات ما قاله اللاهوتيون من بعد فى تأصيل نظرية البشارة بمغفرة الخطايا : قالوا بل من الخطايا مُكْتَسَب وأصلى . فأما المكتسب فهو الذى يجترحه البشر فى هذه الدنيا ويصح تكفيره بالاستغفار والتوبة . وأما الخطيئة الأصلية فهى خطيئة يُولَدُون فيها ولا حيلة لهم فى دفعها لأنهم وَرِثُوها ولم يجترحوها . إنها خطيئة أبيهم آدم يوم نَسِيَ فأكل من الشجرة المنهيِّ عنها ، فَباءَ بإثمها البشرُ جميعا ، الذين يولدون فى دنس هذه الخطيئة منذ أن طُرِدَ أبوهم من الجنة حتى مجيء المسيح "ببشارة" افتدائه البشر منها بدمه المسفوح على الصليب ، لأن "الآب" لا يقبل قربانا يعدل معصية آدم إلا دما زكيا لم يولد فى دنس هذه الخطيئة ، وهو المسيح ، ابن الله الوحيد الذى ولد لخلاص العالم . ولا يصح هذا ، ليس فقط لأن الله تاب على آدم وزوجه قبل إهباطهم إلى الأرض كما قال القرآن : { **فتلقى آدم من ربه كلمات ، فتاب**

عليه ، إنه هو التواب الرحيم } (البقرة : ٣٧) ، ليس لهذا فحسب ، وإنما أولا وبالذات لأن الخطيئة لا تُورَث ، بل كل امرىء مُحاسَبٌ فحسب بما قدمت يداه ، لا يسأل بما فعل آباؤه ، ولا يؤخذ بفعل ذراريه . وثانيا لأن معنى هذه المقولة هوأن الأبرار قبل المسيح ـ وفيهم أنبياءُ الله ورسله وصديقوه ـ ماتوا كلهم فى خطيئة آدم ، لا حَظ لهم فى الآخرة . ولا يصح هذا أخيرا وبالذات لأن المسيح لم يَقُلْهُ فى هذا الإنجيل الذى بين يديك ، ولا يجوز التزيد على أنبياء الله ورسله ، ولاسيما فى أمر هو عمود الدين عند أصحاب هذا اللاهوت .

وقد جُودِلَ أصحابُ هذه المقولة بمعظم هذا الذى قُلناه ، فَأُحيطَ بهم . ولكنهم استدركوا على أنفسهم فقالوا إن الأبرار قبل المسيح ـ وفيهم أنبياء الله ورسله وصدِّيقوه ومنهم مريم عليها السلام ـ يُعفيهم الله بسبقِ الاصطفاء من وِزْر الخطيئة الأصلية فلا يُولدُون فى دنسِ خطيئةِ آدم ، وإنما تَحْمِلُ بهم أمهاتهم حملا بريئا من هذا الدنس ، يرقَعُون كما ترى قولا بقول ، فما صَحّ لهم هذا ولا ذاك ، لأنه متى فسدت المُقَدِّماتُ فقد فسدت النتائج .



إذا كان المسيح لم يبشر بالساعة ، ولم يبشر بمغفرة الخطايا مجانا ، ولم يبشر بنسخ الولادة فى دنس خطيئة آدم ، فبماذا بَشَّرَ المسيحُ إذن فى إنجيله إذا كانت "الإنجيل" تعنى يونانياً البشارة أو الخبر السار ؟

يقول أهل القرآن ان بشارة المسيح إنما كانت بختام النبوات على يدى الذى يأتى بعده ، لقول المسيح فى القرآن ينص على هذه البشارة : { **وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين** } (الصف : ٦) .

لا تقرأ هذا أو قريبا منه فى أناجيل متى ومرقس ولوقا ، وإنما انفرد به "يوحنا" الذى جمع بين النقائض : ألَّه المسيح جَهْرَةً فى مُفْتَتَحِ إنجيله ، وختمه بالنص على أن المسيح رُفِع ولم يَقُل بعد كل الذى يجب أن يقال ، كما يتبين لك من قول يوحنا على

لسان المسيح : "إن لى أمورا كثيرة أيضا لأقولَ لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن . وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لايتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية" (يوحنا/١٦ ١٢ ـ ١٣). لم يُرشِد المسيح أتباعه إذن إلى "جميع الحق" ، بل عليهم أن ينتظروا " الآخر" ، متمم النبوات جميعا ، الذى يرشدهم إلى "جميع" الحق ، فلا يبقى بعده من رسالات السماء شىء يقال .

هذه فى الأناجيل هى شهادة عيسى للقرآن ولمحمد صلى الله عليه وسلم قبل ختام النبوات به بَعْدَ ستة قرونٍ من رَفْع المسيح ، وهى بشارته بقائل جميع الحق . وهى كافية فى ثُبوتِ بشارةِ عيسى بخاتم النبيين ، ولو قد تَلَبَّثَ عندها علماء المسلمين لَكَفَتْهُم ، ولكنهم أصروا على التماس اسم خاتم النبيين فى الأناجيل صريحا على لسان المسيح ، وسيأتى .

على أن علماء المسيحية لم يُسَلِّمُوا لعلماء المسلمين بالذى قالوا ، وهذا بديهى ، وإلا لدخلوا ودخل معهم الخلق جميعا فى دين الله أفواجا . وإنما يقول شراح المسيحية وعلماؤها ولاهوتيُّوها ان هذا الآخر الذى يأتى بعد رفع المسيح ليرشد الناس إلى جميع الحق ، أى ليقولَ لهم ما لم يقُلْهُ المسيح ، لأنهم لا يستطيعون احتماله ، الذى نَعَتَهُ المسيح بروح الحق ، ليس هو بشرا من أنبياء الله ورسله ، وإنما هو "الروح القدس" ، ثالث الثلاثة فى عقيدة التثليث ، يعنون ملك الله جبريل صلوات الله عليه . وهذا القول ـ إن تَمَعَّنْتَ ـ مردودٌ بما فى إنجيل يوحنا نفسه الذى تجد فيه بالنص من كلام المسيح لتلاميذه قبل القبض عليه : "وأما الآن فأنا ماض إلى الذى أرسلنى وليس أحدٌ منكم يسألنى أين تمضى . لكن لأنى قلت لكم هذا قد ملأ الحزنُ قلوبكم . ولكنى أقول لكم الحق إنه خيرٌ لكم أن أنْطلِق . لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المُعَزِّى (وهى الفارقليط Parakletos اليونانية) . ولكن إن ذهبت أُرسِلُهُ إليكمْ (يوحنا/١٦ ٥ ـ ٧) ، وهذا صريحٌ فى أن المسيح وهذا الآتى من بعده لا يتعاصران على هذه الأرض. لابدُ من رفع المسيح أولا قبل مجىء هذا الآتى. بينما تقرأ فى يوحنا أن هذا الروح القدس كان معهم قبل رفع المسيح ، بل إن المسيح نَفَخَ فيهم هذا الروح القدس قبل ارتفاع المسيح : "ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس" (يوحنا ٢٠/ ٢٢). وهو مردودٌ أيضا بأن

"الروح القدس" عندهم إله (ولم يكن يوحنا يعلم بالطبع يوم كتب إنجيله أن جبريل سيتأله في الربع الأخير من القرن الرابع) ، ولا يليق بإله ألا يتكلم من نفسه ، بل ينتظر سماع ما يقال له ثم يقوله للناس ، وإنما يَصِحُّ هذا في أنبياء الله ورسله ، يُلْقَى إليهم وحيه فيتكلمون به ، شأن محمد صلى الله عليه وسلم وهذا القرآن . بل لا يصح في جبريل بالذات وإن لم يَتَألَّه جبريل ، لقول المسيح في يوحنا : "ومتى جاء المُعَزِّي (وهي الفارقليط Parakletos اليونانية) الذي سأرسِلُهُ أنا اليكم من الآب ، روح الحق الذي من عند الآب ينبثق، فهو يَشْهَدُ لي" (يوحنا ١٥/٣٦) لأن جبريل عليه السلام، مَلَكَ الله إلى أنبيائه ورسله قد سبق " انبثاقُه " ، لا ينتظر المسيح حتى يرسله من عند "الآب" ، بل قد سبق انبثاقه مَولِدَ عيسى نفسه ، لأنه النافخُ في مريم ، المُؤيِّدُ للمسيح في المعجزات التي أجراها الله على يديه . ولو كان عيسى إلها بذاته لما احتاج إلى جبريل . ولو كان جبريل إلهاً بذاته لما احتاج إلى " السماع " من الآب ليتكلم بما يقوله له "آبٍ" من ذات جوهره . ولو بَقِيَ جبريلُ مَلَكا على أصْله لما جاز أن يكون هو المبشر به ، لأن الملائكة لا تتنزل على تلاميذ ، وإنما تَتَنَزَّلُ على أَنبياء ، كالشأن في جبريل ومحمد ، صلوات الله وسلامه على ملائكته و أنبيائه . وأخيرا ـ وهو الفاصلُ الحاسم ـ فإن هذا الذي تنزل على التلاميذ يوم الخمسين (أي بعد خمسين يوما من رفع المسيح كما تَقْرَأُ في سفر أعمال الرسل) لم يقل لهم شيئا ، لا من نفسه ولا سماعا من الآب ، كما قال المسيح في الآتي بعده ، وإنما كان دَوْرُهُ هو تأييدهم ونُصْرَتَهُم وإجراء العجائب على أيديهم كالذي تَقْرَؤُهُ في سِفْر أعمال الرسل . ليس هذا إذن هو الآتي بعد المسيح ، الذي "شَهِد له" ، وإنما الشاهدُ للمسيح هو هذا القرآن .

أما لفظة "الفارقليط" Parakletos التي سمى بها المَسيح هذا الآتي بعده ، فهي من اليونانية الكَنَسِيَّة التي لم تُسْمَع قط من اليونان قبل عصر المسيح ، يعني أنها منحوتة نحتا لتسمية هذا الآتي . وقد قال علماء المسيحية انها يسهل اشتقاقها على المفعولية من الفعل اليوناني Parakalein بمعنى استغاثه واستنَصرهُ واستعانه فهو إذن المُسْتغاث ، المُسْتَنصر، المُسْتَعان: أخذوا kalein اليونانية بمعنى ناداه واستدعاه، وأخذوا المقطع اليوناني Para بمعنى إلَيَّ ، حوالَيَّ ، وكأنك تقول "هَلُمَّ إلَيَّ !". ولاتزال Parakalo ! في اليونانية المعاصرة تفيد معنى الطلب والرجاء (أرجوك !) هذا التفسير المسيحي للفظة الفارقليط Parakletos بمعنى النصير الشفيع ، تفسيرٌ متأثرٌ

بالدور الذى اضطلع به "روح القدس" من بعد رفع المسيح من نُصْرَةِ التلاميذ وتأييدهم بالعجائب التى أجراها على أيديهم على نحو ما تقرؤه فى سفر "أعمال الرسل" ، وإن لم يَقُلْ لهم شيئا مما قال المسيح إنه سيرشدهم إليه ، الذى يقول لهم "جميع" الحق . ومن ثم لا يتفق هذا التفسير مع دور هذا "الآتى" من بعد المسيح ، لأنه ليس المَعْنِىَّ بها .

ولاشك أن يوحنا الكاتب لهذا الإنجيل حين نَصَّ على أن الفارقليط هو نفسه روح القدس جبريل : "وأما الفارقليط [١] الروح القدس الذى سيرسله الآب باسمى فهو يُعَلِّمُكم كل شىء ويذكركم بكل ما قلته لكم" (يوحنا ١٤/٢٦) ، كان متأثراً بهذا الذى كان ، فخلط قلمه بين "روح الحق" ، " روح القدس" التى سمى بها الفارقليط مرةً واحدة فقط فى هذا الموضع وهى فى كل المواضع الأخرى "روح الحق" ، وليست روحُ الحق هى روح القدس كما ظن يوحنا المتأثر بالذى كان .

والذى ينبغى التنبيه إليه أن ترجمات الإنجيل بكل اللغات استبقت لفظة فارقليط على أصلها ، تحاشياً من التورط فى ترجمة معناها إلى اللغة المُتَرْجَمِ اليها ، فقالت الترجمة العربية حتى أوائل هذا القرن " فارقليط " ، وقالت الترجمة العبرانية "پرَقْلِيط" ، وقالت الفرنسية le Paraclet ، الخ . ولكن من اللغات الأوروبية من تَصَدَّت لهذه الترجمة فقالت الألمانية "المُدافع" أو "الشفيع" المُتَشَفِّع به Fürsprecher وتابعتها الانجليزية على هذا المعنى فقالت "الناصح المشير" Counsellor وكأنها المُحامى ، وقالت الانجليزية أيضا "المُعَزِّى" المُواسِى Comforter وأخذتها عنها الترجمة العربية المعاصرة فقالت "المُعَزِّى" ، لا تَجِدُ اليوم غيرَها فى ترجمات الإنجيل العربية . وليس هذا كُلُّه بصحيح من حيث اللغة ، لا سيما "المُعَزِّى"، وإنما هو التفسير بالعقيدة، لا التفسير باللغة، فليس فى Parakalein اليونانية شىء من معانى العَزَاء و المواساة، وليس فيها أيضا شىء من معانى الشفاعة والمُدافَعَة والمشورة ، وإنما هى ـ إن اشتققتها من Parakalein كما يقول علماء المسيحية ـ تعنى فقط المستغاث المُسْتَنْصَر المستعان ، أو الذى تَتَوجَّهُ إليه بالرجاء ، على معناها الباقى فى اليونانية المعاصرة .

---

(١) تجد " الفارقليط " هذه بلفظ " المعزى " فى الترجمات العربية المعاصرة على ما يأتى .

أما علماء المسلمين فقد دلهم بعض السريان من قديم على أن " فارقليط " هذه تعنى فى اليونانية " أحمد " التى فى القرآن اسما لخاتم النبيين الذى بَشَّرَ بَه عيسى قَوْمَهُ فى القرآن . فذهب بعض المفسرين إلى أن " الفارقليط " من أسمائه صلى الله عليه وسلم . وقد جادل بها المسلمون أهل الكتاب إلى هذا العصر . وانتبه علماء المسيحية إلى خطورة هذا حين يقرؤه المسيحيون العرب الذين يعرفون على التحقيق معنى الاسم " أحمد" أو "محمد" فى لغتهم العربية ، ولا علم لهم بتلك اللغة اليونانية التى كُتِبَت بها أصولُ الأناجيل وصيغت بها لفظة Parakletos هذه التى استُبْقِيَت على أصلها "فارقليط" فى الترجمات العربية حتى أوائل هذا القرن العشرين ، فلا يستطيعون لمقولة علماء المسلمين هؤلاء دفعا . قال علماء المسيحية [1] إذن ان Parakletos اليونانية لا تعنى قط "أحمد" وإنما تعنى " المُعَزِّى " فحسب ، مُعقِّبين بأنها فى الأصل اليونانى Parakletos ، وليست Periklitos ، "فليس فى المتن شىءٌ من معانى الحمد" . وتوقفت ترجمات الإنجيل العربية عن استخدام لفظة الفارقليط ، ووضعت فى مواضعها لفظة " المُعَزِّى " قطعاً للجدل حول شبهة معنى "الحمد" فى الاسم، على مثال ما فعلت الترجمة الانجليزية Comforter .

هذا الدَّفعُ " اللغوى " بأن الفارقليط لا تعنى أحمد ، دَفْعٌ مُتأخِّر بطبيعة الحال ، لم يُعْرَف قبل مَبْعَث خاتم النبيين المسمى "محمدا " ، أو قل إنه لم يعرف قبل اطلاع الغربيين على معنى اسمه صلى الله عليه وسلم ، فَهَبُّوا لمنع اشتباه اسمه باسم ذلك الآتى بعد المسيح ، الذى إن لم ينطلق هو لا يجىء . ولكن هذا الدفع لم يطفىء الشبهة ، بل زادها اشتعالا : ها قد علم المسلمون أن فى اليونانية "فِرِيقْلِيط" Periklitos بمعنى "أحمد" شبيهةً كل الشَّبْه بـ " فارقليط Parakletos المثبتة فى الأصل اليونانى ، فلم لا تكون هذه هى تلك ، تَحَرَّفَت على قلم يوحنا الكاتب فى إنجيله ؟

على أن علماء المسيحية أصحاب هذا الدفع اللغوى لم يُوَفَّقُوا ، فليس معنى فارقليط Parakletos اليونانية هو" المعزى" كما مر بك وكما يعلم دارسو اللغة اليونانية، ولا معنى للإصرار على أن الفارقليط يعنى المُعَزِّى . وليس بصحيح أيضا

(١) راجع الكتاب المقدس ، طبعة الفاتيكان العربية ، المرجع المذكور ، حواشٍ على مجلد العهد الجديد ، ص ٥٠٠ .

أن Parakletos لا تعنى " أحمد " ، وأنها لو كانت أحمد لقيلت بلفظ Periklitos ، بل Parakletos بذاتها ودون افتراض تحريف أو تحوير ، تعنى أحمد أيضا ، إن اشتققتها لا من Parakalein وإنما من Parakleiein ، المقطع الأول Para بمعنى المبالغة وتجاوز الحد ، والمقطع الثانى kleiein فعْلٌ بمعنى مَجَّدَهُ وحَمَّدَه فهو المحمودُ أكْثَرَ من غيره ، شأن " أحمد" التى جاءت فى القرآن ، وفى هذا تعليلٌ لمجيئها على "أحمد" لا "محمد" ، لأن القرآن ينظر إلى المكتوب فى الأناجيل اليونانية لا إلى ما نطق به المسيح بلغته ، وليس فى اليونانية صيغة "مُفَعَّل" التى فى العربية والعبرية ، وإنما فيها المقطع para الذى يفيد المبالغة وتجاوز الحد . والمحقق الذى لا يصح فيه جدل أن المسيح لم يَقُلْ فارقليط أو فريقليط، فهو لا يتكلم اليونانية، ولا يُحَدِّثُ تلاميذه بها ، وإنما هى ترجمة من يوحنا الكاتب، لا تدرى عما نَقَل، فلا تدرى هل أخطأ أو أصاب.

هذا إن قلت أن " فارقليط " يونانية . ولكنك تستطيع أن تقول أيضا ـ وهذا هو الذى أرَجِّحُهُ أنا ـ إن "فارقليط" ليست يونانية ، وإنما هى عبرية ـ آرامية "پرَقْ + ليط" على ما نطق به المسيح بلغته ونقلها على حالها يوحنا الكاتب حسبما استقام له نُطْقُهَا بلسانه اليونانى . الذى يَدُلُّكَ على هذا أن العبرية المعاصرة تستخدم " پرَقْليط" هذه بمعنى المحامى، لا إسم عندها للمحامى غيره . وقد تقدم القول فى تضاعيف هذا الكتاب أنَّ لفظة "پرَق + ليط" العبرية ـ الآرامية معناها كاشف الغشاوة أو واضع الإصر ، وهو نعته صلى الله عليه وسلم فى القرآن : { **الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويُحِلُّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم** } (الأعراف ١٥٧) . والإنجيل المَعْنِىُّ فى هذه الآية هو بلا شك هذا الإنجيل اليونانى الذى بين أيديهم ، فما كان الله ليُعَمِّىَ عليهم إنجيلا آخر ، وما كان القرآن ليقول إلا حقا ، لأنه هاهنا يتحدى أهل الكتاب بهذا الحق : إنه عندكم مكتوب فى إنجيلكم فَتَلَمَّسُوهُ فيه ، باسمه أو بنعته ، لقوله عز وجل مباشرةً بعد ذِكْرِ بشرى المسيح قومَه بمحمد فى الآية ٦ من سورة الصف : { **ومن أظْلَمُ ممن إفترى على اللهِ الكَذِبَ وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدى القوم الظالمين. يُريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون** } (الصف ٧ ـ ٨) .

هذا قاطعٌ فى بشارةِ الإنجيل بخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، سواءٌ قُلْتَ إنه "الفارقليط" المتنازَعُ عليها ، أو قلت انه قائلُ جميعِ الحق الذى لا يَبْقَى بَعْدَهُ شيءٌ يقال كما وصفه المسيح صريحاً فى هذا الإنجيل الذى بين يديك .

هذه هى "البشارة" إن قُلْتَ إن "الإنجيل" يونانياً معناها البشارةُ .

على أننا لا نَتَلَبَّث طويلا عند هذا ، فقد مَرَّ بك فى تضاعيف هذا الكتاب أن رسالات الله عز وجل ـ من آدم إلى محمد صلوات الله وسلامه على جميع رسله وأنبيائه ـ إنما تستمد الدليلَ على صدْقها من ذاتها لا من خارجها ، لاتحتاجُ إلى نبوءاتٍ وبشارات فى الكتب السابقة كالذى أَلَحَّ عليه كَتَبَةُ الأناجيل الأربعة . القرآنُ غَنِيٌّ عن ذلك ، فلم يُبْقِ قولا لقائل من بعده . ولو كان بعد خاتم النبيين نبيٌّ ـ وهذا من إعجازِ القرآن فى أنباء القرآن ـ لما عَدِمَ الناسُ نَبيا جديداً يقطعُ هذه الفترةَ المتطاولة ـ أربعة عشر قرنا حتى الآن ـ التى لا سابقةَ لطولها فى تاريخ الأديان بين نَبِيٍّ ونَبِيٍّ ، لا شأنَ لك بالطبع بمن تَطَفَّلَ واقْتَحَم فجاء بنفسه لم يُرْسِلْهُ أحد ، من أمثال تلك البهائيات والقاديانيات التى لم تأتِ بجديدٍ إلا محاولةَ "المُصالحةِ" بين اليهوديةِ والنصرانيةِ والإسلام ، فَضَيعَت على نفسها هذا وذاك .

على أن " الإنجيل" لا تعنى يونانياً البشارة أو الخبر السار كما سوف ترى : هذا على شهرتهِ غيرُ صحيح .



المتفق عليه بين علماء المسيحية جميعا هو أن "الإنجيل" تعريب "إڤنجليون" اليونانية euaggelion [١] مركبة من مقطعين : eu + aggelion الأول هو البادئة eu التى تُفيد التقريظ والتحميد ، والثانى aggelion قالوا أنه بمعنى "الخبر" ، فهو "الخبر السار" . وقد حرصت جميع الترجمات على استبقاء euaggelion على أصلها ، فقالت الإيطالية Evangelo وقالت الفرنسية Evangile وقالت الألمانية Evangelium، الخ . ، وقالت العربية "إنجيل" كما تعلم ، وقال السريان "أنجليون" (التى حكاها عنهم

(١) لا تنطق اليونانية حرف الجيم مشددا ، وإنما تحيل الأول فى النطق نونا . ومن هنا ينطقون gg التى فى euaggelion لا gg بل ng (gg = ng) .

القرطبى فى تفسيره فرسمها بالكاف "أنكلِيُون" لأن الجيم السريانية هى الجيم القاهرية، لا يصح عنده رسمها بجيم عربية القرآن) . أما الانجليزية فتصدت لترجمتها على ما شاعت به ، فقالت Gospel (التى أصلُها good + spell) بمعنى القول الطيب ، تُريدُ "البشارة". وأما الترجمة العبرانية للأناجيل اليونانية فقالت "بسُورا" تعنى البشارة حرفيا . وهذا يدلك على أن ترجمات الأناجيل جميعا ومنها العربية والسريانية استبقت اللفظ اليونانى على أصله ، فيما عدا الانجليزية والعبرانية اللتين تَصَدَّتَا لترجمته ، فأخْطَأتا كلتاهما كما سترى .

هذا الخطأ الشائع الذى وقع فيه المترجمان الانجليزى والعبرانى منشؤه أنهما ترجما "المفهوم" الذى شاع ، لا " الأصل" اليونانى فى لغته اليونانية . لأن المقطع الثانى فى هذه اللفظة (إن حَسِبْتَها يونانية) هو "أنَجليُون" aggelion وهو مأخوذ من "أنجلِيُو" aggelio يعنى "الرسالة" ، اشتقاقا من "أنَجلوُس" aggelos يعنى الرسول المُرْسَل (ويُطلِقُها اليونان أيضا على المَلَك واحد الملائكة ومنها angel الإنجليزية ، مثلما تفعل العبرية والآرامية فى "مَلآخ" التى تُستَخدَمُ بمعنى الملك واحد الملائكة وبمعنى الرسول واحد الرُّسُل) . "أنجلِيُون" إذن معناها الرسالة لا الخَبَر . أما المقطع الأول eu فهو بادئة يُحَلَّى بها ما بعدَها (" أنجليون ") فَتُفيد التقريظَ والتحميد كما فى eu - genis يعنى حَسَنُ التربية فهو المهذَّب ، وكما فى eu - geustos يعنى حَسَنُ المذاق ، فهو السائغ الشهى ، أو تفيد الخَير كما فى eu - logia أى قول الخير ، يعنى المُباركَة والتبريك ، أو تُفيد المبالغة فى تَحَقُّقِ الصفة فى الموصوف كما فى eu - pathis يعنى الشديد الحساسية ، فهو الهَشُّ الرقيق . من هنا تَتَيَقَّنُ أن هذا اللفظ اليونانى المركب "إِقْنْجلِيُون" eu - aggelion ليس معناه الخَبَرُ السار أو الخَبَرُ الحُلو أو الخَبَرُ الطيب ، أو الخَبَرُ نعْمَ الخَبَر ، وإنما هو مَحْضُ "الرسالة" ، حلاَّها كتبة الأناجيل بهذه البادئة eu التى تفيد التقريظ والتحميد ، أو ما شِئْتَ من معانى هذه البادئة اليونانية على ما أوردناه آنفا .

وربما قيل لك ان "الرسالة" من معنى "الخَبَر" قريب، وما يُدريك أن كتبة الأناجيل أرادوا معنى "الخَبَر" فقالوا فى موضعه "رسالة" ؟ ولا يَصِحُّ هذا ، أولا وقبل كل شىء لأنك تأخذُ القائل بما قاله لا بما أبْطَنه ، وثانيا لأن الذى لا يُفَرِّق بين معنى الخَبَر ومعنى

الرسالة ، لا يَفقَهُ من أمر لغته شيئا ، فلا تَأْتَمِنْهُ على شيء مما كتب في هذه الأناجيل، وثالثا لأنهم لو أرادوا الخبر الطيب أو الخبر السار لقالوا ببساطة kalo neo (مفرد kala nea اليونانية مكافئة good news الانجليزية)، ولما تَمَحَّلُوا هذه الصيغة المخصوصة euaggelion التى لم تُسْمَع قط من اليونان قبل المسيح ، ورابعا ، وهو الفاصل الحاسم ، لأن " إِقْنْجِلْيُون " euaggelion هذه لو كانت تعنى يونانياً البشارة أيَّةَ بشارة ، أو الخَبَرَ السَّارَّ أى خبر سَارٌ ، لَصَلَحت فى اليونانية بهذا المعنى فى غير اسم "إنجيل المسيح" ، ولكنها جَمَدت فى الاستعمال عَلَماً على ما جاء به عيسى ، لا تصح فى غيره كما يعرف علماءُ تلك اللغة .

لن نحتاج بالطبع إلى أن أدُلَّكَ على الفرق بين معنى الرسالة ومعنى الخبر : الرسالة تقتضى "مُرْسِلاً" ، "رسولاً" ، "مُرْسَلاً إليه" ، والخبر لا يحتاج إلى أى عنصر من هذه العناصر الثلاثة ، فقد ينتقل الخبرُ بذاته ، وقد ينتقل ممن يَحْرِصُ على إخفائه فيذهب لمن لا يعنيه الخبرُ ولا يَأْبَهُ به . والرسالةُ لا تتضمن خبراً بالضرورة ، بل بالأحْرَى طلباً أو تكليفاً ، وهى فى الغالبِ الأعم تشترطُ رداً ، ولكنها فى أقل القليل تنتظر "استجابة" . وليس الخَبَرُ أو النبأ من هذا كُلِّه فى شىء .

وقد استشعر المترجمُ العربى حَرَجاً من إضافة "الإنجيل" إلى الله فى مثل قول مرقس: "وبعد ما أُسْلِمَ يوحنا جاء يسوعُ إلى الجليل يَكْرِزُ بإنجيل الله" (مرقس ١٤/١) ، فقالت ترجمة الفاتيكان العربية " يَكْرِزُ بإنجيل مَلَكُوتِ الله " ، أضافت من عندها لفظة " ملكوت " فاصلاً بين الإنجيل والله . أما ترجمة الكنيسة الأرثوذوكسية المصرية فقالت "يكرز ببشارة ملكوت الله" ، رفعت " إنجيل " ووضعت فى موضعها "بشارة" وأضافت هى أيضا لفظة " ملكوت " فاصلا بين "البشارة " (التى هى الإنجيل) وبين " الله " . أما حين جاءت لفظة "الإنجيل" منفردة فى الفقرة التالية مباشرة : "ويقول قد كَمَلَ الزمان واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل" (مرقس١ / ١٥)، عندئذ تركت لفظة "الإنجيل" على أصلها فى الترجمتين . هذا التحرُّج من إضافة "الإنجيل" إلى الله ناشىء عن فهمهم الإنجيل بمعنى الخبر السار أو البشارة ، ولا يصح أن تكون لله بشارة ، لأن عيسى هو "المُبَشِّر" لا الله ، أو هو "الكاروز" أى البَشير النذير آراميا . ولو قد فهموا "إنجيل" بمعنى "الرسالة" على أصلها اليونانى ، لاستقام الفهم واستقامت العبارة "يكرز برسالة الله" .

ولولا أننى لا أقول بيونانية لفظة " إنجيل " على ما سيأتى بيانه ، لقلت لك ان المعنى فى عبارة مرقس " يكرز بإنجيل الله " يعنى " يبشر بإنجيل الله " ، هو البشارة التى فى الأناجيل بقدم محمد صلى الله عليه وسلم ، فتفهم من عبارة مرقس لا "يبشر بإنجيل الله" وإنما "يبشر برسول الله" .

ولكننى لا أحتاج إلى هذا ، لأننى أقول بأن المعنى بعبارة " ملكوت الله " التى فى مرقس وأمثالها : " قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله " (مرقس ١ / ١٥) هو "رسولُ الله " تسمية بالمصدر على المبالغة والتفخيم ، لأن " ملكوت " عبريا وآراميا كما يعرف علماء هاتين اللغتين (مع إبدال كافها خاءً فى النطق لا فى الرسم) تعنى "الرسالة" لا " المُلك " ، فلا يَبْعُد أن تشتبه على كتبة الأناجيل بلفظة "مَلكُوت" المكسورة اللام بدلا من فتحها ، والتى تعنى المُلك والمملكة ، فترجموها باليونانية حيثما وردت بلفظة " Basileia " يعنى "المملكة" التى حَسَّنَتْها الترجماتُ العربية فقالت "مَلَكُوت " . فقد أراد المسيحُ إذن أنَ الزمان كَمَل واقترب مجىء الرسول الخاتم . تجد مثل هذا فى قولهم فى صلواتهم : " أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمُك ، ليأت ملكوتك " أى فليأت رسولك ، قائل جميع الحق ، خاتم النُّبُوَّات . عليك كلما قرأتَ فى هذه الأناجيل لفظة " المَلكُوت " منسوبة إلى الله عز وجل أن تفهم منها مباشرة رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم : إنها " أنجلوس " اليونانية فى هذا الموضع بالذات Aggelos لا المملكة والملكوت Basileia . عندئذ يستقيم الفهم وتستقيم العبارة . لن يقبل هذا بالطبع علماء المسيحية ، وإلا لآمنوا من قبل بالقرآن وبمحمدٍ صلى الله عليه وسلم . ولكننى أقوله لك أنت كمسلم يقرأ فى هذه الأناجيل ويريد أن يقع فيها على حقيقة وحى الله على عيسى ، أقرب ما يكون إلى ما نطق به المُبَشِّرُ بخاتمِ النبيين .

عليك فقط أن تفهم الأب بمعنى الرب ، والابن بمعنى البارِّ أو الصفى المختار ، وأن الملائكة التى فى الأناجيل تجىء أحيانا بمعنى الرُّسُل ، وأن الملكوت حين يُبَشَّرُ بمجيئه واقترابِ زمانه إنما هو " رسولُ الله " محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، وأن تفهم لفظة euaggelion " الإنجيل " إن حَسِبْتَها يونانية لا بمعنى البشارة أو الخبر السار ، وإنما بمعنى " الرسالة " أو" الرسول " ، لاسيما أن زيادة النون فى " أنجِلْيُو" التى أصبحت " أنَجْلِيُون" تَنْسَخُ الإسمية على المصدر وتَرُدُّها إلى الإسميةِ على الفاعل ، فهى أقربُ إلى الرسولِ منها إلى الرسالة .

أما وقد وضح لك أن " إڤَنْجلِيُون " euaggelion لا تعنى البشارة ، وإنما تعنى يونانياً "الرسالة " ، وهو المعنى الذى يَقْلبُ مفهومَ " البشارة بمغفرة الخطايا " عند علماء المسيحية رأسا على عقب ، فليس أمامنا وأمامهم إلا القول بأن " الإنجيل " ليست فى الأناجيل على الترجمة للفظٍ قاله المسيح بلغته ، وإنما هى على أصلها العبرى ـ الآرامى الذى نطق به المسيح ، جاء فى صورةٍ يونانية .

نعم . هذا هو القول الذى به نقول : ليست " إنجيل " يونانية ، وإنما هى عبرانية، كما سترى .



كان عيسى يُتْقِنُ عبريةَ التوراة كما كان يَنْطقُها موسى وهرون ، صلوات الله عليهم أجمعين . وهذا من تعليم الله عَزَّ وجل إياه : { **وإذ علّمْتُك الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ والإنجيل** } (المائدة : ١١٠) ، فكان يجادل بالتوراة فى الهيكل علماء التوراة وهو بعد حدثٌ يافع . وهذا من آيات الله فيه ، فقد فسدت عبرية التوراة على ألسنة الناس فى فلسطين وآلت إلى رطانة آرامية على ما مر بك فى تضاعيف هذا الكتاب . وهو أيضا الذى نعنيه بأن لغة المسيح ، ولغة " إنجيله " أيضا ، عبرية ـ آرامية ، يختلط فيها هذا بذاك .

وقد وضح لديك الآن أن لفظ " البشارة " (وهى " بسُورا " عبرياً) لا يصح اسما لوحى الله على عيسى ، ولا يَصحُّ أيضا لفظ " الرسالة " (وهى " ملآخُوت " عبرياً وآرامياً) ، لأن الرسالة هى مَنْصبُهُ عليه السلام ، لا وحى الله عليه ، وإلا لَتساوى فى الاسم التوراةُ والإنجيل والقرآن ، التى هى أعلامٌ على وحى الله على موسى وعيسى ومحمد كل على حدة صلوات الله وسلامه عليهم جميعا . ومن ثم لا تَصحُّ "أنْجلِيُون" aggelion اليونانية ، سواء أخذتَها كما يقولون بمعنى البشارة أو كما نقول نحن بمعنى الرسالة، ولا معنى وراء هذين للفظة "أنجليون" اليونانية، اسما لوحى الله على عيسى. هنا تقطع بأن "أنَجلْيُون" اليونانية ليست يونانية ، إن كانت هى اسم وحى الله على عيسى كما سَمَّاهُ الله أَو سَمَّاهُ المسيح .

لا يَبْقَى لديك إذن إلا أنَّ " أنجليون " هذه لفظةٌ بلغة المسيح ، اسمٌ لوحى الله على عيسى ، نقلها كتبة الأناجيل على أصلها بالخط اليونانى كما سُمِعَت من المسيح

نفسه ، أخذوها على العَلَمية المجردة فلم يحتاجوا إلى تمحيص معناها فى لغة المسيح ، ولم يفسروها للقارىء مثلما فسروا " طاليثا قُومى " (قومى يا صبية) ، " إيلى إيلى لما شبقتنى" (إلهى إلهى لماذا تركتنى) وغيرهما ، فبقيت لفظة " إنجيل " ـ كما بقيت التوراة وبقى القرآن ـ على أصلها فى كل اللغات .

إن صح هذا ـ وهو الصحيح الذى لا يصح غيره بعد كل الذى قلناه ولأنك لا تتصور أن يَتَسَمَّى وحى الله على عيسى اسماً عَلَماً بغير لغة المسيح ـ فما هى تلك اللفظة العبرانية التى نطق بها المسيح فى تسمية " إنجيله " فآلت عند كتبة الأناجيل اليونانية إلى " أنجليون " اليونانية ؟

قد عَلِمْتَ أن اليونان يَهمِسُون الهاء فلا تكاد تَبِين ، وأنهم أيضا لا يستطيعون تشديد الجيم ، فيستبدلون من الجيم الأولى نونا ، يكتبون gg وينطقون ng .

ومر بك أيضا فى تضاعيف هذا الكتاب أن أداة التعريف فى العبرية هى "ها" ، تُحْذَفُ ألفُها عند الوصل ويُشَدَّدُ ما بعدها بديلاً من حذف الألف ، كما تحذف أنت فى العربية اللام من أداة التعريف "أل" وتُشَدِّدُ ما بعدها فى مثل "أَلْشَمس" فتقول "أشَّمْس" . مثال ذلك فى العبرية "تُورا" : لا يقال عند التعريف "هاتُورا" بل "هَتُّورا".

هكذا يفعل العبرانيون فى مثل لفظة " جِلْيُون " حين تُزادُ فيها أداة التعريف : لا يقال "ها جِلْيُون" ، وإنما يقال "هَجِّلْيُون" .

فكيف تنطق أنت " هَجِّلْيُون " العبرانية هذه إن كنت يونانياً يهمس الهاء ، ولا يشدِّد الجيم ؟ تسقط الهاء ، وتضع موضع الجيم المشددة الحرفين نج ، ومن ثم تؤول عندك "هَجِّلْيُون" العبرانية أولا إلى "أجِّلْيُون" بإسقاط الهاء ، ثم إلى "أنجلْيُون" بتغيير الجيم المشددة (جِّ) إلى (نج) ، فتكتب aggelion وتنطق angelion .

هذا هو بالضبط ما فعله كتبة الأناجيل اليونانية حين أرادوا نطق "هَجِّلْيُون" العبرانية التى سمعت من المسيح فى تسمية "إنجيله" ، فقالوا "أنجِلْيُون" aggelion.

أما البادئة (إڤ) eu التى ألصَقُوها بـ "أنجليون" فأصبحت "إڤنجليون " وهى euaggelion التى تقرؤها فى الأناجيل اليونانية ، فهى على التقريظ والتحميد لوحى الله على عيسى ، كما يقولُ المسلم على التمجيد فى القرآن : "القرآنُ الكريم" ، "القرآنُ العظيم" ، ونحو ذلك . دليلك فى هذا أن السُّريان حين أخذوا عن اليونان اسم

الإنجيل لم يقولوا " إڤـ + أنْجليُون " ، وإنما أسقطوا هذه البادئة تماما ، وقالوها مباشرة على ما حكاه الثعلبى " أنَجْلِيُّون " .

أما " جِلْيُون " العبرية هذه فهى زنة " فعْلُون " العبرانية من الجذر العبرى "جلاً" على معنى التجلية والجلاء والتبيين ، كما قالوا من " يَتَر " يِتْرُون (حمو موسى) وكما يقولون من "علا" العبرانية "عِلْيون" على المبالغة فى العُلوِّ والتسامى .

وفى العبرية المعاصرة "جِلْيُون" أخرى هى هى رسماً ونطقا ، معناها "الصحيفة" ، ومنها "جِلْيُون أشوم" ، أى صحيفة الاتهام ، يعنى " بيان " التُّهَم المُسْنَدَة .

وفى عبرية التوراة أيضا "جِلْيُون" مثلها (وقعت فى سفر أشْعيَا بصورةِ الجمع ، أى "هَجِّلْيُونيم ") (١) ، معناها " المرآة " ، لأنها الجالية المَجْلُوَّة .

ومن طريف ما ذكره " إنجيل برنابا " الذى أنكرته الكنيسة ، قول المسيح لتلاميذه يصف إنجيله وكأنه يفسر التسمية : "حينئذ قال التلاميذ حقا إن الله تكلم على لسانك ، لأنه لم يتكلم إنسان قط كما تتكلم . أجاب يسوع : صدقونى إنه لما اختارنى الله ليرسلنى إلى بيت إسرائيل أعطانى كتابا يشبه مرآةً نقية نزلت إلى قلبى حتى إن كل ما أقول يصدر عن ذلك الكتاب . ومتى انتهى صدور ذلك الكتاب من فمى أصعد عن العالم . أجاب بطرس : يا معلم هل ما تتكلم الآن به مكتوب فى ذلك الكتاب ؟ أجاب يسوع : إن كل ما أقوله لمعرفة الله ولخدمة الله ولمعرفة الإنسان ولخلاص الجنس البشرى إنما هو جميعه صادر من ذلك الكتاب الذى هو إنجيلى " (برنابا ١٦٨/١ -٥) (٢).

ليس بعد هذا بيان فى تفسير معنى " إنجيل " عبرياً على لسان صاحب الإنجيل : إنه " الكتاب ـ المرآةُ " ، " هَجّلْيُون " المرآةُ الجالية المَجْلُوَّة . ولا يقدح فى استشهادنا بإنجيل برنابا أنه إنجيل أنكرتْهُ الكنيسة ، فلا مدخل هاهنا لإقرار الكنيسة أو إنكارها ، لأن خصوم إنجيل برنابا أنفسهم يعترفون لكاتب هذا الإنجيل ـ أياً كان كاتبُه ـ بأنه فقيهٌ من فقهاء العبرية ، ضليعٌ مُتَضَلِّعٌ من عبرية التوراة خاصة ، حتى اتهموه بأنه يهوديٌ أسلم (٣) .

---

(١) راجع العهد القديم فى نصه العبرانى ، أشْعيَا ٣ / ٢٣ . وأيضا النص العربى ، حيث تجد مرآة مجموعة على "مرائى" لا " مرايا " ، وكلاهما جمع تكسيرٍ صحيح .

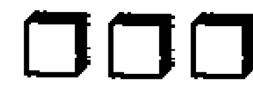
(٢) إنجيل برنابا ، مطبعة محمد على صبيح وأولاده بالأزهر ، ١٩٥٨ ، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ .

(٣) إنجيل برنابا ، المرجع المذكور ، مقدمة المترجم : " الدكتور خليل سعادة " ، ص (٢٢) .

الإنجيل إذن هى " هَجّلْيُون " العبرية من الجلاء والتبيين ، آلت على قلم كتبة الأناجيل اليونانية إلى " أَنَجْلْيُوْن " .

وعلى معنى الجلاء والتبيين ، فُسِّرَت لفظة " إنجيل " فى القرآن كما سترى .

فسبحانَ العليمِ الخبير ، القائل بكلِّ اللغات ، الذى عَلَّم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يَعْلم .



وردت لفظة " الإنجيل " فى القرآن اثنتى عشرة مرة ، هى : { **وأنزل التوراة والإنجيل** } (آل عمران : ٣) ، { **ويُعَلِّمُهُ الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل** } (آل عمران : ٤٨) ، { **وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده** } (آل عمران : ٦٥) ، { **وآتيناه الإنجيل فيه هدىً ونور** } (المائدة : ٤٦) ، { **ولْيَحْكُم أهلُ الإنجيل بما أنْزَلَ الله فيه** } (المائدة : ٤٧) ، { **ولو أنهم أقاموا التوراةَ والإنجيل** } (المائدة : ٦٦) ، { **قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تُقيموا التوراة والإنجيل** } (المائدة : ٦٨) ، { **وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل** } (المائدة : ١١٠) ، { **الذينَ يَتَّبِعُون الرسول النبيَّ الأميَّ الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل** } (الأعراف : ١٥٧) ، { **وَعْداً عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن** } (التوبة : ١١١) ، { **ذلك مَثَلُهُم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار** } (الفتح : ٢٩) ، { **وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل** } (الحديد : ٢٧) .

وأول ما تستظهره من هذه الآيات أن " الإنجيل " كتابٌ مُنَزَّل ، شأنه شأن التوراة والقرآن ، ليس مجرد بشارة أو رسالة ، لا تصح فيه معانى " أنجليون " اليونانية إن حسبتها يونانية ، وقد مر بك نقضنا ليونانية " إنجيل " ، وإنما هو مُجْمَلُ وحى الله على عيسى ، فيما بقى لك منه مما حَفِظَتْهُ الأناجيل وصَدَقَت فيه ، أعنى الذى صَدَّقَهُ القرآن والحديثُ الصحيح ، ولا عليك مما ضاع منه ، فحَسبك القرآن المُصَدِّقُ المهيمن وفيه الكفاية . وليس معنى " الكُتُب المُنَزَّلة " أنها أُنزلت " مكتوبةً " فى قراطيس ،

وإنما المَعْنَى أنهـا مكتـوبة عند ربك فى اللوح المحفـوظ ، يتنزل بهـا مـلائكة الله على عباده الذين اصْطَفى .

وثانى مـا تستظهره من هذه الآيات أن " الإنجيـل " نُزِّلَ علىٰ ذات القـوم الذين أُنزلَت فـيـهم التـوراة من قـبـل ، قلمـا يجىءُ إلا على الإلصـاق بالتـوراة قَبْلَه أو على التجـاور مع هذه التـوراة التى أنزل الله على مـوسى مقـصوداً بها بنو إسرائيل ، فـهو "مُلْحَقٌ " على الأصل ، تكملة لوحى الله على بنى إسرائيل . وقد قـالها المسيح بالنص فى هذه الأناجيل : " ما جئت لأهدُمَ الناموس والأنبياء ، وإنما جئتُ لأكمل " ، فلا يصح أن يقال ان الإنجيل ناسخٌ للتوراة ، وإنما هو وهى واحد ، وإنما الإنجيلُ جلاء وتبيين . على أن المسيحَ عليـه السلام جاء رحمةً لليهـود ، يُخَفِّفُ عنهم بعضَ الذى شَدَّدَ الله عليهم ، ريثما يجىءُ الرسول الخاتم ، الرحمةُ المهداة للخلقِ أجمعين . فهو من هذا الوجه مُوَطِّىءٌ لخاتَمِ النبيين .

وثالثُ مـا تستظهره من هذه الآيات أن " الإنجيـل " الذى فـيـه هُدًى ونور ، فـيـه أيضـا شريعـةُ أحكام ، لقـوله عـز وجل : { **وليحكم أهلُ الإنجيـل بما أنزَلَ الله فيه** } ، وفى هذا لفـتـةٌ بليـغـة إلى حَظْر الاعتـداد بغيـر مـا فى الأناجيل من وحيـه عز وجل ، فلا عِبْرَةَ بقولٍ يقال من بعد رفع المسيح ، كالذى قيل بإسقاط الخِتان واستحلال الخنزير [1] ، فلا وحى يَتَنَزَّلُ على تلاميذ .

أمـا معنى لفظة " إنجيـل " التى فى القرآن ، فـقد قـال المفسرون (راجع تفسير القرطبى للآية ٣ من سورة آل عمران) إنهـا عـربيـة من " النَّجْل " بمعنى الأصْل ، فـالإنجـيـل على هذا القـول أَصْلٌ لعلوم وأحكام ، وقـيـل هو من نَجَلْتُ الشىء إذا استخرجته ، فالإنجيل مُسْتَخْرَجٌ بِهِ علومٌ وحِكَم ، فقد استـخرج الله به دارساً من الحقّ عافيا ، وقيل من التناجُل بمعنى التنازع ، لتنازع الناسِ فيه . وليس هذا كُلُّهُ بشىء لما مـر بك من عـبـرانيـة " إنجيـل " . وحكى الثـعلبىُّ فـأصاب أنـه فـى السريانيـة "إنكليون" (يُريد " أنجليون " بالجيم القاهرية) . ولكن المفسرين لم يَقَعُوا على معنى "أنجليون" السريانية هذه ، فلم يتصدوا لتفسيرها ، لم يقولوا بشارة ، ولم يقولوا أيضا .

---

(١) قـالها بُولُس ، وأَيَّدَهُ فـيـهـا بطرس ، لرؤيا رَأَياها كـمـا تَقْرأ فى سـفـر أعـمـال الرسل بعـد رفع المسيح، واستفظعها برنابا الحوارى كما تقرأ فى مُفْتَتَحِ إنجيله المُنكَرِ من الكنيسة .

رسالة . وهذا يَدلُّكَ على أن مُعاصريهم من نصارى السريان ، وفيهم من بَرَع فى الترجمة إلى العربية من اليونانية عبر السريانية عصر تفاسير القرآن ، لم يُحَقِّقوا أصل لفظة " أنجليون " هذه لا يونانيا ولا سريانيا ، والا لذكره " الثعلبى" الذى حكى عنه القرطبى قوله بسريانية هذه اللفظة "أنكليون" . وهو يدلك أيضا على أن التفسير الذى نقوله نحن بِرَدِّ لفظة " إنجيل " إلى العبرانية " هَجِّلْيُون " على معنى الجلاء والتبيين ، الكتاب ـ المرآة ، الجالية المَجْلُوَّة ، تفسيرٌ جديد غيرُ مسبوق ، هدانا اللهُ إليه بفضلٍ مِنْهُ ونعمة ، لهُ الفضل وله المَنُّ وحده .

والذى ينبغى التنبيه إليه أن القرآن لم يُعَرِّب " إنجيل " على الأصل العبرانى الذى نقول به : " هَجِّلْيُون " ، وإنما عَرَّبَه ناظرا إلى صورته اليونانية الشائعة على ألسنة الخلق جميعا عصر نزول القرآن : " أَنْجِلْيُون " ، فقال " الإنجيل " ، وبقيت "الإنجيل" أعجميةً تحتاج من القرآن إلى تفسيرٍ على منهجنا فى هذا الكتاب .

فبماذا فَسَّرَ القرآنُ " إنجيل " ؟ فَسَّرَهُ بأدق مُرادفٍ وأَبْيَنه : إنه "البَيِّنات" ، أى "الجَلِيّاتُ الواضحات" ، وليس أقربَ من هذا إلى العبرانية "جِلْيُون" الجَلِيِّ المَجْلُوِّ . جاء بها القرآن بلفظ الجمع لإفادة إنزال الإنجيل على المسيح تباعا ، شأن القرآن ، لا شأن التوراة المُنَزَّلة على موسى دَفْعَةً واحدةً فى الألواح .

لم يُفَسِّر الإنجيلُ فى القرآن بالترادف على التجاور ، وإنما رَفَع القرآنُ لفظةَ "إنجيل" من الآية ووضع فى موضِعِها "البينات" ، وكأن "البينات" من أسمائه ، وهذا أَبْلَغُ التفسيرِ فى القرآن بالمرادِف .

قال عز وجل فى سورة المائدة : { **وقَفَّيْنا على آثارهم بعيسى ابن مريم مُصَدِّقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور** } (المائدة : ٤٦) .

وقال عز وجل يُجانس البينات على إنجيل : { **وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيَّدْناه بروح القدس** } (البقرة : ٨٧) ، ومثلها بذات نَصِّها فى نفس السورة (البقرة : ٢٥٣) . وأما الحاسمة القاطعة فى أن "الإنجيل" هو المَعْنِيُّ بلفظ "البينات" فقوله عز وجل : { **ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون** } (الزخرف : ٦٣) ، يصف فيها عيسى "البينات" التى جاء بها بأنها الحكمة وبيان الذى

اختلفوا فيه ، لا يصح فهم البينات فى هذه الآية بالذات بمعنى المُعْجِزات التى أجراها الله على يديه بتأييدٍ من روح القدس ، وإنما هى وحى الله على عيسى الذى فى الإنجيل ، إذ لا يصح وصف المعجزات بأنها "الحكمة" أو بأنها "بيان الذى اختلفوا فيه" . وقد أوتى عيسى أمرين : البينات ، أى الإنجيل ، ثم المعجزات التى "أيده فيها الله بروح القدس" ، لا يصح الخلط بين هذا وذاك . وقد فسر القرطبى فى تفسيره الآية ٨٧ من سورة البقرة لفظ البينات بأنه الحجج والدلائل ، وهذا جيد ، فليس وحىُ الله على رسله إلا هذا ، ولكنه لم يَعْلَم معنى "الإنجيل" فى أصلِه الأعجمى "هَجَلَيُون" الجَلِىُ المَجْلُوُّ ، ولو عَلِمَه لما تَرَدَد فى تفسير البينات بالإنجيل نفسه ، كتابِ اللهِ على عيسى.

ولكن، كيف تطلب من أهل التفسير على عهد القرطبى رحمه الله فى القرن السابع الهجرى أن يعلموا عِلمَ ما لم يَعْلَمْهُ أهلُ الإنجيل أنفسهم حتى كتابة هذا الكتاب الذى نكتب: معنى لفظة "إنجيل" فى أصلها العبرانى الذى نطق به المسيح عليه السلام ؟

هذا الفضلُ من الله ، يَعْلَمُ ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ، والحمدُ لله ربِّ العالمين .

(٥٨) النصارى

" النصارى " في القرآن (ومُفَردُها " نصراني") ، هم أتباعُ المسيح عليه السلام، نِسبَةً إليه، لنَعْته في الأناجيل بأنه "يسوعُ الناصري" ، أي الذي من "الناصرة"، وهي بلدة في الجليل شَمَاليَّ فلسطين نَشَأَ فيها المسيح ، فَيُقالُ "الجَليلي" ، "الناصِريُّ" . وقد كانت تُقال فيه من خصومه على التحقير والاستهانة ، لأنه "لا يَأتي من الجليلِ شيءٌ صالحٌ" . ولكن يَشاءُ ربُّك بهذا الجليليِّ المُبارَك أن يَستطيرَ ذِكْرُ الجليلِ والناصرة خَفَّاقا في العالم ، ولولاه لما كان للناصرة في العالم ذكر .

كان الأوروبيون قبل شيوع النصرانية فيهم يُومئون إلى المسيح عليه السلام بأنه ذلك الرجل الذي من الناصرة استخفافا ، يريدون الحَطَّ من شأنه ومن شأن أتباعه ، فاصطبغ اللفظُ عندهم بصبغة الذم . وعندما فَشَت النصرانيةُ فيهم ودَخَلُوا هم أنفسُهم في دين "الناصري" ، أنِفُوا أن يقال فيهم نصارى من تلك الناصرة ، وآثروا الانتسابَ إلى المسيحِ نفسه ، فقالوا "مسيحيٌّ" ، "مسيحيون" ، أتباعُ هذه "المسيحية" التي جاء بها المسيح .

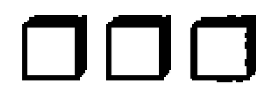
لم يكن هذا هو تاريخَ لفظة نصارى ونصرانيٍّ في المشرق ، فقد تمسك أتباعُ المسيح في فلسطين بالانتماء إلى هذا الناصري الذي من الناصرة ، بل قُل وجدوا فيها شرفاً لا يَعْدِله شرف ، يتحدَّون به المُعَرِّضَ والمستهزِىء . ومن فلسطين شاعت اللفظةُ في كل شبه الجزيرة على أتباع المسيح ، لا يُقال إلا نصارى ، ونصراني ، يَعْتَنِقُ "النصرانية" ، منسوبٌ إلى هذا الناصريِّ المُبارَك ، صلواتُ الله عليه .

وقد ظلَّت لفظةُ نصارى ونصرانية عَلَماً على أتباع هذا الدين عند جميع الناطقين بالعربية حتى أوائل هذا القرن العشرين ، خاصَّتِهم وعامَّتِهم ، نصارى وغير نصارى ، لا تَعْرِفُ غيرَها ألسنتُهم وأقلامُهم . ولكن ، ما أن غُلِبَ هذا الشرقُ العربيّ على أمرِه تحت وطأة الغزو الأوروبي الكاسح مادياً وفكرياً منذ أواخر القرن التاسع عشر ،

وفَشَت فى الناس لَوْثَةُ التطبعِ بطباع الغالب ، واطَّلَع " المثقفون " ، أو قل أدعياءُ الثقافة ، على تاريخ لفظة " النصرانى" فى الغرب ، حتى أنِفُوا منها هم أيضا ، فأمسكوا عن إطلاقها على أتباع المسيح ، واستبدلوا منها " المسيحى " ، "المسيحية" ، لا تكاد تسمعُ اليوم غيرَهُما فى موضعِ " نصرانى" ونصارى ، ونصرانية ، حتى بات يَقَعُ اللفظ ـ أعنى نصرانى ومشتقاتها ـ فى سَمْعِكَ غريبا ، وربما جَفَلَ منه "المسيحى" حين يسمعه منك . وما ذاك إلا لأن فكر هذا الشرق العربى المغلوب على نفسه وعقله وفكره ، بات فكراً مُتَرْجَماً ، يَنطِقُ بما يَسمع لا بما يُحسّ : يَقْرَؤُها Christian أو chrétien فيقول " مسيحى " ، ولو وقع فيما يقرؤُه بلسانهم علىNazarene أو nazaréen لقال "نصرانى" ، غَيْرَ مُبالٍ . ولو فَطَن وفطنوا لأدركوا أن المسيحَ والناصريَّ سواء ، كلاهما منسوبٌ إلى المسيحِ الناصرى ، عيسى بن مريم صلوات الله عليه . لا مسيحَ سواه .

والذى ينبغى التنويه به أن العبرية المعاصرة لم تفعل ما فَعَلَهُ العربُ بلغتهم فلا تزال العبرية تقول "نُوصرى" ، "نُوصريم" (وأيضا "نَصْرانى" ، "نَصْرانيم") تعنى النصرانى والنصارى . وتقولَ أيضا " نَصْرُوت " ، تَعْنِى النَّصْرانيةَ دين المسيح .

أما القرآن فقد قال " النَّصارى " ، على أصلِ ما نطق به أصحابُ المِلَّة أنْفُسُهم : { **الذين قالوا إنَّا نصارى** } (المائدة : ٨٢) .



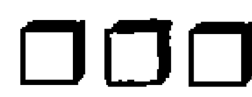
وقد عَلِمَ مفسرو القرآن (راجع تفسير القرطبى للآية ٦٢ من سورة البقرة) ، كما عَلِمَ العربُ جميعا قبلَ نزول القرآن بستة قرون ـ أى منذ نَشْأة النصرانية ـ أن لفظةَ "النصرانى" هى نسبةٌ إلى بلدةِ "الناصرة" بالشام التى جاء منها المسيحُ وانتسب إليها أتباعهُ ، ففسروا لفظ "النصارى" ، "النصرانى" فى القرآن على هذا المعنى، الذى أصبح عَلَمًا على دين المسيح ، لا مجالَ للقولِ بغيرِه .

على أن بعضَ المفسرين (راجع القرطبى فى نفس الموضع) حاولوا اشتقاقَ لفظ "النصارى" من النصر والنُّصْرَة ، ربما لأن "النصارى" تصلح جمعاً لـ "نَصير" ، مثلما تقول " نَدَامى" فى جمع " نَدِيم " ، فَهُمْ " الأنصار" ، الذين انتصروا للمسيح ، فسعوا فى نشر دينه بعد أن رفعه الله إليه . وربما أيضا تنسيقاً على قوله عز وجل : {**قال الحواريون نحنُ أنصار الله**} (آل عمران : ٥٢) فهم النصارى، أنصار الله.

ولا يصح هذا من وجهين: الأول أنه لو كانت نصارى بمعنى أنصار لكان المفرد "نَصير" أو" أَنْصَارِىٌّ " ، لا " نَصرانِىٌّ " ، التى وردت فى القرآن مرة واحدة فى قوله عز وجل : { **ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفاً مسلماً** } (آل عمران : ٦٧] ، والثانى الذى لم يَعْلَمْهُ هؤلاء المفسرون الذين لا يعرفون العبرية والآرامية ـ لغة الحواريين أتباع المسيح ـ أن الحواريين حين قالوا "نحن أنصار الله" التى فى القرآن ، لم يقولوها بالعربية ، وإنما قالوها بلغتهم هم ، فلم تقع فى عبارتهم مادة "نَصَرْ" العبرية الآرامية ، لأن "نَصَرْ" عبريا وآراميا ليس هو بمعنى "نَصَرَ" العربى من النَّصْرِ والنُّصْرَة كما سترى ، فلا يصح افتراضُ تَطابُقِ المعنى بين "نصارى" ، "أنصار".

على أن نُصْرَةَ الله عز وجل لا تصح فى تسمية مِلَّةٍ بعينها دونَ غيرِها من المِلَل، كى تَختص بها النصرانية فحسب ، وإنما الانتصارُ للهَ عز وجل فَرْضٌ على كل من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وقولُهُ عز وجل فى خطاب المسلمين : {**يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله ، قال الحواريون نحن أنصار الله** } (الصف : ١٤) لا يصح بالطبع فَهْمُهُ على أنه دَعْوَةٌ للمسلمين إلى الدخول فى النصرانية ترتيباً على أن النصارى هم أنصارُ الله على قَول هذا القائل ، وإنما هى دعوةٌ إلى الاقتداء بالذين قالوا نحن أنصارُ الله ثم عَمِلُوا بها فكانوا أنصارَ الله . لا يَصْدُقُ هذا فى كل الذين قالوا " إنا نصارى " ، وإنما هو فحسب فيمن قالها واصْطَبَر عليها فكان من أهلها ، حَوَارِياً وغير حَوارِىّ ، نصرانِّياً وغير نصرانى .

ليس أنصارُ الله من صحابة عيسى ـ من صَدَقَ منهم ما عاهدَ الله عليه فَعَمِلَ بها واصْطَبَرَ عليها ـ إلا كأنصارِ يَثْرِب ، رَضِىَ اللهُ عنهم جميعاً ورَضُوا عنه .

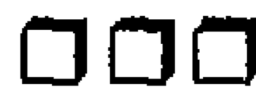


ولئن كانت "النصرانى" فى أصل اشتقاقها نسبةً على الموضِع ، أَعْنِى إلى تلك "الناصرة" التى بالشام التى نَشَأَ فيها المسيح فسمى المسيحُ الناصرى ، فليس مفهومُ لفظة "النصرانى" كذلك ، وإنما هى نسبة إلى المسيحِ نفسه ، فهى نسبةٌ إلى "الناصرى"، لا إلى "الناصرة" ، ومن هنا يفترق مفهومُ "الناصرى" عن مفهوم "النصرانى" التى لا تَصِحُّ إلا فى أتباع المسيح ، وإن لم يكن "النصرانى" ناصرياً من أهل الناصرة .

والذى تتوقعه من القرآن ـ وفق منهجنا فى هذا الكتاب ـ أن يُفَسِّرَ لفظةَ النصرانى والنصارى لا على التبعية للمسيح الناصرى ، فهذا مفهومٌ معلومٌ لكُلِّ عربى يتلو القرآن أو يُتْلَى عليه القرآن ، وإنما الذى تتوقعه من القرآن أن يفسر "النصرانِّى" ومشتقاتها على أصل مادتها التى نُحِتَت منها فى لغة المسيح العبرية ـ الآرامية ، فَيفَسِّرَ لك معنى " الناصرة " ذاتها المنسوب إليها الناصرى ، أعنى أن يفسر لك مادة "نَصَرْ" العبرية الآرامية ، التى اشْتُقَ منها اسمُ "الناصرة" .

فماذا تعنى مادة " نَصَرْ " عبريا وآراميا ؟ ليست هى النَّصْرُ و النُّصْرَة كما فى العربية، وإنما هى بمعنى حَرَس وحَفظَ وراقب ورَعَى ، فهى كُفْء "نَظَرَ" العربى بالطاء. ومن شواهد هذا ، تَقْرأُ فى سفر أشعيا : " فى ذلك اليوم غَنُّوا للكَرْمة المُشتهاة ، أنا الربُّ حارسُها" (أشعيا ٢٧ / ٢ـ٣) ـ تجد حارسها فى الأصل العبرانى "نُصراه" . فكأن " نُصير" (زنة الفاعل عبريا من "نَصَرْ" العبرى) يعنى "الناطور" التى فى شطر بيت المتنبى : "نامت نَواطيرُ مصرَ عن ثعالبها" . وتجىء الرعايةُ أيضا فى "نَصَرْ" العبرى بمعنى المراعاة والتقيد والالتزام والاتباع، ومنها " نُصرِى بريتُو" ، يعنى"حفاظ عهده" ، أى عهد الله وميثاقه ، يعنى المتبعون وصايا التوراة الذين يُراعون تعاليمَها [(١)].

وبهذا المعنى الدقيق، الاتباع والمراعاة ، حُفاظِ العهد ، فَسَّر القرآن الأصلَ الأصيل للفظة "النصارى" الذى فى مادة " نَصَرْ " العبرى . وسبحان العليم الخبير.



وردت لفظة " النصرانى" على المفرد مرة واحدة فى القرآن كما مر بك . وجاءت لفظة "النصارى " على الجمع أربع عشرة مرة فى القرآن . وليس فى أى من هذه المرات الخمس عشرة تفسيرٌ لأصلِ مادة النصرانى والنصارى .

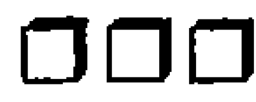
ولكنك تجد هذا التفسير جَلِيّاً بَيِّناً فى قوله عز وجل يَصِفُ أتباعَ عيسى ابن مريم : { **ثم قَفَّيْنا على آثارهم برسلنا ، وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفةً ورحمة ،**

---

(١) راجع المعجم العبرى " هملون هحداش لتناخ " ، المرجع المذكور ، عبرى / عبرى ، ص ٣٨٢ ، مادة " نصر " .

ورهبانيةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاءَ رضوانِ الله ، فما رَعَوْها حَقَّ رعايتها ، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثيرٌ منهم فاسقون } (الحديد : ٢٧) . أي ما كتبنا عليهم من هذه الرهبانية التى ابتدعوها إلا ما كان منها يُرادُ به ابتغاءُ رضوانِ الله . ولكنهم لم يَرْعوا هذه " الرهبانية " حَقَّ رعايتها ، أى لم يُحْسِنوا ابتغاءَ رضوانِ اللهِ بها . فكأنهم أهْدَروها ولم يَرْعَوْها (وهى "لوُ نَصرُوها" عبريا) .

ليس بعدَ هذا بيان ، فَأىُّ إعجازٍ وأىُّ عِلْم .



ولا ينقضى القول فى مبحث " النصارى " قبل التصدى لتأصيل معنى لفظة "الحواريين" التى سَمَّى بها القرآن صحابة عيسى عليه السلام . وخلاصة قول المفسرين فى هذا (راجع تفسير القرطبى للآية ٥٢ من سورة آل عمران) ـ ولم يوفقوا فيه ـ هو اشتقاقها من " الحَوَر " على معنى البياض ، واخترعت فى تأييد هذا روايات لا سند لها فى المصادر المسيحية ، فقيل لبياض ثيابهم (وليس بلازم) وقيل كانوا "قَصَّارين" صَنْعَتُهم تبييض الثياب (وليس بصحيح) وقيل كانوا صيادين (وهذا وإن صح لا يوجب التزام الثياب البيض) وقيل على المجاز لبياض قلوبهم أى نقاء سريرتهم (ولا يصح هذا فى حق يهوذا الاسخريوطى بالذات الذى وشى بالمسيح). وقيل أيضا ان الحوارى هو الصاحب الناصر ، لقوله صلى الله عليه وسلم : "لكل نَبِيٍّ حَوارِيٌّ ، وحَوارِيَّ الزُّبَير !" وهذا الحديث وحده كافٍ فى امتناع تأصيل معنى "الحوارى" على "الحَوَر" بمعنى البياض ، بياض الثياب أو تبييض الثياب أو الاشتغال بصيد السمك ، فلم يكن الزبير بن العوام رضى الله عنه هذا أو ذاك ، ولا على المجاز من بياض القلب ونقاء السريرة ، لا لِمَغْمَزٍ ـ مَعاذَ الله ـ فى بياض قلب الزبير رضى الله عنه ونقاء سريرته وهو أحدُ العشرة المبشرين بالجنة ، وإنما لأنه واحد من كثير من صحابة رسول الله بِيضِ القلوب أنقياء السريرة فلا يصح أن ينفرد وحده بلفظ الحوارى على هذا المعنى . ولا يصح أيضا انفراده وحده بالتسمية على معنى الصاحب والناصر وصحابة رسول الله رضى الله عنهم جميعا كانوا كلهم هذا الصاحب الناصر ، فضلا عن أن الصُّحبة والنُّصرة لا مجال لاشتقاقهما من الحَوَر على معنى البياض .

الصحيح أن " الحوارى " مشتقة من حار / يحور ، بمعنى رَجَع ، ومنه فى القرآن : { **إنه ظَنَّ أنْ لنْ يَحُورَ** } [الانشقاق : ١٤] ، أى ظن الكافرُ أنه ليس براجعٍ إلى ربه . وعلى هذا المعنى، قيل لولد الناقة منذ ولادته إلى أن يفطم وينفصل: "حُوَار" بضمٍ فَفَتْح ، لأنه يُلازم أمه لحاجة الرضاع ، لا يبعد عنها قَدْرَ رُمْحٍ فى لهوه ومراحه حتى يثوبَ إليها ، أى "يحور" ، فهو "حُوار" . "الحوارى" إذن منسوب إلى هذا "الحُوار" على المماثلة ، لأن صحابة عيسى عليه السلام كانوا فتيةً أيفاعا ، شأن الزبير رضى الله عنه يوم أسلم ، وكانوا يلازمون " مُعَلِّمَهُم " لا يفارقونه ، يرتضعون منه نَفَحات عِلْمِ النبوة .

أما لماذا لم يقل القرآن "التلاميذ" (Mathetai اليونانية فى أصول الأناجيل المترجمة إلى كل اللغات بلفظ "التلاميذ"، وهى فى الترجمة العبرية " تَلْميذيم") ، وانفرد وحده بتسميتهم "حواريين" ولماذا أيضا عدل القرآن عن ضم الحاء فى "حُوار" الناقة إلى فتحها فى " الحواريين" ، فهذا وذاك من إعجاز القرآن العلمىِ الذى لم يفطن إليه أحد ، وامتن اللهُ علينا به سبحانه فضلاً منه ونعمة .

فى العبرية الآرامية (لغة المسيح وحوارييه) اللفظ الآرامى " حَڤار " بالڤاء المثلثة ويجمع آراميا على " حَڤارين " ، ومعناه الصاحب الرفيق المُخَالِل (ومنه "حِڤرون" العبرية اسم مدينة "الخليل") ، وهو فى العبرية إلى الآن "حَڤير" وتجمع على "حَڤريم" بنفس المعنى ، الصُّحبة والرُّفقة والخُلة ، على التصغير، أى "الصُّوَيْحب". وكل هذا يكتب فى الخط العبرى ـ الآرامى بالباء المنطوقة ڤاء مثلثة على ما مر بك من قواعد النطق فى هاتين اللغتين . وليس أقرب فى علم الصوتيات من الانتقال بتلك الڤاء المثلثة الآرامية التى فى "حَڤار" ، "حَڤارين" إلى الواو العربية فتقول "حَوَار" ، "حَوَارين" .

والقرآن كما تعلم لا يترجم عن يونانية الأناجيل التى لم ينطق بها المسيح وحواريوه ، ولكنه يترجم عن " الأصل " الآرامى الذى تَنَادى به أصحابُ عيسى عليه السلام ، فيقولون ويقال لهم بالآرامية " حَڤارين " (وعلى النطق العربى "حَوَارين") ، أما كتبة الأناجيل فقد آثروا النسبة إلى "المعَلِّم" ، فكتبوها Mathetai أى التلاميذ. وهم لم يفعلوا ذلك على الراجح عندى تواضعاً منهم ، وإنما تسجيلا للواقع وخطابا

للقارىء اليونانى بما يفهمه ولا يشتبه عليه، لاختلاط معنى Philos و Syntrophos الخ . فى اليـونانيـة بمعانى أخرى لا تنطبق على الصاحب الملازم : "حَقَار" الآراميـة ، فضلا عن أن " التلاميذ " أدل فى اليونانيـة على معنى " المُصاحِب لطلب العلم " الذى كانَهُ صحابةُ عيسى عليه السلام ، أى حواريوه .

" الحواريون " إذن فى القرآن تعريبٌ مفسرٍ للفظة " حَقَـارين " الآراميـة (التى تنطق " حَوَارين" عربيا) ، جاء بها القرآن منسوبةً على المماثلة إلى " حُوار الناقـة " ، على ما مر بك من معناه ، فأضاف ياء النسب فى آخره فأصبحت " حُوَارِىٌّ " ، وعدل عن ضم الحاء إلى فتحها فأصبحت "حَوَارِىٌّ"، التزاما لأصلها الأعجمى .

وسبحان العليم الخبير ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم .

(٥٩) الصابئون

وردت لفظة " الصابئين " في القرآن ثلاثَ مرات، هي بترتيب ورودِها في المصحف:

{ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرُهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هُم يَحزنون } (البقرة : ٦٢) .

{ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هُم يَحزنون } (المائدة : ٦٩) .

{ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمَجُوس والذين أشْرَكُوا إنَّ اللهَ يفصِلُ بينهم يومَ القيامة إنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ شهيد } (الحج : ١٧) .

والقرآنُ في الآيتين الأُولَيَيْن ، التي في " البقرة " والتي في " المائدة " يُخاطب أربعَ فرق : المسلمين ـ اليهود ـ النصارى ـ الصابئين ، فقد عَلِمْتَ أن الذين هادوا هم اليهود ، أما " الذين آمنوا " فهي اصطلاحُ قرآني يُرادُ به أمَةُ محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنهم الذين آمنوا بِهِ وبالنورِ الذى أُنْزِلَ معه ، أى هذا القرآن، فَهُم أَهْلُ القرآن ، فهي على الصفة ، لا على المدح ، في هذا السياقِ بالذات وفي أمثاله في القرآن ، يعني أنهم المسلمون ، لا أكثر ولا أقل ، بَرُّهم وفاجرُهم . لذلك اشترطَ القرآنُ في الآيتين على أهل الفرقِ الأربعِ جميعا ـ ومنهم المسلمون ـ لنَيْلِ الأجرِ والدخولِ في رضوان الله ـ شرطين : الإيمانُ باللهِ واليومِ الآخر ، ثم عَمَلُ الصالحات ، شرطانِ متلازمان، لا يُغْني أحَدُهما عن الآخر ، ولا يُقْبَلُ شطرٌ دون شطر ، فليس الإيمانَ بالذى يُكْتَنُّ في السرائر ، وإنما هو الذى تُصَدِّقُهُ الجوارح من قولٍ وعَمَل . لا إيمانَ

بغيرِ عَمَلٍ على مُقتضى هذا الإيمان ، ولا عَمَلَ يَصِحُّ إنْ لم تُرِدْ به وجهَ اللهِ عز وجل واليومَ الآخر. لم يَسْتَثْنِ القرآنُ من هذين الشرطين أنبياءَ الله ورُسُلَه ، وهم المؤمنونَ سَرِيرةً ضَرْبَةَ لازب ، فخاطَبَهُم بقولِهِ عز وجل : { **يا أيها الرسل كُلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم** } (المؤمنون : ٥١) .

وليس معنى هذا أن القرآن يُقِرُّ أهل الكتاب والصابئين على مِلَّتهم وقت نزوله أو أنه يسَلِّمُ لمعاصريه من أهل الكتاب والصابئين وتابعى هؤلاء وهؤلاء إلى يوم القيامة بصواب ما هم عليه ، أو أنه يترك لهم الخِيرة من أمرهم إن شاءوا دخلوا فى الإسلام وإن شاءوا بقوا على ملتهم ، والكل ناجٍ ، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا !

هذه سفسطاتٌ وأغاليط لا تنفع المحتج بها من غير أهل القرآن يوم يقوم الحساب لأنه يومئذ يحتج بآية أو آيتين من القرآن الذى أنكره هو من قبل وجحده ، ومات وبعث على إنكاره وجحوده ، شأنُهُ شأنُ من يتقدم إلى مَصرفٍ بحوالةٍ يُنكرُ هو توقيعَ صاحبها ، فلا يُصرَفُ له شىء ، إن لم يُضْبَط بتهمة التدليس . الذى يُصدِّق بخبر القرآن فى آية أو آيتين فقد لزمه القرآنُ كله ، والذى يكفر بحرفٍ واحدٍ من القرآن فقد كفر به كله ، فلا أحد يُؤمِنُ ببعض الكتاب ويكفر ببعض ، كالذى نعاهُ القرآنُ على بنى إسرائيل :{ **أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاءُ من يفعل ذلك منكم إلا خِزْىٌ فى الحياة الدنيا ويومَ القيامة يُرَدُّونَ إلى أشد العذاب وما الله بغافلٍ عما تعملون** } (البقرة ، ٨٥) .وإذا كان هذا كذلك ، وهو كذلك بالفعل ، أفليس فى القرآن : { **ومن يبتغِ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** } (آل عمران : ٨٥) ؟ وأليس يأمرُ اللهُ فى القرآن الخلقَ أجمع باتباعِ خاتم النبيين :{ **قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتَّبِعُوهُ لعلكم تهتدون** } (الأعراف : ١٥٨) ؟ فما جزاءُ من يُفَرِّقُ بين الإيمان بالله وبين تصديق رسوله ؟ استمع إلى قوله عز وجل : { **إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يُفَرِّقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض**

ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا. أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مُهينا } (النساء : ١٥٠ ــ ١٥١) . قد قالها خاتمُ النبيين: "وأَيْمُ اللهِ لو سَمِع بى موسى بنُ عمران لما وَسِعَهُ إلا اتّباعى!" وقال أيضا ، وهى الحاسمة القاطعة : "والذى نفسى بيده لا يسمع بى من هذه الأمة يهودىٌّ أو نصرانِىٌّ ثم لم يؤمن بى إلا دَخَلَ النار" .

وقد عَلِمْتَ أن القرآن اشترط على هذه الفرق الأربع جميعا لاستحقاق ثواب الله ورضوانه ، الإيمانَ بالله واليوم الآخر وإتيانَ الصالحات . ومر بك أنه لا يصح إيمانٌ بغيرِ عمل ، ولا يصح عَمَلٌ بغيرِ إيمان . ومِن ثَم تقطع بأن أهل هذه الملل الثلاث ، اليهود والنصارى والصابئين ـ من سمع منهم بخبر القرآن ولم يَأْبَه به ـ قد افتقدوا بعد القرآن شرطى الإيمان والعمل الصالح ، فلا إيمانَ بالله عز وجل لُمكذِّبٍ برسول الله ، ولا يصح عملٌ بغيرِ هذا الإيمان .

فمن المُخاطَبُ إذن من أهل هذه الفرق الثلاث بهاتين الآيتين التى فى سورة البقرة والتى فى سورة المائدة ؟ إنهم اليهودُ والنصارى والصابئون الذين لم يصل إلى أسماعهم نبأ البلاغِ الخاتم : الذين تَقَدَّموه ولم يُهِلَّ بعدُ زمانُه ، أو الذين أعقبوه فَحِيلَ بينهم وبينه أو تقطعت بهم الأسباب . فلا إلزامَ بغيرِ تكليف ، ولا تكليفَ بغيرِ بلاغ .

على أن هذا أيضا لا يُعفى أهلَ هذه الملل الثلاث ، الذين حِيل بين أسماعهم وبين نبأ القرآن ، من واجب تصحيح إيمانِهم بالله واليومِ الآخر بتنقيته مما لم تَجِئْهم به رُسُلُهم ، لا يقال ثالثُ ثلاثة وعندهم فى الإنجيلَ أن اللهَ واحدٌ وليس آخرُ سواه ، ولا يقال نحن أبناءُ الله وأحباؤه لن تَمَسَّنا النارُ إلا أياماً معدودة وعندهم فى التوراة من الوعيد ما تَرتَعِدُ لهُ الفرائص وتشيبُ الرؤوس .



أما الآيةُ الثالثة ـ التى فى سورة الحج ـ فهى تختلف عن الأُولَيَيْن بأنها تُضيف إلى الفرَقِ الأربع، المُسلمين واليهودِ والنصارى والصابئين ، فِرقَتَينِ أُخْرَيَيْن ، هما المَجوس والذين أشْرَكُوا .

وقد تَرَتَّبَ مباشرة على دخول المجوس والذين أشركوا فى هذه الآية ،ارتفاعُ الوعدِ بثواب اللهِ ورضوانه لمن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ، لِيَحِلَّ مَحَلَّه

الوعيدُ بيومِ الفصل : { **إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد** } (الحج : ١٧) ، يومَ يجيءُ كُلُّ أُناسٍ بإمامهم ، أى يَشْهَدُ عليهم رسولُهم وكتابُهم فَيُحَاجُّون بوحي الله عليهم ، الذى حَفظُوه ، والذى أضاعوا منْهُ أو أنْسُوه . ولم يَفُت القرآنُ المعجز ـ وقد دَخَلَ المجوسيُّ والمُشرك ـ أن يَدْحَضَ دعوى المُحتَجِّ بالمُشعْوِذِ والعَرّافِ والكاهن ، فقال عزَّ منْ قائل : {**إن الله على كل شيء شهيد**} (الحج : ١٧) .

أما لماذا ارتفع بدخول المجوسى والمشرك فى الآية الوعدُ بثواب الله ورضوانه لمن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ، فلأنه لا رجاءَ عند الله عز وجل لمشرك ، والمجوسيُّ أيضا كذلك لأنه "ثَنَوِيٌّ" كما سوف ترى فى موضعه ، يتقربُ بالعبادةِ لإلهين ، إله الخيرِ وإلهِ الشر ، الضارِ والنافع ، يَضْرِبُ هذا بذاك .

وربما قيل لك ان النصرانى أيضا مشرك ، لأنه يُعَدِّدُ آلهتَه ، فيقول ثلاثة . وهذا صحيحٌ فى ظاهره ، غيرُ صحيحٍ فى جوهره ، لأن المشرك يَعْبُدُ آلهةً متفرّقة ، متضادةَ الإرادة ، متعاكسةَ الفعل ، يَغيظُ هذا بذاك ، ويستعينُ على هذا بذاك ، ويسترضى هذا بقربانٍ لذاك . أما " الثالوث " عند النصرانى فهو وحيدُ الإرادة ، وحيدُ الفعل ، المسيحُ عنده يصنع مشيئة " أبيه " الذى فى السموات ، والروح القدس جبريل لا يتكلمُ من عنده وإنما يتكلم بما يسمعُ من الآب ، والصلاةُ عند النصرانى صلاةٌ للآب، لا لعيسى ولا لجبريل : " أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك كما فى السماء فكذلك على الأرض ! " ، والتقرب بالابن تقربٌ إلى الآب ، و"موهبة " الروح القدس نعمةٌ من الآب ، وخَلْقُ السموات والأرض وما بينهما خَلْقُ الآب ، والملكوتُ ملكوت الآب ، فهل بَقِيَ لعيسى وجبريلَ شيءٌ أم هما ذات الآب؟ بل قل هل بقى من عيسى وجبريل شيءٌ وقد فَنيا أخيراً فى ذات الآب الذى انبثقا منه ليعودا إليه ؟ هذا اللاهوتُ أخطأ الطريقَ إلى تبجيل عيسى وتعظيم جبريل ، فوقع فى المُحالِ على الله عز وجل ، والمحالِ على عيسى وجبريل ، وما ذاك إلا لأنه تَصَدَّى لما لا يُحْسِنه ، فليس هو بالواقف عند وحيِ الله على عيسى شأنَ المؤمنِ المُذْعِن ، وليس هو أيضا بالمتفلسفِ الجيد الذى يُحْكِمُ مقولتَه فلا يَقَعُ فى المحالات . هذا اللاهوت خائضٌ فى ذاتِ الله عز وجل بغيرِ علمٍ ولا هُدَىً ولا كتابٍ منير ، بل الأدلّةُ من

وحيِ اللهِ عز وجل كُلُّها ضده ، ولكن ليس ثَمَّ إن تَمَعَّنْت ، جحودٌ لذاتِ اللهِ أو إنكار ، فالله الذى يعبدُه النصرانى هو: إلهُ إبراهيمَ وإسحقَ ويعقوبَ والأسباطِ والنبيين من قبلُ ومن بعد ، ولكن اللاهوت وقع فى الإثم الغليظ فأضاف إليه عيسى وجبريل ، ظَانًّا أنه يُكَرِّمُ بها عيسى وجبريل ، فأضاع عيسى وجبريل . هذه الأُغلوطة التى وقع فيها هذا اللاهوت اعتاصت عليهِ هو نفسه قبل أن تعتاصَ على من زينها لهم ، فما بَرِحَ يُرقِّعُ قولاً بقول : إنه يريد التوحيد ، لا يَمْلكُ القولَ بغيره ، فاللهُ واحدٌ وليس آخرُ سواه ، ولو قال غيرَ هذا لذُبِحَ القائلُ قبل أن يقوم من مقامه ، ولكنه يريد أيضا تأليهَ عيسى وجبريل ، شأنَ الرومانِ فى تأليه عظمائِهم وملوكِهم بَعْدَ رحيلهم ، وكأنه مُضْطَرٌ إلى هذا لا يستطيعُ منهُ فكاكا ، فلا تدرى ما الذى اضطره إليه . إنها مُعْضِلَةٌ بلا شك ، فماذا فعلَ اللاهوتُ مَجْمَعاً بعْدَ مجمع ؟ أَدَمَجَ عيسى وجبريلَ فى ذاتِ الله عز وجل فلم يَعُدْ لهما خارجَ ذاتِ اللهِ وجود ، فاحتفظ بمقولة التوحيد فى وجه المُنكرين عليه ، أو هكذا ظَن ، ثم أَخْرَجَ من ذات الله عز وجل عيسى وجبريل يعملانِ الأعمال فى زِيِّ نَبيٍ ومَلَك . أفليس الأنبياء رُسُلَ الله ؟ وأليس الملائكةُ جُنْدَ الله ؟ فما حاجةُ اللهِ إلى التزيى بزِيِّ عيسى وجبريل ؟ أسئلةٌ لا تَجدُ لها جواباً عند النصرانى المؤمن الذى لا التواء فيه ، بل هو يحترزُ كُلَّ الاحتراز من مناقشتها بعقله الذى لا يحتملُ كل هذا الخَلْطِ والتخليط : إنه فحسبُ يعبدُ الآب الذى فى السموات ، ويُحبُّ المسيحَ ، ويُعَظِّمُ الروحَ القدس ، على القُربِ من الله عز وجل قُرْبَاً يَعْلُو على فهمِ البشر ، ويتركُ التفصيلَ والتقعيد لأصحابِ هذا اللاهوت . وقد عَلِمَ القرآنُ هذا قبلَ أن يَعْلَمَه غيرُه فقال فى خطاب أهل الكتابُ مُريداً النصارى بالتحديد: { **يا أهل الكتاب لا تَغْلُوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق: إنما المسيحُ عيسى ابن مريم رسولُ الله وكلمتُه ألقاها إلى مريم ورُوحٌ منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم ، إنما اللهُ إلهٌ واحد ، سبحانَهُ أن يكونَ له ولد ، له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا** } (النساء : ١٧١) ، خَاطَبَ النصارى بيا أهلَ الكتاب ، يُذَكِّرُهم بكتاب موسى الذى يتعبَّدُون به ، وفيه اللهُ واحدٌ وليس آخرَ سواه ، فكيف تقولون ثلاثة وإلهكم هو إلهُ موسى ؟ ويذكرهُم أيضا بأن قائلَ هذه المقولة كافر ، وتَوَعَّدَ المُصرَّ عليها بالعذابِ الأليم يومَ يأتى كل أناس بإمامهم : { **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن**

مريم وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم ، إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النارُ وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالثُ ثلاثة وما من إلهٍ إلا إلهٌ واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليَمَسَّنَّ الذين كفروا منهم عذابٌ أليم } (المائدة : ٧٢ ، ٧٣) . وينبههم أيضا إلى أن هذا التوحيدَ المُثَلَّث غيرُ مقبول ، عَبَثٌ عابثٍ لا طائلَ من ورائه إلا الوقوعُ فى الشرك الغليظ ، يُضاهئون به قولَ قومٍ قد كفروا من قبل ، فَضَلُّوا وأضَلُّوا . أما الذين تَوَلَّوا كِبْرَهُ من قبل ، ففى النار هم فيها خالدون .

هنا تَجد فى الله رجاءً للنصرانيِّ المؤمن الذى لا التواءَ فيه ـ لا لأصحاب هذا اللاهوت ـ إنْ هو نَزَّهَ ذاتَ الله عز وجل عما لا يليق بجلاله ، وأصَمَّ أُذُنَيْهِ وقلبه عن سفسطةِ أصحاب اللاهوت ، واللهُ يهدِى من يشاء بقرآنٍ وبغيرِ قرآن ، وهو أعْلَمُ بالمهتدين .



والذى تستنبطه من هذه الآيات الثلاث ، فتقطع به جازماً آمناً مطمئنا ، هو أن دخول الصابئين فى مَعِّيةِ اليهود والنصارى فى الآيتين الأوليين التى فى سورة البقرة والتى فى سورة المائدة ـ الداخلين فى الوعد بثواب الله ورضوانه لمن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ـ يفيد أن الصابئين هم من اليهود والنصارى قريب ، إن لم يكونوا بعضَ هؤلاءِ وهؤلاء "صَبَوُا" عليهم . أعنى أنهم يعبدون ذات الإله الذى عبده إبراهيم وإسحق ويعقوب والأسباط والنبيون من قبل ومن بعد ، الذى له مُلْكُ السموات والأرض لا إله إلا هو يُحيى ويُميت ، اللهُ الذى لا إله غيره . وإلا لما جاز دخولُهم مع اليهود والنصارى فى جملة المؤمنين بالله واليوم الآخر ، وثُبوتُ الوعدِ للصابئين ـ من آمن باللهِ واليومِ الآخرِ وعَمِلَ صالحا ـ بثواب الله ورضوانه ، لم يرتفع فى الآية الثالثة ، التى فى سورة الحج ،إلا بدخول المجوسِ والذين أشركوا .

وتُلاحِظُ أيضا من النَّسَقِ القرآنى فى الآياتِ الثلاثِ جميعا ، تَوَسُّطَ الصابئين بين اليهود والنصارى فى الآيتين الثانية والثالثة ، التى فى المائدة والتى فى الحج ،

حيث قال عز وجل { **إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى** } (المائدة : ٦٩) ، { **إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا** } (الحج : ١٧) ، بينما هم يجيئون بعد اليهود والنصارى مباشرة فى الآية الأولى ، التى فى سورة البقرة : { **إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين** } (البقرة : ٦٢) ، فتستخلص من توسط الصابئين بين اليهود والنصارى فى الآيتين الثانية والثالثة أن " الصابئين " فرقةٌ من اليهود ، سبقوا النصارى فى الصُّبُوءِ (أى الخروج) على توراةِ موسى القاطعةِ بتوحيد الله عز وجل لا وَلِىٌّ من دونه ، لا " ابنَ " ولا " رُوحَ قُدُس " ، وتستخلص من مجيئهم بعد اليهود والنصارى فى الآية الأولى أن الصابئين أخلاطٌ من هؤلاءِ وهؤلاء ، أى مِنَ الصابئين من قد كانوا من قبل نصارى ، أو أن عقائدَ الصابئةِ تجمع نِتَفاً من عقائدِ اليهود ونِتَفاً من عقائدِ النصارى .

وربما استوقفك ما استوقف النُّحاةَ من قبل، أعنى تعليلُ ارتفاع لفظ "الصابئون" فى الآية ٦٩ من سورة المائدة "إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون" ، وهو فى موضع نصب ، عطفا بالواو على اسم " إنَّ " الذى انتصب به "الذين آمنوا" ، وقد عَلِمْتَ أن القرآن لا يُخالِفُ " ظاهر " النحو إلا لعلة . يعنى أن ارتفاعَ لفظ "الصابئون" على خلاف ظاهرِ النحو ، مقصود . وقد عَلِمْتَ أن الآية التى فى المائدة ، التى ارتفع فيها لفظُ "الصابئون" على خلافِ ظاهر النحو ، هى آخرُ الآياتِ الثلاث نزولا ، لأن سورةَ "المائدة" هى من أواخرِ القرآنِ نزولا ، نَزَلت قطعا بعد "البقرة" وبعد "الحج". والرأىُ الذى به أقول هو أن ارتفاع لفظ "الصابئون" فى الآية التى فى "المائدة" جاء ليلفت النظر إلى واقع تاريخى مقطوعٍ به وهو أن " الصابئين " هم بعضُ الذين هادوا ، سَبَقَ وجودُهم نشأةَ النصرانية ، أعنِى أنهم فرقة من الذين هادوا ، لا فرقة من الذين قالوا إنَّا نصارى ، وإن دخلت فى عقائدهم من بعد عقائدُ نصرانية ، أو دخل فى زُمرتهم من بعد نصارى "صَبَؤُوا" على نصرانيتهم. ومن هنا تُعَلَّلُ ارتفاعَ لفظ "الصابئون" وهو فى موضع نصب، بأنه ارتفاع على "القَطْع" ، يعنى على الاستدراك ، كما لو قيل "إن الذين آمنوا والذينَ هادوا ـ والصابئون منهم ـ والنصارى ، الخ" . والارتفاع على القطع هو التعليل الوحيد المقبول عند النُّحاة لتفسير مجىء الاسم مرفوعاً وهو معطوفٌ على غيرِ مرفوع . "الصابئون" إذن تجىء فى الآية التى فى سورة المائدة رفعاً على الابتداء

بعد القطع ، فلا يجوز تفسيرُ الآيةِ إلا به . وهذا عندى من دقيقِ القرآن فى تحديدِ هُويَّةِ " الصابئين " كما سترى .



يجىء الجذرُ العبرانى "صَبَا" (ويُهْمَزُ قبل ضمائر الرفع كما فى "صبئُو"، "يِصْبئُو" وأمثالهما) فى أصله بمعنى "احتشد" . بينما يجىءُ كُفْؤُهُ العربى (صَبَأ ، يَصْبَأُ ، صُبُوءا) بمعنى بَرَزَ وانتقل وخرج ، وأيضا هَجَم (وهذا الأخير باقٍ فى معانى "صَبَا" العبرى) . وغيرُ بعيدٍ عن هذا صَبَا / يَصبُو / صَبْوا ، صَبَى / يَصْبَى / صَباءَ ، العربيان بمعنى مَالَ إليه وحَنَّ واشتاق . وتقول من " صبأ " العربى أيضا "صَبَأت النجوم" يعنى طَلَعت .

ومن " صَبَا " العبرى بمعنى احتشد وهَجَم ، يجىء الاسمُ "صَبَا " (ويُجْمَعُ عبريا على "صِبَؤُوت ") بمعنى الجيش والجند . وكثيرا ما تلتقى فى الترجمة العربية للعهد القديم بعبارة " رب الجنود " التى أصلها العبرانى " إلُوهِى هَصَّبَؤُوت " ، مُراداً منها اللهُ عز وجل ، فلا تفهم على التحقيق ـ مُسْلِماً كُنْتَ أو أَهْلَ كتاب ـ المعنى المقصود من تلك " الجنود " .

والذى يُقَرِّبُ لك المعنى ـ إن كنت من أهل القرآن ـ قَوْلُهُ عز وجل : { **وما يَعْلَمُ جنودَ رَبِّكَ إلا هو** } (المدَّثِر : ٣١) ، يعنى " ملائكة " الله عز وجل ، وهم جُنْدُهُ تباركَ وتعالى .

استعارت العبرية إذن لفظ "الجند" لمعنى "الملائكة " ، تضع هذا فى موضع ذاك. وفى العبرية كذلك "صِبَؤُوت هَشَّمايم" يعنى "جُنْدُ السماء" يعنى الملائكة أيضا.

وكما استعارت العبرية لفظ الجند لمعنى الملائكة ، استعارته أيضا لمعنى "الأجرام السماوية" ، أى الشمس والقمر والنجوم [١]. هذا الخَلْطُ بين "ملائكةِ" السماءِ ونجومها يَدُلُّكَ بمحض اللغة على اختلاط عقيدة اليهود بديانة البابليين عَبَدَة الكواكب ، الذين "يُشخِّصُون" أجرام السماء فيجعلون منها آلهة ، مثل "مردوخ" (المَرِّيخ على الراجح كما

(١) راجع المعجم "هَمِلُّون هِحَداش لَتَناخ" عبرى / عبرى ، المرجع المذكور ، مادة "صبا" ، الصفحة رقم ٤٩٢ .

مر بك)، رُقَباءَ وحَفَظَة ، أو عُتاةً مَرَدَة ، أو يجعلون منها فى أقل القليل كائناتٍ عاقلة مُريدة ، مُؤَثِّرَةً فَعَّالة . من هذا فى تُراث أهل الكتاب تسميتهم إبليس " كوكب الصبح" Lucifer يعنى " كوكب الزهرة " ، وإبليس فى عقائد أهل الكتاب كان رئيس الملائكة قبل سقطته فى عداوةِ آدم . ويكفيك هذا مثلا على توحيدهم بين الملائكة والكواكب .
وهذا عندي هو أصل الاعتقاد بالتنجيم وبتأثير النجوم عموما ما دامت كائناتٍ مُشَخَصةً مُريدة فعالة ، تَضُرُّ وتنفع ، لا ما يقال لك اليوم بتأثيرها جَذْباً أو إشعاعاً فى محاولةٍ مغلوطة لتأصيل عقائد باطلة .

ومما يدلك على عقائد البابليين عصر إبراهيم عليه السلام ـ وقد عَلِمْتَ أنه نشأ ببلدة "أور الكلدانيين" بنواحى بابل جنوبى العراق ـ ما يحكيه القرآنُ عن إبراهيم قبل أن يَهْدِيَهُ اللهُ إليه : { **فلما جَنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفَلَ قال لا أحبُّ الآفلين . فلما رأى القمرَ بازغاً قال هذا ربى فلما أفَلَ قال لئنْ لم يَهْدِنى ربِّى لأكونَنَّ من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغةً قال هذا ربِّى هذا أكبر فلما أفَلَت قال يا قومِ إنى برىءٌ مما تُشركون . إنِّى وجَّهْتُ وجهى للذى فطر السمواتِ والأرضَ حنيفاً وما أنا من المشركين** } (الأنعام : ٧٦ ــ ٧٩) ، وقوله "يا قومِ إنِّى بَرِىءٌ مما تُشركون" يعنى أن شِركَهُم كان عبادةَ الكواكب . والذى ينبغى التنبيه إليه أن "الكواكب" فى عربية القرآن ـ لا فى عربية المعاجم العربية الحديثة ـ تشمل أجرام السماء جميعا ، نَجْماً وغيرَ نجم ، المُضىءَ بذاته والمُستضىءَ بغيره ، كما تستظهرُ من قوله عز وجل : { **إنا زَيَّنَّا السماءَ الدُّنْيَا بزينةٍ الكواكب** } (الصافات : ٦) .
ومجىءُ الكواكب بصورة الجمع فى هذه الآية يمنع من فهمها بمعنى القمرِ وَحْدَه وما فى حُكْمه ، أعنى الأجرام السماوية " التُرابية " التى تُضىءُ ليلاً بانعكاس ضَوءِ الشمسِ عليها ، وإنما الكواكبُ هنا تعنى هذا وذاك ، فتدخل فيها النجومُ النَّيِّراتُ خاصة .

وقد كان لعقائد البابلين تأثيرٌ بالغُ القوة فى دياناتِ الشرق الأدنى القديم ، لا عبْرَةَ بالذى "يَحْكُمَ" فى بابل ، الآراميين أو الأشوريين أو الفرس ، وقد اتسع نطاقُ هذا التأثير فى العصر "الهلينى" بعد غزوة الاسكندر المقدونى ، فتسللت عقائدُ البابليين إلى أوروبا ذاتها ، حيث اختلط الحابلُ بالنابل ، واستطاع هذا الفكر البابلىُّ أن

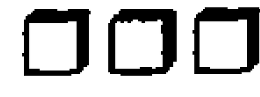
يغزو العقيدة المسيحية فى قُرونها الثلاثة الأولى. وتكونَت من مُرَقَّعات هذا الفكر البابلى مِلَلٌ ونحَل ، أشهرُهم "الغُنوصيُّون" (من gnosis اليونانية ومعناها "المَعْرِفَة") يعنى معرفة الحكمة ، وهى معرفة " لَدُنِّية " كما يقولُ المتصوفة ، تَهْبِطُ على أصحابها من " فَوْق " فُيُوضـا . والغنوصيـة بلا شك ترجمـة يونانيـة لمذهب "المَنْدَعيـيِّن" Mandaeanism أى المَعْرِفيِّين ، وهى من الآراميـة "يَداع " يعنى " عَرَفَ " (والمصدر "مَيْدَع" ، "مَنْدَع" ، فهو "مَنْدَعيًا" أى "المعرفى")، وقد مر بك غَلَبة الآرامية على أقطار الشرق الأدنى كُلّه منذ القرن الثالث قبل الميلاد . وقد عانت المسيحيةُ كثيرا من هؤلاء الغنوصيين فى بواكيرِ نشأتها ، فدانت بالغنوصية أو اتهمَت بها طوائفُ مسيحيةٌ عديدة ، طاردَها المسيحيون من بعد بسيف قيصر بيزنطة الذى آل إليه منذ القرن الرابع سلطانُ المسيحيةِ وصَوْلَجانُها ، وكان طبيعيا أن تلجأ فلولُها إلى تُخوم نفوذ بيزنطة ، حيث "الفرس" أعداءُ القيصر ، فيتجمعون فى جنوبى العراق حيث كانت "بابل" .

هذه الفرقة المسيحية " المَنْدَعيَّة " أى المَعْرِفيَّة (أعنى الغنوصية إن آثرت اللفظ اليونانى الشائع فى كتب الفلسفة)، تُسميها الكنيسةُ باسم "مسيحيى القديس يوحنا"، ليس هو بالطبع يوحنا الحوارى أو يوحنا صاحب الإنجيل الرابع ، وإنما هو يوحنا بن زكريا ، يعنى بقية من تلاميذ يحيى عليه السلام .

ولا شك أن هذه الملل والنحل التى أضافت إلى وحى الله عز وجل مالم يُنَزِّلْ به سلطانا ، خَلَطَت سَيِّئاً بصالح ، تأخذُ نتَفا من هنا ونتَفا من هناك ، فأضاعت الأصلَ وجاءتْ بمَسْخٍ مُشَوَّه . مثلما فعلت تلك الفلسفاتُ المتهافتة التى نشأت فى مدرسة الاسكندرية فجمعت بين أساطير اليونان وأباطيل البابليين ، تُحاولُ صهرَها فى بَوْتَقَة فكر أرسطو وأفلاطون فتكون النتيجة المحتومة فكراً شائها غير متماسك ، تُلَخِّصُهُ لك فلسفةُ أفلوطين الأسيوطى الاسكندرى .

وتستطيع أن تقول ان عقيدة نيقية التى استمدت من عقائد المصريين فى أسطورة إيزيس ، لم تبرأ رغم نضالها الضخم ضد "هَرْطَقات الغُنوصيين" . من تأثير بابلىٍ قديم ، يُؤَلِّهُ النجوم ، أو الملائكة ، أىَّ الوجهين شئت فى فَهْم "صَبَا" العبرية ـ الآرامية ، عندما ارتأت ، بعد رفع المسيح بثلاثةِ قرونٍ ونصفِ قرن ، تأليهَ جبريلَ "النَّجْمِ ـ الملك " .

أما تلك الفرقة " الغُنوصية " المنسوبة إلى يحيى بن زكريا ، فقد وَفَدت فى بابل على سُلالةٍ من بنى إسرائيل تَسَمَّوا بالصابئة من قبل ، وسرعان ما اختلط هذا بذاك .



فقد مر بك أن نَبُوخَذْ نَصَّر مَلِكَ بابل اجتاح أورشليم وهَدَم هيكلَ سليمان أوائلَ القرن السادس قبل الميلاد (٥٨٦ ق . م) وجعل أهلها أثلاثاً : ثُلُثُ فى القتلى ، وثُلُثُ استبقاه فى أورشليم ، وثُلُثُ أخَذَهُ سَبْياً رَجَعَ به إلى بابل . فكان أول جَلاءات بنى إسرائيل . قَضَاءٌ قضاه اللهُ فى بنى إسرائيل جزاءً وفاقا ، مصداقاً لقوله عز وجل : {**وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لَتُفْسِدُنَّ فى الأرض مرتين ولَتَعْلُنَّ عُلُواً كبيرا . فإذا جاء وعدُ أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأسٍ شديدٍ فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا** } ﴿الإسراء : ٤ ـ ٥﴾ ، أى كان هذا عقاباً على ظُلمهم وإفسادهم . وكم بَغَى اليهودُ وأفْسَدُوا من بعدِ سُلَيْمان على نحو ما تقرأ فى كتبهم (العهد القديم : الملوك الثانى ـ أخبار الأيام الثانى) : نَبَذُوا عَهْد الله وراء ظهورهم ، فاستَحَلُّوا ما حَرَّمَ الله ، واستعان بعضُهم على بعض بعَبَدة النجومِ والأوثان ، وسَجَدُوا لغير الله ، وطارَدُوا أنبياءَ الله ، بل وقَتَلوا أنبياءَ الله . كان منهم زكريا بن بَرَخِيًّا ، الذى ذبحوه بين يدى المَذبح فى الهيكل ، فكانت النازلةُ الكبرى فى دينهم هَدْمَ هذا الهيكل على رؤوسهم ، واقتلاعهم من أورشليم ، وسبيَهُم فى بابل ، وبقى منهم من استبقاه البابليون فى أورشليم يَلْطُمُ على أطلالها ويَنُوح ، أو يطلبُ التَّقيةَ فيتقرب إلى الغزاة بالمودة ، وزاغ منهم من زاغ فشاركوا الغُزاة عبادتَهُم وأضاعوا كتابَ الله .

أما سبى بابل ، أسارىَ نَبُوخَذْ نَصَّر ، فقد كان منهم من نَجَعَ فيه تأديبُ اللهِ عز وجل فعكف على توراته ، يستمسك بالعروةِ الوثقى ، مؤمنا بعدلِ الله عز وجل فيما أجراه على قومه ، الذى جَرَّهُ بنو إسرائيلَ على أنفسهم بنبذهم هذه التوراة ، لا مهْرَبَ من اللهِ إلا إليه . وكان منهم أيضا ـ كما تتوقع ـ الفريقُ الآخر ، الذى يلتمس الرِّفْعَةَ بالذِّلَّة ، فيرتضى الدَّنِيَّةَ فى دينه ، لينال الحُظْوة ، فَلاينوا واستلانوا ، وكان لهم ما تَمَنَّوا ، بل كان منهم من تسلل إلى بلاط الملك فكان بعضَ خُدَّامه وحُجَّابه وأعوانه ، على ما رأيت فى قصة "مُردِخَاى " الذى دفع بابنة أخيه " إسْتير " إلى أحضانِ المَلِكِ

غيرَ مُبالٍ مُتَعَلِّلاً بأنه يستنقذُ بها شعبَ بنى إسرائيل فى بابل من مكيدةٍ كادها لهم عند المَلِك كبيرُ بلاطه ، فصارت بها " إستير " بَطَلَةً من أبطال اليهود ، ليس هذا فحسب ، بل سَجَّلَ لها العهدُ القديم هذه البطولة فى سفرٍ باسمها فى "الكتاب المقدس" .
والذى يجب التنبيه إليه أن هذا الاسم "مُرْدَخَاى" معناه بالبابلية الآرامية "المَرِيخى" عابدَ كوكب المريخ ، وهذا يدلك على أن سبى بابل كان منه فريقٌ استهوتْهُ عبادةُ البابليين ، عبدةِ الكواكب ، لا يَأْنَفُ من الاعتزاء باسمه إلى بعضِ آلهتهم .

وليس معنى هذا الذى قلناه ، أنَّ هذا الفريق المنافق من سبى بابل ارتد عن توراة موسى إلى عبادة البابليين ، وإنما معناه أنهم مَزَجوا بتوراةِ موسى شيئاً من عقائد البابليين ، عبادةَ الكواكب ، أو تعظيمَ الكواكب ، أو فى أقل القليل الاعتقادَ بتأثيرِها وأنَّها فَعَّالة .



وقد مر بك أن المَلِكَ أذِنَ من بعد لعزرا الكاتب بالعودة بهذا السبى إلى أورشليم لإعادة بناء الهيكل الذى هدمه من قبل نبوخذنصر . وقد عاد عزرا بلفيفٍ فقط من هذا السبى ولم يَعُدْ بهم جميعا ، لقول الملك فى رسالته إلى عزرا : "كل من أراد فى ملكى من شعب إسرائيل وكهنته واللاويين أن يرجع معك إلى أورشليم فليرجع" (عزرا ١٣/٧) . وقد حرص عزرا فى سفره على تعيين العائدين معه إلى أورشليم بأسمائهم وأنسابهم . ولم يُسَمِّ بالطبع الذين لم "يريُدوا " الرجوع معه ، الذين آثروا مصالحهم فى بابل على الرجوع إلى أورشليم وإعادة بناء الهيكل .

بقيت إذن باقيةٌ من هذا السبى فى بابل . وكان لابد مما ليس منه بد . فقد تسللت إلى عقيدة التوراة القاطعة بتوحيد الله عز وجل لا وَلِيَّ من دونه ، التى يَدينُ بها هؤلاء الذين آثروا بابل على أورشليم ، تأثيراتٌ بابلية تُعَظِّمُ النجوم ـ أو الملائكة إن شئت ـ فجمعوا بين توحيد الله عز وجل وبين الاعتقاد بتأثير النجوم .

والذى يجب أن تَعلَمُه أن البقيةَ الباقيةَ من " الصابئين " فى العالم لا تزالُ تعيشُ إلى الآن فى جنوبيِّ العراق ، حيث كانت " بابل " .

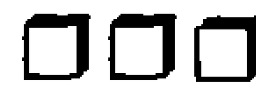
إنهم إذن سُلالةٌ من " الذين هادوا " صَبَؤُوا عليهم . والصابىءُ فى العربية يعنى الخارج على ملة آبائه ، الذى انتقل من عبادهِ قومه إلى عبادةٍ لم يعرفوها .

ولا ينفع توحيدُ الواحد الأحد من عَبَدَ معه غيرَه ، مهما عَظُمَ جرمُه، أو مهما بَلَغَ قُرْبُه من الله عز وجل ، فكل ما عدا اللهِ خَلْقٌ من خلقِه ، لا معبودَ سواه ، ولا تَوَسُّلَ إليه إلا بَه ، ولا وَلِيٌّ من دونه .

أما اسمهم بلغتهم ، فهو " صِبَائِيِّن " آراميّاً ، " صِبَائِيم " عبرياً ، نسبةً إلى "صَبَا" العبرى ـ الآرامي يعنى " النَّجْمُ ـ المَلَك" ، والنسبةُ إليه فى الآرامية "صِبائِى" والجمعُ " صِبَائِيِّن " ، وفى العبرية " صِبَائِى" والجمعُ " صِبَائِيم " .

إنهم " النُّجوميُّون" أو " الملائكيُّون" ، عُبَّادُ الكواكب أو عُبَّاد الملائكة .

وإلى هذا الخَلْطِ فى مجازِ العبرية ـ الآرامية بين الملائكة والنجوم فى مادة "صَبَا" العبرية ـ الآرامية ، يرجع فيما أرى تفاوتُ مفسرى القرآن فى عبادة الصابئين ، فريقٌ يقولُ عُبَّادُ الكواكب وفريقٌ يقولُ عُبَّادُ الملائكة ، لتفاوتِ من تَرْجَمَ معنى "صَبَا" العبرى ـ الآرامى لمفسرى القرآن من رُواتِهم الآخذين مِنْ أفواه الصابئةِ هؤلاءِ أنْفسِهم .



اختلف مفسرو القرآن (راجع تفسير القرطبى للآية ٦٢ من سورة البقرة) فى عبادة الصابئين فقالت طائفةٌ إنهم فرقةٌ من أهل الكتاب (وهو الصحيح كما مر بك) ، وقالت طائفة هم قومٌ يشبه دينُهم دينَ النصارى (وهذا يؤكد لك اختلاط الصابئة بمسيحيى القديس يوحنا الغنوصيين أو المَنْدَعِيِّين المَعْرِفيين) قبلتُهم مَهَبُّ الجنوب يزعمون أنهم على دين نوح (وقد علمت أن العهد القديم يَنْسِبُ نوحاً إلى بابل) ، وقيل دينُهم يتركب من اليهودية والمجوسية لا تُنْكَحُ نساؤهم ولا تُؤكَلُ ذبائحُهم (وهذا يدلك على تأثر بعض الصابئة بدين سادتهم الفرس قبل الإسلام) ، وقيل بل قوم يعبدون الملائكة يُصلُّون إلى القبلة ويقرءون الزبور ويُصَلُّون الخمس (وليس بعد هذا تخليط ولكن الراوى ينقل بلا شك عن صابئةٍ يتملقونه فى أرض الإسلام) .

وانتهى القرطبى رحمه الله إلى أن خُلاصَةَ القولِ فيهم عند أشياخه هو أن الصابئين مُوَحِّدُون يعتقدون تأثيرَ النجوم وأنَّها فَعَّالة ، وهذا كُفْرُهم .

هذا الخلط فى أقوال رواة مفسرى القرآن بين عبادة الصابئين النجوم وبين عبادتهم الملائكة ، ناشىء بلا شك عن ازدواج معنى "صَبَا" العبرى ـ الآرامى لدى

أصحاب الملة الذين نَقَلَ عنهم الرواةُ تفسيرَ عبادتهم، طائفةٌ تقول للراوى النجوم وطائفةٌ تقول الملائكة ، وهم فى حقيقة الأمر يَعْنُونَ شيئاً واحد ، لأن المَلَكَ عندهم نَجْمٌ والنَّجْمُ مَلَك .

قد جمع الصابئون إذن بين عبادة إله موسى وبين عبادة تلك النجوم التى فى بابل ، جُنْدِ السماء أو " صِبَؤُوت هَشَّمايِم " فى العهد القديم ، وقد زُيِّنَ لهم التخفيفُ من غلظة عبادة النجوم التى نَعاها آباؤهم على بابل فألبسوا تلك النجومَ ثيابَ الملائكة وفى وَهمِهم من مجازِ عبريةِ العهدِ القديم أن النَّجْمَ والمَلَكَ واحد : "صَبَا" ، "صبؤوت".

وقد كَفَّرَ الملائكةُ فى القرآن من عبدوهم وتَبَرَّءُوا منهم : { **ويومَ يَحْشُرُهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون. قالوا سبحانك، أنتَ وَلِينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجِنَّ ، أكثرُهم بهم مؤمنون** } (سبأ : ٤٠ ــ ٤١) .

وها هنا يلتقى الصابئةُ بالنصارى الذين جَمَعوا إلى عبادة الله عز وجل عبادةَ روحِ القدس جبريل صلواتُ الله عليه وعلى ملائكة الله أجمعين .

* * *

أما " الصابئون" التى فى القرآن فهى عربيةٌ بلا شك ، زِنَةُ جمعِ الفاعل من الجذر العربى صَبَأ/يَصْبَأ / صُبُوءا ، يعنى انتقل ، أى انتقل من عبادة آبائه إلى عبادةٍ لم يَعْرِفْها آباؤهم . وقد قيلت لمحمدٍ صلى الله عليه وسلم وصَحابته على الاستنكار من مُشركِى قريش ، فقيل صَبَأ محمد ، وصَبَأ عُمَر ، الخ . يعنى خَرَج خاتمُ النبيين وأتباعُه على عبادة قومهم مشركى قريش . وقائلُها يقولُها على الذَّمِ ولا يقولُها قط على المَدْح ، صَحَّ قولُ القائلِ أو لم يصح . وهو لم يَصح بالطبع فى خاتم النبيين المبعوث لهدايةِ الخلق ، ولكنه يصحُّ فى الصابئين ، صابئةِ بابل ، الذين صَبَؤُوا بعبادةِ النجوم أو الملائكة على توراةِ موسى .

وقد تقول فلماذا يُفردُ القرآنُ " الصابئين " بهذا الاسم ، وقد صَبَأ من قبل ومن بعد كُلُ خارجٍ على دين القَيِّمَة ، الذين تَبَدلُوا قولاً غيرَ الذى قِيل لَهُم ؟

مر بك أن العرب تقول من "صَبَأ " العربى : صَبَأت النجوم ، يعنى طَلَعت ، من صَبَأ بمعنى برز، كما يقولون صبأ نابُ الصَّبِى يعنى انشقت عنه لَثَتُه ، فالصابىءُ بمعنى

البارزُ البازغُ . وعُبّادُ النجوم لا يعظّمونها وهى فى مَحاقها ، وإنما يُعَظّمونها وهى صوابىء ، على ما مر بك من قول إبراهيم عليه السلام فى القرآن : { **فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى** } (الأنعام :٧٧) .

على أن " النجم" فى العربية تسميةٌ بالمصدر من الجذر العربى " نَجَم" بمعنى ظَهَرَ وبَزَغ ، فهو الذى " نَجَمَ " يعنى الذى بَزَغَ وصَبأ ، فالناجمُ والصابِىءُ واحد حين تعنى بهما نجوم السماء ، ولكن العربية اشتقت اسم النجوم من مادة " نَجَم " واشتقته العبرية ـ الآرامية من مادة " صبا " .

من هنا تستطيع أن تقول إن " الصابئين " هم الذين يُعَظّمون نُجومَ السماء وهى صوابىء : يَصْبَؤُون إليها كلما صَبَأت .

احتفظ القرآنُ بلفظ " صبائيين " الآرامى أو " صْبَائيم " العبرى على ما أَسْمَى بِهِ الصابئون أنْفُسَهُم ، فجاء به على التعريب المُفَسِّر : إنهم الصابِئة ، أصحابُ النجوم الصوابىء .

وفى هذا التعريب المفسر أيضا إضافةٌ ومَزِيدُ بيان : ليسوا هم عُبَّادَ النجوم بإطلاق شأن البابليين مخترعى هذه العبادة ، ولكنهم الذين "صَبَؤوا " بعبادَتِها على توراةِ موسى .

وسبحان العليم الخبير .

(٦٠) المجوس

وردت " المجوس" مرة واحدة فى كل القرآن ، بين " النصارى" و "الذين أشركوا" فى قوله عز وجل : { **إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد** } [الحج : ١٧] وقد مر بك .

وهى من الأعجمى المُعَرَّب الذى نَطَق به العربُ حوالى القرن الثالث الميلادى قبل نزول القرآن بأكثر من ثلاثة قرون ، فهى ليست من مُعَرَّبات القرآن ، وإنما هى من مُواضَعَات العرب أنفسهم ، يصفون بها جيرانهم الفرس عَبَدَة النيران ، وقد أَجْمَعَ المفسرون (راجع تفسير القرطبى للآية ١٧ من سورة الحج) على عُجْمَة هذه اللفظة ، إلا من شَذ منهم فقال على الذم والتحقير إن الميم فى "مَجُوس" مُبْدَلَةٌ من النون فهم "نَجُوس" ، تَوَصُّلا إلى وصفهم بالنجاسة ، وربما كان هذا القائل ينظر إلى قوله عز وجل : { **إنما المشركون نَجَس فلا يَقْرَبُوا المسجدَ الحرامَ بعد عامهم هذا** } (التوبة : ٢٨)، وهذا عامٌ فى كُلُّ مُشْرِك ، فلا يصح اختصاصُ المجوس به حتى يُسَمُّوا على معنى " نجوس" . وهو لا يصح أيضا لأنه لم يُسْمَع من العرب "مَجَس" بمعنى "نَجَس" . ولا يصح أخيرا لأن "مجوس " لفظة فارسية بلا مراء كما سترى ـ إن اعتبرت الميم فيها أصلية لا زائدة ـ لا أصلَ لها فى العربية لأنه لا أصل لمادة "مَجَس" الثلاثية فى اللغات السامية الثلاث : العربية والآرامية والعبرية .

ومع ذلك ، أى على الرغم من فارسيةِ هذه اللفظة فى أصلها ، فهى تَصْلُحُ من العربية ذاتها وصفا للمجوس بعبادتهم ، إن أخذتها على المفعولية من الجذر العربى جاس يجوس جوسا وجوسانا ، وهو التردد بين الشيئين ، وأجاسَهُ يعنى جعله يَجُوس ، وأيضا جَاسَ به، فهو "مَجُوسٌ" على معنى "مَجُوسٌ به". ولُبُّ عقيدةِ المجوس كما تعلم هو التردد بين إلهين ، إله الخير وإله الشر، يغدو المجوسى عليهما ويَرُوح. ولكن لم

يفطن العرب إلى هذا يوم سَمَّوا المجوسَ مجوسا ، فلم يكن لهم علمٌ بما وراء عبادة النيران ، ومن ثم لم يفطن إليه أيضا المفسرون .

والذى ينبغى التنبيهُ إليه أن لفظة "المجوس" ليست اسم جنس يطلق على شعب أو أمة أو جيل من الناس ، كما تقول المصريون والبابليون والفرس والهنود . فلا يجوز على سبيل المثال إطلاقه على شعب إيران اليوم بحُسبانهم سُلالةً من هؤلاء الفرس الذين كانوا أول شعبٍ غير عربى يعتنق الاسلام فَيُسهمُ فى بناء حضارته إسهاماً ذا شأن . لا يجوز هذا ليس لأن آباء هؤلاء الإيرانيين أسلموا فَحَسُنَ إسلامُهم وكان منهم أئمة أمثال أبى حنيفة النُّعمان أقْدَم أئمة الفقه الأربعة ، وإنما أولا وبالأخص لأن "المجوس" ليست اسم الشعب الذى انحدروا منه وإنما اسم " الملة " التى كانوا عليها قبل إسلامهم ، يعنى كانوا " فُرْساً " قبل أن يكونوا " مجوسا " بل لم تكن المجوسية هى الملة التى خَلَقَهُم اللهُ عليها ، وإنما طرأت عليهم المجوسية حوالى القرن السادس قبل الميلاد ، جاءهم بها "زُرادشْت" ، فهم الزُّرادشْتيون " أتباعُ زرادشت ، ولكن "الزُّرادشْتيَّة" لم يُكتَب لها انتشارٌ خارج حدود موطنها عدا الذى أبَقَ من أتباعها إلى الهند عُقَيْبَ الفتح الإسلامى فِراراً بملتهم (وهم آباء طائفة Parsee " فَارِسِيٌّ " التى لا تزال إلى اليوم فى الهند يتعبدون النيرانَ فى معابدَ لهم) ، ولذا شاعت لفظةُ المجوس عند العرب عَلَما على الفرس أنفسهم ، وصفا لهم بملتهم .

وقد وقعت لفظة " المجوس " بمادتها فى حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم : " كل مولودٍ يُولَدُ على الفطرة ، فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجسانه " . وهذا قاطعٌ حاسم فى أن المجوسية دينٌ لا جنس . وبهذا المعنى أيضا وردت لفظة " المجوس" فى القرآن : إنهم إحدى الفرق الست (المسلمون واليهود والصابئون والنصارى والمجوس والذين أشركوا) يفصل اللهُ بينهم يوم القيامة .



على أن " المجوس" أتباع هذه الديانة لم يسموا أنفسهم " مجوسا " على الرغم من فارسية هذه اللفظة ، وإنما أسماهم بها العرب قبل الإسلام ، تسمية للديانة باسم كهنوتها .

ولم تقع هذه اللفظة الفارسية فى عبرية التوراة إلا مرة واحدة فقط ، فى عبارة وحيدة وردت فى سفر إرْمَيا الذى عاصر السبىَ البابلى : " ودخل كُلُ رؤساء ملك بابل وجلسوا فى الباب الأوسط ، نَرْجَل شَراصَر وسَمْجَرْنَبُو وسَرسَخيم رئيس الخصيان ونرجل شراصر رئيس المجوس وكل بقية رؤساء ملك بابل " (ارميا ٣/٣٩) . وليست هى رئيس المجوس كما ترجمها المترجم العربى لأسفار العهد القديم متأثرا بلفظة " المجوس" التى فى القرآن ، وإنما هى فى الأصل العبرانى لسفر ارميا " راب ـ ماج " أى " الماج الكبير" يعنى كبير كهنة هذا الكهنوت الفارسى الزرادشتى الذى واحِدُهُ فى الفارسية القديمة "ماجو" ، "ماجوس" . ورغم وقوع كاتب هذا السفر فى خطأٍ تاريخىٍّ بَيّن ، هو إقحامه رئيساً لكهنة الفرس بين" رؤساء ملك بابل "فى بلاطِ مَلِك بابل على عهد نَبُوخَذْ نَصر ولم تكن بابلُ قد سقطت بعد فى أيدى الفرس حتى يكون للفرس كهنوتٌ فى بلاط بابل ، فالذى يعنينا هنا أن لفظة " ماج " العبرية المأخوذة من الفارسية "ماجو" لا تعنى عنده " المجوس" أتباع زرادشت وإنما هى تعنى فقط واحد هذا الكهنوت "الزُّرادِشْتِىّ". وهذا " الماج " هو أيضا الذى تجده على لسان متى فى إنجيله : " ولما وُلد يسوع فى بيت لحم اليهودية فى أيام هيرودس الملك، إذا مجوسٌ من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين أين هو المولود ملك اليهود . فإننا رأينا نَجْمَهُ فى المشرق وجئنا لنسجد له " (متى ٢/١ ـ ٢) . وقد جاء لفظ "مجوس" هذا فى الأصل اليونانى بصيغة الجمع magoi على الجمع من magos (السين فيه زائدة للرفع) وهى الصورة اليونانية للفظة "ماج" العبرية المأخوذة من "ماجو" الفارسية . ورغم أن مَتى أخطأ هنا نفس الخطأ الذى وقع فيه كاتب سفر إرميا من قبل بخلطه بين كهنة بابل عبدة النجوم (فإننا رأينا " نجمه " فى المشرق) وبين كهنة المجوس أتباع زرادشت عبدة النيران فالذى يعنينا هنا أن magos اليونانية لا تعنى عنده وعند اليونان واحد المجوس أتباع زرادشت كما يقول العرب، وإنما هى تعنى فقط ـ ولا تزال تعنى فى كل لغات الأرض عدا العربية وحدها ـ " الماج " واحد الكهنوت الزرادشتى لا غير. ورغم أن العبرية المعاصرة استعارت من العرب لفظة "مجوس" بعد تشيين السين كدأبها ، فقالت "مَجُوش" ، "مَجُوشيم" ، فهى لا تعنى بها واحد المجوس أتباع الملة ، أو واحد الفرس عبدة النيران وصفا للفرس بملتهم كما يقول العرب، وإنما تعنى بها نفس الذى أراده منها

ارميا ومَتّى من قبل : الـ "ماج" واحد كهنوت المجوس ، أى على أصلها عند الفرس لا على مجازها العربى الذى بات عَلَماً على أهل الملة جميعا ، كهنوتاً وغير كهنوت .

وهذا يدلك على أن العرب انفردوا بتسمية المجوس مجوسا ، على معنى أهل الملة أجمع ، لم يستعيروها من يهودَ أو يونانَ أو نصارى ، وإنما أخذوها مباشرة على الراجح عندى من أفواه عرب الحِيرة الواقعين من قديم فى دائرة نفوذ فارس .

أما " ماجو" الفارسية هذه ، فمعناها فى تلك اللغة " ذو الحَوْل والحيلة " ، اسمٌ غَلَبَ على رُتبةٍ من هذا الكهنوت الزرادشتى بَرَعَت فى الإتيان بالعجائب حتى نُسبَت إليهم الخوارق . ومن هذا الجذر البعيد تجىء فى الألمانية مثلا mögen و Macht (وهما فى الانجليزية على الترتيب الفعل may والاسم Might على معنى القدرة والاستطاعة) . ومن "ماجوس" الفارسية " أيضا واحد هذا الكهنوت ذى الحول والحيلة ولدت فى اللغات الأوروبية جميعا اللفظة الانجليزية magic ونظائرها ومشتقاتها فى أخواتها الأوربيات بمعنى السحر الذى يعتمد على الحيلة فيخلب اللب ، لا sorcery ونظائرها فى اللغات الأوروبية بمعنى السحر الذى يعتمد على الجن والأرواح الشريرة . ولعله قد كان من حيل أولئك الكهنة المجوس تلك النيران التى لا تنطفىء فى معابدها وأصلها ـ كما لعلك حدست الآن ـ سحابات غاز تتسرب من أرض تعج ولا تزال بالنفط الخام .

ورغم انقطاع الصلة بين معنى الحَوْل والحيلة فى " مجوس " على أصلها فى لغة أهلها وبين مضمون العقيدة الزرادشتية الثَنَوِيَّة التى تتعبد لإلهى الخير والشر ، فقد وُفِّقَ العربُ كل التوفيق ـ دون أن يدروا ـ فى تسمية المجوس مجوسا . إذ ليس لديك شىء من تعاليم زُرادشْت" الحقيقى" الذى تَنْتَسِبُ إليه هذه الملة ، إلا هذه الأڤسْتا (Avesta ومعناها النص الأصلى) التى شرع فى كتابتها أو تجميعها هذا الكهنوت فى الربع الأول من القرن الثالث الميلادى بعد ثمانية قرون من وفاة زُرادشْت وانتهوا من تدوينها فى القرن السابع الميلادى ، لا تدرى على وجه اليقين ما الذى فى الأڤسْتَا من قول الكهنة والذى فيها من قول زرادشت . ومن ثم يقتضى الإنصاف ـ وإن لم يَتَعمَّدْهُ العرب فى هذه التسمية ـ نسبةَ أصول الملة إلى هذا الكهنوت نفسه ، لا إلى معلمهم .

ولعله لن يفوتك وقد عَلِمْتَ الآن أن الأڤِسْتَا كتاب دَوَّنَه الكهنوت الزُرادشْتِيُّ ما بين القرنين الثالث والسابع الميلاديين ، لم يُنَزَّل على نَبِيٍ لهم ، زُرادشْت أو غيرَ زُرادشْت ، مُبررٌ آخر يُضاف إلى ما ذكرناه فى مبحث " التوراة " يقطع بامتناع إدخال " المجوس" ضمن أهل الكتاب المعنيين فى القرآن ، أى اليهود والنصارى فحسب ، لا عبرة بمن يقول العكس .



تقول عقيدة " الأڤِسْتَا " التى يدين بها المجوس ، أن هذا الكون تحكمه قوتان ، الخيْر والشر ، أو النور والظُّلمة . الأول " هُرْمُزدا " (وأصلها من الفارسية القديمة أهُورا + مَزْدا) أى إله الخير ، والثانى " أهْرِمَنْ " (وأصلها أهْرِى + مَنْ) يعنى روح الشر . لاتزال بينهما المغالبةُ والمدافعة ، جولةً هنا وجولة هناك ، والشرُّ أغلب ، حتى ينتصر الخيرُ فى النهاية . والإنسان الذى زُجَّ به فى هذا الصراع - أى هذا العالم - لا يدرى عِلَّةَ ما يدور من حوله ، إذ ليس هو طرفاً فيه ، فهو صراعٌ بين عمالقة . ولكن الضربات تُكالُ له من حيث لا يحتسب، فى ظلامٍ دامس لا يدرى من أين يُؤْتَى ، فهو يُصانِعُ هذا الإله وهذا الإله ، يَدْرأُ الواحد بالآخر : الأخيارُ يستعينون هرمزدا على أهرمن ، والأشرارُ يستعينون أهرمن لِيَكُفَّ أذاهُ عنهم ويُحقِّقَ أهواءهم .

وربما قلت ان الأشرار أحصف وأحكم ، لأنهم لا يريدون ما وراءَ هذه الحياة الدنيا فقد عَلِمْت أنَّ الشرَّ أغلب ، وأن إلهَ الخير أو النور " هرمزدا " لا يحقق انتصارَهُ الحاسم إلا فى نهاية العالم . ولكن الأڤِسْتَا تضع جائزة للأخيار : " الكمالُ والخلود " فى حياةٍ أخرى ينتقلون إليها بعد الموت ، لا مكان فيها للشر والأشرار .

ولأن هرمزدا إله الخير مرموزٌ إليه بالنور ، كما يُرْمَزُ بالظُّلْمَة إلى روح الشر أهرمن ، فقد كان لابد من تعظيم الشمس والقمر ، ضياءً يطردُ الظُّلْمَة ونوراً يُخَفِّفُ من حُلْكَةِ الليل . وهاهنا فقط نقطة الالتقاء فى مظاهر العبادة بين البابليين عبدة النجوم والكواكب وبين المجوس عبدةِ النور والنيران . وليست عبادةُ النيران التى شُهِرَ بها المجوس إلا شيئا من هذا : إنها الاستضاءة ، أى استحضار " الإله النور" الذى يَطْرُدُ " الظُّلْمَة " أى روح الشر أهرمن . ولا يصلح فى هذا بالطبع الاستعانةُ بضوء

مصباحٍ ثابت اللهب ، بل لابد من نارٍ تتأجج فتبعث " الحياة " فى هذا الصراع المحموم بين هرمزدا وخصمه اللدود أهرمن .

وتستطيع أن تقول ان المجوس أحرزوا بعض " التقدم" على الذين أشركوا ، ليس فقط لأنهم اجتزءوا بإلهين اثنين عن العديد الذى لا يُحْصَى من آلهة الشرك ، ولا لأنهم صنفوا الآلهة فى جبهتين ، جبهة الخير وجبهة الشر ، الضار والنافع ، وإنما أيضا وبالأخص هذا التنظير الذى استحدثوه فى عبادات الشرك ليجعلوا لها مغزى ، فقالوا بهذا " الصراع " بين إله الخير وإله الشر ، يُغالِبُه حتى يَغْلِبَه فى نهاية العالم .

ولكن المجوس بتجميعهم قُوَى الشر فى واحد، جعلوا من أهْرِمَنْ عملاقا لا يُغالَب لابد لهم من تعظيمه حتى يَكُفَّ أذاهُ عنهم إن ضَعُفَ هُرْمَزداً عن نجدتهم أو تباطأ .

أما الذين أشركوا فهم يتعاملون مع آحاد آلهتهم فُرادى ، يضربون هذا بذاك ، فضلا عن أنهم لا يُشَخصُون الخيريَة أو الشرِّيَّة فى إله دون إله ، ليس من آلهتهم خَيْرٌ بذاته أو شرير بذاته ، بل الكل يقبلون الرشوة ، أى الأتاوات والقرابين . والكل أيضا خَرِبُ الذمة ، لا يبالى إلا بمن يُزايدُ عليه فيدفع أكثر . إنهم إن تمعنت جُنْدُ مُرتَزقَة لا آلهةٌ تُعْبَد ، خُدَّام لا سادة ، ولا خيرَ بالذات ولا شرَّ بالذات ، وإنما هما الضُرُّ والنَّفْع الفرديان هاهنا والآن تختار لنفسك ما يحلو وبيدك الميزان ، لا حاجةَ بك إلى هرمزدا أو أهرمن .

المجوس إذن هم الثَّنَوِيَّة ، فرقة من الفرق الست يفصل اللهُ بينهم يوم القيامة .

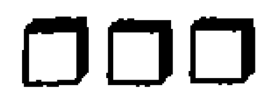
ومن إعجاز القرآن فى أنباء القرآن أنه يُلخِّص لك فى الآية ١٧ من سورة الحج عبادات الخلق جميعا عصر نزوله وإلى يوم القيامة ، لا تخرج عن هذه الفرق الست مِلَّةٌ من الملل ، مُتَدَرِّجا بهم من الذين آمنوا ، أصحاب التوحيد الخالص ، إلى الذين أشركوا أصحاب الآلهة المتعددة المتضادة، يُحَجِّرونها أوثاناً وأصناما ، أو يتمثلونها فى "قوى الطبيعة" ، المياه والرياح والأفلاك والنجم والشمس والقمر ، والبراكين والصخر والشجر والجبل ، إلى آخر ما تعلم. ولا يخرج عن هذا بالطبع " المُبْطِلون" الذين يقولون ليس البتةَ من إله بل هو العالَمُ السائرُ بذاته ، بمحض قوانينه ، التدافُع والتضادُّ والتفاعل ، لأن إله هؤلاء المبطلين هو هذا " العالَم" بكل أشتاته ، ومن يُهِن اللهُ فما لَهُ من مُكرِم.

بين هذين الطرفين ـ الذين آمنوا والذين أشركوا ـ تجَيء على التتابع الفرقُ الأربع : اليهود الذين هادوا ثم لم يَهودوا ، والصابئون الذين "مَلأكوا" النجومَ ثم جعلوها بينهم وبين الله وسائط ، والنصارى الذين وَحَّدوا ثم ثَلَّثوا ثم قالوا ثلاثةٌ فى واحد ، والمجوس الذين ثَنَّوا فقالوا بإلهين اثنين على التضادِّ والتعانُد .

وهو ترتيبُ تنازلى للفرق الست ، من قمة التوحيد إلى حضيض الشرك .

والذى قضى على الثنوية والمُعَدِّدَة ، أى على المجوس والذين أشركوا ، بالحرمان من وعد الله دون وعيده ـ على ما مر بك فى مبحث الصابئين ـ هو غفلتهم جميعا عن مبدأ الخلق والإيجاد ، الذى لا يصح فيه إلا خالقُ غيرُ مخلوق ، واحدٌ أحد تَفَرَّد بالألوهية لتفرده بالملك ، الرازقُ المانع ، الضار النافع ، المُنشىءُ المُعيد . ولكن الثَنَوِىَّ والمشرك اكتفيا بالعالم عن صاحبه ، أى بالمصنوع عن الصانع ، وإن كانت كل ذرة فى أحياء هذا الكون وجماده تنطق بالذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، والذى أحكم فأمضى ، القاهر فوق خلقه ، لا يُنازَعُ سلطانُه . كان أجدر بهذين ـ الثنوىِّ والمشرك ـ وقد غَفَلا عن الخالق المالك واكتفيا بهذا العالم عن صاحبه ، ألا يلتمسا غيره ، آلهةً من هذا العالم تُلاعبهم ويُلاعبونها . ولكن هذا أيضا من آيات إعجاز الخالق فيمن خلق ، الذى فَطَرهم على فطرةٍ لا يملكون منها فكاكا : التماسُ " الإله " الذى يَدينون له بالعبادة ، حتى المُبْطِل الذى قال ليس البَتَّةَ من إله وهو محكومٌ بقوانين هذا العالم ، يَسيُر فى إسارها ولا يَمْلكُ الخروجَ عليها ، فَيُؤَلِّهَ العالم .

أولئك الذين استحبوا العَمَى على الهدى ، فَحَقَّت عليهمُ الضلالة .



لا شك أن فكرة الصراع بين الخير والشر فكرة ورثتها الأِفْستَا عن شعراء اليونان ، الذين استهوتهم " مأساة" هذا الصراع الخالد المزعوم بين الخير والشر ، يُلَوِّنُونها لك ألوانا ، ويحَبِّرُونها تحبيرا ، ويُشخِّصُونها لك حتى لتكاد تتوهم معهم أن فى هذا الكون قوتين فاعلتين لا ثالث لهما ، الخيرُ والشر ، نِدَّان متصارِعان ، لا هَمَّ لأحدِهما إلا إيقاعُ الضُّر بك ، ولا شغل للآخر إلا السعىُ فى دفع الأذى عنك ، وكأنَّ ليس فى الكون إلا أنت ، لُعبَة يتقاذفانِها . وتبلغُ المأساةُ عندهم ذُروتَها بانتصار قُوى

الشر قَدَراً مقدورا ، ويتوارى الخيرُ مُثْخَناً بجراحه ، يَستجمعُ قُواهُ لجولةٍ قادمة ، وقَلَّما يكونُ الظَّفَرُ من نصيبه .

ومع أن الفلسفة والتفلسف ليسا من مقاصد هذا الكتاب ، فلا بأس بقسطٍ منهما لاستقصاءِ مدلول الخير والشر فى أفهام الناس . فعند الذين آمنوا حق الإيمان يجىء الخير والشر بمعنى البر والإثم : البرُّ هو إتيان ما أمر اللهُ به واجتنابُ ما نَهى عنه والإثمُ هو اجتراح ما نَهَى اللهُ عنه وتعطيلُ ما أمَرَ اللهُ به . والخيرُ والشرُّ عند هؤلاءِ أيضا ، إن أخذته بمعنى الضُّرِّ والنفع ، أى النِّعْمة والنقْمَة ، ليسا هما بذاتهما هذه أو تلك ، وإنما هما معا ابتلاءٌ من الله عز وجل : { **ونبلوكم بالشر والخير فتنة** } ‹الأنبياء : ٣٥› ، من شكر فى النعمة وصبر فى النقمة فهو خيرٌ له ، ومن بَطَر فى النعمة وجَزَعَ فى النقمة فهو شَرٌّ له ، ولكنه يَسألُ العافية ، لقوله صلى الله عليه وسلم وهو يناجى رَبَّه : "إلا يَكُن بك عَلَىَّ غَضَبٌ فلا أبالى ، ولكنَّ عافيتَك هى أوْسَعُ لى". وهذا هو مُنتَهى الحكمة ، لأن الغايةَ الأولى والعُظمى لا غايةَ غيرُها هى رِضوانُ الله عز وجل ، فالخيُر والشر بيده تبارك وتعالى ، ولأنْ يَرضى اللهُ عنك فى النعمة وأنت شاكرٌ غيرُ بَطِرٍ أهْنَأُ لك من أن يرضى اللهُ عنك فى النقمة صابراً محتسبا ، قد جمعت فى الأولى خيرَ الدنيا وخيرَ الآخرة . فلا شك أن الراحة أهْنَأُ من التعب ، والفَرَح أهنأُ من الحُزن ، واللذةُ أهنأ من الألم ، واليُسرَ أهنأ من العُسْر . ولكن الله عز وجل أعلمُ بالذى هو خيرٌ لعبده المؤمن ، فيبتليه بالذى هو خيرٌ له ، القمينةُ نفسُه بالصبر عليه نِعْمَةً أو نِقْمَة ، لقوله عز وجل: { **إن ربك يبسط الرزقَ لمن يشاءُ ويَقْدِر إنه كان بعباده خبيراً بصيرا** } ‹الإسراء : ٣٠› .

أما عند غير هؤلاء ، فالخيُر والشُّر عند عامة الناس هما الُضُّر والنَّفْع ، يعنى مباهجُ هذه الحياة الدنيا أو مصائبُها ، مثل الغِنَى والفقر ، والصحة والمرض ، والقوة والضعف ، والرفعة والضِّعَة ، والنصر والهزيمة ، والسعادة والشقاء ، واللذة والألم ، والاستمتاعِ بالأهلِ والوَلَدِ والصديق أو المُصيبةِ فى الأهلِ أو الوَلَدِ أو الصديق ، إلى آخرِ ما تعلم من خيراتِ هذه الدنيا وشرورها . أولئك هم أصحابُ العاجلة ، لا يَفطنون إلى ما وراء هذه الحياة الدنيا ، الذين نَسُوا الغاية من وجودهم فيها : لم يجيئوها للتلذُّذِ والتَّنعُّم ، وإنما جاءوها لِيُفْتَنُوا فيها ، ثم ليشهدَ كُل على نفسه بما

قدّمت يداه . قال عز وجل فى أصحاب العاجلة : { **من كان يريد العاجلة عَجّلْنا لهُ فيها ما نشاءُ لمن نُريد ثم جعلنا له جَهَنّمَ يصلاها مذموماً مدحورا. ومن أراد الآخرة وسَعَى لها سَعْيَها وهو مؤمن فأولئك كان سَعْيُهم مشكورا. كُلاً نُمدُّ ، هؤلاء وهؤلاء، من عطاء ربِّك، وما كان عطاءُ ربِّكَ محظورا** } (الإسراء : ١٨ ــ ٢٠) . أصحاب العاجلة أَقْمَنُ أن يُضحوا بالخيرِ الأعظم، رضوانِ الله عز وجل ، ليشتروا به فى هذه الدنيا ثَمَناً قليلا ، قد غَفَلُوا عن أن متاعَها متاعُ الغُرور ، فالموتُ آتٍ والحسابُ قريب، والساعةُ كَلَمْحِ البصرِ أو هى أقرب .

ومن الناس أيضا فلاسفةُ شعراء ، الخيرُ والشرُّ عندهم قضاءُ أعمى، بل هم بالأحرى لا يرون فى هذا العالم إلا شَرّاً، سواءٌ فى هذا "الشرُّ الكونيُّ" من أمثال القَحْط والفيضان والمجاعات والزلازل والبراكين التى تُهْلِكُ الحَرْثَ والنسل ، أو " الشرُّ الاجتماعيُّ " المتمثلُ فى إفسادِ الطغاة البُغاة الظَّلَمة . نَسِيَ هؤلاء أن هذا العالم مُسَيَّرٌ بقوانينه الطبيعية والاجتماعية ، كل شيءٍ فيه بقَدَر ، أى موزونٌ بميزان ، مقصودٌ مُتَعَمَّد ، سلاسلُ أحداث يركبُ بعضُها رقابَ بعض ، ويُفْضِى بعضُها إلى بعض . إن سَخطتَ على " الشرِّ الاجتماعى" أى الظلمِ والإفساد ، فلا تنس أنهما بفعلك أنت ظالماً كُنْتَ أو مظلوما : إن كنت الظالمَ فما عليك إلا أن تَكفَّ النفسَ عن الظلمِ والإفساد. وإن كنت المظلومَ المَبْغيَّ عليه فلأنك تخاذلت وجَبُنْت عن نُصْرَةِ الحقِّ والعدل أو تموتَ دونَهُما شهيدَ الحقِّ والعدل. أما" الشرُّ الكونى" الذى لا ترى غيرَه فى هذا العالم، الذى تُسميه كوارثَ طبيعيةً تُهْلِكُ الحَرْثَ والنسل، فهو فعْلُ " الكونِ" فى نفسه، لا سائلَ ولا مسئول، بل يُهلِكُ اللهُ بعضَ الناس بذنوبهم أو يَتَّخذَ منهم شهداء، ويُرى الخَلْقَ آياته، لتتعظَ أنت وتعتبر. ولكنك أيضا جاحد، تَغْمط حَقَّ هذا "الكونِ" عليك وأنت بَعْضُ ترابه، المُنَعَّمُ فى خيراته، تَجْأرُ فى الضَّرَّاء، والسَّراءِ ملءُ حياتك. وماكان اللهُ ليصنع هذا العالَم على حَسَب دماغِك، وإنما جاء بك الى هذا العالم على ما هو عليه ليَفْتنَكَ فيه، وما أنت فيه بمُخَلَّد، فلا تتبطر وابتغِ إلى الله سبيلا. قال عز وجل: { **ومِنَ الناس من يعبد اللهَ على حرف، فإن أصابَه خيرٌ اطمأنَّ به، وإن أصابته فِتْنَةٌ انقلبَ على وجهه، خَسِرَ الدنيا والآخرة** } (الحج:١١).

ثَمَة أيضا فلاسفةٌ يَرَوْنَ ، لنكَدٍ فيهم ، أن هذا العالم ليس هو أفضلَ العوالم الممكنة ، يعنون أن اللهَ كان يستطيع خَلْقَ هذا العالم أكثر كمالا وأقلَّ نقصا ، فالخيرُ والشرُّ عندهم بمعنى الكمال والنقص. ولا بأسَ بهذا بالطبع إن أُرِيدَ به التنويهُ بقدرة الله عز وجل اللامتناهية على الخلق والإبداع ، لا حدودَ لكلماته تبارك وتعالى. بل لا شك أن جَنَّاتِ عَدْنٍ التى عَرْضُها السمواتُ والأرض أفضلُ من هذا العالم بما لا يُقاس، كما أَخْبَرَ عز وجل . ولكن هذا القائل وأمثاله لا يقصدون هذا، وإنما يُنَصِّبُون أنفسَهم نُقَّاداً لإعجازِ اللهِ فى خلقه فيقولون ان هذا العالم الذى نعيش فيه ليس مُبَّرأً من النقص، بل مَلِيءٌ بعيوبٍ كان يُمْكِنُ تلافيها ، بل لا يخلو من أوجهِ خَلَلٍ تُشَوِّهُ النظام، ثم يتطاولون والكُفْرُ مِلءُ أشداقهم بأنه لا يَصِحُّ الاستدلالُ بهذا العالم على خالقه إن كان ثمة خالق ، لأن الناقص لا يَخْرُجُ من الكامل . وتستطيع بالطبع أن تَرُدَّ بأن هذا القائل أعمى أو جاهل ، وأن ما يراه هو نقصا بضآلةِ علمه وكلالِ بصره ليس إلا مَحْضَ الكمال والجمالِ والإحكام ، على مقتضى مقصوده عز وجل، وأن هذا القائل بحاجةٍ قَبْلَ غيرِه إلى قراءة القرآن وإن لم يكن من أهل القرآن، ليستدل على إعجاز الخالق فيما خلق ، فليس فى الكتب السابقة من هذا شىء، وليتوقف طويلا عند قوله عز وجل: {**تبارك الذى بيده الْمُلك وهو على كل شىءٍ قدير . الذى خَلَق الموتَ والحياة لِيَبْلُوَكُم أَيُّكُمْ أَحسنُ عملا، وهو العزيزُ الغفور. الذى خلق سبعَ سمواتٍ طباقا ما تَرَى فى خلق الرحمن من تفاوت، فَارْجِعِ البَصَرَ هل تَرَى من فُطور . ثم ارْجِع البصر كَرَّتَيْنِ ينقلبُ إليك البَصَرُ خاسئاً وهو حسير**} (الملك : ١ـ ٤) .وتقول له أيضا من القرآن : { **هذا خَلْقُ الله ، فَأَرُونى ماذا خَلَق الذين مِنْ دونه** } (لقمان : ١١). ولكنك تعلم أن على قلوبِ هؤلاء غِشاوة ، فتختصر الطريق وتقولُ لهذا القائل : إن لم يُعْجِبْكَ هذا العالَم فلتخرجْ منه . وما هو بخارج . فليس له بعد هذا العالمَ عالَم . إلا النارُ وبئس مَثْوَى الظالمين .

وتستطيع أن تقول ان هذا العالم لو خلا من أحيائه فكان كوكباً قَفْراً كغيره من كواكب السماء ، لما كان ثمة معنى لخيرٍ أو شر . فما شأنُ بركانٍ يثورُ فى كوكبِ الزُهَرة ، أو زلزالٌ تنقصفُ لَهُ الجبالُ فى زُحَل ؟ بل ما شأنُ ما وقع على هذه الأرض نفسها حِقَباً متطاولةً وهى تتشكلُ وتتهيأ لاستقبال الأحياءِ عليها ؟ لا خيرَ ولا شَرَّ

بالطبع ، فليس هناك كائنٌ يُدْرِكُ ويُحِس ، يَتَّقِي الضُّرُّ ويتحرى النفع . بل ليس ثمة ذاتٌ تَعْقِلُ خيراً أو شرا . الإنسانُ هو وحده المَعْنِيُّ بالخير والشر .

وتستطيع ان تقول أيضا ان الخيرَ والشرُّ نسبيان، أى محكومان بالغاية والمآل، ما هو خيرٌ لهذا فهو شَرٌّ لذاك ، فالموتُ جهاداً في سبيل الله عز وجل خَيْرٌ لا شك فيه ، بل هو الخير ، والموتُ صَدّاً عن سبيل الله أو إعلاءً لباطل شرٌ لا شك فيه ، وكلاهما مَوْت .

الذين آمنوا بالله عز وجل حق الإيمان ، ثم اتَّقَوْهُ حَقَّ تُقاته ، هم وحدَهم الذين فَهِمُوا حقيقة الخير والشر ،إذا أَمَرَهُم صَدَعوا ، وإذا نهاهم انْتَهَوا :الخيرُ فى طاعته عز وجل ، والشرُّ فى معصيته .

وهم أيضا أصحابُ اليقينِ الثابت أنَّ خالقَ كُلِّ شيءٍ هو نفسه خالقُ كُلِّ فِعْل ، لا فاعلَ فى كونه غيرُه، ولا وَلِيَّ من دونه ، يبتليهم بالخيرِ والشرِّ فتنة ، وإليه يُرْجَعُون .

أما أصحابُ الأقستا فقد لَبَّس عليهم إبليسُ أن يتقوا بَأسَه ، لأنه رَبُّ الشرورِ فى هذا العالم ، فَنَصَّبُوهُ إلها .



وربما قيل لك أفليس " أَهْرِمَنْ " هذا عند المجوس هو نفسه " إبليس" فى عقيدة المؤمنين بالواحد الأحد . وأليس " هُرْمَزْدا " إلهُ الخيرِ عندهم هو نفسه الله عز وجل ، فماذا تُنْكِرُ من عقيدةِ المجوس ؟

لا مقارنَة البتة . فى المجوسية لا خالقَ ولا مخلوق ، بل العالَمُ مسرحٌ لا يُعْرَفُ صاحبُه لمباراةٍ بين نِدَّيْنِ وَفَدا عليه، يتواثبان ويتغالبان ، وباقى الخَلْقِ نَظَّارة ، يتقربُون إلى هذا أو ذاك بالهُتاف ، أى بالخضوع والعبادة .

ما كان الخاسىءُ الذليل، يوم خرج من الجنة مَذْءوماً مدحورا ، ليَطْمَعَ من بنى آدمَ فى مثل هذا : أن يكون له نصيبٌ فى عبادتهم ،إلهاً مع الله، أو يتصوروه لله نِدّاً يُصاوِلُه ، ويُبادِلُهُ الضَّرَبات .

كان مُنتهى أمله يومَ انتصبَ لعداوةِ آدمَ وبنيه - ليس في جعبته سَهْم إلا الإيهامُ والتلبيس - أن يصيبَهم ببعض سَخَط الله عليه، فلا يَجِدَ اللهُ أكثرهم شاكرين : { **قال أنظرني إلى يوم يُبْعَثون.قال إنك من المُنظَرين. قال فبما أغويتني لأقْعُدَنَّ لهم صراطَكَ المستقيم. ثم لآتيَنَّهُم من بينِ أيديهم ومن خَلْفِهم وعن أيمانِهم وعن شَمائلِهم ولا تَجِدُ أكثرَهم شاكرين** } (الأعراف : ١٤ ـــ ١٧) ، وإذا هم يجعلونه كُفْواً للهِ عز وجل ، ويُتَوَجُونَهُ "أميرَ الظلام" رئيساً لهذا العالم إلى نهاية العالم .

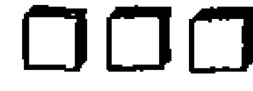
أفقد كان إبليسُ يطمع في أفضلَ من هذا وقد عَلِمَ من قبل أنَّهُ مَقْضِيٌّ عليه ، لا حَظٌّ له في الآخرة إلا العذابُ الأكبر ؟

هذه "الأَفِسْتا" وثيقةُ استسلامٍ للشيطان في هذا العالم يفعلُ فيه ما يريد .

كان عصرُ تدوين الأفِسْتا وما قبله وتلاه، عصرَ شقاءٍ وآلام طحنت في نفوس الناس كُلَّ أملٍ في خلاصٍ قريب. ولو أنصفوا لعلموا أن هذا الشر من أنفسهم، والبغاة هم ، والطغاة منهم ، والعلاج بأيديهم. ولكن قَعَدَت بهم هِمَّتُهم ، فجلسوا في الظل ينتظرون " المُخَلِّص" ، ويُؤثرون السلامةَ في التسليم للباطل ، بحجةٍ زَيَّنُوها لأنفسهم : تلك حربٌ بين الخيرِ والشر ، بين النور والظلام ، بين هرمزدا وأهرمن ، لا ناقةَ لنا فيها ولا جمل ، فلينتصر هرمزدا لنفسه أو يَدَعَ ، ولن ينتصرَ هرمزدا إلا في نهاية العالم .

تَجِدُ قريباً من هذا في الفكر الإنجيلي الذي ينتظر مجيء الملكوت :" أبانا الذي في السموات ، ليتقدس اسمُك ، ليأتِ ملكوتُك ، لتكن مشيئتُك كما في السماء فكذلك على الأرض " (إن فَهِمْتَ الملكوتَ بمعناها في الأصل اليوناني Basileia أي المُلك والمملكة) أي قد انفرد الشر ، إبليسُ أو أُهْرِمَن ، بالمُلكِ والمشيئة في هذا العالم حتى مجيء الملكوت في نهاية العالم ، وكأنَّ ليس لله على هذه الأرضِ مشيئة . وقد رَدَّ القرآنُ على هذا بقوله عز وجل : { **وهو الذي في السماء إلهٌ وفي الأرضِ إلـه** } (الزخرف : ٨٤). تجد أيضا في الأناجيل أثارةً من تعظيم إبليس في تسميته " رئيس هذا العالم " (يوحنا ١٤/ ٣٠ و ١٦ /١١) ، وفي الإشارة إليه بعبارة " سلطان الظُّلْمَة " (لوقا ٥٣/٢٢)، وهي قريبةٌ من وصف أهرمن روح الشر أمير الظلام .

أفاستَقَت الأناجيلُ من الأفَسْتا أم استقت الأفستا من الأناجيل؟ لا هذا ولا ذاك، بل شاعت في الناس فكرة " الخلاص المجاني" لا الخلاص بأيديهم هُمْ ، أي الخلاصُ بمُخَلِّص ، لا الخلاصُ بالإيمانِ والعمل الصالح .



ليس الخير والشر ذاتين حتى يَتجسَّدا في آلهةٍ أو غيرِ آلهة بينهما صراعٌ ونزال بل هما معا فعلُكَ أنت ، إن خيراً فخير وإن شَراً فشر . الخيرُ بالذات هو الإيمانُ والعملُ الصالح ، والشَّرُّ بالذات هو الكُفرانُ واجتراحُ السيئات . والصالحاتُ هي ما أُمِرْتَ بِهِ في وَحْيِ الله على رُسُله ، والسيئاتُ هي ما نَهاك عَنْهُ هذا الوحي . وليس بعدَ هذا في الحياةِ الآخرة إلا رِضوانُ اللهِ أو سَخَطُه .

وليس للشيطان صراعٌ مع الله عز وجل ، تعالى اللهُ عن ذلك عُلُواً كبيرا . وإنما صراعُ الشيطانِ معك أنت ، يُضلُّكَ عن سبيل الله ، فَيُعميك عن الحسنة ويُزَيِّنُ لَكَ السيئة ، حتى إذا قُضِيَ الأمر راح يُبكِّتُ أولياءَه الذين يُنْحون عليه باللائمة يومَ الحساب ، فيقولُ لهم ما قاله القرآنُ على لسانه : { **وقال الشيطانُ لما قُضِيَ الأمر إن الله وعدكم وَعدَ الحقِّ ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لي عليكم من سُلطانٍ إلا أن دَعَوْتُكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولُوموا أنفسكم ، ما أنا بمُصْرِخِكُم وما أنتم بمُصْرِخِيَّ ، إني كفرتُ بما أشركتمونِ من قبل ، إن الظالمين لهم عذابٌ أليم** } (إبراهيم : ٢٢)، يعني أنه كافرٌ بما أضَلَّهُم به ، يُنكِر أنْ يكونَ ثَمَّةَ إلهٌ مع الله . وكفى بهذا حسرةً وتحسيرا .

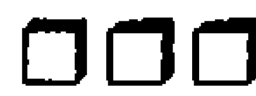
هذا الفكرُ الصبياني ، أعني تَصَوُّرُكَ اللهَ عز وجل طَرَفاً في صراعٍ أو نزالٍ بين الخير والشر ـ وإن جَمَّلَتْهُ الأفستا بانتصار الله ("هرمزدا " إله الخير) في نهاية العالم ـ فكرٌ مريض ، بل هو كفرٌ صَراح ، ليس لأن هذا العالم كما يراه المتفائلون خيرٌ كله أو كما يراه المتشائمون شرٌّ كله ، بحيث ينعدمُ التضادُ فيمتنعُ الصراع ، وإنما أصلا وبالذات لأن الفاعل الأوحد في هذا الكون كله ، النافذةَ فيه مشيئتُه ، هو اللهُ عز وجل وحدَه ، لَهُ الخلقُ والمُلْكُ والأمر ، لا يقع في ملكه شيءٌ دَقَّ أو عَظُم إلا بإذنه ، يعني بعلمه وتمكينه وإنفاذه ، إن شاءَ أمْضَى وإن شاءَ مَنَع ، لا حولَ ولا قوةَ إلا به .

أما أنه عز وجل لا حولَ ولا قوةَ إلا به، فهذا لأنه تبارك وتعالى هو المُخَوِّلُ المُمَكِّن ، لا يقعُ فعلٌ فى هذا العالم إلا بوسائطَ وأدوات هو خالقُها ومالكُها ومانحُها، يُؤتيها من يشاءُ من خلقه ويَنْزِعُها ممن يشاء ، حتى البصائر والجوارح .

وهى كما تعلم وسائطُ وأدوات مُسَخَّرَة ذلول بتمكين الله عز وجل إياك: لاتعصاك قدماك إن مشيتَ بهما إلى طاعةٍ أو معصية ، ولا تعصاك يَدٌ بطشْتَ بها باغياً أو مَددتَها لتُقيمَ مُعْوَجًا، ولا يمتنعُ عليك لسانٌ أسْكَتَّهُ أو أنطقَتهُ حقاً أو باطلا، ولا يمتنعُ عليك مالٌ وضعتَهُ فى معروفٍ أو وَلَغت به فى منكر، ولا يمتنعُ عليك سلطانٌ مُكِّنْتَ فيه أن تُسَخِّرَهُ فى إعلاءِ كلمةِ الحق والعدل أو تَعيث به فى الأرض فساداً تَرْكَبُ رِقابَ الناس ظُلْماً وعُلُواً. بل لا يمتنعُ عليك عقلُك إن استهديتَهُ فهداك أو استغويتَهُ فغواك ، ولا يمتنعُ عليك ضميرُك إن استيقظتَه فسَمعْتَ له وأطعت ولم تُحَكم فيكَ هواك . أنت ها هنا فاعلٌ مريدٌ ذو اختيار ، مُمَكَّنٌ فيما مَكَّنَكَ الله .

ولكن هذا كله ـ التمكين والإنفاذ ـ مُعَلَّقٌ بمشيئته عز وجل إن شاء أمضى وإن شاء منع : لا تتحقق للخلق فى هذا الكون مشيئةٌ إلا مشيئةٌ شاءَ لها اللهُ أن تتحقق ، يعنى لا يَخْرُجُ فِعْلُ الخلقِ من حَيِّزِ الفكر إلى حَيِّزِ التحقق إلا بإمضاءِ الله عز وجل ، على الوجه الذى أرادهُ تبارك وتعالى . وهذا هو الفَهْمُ الجيد لقوله عز وجل :{ **وما تشاءون إلا أن يشاء الله، إن الله كان عليما حكيما** } (الإنسان : ٣٠)، يعنى لا "يتشيَّأ" شيءٌ مما شِئتموه إلا بتشيئةِ اللهِ عز وجل إياه .

فهل بقيت للخلق فى هذا الكون إرادة؟ نعم، وبها وحدها أنت المحُاسَبُ المسئول : إرادةُ الخير الذى عَلَّمك الله فى وحيه على رسله، تُصرُّ عليه وتَبْذُلُ فى سبيله قُصارَى جهدِك، واتقاءُ الشرِّ الذى نُهيتَ عنه فى وحى الله على رسله، تَكُفُّ النفسَ عنه وتجاهدُه بما فى وُسْعِك. يعنى أن تكون جندياً لله عز وجل فى أرضه، تستهديه وتستعينه وتتوكل عليه. ولا عليك بما يُحْدِثُهُ اللهُ من بعد : شِئْتَ وشاء الله ، واللهُ عز وجل بالغُ أمْرِه .



وربما قال لك المُعاند : وهل بَقِيَ لى فعلٌ فى ظلِّ هذا القَهرِ العام ؟ فماذا لو أردتُ الخيرَ ولم يُرِد لى اللهُ أن أُريده ؟ ماذا لو أردتُ الهُدى وشاء لى الضلال ؟ بل ماذا لو أردتُ طاعتَه واجتنابَ معصيته وأراد هو لى عصيانَهُ والفُسوقَ عن أمره ؟ فهل لى من الأمرِ شىء ؟

هذا القائل يَغُشُّ نفسَه ، يجادلُكَ أنت بها ولا يجادلُ رَبَّه . فقد عَلِمَ هو من قبل أنه ما أراد الخيرَ قط واستعان اللهَ عليه إلا أعانه ، وما طَلَب الهُدى مخلصاً قط إلا ثَبَّتَ اللهُ عليه قلبَه ، وما دَخَل مخلصاً فى طاعةٍ قط فأخْرَجَهُ اللهُ منها إلى معصية .

إنما يقول هذا الذين يجترحون السيئاتِ بعد أن يجترحوها ، يُزَيِّنونَ لأنفسهم سيئاتِ ما عملوا . وهذا أقبحُ الفسوق والعصيان ، لأن قائله لا يكتفى بركوب المعصيةِ ولكنه أيضا يستزيدُ من الإثم فينسب الأمر بالمعصية لله عز وجل ، لا لنفسه وإبليسه . وهو افتراءٌ على الله عز وجل يُراد به معذرةُ إبليسَ وأولياءِ إبليس . بل هى نفسُها مقولةُ إبليس يوم فسق عن أمر ربه فى فتنة الأمر بالسجود لآدم فحَقَّت على إبليسَ اللعنة لمحض عصيانه ، لا لخطئه فى تفضيل نفسه على آدم ، فما كان الله ليحاسب أحداً من خلقه بضآلة علمه وكلال بصره ، وإنما هو يحاسبه بطاعته أو بعصيانه قال إبليس لما حَقَّت عليه اللعنة : { **قال رب بما أغويتنى لأُزَيِّنَنَّ لهم فى الأرض ولأُغْوِيَنَّهم أجمعين . إلا عبادَك منهم المُخْلَصين . قال هذا صراطٌ علىَّ مستقيم . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، إلا من اتبعك من الغاوين . وإن جهنَّمَ لموعدُهم أجمعين** } (الحجر : ٣٩ ــ ٤٢) . تجد إبليس هاهنا ينسب ضلالته إلى الله عز وجل ، يعنى أن الله كان يريد منه عصيانه فأغواهُ عن طاعته . ولو كان إبليسُ مصيباً فى قوله لكان مطيعا لله فى عصيانه ، وكأنه قيل له : آمُرك بالسجود يا إبليس فاعْصني ، أو اسجدْ يا أبليسُ ولا تسجد ، أىَّ الأمرينِ فعلت فأنت فى طاعتى ! وهذا هو العَتَهُ بعينه . وإلا لكان إبليسُ مستحقا ثوابَ الله بعصيانه، لا الطردَ واللعنَ والإياسَ من رحمة الله كما أخبر القرآن.

وقد عَلَّمك اللهُ من نبأ إبليس ليكشفَ لك أمره كى تتعظَ بمصيره إن كنتَ من عباد الله المُخْلَصين الذين ليس لإبليسَ عليهم سلطان ، لا لتُرَدِّدَ قوله وتحذو حذوه وتَأْتَمَّ به ، شأنَ الذين اتبعوه من الغاوين فكان موعدهم جهنمَ أجمعين ، يحملُ إبليسُ لواءهم إلى النار وبئس القرار .

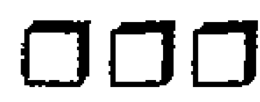
والذى ينبغى التنبيه إليه لا يُمَلُّ من ترديده ، أن الذين أكرمهم اللهُ بوحيه لا يَرَوْنَ الخيرَ خيراً لخيريَّةٍ فيه ، ولا يَرَوْنَ الشرَّ شراً لشَرِّيَّةٍ فيه ، وإنما الخيرُ بالذات صار عندهم خيراً لأنه المأمورُ به ، والشَّرُّ بالذات صار عندهم شَراً لأنه المَنهيُّ عنه . والله عز وجل عند هؤلاء مُؤْتَمَن، لا يأمرُهم إلا بما هو خيرٌ لهم ، ولا ينهاهم إلا عما هو شَرٌّ لهم: من هنا استقر عند الذين آمنوا حَقَّ الإيمان ، أى عباد الله المُخْلَصين الذين لا حيلةَ لإبليسَ معهم ، أن الخيرَ كُلَّ الخيرِ فى الطاعة ، وأن الشَّرَّ كُلَّ الشرِّ فى المعصية، قد سَلَّموا بقوله عز وجل : { **وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خيرٌ لكم وعسى أن تُحبُّوا شيئا وهو شَرٌّ لكم، والله يعلمُ وأنتم لا تعلمون** } (البقرة : ٢١٦). إنه إسلامُ الوجه لله ، تَصْدَعُ بأمره مُريداً غيرَ كارهٍ ، تستهديه وتستعينُه وتتوكل عليه. أولئك جُنْدُ الله قد اختاروا قائدهم .

هذا القائلُ "ليس لى من الأمر شىء" منافقٌ لا يعبدُ اللهَ مخلصاً له الدين . لو أراد الخيرَ لالْتَمَسه فى الطاعة ، ولو أطاعَ اللهَ حَقَّ طاعته يُسارِعُ فى أمره لأَمِنَ الضلالة ، فاللهُ عز وجل لا يخادِعُ الذين آمنوا به حَقَّ الإيمان ولا يُضِلُّ جُنْدَه ، ليس لأن الذى بيده ملكوتُ كل شىء لا يَمْلكُ الهُدى والضلال ، وإنما فحسب لوعده عز وجل : {**ويَزيدُ اللهُ الذين اهتدوا هُدَىً**} (مريم : ٧٦) ، وقوله عز وجل : {**والذين اهتدوا زادهم هُدَىً وآتاهم تقواهم** } (محمد : ١٧) . يعنى أن نقطة البداية هى الكفرُ أو الإيمان ، وهى لك وحدك لقوله عز وجل : { **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** } (الكهف : ٢٩) . وما بعدها مترتبٌ عليها ، الذين كفروا يَزيدُهم اللهُ ضلالاً إلى ضلالتهم : { **ولا يَزيدُ الكافرين كُفْرُهم إلا خَسارا** } (فاطر : ٣٩) {**فى قلوبهم مرضٌ فزادهم اللهُ مرضا**} (البقرة : ١٠)، والذين آمنوا يزيدهم الله هُدَىً إلى هُداهم كما مر بك . وهو عز وجل لا يزيدهم هُدَىً فحسب، وإنما هو أيضا "يُؤتيهم تقواهم" كما رأيت فى الآية ١٧ من سورة محمد ، أى يُسَلِّحُهم بما بِهِ يتقونَه، أى الإخبات والخشية ، لا يخشون إلا إياه ، ولا يتقون سواه ، فلا يَضِلُّوا من بعد .

هذا هو مقطع الفصل فى فهم قوله عز وجل : { **واعلموا أن الله يَحُولُ بين المرءِ وقلبه**} (الأنفال : ٢٤) ، { **من يَهْدِ اللهُ فهو المُهتَد ومن يُضلِلْ فلن تَجِدَ لَهُ وليّاً مُرشِدا** } (الكهف : ١٧) ، { **كذلك يُضِلُّ اللهُ من يشاء**

ويَهْدِي من يشاء } (المدثر : ٣١) وأمثالها فى كل القرآن ، الذى تشابَهَ على المتفلسفة وأهل الكلام فخاضوا ، وهو مقيدٌ بما تلوناه عليك آنفا ، مُفَسَّرٌ بقوله عز وجل : { **إن ربك هو أعلمُ بمن ضَلَّ عن سبيله وهو أعلمُ بالمهتدين** } (القلم : ٧) . وفى هذا القدر كفاية ، والحمد لله .

أما أنت بالذات أيها القائل "ليس لى من الأمر شىء" فأنت وما قُلْت : ليس لك من الأمر شىء ، إلا أن تَرْعَوِى فتندمَ وتتوب ، ليس لك إلا هذا ، وإلا فقد حَقَّت عليك الضلالة .



يترتب على ما تقدم أن إبليس ، أو الشيطان ، أو " أَهْرَمَن " ، أو ما شئْتَ من أسمائه ، لا فعْلَ له فى هذا العالم إلا ما استمهلَ اللهَ من أَجْله لا يَمْلكُ غيرَه ، أى الغوايةُ والإضلال ، لا سلطانَ له إلا على الذين اتبعوه ، فهو وهم فى سواءِ جهنم .

والذى ينبغى التنبيهُ إليه لا يُمَلُّ من ترديده ، الذى يَذْهَلُ الناسُ عنه فى خِضَمِّ هذه الحياة وصَخَبها ، أن هذه الدنيا ليست بدار شقاءٍ أو دارِ نعيم ، وإن شَقِىَ فيها بعضُ الناس أو نَعِمُوا ، وإنما هى "دار الفتنة" ، أى الاختبار والتمحيص ، كلهم مفتونٌ مُخْتَبَرٌ مُمَحَّص بما أَوْسَعَ لَهُ الله أو ضَيَّق ، رَفَعَهُ أو خَفَضَه ، عافاهُ أو أَسْقَمَه ، سَرَّهُ أو أَحْزَنَه ، أعطاهُ أو حَرَمه ، بَسَطَ لَهُ فى الرزق أو أمْسَك . ليس فى هذا أو ذاك خيرٌ أو شر ، فما جئْتَ هذه الدنيا لهذا أو ذاك، وإنما جِىءَ بك إليها لتُفْتَنَ بهذا أو ذاك فتخرج منها بما عَمِلْتَ فيها إلى دار البقاء . إن فَهِمْتَ الخيرَ والشر بمعنى النفع والضُّر فى هذه الدنيا فأنتَ مخطىء، إلا نفعٌ أو ضُرٌّ ينفعك أو يَضُرُّك فى دار البقاء.

على أن النفع والضر بمفاهيم هذه الدنيا هما أيضا بيد الله عز وجل : { **وإن يَمْسَسْكَ اللهُ بضُرٍ فلا كاشفَ له إلا هو ، وإن يُرِدْكَ بخيرٍ فلا راد لفضله** } (يونس : ١٠٧) . بل هما معا على سواء ابتلاءٌ من الله عز وجل : {**ونبلوكم بالشرِ والخير فتنة ، وإلينا ترجعون** } (الأنبياء : ٣٥) قد شَهِدَ كُلٌ على نفسه وقامت البينة : { **ليهلِكَ من هَلَكَ عن بينة ويحيى من حَىَّ عن بينةٍ** } (الأنفال : ٤٢) . يفتنُ اللهُ من شاء بالنعمة ، ويفتن من شاء بالنقمة، والمقصودُ فى الحالتين هو الفتنة ، أى الاختبارُ والتمحيص .

وهو عز وجل أيضا يَفْتِنُ بعضَ خلقه ببعض خلقه : فتنةُ القوى بالضعيف وفتنة الضعيف بالقوى ، فتنة العالم بالجاهل وفتنة الجاهل بالعالم ، فتنة المظلوم بالظالم وفتنة الظالم بالمظلوم ، وفتنة الذين آمنوا بالذين كفروا ، وفتنة بنى آدم بإبليس .

وينفرد إبليسُ فى هذه الحياة الدنيا من دون الخلق جميعا (ولا تنس أن إبليس خَلْقٌ من خَلْقِ الله) بأنه فاتنٌ غيرُ مفتون . فقد هَلَكَ إبليسُ من قبل فى فتنته بآدم يومَ فسق إبليس عن أمر ربه فتأبّى على السجود ، لا فتنةَ له من بعدها يُفْتَتَنُ بها ، فقد تَمَحَّصَ واختُبِرَ وحوكم وأُدين قضاءً غيرَ مردود ، لا يملك الإتيان بصالحةٍ تخفف عنه العذاب ، لأن الله عز وجل لا يُجرى الصالحات على يد كافرٍ مُصرٍ على عصيانه قد باء بالإثم الأكبر ـ عصيان الله عز وجل فى حَضْرَته كفاحاً دونَ وسيط [(١)] فلا تزيدُه فتنتُه الخَلْقَ فى هذه الدنيا إثما على إثمه ولا تزيده عذابا وهو محكومٌ عليه بأشدِّ العذاب . ما هو بنافعٍ أولياءَه وما هم بنافعيه ، بل هو وهم سواءٌ فى النار ، قد أرجأ اللهُ عذابَه إلى يومِ يُبعثون ، ليكون بعضَ أدواته عز وجل فى فتنة الخلق بالخلق اختباراً وتمحيصا . وقد تَمَنَّى إبليسُ على اللهَ هذه المهلة عالماً أنها لا تُجديه شيئا بعد ما حَقَّت عليه اللعنة التى لا فكاكَ منها ، وكأنه أراد ألا يَسْبِقَ أولياءَهُ إلى النار وإنما يدخلها مع الداخلين يحملُ لواءَ العُصاة ، فكان له ما تَمَنَّى . وقد كان اللهُ عز وجل ، فى تمحيص عباده بالخير والشر فى هذه الدنيا غنياً بالطبع عن هذا الدور الذى تمناه إبليس لنفسه ، فالله عز وجل قادرٌ على فتنة الخلق بما شاء وكيفما شاء ، وقد فَتَنَ إبليسَ نفسه بغير إبليس . ولكنه عز وجل ـ رحمةً بعباده ـ شاء أن يكون "رئيسُ فتنتهم" عدواً افتُضِحَ عندهم بعداوته لأبيهم آدم : { **يا بنى آدم لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطانُ كما أَخْرَجَ أَبويكم من الجنة** } (الأعراف : ٢٧) ، إضعافاً لكيده ، وفَضْحاً لفتنته، فَيُصموا الأُذُن عن وسواسه ، إلا الذين يختانون أنفسهم ، فلا عُذرَ لهم عند الله عز وجل بعدَ الوحيِ ولا معذرة .

إبليسُ فى هذه الدنيا كالذى مات فانقطع عمله ، مات يومَ لُعن . وإنما الذين يَسْتَحْيُونَهُ هم الطَّوَّافون على قبره ، المتعبِّدون فى ضريحه ، النافخون فى رَماده لتحرقَهُم ناره .



(١) " كفاحا" يعنى مواجهة ، ودون وسيط يعنى دون توسط مَلَكٍ أو نبى أو رسول ، فإبليس عَصَى وهو مُعاين ، لا يملك التعلل بتكذيبِ وسيط .

وإذا كان لا فعل لإبليس فى هذه الدنيا إلا الغواية والإضلال ، فهو أيضا فعلٌ غيرُ نافذٍ فيك إلا باستجابتك أنت إليه : { **وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى** } (إبراهيم : ٢٢) ، واستجابتُكَ هى فعلُك أنت ، لا وِزْرَ فيها على إبليس ، بل أنت بها وحدك المسئولُ المحاسب . لا تتمحَّك بإبليس وقد حَذَّرَكَ اللهُ منه ، ولَقَّنَكَ الاستعاذةَ بالله منه ، وعَلَّمَك اللهُ إنْ زَلَلْت فَضَلَلْتَ بإبليس كيف تستغفرُ وتتوب ، وسَنَّ لك العباداتِ التى تجعلك على ذكرٍ من رَبِّكَ لا يغيب ، فتأمن الفتنةَ والضلال ، وطَمْأنك بأنه لا سلطانَ لإبليسَ إلا على الذين يتولَّونَه ، لا سلطانَ له على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون : { **إنه ليس له سلطانٌ على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانُهُ على الذين يتولَّوْنَه والذين هم به مشركون** } (النحل : ٩٩ ـــ ١٠٠) .

هذا " الشِّرْك " المَعْنِيُّ فى الآية ١٠٠ من سورة النحل ، هو تعظيمُ إبليس ، اتقاءَ بأسه واستجداءَ رضاه ، الذى لا يَملكُ لك ولا لنفسه ضَرًّا أو نفعا ، إلا ما شاء الله الذى خلقك وخلق إبليس وخلق السموات والأرض وما فيهن من دابة ، فتترك تقوى الله إلى اتقاء إبليس، وتترك عبادة الله الواحد الأحد إلى عبادة إبليس الذى وضعه الله أسفل سافلين: أَهَنْتَ نفسَك فأهانَك الله، ومن يُهن اللهُ فما له من مُكرِم.

هذا "الشِّرْك" ـ الذى هو عبادةُ تلك المجوس أصحاب هرمزدا وأهرمن ـ هو أيضا شِرْكُ كلِّ مُتَقٍ غيرَ الله ، وكل متوسِّلٍ بغيرِ الله ، وكل متوكِّلٍ على غير الله ، إنه شِرْكُ الذى يدعو من دون الله ما لا يضر ولا ينفع، بل يدعو من ضَرُّه أقربُ من نفعه : { **يدعو من دون الله ما لا يضرُّهُ وما لاينفعه ذلك هو الضلالُ البعيد. يدعو لَمَنْ ضرُّهُ أقربُ من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير** } (الحج : ١٢ ـــ ١٣) .

ومن إعجاز القرآن فى بيان القرآن ـ بعد تسمية الفرق الست الباقية إلى يوم القيامة ـ تبكيتُه الذين يعبدون مع الله إلها آخر وكُلٌّ له ساجدون ، فيحصر معبوداتهم فى دائرةٍ لا يخرج عنها مَآلُوهٌ أَلَهُوه . قال عز وجل : { **إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شىء شهيد . ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات والأرض ، والشمس والقمر والنجوم ،**

والجبال والشجر والدواب ، وكثيرٌ من الناس ، وكثيرٌ حَقَّ عليه العذاب ، ومن يُهِنِ اللهُ فما له من مُكرِم ، إن الله يفعل ما يشاء } ‹الحج : ١٧ ـــ ١٨› . ترى فى هؤلاء الذين أهانهم الله ، عبدةَ الملائكة والأنبياء ، وعبدةَ إبليس ، وعبدةَ الشمس والقمر ، وعبدةَ النجوم والكواكب ، وعبدةَ الصخر والجبلِ والشجر ، وعبدةَ البقرِ والبهائم ، وكُلٌّ له داخرون .



مر بك أن عبادة المجوس هى التردُّد على إلهين ، هرمزدا وأهرمن ، يغدو المجوسىُّ عليهما ويروح ، فهو "الجائس" ، من جاس / يجوس / جَوْساً وجَوَسانا ، يعنى الذاهب الجائى . وهو أيضا "مجوس" بِهِ على المفعولية ، لأن جَوَسانَهُ ما بين هرمزدا وأهرمن إنما كان بتلبيس إبليس ، فهو فى هذا الجَوَسانِ ملبوسٌ لُبِّسَ عليه ، كما يقال "مسعود" والمراد سعيد . ولكن العرب لم تنظر إلى هذا المعنى حين أَسْمَت المجوسَ مجوسا ، وإنما أسمتهم باسم كاهنهم ، "ماجوس" الفارسية ، لا تدرى أصلَ معناها فى لغة الفرس ، وهو ذو الحول والحيلة كما مر بك ، تُريد عَبَدة النيران ، لا علِمَ للعرب بما وراءِ هذه العبادة .

ولأن "المجوس" ليست من مُعَرَّبات القرآن ، بل نزل القرآنُ وهى من مُعَرَّبات العرب أنفسهم ، تواضعوا عليها فى تسمية جيرانهم الفرس عَبَدة النيران ، فلا تَصِحُّ نسبتُها إلى القرآن حتى يقال انها جاءت فيهُ مفَسَّرَةً بالتعريب ، بل لا يصح هذا أصلا لأننا كما تعلم اشترطنا فى التفسير بالتعريب اتحاد الجذر فى اللفظ والمعنى بين لغتين من ذات الفصيلة اللغوية كالذى بين اللغات الساميَّة ، وليست الفارسية منها حتى يقال ان الجوس والجوسان ـ إشارةٌ إلى تَرَدُّدِ المجوسى أو جَوسانه بين هرمزدا وأهرمن ـ تَصِحُّ مقابلا للفظة "ماجوس" الفارسيةَ التى معناها ذو الحَول والحيلة . بل لم يُرِدِ العربُ هذا حين قالوه ، فضلا عن أنهم لم يريدوا بها " ماجوس " واحد كهنوت المجوس كما يقول الفرس ، وإنما أرادوا بها أهلَ الملة جميعا كهنوتاً وغير كهنوت .

اللفظةُ إذن من مُواضَعَات العربِ أنفسهم ،استقرَّ معناها عندهم على ما وضعوها له قبل نزول القرآن بأكثر من ثلاثةِ قرون ، لا تَعْتَجِمُ عليهم . وما كان القرآنُ ليفسِّرَها لهم بأصل معناها فى لغة الفرس ـ الحول والحيلة ـ وقد نقل العربُ هذا اللفظ

عن أصل معناه عند أصحابه . لهذا لم يُفَسِّرِ القرآنُ لفظة " المجوس " بأيٍ من أدواتِ التفسير المُعَوَّلِ عليها عندنا فى منهج هذا الكتاب .

ولكن القرآن المعجز لم يَفُتْهُ أن يقول لك من هم المجوس بمحض عبادتهم ، فخاطبهم بقوله : { **وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ، إنما هو إلهٌ واحد ، فإيَّاىَ فارهبون** } (النحل : ٥١) . والمخاطَبُ ها هنا هم المجوس بلا مراء ، فلا ثَنَوِيَّةَ إلا المجوس ، وسبحان علام الغيوب .

(٦١) الروم

وردت الروم مرة واحدة فحسب فى كل القرآن ، فى سورة افتتحت بهم فسميت باسمهم "الروم" . قال عز وجل : { **الم. غُلِبَتَ الروم. فى أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبِهم سَيَغْلِبُون. فى بضع سنين لله الأمرُ من قبل ومن بعد ويومئذٍ يفرحُ المؤمنون . بنصر الله ينصرُ من يشاءُ وهو العزيزُ الرحيم . وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَه ، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون** } (الروم: ١ ــ ٦) .

وهذه الآياتُ الست كما سترى، من فرائد إعجازات القرآن فى نبوءات القرآن.

ولكن علماء القرآن الذين طالما استدلوا بهذه الآيات على إعجاز القرآن فى نبوءات القرآن ، لم يُوَفُّوا هذه الآياتِ حَقَّها من الإعجاز ، لأنهم تابَعُوا قُدامَى المفسرين (راجع تفسير القرطبى لهذه الآيات من سورة الروم) الذين احتفلوا لتحقق النبوءة بانتصار الروم فى بضع سنين من نزول الآيات ـ والبِضْعُ هو من الثلاثة إلى ما دون العشرة ، وقد تحققت النبوءةُ بالفعل ، فتوقفوا عند هذا ولم يلتفتوا إلى أن الآيات لا تَحْتَفِلُ لانتصارِ الروم من بعدِ هزيمتهم ، فلله الأمرُ من قبلُ ومن بعد ، ولكنها تُوَقِّتُ للمسلمين يومَ انتصارهم فى بدر ، يومَ ينصرُ اللهُ المؤمنين فيفرحون بنصره ، ينصرُ من يشاءُ وهو العزيزُ الرحيم .



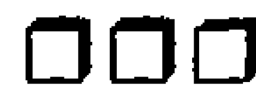
أما " الروم " المعنيون فى الآيات ، فهم الروم البيزنطيون ، أصحاب القسطنطينية (استانبول من بعد أو الآستانة) ، الناطقون باليونانية ، لا الرومُ الغربيون ، أصحابُ روما ، الناطقون باللاتينية . فقد انهارت امبراطورية الروم الغربية نهائياً بسقوط روما فى أيدى القوط عام ٤٧٦ م ، ولم يَعُد من "الروم" عصرَ نزول القرآن مطلعَ القرن السابع الميلادى سوى رومُ المشرق ، أعنى روم "بيزنطة" التى وَرِثَت

مجدَ روما القديم وخَلَفَتْها على أقاليمها فى مصرَ والشام ، بالإضافة إلى أراضيها الأصلية فى البَلقان ، وآسيا الصغرى (الأناضول) .

ولأن حكامَ بيزنطة كانوا سُلالَةً من قياصرةِ روما عند انقسام الإمبراطورية عام ٣٩٥ م إلى غربية فى روما وشرقية فى بيزنطة ، فقد تَسَمَّى الملوكُ البيزنطيون أيضا باسم القياصرة (المأخوذ من اسم قيصر كما تعلم): قيصرُ فى روما وقيصرُ فى بيزنطة. وما أن سقطت روما فى أيدى القوط وآل فيها الحكمُ إلى أقوامٍ من غير الروم ، حتى بات قيصرُ بيزنطةَ وحدَه هو القيصر ، وباتت بيزنطة ، أو القسطنطينية ، الوريثَ الشرعيٌّ لمجدِ روما القديم . بل باتت بيزنطة هى"روما" ، ليس فقط فى أعين البيزنطيين أنفسهم، الذين لم يتردد بعضُهم فى إطلاق اسم روما مجازاً على عاصمتهم وإنما أيضا وبالأخص فى أعيُنِ أهل الأقاليم التابعة الذين لم يَرَوْا فى انتقال تبعيتهم من روما إلى بيزنطة سبباً يدفعهم إلى تعديل مُسَمَّى الدولة التى يخضعون لها : إنهم القيصرُ وولاةُ القيصر ، وهم أيضا "الروم" ، لاتينيين بالأمس أو بيزنطيين اليوم ، أصحابَ "روما الأولى" أو أصحاب "روما الثانية" . إنهم "الروم" فى كل حال .

لهذا كان العرب عصرَ نزول القرآن يقولون " الروم " يَعْنُون " اليونان" . بل مازلْت تسمعُ فى العربيةِ العامية لفظة " الرومى" فى موضع " اليونانى" . بل لم تعرف العربية الفصحى " اليونان " واليونانى إلا منذ العصر العباسى فى سياق ترجمات فلاسفة "اليونان" إلى العربية . على أن العرب كانوا يتوسعون فيطلقون اسم "الروم" على سكان شمالى البحر الأبيض المتوسط (بحر " الروم " عند قدامى الجغرافيين العرب) ، فهم إذن الأوروبيون بوجهٍ عام .

ورغم ذلك كله ، فإن لفظة "الروم" هى فى أَصْلِها نِسْبَة إلى "روما" بلا جدال، سواءً أردت روما التى فى إيطاليا ، أو "روما " الثانية التى على ضفاف البُسفور، أى بيزنطة المعنيةَ فى الآيات . ويتعين من ثم عند التماس التفسير القرآنى للفظة "الروم" على منهجنا فى هذا الكتاب التماس معنى "روما" هذه فى لغة أهلها ، وسيأتى .



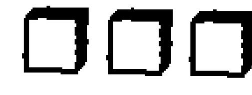
أما الطَّرَفُ الآخر فى "المغالبةُ" المشار إليها فى الآيات فهم الفرس ، الذين لم تُسَمِّهم الآيات ، اكتفاءً بذكر عدوهم اللدود الغالب يومَ يفرحُ المؤمنون بنصر الله، ولاستفاضة شُهْرَةِ هذا الصراع الأزلى بين قُطْبَى العالم القديم: كسرى وقيصر.

كـانت الحـرب بين هاتين الدولتين سجـالاً بين كسـرى وقـيـصـر ، يُدال مـن الروم للفرس ليُدالَ من الفرسِ للروم ، فى صراعٍ طال أمده ، منذ بدأ اليونانُ يُنازِعون الفرس ـ وَرَثَة بابلَ وآشورَ ومصر ـ سلطانَهُم فى هذا الشرق الأدنى القديم . استـمر الصراعُ ـ جولةً هنا وجولةً هناك ـ منذ غارة الاسكندر فى الربع الأول من القرن الرابع قبل الميلاد نحو ألف سنة حتى أواسط القرن السابع الميلادى ، حيث أنْهَى "المؤمنون" الذين تتحدث عنهم الآيات هذا الصـراع بقـضـائهم قـضـاءً باتًّاً على دولة الفـرس ، وطَرْدهم الرومَ البيزنطيين ، طرداً باتًّاً أيضا ،من مصر والشام ، ليغزوهم من بعد فى آسيا الصغرى ويناجزوهم حتى أبواب القسطنطينية ، لينفردوا وحدَهم بالسيادة المطلقة على أراضى طَرَفَى النزاعِ معاً فى هذه المنطقة من العالم .

كـان هذا الصـراع بين الفـرس والروم ، يَقْتُلُ بعـضُهم بعـضـا ويُثْخِنُ بعـضُهم فى بعض ، الذى طال أمدُه حتى شَهِدَ مبعث خاتم النبيين ، مقدمةً ضرورية لهزيمتهما معا فى وقت واحد ، على أيدى "حفنَة" من العرب يَقِلُّونَ عنهما عدداً وعُدَّةً بما لا يُقاس ، فيفعلون بالفرس فى سنين قلائل ما لم يستطعه الرومُ فى ألف سنة ، ولا يكتفون بهذا وإنما يفـعلون بالروم ـ أيضـا وفى نفس الوقت ـ هذا الذى طالما تمناه الفـرسُ ولم يتـحقق لهم : القضاءُ الباتُّ على أطماعِ الرومِ فى الشرق الأدنى كله وحصارهم فى عقْرِ دارِهم لا يخرجون منه إلا مناوشاتٍ لا طائلَ من ورائها . ورغم هذا كله ، فـأنت بإزاء معـجزةٍ فَذَّة من مـعـجزات التـاريخ ، لا تَمْلكُ أن تَغْمطَ أولئك الرجالَ الذين صَدَقُوا ما عـاهدوا اللهَ عليه أقدارَهم. كانوا رجالاً أفذاذاً لم يشهد التاريخُ أمثالَهم من قبلُ ومن بعد.

وتستـطيع أن تقول أيضـا ـ من الناحيـة الاسـتـراتيـجيـة البحت ـ ان كَرَّةَ الرومِ على الفرس كما تنبأت الآيات ، أى عـودتَهُم إلى اقتطاع سورية وفلسطين ومصر من نفوذ فارس، أعنى عودةَ الدولتين إلى تقاسُم السيادة على أرض الشرق الأدنى القديم، العراقُ فى أيدى الفرس ، ومصرُ والشام فى أيدى الروم ، هَيَّأَت مسرحَ الصراع المقبل بينهما وبين العرب ، تهيئةً مُواتيـةً للذين آمنوا ، أَفْضَلَ بما لا يُقاس مما لو بقى الفرسُ فى مواقعهم بمصرَ والشام يومَ بَدَأَ الفتحُ العربى لهذه الأقطار ، يُغالبون الفرسَ وحدهم عليها . كان العرب عندئذ ـ لو بقى الفرس فى مصر والشام ـ سيلاقون عدواً واحداً متماسكاً متراصًّا ، تخضعُ جيوشُهُ لقيادةٍ فارسيةٍ مُوَحَدَة فى كل من العراق والشام ومصر ، لا عَدُوَّيْنِ متناحرَيْنِ يتربص كُلٌّ منهما بالآخر ـ الفرس والروم ـ لا يأبَهُ أىٌّ منهما بانتصار العرب على خصمه اللدود ، ناهيك بالشماتة والاشتفاء .

وإلى هذا تُشير الآياتُ بقوله عز وجل : "للهِ الأمرُ من قبلُ ومن بعد"، أى كانت هزيمةُ الروم أمام الفرس ، لينتصر الروم من بعد عليهم ، بقضاء منه عز وجل وتدبير ، لأمر هو بالغه ، والله بالغ أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .



والذى غفل عنه أكثر من تكلموا فى تفسير هذه الآيات فلم يوفقوا إلى فهمها على وجهها ، أن " النصر" فى اللغة هو العون والمظاهرة والتأييد ، ليس هو بذاته كما يظن الأكثرون الفوز والفتح والغلب ، وإنما هو العون والتأييد المؤديان إلى الفوز والغلب . ومن هنا تفهم عبارة "نصر الله" حيثما وقعت فى كل القرآن بمعنى تَدَخُّله عز وجل بِمَدَدٍ من عنده ، ملائكة وغير ملائكة ، لنُصرة فريق وتخذيلِ فريق ، فتنقلب على الفور موازينُ القوى لصالح الفريق الذى "نصره الله" ، يعنى أَيَدَهُ وأَعانَه ، فينتصر الذين كان نصرُ الله فى مَعِيَّتهم ليكونوا هم الغالبين .

ومن دقيق القرآن أنه حين تحدث عما كان بين الفرس والروم: { **الم . غُلِبَت الرومُ. فى أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبِهِم سَيَغْلِبون. فى بضع سنين...** } (الروم: ١ ـــ ٤) استخدم مادة "غَلَبَ" ولم يستخدم مادة "نصر" ، لأن الغَلَبَ هنا وهناك كان بأمر الله ، أى بقضائه وتدبيره : { **لله الأمر من قبل ومن بعد** } (الروم: ٤) ، ولم يكن بانتصاره عز وجل لفريقٍ على فريق، أى بتدخُّله عز وجل لصالح فريقٍ ضد فريق ، بِمَدَدٍ من عنده ، ملائكةً وغيرِ ملائكة . وإلا لَقُلْتَ ان الله كان مع الفرس يوم غلبوا الروم ، يعنى كان راضياً عن الفرس ساخطاً على الروم ، ثم سَخِطَ على الفرس ورَضِيَ عن الروم فانتصر للرومِ عليهم . ولا يصح هذا لأن الله عز وجل لا يجوز عليه البَداء ، "يَبْدُو" لَهُ الأمر فَيُمْضيه ، ويَبْدُو لَهُ العكسُ من بعد فَيُمضيه ، إن صح هذا فى البشر ـ وهو مذمومٌ لأنه تَذَبْذُبٌ بين النقيض ونقيضه ـ فهو مُحال فى حَقِّ العزيزِ الحكيم . وقد كان الفرسُ مجوساً يوم كانت الكَرَّةُ لهم ، وكانوا مجوساً أيضاً يوم كانت الكَرَّةُ عليهم . وكان الرومُ أيضا أهلَ كتابٍ يوم غَلَبَهُم الفرسُ المجوس ، وبقوا أهلَ كتاب يوم أُديلَ لهم من الفرس . أما حين تحدثت الآيات عن "نصر الله" فهى تُريدُ انتصارَ الله عز وجل للمؤمنين الذين يَفْرَحُونَ بنصره . والمؤمنون كما مر بك فى مبحث "الصابئين" اصطلاحٌ قرآنى يُراد منه "المسلمون" أهل القرآن لا أهل الكتاب . وإنما ينتصر الله عز وجل لجنده فحسب ، أى للذين آمنوا.

والأصل فى هذا أن الله عز وجل الذى لا ينصر باطلاً على حق ، لا ينصر باطلاً على باطل ، وإنما هو ينتصر فحسب للحق على الباطل : { **بل نقذف بالحق على الباطل فَيَدْمغه فإذا هو زاهق** } (الأنبياء : ١٨) . يعنى لا يتعلق "نصر الله" حين ينسب الله النصر إليه تبارك وتعالى إلا بانتصاره عز وجل لجند هو قائدهم ، أى بانتصارهِ للذين آمنوا . وقد انتصر الفرس من قبل ، فلا يقال اللهُ نَصَرَهم ، وانتصر الروم من بعد ، فلا يقال قد نَصَرَهم اللهُ على الفرس ، وإنما يقال ـ فى المرتين ـ الذى قالته الآيات : { **لله الأمْر من قبلُ ومن بعد** } (الروم : ٤) . لم ينهزم الفرس لأنهم مجوس أصحابُ هُرْمَزْدا وأَهْرِمَن ، ولم ينتصر الروم لأنهم نَصارى أهل كتاب يربُبُونَ المسيحَ وجبريل ، فالكُفر كما تعلم مِلَّةٌ واحدة ، وكلتا العبادتين عند الله باطل. وليس الباطل عند الله درجات بعضها دون بعض ، بل الكُلُّ باطل ، لا "يُؤازرُهُ" اللهُ بنصره ، وإنما "يَقْضِيَ" فيه قضاءه .

هذا من جهة ، ومن جهةٍ أخرى فليس أهلُ الكتاب ـ يهودَ ونَصارى ـ بأولياءَ للذين آمنوا حتى يفرح المؤمنون ـ كما تنبأت الآيات ـ بنصر الله يوم ينتصر الروم على الفرس المجوس كما تَوَهَّم المفسرون . بل قد نهى الله الذين آمنوا عن تَوَلِّيهم : { **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضُهم أولياء بعض ومن يَتَوَلَّهم منكم فإنه منهم إن الله لا يَهدى القومَ الظالمين** } (المائدة : ٥١)، يُبَيِّنُ لك عز وجل عِلَّةَ النهى عن تَوَلِّيهم ، أى لأنَّهم أولياءُ بعض ، يعنى أولياءُ بعض عليك ، لا تستنصر بإحدى الطائفتين على أختها ، ولا تستنصر بطائفةٍ منهما على عَدُوٍ لك ، فلن يَصْدُقُوك الولاية ، بل هم مَعَاً عليك ، لا يَألُونَك خَبالاً . ومن يَتَوَلَّهُم فقد ظَلَم ، لأنه صار فى مَعِيَّتِهم وبات منهم ، فلا يَهديهِ اللهُ سبيلا، واللهُ لا يَهدى الظالمين .

هذا النهى عن تَوَلِّى أهلِ الكتاب من إعجاز القرآن فى توجيهات القرآن ، فلم يَعْرِف التاريخُ قديمَه وحديثَه ـ بل وحديثَهُ بالذات ـ موقفا انتصر فيه أهلُ الكتاب للمسلمين على عَدُوِّهم ، وإنما هم ينتصرون لعَدُوِّ المسلمين عليهم ، أو ينتصرون لبعض المسلمين على بعض نكايةً فيهمُ جميعا ، وإذكاءً للفُرقة بينهم ، ليفشلوا وتذهبَ ريحُهم وأنت تعلم بالطبع أن توجيهاتِ القرآن للذين آمنوا توجيهاتٌ عاملة ، ماضٍ فيهم حُكمُها إلى يومِ القيامة ، لا تَخُصُّ عصرَ التنزيل فحسب ، بل انطباقُها على هذا العصر أظهرُ وأَبيَن.

لن أذهبَ بك بعيدا ، فعندك من هذا فى الانتصار لعدو المسلمين عليهم ، مَثَلُ فلسطين . وعندك من هذا فى الانتصار لبعض المسلمين على بعض ، مَثَلُ حرب البَسوس بين العراق وإيران . وعندك من هذا فى التحريش بين المسلمين ثم التحريق عليهم . مَثَلُ حربِ النفط فى الخليج التى أتت على الأخضرِ واليابس فى أرض المُستغيث والمُستغاث منهُ على السواء . المستجيرُ بهم كالمستجير من الرمضاء بالنار، تحرقُك كما تَحرقُ أخَاكَ المسلم الذى استنصرتَ بهم عليه، حليف الأمس وحليف اليوم، لا يَرْعَوْنَ فيهما إلاً ولا ذمة ، فلا يُبالون أين يَصُبُّونَ نيرانهم هنا أو هناك ، يُتَبرون ما عَلَواْ تتبيرا ، فينسفون الفريقين نسفاً ويدَمرون عليهم . وتدفع أنت [(١)] ثمن هذه النيران التى أحرقوا بها دارك ودار أخيك، وتدفع له أيضا أَجْر تعمير ما خربوه بأيديهم، بل وتدفع أيضا نفقات جيش الاحتلال الذى استدعيتَه ليفصلَ بينك وبين أخيك ، فما جاءوا لتحرير الكويت كما قد تظن أو لصدّ العراق ، فقد استنفدوا أغراضَ التفويض الذى استصدروه لأنفسهم بتحرير الكويت وتجاوزوه إلى تركيع العراق ، ومازالت قواتٌ لهم ماضيةٌ فى احتلال العراق ونحن نكتب ما نكتب ، بحجة تأمين جيشهم فى جنوبى العراق ، وما خَفِيَ كان أعظم ، وإن كان قد بَرِحَ الخَفاء . وليس بعدَ هذا غَفْلَة . ولولا أن نخرجَ عن مقاصد هذا الكتاب لزدناك [(٢)] .

وليست آفَةُ المسلمين اليوم أنهم تَشَرْذَموا دولا ، فالقرآنُ لم يستبعد هذا ولم يُؤَثمه ، لقوله عز وجل : { **وإن طائفتانِ من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخْوة ، فأصلحوا بين أخَويكم ، واتقوا الله لعلكم تُرحمون** } (الحجرات : ٩ ــ ١٠) . افترضَ القرآنُ فى "أخوةٌ المؤمنين" انقسامهم طوائف ، يعنى دُولا ، وافترض فى هذه الدول قتالاً بين دولة ودولة ، كما حدث بين العراق وإيران ، ثم بين العراق والكويت ، وافترض فيهم أيضاً باغيا ومَبْغيًا عليه . ولكنه افترض قبل هذا وذاك وجود "الجماعة" التى تنتصر للمَبْغى عليه وتَرُدُّ بالقسط والعدل على الباغى، أى "الجماعة" المأمورة فى هاتين الآيتين

(١) " أنت " فى هذه الفقرة وما بعدها هم أنا وأنت وهو ، أى المسلمون أجمع .

(٢) نكتب هذه الفقرة فى استقبال شهر رمضان سنة ١٤١١ هـ (١٩٩١/٣/١٦م) ولم تنته فصول المأساة بعد .

بإقامة القسط والعدل . التى تحمل غيرها على الفَيْء إلى أمر الله . وقد غابت هذه "الجماعة" كما تعلم فى حرب العراق وإيران ، بل قد ظَاهَرَ مسلمونَ لا تَشُكُّ فى إسلامهم هذا العراق الباغى على إيران ، معتلين بشعوبيةٍ جاهلية تَقْسِمُ المسلمينَ إلى عربٍ وأعاجم، قد نسُوا قولَه عز وجل آنفا "إنما المؤمنون إخْوة فأصلحُوا بين أخَوَيْكُم"، لا فَرْقَ فى هذه الأخُوَّة بين مسلمٍ ومسلم ، بل الكُلُّ فى "أخُوَّة المؤمنين" سواء . وما أسرع ما استدار الباغى على حلفاءِ الأمس ، فَحَسْبُكَ اللهُ ونِعْمَ الوكيل .

وإنما صار المسلمون اليوم إلى ما صاروا إليه لفقدانهم الإحساسَ بأنهم وحدهم من دون الخلق " أمّة " ، الجامعُ بينهم هو الإسلامُ وحده .

وليس الإسلامُ شَعاراتٍ وبطاقاتِ هُويَّة ، ولكنه تحكيمُ القرآنِ والسنة فى كل شأنٍ من شؤون حياتك ، لا تأخذُ نتَفاً من هنا ونتفاً من هناك ـ كالذين يكتفون بإقامة الحدود وتغليظ الحجاب على استحياءٍ فى هذا وذاك ـ وإنما هو أولا وبالأخص تحكيمُ القرآنِ والسنة تحكيماً باتاً فى"القرار السياسى" الذى يُحَدِّد مَسارَ المجتمعِ وغاياتِه وأهدافَه ، ويُحَدِّدُ ولاءاته وانتماءاته .

الذى يُؤَثِّمُهُ القرآن هو غيابُ هذه " الجماعة " المأمورة وحدَها فى هاتين الآيتين بإقامة القسط والعدل ، العاملة بأمر الله فى مجتمعاتها ، تَعْرِفُ ماهو ، فتحملُ غيرَها من المجتمعات المسلمة على أن " تَفِيءَ إلى أمر الله " .

ولم تَعُد فى المسلمين اليوم " الجماعةُ " المُؤَهَّلَةُ لهذا الدور ، لأنه لم يَعُد فى المجتمعات المسلمة اليوم مجتمعٌ واحد يحْكُمُ حقا وصدقا بالكتاب والسنة ، يعنى أولاً وآخراً يُحَكِّمُ القرآنَ والسنة فى " قراره السياسى" داخلَ المجتمع المسلم وخارِجَه ، ناهيك بمن يَرْجُمُون الداعين إلى هذا أو يَصِمُونَهم بالرجعيةِ والتخلف .

الذين لا يرتضون تحكيمَ الكتاب والسنة فى أنفسهم بحجةِ أن الاحتكامَ إلى الكتابِ والسنة رجعيةٌ وتَخَلُّف ، لا يُقْبَلُ منهم التصدى للكلام بالإسلام فى نزاعٍ كلا طَرَفَيْه مسْلم. وإنما يحتكم المسلمون اليوم فى أنْزَعتهم إلى بطانةٍ من غيرهم لا يَألُونَهُمْ خَبالاً ، قد نبذوا من القرآن ـ فيما نبذوا ـ قولَهُ عز وجل : { **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودُّوا ما عَنِتُّم ، قد بَدَت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورُهم أكبر ، قد بَيَّنَّا لكم الآيات**

إن كنتم تعقلون . ها أنتم أولاء تحبونهم ، ولا يُحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لَقُوكم قالوا آمنا ، وإذا خَلَوْا عضوا عليكم الأناملَ من الغيظ، قل موتوا بغيظكم ، إن الله عليمٌ بذاتِ الصدور. إن تَمْسَسْكُم حسنةٌ تَسُؤْهُم ، وإن تُصِبْكُم سيئةٌ يفرحوا بها ، وإن تَصْبِروا وتَتَقُوا لا يَضُرُّكُم كيدُهم شيئا ، إن الله بما يعملون محيط } (آل عمران : ١١٨ ـــ ١٢٠) .

هذه البطانة ، الذين لا يَأْلُونَك خَبالا ، الذين تحُبُّهم ولا يُحبُّونَك ، الذين إنْ تَمْسَسْكَ حسنةٌ تَسُؤْهُم وإن تُصبْكَ سيئةٌ يفرحوا بها ـ إن لم يكونوا هم الساعين فيها المُعينينَ عليها ـ الذين لا يَوَدُّونَ إلا إعناتَكَ وتعنيتَك ، هم هؤلاء الأوروبيون ـ الأمريكيون شرقاً وغَرْبا ، ورثةُ الروم الذين فى القرآن بالدَّمِ والفكرِ والتَّوَجُّه جميعا . شَهدت هذا فى مواطأتهم إسرائيلَ عليك ، وما زلت تشهدُه ، ولن تزال . حتى تواضَعت أحلامُك فبات منتهى أملك وقد سَلَّمتَهُم أمرك أن يَردُّوا عليك جُزءاً فحسب من فلسطين التى غَصَبُوكَ عليها ، مُتَشفِّعاً لديهم بتلك " الشَّرْعَة الدولية " التى أَعْمَلُوها فيك بهمة لا تَعْدلُها همَّة يومَ تَداعَوْا عليك فى الخليج كما تَتَداعى الأَكَلَةُ إلى قَصعتها (١) . وهيهات هيهات . إنها شرْعَتُهم هم ، ليس لكَ فيها نصيب . ما زلتَ تَحْلُمُ حتى تُفيقَ . ولن تُفيقَ حتى يَرُدَّ اللهُ عليكَ بصرك . ولن يَرُدَّ اللهُ عليكَ بصرك حتى تَفيءَ إلى إسلامك ، أى تَفيءَ إلى " أمرِ الله " ، وإلا فما أنت بمسلم .

وإذْ لم تَعْد مسلماً إلا شَعارات وبطاقات هُويَّة ، فانتصرْ بمن شئتَ وما تشاء . قد خَلَّى اللهُ بينك وبين قوانين النصر والهزيمة ، تفعلُ فيك فعلَها ، لا يُؤازِرُكَ بنصره . وليتك وقد خُلِّيتَ لما اخترت ، تعمل فى إطار هذه القوانين فتتلمس أسبابَ النصر والغَلَبَة ، ولكنك لا تُقلِّدَ غالبيك الذين فُتِنْتَ بهم إلا فى هزلهم ولَهْوِهم ومباذلِهم ، لا شأنَ لك بجِدهم وعلمهم وصنائعهم .

قال عز وجل: {**وكان حقاً علينا نصرُ المؤمنين**} (الروم : ٤٧)، أى قد تَكَفَّلَ اللهُ بنصر الذين آمنوا حقا وصدقا فعملوا بإيمانهم. أما أنت فقد أسْلَمْتَ ولم تُؤمن.

(١) كما تنبأ صلى الله عليه وسلم . والحديث بتمامه : يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة الى قصعتها (أى كأنكم وليمة يدعو بعضهم بعضا عليها) . قالوا أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال لا. بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم كغثاء السيل" (يعنى كثير لا خير فيه). ولو رأيت احتشادهم عليك فى الخليج حتى حثالتهم وأراذلهم لما حسبت هذا الحديث إلا فيه.

وإذا كان الله عز وجل لا ينصر المسلمين اليوم لأنهم فحسب يخالفون عن أمره ، فما ظَنُّكَ بِمَن تَوهَّم أن الله كان فى نصرِ نصارى الروم على مجوس الفرس، وكلا الفريقين من غيرِ جُنْدِهِ؟ قد قالت الفرس هُرْمَزْدا و أَهْرِمَن، وقالت الروم آبٌ وابنٌ ومَلَك.

لم ينتصر اللهُ للفرس على الروم يوم كانت الغَلَبة للفرس ، ولم ينتصر أيضا للروم يوم تحققت نبوءة القرآن بكرة الروم عليهم . ولكنه عز وجل ـ فى المرتين ـ أعمل فى كلا الفريقين قوانين النصر والهزيمة ، فانتصر الذى اتخذ للنصر عدته ، وانخذل الذى قصر وتوانى. أى أنه عز وجل خلى بين الفريقين وبين تلك القوانين ، ولم "يتدخل" لنصرة فريق على فريق ، فيقلب موازين القوى لصالح أولئك الذين كان نصره فى معيتهم ، كما فعل مع المسلمين فى " بدر" .



بل إن الله عز وجل الذى نصر المسلمين فى بدر وهم أَذَلّة : { **ولقد نصركم الله ببدرٍ وأنتم أذلةٌ** } (آل عمران : ١٢٣) يعنى وهم مستضْعَفونَ لا يملكون من أسباب الفوز إلا هذا الإيمان الذى استحقوا به " نصر الله " على عدو يتفوق عليهم بالعدد والعدة ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ـ القادر عليها فى كل حين ـ لم ينصر هؤلاء المسلمين أنفسهم يوم أحد ، وفيهم رسول الله ، بل خلى بينهم وبين قوانين النصر والهزيمة ، لا لشيء إلا لأن فريقا منهم ـ والمعركة دائرة وبوادر النصر تلوح ـ أطمعتهم الغنائم : { **منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة** } (آل عمران : ١٥٢) فتركوا مواقعهم وخالفوا عن أمر رسول الله ، وكانت العاقبة التى تعلم : { **إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون** } (آل عمران : ١٥٣) . قال عز وجل فى أولئك الذين كانوا يوم أحد سببا فى هزيمة جند الله وجند رسوله : { **إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا، ولقد عفا الله عنهم، إن الله غفور حليم** } (آل عمران : ١٥٥) . وإنما وسعهم حلم الله وغفرانه رحمة

منه عز وجل فلم يهلكهم بذنبهم ، بل استتابهم من زلتهم، لا يعصون نبيهم من بعد. وكانت " أحد " هي الموعظة والعبرة .

قال عز وجل يحذر الذين يخالفون عن أمر رسول الله الذى هو أمره تبارك وتعالى: { **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** } (النور : ٦٣) .

والذى حدث فى " حنين " قريب من هذا وإن اختلف السبب : كانت الهزيمة فى أحد عاقبة العصيان ، أى عاقبة المخالفة عن أمر رسول الله ، وكانت الكَسْرَةُ الأولى فى حُنَيْن عاقبة الاستنصار بغير الله ، أى الاستنصارِ بالعَدَد والعُدَّة ، قالوا : لن نُغْلَب اليوم من قِلَّة ! يعنى أنهم فى كثرةٍ من العَدَدِ ووفرة من العُدَّة ، لا يحتاجون إلى مَدَدٍ من الله . فحجب اللهُ عنهم نصره وخَلَّى بينهم وبين قوانين النصر والهزيمة ، لأنه عز وجل غَنِيٌّ عمن استغنى بنفسه . ولكنه لَقَّنَهُم بها درساً لا يَنْسَوْنَه من بعد .

قال عز وجل يذكِّرُ بنصره الذين آمنوا إذ هم مستنصرونَ به ، ويُبَكِّتُهم بخُذلانِه إياهُم يومَ استغنوا بأنفسهم : { **لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويومَ حنين إذ أعجبتكم كثْرَتُكم فلم تُغْنِ عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرضُ بما رَحُبَت ثم وَلَّيْتُم مدبِرين** } (التوبة : ٢٥) .

ولو راجعت سجلَّ هزائمِ المسلمين وانتصاراتهم على مدى التاريخ منذ عصر النبى صلى الله عليه وسلم إلى هذا العصر وإلى ماشاء الله ، لما وَجَدْتَ إلا هذين السببين وراءَ هزائمهم : الاستنصار بغيره عز وجل أو النُّكُول عن أمره . عندئذ ينخلعُ "المسلم" من صفة "المؤمن" ، الطاعة والتوكل . وإنما يتكفل الله عز وجل بنصرِ "المؤمنين" فحسب .

انظر إلى بديع قوله تبارك وتعالى يشترط " الايمان " على الذين آمنوا أنفُسِهم ، كى يكون الله فى نُصرَتهم : { **وأنتم الأعْلَوْنَ إن كنتم مؤمنين** } (آل عمران : ١٣٩) : قد علم أنه يخاطب الذين آمنوا ، ولكنه يشترط عليهم الاستمساك بهذا الإيمان والعمل به ، والا فلينتصروا لأنفسهم بأنفسهم إن استطاعوا.

تستظهر من هذا أن الله عز وجل لا ينتصر لجند ، أى لا يُمِدُّهم بمدَد من عنده، إلا جندا هو قائدُهم . لا ينتصر لرومٍ أو فُرْس ، ولا ينتصرُ لعربٍ أو عَجَم ، بل ولا ينتصرُ للمسلمين أنفسهم ، وإنما ينتصر فحسب للمؤمنين " الذين آمنوا " ، لا يصح فَهْمَ عبارة " نصر الله " فى كل القرآن إلا بهذا المعنى وحده .



وإذْ قد تَقَرَّرَ هذا ، فلا يصح فَهْمَ قوله عز وجل فى الآيات الست من مفتتح سورة الروم " ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله " على أنه ـ كما تَوَهَّم مفسرون ـ فَرَحُ المؤمنين بانتصار الروم على الفرس ، وإنما النصر المُبَشَّرُ به نصر آخر ، تتنبأ به تلك الآياتُ للمؤمنين ـ أى المسلمين ـ على عَدُوِّهم ، مشركى قريش ، فيفرحُ المؤمنون بنصرِ اللهِ إياهم .

دليلُكَ فى هذا ـ فوق ما تقدم ـ تعقيبه عز وجل على هذه البشرى بقوله : "ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم" ، ولا معنى للرحمة هنا فى انتصارٍ يُحْرِزُهُ الرومُ على الفرس ، وإنما كانت رحمتُهُ عز وجل بالمؤمنين ، يوم قَلَبَ موازينَ القوى لصالح هؤلاءِ المستضعفين فى بدر .

أما القاطعُ الحاسم ، فهو تعقيبُهُ عز وجل يُؤكِّدُ وعده : { **وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون** } (الروم : ٦) ، فليس لرومٍ أو فرس وَعْدٌ عِنْدَهُ عز وجل ، وإنما الوعد للمؤمنين الذين آمنوا .

ولا يصح أيضا ـ كما تَوَهَّم مفسرون ـ فَهْمُ " الوعد" على أنه وَعْدٌ للمؤمنين بتحقق نبوءة القرآن بانتصار الروم على الفرس فيفرحُ المؤمنون ـ فى مواجهة المنكرينَ الوَحْيَ على القرآن ـ بأن القرآنَ صَدَقَ . هذا تافهٌ لا يُعْتَدُّ به . فقد ظل مشركو قريش على تكذيب القرآن بعد تحقق النبوءة بانتصار الروم على الفرس فى بضع سنين ، وما كان لِيُعْجِزَهُم أن يقولوا فى محمدٍ صلى الله عليه وسلم : عَرَّافٌ يَرْجُمُ بالغيبِ صَدَف .

ولا يصح أخيرا قولُ من قال ان المسلمين اغْتَمُّوا لهزيمة الروم من الفرس لأن الروم أهل كتاب والفرس مجوس عَبَدَةُ نيران أشبهُ بقريشٍ عبدةِ الأوثان ، الذين تهللوا لانتصار الفرس وَعَدُّوهُ انتصاراً لآلهةِ الشرك ، أمثالِ آلهةِ قريش ، وان الآيات نزلت لتبشر المسلمين بأن فرحةَ قريش لن تدوم ، فسينتصر الرومُ من بعد على الفرس ،

ويومئذ "يفرح المؤمنون" وتَغْتَمُّ قريش . هذا الكرُّ والفَرُّ بين الفرس والروم لَغْوٌ يتنزه القرآنُ عن إنزالِ آياتٍ فيه ، فضلا عن أن يحتفلَ له ، ناهيك بأن يكون قضية تشغلُ بالَ النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة ، بل ما كان صلى الله عليه وسلم لينحاز الى روم أو فرس ، وكلاهما عَدُوٌّ للذين آمنوا . لو صح هذا لَتَحَالَفَ المسلمون مع الرومِ على الفرس ، ولكن المسلمين الذين أجهزوا من بعدُ على الفرس ، لم يُفْلِتُوا الروم .

الصحيح أن موقف عرب شبه الجزيرة من المعارك بين الفرس والروم كان موقفَ المتفرِّج لا موقفَ المشارِك ، لا تستثنى من هذا إلا مناذرةَ الحيرة فى العراق ، مَوالى فارس ، وغساسنةَ الشام ، موالى الروم ، وكلاهما على دين النصرانية ، الغساسنة على مذهب قيصر بيزنطة آنذاك وأصحاب الحيرة نساطرةٌ يخالفونهم فى المذهب ، ومن هنا تَفْهَم حلفَ الغساسنة مع الروم ، ولَواذ المناذرة بالفرس ، أعداءِ القيصر . أما قريشٌ وغيرُها من قبائل العرب فما كانوا يَرَوْنَ مصلحةً لهم فى هذا أو ذاك ، وإنما وقفوا موقف المتفرج على حربٍ لا ناقةَ لهم فيها ولا جمل ، إلا لَهْوَ الحديثِ وتزجيةُ الفراغ ، ذلك الترفُ السياسى الذى يَنْعَمُ فيه المتبطلون ، شُهودُ مباراةٍ بين فريقين لا تكتمل لَذَّتُهم إلا بالتشيع لهذا الفريق أو ذاك . وتستطيع أن تقول انه قد كان من سادة مشركى قريش من كان هَواهُ مع المناذرةِ موالى فارس ، هَلَّلُوا لانكسار الروم ، أى هَلَّلُوا لانتصار حزب المناذرة على حزب الغساسنة ، وكلا الفريقين نصارى كما مر بك ، لا مجوس ولا أهل كتاب . بل لم تكن حرب الفرس والروم أصلا حربَ تنصيرٍ أو تمجيس، وإنما كانت حرباً على السيادة والنفوذ فى الشرق الأدنى القديم . دليلك فى هذا أن الفرس يوم انتصروا لم يَسْعَوْا إلى نشر المجوسية فى مصر والشام ، وأن الرومَ لَمَّا انتصروا لم يَسْعَوْا فى تنصيرِ أعدائِهم المجوس .

وتستطيع أن تقول أيضا ان هذا الفريق من سادة قريش الذين هَلَّلُوا لانكسار الروم ـ كما تقرأ فى كتب السيرة وكتب التفسير ـ أرادوا أن يغيظوا بها النبى وصحابَتَه جادِّين أو هازلين : لو كان إلـهُ السموات والأرض ، إلهُ محمدٍ وإلهُ المسيح ، هو الإلهَ الحَقَّ ، أفكان ينكسرُ أمام آلهة النيران ؟ يَخْلِطُونَ بين ثالوث النصارى وبين الواحد الأحد لا إله غيره ، ويظنون ظَنَّ الجاهلية فى تَصَوُّرِها "آلهةً" تمشى على الأرض تحارب عن أتباعها ، فهو صراعٌ بين "الآلهة" لا صراعٌ بين البشر .

لم يكن هذا بالطبع موضوع "الرِّهان" بين أبي بكر رضي الله عنه وبين هذا النفر من سادة قريش عقب نزول هذه الآيات من سورة الروم ، أعنى رِهَانَهُ مشركى قريشٍ على انتصار الروم من بعد على الفرس فى بضع سنين من نزول الآيات . فلستَ ترتضى للصدِّيق رضى الله عنه أن يَغْتَمّ لانتصار آلهة النيران على ثالوث النصارى ، أو أن يُرَاهِنَ على أن "الآب والابن والروح القُدُس" أقوى شكيمةً من "هُرْمَزْدا وأَهْرِمَن" . هذا عبثٌ يتنزه عنه أبو بكر. وإنما قال هذا مفسرون يُنَسِّقُون مقولتَهم على أن بعض الشرِّ أهونُ من بعض ، ومن ثم فبعضُ الكفرِ أهونُ من بعض . ولا تصح هذه "النسبية" فى الدين بالذات . لأن الكفر كما تعلم ملةٌ واحدة . وقد كَفَّرَ القرآنُ عُبَّادَ المسيحِ وجبريل كما كَفَّرَ عُبَّادَ هُرْمَزْدا وأَهْرِمَن، فلا ينتصر اللهُ لهذا الفريقِ أو ذاك . تسمع قريبا من هذا ممن أفتاك أواسط هذا القرن بالوقوف مع الغرب "المسيحى" ضد الشرق "الملحد" ، وكلاهما عَدُو للذين آمنوا . وهو كما ترى تنسيقٌ على ما قاله المفسرون من قبل فى تأصيل فهمهم تلك الآيات من سورة الروم ، أى أن بعضَ الكفر أهونُ من بعض . وهو خطأٌ مَحْض . فموقف المسلمين من غير المسلمين واحدٌ لا يَتَلَوَّن : إنهم سِلْمٌ لمن سَالَمَهم، حربٌ على من حاربهم: {**فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم**} (التوبة : ٧)(١).

وإنما راهن أبو بكرٍ مشركى قريش الذين هللوا لانكسار الروم على صِدْقِ قوله عز وجل :[**وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمرُ من قبلُ ومن بعد**] (الروم : ٣ ـ ٤) ، ولم يزد. وقد صدقت النبوءةُ بتمامها كما تعلم ، ورَبِحَ الرِّهانَ أبو بكر .



الفهمُ الصحيحُ لهذه الآيات الست من سورة الروم هو أن الله عز وجل يَعِدُ جُنْدَهُ الذين آمنوا ـ وهم يومئذٍ قليلٌ مستضعفون فى الأرض ـ بالنصر على عدوهم مشركى قريش نصراً ما كان أحدٌ من الذين "لا يعلمون" كما وصفتهم الآيات ، يَحْسَبُهُ

(١) إقحام الدين فى السياسة محظور كما تعلم فى نظم الحكم العلمانى التى تقول لك : لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين . ولكنها تستجيز لنفسها ما تحظره عليك ، فتتلفع بعباءة الدين حين تريد تأصيل مواقف سياسية تقررت ، على مقولات دينية بنت المناسبة ليتها محصت . هذا فحسب هو القدر المسموح به فى تلك النظم لكلمة الدين فى القرار السياسى : إنه تطويع الدين للسياسة لا تطويع السياسة للدين ، فبئس للظالمين بدلا .

ممكناً بأى معيارٍ أردت ، لولا أنه وعدٌ من الله عز وجل لا يُخْلفُ اللهُ وعدَه . وحدَّدت الآياتُ لموعد هذا النصر علامة : ينتصر المسلمون يومَ يبلغُهم نبأُ انتصار الروم على الفرس فى بضع سنين من نزول الآيات . لم تقل الآيات "ينصر الله المؤمنين فى بضع سنين" كيلا يقال أنه وعدٌ على التراخى فى أىِّ يومٍ شئت خلال تسع سنين (والتسعة أقصى غاية البضْع) ، ولكنها وَقَّتَت لانتصار المسلمين على عدوهم موعداً رَبَطَتْهُ بانتصار الروم على الفرس فى بضع سنين من نزول الآيات ، غيرَ مقصودٍ من الحديث عن المعارك بين الفرس و الروم إلا هذا وحدَه :

وأنت تعلم بالطبع أن رابطةَ السببية معدومةٌ تماما بأىِّ معيار أردت بين انتصار يحرزُه هرَقْل قيصرُ بيزنطة على كسرى أبْرويز ملكِ الفرس وبين أولِ انتصارٍ يحرزه الذين آمنوا على مشركى قريش . بل الحدَثانِ منفصلانِ كلَّ الانفصال فى المكان ، منفصلان كل الانفصال فى المقدِّمات والنتائج . لم يكن كسرى حليفَ قريشٍ ولم يكن قيصرُ حليفَ الذين آمنوا ، ولم تكن مكةُ أو المدينة داخلتين فى استراتيجية الحرب بين الفرس والروم ، حتى يكونَ ثَمَّ مجالٌ للقول برابطة التداعى بين الحدثَيْن ، يُؤْذِنُ وقوع أولِهما بوقوع الثانى . أعنى أن النبوءةَ بوقوع الحدث الأول وهو انتصار الروم على الفرس ، لا تتضمنُ بذاتها النبوءةَ بوقوع الحدث الثانى وهو انتصار الذين آمنوا فى بدر، تَضَمُّنَ السببِ للنتيجة . وإنما هما نبوءتان منفصلتان ، تجمع بينهما نبوءةٌ ثالثة ، هى التنبؤُ بتزامُن تحقق النبوءتين الأولى و الثانية .

وهذا هو لُبُّ الإعجازِ فى هذه الآياتِ ، الذى يتحدَّى به القرآنُ مُنْكرِى الوحْىِ عليه . لو وقفت النبوءة عندَ "توقع" انتصار الروم على الفرس فى بضع سنين لَقيلَ حكيمٌ حَصيف ، قَدَّرَ أن الحربَ بين الفرس والروم كَرٌّ وفَرٌّ ، كالعهد بالحرب بين كسرى وقيصر ، جولةٌ هنا وجولةٌ هناك ، وأن كَرَّةَ الرومِ على الفرس لن تتأخر بحساب الزمن سوى بِضْعَ سنين ، يُضَمِّدُ فيها قيصرُ جراحَه ، ويستجمعُ قُواه ، ويُعيدُ تنظيم فلول جيشه ، ويُعَبِّىءُ حُشودَه ، طالما أن القسطنطينية عاصمةَ الروم وقلبَ الامبراطورية صَمَدت لهَجَمات الفرس ورَدَّتْهُم على أعقابهم . ليس هذا تنبؤاً يحتاجُ إلى وحى ، وإنما هو تقديرٌ حصيفٌ يستطيعه خبراءُ الاستراتيجية العسكرية فى كل العصور ، بل ما كُنْتَ لِتَعْدَمُ من يقول به من العرب أشياعِ الرومِ فى شبه الجزيرة ، بل ما كُنْتَ لتعدَمُ بين قادة جيوش الفرس أنفسِهم من يَحْسِبُ حسابَه ويُعِدُّ العُدَّةَ لمواجهته .

ولو قد توقفت النبوءة ـ من جهة أخرى ـ عند التنبؤ للذين آمنوا بالنصر على مشركى قريش فى غَدٍ قريب ، بِضْعَ سنين ، و المسلمون يومئذ فى قبضة قريش تُنَكِّلُ بهم وتَسُومُهم العذابَ ألوانا ، لا أملَ لهم فى مغالبة قريش ، إلا رجاءُ أن تُكَفْكِفَ قريشٌ أذاها ، لَقُلْتَ انها نبوءةٌ جريئة بكل المقاييس ، لا يتورطُ فى مثلها من خبراء الاستراتيجية أحَد . ولكنك تفوتُكَ خصوصيةُ النبوءة التى فى هذه الآيات ، فالقرآنَ من قبل سورة الروم ومن بعدها لا يخلو من مثلها ، أعنى لا يخلو من مَوْعدَةِ المسلمين بالنصر على عدوهم فى غدٍ قريب : { **ألا إنَّ نصرَ الله قريب** } (البقرة :٢١٤) ، أما هذه الآيات من سورة الروم فهى تُوَقِّتُ موعدَ هذا النصر على الجزم والتأكيد : "وعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وعدَهُ " . ومع ذلك فما كنْتَ لتَعْدَمُ بين كفار قريش من يقول لك : وماذا فى هذا ؟ صَحَّت النبوءةُ أو لم تَصِح ، رَجُلٌ (يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم) يستنهضُ هِمَّةَ أتباعِه ، فَيُمَنِّيهمُ الأمانى ، ويَعِدُهم بالمحالات .

ولكن النبوءة التى فى الآيات لم تتوقف عند هذا أو ذاك ، ولكنها تَنَبَّأت بتزامُن وقوع حدَثَيْنِ مُنْبَتّى الصلة والأسباب ، الأول وهو انتصارُ الرومِ على الفرس فى بضع سنين، حدث محتمل غيرُ مستبعد بمنطق مسار الصراع بين نِدَّيْنِ متكافئين تدورُ الحربُ بينهما سجالا ، يُدالُ لهذا من ذاك ، فتقول جازماً مطمئنا إنَّ الكَرَّةَ التى كانت اليومَ للفرس ستكونُ فى الغد للروم غير بعيد . أما الحَدَثُ الثانى ، وهو انتصارُ المسلمين على مشركى قريش (فى بدر) ، فالتَّنَبُّؤُ به يومَ نزلت الآيات تنبؤ بالُمحال فى منطق الناس ، خُبَراء وغير خُبَراء ، لا يتورط فى مثله عَرافٌ أو كاهن . وأَبْعَدُ من هذا وذاك التنبؤ بتوقيت واحد لوقوع هذين الحَدَثَيْنِ المنفصلين ، الُممكن والُمستحيل . لم تقل الآيات ينتصرُ الروم فى بضع سنين ، وينتصرُ المؤمنون أيضا فى بضع سنين ، كى تستجيزَ أن ينتصرَ الروم فى خلال خمسِ سنين مثلا وينتصرَ المؤمنون فى خلالِ سبع سنين ، أو العكس ، والخَمْسُ والسَّبْع كلتاهما داخلتانِ فى " البِضْع " ، ولكن الآيات تقول "ويومئذٍ يفرحُ المؤمنون بنصر الله" ، يعنى ينتصرُ المؤمنون يوم يبلغُهم نبأ انتصار الروم على الفرس ، لا قبل ولا بعد . وقد حَدَث ، فأى إعجاز وأى علم .

الوحيدُ الذى فَهِمَ النبوءة على وجهها يوم أنزلت الآيات هو بالطبع الصادق المصدوقُ صلى الله عليه وسلم ، ولكنه لم يفسِّرها لصحابته على معنى التزامُنِ بين

انتصار الروم فى بضع سنين وبين "اليوم" الذى يفرح فيه المؤمنون بنصر الله ، كما تستطيع أنت اليوم تفسيرَها وقد تحققت النبوءة . وإنما فَطَنَ إلى هذا من فَطَنَ من المسلمين والمفسرين من بعد بدر . وكانت هذه حكمةً بالغة : لو فَهِمَ المسلمون النبوءةَ على وجهها وبتوقيتها يومَ أنزلَت الآيات لتَهاونوا فى مُجاهَدَةِ قريش ، ولقعدوا يتسقَّطون أنباء المعارك بين الفرس و الروم ، ينتصر المسلمون يوم ينهزمُ الفرس . وهذا يفسر لك لماذا اقتصر رهانُ أبى بكر على انتصار الروم فى بضع سنين ولم يزد . وهو يُفَسِّرُ لك أيضا احتفالَ المفسرين بربح أبى بكر الرهانَ وصِدْقِ نبوءةِ القرآن بانتصار الروم فى بضع سنين ، دون أن يلتفت أكثرهم إلى جوهر الإعجاز فى نبوءة هذه الآيات : توقيتُ يوم انتصار المسلمين فى بدر ، يومَ السابع عشر من رمضان فى السنة الثانية للهجرة .

ومما تَقْرَؤهُ فى كتب التفسير (ومنها تفسير القرطبى) أن جبريل عليه السلام نزل يوم بدر فأنبأ النبى بانتصار الروم على الفرس . هنا تفهم ما فَهِمَهُ صلى الله عليه وسلم من هذه البشرى ، ينتصرُ المسلمون يومَ ينتصرُ الروم على الفرس ، فما أن فَارَقَهُ جبريلُ حتى خَرَجَ يستنجزُ رَبَّهُ ما وَعَدَه فى تلك الآيات من سورة الروم ، وأكَبَّ فى الدعاء حتى سَقَط عنهُ رداؤه : اللهُمَّ نَصْرَكَ الذى وعدتنى ! وجاء نصرُ الله الذى كان فاتحةَ كُلِّ نصرٍ يُحرِزُهُ المسلمون من بعد ، وصَدَقَ اللهُ وصَدَقَ رسولُه .

أما المفسرون الذين لم يربطوا بين انتصار الروم وبين توقيت النبوءة لانتصارٍ يحرزُهُ المسلمون على قريش ، وفاتهم من ثم جوهرُ الإعجازِ فى تلك الآيات ، فقد اضطروا إلى تعليل "فرحة المؤمنين يومئذ بنصر الله" بأنها الفرحة لانتصار أهلِ كتابٍ على مجوس ، وهو خطأ محض كما مر بك ، لا سندَ له من قرآنٍ أو سُنَّة ، ولكنه كان التُّكَأَةَ التى يتكىءُ عليها الذين يُفتونَكَ اليوم بموالاةِ أهل الكتاب على غيرهم ، مهما لَقِيتَ منهم أو شَقِيتَ بهم .

وأما المفسرون الذين التفتوا إلى هذا الربط بين انتصار الروم وبين انتصارٍ يحرزه المسلمون على عدوهم ، فقد تفاوتوا فى تحديد الغزوة التى انتصر فيها المسلمون يوم انتصر الروم على الفرس ، لأنهم لم يُعْنَوْا بتحديد التواريخ الدقيقة لسجل المعارك بين الفرس والروم ، كى يطابقوه على سجل المعارك بين المسلمين وبين قريش ، فَمِنْ قائلٍ

انها غزوةُ بدرٍ الكبرى فى السنة الثانية للهجرة (وهو الصحيح كما سترى) ، ومن قائل انها غزوةُ الحُدَيْبِيَةَ سنة ستٍّ ، وهذا يتعارضُ مع قوله عز وجل "فى بضع سنين" أى دون العَشْر ، وما بين نزول سورة الروم وغزوة الحديبية حوالى ثلاثُ عشرة سنة ، ولكن قائلَ هذا لم يَتَلَبَّث ، وربما زعم أن البضع السنين هى من موعد رِهان أبى بكر قريشاً ، وهو تخريجٌ سقيم يُناقِض نَصَّ الآيات ، فلا تلتفتُ إليه .

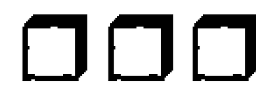
والذى لم يتلبث عنده أيضا هؤلاء المفسرون هو قوله عز وجل "فى أدنى الأرض" ، يُحَدِدُ مكان الموقعة التى انهزم فيها الروم من الفرس والمَعْنِيَّة فى الآيات ، والذى سيكون هو نفسُه فى بضع سنين مكانَ الموقعة التى سَيُدالُ فيها للروم من الفرس، لقوله عز وجل :"غُلِبَت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبِهِم سَيَغْلِبُون فى بضع سنين" ، أى غُلِبُوا فى أدنى الأرض وسَيَغْلِبُون فى أدنى الأرض أيضا فى بضع سنين من نزول الآيات . هذا هو الفهمُ المباشر لعبارة القرآن بمنطق اللغة العربية التى تجتزىء عن ذكر ظرفِ المكان فى الشِّقِّ الثانى بسَبْقِ النصِّ عليه فى الشق الأول حين يكون ظَرْفُ المكان فى الشِّقَّيْنِ واحدا ، ولاسيما حين تكون مادة الفعل فى الشقين هى نفسها "غُلِبَت" ، "سَيَغْلِبون" ، والمُسْنَدُ إليه فى الشقين واحد "الروم" ، وذلك كراهية التكرار الذى هو حَشْوٌ لا فائدةَ فيه . من ذلك قولك : "جِئْتُكَ فى دارِك بالأمس ، وسأجيئُكَ غدا" فتفهم منى مباشرة أنى سَأجيئُكَ غداً فى دارك أيضا لا فى غيرها ، وإلا لنَصَصْتُ لك على المكان الآخر الذى سأجيئك فيه غدا . بهذا وحده يكتملُ فهم النبوءة بانتصار الروم على الفرس ـ المُتَزامِنِ مع انتصارٍ يُحرِزُهُ المؤمنون فيفرحون به ـ فَهْمَاً مُحَدَّدا فى المكانِ و الزمان : فى أدنى الأرض ، وفى بضع سنين . أما إن تَرَكْتَ المكانَ غُفْلاً فى النبوءة ، فعندئذٍ تحتارُ فى اختيارِ الموقعة من بين مواقعَ انتصر فيها الرومُ على الفرس بعدَ نزول الآياتِ ، أهى انتصارُهم على الفرس فى مصر ، أم الشام ، أم فى الأناضول ، أم فى أرضِ الفرسِ نفسِها . ومن ثم يتفاوت قولك فى تحديد الموقعة المتزامنة التى انتصر فيها المسلمون على عدوهم . على أن هذا الفريق من المفسرين اختلف أيضا فى مدلول "أدنى الأرض" ، التى فهموها بمعنى "أَقْرَبُ الأرض" ، فمن قائلٍ انه أَقْربُ الأرضِ إلى الفرس ، ومن قائلٍ أقربُ الأرضِ إلى الروم ، ومن قائل أقربْ الأرضِ إلى العرب . هنا لا تدرى على وجه اليقين أى مكانٍ تعنيه الآياتُ بقولها "غلبت الروم فى أدنى الأرض" فتحتار فى اختيار المَوْقِعَةِ المعنية فى سلسلة معارك

الفرس والروم التى انتصر فيها الفرس على الروم ، وتخبط خَبْطَ عشواء فى تحديد التاريخ الذى تَبْدَأ منه البضع السنين .

مفتاحُ فَهْمَ النبوءة على وجهها هو فَهْمُ معنى "أدنى الأرض" التى فى الآيات لأنها هى التى تحُدِّدُ لك مكان الموقعة المعنية فى الآيات بين الفرس والروم كَرّاً وفَراً ، الأولى والثانية ، فتقطع بيقينٍ لا شك معه بمبدأ ومُنتهى الفاصلِ الزمنى بينهما ، الداخلِ فى إطار المهلة المضروبة فى القرآن لموعد كَرّة الروم على الفرس ، الذى هو نفسه موعد انتصارِ المسلمين فى بدر كما سترى . ولم يوفق المفسرون إلى فهم مدلول "أدنى الأرض" رغم أن منهم علماء فى اللغة العربية، فتشبثوا بأن معنى "الأدنى" هنا هو "الأقرب" من دَنا يدنو فهو دان ، لا معنى له غير هذا . ولكن "الأدنى" كما يعلم هؤلاء المفسرون ويعلم علماء العربية جميعا لا تجىء فقط بمعنى أفعل التفضيل من دنا يدنو فهو دانٍ ، أى قريب ، وإنما تجىء أيضا على معنى الأسفل الوطىء . لا يقول العرب فى أفعل التفضيل من " الدون" الأدْوَن ، وإنما يقولون " الأدنى" ، وكأنها " الأدنأ " من دَنُوءَ يدنُوءُ فهو دَنِىء ، سُهِّلَت همزتُه . ومن هذا تجىء " الدنيا " التى نعيش فيها ، مؤنث " الأدنى" . ليست هى من القُرْبِ والدُّنُوِّ ، وإنما هى من السُّفْلِيّة والتَّحْتِية والوَطاءة ، يعنى التى أُهبِط إليها آدم . وقد استخدم القرآن لفظة " الأدنى " بالمعنيين كليهما ، فجاءت على معنى الأقرب فى مثل قوله عز وجل : { **ذلك أدنى ألا تعولوا** } (النساء : ٣) ، أى أقرب . وجاءت بمعنى الدون و الأدنأ فى مثل قوله عز وجل : { **أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير؟** } (البقرة ٦١،) ، أى الأرذل لا الأقرب بالطبع ، وفى قوله عز وجل : { **ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم** } (المجادلة : ٧) ، يعنى أقل أى دون . بل إن القرآن يستخدم أحيانا مادة دنا يدنو نفسها لا بمعنى قَرُب، وإنما بمعنى هَبَط ، فى حديثه عن تَنَزُّل جبريلَ بالوحى : { **ثم دنا فتدلَّى** } (النجم :٨) ، لا يصح فهمها بمعنى قَرُبَ فَتَدَلَّى . واستخدمها أيضا على معنى التحتية والدونية فى قوله عز وجل : { **يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن** } (الأحزاب،٥٩) ، يعنى يُرَخينها إلى أسفل ، وليس يُقَرِّبْنها من أجسادهن . الأدنى تجىء أيضا بمعنى الوطىء الهابط قطعا . والوطىء فى اللغات العبرانية والآرامية

والكنعانيـة هى "كَنْعـان" ، التى تجد أثارةً منها فى مادة " كَنَع " العربيـة حين تقول "كنعت الشمسُ إلى المغيب" أى مالت .

لم يُوَفَّق المفسرون إلى هذا المعنى الآخر فى عبارة أدنى الأرض ، لأنهم لم يعلموا أن القرآن يستخدم هذه العبارة لا على الصفة ، وإنما على العَلَمية : إنها ترجمةُ القرآن المعجز لاسم فلسطين بلغة أصحاب الأرض " الكنعانيين " قبل أن يكون لبنى اسرائيل فى فلسطين وجـود . إنهـا " كنعـان " أو " إرص كنعـان " (أَرْضُ كنعـان) ، يعنى "الأرض الوطيئة " . وسبحان العليم الخبير القائل بكل اللغات ، الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم .



نزلت تلك الآيات من سورة الروم ما بين السنتين السابعة والسادسة قبل الهجرة (٦١٤ م - ٦١٥ م) ، فهى تشير بالقطع إلى تلك الموقعة التى انهزم فيها الروم أمام الفرس على أرض فلسطين سنة ٦١٤م ، وكانت فاتحة لهزائم الروم أمام الفرس فى سورية ، وفى مصر وليبيا (سنة ٦١٩ م) ، وتَرَاجَعَ الرومُ فى الأناضول حتى أسوار القسطنطينية . ومفهوم الآيات المباشر أن " البِضْعَ السنين " - أى ما دُون العشر - تُحْسَبُ منذ بدء صولة الفرس على الروم سنة ٦١٤ م إلى مبدأ كرة الروم عليهم : "وهم من بعد غَلَبِهم سَيَغْلِبون" ، يعنى لن تتأخر كرةُ الروم على الفرس إلى أبعد من سنة ٦٢٤ م قبل اكتمال عشر سنين ، متوافقة مع نصر الله الذى يفرح به المؤمنون فى بدر يوم السابع عشر من رمضان سنة ٢ هـ (إبريل سنة ٦٢٤ م) . والثابت تاريخيا أن الروم قبعوا وراء أسوار القسطنطينية حتى سنة ٦٢٢ م ، لم يخرجوا لمناجزة الفرس إلا يوم خرج هِرَقْلُ بجيشه فى تلك السنة فى أول حرب صليبية عَرَفَها التاريخ ، وهو يرتدى المُسوح ويرفع صورةً مقدسةً للعذراء ، تُهَلِّلُ له أجراسُ الكنائس ، وتُدَوِّى من خلفه صلواتٌ وترانيم ، تدعو له بالنصر على الفرس المجوس ، واستعادة المدينة المقدسة أورشليم، واسترداد "عود الصليب" الذى استلبه المجوس يومَ استَوْلَوا على أورشليم(١) . لم يكن الرجل قديسا يؤازره الله بنصره على الفرس المجوس كما توهم مفسرون ، أو كما تُصَوِّرُه لك بعضُ كتابات مؤرخى المسيحية ، فقد عَلِمَ الذين قَرَعُوا

---

(١) " عود الصليب " هو إحدى قطعتى الخشبة التى يُظَنُّ أنْ قد كان صُلِبُ المسيح عليها .

لمَخْرَجِه الأجراس وشَيَّعُوا جيشَهُ بالصلواتِ والترانيم أن نكاح المحارِمِ زناً صريح ، وقد نَكَحَ هِرَقْلُ "مارتينا" ابنة أخته فاستولدها تسعةَ بنينَ وبنات ، وصَحِبَتْهُ فى حَمَلاته وغزواته ، ولكنها سياسةُ الملوك فى استنهاض الهمم بالدين . لا تستشار نَخْوَتُهم لشأنٍ من شؤون الدين إلا لهذا ، يَعصُونَ اللهَ ويتبجَّحُونَ فيسألونه النُّصْرة .

لم تكن أمام هرقل يوم خرج لمناجزة الفرس سنة ٦٢٢ م سوى سنة وبضع سنة من المهلة المضروبة فى الآيات لكرة الروم على الفرس فى بضع سنين تبدأ من سنة ٦١٤ م كما مر بك . ولكن المعارك بين الروم والفرس طالت بين كرٍ وفَرّ حتى حَقَّقَ الرومُ نَصْرَهُمُ الحاسم على الفرس فى فبراير سنة ٦٢٨ م على أرض الفرس نفسها ، فسلم لهم الفرس بالسيادة على أراضى الروم فى آسيا الصغرى وفى الشام ومصر وما يليها ، وأعادوا إليهم " عُوَدَ الصليب " . وليست هذه بالطبع هى الموقعة المعنية فى الآيات ـ وإن توافقت مع غزوة الحديبية سنةَ ستٍ هجرية كما قال مفسرون ـ أولا لأنها تجاوزت المهلة المضروبة فى القرآن بسنوات أربعٍ ، إن قُلْتَ بها فقد خَطَّأْتَ القرآن ، أعنى لم تُحْسِنِ الفَهْمَ عنه ، لأن القرآن يريد مبدأ كرة الروم على الفرس لا مُنتهاها ، كما أراد مبدأ صَولَة الفرس على الروم سنة ٦١٤ م لا مُنتهاها سنة ٦٢٢ م . وثانيا لأن القرآن يريد معركةً بعينها بين الفرس والروم يَغْلِبُ فيها الرومُ الفرس مثلما غَلَبُوهم فى أدنى الأرض منذ بضع سنين . أعنى معركةً تدور على أرض فلسطين . ورغم اضطراب المؤرخين فى تحديد التواريخ الدقيقة لمعارك الفرس والروم منذ سنة ٦٢٢ م ، فالثابت تاريخيا أنه قد كانت للروم على الفرس كرتان ، انتهت أولاهما بدخولهم أرض الفرس سنة ٦٢٤ م ثم تراجعوا إلى الأناضول . وكَرَّ الفرس عليهم حتى ألجئوهم إلى ضفاف البوسفور سنة ٦٢٦ م ، ولكن كرة الفرس كانت تشبه صحوة الموت ، فما لبث الروم أن كروا عليهم كرتهم الثانية التى انتهت بانتصارهم الحاسم فى فبراير سنة ٦٢٨ م . ولا شك أن القرآن يعنى كرة الروم الأولى التى انتهت سنة ٦٢٤ م لا كرتهم الثانية ، دليلك فى هذا من القرآن "البِضْعُ السنين" محسوبةً ابتداء من سنة ٦١٤م كما مر بك الى أوائل سنة ٦٢٤م ميلادية على الأكثر (سنة ٢ هـ) قُبَيْلِ انتصار الذين آمنوا فى بدر يوم ١٧ رمضان سنة اثنتين للهجرة (إبريل سنة ٦٢٤ م) . وقد حفلت كرة الروم الأولى بانتصارات للروم على الفرس فى القوقاز وأرمينيا والأناضول حتى نهر الفرات ، وفى أرض الفرس نفسها حتى تبريز ، ومنها الذى يعنينا هنا استعادة القدس أواخر ٦٢٣م أو أوائل ٦٢٤م ، قبيل انتصار المسلمين فى بدر (إبريل ٦٢٤ م) .

هذه النبوءة التى ربطت بين انتصار الروم على الفرس فى أدنى الأرض وبين انتصار الذين آمنوا فى بدر ، أى بين الممكن والمستحيل فى منطق الناس ، هى نبوءة بغيب محض ، لا يستطيعها إلا علام الغيوب .

فسبحانَ عالِمِ الغيبِ لا يُظهِرُ على غيبِه أحدا ، الا من ارتضى من رسول .



أما لفظة الروم التى تعنينا فى مباحث هذا الكتاب ، فهى كما مر بك نسبةٌ إلى "روما" الأصلية التى فى إيطاليا وإن انتسب إليها البيزنطيون المعنيون فى القرآن .

وأنت تعلم بالطبع أن "روما" الأصلية فى لغة أهلها اللاتين تكتب وتنطق Roma ، ولكن الذى لا تعلمه إن كنت لا تعرف اليونانية ، لغة البيزنطين المعنيين فى القرآن ، فهو أن روما هذه نفسها فى لغة اليونان تكتب وتنطق "رومى" Romi . وقد حار اللغويون فى تفسير أصل معنى "روما" Roma فى لغة أهلها ، إذ لا اشتقاق لها ترد إليه فى لغة اللاتين ، فقيل انها منحوتة من لغة أهل إتروريا ، قوم فى إيطاليا سكنوا قديما تُسكانيا وجزءا من أمبريا على الساحل الغربى من إيطاليا ، بادت لغتهم. وفى أساطير الرومان أن روما بناها حوالى ٧٥٣ قبل الميلاد الأخوان رومولوس وريموس، فربما جاء اسم روما على النسب إلى هذين . وهذا عند اللغويين لا يقدم ولا يؤخر ، لتعذر تفسير اشتقاق هذين الاسمين كذلك من اللغة الإترورية .

ولكن القرآن المعجز يفطِنُ إلى ما لم يفطِن إليه أولئك اللغويون ، فيدرك منذ أربعة عشر قرنا أن تَحَوُّلَ اليونان فى لغتهم باللفظ Roma الإتروري إلى Romi اليونانية لم يأتِ من فراغ بل أرادوا إصابة المعنى الذى أراده الإترورييون من لفظة Roma فى لغتهم ، وهو القوة وشدة البأس . ذلك أن "رومى" Romi اليونانية كما تعنى اسم مدينة روما تعنى أيضا فى اليونانية بذات حرفها ولفظها "القوة وشدة البأس" .

قال عز وجل يجانس على "الروم" ذوى القوة وشدة البأس ، يفسر معناها بالتقابل والترادف معا وفق منهجنا فى هذا الكتاب : { **الم . غُلِبَتِ الروم . فى أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبِهم سَيَغْلِبون** } (الروم ١ ـــ ٣) ، يعنى غُلب

الشديدُ القوى وسَيَغلبُ أيضا ، يكرر مادة الغَلَب فى شأنهم ثلاث مرات ، فِعْلَ القائلِ المتثبت ، المتمكِّنِ مما يقول .

لم يكن هذا موقف أصحاب المعاجم الذين تَصَدَّوْا مؤخرا لتفسير معنى "روما" الإترورية ، تنسيقا على "رومى" اليونانية ، فقالوا متظننين غير متثبتين (?) Rome = strength (١) (روما = القوة ؟) يُتبِعون تفسيرَهُم بعلامة استفهام ، فِعْلَ المتردد الذى لا يقطع بيقين . أما القرآن الذى قالها قبل أن يقولوها بأربعة عشر قرنا فهو يقولُها قَوْلَةَ العارفِ المتيقن .

ألا فسبح معى العليم الخبير ، القائل بكل اللغات ، الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم .

و الحمدُ لله رَبِّ العالمين .

(1) WEBSTER'S DICTIONARY (UNABRIDGED), 2 nd edition, 1978, Supplements, Scripture Proper Names & Foreign Words, p. 96.

فى ختام البحث

الحمد لله وَلِيِّ النِّعَم : استهديناهُ فهدانا ، واستعنَّاه فأعان .

بدأنا أولَ سطرٍ في هذا البحث أوائلَ شوال سنة ١٤٠٩ هـ (مايو سنة ١٩٨٩ م)، وفرغنا منه بفضل الله وعونه وتوفيقه في أواخرِ رمضان سنة ١٤١١ هـ (إبريل سنة ١٩٩١ م)، أي في عامينِ اثنين ، بل في عامينِ لم يكتملا إن استبعدتَ نحوَ ستةِ أشهر صَرَفَتْنا خلالَها عن هذا البحث صوارفُ لا تَخلو من مثلها شواغلُ هذه الحياة . وكان متوسطُ ساعاتِ العملِ اليومي في البحثِ والكتابةِ والمراجَعَة نحواً من أربعِ ساعات . وليس هذا بكثيرٍ على بحثٍ بهذه الضخامة ، وموضوعٍ بهذه الجدِّية ، ناهيك بما يقتضيه الكلامُ في كتابِ الله عز وجل من تُؤَدَةٍ وأناة ، ومن تَحَرُّزٍ وتَثَبُّتٍ . ولكنه توفيقُ الله تباركَ وتعالى ، له الحمدُ في الأولى وفي الآخرة .

ولئن كان الجهدُ المبذولُ في هذا الكتاب شاقاً مضنياً ، فما شَقِينَا بهِ البَتَّة ، بل قد سَعدْنا به ونَعمنا. بل قل كان لنا لذةٌ لا تَعْدلُها لذة : صُحبةَ القرآن ، والجلوسَ إليه، والتَّمَعُّنَ فيه . وكان نَعيمُنَا الأعظم لحظةَ يَمُنُّ اللهُ علينا باستجلاءِ إعجاز القرآن في تفسيره معنى هذا العلم الأعجمي أو ذاك ، أو بانكشافِ وجهٍ جديد في فَهْمِ آياتٍ من القرآن لم يَفْطِن إليهِ قُدامى المفَسِّرين . وأنت تعلمُ بالطبع كيف تَدْمَعُ العينُ ويَخْشَعُ القلبُ لحظةَ يُقَالُ لكَ وجهٌ من وجوهِ إعجازِ هذا القرآن لم تَعْلَمْهُ من قبل ، فما بالُكَ بالذي ينكشفُ لَهُ قَبَسٌ من هذا الإعجاز بفضلٍ من الله ونعمة فَيُعَاينُ هذا الإعجازَ كِفَاحاً أوَّلَ مرة ؟ تلك لحظاتٌ قِصَارٌ ثقال ، كنا فيها وَجْهاً لوجه مع فُتوحِ الباري جَلَّ جلاله ، نَقْبِسُ من فُيوضِ آلائه : القَلْبُ يَرْجُفُ في جَلالِ كَنَفه ، تسبيحاً وتحميداً ، والقلمُ يجري بما شاءَ له اللهُ أن يَجرى ، والدموعُ مِلءُ المآقي .

ما ذُقْتُ نعيما في هذه الدنيا كالذي عِشْتُه وأنا أكتبُ في ظِلِّ تلك اللحظاتِ القصارِ الثِّقال . ومازالَ مَذَاقُهُ يملأُ كُلَّ وجداني ، يُغَالِبُني الحنينُ إليه بين الفَيْنَة والفَيْنَة، فأُعَاوِدُ قراءَةَ ما كتبتُه في لحظاتِ التَّجَلِّي ، أَسْتَرْوِحُ جَلالَها وجَمالَها ، فيجيشُ القلب ، وتَدْمَعُ العين ، وتَتَجَدَّدُ النِّعْمَة .

وما أعْظَمَهُ من أجْرٍ في هذه الدنيا لِقَاءَ عَمَلٍ ما أردتُهُ الا خالصاً لوجهه عز وجل، أبتغي بِهِ رِضوانَ اللهِ في الآخرة ، طامعاً في جزيل ثوابه ، وواسعِ رحمته ،

وكـريم عَفْوِهِ وغُفْرانه ! أسْتَقِيلُكَ رَبِّ مِنْ عَثَرَاتِ قلم لا يخلو مِنْ مِثلِها قَوْلُ البشـر ، وأبُوءُ إليك سبحانَك بنعمةِ التوفيقِ فيما وُفِّقْتُ إليه .



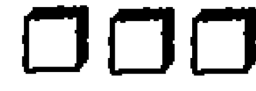
أما فكرَةُ البحث نفسها فقد لاحت لى منذ نحو عشر سنين سَبَقَت الشروع فيه ، عشْتُها فى مدينة جنيف بسويسرا أثناء عملى بالأمم المتحدة هناك . كانت الفكرة تُومضُ وتَخبُو ، تغدو وتروح . وربما سنحت لى أمثلة من "إعجاز القرآن فى أعجمى القرآن" طرحتها على إخوة زُملاء من أهل الفضل والعلم والفكر والأدب ، كانوا لى نِعْمَ الظهيرُ فى كتابةِ هذا البحث . منهم الذى دفعنى إلى الكتابة دفعاً وليس لى بالكتابة سابِقُ عَهْد ، ومنهم الذى يَسْعَى معى على قدميه إلى المكتبات نقلب رفوفها بحثا عن المراجع شديدة التخصص التى يرتكزُ عليها هذا البحث [(١)] بل وتَطَوَّعَ فَأَمَدَّنى بذلك المعجم النفيس فى ألفاظ " توراة الأنبياء والكتبة " (هَمِّلُّون هحَداش لتَناخ) عبرى / عبرى ، المطبوعِ فى إسرائيل ، ليكونَ لى على مقولات هذا الكتاب شاهدٌ من أهلها . وكان منهم أيضا الذى حدثنى عن كتاب أُعيدَ طبعُه لمستشرقٍ يتصدَّى للعَلَم الأعجمى فى القرآن [(٢)] ، ينبهنى إلى أننى قد أكون مسبوقا فيما أنوى أن أكتب ، يخشى أن يكون قد سبقنى إليه هذا المستشرق ، ولكن عِلْمِى بخبيئة أهل الاستشراق حين يتكلمون فى القرآن منعنى من تَصَوُّرِ مستشرقٍ يكتبُ فى إعجاز القرآن غيرَ مؤمن بأنهُ وحى الله على عبده ورسوله محمدٍ صلى الله عليه وسلم . القرآنُ فى آذان هؤلاء وقر ، وعلى أعْيُنهم عَمَى . ولكنى صابَرْتُ النفس على قراءة الكتاب ، وما أن فَرَغْتُ منه حتى أدركت أنه من أنْفَس المراجع المُضَادَّةِ لمقولات هذا البحث ، لأنه يُلخِّصُ أبلغَ تلخيص مقولة الاستشراق فى أعلام القرآن ، لا حاجة بك معه إلى غيره ، إن أردت الاطلاع على غثاثة أولئك المستشرقين وفَسادِ طَوِيَتهم حين يتكلمون فى القرآن . وقد أغْلَظْنا على هذا المستشرق وإخوته فى تضاعيف هذا البحث ، فكان لابد من الإشارة إلى مُؤَلِّفِهِ فى حواشى هذا الكتاب وإدراجِهِ فى قائمة مراجعه .

---

(١) كان من بين أصحاب تلك المكتبات المتخصصة يهودٌ تَوَجَّسُوا منا ، وحاولوا التعمية علينا ، تشككا فى مقاصدنا ، ولكن صاحبى الذى يُجيد العبرية حدثهم بها فأزال هواجسهم .

(٢) J. HOROVITZ, Jewish Proper Names and Derivatives in the Koran, op. cit.

كان صُحْبَةُ جنيف ، الذين أُدينُ لهم بالمودةِ والعرفان ما حييت ، هم أولَ قُرَّاءِ هذا البحث ، فقد حَرَصْتُ على إقرائهم إياهُ تباعا حتى اكتمل . وكان حماسُهم البالغُ لما أكتب ، وتقريظُهم الذى أَعْرِفُ وَزْنَه ، وإلحاحَهم الدؤوبُ عَلَيَّ بالإسراعِ فى نشره فَوْرَ الفراغِ منه ، دافعى إلى الخروج بهذا البحث على جُمْهُورٍ لم يَقْرَأْ بَعْدُ شيئاً لكاتبه .



على أن تلك السنواتِ العشر التى قضيتُها فى جنيف قبل البدء فى كتابة هذا البحث ، لم تَمْضِ عبثا . فقد كان فى ذهنى مشروعُ كتابٍ فى تأصيل مفهوم الحكم بالإسلام فى المجتمع المسلم ، قطعت فيه شَوْطاً يَقْرُبُ من ثلثيه أو نِصْفِه ، ثم أرجأتُ المُضِيَّ فيه ، نُزولا على نصح أولئك الأخوة الزملاء ، إلى أن أفرغ من هذا الكتاب الذى بين يديك .

ولأن موضوع البحثينِ واحد ـ كتابُ الله عز وجل ـ فقد شُغِلْتُ طيلةَ تلك السنوات العشر بشىءٍ واحد لا أَعْدُوهُ إلى غيره إلا لماما ، وهو تدارُسُ القرآنِ فى كتب التفسير ، أُبْدِىءُ فيها وأُعيد ، فأقعُ على الدُرِّ الثمين، وأصطدِمُ أيضا بما هو دونَ ذلك، الذى تَلَقَّاهُ الخَلَفُ عن السلف دون تمحيص .

فأنت تعلم بالطبع أن علمَ التفسير يحتاج ممن يَتَصَدَّى له إلى جُملةِ علوم ، أولُها بإطلاق علومُ اللغة العربية وعلمُ الحديث ، وثانيها التاريخ ، وثالثها العلوم الطبيعيةُ والاجتماعية . ولكنه يحتاج أيضا ممن يتصدى له إلى القدرة على تحقيق النصوص التى يُسْتَشْهَدُ بها من خارجِ القرآن والحديث الصحيح عن الصادقِ المصدوقِ صلى الله عليه وسلم ، فى مصادرها المدوَّنة بلغة الأصل الذى كُتِبَت به ، فلا يَسْمَعُ لرُواةِ أهل الكتاب ـ الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانيَّ كما وَصَفَهُمُ الحق تبارك وتعالى ـ دون تمحيص ، وإنما يُحَقِّقُ ما يُرْوَىَ له فى مصادره الأصلية ، أى فى التوراة والإنجيل . ولم تكن على عصر تفاسير القرآن ثمة ترجمةٌ عربية للتوراة والإنجيل كما تجدُ لهما اليوم ترجماتٍ بكل اللغات . ولم يكن من أهل التفسير من يستطيع قراءة التوراةَ والإنجيل فى نَصِّهما الأصلى ، العبرانى واليونانى ، فَيُمَحِّصَ ما يُلْقيه إليه رواة أهل الكتاب لِيَعْلَمَ أن قد صَدَقَ الرُّواةُ أم كَذَبُوا ودَلَّسُوا ، أو اخترعوا بُغْيَةَ لَهوَ الحديث . ومن هذه تلك الاسرائيلياتُ التى دَسَّها صغارُ رواةِ أهل الكتاب من يهودَ على أهل التفسير

وانخدع بها لفيفٌ منهم ، لا يَخْلُو منها كتابٌ من كُتُبِ التفسير مهما جَلَّ قَدْرُ صاحبه ، فَيَضِلُّ بها القارىءُ العام غير المتخصص ، إلا من عَصَمَ ربُّك . وقد جرَّنى هذا إلى تدارُسِ "الكتاب المقدس" بشطريه ـ التوراة والإنجيل ـ فى ترجماتهما العربية ، ثم إلى مراجعةِ هذه الترجمة حين يُعضِل فهمُ وجهِ الصواب فيها ، على الأصل العبرانى للتوراة، والأصل اليونانى للإنجيل .

كنت ـ دون أن أدرى ـ أُعِدُّ لمادة هذا البحث الذى بين يديك ، و أجمع أدواته . ولكن العبرانية ـ أعنى عبرية التوراة لا العبرية المعاصرة ـ واليونانية الكنسية ـ لغة الأناجيل ـ لا تكفيان وحدَهما فى تأصيل مقولات هذا البحث ، بل لابد من دراسة الآرامية ـ لغة أهل فلسطين على عصر المسيح ـ وأيضا المصرية الهيروغليفية التى لابد منها فى تحليل أسماء بعض أعلام القرآن ، كما رأيت فى موسى وفِرْعَونَ ومِصْرَ وسيناء . وقد أكرمنى الله عز وجل منذ الصِّبا بشىءٍ لا أحْسَبُهُ اليوم إلا إعدادى لكتابةِ هذا البحث بالذات ، وهو شَغَفِى الذى لم أبْرَأْ منهُ بعد بالدراسات اللغوية ، الأمرَ الذى يَسَّرَ لى العِلْمَ بِعدَّةِ لغات ، عِلْمَ الباحث لا علم المتكلم ذَرْبِ اللسان . وكانت هذه نعمة من اللهِ عز وجل ، أتاحت لى الغَوْصَ فى تلك اللغات ـ ومنها بائد ـ التى احتاجت إليها مباحثُ هذا الكتاب .



ولأن مقولةَ هذا الكتاب ـ القائلةَ بأن القرآن يُفَسِّرُ أعلامه الأعجمية فى سياق الآيات بالترادف والتقابل والتعريب والترجمة والمُشاكَلة والسِّياق العام ـ مقولةٌ جديدة غيرُ مسبوقة ، لا أعلم أحداً لمح إليها من قبل ، ناهيك بأن كتب فيها ، فلن تَجِدَ بالطبع مراجعَ لهذا البحث فى كتُبٍ سبقت ، وإنما الأسانيد الأساسية لهذا البحث هى المراجع اللغويةُ فحسب ، أى المعاجم المتخصصة . وقد عنيت فى انتقاء هذه المراجع بما هو مُتاحٌ منها فى الأسواق ، تيسيرا على القارىء والناقد و الخَصْم ، ممن يَوَدُّون التثبت من مقولات هذا الكتاب أو التصدِّىَ لها .

وقد اجتزَأتُ من تفاسيرِ القرآن بأوسَعِها فى هذا العصرِ انتشارا ، وهو أيضا أحكمُها وأشملُها ، أعنى تفسير الإمام القرطبى رحمه الله "الجامع لأحكام القرآن" الذى

تتمنى ألا يخلو منه بيتُ مسلم . وفى هذا التفسير أيضا فضيلة ، هى اهتمامه بالتأصيل اللغوى ، الذى يكمل النقص فى معاجم اللغة العربية الحديثة المنتشرة فى الأسواق ، وأهمها بالطبع " المعجم الوسيط " الصادر عن مجمع اللغة العربية بمصر .

أما كتب الحديث النبوى الشريف ، فإنى أرشِّحُ لك " صحيح مسلم " (بشرح النووى) ، تجتزىءُ به عن غيره من كتب الصِّحاح الستة ، ليس فقط لأنه رائجٌ فى المكتبات ، وإنما أيضا لأنه أَخْصَرُ الصحاح بإطلاق فتأمن الزيادة والتَّزَيُّد . وهو أيضا ـ فيما تضمنه من حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ـ أدقها مَتناً وأضبطُها إسنادا ، إن استشهدتَ منه بحديثٍ فقلت : خَرَّجَهُ مسلم ! فقد كُفيت . على أننا فى هذا الكتاب لم نُرِد الاستكثارَ من الحديث ، بل كان هَمُّنا الاستشهادَ للقرآن بالقرآنِ نفسه ، على ما يجدر ببحث فى "التفسير القرآنى" للعلم الأعجمى فى القرآن .

أما القرآن كتاب الله عز وجل ، فلديك مصحفُكَ والحمد لله . وانى لأعُوذُ بوجهه الكريم أن يُجَنِّبَ هذا البحث هِناتِ الطباعة فى لفظٍ أو حرف من كلامِ الله عز وجل . وقد عُنيتُ فى إيراد الآيات بذكر اسم السورة ورقم الآية ، كى تُراجِعَها معى على مصحفك فلا تتصحف عليك[1] .

ولا تفوتُنى الإشارة إلى "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم" للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى رحمه الله ، الذى يَدُلُّكَ ـ بكلمةٍ واحدة تحفَظُها من الآية ـ على رقم الآية واسم السورة فى كتابِ الله عز وجل ، فلا يستغنى عنه دارسٌ للقرآن فى هذا العصر الذى شح فيه حُفَّاظُ القرآنِ عن ظهر قلب ، جزاه الله عن أهلِ القرآن خيرا .

هناك أيضا ـ على الجانب الآخر ـ التوراةُ والإنجيل ، ولديك فى المكتبات ترجماتُهما العربية المعتمدة من السلطة الدينية المختصة . وتستطيع أيضا ـ إن أردت ـ الرجوع إلى نَصِّهما الأصلى العبرانىِّ واليونانى ، وقد أثْبَتُّ لك فى قائمةِ المراجع اسمَ الناشرِ واسمَ المكتبة .

وقد عُنيت فى كل نص استشهدتُ به من " الكتاب المقدس " بشطريه ـ أعنى التوراة والإنجيل ـ بذكر رقم الإصحاح ورقم " الآية " . والإصحاح من التوراة والإنجيل

(١) تَصَحَّفَ عليك اللفظ يعنى تَحَرَّف ، لخطأٍ فى رسمه أو فى ضبطه بالشكل والنقط .

يعنى فى مصطلح أهل الكتاب ما تعنيه " السورة " عند أهل القرآن ، وهو أيضا من معناها قريب [(١)] ، فهو مصدر من "الصحة" لا بمعنى السلامة من المرض والآفة ، وإنما هو بمعنى الكَمال والبراءةِ من النقص ، فهو المكتملُ غير مزيدٍ فيه أو منقوصٍ منه . أما "الآية" فقد استعاروها من مصطلحات أهل القرآن ، وليست هى أصلا بآية ، وإنما هى السطر أو البيت فى القصيد ونحوه verse أو هى العبارة أو الجملة المتكاملة . ولكنه تشبيهٌ لا بأس به ، يُقَرِّبُ المعنى إليك ، كما يُقَرِّبُهُ إلى أهل الملة القارئين بالعربية لا يعرفون غيرَها .



وقد كان من شأن اختيارنا تفسير الأعلام الأعجمية فى القرآن بترتيبها التاريخى ، لا بترتيبها على حروف الهجاء ، اهتمامُنا برسم الإطار التاريخى لصاحب الاسم العَلَم والتعريف به . وكان هذا ضروريا لتحليل معنى الاسم العَلَم الذى فُسِّرَ به فى القرآن ، فهو يحدد لك اللغة التى صِيغ منها الاسم الأعجمى العَلَم ، كما رأيت فى الاسم "موسى" ، وهو أيضا يحدد لك مناسبة التسمية وانطباقها على المُسَمَّى ، كما رأيت على سبيل المثال فى الاسم "ابراهيم" الذى لا تستطيع بعد قراءة هذا الكتاب إلا أن تُفَسِّرَ معناهُ بما فَسَّرَهُ به القرآن : "إمامُ الناس" لا "أبو جمهور كثيرين" ، كما يَظُنُّ علماءُ العبريةِ وعلماءُ التوراة .

وقد عرجنا أيضا فى سياق البحث على موضوعاتٍ وقضايا ربما يظنُّها القارىءُ المتعجل دخيلةً على مباحث الكتاب ، وهى منه فى الصميم . ومن ذلك على سبيل المثال شرح عقيدة المسيحيين فى المسيح ، فما كان يُمْكِنُ تفادى هذا الشرح إن أردتَ تحليلَ الاسم "عيسى" (يشُوَع العبرانية التى أصلها " يهُوشُوَع ") ولفظة "إنجيل" (التى رددناها إلى "هَجِّلْيُون" العبرانية بمعنى المرآة الجالية المجْلُوَّة) بحيث لا يصح لك بعد قراءة هذا الكتاب إلا أن تفسر الاسم "عيسى" بما فسره به القرآن: المُخَلَّصُ الناجى، لا المُخَلِّص المُنَجِّى كما يظن أصحاب الإنجيل ، وإلا أن تفهم من لفظة "إنجيل" أنه المرآةُ الجالية المجلوة، أى "البينات" كما قالها القرآن ، لا البشارة أو الخبر السار كما يظن عامةُ أهل الكتاب. وقد أَفَضتُ فى هذا شرحاً وتعقيبا ، كما أفضت فى غيره من مباحث

---

(١) السورة اسم فعل بمعنى مفعول من سَارَهُ يَسُورهُ يعنى ضَرَبَ عليه سُورا ، فهى المَسُوَّرَة .

الكتاب، لأنى أحببتُ أن أوفر على من يَتَصَدونَ لانتقاد مقولات هذا الكتاب مؤونة الكرّ والفرّ ، فحرصتُ على أن أسُدَّ عليهم مُقَدَّماً منافذَ القول : بذلتُ فى هذا قُصاراى، وما أدَّعِى الكمال، فالكمال لله وحده، وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

ولئن كان هذا البحث يتناول واحدا وستين اسما علما ـ أعجميا أو مُشْتَبَها فى عجمته ـ فقد تناولنا بالتفسير أيضا أعلاما أخرى غير منصوصٍ عليها فى القرآن ، عَرَضَت لنا فى سياق البحث ، وكان تناولها ضروريا فى الإطار التاريخى لصاحب الاسم العلم ، ومن ذلك الاسم "حواء" أم البشر والاسم "يوكابد" أم موسى ، والاسم "مِريام" أخت موسى وهرون ، وغيرها . كما تناولنا بالتفسير أيضا ألفاظا عربية من مثل "أخت هرون" ، "السامرى" ، "ذى الأوتاد" ، "الحواريين" ، "أدنى الأرض" ، وغيرها كثير ، مما فات معناه على جميع المفسرين ، وهُدِينا إليه بفضل من الله ونعمة .

إلى هذا وذاك ترجع ضخامةُ هذا البحث ، وإليه يُعزى أيضا تفاوتُ حجم فصوله فيما بينها . بل قد شَغَلَت فصولُهُ الثلاثة الأولى التى تُمَهِّدُ لمباحثه نحواً من خُمْسِ حجم الكتاب، ولكنها كما رأيت كانت ضرورية للدخول فى مباحثه ، على الأقل بالنسبة للقارىء العام غير المتخصص فى موضوعه. على أننا حاولنا التخفيف من صرامة هذا التمهيد الجاف بطبيعته ، فبثثنا فيه قسطاً من المرح ، وشيئا من التَّفَكُّه ، وكثيراً من التشويق .



أما انطباقُ منهج هذا البحث على نتائجه ، فهو بفضل الله عز وجل الانطباقُ التام : لا تنتهى من قراءة هذا الكتاب إلا وقد سَلَّمْتَ معى بمقولته الأساسية ، وهى أن القرآن لم يترك علما أعجميا ورد به إلا وقد فَسَّرَ معناه بإحدى أدوات التفسير الستّ المُسْتَخدَمَةِ فى مباحثه . ولا تفرغ منه أيضا إلا وأنت تسبح معى العليم الخبير ، القائل بكلّ اللغات ، ومنها البائد المنقرض .

لم يخرج عن فرضية هذا البحث إلا لفظٌ واحد ، هو " المجوس" التى لم تُفَسَّر فى القرآن بأىٍ من أدوات التفسير الست على منهجنا فى هذا الكتاب ، وقد بَيَّنا لك السبب فى مبحث " المجوس" .

أما الاسم "هامان" ، قرين فرعون موسى ورئيس كهنة آمون فيما نقول نحن ، الذى تراوحنا فيه بين الترجيح واليقين ، أهو فى القرآن على الترجمة لاسم هذا الرجل

أو لقبه بمعنى "عظيم الهامة" ، أو هو تعريبٌ غَيْرُ مُفَسَّر من المصرية القديمة "ها + أمان" (هَوَةُ آمون) يعنى "المُدْلَفُ إلى آمون" ، فَمَرَدُّ تَوَقُّفنا فيه يرجع كما مر بك فى مبحث "هامان" إلى انعدام النظير الذى تقيس عليه مما عُرِفَ من تاريخ "فرعون موسى" وهو ما نرجو أن تُجَلِّيَهُ الأيام .

أما فرائدُ إعجاز القرآن فى تفسير أعلامه الأعجمية على منهج هذا الكتاب ، فهى عديدة : أعظمها بإطلاق عِلْمُ القرآن وقت نزوله بما لم يعلمه مخلوقٌ حتى أواسط القرن التاسع عشر لميلاد المسيح وأوائل هذا القرن ، من مثل موسى وفرعون ومصر وسيناء بلغة آل فرعون . وثانيها فى الترتيب مخالفة القرآن أهلَ الكتاب فى تفسير معانى أعلامهم ، من مثل آدم ونوح وإبراهيم وموسى وداود وعيسى وأيضا "إنجيل" : أَخْطَأَ أصحابُ اللغة وأصابَ القرآن .

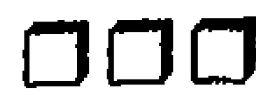


وقد دأب لفيفٌ من علماء القرآن فى هذا العصر على التصدى لكل قائل بوجه من وجوه إعجاز القرآن "العلمى" ، أعنى سبق القرآن إلى هذه "النظرية" أو تلك مما ينكشفُ للعلم الحديث ، يَخْشَوْنَ أن تنهار "النظرية" فينهارَ وجهُ الإعجاز ، فكم انتقل العلمُ بنظرياته فى القرون الثلاثة الأخيرة من النقيض إلى النقيض . وقد بالغ بعضهم فى هذا فَرَدَّ القولَ بأن فى الآية الكريمة : { **وترى الجبال تحسَبُها جامدةً وهى تمُرُّ مَرَّ السحاب صُنع الله الذى أتقن كل شىء إنه خبير بما تفعلون** } (النحل : ٨٨) ما يشهد لدوران الأرض حول محورها قبل أن يقولها جاليليو ويحاكم من أجلها فى أوائل القرن السابع عشر ، وهى الآن قانون لا يَشُكُّ فيه أحد : آثروا الوقوف عند ما قاله قدامى المفسرين فقالوا هذا من مشاهد يوم القيامة ! وأهملوا تعقيبَهُ عز وجل: "صُنع الله الذى أتقن كل شىء" الذى لا يقال فى مشاهد يوم القيامة. هذا التَّحَرُّز، وإن حسنت النيات ، مرذول ، لأنه يَطْمسُ أعظم ما فى القرآن : دليلُ العلْم ودليلُ القدرة ، الشاهدُ له عصراً بعد عصر بأنه الحَقُّ من الحَقّ نزل : { **سَنُرِيهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربِّك أنه على كل شىء شهيد** } (فصلت : ٥٣) . على أن هذا اللفيف من علماء القرآن - حَسِنِى النية - الذين يَضْرِبون على أيدى " العلميين " المعاصرين المسلمين ليزجروهم عن التفسير " العلمى" للآيات " العلمية " فى القرآن بغير ما فسرت به فى

كتب التفسير حتى عصر القرطبى فى القرن السابع الهجرى ، لا يقفون من قُدامى المفسرين هؤلاء نفسَ الموقف ، بل يَغُضُّون الطرف عن اجتهادات أولئك المفسرين القدماء فى فهم تلك الآيات العلمية فى القرآن بحسب التصور "العلمى" الذى تحقق لهم فى عصرهم . ولم يقل أحد ان انهيار قول المفسرين القدماء فى تفسير هذه الآية أو تلك من الآيات العلمية فى القرآن ، قد نال من هيبة القرآن، فلا قداسةَ لقولٍ إلا قولُ الله وقولُ رسوله : سقط التفسيرُ القديم الذى صيغ فى حدود التصور العلمى السائد فى عصر هذا المفسر أو ذاك ، وحل محله تفسيرٌ أصَحُّ منه ، يُطابِق ما ارتقى إليه العلم . لا تثريبَ على هذا أو ذاك .

والذى ينبغى التنبيهُ إليه أن تفاسير القرآن فى كل عصر ، إنما يعكس كُلٌّ منها عُلومَ عصرِه ، أعنى "حالةَ العلم" فى العصر الذى كُتِبَت فيه . ومن عجائب القرآن فى مقولاته "العلمية" تلك الصياغةُ التى اتسعت لكل التفاسير فى كل عصرٍ بمفهوم العصر، يأخذ كُلُ عصر بِحَظِّه من فهمها ، وهى مع ذلك صياغةٌ غاية فى الدقة ، لا يَرْقَى إلى إحكامِها قول بشر ، وليس الإعجاز "العلمى" فى القرآن هو فحسب سَبْقَهُ إلى هذه الحقيقة العلمية أو تلك ، وإنما هو أيضا وبالأخص انطباقٌ مقولة القرآن على كل مقولة يكتشفُها العلم ، أو " يُصحِّحُها " العلم ، لا تستطيعُ البتة مهما تقدم العلمُ وتبدلَّت النظريات أن تُخَطِّيءَ القرآنَ فى مقولةٍ علميةٍ واحدة قال بها ، وإنما تُخَطِّيءُ تفسيرَك " القديم" لهذه المقولة التى فى القرآنَ : ما أن تَنْبذَ مقولة علميةً اكتشف العلم خَطَأها حتى ترجع إلى تفسيرك "القديم" فتكتشف خطأَ هذا التفسير الذى تَعَجَّلْتَ فيه ، وتندهش كيف فاتك هذا اللفظُ أو ذاك ، أَخْطَأْتَ وأصابَ القرآن ، كلامُ اللهِ القديم .

هذا الإعجاز الدائم المستمر ، دليلُ العلمِ الكُلِّي المطلق ، إعجازٌ يعَظ بِه اللهُ الذين آمنوا فى كل عصر إلى قيام الساعة ، فيزيدهم إيمانا . أما الذين يُجادلون فى آيات اللهِ بغيرِ سلطانٍ أتاهم ، فَذَرْهُم فى جَهالتهم ، وما لهؤلاء نكتبُ هذا الكتاب.



أما هذا الوجهُ الجديد من إعجاز القرآن الذى فَتَحَ اللهُ علينا به فى هذا الكتاب، فهو الإعجازُ "المُعْجِزِ"، لأنه إعجازٌ محسوم، مقطوع به، لا يستطيع المعاندُ لَهُ دَحْضًا.

قد يجوز في مقولات القرآن العلمية أن يتصدى لك الجاحد المكابر فيقول لك : ومن أدراك أن مقولة القرآن التي صدقت في الماضي والحاضر ستصدقُ أيضا في المستقبل وبابُ العلمِ مفتوح ، وربما ينكشف للعلميين غداً قولٌ جديد يُناقضُ مقولة القرآن ؟

مثل هذا لا يجوز على مقولات هذا الكتاب الذي بين يديك ، فلفظة "فرعون" على سبيل المثال ("برعا" في المصرية القديمة) التي تعني عند علماء المصريات "البيت الكبير" (أو "الصرح" كما فسرت في القرآن) لا يمكن أن تعني غدا أو بعد غد وإلى قيام الساعة شيئا آخر غير البيت الكبير أو الصرح ، أو أن المصريين القدماء يمكن أن ينقلوا هذا اللفظ عن معناه في لغته ، كما يحدث في غيرها من اللغات ، فقد انقرض المصريون القدماء وبادت لغتهم . قد انتهى الأمر ، وأصبحت مقولة "فرعون = الصرح" حقيقةً علمية لا تقبل التعديل إلى قيام الساعة ، كحقيقةِ دورانِ الأرضِ حولَ محوَرها التيْ عاينها رواد الفضاء مثلما عاينوا الليلَ الذي ينسلخ منه النهار . وقد قالها القرآن "فرعون = الصرح" قبل ثلاثةَ عشر قرنا منْ يومِ كانت اللغة المصرية القديمة ، والتاريخُ المصري القديم ، طلاسمَ مُطَلْسَمة ، لم يأخذ من أهل التوراة أن معناها "المَلك" كما وَهُموا ، بل قد عَلِمَ القرآنُ منذ متى كَنَّى المصريون القدماء عن ملوكهم بلقب "فرعون" ، فخص بها فرعون موسى وحده ، لم يُسَمِّ بها فرعونَ إبراهيم أو فرعونَ يوسف كما قال كتبةُ التوراة ، وإنما قال "المَلك" . ولم يكتف القرآنُ بهذا بل حَدَّدَ لك من هو الفرعون المعنى ، فقال "فِرعَوْنُ ذو الأوتاد" .

هذا هو دليلُ العلمِ الكُلِّيِّ المطلق ، ليس إلى نَقْضِهِ من سبيل .

والحمدُ للهِ ربِّ العالمين .



اللهم اجعل هذا العمل خالصا لوجهك ، نافعا لعبادك ، تَهدي بِهِ من تشاءُ إلى صراطِكَ المستقيم .

الاسكندرية في ٢٧ رمضان سنة ١٤١١ هـ   ١٢ إبريل سنة ١٩٩١ م

قائمـــة مراجـــع

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

أولا : القرآن والحديث

- المصحف الشريف .
- صحيح مسلم (بشرح النووى) ، كتاب الشعب ، القاهرة .
- تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) ، وقد صدر فى طبعات متعددة تزخر بها المكتبات ، فاختر أيها شئت .
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقى ، مطابع الشعب ، القاهرة .

ثانيا : التوراة والإنجيل (الكتاب المقدس بشطريه : العهد القديم والعهد الجديد)

- الكتاب المقدس ، ترجمة الفاتيكان العربية ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، فبراير ١٩٥١ .
- الكتاب المقدس ، ترجمة الكنيسة الأرثوذكسية المصرية ، دار الكتاب المقدس بمصر ، طبعة العيد المئوى (١٨٨٣ ـ ١٩٨٣) .
- تُورا نَبيئيم وكتُوبيم (توراة الأنبياء والكتبة) ، الأصل العبرانى مصحوبا بترجمة انجليزية :

The Holy Scriptures of the OLD TESTAMENT, Hebrew and English, London, The British and Foreign Bible Society

- هابريت هحَداشا (العهد الجديد) ، ترجمة عبرانية عن الأصل اليونانى للأناجيل ، تطلبه من :

Trinitarian Bible Society, 217 Kingston Road, London SW 19 3 NN, England.

- العهد الجديد فى أصله اليونانى مصحوبا بترجمة انجليزية بينية حرفية :

The RSV Interlinear Greek - English NEW TESTAMENT by Alfred Marshall, Regency Reference Library, Zondervan Publishing House, Grand Rapids, Michigan, USA.

ثالثا : معاجم عامة ومتخصصة

- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بمصر . ،

- المنجد فى اللغة والأعلام ، دار المشرق ، بيروت .

- معجم ويستر (الكبير) فى اللغة الانجليزية :

Webster's New 20 th Century Dictionary of the English Langusge (Unabridged), second edition, 1978.

- معجم لاروس الثنائى فرنسى / عبرى - عبرى / فرنسى :

Nouveau Dictionnaire Hebreu - Francais/Francais - Hebreu (LAROUSSE), Librairie LAROUSSE, Paris, imprimé en Israel, 1986, par Achiasaf Publishing House, Tel - Aviv.

- هَمِّلُون هِحَداش لِتَناخ (المعجم الحديث لألفاظ توراة الأنبياء والكتبة) ، عبرى/عبرى، دكتور صِفْى راداى وبروفيسور حَاييم رابين ، القدس ، ١٩٨٩ ، تطلبه من :

Yehoshua Orenstein, "Yavneh" Publishing House Ltd., and Keter Publishing House Jerusalem Ltd., P. O. B. 7145, Jerusalem. (May be ordered under its English name "The New Bible Dictionary", Dr. Zvi Raday & Prof. Chaim Rabin).

- المعجم التحليلى العبرى الآرامى (لألفاظ التوراة) (مفسرة بالانجليزية) :

The Analytical Hebrew and Chaldee Lexicon, Benjamin Davidson, Regency Reference Library, Zondervan Publishing House, Grand Rapids, Michigan, USA.

رابعا : مراجع لغوية

- فى اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفة) :

A. Gardiner, Egyptian Grammar, Oxford University Press, London, 3rd edition, revised, 1966.

- في اللغة الآرامية :

1- Franz Rosenthal, Grammaire d'Araméen Biblique, Beauchesne, Paris, 1988.

2- Wm. B. Stevenson, D. Litt, Grammar of Palestinian Jewish Aramaic, 2nd edition, 1987, Clarendon Press, Oxford.

- في عبرية التوراة :

R. K. Harrison, Biblical Hebrew, Teach Yourself Books, 1986, Richard Clay, The Chaucer Press Ltd., Bungay, Suffolk, Great Britain.

- في يونانية الأناجيل :

Alfred Marshall, New Testament Greek Primer, Academie Books Zondervan Publishing House, Grand Rapids, Michigan, USA.

- في اليونانية المعاصرة :

S. A. Sofroniou, Modern Greek, Teach Yourself Books, Random House Inc., 201 East 50 th Street, New York, NY 10022.

خامسا : مراجع متفرقة

- تاريخ اللغات السامية ، أ. ولفنسون ، دار القلم ، بيروت .
- مصر الفرعونية ، أحمد فخرى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٩ .
- معالم التاريخ الحضارى والسياسى فى مصر الفرعونية ، دكتورة نبيلة محمد عبد الحليم ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٨٨ .
- العبرى من الأعلام والمشتقات فى القرآن (بالانجليزية) :

J. Horovitz, Jewish Proper Names and Derivatives in the Koran, Georg Olms Verlagsbuchhandlung, Hildesheim, Germany.

إلى غير ذلك مما أشرنا إليه فى حواشى الكتاب ولم نذكره هنا .

تصويب أخطاء الجزء الأول

وقعت فى طباعة الجزء الأول من هذا الكتاب بعض الأخطاء ، منها هنات لا تغيب عن فطنة القارىء المتثبت ، ومنها كتابة بعض العبارات الانجليزية من اليمين إلى اليسار لا العكس . مما لايفوت العارفين بتلك اللغة ، ومنها أيضا مايتعين تصويبه والتنبيه عليه فيما يلى :

الموضع	الخطـــأ	الصـــواب
اسم المؤلف	رءوف	رؤوف
عنوان الكتاب	من إعجاز القرآن	من إعجاز القرآن فى أعجمى القرآن
ص ٢٩ س ١٢	عن طريق رسله بكلام	على رسله بكلام
ص ٣١ س ٢١و ٢٢و٢٣	الموجود بذاته	الموجود من ذاته
ص ٣٢ س ٣و٦	الموجود بذاته	الموجود من ذاته
ص ٣٢ س ١٣	مبدىء هذا الوجود	مبدأ هذا الوجود
ص ٣٢ س ١٩	وفى هذا الكون	فى هذا الكون
ص ٢٣ س ١٩	ألا يبتر له ساق قاحت	ألا يَبْتُر ساقا قاحت
ص ٣٥ س ٢٠	أنه الحق ، ومن الحق نزل	أنه الحق ، من الحق نزل
ص ٣٧ س ٢١ و ٢٢	عدم إثبات الفاصلة ❑❑❑ بين هذين السطرين	إثبات الفاصلة ❑❑❑ بين السطرين
ص ٣٨ س ٣	يلزم نفسه مالا يلزمه	يُلزم نفسه ما لا يَلْزَمه
ص ٤١ س ١٥	وليس كل ما قال	ليس كل ما قال
ص ٤٥ س ٨	أى ثعبان حق ،	أى ثعبان حق الثعبان ،
ص ٤٥ س ١١	لعداوته	بعداوته
ص ٥٥ س ١٤	الاسكندر .	الاسكندر وهم فيما يُظَنُّ معظمْ جيشه
ص ٥٧ س ١٥	بعد مهبطهما	مهبطهُما
ص ٥٨ س ٢	بعد مهبطه	مهبطَهُ

الموضع	الخطــــأ	الصــــواب
ص ٦٨ س ٢٧ و ٢٨	يأخذوا .. فيزدادوا .. ويمعنوا ..	يأخذون .. فيزدادون .. ويمعنون ..
ص ٧٥ حاشية ١	أو هو رقاق القصب	أو هو دقاق القصب
ص ٨٧ س ٨	«باريس» عاصمة فرنسا ،	«باريس» ،
ص ٨٨ س ٢١	شخصا عزيزا أو بطلا ، وربما أراد شخص نبى أو أراد ملكا	شخص عزيز أو بطل ، وربما شخصٌ نبيٌ أو ملَك .
ص ١٠٢ س ٢	شهرة يعقوب	كنية يعقوب
ص ١٠٥ س ٣ و ٤	«يكرز ببشارة ملكوت»	«يكرز ببشارة ملكوت الله»
ص ١٠٥ س ١٦ و ١٧	angelion	aggelion
ص ١٠٥ س ١٨	angelos	aggelos
ص ١١٣ س ٤	(وشهرته اسرائيل)	(وكنيته اسرائيل)
ص ١١٣ س ٨	شهرة يعقوب	كنية يعقوب
ص ١٢٤ حاشية ١	Horovitz joseph	Joseph Horovitz
ص ١٣٠ س ١١ و ١٢	O Abba Pater	Abba o pater
ص ١٣١ حاشية ١	Aleph Prosthetic	Prosthetic Aleph
ص ١٣٧ س ١٦	شُهروا بها	تَكَنّوا بها
ص ١٣٧ س ٢٢	شهرة شهر بها	كُنية تكنى بها
ص ١٣٧ س ٢٤	ولكنها ألقاب وأسماء شهرة	ولكنها ألقاب وكُنَى
ص ١٣٨ س ١	على أن الشهرة كالاسم تماما	على أن الكُنية كالاسم تماما
ص ١٧٤ س ١٠	فسح لك الله	أفسح لك الله
ص ١٧٧ س ١	God of Man	Man of God
ص ١٧٧ س ٢	God of soldier	Soldier of God
ص ١٧٧ س ٤ و ٥	The God of one mighty	The mighty one of God

الموضع	الخطـــأ	الصـــــواب
ص ١٩٠ حاشية ١	مثل «حلق» العبرى بمعنى حلق وخلق على السواء ، يتمايزان بالسياق	cutting up roots ، فى عبارة Joseph Horovitz المرجع المذكور
ص ٢٢١ س ١٩	هذا الكتاب	هذا الكاتب
ص ٢٣٣ س ١٤	فهوى النائخ	فهو النائخ
ص ٢٥٣ س ١١	لمعنى شهرتى حمى موسى	لمعنى كُنيتى حمى موسى
ص ٢٥٣ س ٢١	فى مهاجره بشهرته	فى مهاجره بكنيته
ص ٢٥٥ حاشية ٣	يتبادلان أحيانا	تُبادلان أحيانا
ص ٢٥٨ س ٢	(شهرة يعقوب)	(كُنية يعقوب)
ص ٢٥٨ س ١٢ و ١٣	شهرة ليعقوب من الله	كُنية ليعقوب كَنّاهُ بها الله
ص ٢٦٠ س ٩	شهرة شهر بها	كُنية تَكَنّى بها
ص ٢٦٩ س ١٠	«أبو جمهور كثير»	«أبو جمهور كثيرين»
ص ٢٧٦ س ٨	تبدل اسم ابراهيم من «أبرام» إلى «أبراهام»	تبدل ابراهيم من «أبرام» «أبراهام»
ص ٢٩١ س ١٨ و ١٩	فى المعجم العبرى صنوان. وفى اللغة العربية تتعاقب السين والضاد مثل «السراط» و «الصراط» وقـد قرىء بهما .	فى المعجم العبرى صنوان .

الفهـــرس

مقدمة الجزء الثانى ٣

الفصل السابع : موسى وهرون ٩

موسى ١١

هرون ٢٢

فرعون ٣٣

هامان ٥٠

قارون ٦٥

مصر ٧٤

سيناء ٨٣

التوراة ٩٤

يأجوج ومأجوج ١٠٨

اليهود ١١٨

الفصل الثامن : داود ذو الأيد : أنبياء وملوك ١٣١

طالوت ١٣٤

جالوت ١٣٩

داود ١٤٦

الزبور ١٥٢

سليمان ١٥٩

إلياس ١٦٧

اليسع ١٧٠

ذو الكفل ١٧٥

يونس ١٨٥

أيوب ١٩٧

عزير ٢٠٣

لقمان ٢١٤

الفصل التاسع : المصدق والبشير ٢٢٣

زكريا ٢٢٧

يحيى ٢٣٣

عمران ٢٣٩

مريم ٢٥١

عيسى ٢٦٣

الإنجيل ٢٩٨

النصارى ٣٢٤

الصابئون ٣٣١

المجوس ٣٤٦

الروم ٣٦٧

فى ختام البحث ٣٨٩

قائمة مراجع ٤٠١

فهرس الجزء الأول

الموضـــــــوع

تقـــديم ......بقلم د. محمود الطناحى ٣
- تصدير ٢٣
- مقدمة ٢٩
الفصل الأول : أعجمى وعربى ٤٣
الفصل الثانى : الأعجمى المعنوى والأعجمى العَلَم ٨١
الفصل الثالث : العَلَم الأعجمى فى القرآن ١١١
الفصل الرابع : آدم فى الملأ الأعلى ١٥٧
جبريل ١٧٦
ميكال ١٨١
مالك ١٨٥
هاروت وماروت وبابل ١٨٧
الفِردوس وعَدْن ١٩٨
جهنم ٢٠٧
إبليس ٢١٠
آدم ٢١٧
إدريس ٢٢٤
الفصل الخامس : آدم الثانى : من نوح إلى إبراهيم ٢٢٧
نوح ٢٣٢
الجودى ٢٣٤
هود وعاد وإرم ٢٣٧
صالح وثمود ٢٤٢
شعيب ومدين ٢٤٧

الفصل السادس : أبو العلاء إمام الناس ٢٥٧
آزر ٢٦٠
إبراهيم ٢٦٩
لوط ٢٨١
اسماعيل ٢٨٤
إسحاق ٢٩٠
يعقوب ٢٩٢
إسرائيل ٣٠٠
يوسف ٣٠٨

فهرس الجزء الثانى

مقدمة الجزء الثانى ٣

الفصل السابع : موسى وهرون ٩

موسى ١١
هرون ٢٢
فرعون ٣٣
هامان ٥٠
قارون ٦٥
مصر ٧٤
سيناء ٨٣
التوراة ٩٤
يأجوج ومأجوج ١٠٨
اليهود ١١٨

الفصل الثامن : داود ذو الأيد : أنبياء وملوك ١٣١

طالوت ١٣٤
جالوت ١٣٩
داود ١٤٦
الزبور ١٥٢
سليمان ١٥٩
إلياس ١٦٧
اليسع ١٧٠
ذو الكفل ١٧٥
يونس ١٨٥
أيوب ١٩٧
عزير ٢٠٣

لقمان ٢١٤

الفصل التاسع : المصدق والبشير ٢٢٣

زكريا ٢٢٧

يحيى ٢٣٣

عمران ٢٣٩

مريم ٢٥١

عيسى ٢٦٣

الإنجيل ٢٩٨

النصارى ٣٢٤

الصابئون ٣٣١

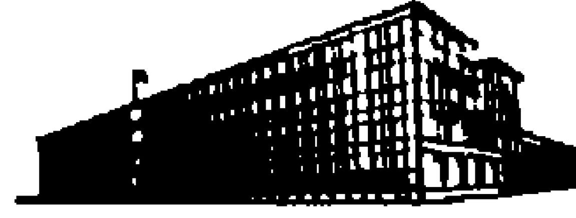
المجوس ٣٤٦

الروم ٣٦٧

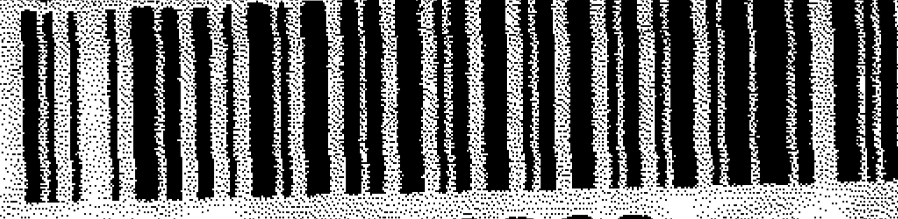
فى ختام البحث ٣٨٩

قائمة مراجع ٤٠١

رقم الإيداع : ٤٥١٠ / ١٩٩٤
I.S.B.N.
977-07-0333-8



طبعت بمؤسسة دار الهلال



يسعد

المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوز

مكتبة المسلم العصرية

أن تقدم للعالم الإسلامي

إسلاميات

أضخم وأحدث مكتبة إسلامية .. أكثر من

١٠٠ كتاب

في العقيدة والفقه والحديث والثقافة الإسلامية ومشكلات العصر

بأقلام الأساتذة والعلماء : الدكتور فؤاد على مخيمر . د. محمد رجب البيومي ، د. السيد عبد الحكيم عبد الله . د. محمد طلعت ابو صير . د. محمد ربيع الجوهري . د. محمد عبد المنعم خفاجي . د. السيد رزق الطويل . د. إبراهيم ابو الخشب . د. محمد احمد سحلول ، د. محمد سيد أحمد المسير . د. إبراهيم عرضين . د. الحسيني ابو فرحة . د. محمود بن الشريف ، د. عبد العزيز عزام . الشيخ معوض عوض إبراهيم . وغيرهم .. وغيرهم ..

مكتبة إسلامية متكاملة لا غنى عنها لكل مسلم

إسلاميات

القرآن يتحدث عن محمد

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع والادارة ٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية الصناعية بالعباسية - ت. ٢٨٣٥٥٥٤-٢٨٢٣٧٩٢

مواقع التوزيع : ١٠ و ١٦ شارع كامل صدقي بالفجالة بالقاهرة - ت : ٩٠٨٤٥٥-٩٣٢٤٠٣ - ٤ شارع الاسحاقي بمنشية البكري - روكسي - مصر الجديدة - ت : ٢٥٨٦١٩٧ فاكس 2596650 202 ح.م.ع